

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_236003

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

04517

Accession No.

A16-5

Author

Title

This book should be returned on or before the date last marked below.

نفس القرآن العظيم

لإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير البصري
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثالث

[قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية]
وصححها نخبة من العلماء

طبع بدار إحياء الكتب العربية
ميسى الباني أسكنه الفردوس

Maktabae Siddiqia Arabia

20-7-516, TALFEME MALLAD
Inside Fatha Darwaza,
HYDERABAD-2, A. P. (INDIA)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تفسير سورة سبحان وهي مكية)

قال الإمام الحافظ الملقب أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري : حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال سمعت عبد الرحمن بن يزيد سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن مروان بن أبي لبابة سمعت عائشة تقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمير .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لَنُرِيَهُ مِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

سجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقد رتبه على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، (الذي أسرى عبده) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم (ليلاً) أي في حنج الليل (من المسجد الحرام) وهو مسجد مكة (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذي يلبى معeden الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في علمهم ودارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى (الذي باركنا حوله) أي في الزروع والثمار (لنريه) أي محمداً (من آياتنا) أي العظام كما قال تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وسندكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى (إنه هو السميع البصير) أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة

(ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء : رواية أنس بن مالك رضي الله عنه)

قال الإمام أبو عبد الله البخاري : حدثني عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيها يرى قلبه وتنام عينه ولا ينم قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من مسدده وجوفه ففسله من ماء زمزم بيده حتى أتق جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولعاديده - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناده أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال معي محمد قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم قالوا فمرحباً به وأهلاً ، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم ، فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه وردَّ عليه آدم فقال مرحباً

وأهلاً بابي نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بهرين يطردان فقال « ماهذان النهران يا جبريل ؟ » قال هذان النيل والفرات عنصرهما ، ثم مضى به في السماء ، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك ، ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا ؟ قال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال محمد صلى الله عليه وسلم قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم قالوا مرحباً به وأهلاً ، ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية وهارون في الرابعة وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة بتفصيل كلام الله تعالى فقال موسى رب لم أظن أن ترفع علي أحداً ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل حتى جاء سدرة المنتهى ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » قال إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعندهم فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه « يارب خفف عنا فان أمتي لا تستطيع هذا » فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل فرفعه عند الخامسة فقال « يارب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا » فقال الجبار تبارك وتعالى : يا محمد قال « لبيك وسعديك » قال إنه لا يبدل القول لدى كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك ، فارجع إلى موسى فقال كيف فعلت ؟ فقال « خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها » قال موسى قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا موسى قد والله استحييت من ربي عز وجل مما أختلف إليه » قال فاهبط باسم الله . قال واستيتظ وهو في المسجد الحرام ، هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه أبي بكر عبد الحميد عن سليمان بن بلال . ورواه مسلم عن هرون بن سعيد عن ابن وهب عن سليمان قال فزاد ونقص وقدم وأخروا وهو كما قال مسلم فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمرات ضرب في هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه كما سيأتي بيانه إن شاء الله في الأحاديث الأخر ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك والله أعلم . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله عز وجل يعني قوله ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . قال وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصبح وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق فإن أبا ذر قال يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نورا » أخرجه مسلم وقوله (ثم دنا فتدلى) إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابن مسعود وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته

فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بأدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بابن الحائلة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك قال ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم يقول الله تعالى (ورفعه) مكنا عليا) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه ! قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك ! قال محمد فقيل وقد بعث إليه ! قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك ! قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسناتها قال فأوحى الله إلي ما أوحى : وقد فرض على في كل يوم وليلة خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك ! قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربي فقلت أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمسا فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فلكل خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت » ورواه مسلم عن شيبان بن فروخ عن حماد بن سلمة بهذا السياق وهو أصح من سياق شريك . قال . البيهقي وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالبراق ليلة أسرى به مسرجا ملجأ لركبه فاستصعب عليه فقال له جبريل ما يحملك على هذا فوالله ما ركبك قط أكرم على الله منه . قال فافرض عرقا ورواه الترمذي عن إسحق بن منصور عن عبد الرزاق وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه . وقال أحمد أيضا حدثنا أبو النعمان حدثنا صفوان حدثني راشد بن سعيد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما عرج بي إلى ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدرهم يفصلهم من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » وأخرجه أبو داود من حديث صفوان بن عمرو به ومن وجه آخر ليس فيه أنس فالله أعلم ، وقال أيضا حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سليمان التيمي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بي على موسى عليه السلام قائما يصلي في قبره » ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن سليمان بن طرخان

التي هي وثابت البناني كلاهما عن أنس قال النسائي هذا أصح من رواية من قال سليمان عن ثابت عن أنس ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد عن التيمي عن أنس قال أخبرني بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به مر على موسى وهو يصلي في قبره ، وقال أبو يعلى حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعة حدثنا معتمر عن أبيه قال سمعت أنسا أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به مر بموسى وهو يصلي في قبره قال أنس ذكر أنه حمل على البراق فأوثق الدابة أو قال الفرس . قال أبو بكر صفها لي فقال رسول الله ﷺ « هي كذو » فقال أنه قد شهد أنك رسول الله وكان أبو بكر رضى الله عنه قد رآها ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد ابن عمرو البزار في مسنده حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن منصور حدثنا الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكر بين كنفى فقامت إلى شجرة فيها كوكري الطير فقامت في أحدها وقعدت في الآخر فسمعت وارتفعت حتى سدت الحافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمست فالتفت إلى جبريل كأنه جلس لاط فعرفت فضل علمه بالله على وفتح لي باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى » ثم قال ولا نعلم روى هذا الحديث إلا أنس ولا نعلم رواه عن أبي عمران الجوني إلا الحارث ابن عبيد وكان رجلا مشهوراً من أهل البصرة . ورواه الحافظ البيهقي في الدلائل عن أبي بكر القاضي عن أبي جعفر محمد بن علي بن دحيم عن محمد بن الحسين بن أبي الحسين عن سعيد بن منصور فذكره بسنده مثله ثم قال وقال غيره في هذا الحديث في آخره ولط دوني أو قال دون الحجاب رفرف الدر والياقوت ثم قال هكذا رواه الحارث ابن عبيد ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في ملا من أصحابه فجاء جبريل فنكت في ظهره فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وكري الطير فقامت في أحدها وقعدت في الآخر فنشأت بناحتي بلغت الأفق فلو بسطت يدي إلى السماء لملتها فدل بسبب وهبط إلى النور فوق جبريل فغشيا عليه كأنه جلس فعرفت فضل خشيته على خشيتي فأوحى إلى نبي ملكا أو نبيا عبدا وإلى الجنة ما أنت فأومأ إلى جبريل وهو مضطجع أن تواضع قال قلت لا بل نبياً عبداً قلت وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس ولا الصعود إلى السماء فهي كائنة غير ما نحن فيه والله أعلم . وقال البزار أيضاً حدثنا عمرو بن عيسى حدثنا أبو بحر حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه عز وجل . وهذا غريب . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص عن أنس بن مالك قال : لما جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل مه يابراق فوالله ما ركبك مثله وسار رسول الله تعالى عليه وسلم فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال « ما هذه يا جبريل ؟ » قال سر يا محمد ، قال فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعو متنجها عن الطريق فقال هلم يا محمد فقال له جبريل سر يا محمد فسار ما شاء الله أن يسير ، قال فلقيه خاق من خلق الله فقالوا السلام عليك يا أول ، السلام عليك يا آخر ، السلام عليك يا حاشر ، فقال له جبريل اردد السلام يا محمد فرد السلام ، ثم لقبة الثانية فقال له مثل مقالته الأولى ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس فعرض عليه الحجر والماء واللبن فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم اللبن فقال له جبريل أصبت الفطرة ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الحجر لغويت ولغوت أمتك ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الليلة . ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز . وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه ، وأما الذين سلوا عليك إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث ابن وهب . وفي بعض ألفاظه نكارة وغرابة (طريق أخرى) عن أنس بن مالك وفيها غرابة ونكارة جداً وهي في سنن النسائي

الجبتي ولم أرها في الكبير قال : حدثنا عمرو بن هشام حدثنا محمد هو ابن الحسين عن سعيد بن عبد العزيز حدثنا يزيد بن أبي مالك حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند منتهى طرفها فركبت ومعى جبريل عليه السلام فسرت فقال انزل فصل فصليت ، فقال أتدرى أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجرة ، ثم قال انزل فصل فصليت فقال أتدرى أين صليت ؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ؛ ثم قال انزل فصل فصليت ، فقال أتدرى أين صليت ، صليت بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام ، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء عليهم السلام فقدمني جبريل عليه السلام حتى أمتهم ثم صعد بي إلى السماء الدنيا فإذا فيها آدم عليه السلام ، ثم صعد بي إلى السماء الثانية فإذا فيها ابننا الحائلة عيسى ويحيى عليهما السلام ، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فإذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها هارون عليه السلام ، ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فإذا فيها إدريس عليه السلام . ثم صعد بي إلى السماء السادسة فإذا فيها موسى عليه السلام ، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فإذا فيها إبراهيم عليه السلام ، ثم صعد بي فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً قليل لي إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك فرجعت بذلك حتى أمر بموسى عليه السلام فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة ، قال فأنك لا تستطيع أن تقوم بها لا أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف فرجعت إلى ربي فخفف عني عشراً ، ثم أتيت موسى فأمرني بالرجوع فرجعت فخفف عني عشراً ثم ردت إلى خمس صلوات ، قال فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف فانه فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما فرجعت إلى ربي عز وجل فأسأله التخفيف فقال إني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمس صلوات فخمسين فخمسين فقم بها أنت وأمتك ، قال فعرفت أنها من الله عز وجل صرئ فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال ارجع فعرفت أنها من الله عز وجل صرئ — يقول أي حتم — فلم أرجع » (طريق أخرى) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام ابن عمار حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل حمله جبريل عليها ينتهي خلفها حيث ينتهي طرفها ، فلما بلغ بيت المقدس وباع المكان الذي يقال له باب محمد صلى الله عليه وسلم أتى إلى الحجر الذي ثمة فعمزه جبريل بأصبغه فنقبه ثم ربطها ثم صعد فلما استويا في صرحة المسجد قال جبريل يا محمد هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال « نعم » فقال فانطلق إلى أولئك النسوة فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، قال « فأتيتهن فسلمت عليهن فرددن على السلام فقلت من أنتن فقلن نحن خيرات حسان نساء قوم أبرار تقوا فلم يدرنوا . وأقاموا فلم يظعنوا ، وخلدوا فلم يموتوا ، قال ثم انصرفت فلم ألث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة قال فقمنا صفوفا ننتظر من يؤمنا فأخذ بيدي جبريل عليه السلام فقدمني فصليت بهم ، فلما انصرفت قال جبريل يا محمد أتدرى من صلى خلفك - قال - قلت لا - قال - صلى خلفك كل نبي بعثه الله عز وجل - قال - ثم أخذ بيدي جبريل فصعد بي إلى السماء فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا من أنت ؟ قال أنا جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم - قال - ففتحو له وقالوا مرحباً بك وبمن معك - قال - فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم فقال لي جبريل يا محمد ألا تسلم على أهلك آدم - قال - قلت بلى فأتيت به فسلمت عليه فرد علي وقال مرحباً بابني الصالح والنبي الصالح - قال - ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه قال نعم ففتحو له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام ، قال - ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فاستفتح ، قالوا من أنت ؟ قال جبريل ؛ قالوا ومن معك ؟ قال محمد قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ففتحو له وقالوا مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها يوسف عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء الرابعة فاستفتح قالوا من أنت ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد بعث إليه قال نعم - قال - ففتحو له وقالوا له مرحباً بك

وبين معك فإذا فيها إدريس عليه السلام - قال - فخرج بي إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم - قال - ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبين معك وإذا فيها هرون عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت ، قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم - قال - ففتحوا وقالوا مرحباً بك وبين معك ، وإذا فيها موسى عليه السلام ، ثم عرج بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقالوا من أنت قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد ، قالوا وقد بعث إليه ؟ قال نعم ففتحوا له وقالوا مرحباً بك وبين معك وإذا فيها إبراهيم عليه السلام فقال جبريل يا محمد ألا تسلم على أبيك إبراهيم ؟ قلت بلى فأتيته فسلمت عليه فرد علي السلام وقال مرحباً بابني الصالح والنبي الصالح ، ثم انطلق بي على ظهر السماء السابعة حتى انتهى بي إلى نهر عليه خيام الأولو والياقوت والزبرجد وعليه طير خضر أنعم طير رأيت فقلت يا جبريل إن هذا الطير لنا عم قال يا محمد آكله أنعم منه ، ثم قال يا محمد أتدرى أي نهر هذا - قال - قلت لا ، قال هذا الكوثر الذي أعطاك الله إياه فإذا فيه آنية الذهب والفضة يجري على رضراض من الياقوت والزمرد مأواه أشد بياضاً من اللبن - قال - فأخذت من آنيته آنية من الذهب فاعترفت من ذلك الماء فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد راحة من المسك ثم انطلق بي حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتني سحابة فيها من كل لون فرفضني جبريل وخررت ساجداً لله عز وجل فقال الله لي : يا محمد اني يوم خلقت السموات والأرض افترضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك - قال - ثم انجلت عني السحابة فأخذ يدي جبريل فانصرفت سريعاً فأتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً ، فأتيت على موسى فقال ما صنعت يا محمد ؟ فقلت فرض ربى علي وعلى أمتي خمسين صلاة . قال فلن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة فغشيتني السحابة ورفضني جبريل وخررت ساجداً وقلت رب إنك فرضت علي وعلى أمتي خمسين صلاة ولن أستطيعها أنا ولا أمتي فخفف عنا قال قد وضعت عنكم عشرة - قال - ثم انجلت عني السحابة وأخذ يدي جبريل - قال - فانصرفت سريعاً حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لي شيئاً ثم أتيت على موسى فقال لي ما صنعت يا محمد ؟ فقلت وضع عني ربى عشرة قال فأربعون صلاة لن تستطيعها أنت ولا أمتك فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم . فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات وخمس بخمسين ثم أمره موسى أن يرجع فيسأله التخفيف فقلت إني قد استحييت منه تعالى » قال ثم انحدر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل « مالي لم آت أهل سماء إلا رحبوا بي وضحكوا لي غير رجل واحد فسلمت عليه فرد علي السلام ورحب بي ولم يضحك لي » قال يا محمد ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق ولو ضحكك إلى أحد لضحكك إليك ، قال ثم ركب منصرفاً فينا هو في بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاماً منها حمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك في صاحبك ؟ يخبر أنه أتى في ليلته هذه مسيرة شهر ورجع في ليلته فقال أبو بكر رضي الله عنه إن كان قاله فقد صدق وإنا لنصدق فيه ما هو أبعد من هذا لنصدق على خبر السماء فقال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما علامته ما تقول قال « مررت بعير لقريش وهي في مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر » فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق وسألوه وقالوا هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال « نعم » قالوا فصفهم لنا قال « نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزد عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان » هذا سياق فيه غرائب عجيبة ﴿ رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام قال سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك أن مالك بن صعصعة حدثه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال « بينا أنا في الحطيم - وربما قال قتادة في الحجر - مضطجعا إذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة - قال - فأتاني فقد - سمعت قتادة يقول فشق - ما بين هذه

إلى هذه » وقال قتادة فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني قال من ثغرة نحره إلى شعرته وقد سمعته يقول من قصته إلى شعرته قال « فاستخرج قلبي - قال - فأثيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشى ثم أعيد ثم أثيت بدابة دون البعل وفوق الحمار أبيض » قال فقال الجارود هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه قال « فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام قال هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح فقبل من هذا فقال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهما ابنا الحائلة قال هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما - قال - فسلمت فردا السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح فقبل من هذا ؟ قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام قال هذا يوسف - قال - فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح ، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقبل من هذا ؟ قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا هرون عليه السلام قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح - قال - ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا هرون عليه السلام قال هذا هرون فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح - قال - ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد أرسل إليه ؟ قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا أنانيموسى عليه السلام قال هذا موسى عليه السلام فسلم عليه فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح - قال - فلما تجاوزته بكى قيل له ما يبكيك قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي . قال ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قبل ومن معك ؟ قال محمد قبل أو قد بعث إليه قال نعم فقبل مرحباً به ولنعم المحيى جاء - قال - ففتح لنا فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام فقال هذا إبراهيم فسلم عليه قال فسلمت عليه فرد السلام ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح - قال - ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا بقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة فقال هذه سدرة المنتهى قال وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران فقلت يا جبريل ؟ قال أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات - قال - ثم رفع إلى البيت المعمور » قال قتادة وحدثنا الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه ثم رجع إلى حديث أنس قال « ثم أثيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل - قال - فأخذت اللبن قال هذه الفطرة أنت عليها وأمتك - قال - ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة كل يوم - قال - فنزلت حتى أثيت موسى فقال ما فرض ربك على أمتك ؟ قال فقلت خمسين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجني بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - فرجعت فوضع عني عشر - قال - فرجعت إلى موسى فقال بهم أمرت ؟ قلت بأربعين صلاة كل يوم قال إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجني بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك - قال - فرجعت فوضع عني عشر - قال - فرجعت إلى موسى فقال بهم أمرت ؟ قلت بعشرين صلاة كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع

لعشرين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فرجعت فوضع عني عشرًا آخر فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ فقلت أمرت بعشر صلوات كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال بم أمرت فقلت أمرت بخمس صلوات كل يوم فقال إن أمتك لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال قلت قد سألت ربي حتى استحييت ولكن أَرْضِي وَأَسْلَمْ فنفذت فنادى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي « وأخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة بنحوه . » (رواية أنس عن أبي ذر) قال البخاري حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن أنس ابن مالك قال كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال « فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرجني إلى السماء الدنيا فلما جئت إلى السماء قال جبريل لحازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل قال هل معك أحد قال نعم معي محمد صلى الله عليه وسلم فقال أرسل إليه ؟ قال نعم فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت لجبريل من هذا قال وهذا آدم هذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه فأهل اليمن منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى ثم عرج بي إلى السماء الثانية فقال لحازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح » قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة قال أنس فلما مر جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم بإدريس قال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال إدريس ثم مر بموسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال هذا موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا ؟ قال هذا عيسى ثم مررت بإبراهيم فقال مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال هذا إبراهيم قال الزهري فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام » قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله ﷺ « افترض الله على أمتي خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام فقال ما فرض الله على أمتك قلت فرض خمسين صلاة قال موسى فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إلى موسى قلت وضع شطرها فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فراجعته فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدى فرجعت إلى موسى فقال ارجع إلى ربك قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدة المنتهى فغشيها ألوان لا أدرى ماهي ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبايل للؤلؤ وإذا ترابها المسك » وهذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة ورواه في ذكر بني إسرائيل وفي الحج وفي أحاديث الأنبياء من طرق أخرى عن يونس به ، ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن حرمة عن ابن وهب عن يونس به نحوه

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسأله قال وما كنت تسأله قال كنت أسأله هل رأى ربه فقال إني قد سأله فقال « قد رأيته نوراً أتى أراه » هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك قال « نور أتى أراه » وعن محمد بن بشار عن معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لسأله فقال عن أي شيء كنت تسأله ؟ قال كنت أسأله هل رأيت ربك قال أبو ذر قد سألت

فقال رأيت نوراً في رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري رضى الله عنه في قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا محمد ابن إسحق بن محمد بن المسيبي حدثنا أنس بن عياض حدثنا يونس بن يزيد قال : قال ابن شهاب قال أنس بن مالك كان أبي بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال « فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب مملوءة حكمة وإيماناً فأفرغها في صدرى ثم أطبقه ثم أخذ يدي فخرج بي إلى السماء فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة فإذا نظر قبل يمينه تبسم وإذا نظر قبل يساره بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت لجبريل من هذا ؟ قال هذا آدم وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه فأهل يمينه هم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله هم أهل النار فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل يساره بكى - قال - ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها افتتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتحه له » قال أنس فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وإبراهيم وعيسى ولم يثبت لي كيف منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم عليه السلام في السماء الدنيا ، وإبراهيم في السماء السادسة ، قال أنس فلما مر جبريل عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وسلم بإدريس قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قال « قلت من هذا يا جبريل قال هذا إدريس ، - قال - ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح فقلت من هذا قال هذا موسى ، ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ، قلت من هذا قال هذا عيسى بن مريم - قال - ثم مررت بإبراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا إبراهيم » قال ابن شهاب وأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأباجبة الأنصاري كانا يقولان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم عرج بي حتى ظهرت المستوى أسمع صريف الأقلام » قال ابن حزم وأنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرض الله على أمي خمسين صلاة ، قال فرجعت بذلك حتى أمر على موسى فقال موسى ماذا فرض ربك على أمتك قلت فرض عليهم خمسين صلاة ، فقال لي موسى راجع ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك قال فرأجت ربي فوضع شطرها فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فقال هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدى ، قال فرجعت إلى موسى فقال راجع ربك فقات قد استحييت من ربي ، قال ثم انطلق بي حتى أتى سدرة المنتهى قال فغشيها ألوان ما أدرى ما هي قال ثم دخلت الجنة فإذا فيها جانباً للؤلؤ وإذا تراءها المسك » هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسنده أيه وليس هو في شيء من الكتب الستة ، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس عن الزهري عن أنس عن أبي ذر مثل هذا السياق سواء فالحق أعلم

في رواية بريدة بن الحصيب الأسلمي في قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الرحمن بن المنوكل ويعقوب بن إبراهيم واللائظ له قال : حدثنا أبو نميلة حدثنا الزبير بن جنادة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما كان ليلة أسرى بي - قال - فأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس - قال - فوضع أصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق » ثم قال البزار لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نميلة ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة وقد رواه الترمذي في التفسير من جامعه عن يعقوب بن إبراهيم الدورقي به وقال غريب . في رواية جابر بن عبد الله رضى الله عنه في قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب قال : قال أبو سلمة سمعت جابر بن عبد الله يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » أخرجاه في الصحيحين من طرق عن حديث الزهري به ، وقال البيهقي حدثنا أحمد بن الحسن القاضي حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا العباس بن محمد الدوري حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال سمعت سعيد بن المسيب يقول : إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى وإنه أتى بهدحين قدح من لبن وقدح من خمر فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن فقال جبريل أصبت هديت للفطرة لو أخذت الخمر لغوت أمتك ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسرى به فافتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه . وقال ابن شهاب قال أبو سلمة بن عبد الرحمن فتنهز أو كلمة نحوها ناس من قريش إلى

أبي بكر فقالوا هل لك في صاحبك يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة . فقال أبو بكر أوقال ذلك ؟ قالوا نعم ، قال فأننا أشهد لمن كان قال ذلك لقد صدق ، قالوا فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك أصدقه بخبر السماء . قال أبو سلمة فيها سمى أبو بكر الصديق . قال أبو سلمة فسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قریش حين أسرى بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطففت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »

رواية حذيفة بن اليمان رضي الله عنه رحمه الله قال الإمام أحمد ثنا أبو النضر ثنا سليمان عن شيبان عن عاصم عن زر بن حبیش قال أتيت على حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول : فانطلقا حتى أتيا بيت المقدس فلم يدخلاه قال قلت بل دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلئذ وصلى فيه قال ما اسمك يا أصلع ؟ فأننا أعرف وجهك ولا أدري ما اسمك قال قلت أنا زر بن حبیش قال فما علمك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى فيه ليلئذ قال قلت القرآن يخبرني بذلك قال فمن تكلم بالقرآن فليجأ اقرأ قال فقلت (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) قال يا أصلع هل تجد صلى فيه ؟ قلت لا قال والله ما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلئذ ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه كما كتب عليكم صلاة في البيت العتيق والله ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عادا عودهما على بدمهما قال ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال وتحدثوني أنه ربطه لا يفر منه وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة قلت أبا عبد الله أي دابة البراق ؟ قال دابة أبيض طويل هكذا خطوه مد البصر . ورواه أبو داود الطيالسي عن حماد ابن سلمة عن عاصم به ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث عاصم وهو ابن أبي النجود به وقال الترمذي حسن وهذا الذي قاله حذيفة رضي الله عنه نفي ما أثبتته غيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة ببيت المقدس مما سبق وما سبق مقدم على قوله والله أعلم بالصواب رحمه الله رواية أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رحمه الله قال الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أبو بكر يحيى بن أبي طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو محمد راشد الحماني عن أبي هرون العبدى ^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له أصحابه يا رسول الله أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها قال : قال الله عز وجل (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) الآية قال فأخبرهم قال « فبينما أنا نائم عشاء في المسجد الحرام إذ أتاني آت فأيقظني فاستيقظت فلم أر شيئا فإذا أنا بكهيئة خيال فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد الحرام فإذا أنا بدابة أدنى شبهها بدوابكم هذه ، بغالكم هذه غير أنه مضطرب الأذنين يقال له البراق وكانت الأنبياء تركبه قبلي يقع حافره عند مد بصره فركبته فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يميني يا محمد انظرني أسألك يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه ، فبينما أنا أسير عليه إذ دعاني داع عن يساري يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه ، فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله فقالت يا محمد انظرني أسألك فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها حتى أتيت بيت المقدس فأوثقت دابتي بالحلقة التي كانت الأنبياء توثقها بها ثم أتاني جبريل عليه السلام بإني أحدتهما خمر والآخر لبن فشربت اللبن وأبيت الخمر فقال جبريل أصبت الفطرة أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك فقلت الله أكبر الله أكبر فقال جبريل ما رأيت في وجهك هذا ؟ قال فقلت بينما أنا أسير إذ دعاني داع عن يميني يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليه قال ذاك داعي اليهود أما إنك لو أجبتهم أو وقفت عليه لتهودت أمتك - قال - فبينما أنا أسير إذ دعاني داع عن يساري قال يا محمد انظرني أسألك فلم ألتفت ولم أقم عليه قال ذاك داعي النصارى أما إنك لو أجبتهم لتنصرت أمتك - قال - فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله تقول يا محمد انظرني أسألك فلم أجبه ولم أقم عليها قال تلك الدنيا أما إنك لو أجبتها أو قمت عليها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة . قال ثم دخلت أنا وجبريل بيت

المقدس فصرى كل واحد منا ركعتين ثم أتيت بالمعراج الذى كانت تعرج عليه أرواح الأنبياء فلم ير الخلائق أحسن من المعراج أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحا إلى السماء فإنما يشق بصره طامحا إلى السماء عجبه بالمعراج قال فصعدت أنا وجبريل فاذا أنا بملك يقال له إسماعيل وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك مع كل ملك جنوده مائة ألف ملك قال : قال الله عز وجل (وما يعلم جنود ربك إلا هو) قال فاستفتح جبريل باب السماء قيل من هذا ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أو قد بعث إليه ، قال نعم فاذا أنا بآدم كهينته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ؟ فاذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين فمضيت هنيئة فاذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقرها أحد وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأتقن عندها أناس يأكلون منها قلت يا جبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال ، قال ثم مضيت هنيئة فاذا أنا بأقوام مشافروهم كمشافر الإبل قال فتفتح أفواههم فيلقمهم من ذلك الجمر ثم يخرج من أسافلهم فسمعهم يضجون إلى الله عز وجل فقلت من هؤلاء يا جبريل ، قال هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) يا كليون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) قال ثم مضيت هنيئة فاذا أنا بنساء تعلقن بشديهن فسمعتهن يضجن إلى الله عز وجل قلت يا جبريل من هؤلاء النساء ، قال هؤلاء الزناة (١) من أمتك . قال ثم مضيت هنيئة فاذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلها نهض أحدهم خر فيقول اللهم لاتقم الساعة قال وهم على سابلة آل فرعون قال فتجىء السابلة فتطوهم قال فسمعهم يضجون إلى الله - قال قلت يا جبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء من أمتك (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال ثم مضيت هنيئة فاذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك قلت يا جبريل من هؤلاء ، قال هؤلاء الهمازون من أمتك الهمازون قال ثم صعدنا إلى السماء الثانية فاذا أنا برجل أحسن ما خلق الله عز وجل قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب قلت يا جبريل من هذا ، قال هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فرد على ، ثم صعدنا إلى السماء الثالثة واستفتح فاذا أنا بيحيى وعيسى عليهما السلام ومعهما نفر من قومهما فسلمت عليهما وسلم علي . ثم صعدنا إلى السماء الرابعة فاذا أنا بإدريس قد رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه فسلم علي . ثم صعدنا إلى السماء الخامسة فاذا أنا بهرون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء تكاد لحيته تصيب سترته من طولها قلت يا جبريل من هذا ، قال هذا المحبب فى قومه هذا هرون بن عمران ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي . ثم صعدت إلى السماء السادسة فاذا أنا بموسى بن عمران رجل آدم كثير الشعر لو كان عليه قميصان لفقد شعره دون القميص فاذا هو يقول يزعم الناس أنى أكرم على الله من هذا بل هذا أكرم على الله منى قال قلت يا جبريل من هذا ، قال هذا أخوك موسى بن عمران عليه السلام ومعه نفر من قومه فسلمت عليه وسلم علي ، ثم صعدت إلى السماء السابعة فاذا أنا بأبينا إبراهيم خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال قلت يا جبريل من هذا ، قال هذا أبوك إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ومعه نفر من قومه فسلمت عليه فسلم علي وإذا أنا بأمتى شطرين شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس وشرط عليهم ثياب برمد - قال - فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمدم وهم على خير فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور ثم خرجت أنا ومن معى . قال والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة قال ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فاذا كل ورقة منها تسكاد تغطى هذه الأمة ، وإذا فيها عين تجري يقال لها سلسبيل فينشق منها نهران (أحدهما) السكوتر (والآخر) يقال له نهر الرحمة فاغتسلت فيه فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر . ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية فقلت لمن أنت يا جارية قالت لزيد بن حارثة وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وإذا رمانها كالدلاء عظما وإذا أنا بطيرها كأنها يختكم هذه فقال عندها ﷺ إن الله تعالى قد

(١) الزناة جمع زان فهو للمذكر ، وفى الخصائص اللاتى يزني ويقتل أولادهن .

أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - قال - ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ثم أغلقت دوني ثم إنى رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشاني فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى . قال وينزل على كل ورقة منها ملك من الملائكة - قال - وفرضت على خمسون صلاة ، وقال لك بكل حسنة عشر فإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرًا ؛ وإذا هممت بالسئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء . فان عملتها كتبت عليك سيئة واحدة ثم رجعت إلى موسى فقال بما أمرك ربك ؟ فقلت بخمسين صلاة قال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فان أمتك لا تطيق ذلك ، ومتى لا تطيقه تكفر فرجعت إلى ربي فقلت يا رب خفف عن أمتي فانها أضعف الأمم فوضع عني عشرًا وجعلها أربعين فما زلت أختلف بين موسى وربي كلما أتيت عليه قال لي مثل مقالته حتى رجعت إليه فقال لي بم أمرت فقلت أمرت بعشر صلوات قال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فرجعت إلى ربي فقلت أي رب خفف عن أمتي فانها أضعف الأمم فوضع عني خمسمائة وجعلها خمسمائة فناداني ملك عندها تمت فريضتي وخففت عن عبادي وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها ثم رجعت إلى موسى فقال بم أمرت ؟ فقلت بخميس صلوات قال ارجع إلى ربك فانه لا يؤوده شيء فأسأله التخفيف لأمتك فقلت رجعت إلى ربي حتى استحييت « ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب : إنى أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ورأيت كذا وكذا فقال أبو جهل يعني ابن هشام ألا تعجبون مما قال محمد ؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس ثم أصبح فينا وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهرا ومقفلة مهرا فهذه مسيرة شهرين في ليلة واحدة قال فأخبرتهم بعير لقريش لما كنت في مصعدى رأيته في مكان كذا وكذا وأنها فرت فلما رجعت وجدت عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا وكذا ومتاعه كذا وكذا فقال أبو جهل يخبرنا بأشياء فقال رجل منهم أنا أعلم الناس ببيت المقدس وكيف بناؤه وهيئته وكيف قربه من الجبل فان يك محمد صادقاً أخبركم وإن يك كاذباً فسأخبركم فجاء ذلك المشرك فقال يا محمد أنا أعلم الناس ببيت المقدس فأخبرني كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل قال فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده فنظر إليه كمنظر أحدنا إلى بيته قال بناؤه كذا وكذا وهيئته كذا وكذا وقربه من الجبل كذا وكذا فقال الآخر صدقت فرجع إليهم فقال صدق محمد فيما قال أو نخوا من هذا الكلام وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله عن محمد بن عبد الأعلى عن محمد بن ثور عن معمر عن أبي هارون العبدى ، وعن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق عن معمر عن أبي هارون العبدى به ، ورواه أيضاً من حديث ابن إسحاق حدثني روح بن القاسم عن أبي هارون به نحو سياقه المتقدم ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أحمد بن عتبة عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى فذكره بسياق طويل حسن أنيق أجود مما ساقه غيره على غرابته وما فيه من النكارة ، ثم ذكره البيهقي أيضاً من رواية روح بن قيس الحداني وهشيم ومعمّر عن أبي هارون العبدى واسمه عمارة بن جوين وهو مصنف عند الأئمة ، وإنما سقنا حديثه ههنا لما فيه من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقي أخبرنا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزار حدثنا أبو حامد بن بلال حدثنا أبو الأضر حدثنا يزيد بن أبي حكيم قال رأيت في النوم رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله رجل من أمتك يقال له سفيان الثوري لا بأس به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا بأس به » حدثنا عن أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى عنك يا رسول الله ليلة أسرى بك قلت رأيت في السماء فجذته بالحديث فقال لي « نعم » فقلت له يا رسول الله إن ناساً من أمتك يحدثون عنك في السرى بعجائب ؟ فقال لي « ذلك حديث القصاص » (رواية شداد بن أوس) قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزبيدي حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم الأشعري عن محمد بن الوليد ابن عامر الزبيدي حدثنا أبو الوليد بن عبد الرحمن عن جبير بن نفير حدثنا شداد بن أوس قال : قلنا يا رسول الله كيف أسرى بك ؟ قال « صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض - أو قال بيضاء - فوق الحمار

ودون البغل فقال اركب فاستصعب على فرازها بأذنهما ثم حملني عليهما فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلني فقال صل فصليت ثم ركبت فقال أتدري أين صليت ؟ قلت الله أعلم ، قال صليت بيثرب صليت بطيبة فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها عند منتهى طرفها ثم بلغنا أرضاً قال انزل ثم قال صل فصليت ثم ركبتنا فقال أتدري أين صليت ؟ قلت الله أعلم ، قال صليت بمدين عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور فقال انزل فنزلت فقال صل فصليت ثم ركبتنا فقال أتدري أين صليت ؟ قلت الله أعلم ، قال صليت بيت لحم حيث ولد عيسى بن مريم ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليماني فأني قلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب عميل فيه الشمس والقمر فصليت من المسجد حيث شاء الله وأخذني من العطش أشد ما أخذني فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر غسل أرسل إلى بهما جميعاً فعدلت بينهما ثم هداني الله عز وجل فأخذت اللبن فشربت حتى عرقت به جبيني وبين يدي شيخ متكئ على مشوات له فقال أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدي ، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي^(١) قلت يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال وجدتها مثل الحمة السخنة ثم انصرف بي فمررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيرا لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم فقال بعضهم هذا صوت محمد ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة فأتاني أبو بكر رضي الله عنه فقال يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسكت في منالك ، فقال علمت أني أتيت بيت المقدس الليلة ، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي ، قال ففتح لي صراط كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته به ، فقال أبو بكر أشهد أنك لرسول الله ، وقال المشركون انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ، قال فقال إن من آية ما أقول لكم أني مررت بغير لكم في مكان كذا وكذا وقد أضلوا بغيرا لهم فجمعه لهم فلان وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم يكذبوا بآياتكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسيح أسود و غرار تان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ هكذا رواه البيهقي من طريقين عن أبي إسماعيل الترمذي به ثم قال بعد تمامه هذا إسناد صحيح ، وروى ذلك مفروقاً من أحاديث غيره ونحن نذكر من ذلك إن شاء الله ما حضرنا ثم ساق أحاديث كثيرة في الإسراء كالشاهد لهذا الحديث ، وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن ابن أبي خاتم في تفسيره عن أبيه عن إسحق بن إبراهيم بن العلاء التريدي به ، ولا شك أن هذا الحديث أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس . شتم على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر كالصلاة في بيت لحم . وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس وغير ذلك والله أعلم برواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . قال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن قابوس عن أبيه قال حدثنا ابن عباس قال : ليلة أسرى رسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع في جانبها وخشاً^(٢) فقال يا جبريل ما هذا ؟ قال هذا بلال المؤذن فقال النبي ﷺ حين جاء إلى الناس « قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا » قال فلقية موسى عليه السلام فرحب به وقال مرحباً بالنبي الأمي قال وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال من هذا يا جبريل ؟ قال هذا موسى ، قال فمضى فلقية شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه قال من هذا يا جبريل قال هذا أبوك إبراهيم - قال - ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف قال من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً قال من هذا يا جبريل ؟ قال هذا عاقرة الناقة ، قال - : فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي فإذا النبيون أجمعون يصلون معه ، فلما انصرف جاء به قد حنين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال في أحدهما لبن وفي الآخر غسل فأخذ اللبن فشرب منه فقال الذي كان معه القمح أصبت الفطرة إسناد صحيح ولم يخرجوه . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ثابت أبو زيد حدثنا هلال حدثني عكرمة عن ابن عباس قال : أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبإعلامه بيت المقدس وبغيرهم فقال ناس نحن لا نصدق محمدًا بما يقول فارتدوا كفاراً فضرب

(١) في نسخة الأهره: والأميرة الزراي، وكذا في الخصائص (٢) في النسخ كلاً وخشاً : وهو تصعيف، والرجس الجحيم والسين الصوت الحني .

الله رقابهم مع أبي جهل وقال أبو جهل يخوفنا محمد بشجرة الزقوم هاتوا تمرًا وزبدا فترقوا ، ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام وعيسى وموسى وإبراهيم ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال فقال « رأيت فيلانيا أقرهجان ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري كأن شعر رأسه أغصان شجرة ، ورأيت عيسى عليه السلام أبيض جعد الرأس حديد البصر ومبطن الخلق ، ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم كثير الشعر شديد الخلق ، ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى الرب منه إلا نظرت إليه منى حتى كأنه صاحبكم ، قال جبريل سلم على أبيك فسلمت عليه » ورواه النسائي من حديث أبي يزيد . ثابت بن زيد عن هلال وهو ابن حبان به وهو إسناد صحيح

﴿طريق أخرى﴾ قال البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا أبو بكر الشافعي أنبأنا إسحاق بن الحسن حدثنا الحسين بن محمد حدثنا شيخان عن قتادة عن أبي العالية قال حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم عليه السلام مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » وأرى مالكا خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله إياه قال (فلا تكن في مربة من لقاءه) فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام (وجعلناه هدى لبني إسرائيل) قال جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل رواه مسلم في الصحيح عن عبد بن حميد عن يونس بن محمد عن شيخان وأخرجاه من حديث شعبه عن قتادة مختصراً ﴿طريق أخرى﴾ وقال البيهقي أخبرنا علي بن أحمد بن عبد الله أنا أحمد بن عبيد السمار ثنا ديبس المعدل ثنا عفان قال ثنا حماد بن سلمة عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها فقالت باسم الله فقالت بنت فرعون أبي قالت ربي وربك ورب أبيك قالت أولك رب غير أبي ؟ قالت نعم ربي وربك ورب أبيك الله . قال فدعاها فقال ألك رب غيري قالت نعم ربي وربك الله عز وجل . قال فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها قالت إن لي إليك حاجة قال ماهي ، قال تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع قال ذلك لك لما لك علينا من الحق قال فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال يا أمه قعي ولا تقاعسي فإنك على الحق . قال وتسكلم أربعة في المهدي وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام . إسناد لا بأس به ولم يخرجوه ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن جعفر وروح بن المعين قالا حدثنا عوف عن زرارة ابن أوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما كان ليلة أسرى بي فأصبحت بمكة فظمت وعرفت أن الناس مكذبي » فقدم معزلاً حزينا فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزى هل كان من شيء ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قال وما هو ، قال « إني أسرى بي الليلة » قال إلى أين ، قال « إلى بيت المقدس » قال ثم أصبحت بين ظهرانينا ، قال « نعم » قال فلم ير أن يكذبه مخافة أن يحدد الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال أرايت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال يامعشر بني كعب بن لؤي قال فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما قال حدث قومك بما حدثتني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أسرى بي الليلة » فقالوا إلى أين ، قال « إلى بيت المقدس » قالوا ثم أصبحت بين ظهرانينا قال « نعم » قال فمن بين مصفق ومن بين واضح يده على رأسه متعجباً للكذب ، قالوا وتستطيع أن تنعت لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ، فقال رسول الله ﷺ « فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت - قال - فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل - أو عقيل - فنته وأنا أنظر إليه - قال - وكان مع هذا نعت لم أحفظه - قال - فقال القوم أما النعت فوالله لقد أصاب فيه » وأخرجه النسائي من حديث عوف بن أبي جميلة وهو الأعرابي به ، ورواه البيهقي من حديث النضر بن شميل وهو ذوة عن عوف وهو ابن أبي جميلة الأعرابي أحد الأئمة الثقات ﴿رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه﴾ قال

الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب حدثنا السري بن خزيمة حدثنا يوسف ابن بهلول حدثنا عبد الله بن نمير عن مالك بن مغول عن الزبير بن عدي عن طلحة بن مصرف عن مرة الحمدي عن عبد الله ابن مسعود قال : لما أسرى رسول الله ﷺ فاتته إلى سدره المنتهى وهي في السماء السادسة وإليها ينتهي ما يصعده حتى يقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال غشيها فراش من ذهب وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحجيات يعني الكبائر . ورواه مسلم في صحيحه عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب كلاهما عن عبد الله بن نمير به ، ثم قال البيهقي وهذا الذي ذكره عبد الله ابن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم رواه مرة مرسل من دون ذكرهما ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدم قلت وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا وفيه غرابة وذلك فيما رواه الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حدثنا مروان بن معاوية عن قتادة بن عبد الله التيمي حدثنا أبو ظبيان الجني قال : كنا جلوساً عند أبي عبيدة بن عبد الله يعني ابن مسعود ومحمد بن سعد بن أبي وقاص وهما جالسان فقال محمد بن سعد لأبي عبيدة حدثنا عن أيك ليلة أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال أبو عبيدة لا بل حدثنا أنت عن أيك فقال محمد لو سألتني قبل أن أسألك لفعلت ، قال فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعني عن أبيه كما سئل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل عليه السلام بدابة فوق الحمار ودون البغل فحملني عليه ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه وإذا هبط استوت يده مع رجليه حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزد شنوءة فيرفع صوته يقول أكرمتي وفضلته قال فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال من هذا مالك يا جبريل ؟ قال هذا أحمد ، قال مرحباً بالنبي الأُمِّي العربي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأُمته ، قال ثم اندفعنا فقلت من هذا يا جبريل ، قال هذا موسى بن عمران قال قلت ومن يعاتب قال يعاتب ربه فيك ، قلت ويرفع صوته على ربه قال إن الله قد عرف له حديثه . قال ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السرح نحتها شيخ وعياله قال فقال لي جبريل أحمد إلى أيك إبراهيم فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام فقال إبراهيم من هذا مالك يا جبريل ، قال هذا ابنك أحمد قال فقال مرحباً بالنبي الأُمِّي الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأُمته يا بني إنك لا قربك الالة وإن أمتك آخر الأُمم وأضعفها فإن استطعت أن تكون حاجتك أو حاجتها في أمتك فافعل . قال ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى فنزلت فربطت الدابة في الحلقة التي في باب المسجد التي كانت الأنبياء تربط بها ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين قائم وراكع وساجد قال ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام منكبي وقال أصبت الفطرة ورب محمد قال ثم أقيمت الصلاة فأممهم ثم انصرفنا فأقبلنا » إسناد غريب ولم يخرجوه ، فيه من الغرائب سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء ثم سؤاله عنهم بعد انصرافه والمشهور في الصحاح كما تقدم أن جبريل كان يعلمهم بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة ، وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى ، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم في السموات ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه وصلى بهم فيه ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة والله أعلم (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا العوام عن جبلة بن سحيم عن مرثد بن جنادة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بني إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة قال فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبت فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج قال ومعى قضيان فإذا رأيتهما يدوب الرصاص قال فهلك الله إذا رأيتهما حتى إن الحجر والشجر يقول يامسلم إن تخشى كافراً فتمال فاقطعه قال فهلككم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيطأون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهل كوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعوا الله عليهم فهلكهم وعييتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أي تتن قال فينزل الله

الطر فيجترف أجسادهم حتى يقدفهم في البحر ففيا عهد إلى ربى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتمر لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا . وأخرجه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام ابن حوشب رواية عبد الرحمن بن قرط أخى عبد الله بن قرط التمالى قال سعيد بن منصور حدثنا مسكين بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنى عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من بين زمزم والمقام جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطارا به حتى بلغ السموات العلى فلما رجع قال سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سمعت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما على سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى . ونذكر ههنا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة (تسبح له السموات السبع) الآية

﴿ رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان عن عبيد بن آدم وأبي مريم وأبي شعيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس قال : قال أبو سلمة فحدثنى أبو سنان عن عبيد بن آدم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب أين ترى أن أصلى فقال إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضاهيت اليهودية ولكن أصلى حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقدم إلى القبلة فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة في رداءه وكنس الناس فلم يعظم الصخرة تعظيماً يصلى وراءها وهى بين يديه كما أشار لكعب الأخبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم ولكن من الله عليه بالإسلام فهدى إلى الحق ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين عمر ضاهيت اليهودية ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود ولكن أماط عنها الأذى وكنس عنها الكناسة بردائه . وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبي مرثد الغنوى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها »

﴿ رواية أبي هريرة وهى مطولة جداً وفيها غرابة ﴾ قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير سورة سبحان حدثنا على بن سهل ثنا حجاج ثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية الرياحى عن أبي هريرة وغيره شك أبو جعفر فى قول الله عز وجل (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً) الآية قال جاء جبريل إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبرائيل لميكائيل اثنتى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل ثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فزاع ما كان فيه من غل وملاؤه علماً وحلماً وإيماناً و يقيناً وإسلاماً وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحملة عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره قال فسار وسار معه جبريل عليهما السلام قال فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كما حصدوا عاد كما كان فقال النبى ﷺ « يا جبريل ما هذا ؟ » قال هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنه بسبعائة ضعف وما أنفقوا من شئ فهو يخلقه وهو خير الرازقين ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شئ فقال « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال هؤلاء الذين تتناقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والنعم . ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال « فما هؤلاء يا جبريل » قال هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً وما الله بظلام للعبيد ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من اللحم النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فبيت معه حتى تصبح قال ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ألا شقته ولا شئ إلا خرقة قال « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها ثم تلا (ولا تقعدوا

بكل صراط توعدون وتصدون) الآية قال ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال هؤلاء خطباء الفتنة ثم أتى على حجر صغير يخرج منه نور عظيم فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها . ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة وريح مسك وسمع صوتاً فقال : « يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال هذا صوت الجنة تقول يا رب انتنى بما وعدتني فقد كثرت غرقي وإستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفنتي وذهي وأكوابي وصحافي وأبارقي وأكؤسي وعسلي ومائي ولبي وخمري فانتنى بما وعدتني فقال لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ومن آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي شيئاً ولم يتخذ من دوني أنداداً ، ومن خشيتني فهو آمن ، ومن سألتني أعطيتني ، ومن أقرضني جزيتني ، ومن توكل على كفيتني ، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين ، قالت قد رضيت قال ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً خبيثة فقال . « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ » فقال هذا صوت جهنم تقول يا رب انتنى بما وعدتني فقد كثرت سلاسل وأغلال وسعيري وحيمي وضريعي وغساقى وعذابي وقد بعد قمرى واشتد حرى فانتنى بما وعدتني ، قال لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت ، قال ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك قال محمد ﷺ قالوا أوقد أرسل إليه قال نعم قالوا حيّاه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المحيي جاء . قال ثم لقي أرواح الأنبياء فأثبوا على ربههم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذى اتخذني خليلاً وأعطاني ملكاً عظيماً وجعلني أمة قائماً يؤتم بي وأتقنني من النار وجعلها على برداً وسلاماً ثم إن موسى عليه السلام أتني على ربه فقال : الحمد لله الذى كلمني تسكياً وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون . ثم إن داود عليه السلام أتني على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لي ملكاً عظيماً وعلمني الزبور وألن لي الحديد وسخر لي الجبال يسبحن والطير وأعطاني الحكمة وفصل الخطاب ثم إن سليمان عليه السلام أتني على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لي الرياح وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجنان كالجواب وقدور راسيات ، وعلمني منطق الطير وآتاني من كل شيء فضلاً وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير وفضاني على كثير من عباده المؤمنين ، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب . ثم إن عيسى عليه السلام أتني على ربه عز وجل فقال : الحمد لله الذى جعلني كلمه وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخالق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وجعلني أبرئ الأئمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ورفعتني وطهرتني وأعزيتني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال ثم إن محمداً ﷺ أتني على ربه عز وجل فقال « كلّمكم أني على ربه وإني مني على ربي فقال : الحمد لله الذى أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل على الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطاً وجعل أمتي هم الأولين وهم الآخرون وشرح لي صدرى ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً » فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد ﷺ ، قال أبو جعفر الرازي خاتم النبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ، ثم أتى بأنية ثلاثة مغطاة أفواها فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل له اشرب فشرب منه يسيراً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن فقيل له اشرب فشرب منه حتى روى ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له اشرب فقال لا أريده قد رويت ، فقال له جبريل أما إنها ستجرم على أمتك ولو شربت منها لم يتبعك من

أمتك إلا القليل ، قال ثم صعد به إلى السماء فاستفتح فقبل من هذا يا جبريل فقال محمد ، فقالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففتح لهما ، فدخل فاذا هو برجل تام الخلق لم ينقص من خلقه شيء كما ينقص من خلق الناس عن يمينه باب يخرج منه ريح طيبة وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة فاذا نظر إلى الباب الذي عن يمينه ضحك واستبشر وإذا نظر إلى الباب الذي عن شماله بكى وحزن فقلت يا جبريل من هذا الشيخ التام الخلق الذي لم ينقص من خلقه شيء وما هذان البابان ؟ فقال هذا أبوك آدم وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة فاذا نظر إلى من يدخل الجنة من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذي عن شماله باب جهنم إذا نظر إلى من يدخلها من ذريته بكى وحزن ، ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح فقبل من هذا معك ؟ فقال محمد رسول الله ، قالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء فدخل فاذا هو بشايبين فقال يا جبريل من هذان الشبان ؟ قال هذا عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الحالة عليهما السلام ، قال فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح فقالوا من هذا ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك قال محمد قالوا أو قد أرسل اليه قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء فدخل فاذا هو برجل قد فضل على الناس في الحسن كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب قال من هذا يا جبريل الذي قد فضل على الناس في الحسن ؟ قال هذا أخوك يوسف عليه السلام ، قال ثم صعد به إلى السماء الرابعة فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، قال هذا إدريس عليه السلام رفعه الله مكاناً علياً ، ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح فقالوا من هذا ؟ قال جبريل ، قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء فدخل فاذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم قال من هذا يا جبريل ومن هؤلاء حوله قال هذا هارون المحب وهؤلاء بنو إسرائيل ، ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح فقبل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك ؟ قال محمد ، قالوا أو قد أرسل اليه ؟ قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء فدخل فاذا هو برجل جالس فجاوزه فبكى الرجل فقال يا جبريل من هذا ، قال موسى ، قال فما باله يبكي ، قال يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم بنى آدم على الله عز وجل وهذا رجل من بنى آدم قد خلفني في دنيا وأنا في أخرى فلو أنه بنفسه لم أبال ولكن مع كل نبي أمته ، قال ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح فقبل من هذا ، قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ، قالوا أو أرسل اليه قال نعم ، قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ، قال فدخل فاذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسي وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم في ألوانهم شيء فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم وجاءوا فجلسوا إلى أصحابهم فقال يا جبريل من هذا الأشمط ثم من هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء وما هذه الأنهار التي دخلوا فيها فجاءوا وقد صفت ألوانهم ، قال هذا أبوك إبراهيم أول من شط على وجه الأرض ، وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا بإيمانهم بظلم ، وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتاب الله عليهم ، وأما الأنهار فأولها رحمة الله والثاني نعمة الله والثالث سقاها ربهم شراباً طهوراً ، قال ثم انتهى إلى السدرة فقبل له هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فاذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعة أيام لا يقطعها والورقة منها تغطي الأمة كلها قال فعشها نور الخلاق عز وجل

فذكر الحديث بطوله كنجو مما سقناه (قلت) وأبو جعفر الرازي قال فيه الحافظ أبو زرعة الرازي بهم في الحديث كثيراً وقد ضعفه غيره أيضاً ووثقه بعضهم ، والظاهر أنه سيء الحفظ ففما تفرد به نظر . وهذا الحديث في بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة وفيه شيء من حديث المنام في رواية سمرة بن جندب في المنام الطويل عند البخاري ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء والله أعلم

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « حين أسرى بي لقيت موسى عليه السلام — فنعته فإذا رجل حسبته قال — مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة ، قال ولقيت عيسى — فنعته النبي ﷺ قال — ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس — يعني حمام قال — ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به قال وأتيت بلعاءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر قليل لي خذا أيهما شئت فأخذت اللبن فشربت فقل لي هديت الفطرة — أو أصبت الفطرة — أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » وأخرجه من وجه آخر عن الزهري به نحوه وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن الحسين بن المثنى عن عبد العزيز بن أبي سلمة عن عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لقد رأيته في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أنبئها فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله إلى أنظر إليه ما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيته في جماعة من الأنبياء وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شها به عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شها به صاحبكم — يعني نفسه — فحانت الصلاة فأتمهم فلما فرغت قال قائل يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأني بالسلام » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي الصلت عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بي لما انتهيت إلى السماء السابعة فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق قال وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحياة ترى من خارج بطونهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء آكلوا الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهيج ودخان وأصوات فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد بن سلمة به ورواه ابن ماجه من حديث حماد به ورواية جماعة من الصحابة ممن تقدم وغيرهم قال الحافظ البيهقي حدثنا أبو عبد الله يعني الحاكم حدثنا عبد الله بن يزيد بن يعقوب الدقاق الهمداني حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمداني حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزاري حدثنا عمر بن سعد النضري من بني نضرة بن معين حدثني عبد العزيز وليس بن أبي سليم وسليمان الأحمشي وعطاء بن السائب بعضهم يزيد في الحديث على بعض عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعن محمد بن إسحق بن يسار عن حدثه عن ابن عباس وعن سليم بن مسلم العقيلي عن عامر الشعبي عن عبد الله بن مسعود وجوير عن الضحاك بن مزاحم قالوا كان رسول الله ﷺ في بيت أم هانئ راقداً وقد صلى العشاء الآخرة قال أبو عبد الله الحاكم قال لنا هذا الشيخ وذكر الحديث فكتبت المتن من نسخة مسموعة منه فذكر حديثاً طويلاً يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شيء منها في قدرة الله إن صحت الرواية . قال البيهقي فيما ذكرنا قبل في حديث أبي هارون العبدى في إثبات الإسراء والمعراج كفاية وبالله التوفيق (قلت) وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين في رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني مكرم بن أحمد القاضي حدثني إبراهيم بن الهيثم البكري حدثني محمد بن كثير الصنعاني حدثنا معمر بن راشد عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر فقالوا هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس فقال أو قال ذلك ؟ قالوا نعم قال لأن كان قال ذلك لقد صدق قالوا فتصدق به أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال نعم إني لأصدق في ما هو أبعد من ذلك أصدق في خبر

السما في غدوة أو روحة فلذلك سمى أبو بكر الصديق ﴿رواية أم هانئ بنت أبي طالب﴾ قال محمد بن إسحق حديثي محمد بن محمد السائب الكلبي عن أبي صالح باذان عن أم هانئ بنت أبي طالب في مسرى رسول الله ﷺ أنها كانت تقول ما أسرى برسول الله ﷺ إلا وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة فصلى العشاء الآخرة ثم نام وعنا فلما كان قبيل الفجر أهبنا برسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم فلما صلى الصبح وصلينا معه قال «يا أم هانئ لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيته بهذا الوادي ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين» الكلبي متروك بمرّة ساقط لكن رواه أبو يعلى في مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصاري عن ضمرة بن ربيعة عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن أبي صالح عن أم هانئ بأبسط من هذا السياق فليكتب ههنا وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الأعلى بن أبي المساور عن عكرمة عن أم هانئ قالت بات رسول الله ﷺ ليلة أسرى به في بيتي ففقدته من الليل فامتنع من النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قریش فقال رسول الله ﷺ «إن جبريل عليه السلام أتاني فأخذيدي فأخرجني فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار فحملني عليها ثم انطلق حتى انتهى بي إلى بيت المقدس فأراني إبراهيم عليه السلام يشبه خلقه خلقى ويشبه خلقه وأراني موسى آدم طويلا سبط الشعر شبهته برجال أزد شنوءة ، وأراني عيسى بن مريم ربة أبيض يضرب إلى الحمرة شبهته بعروة بن مسعود الثقفي ، وأراني الدجال مسح العين اليمنى شبهته بقطن بن عبد العزى - قال - وأنا أريد أنا أخرج إلى قریش فأخبرهم بما رأيته « فأخذت بثوبه فقلت إني أذكرك الله إنك تأتي قومك يكذبونك وينكرون مقاتلتك فأخاف أن يسطوا بك قالت فضرب ثوبه من بدى ثم خرج إليهم فاتاهم وهم جلوس فأخبرهم ما أخبرني فقام جبير بن مطعم فقال يا محمد أن لو كنت لك شأن كما كنت ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرائنا . فقال رجل من القوم يا محمد هل مررت بإبل لنا في مكان كذا وكذا ؟ قال « نعم والله قد وجدتهم قد أضلوا بعيرا لهم فهم في طلبه » قال هل مررت بإبل لبني فلان ؟ قال « نعم وجدتهم في مكان كذا وكذا وقد انكسرت لهم ناقة حمراء وعندهم قصعة من ماء فشربت ما فيها » قالوا فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة قال « قد كنت عن عدتها مشغولا » فقام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة ثم أتى قریشا فقال لهم « سألتوني عن إبل بني فلان فهي كذا وكذا وفيها من الرعاة فلان وفلان وسألتوني عن إبل بني فلان فهي كذا وكذا وفيها من الرعاة ابن أبي قحافة وفلان وفلان وهي تصبحكم بالغداة على الثنية » قال فقمعدوا على الثنية ينظرون أصدقيهم ما قال فاستقبلوا الإبل فسألوه هل ضل لكم بعير ؟ فقالوا نعم فسألوا الآخر هل انكسرت لكم ناقة حمراء قالوا نعم قالوا فهل كانت عندكم قصعة قال أبو بكر أنا والله وضعتها فما شربها أحد ولا أهرأقوه في الأرض فصدقه أبو بكر وآمن به فسمى يومئذ الصديق

﴿فصل﴾ وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة ، وإن اختلف عبارات الرواة في أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأنبت أسرات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب . وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عليه السلام أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ومرة من مكة إلى السماء فقط ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الاشكالات وهذا بعيد جدا ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به أمته ولنقله الناس على التمدد والتكرار . قال موسى بن عقبة عن الزهري كان الإسراء قبل الهجرة بسنة وكذا قال عروة وقال السدي بسنة عشر شهرا والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فلتقاه من كل سماء

مقربوها وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة وإبراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتيهما صلى الله وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام أى أقلام القدر بما هو كائن ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق . ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء والذي تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجنب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقدمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك . ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والحمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقدام والله أعلم ثم اختلف الناس هل كان الاسراء بيدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط على قولين فالأكثر من العلماء على أنه أسرى بيدنه وروحه يقظة لا مناماً ولا ينكرون أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعده يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح والدليل على هذا قوله تعالى (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم ، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال (أسرى بعبده ليلاً) وقال تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال ابن عباس هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم . رواه البخاري ، وقال تعالى (مازاغ البصر وما طغى) والبصر من آلات الذات لا الروح وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون بل أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لا بجسده قال محمد بن إسحق بن يسار في السيرة حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال : كانت رؤيا من الله صادقة . وحدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن أسرى بروحه . قال ابن إسحق فلم ينكر ذلك من قولها لقول الحسن إن هذه الآية نزلت (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) ولقول الله في الخبر عن إبراهيم (إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) قال ثم مضى على ذلك فعرفت أن الوحي يأتي للأنبياء من الله أيقاظاً ونياماً فكان رسول الله ﷺ يقول « تنام عيناى وقلبي يقظان » والله أعلم أى ذلك كان قد جاء وعان من الله فيه ما عان على أى حالته كان نائماً أو يقظاً كل ذلك حق وصدق انتهى كلام ابن إسحق . وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والانكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم والله أعلم فائدة حسنة جلية روى الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي حدثني مالك بن أبي الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي . قال بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدمه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ثم استدعى من بالشام من التجار فجاءه بأبي سفيان

صخر بن حرب وأصحابه فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده . قال في هذا السياق عن أبي سفيان والله مامعنى من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقني في شيء . قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال وما هو ، قال قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح . قال وبطريق إيلياء عند رأس قيصر فقال بطريق إيلياء قد علمت تلك الليلة قال فنظر إليه قيصر وقال وما علمك بهذا قال إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعالمى ومن يحضرني كلهم معالجة فغلبنى فلم نستطع أن نحركه كأنما زاول به جبلاً فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى . قال فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب وإذا فيه أثر مربوط الدابة قال فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي ، وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكروا تمام الحديث (فائدة) قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه (التنوير في مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الاسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال : وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء عن عمر بن الخطاب وعلى وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وشداد بن أوس وأبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء وصهيب الرومي وأم هانئ وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين ، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملاحدون (يريدون ليظفوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا

مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف به ذكر موسى عبده ورسوله وكليهما أيضاً فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام وبين ذكر التوراة والقرآن ولهذا قال بعد ذكر الاسراء (وآتيناهم موسى الكتاب) يعني التوراة (وجعلناه) أي الكتاب (هدى) أي هادياً (لبني إسرائيل أن لا يتخذوا) أي لئلا يتخذوا (من دونه وكيلاً) أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دونه لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له ثم قال (ذرية من حملنا مع نوح) تقديره يأذرية من حملنا مع نوح فيه تهنيج وتنبيه على المنة أي بإسالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم (إنه كان عبداً شكوراً) فازكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسال إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم وقد ورد في الحديث وفي الآثار عن السلف أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله فلهذا سمي عبداً شكوراً . قال الطبراني حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي حصين عن عبد الله بن سنان عن سعد بن مسعود الثقفي قال إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أسامة حدثنا زكريا بن أبي زائدة عن سعيد بن أبي بردة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريق أبي أسامة به ، وقال مالك عن زيد بن أسلم كان يحمد الله على كل حال ، وقد ذكر البخاري هنا حديث أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

«أناسيد ولد آدم يوم القيامة - بطوله ، وفيه - فيأتون نوحا فيقولون يانوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكلمه

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلَمُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ تَفِيرًا * إِنَّ أَحْسَنَتُمْ أَحْسَنَتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عُلُّوا تَتَبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

نخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب أى تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلمون علوا كبيرا أى يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به . وقوله (فإذا جاء وعد أولاهما) أى أولى الافسادتين (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد) أى سلطنا عليكم جندا من خلقنا أولى بأس شديد أى قوة وعدة وسلطنة شديدة فجاسوا خلال الديار أى تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم أى بينها ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدا وكان وعدا مفعولا . وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة أنه جالوت الجزرى وجنوده سلط عليهم أولائهم أدبوا عليه بعد ذلك . وقتل داود جالوت ولهذا قال (ثم رددنا لكم الكرة عليهم) الآية وعن سعيد بن جبير أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده وعنه أيضاً وعن غيره أنه يختصر ملك بابل وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حال إلى حال إلى أن ملك البلاد وأنه كان فقيرا مقعدا ضعيفا يستعطى الناس ويستطعمهم ثم آل به الحال إلى ما آل وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقا كثيرا من بني إسرائيل ، وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى رحمه الله بأنه موضوع مكذوب وكتب ذلك على حاشية الكتاب . وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقهم ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ونحن في غنية عنها والله الحمد . وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا ويفوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فانهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء وقد ووى ابن جرير حدثى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول : ظهر بختصر على الشام فخر بيت المقدس وقتلهم ثم أتى دمشق فوجد بها دما يغلى على كبا فسألهم ما هذا الدم : فقالوا أدر كنا آباءنا على هذا وكلما ظهر عليه الكبا ظهر قال قتل على ذلك الدم سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم فسكن وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرفهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة وأخذ معه منهم خلقا كثيرا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم ثم قال تعالى (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى فعلها كما قال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها)

وقوله (فإذا جاء وعد الآخرة) أى الكرة الآخرة أى إذا أفسدت الكرة الثانية وجاء أعداؤكم (ليسوءوا وجوهكم) أى يهينوكم ويقهروكم (وليدخلوا المسجد) أى بيت المقدس (كما دخلوه أول مرة) أى فى التى جاسوا فيها خللال الديار (وليتبروا) أى يدمروا ويخربوا (ما علوا) أى ماظهروا عليه (تنبيها * عسى ربكم أن يرحمكم) أى فيصرفهم عنكم (وإن عدتم عدنا) أى متى عدتم إلى الفساد (عدنا) إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال ، ولهذا قال (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أى مستقرا ومحصرا وسجنا لا محيد لهم عنه قال ابن عباس حصيرا أى سجننا وقال مجاهد يحصرون فيها وكذا قال غيره ؛ وقال الحسن فراشا ومهادا ، وقال قتادة قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحى محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدهم صاغرون

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن بأنه يهدى لأقوم الطرق وأوضح السبل ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجرا كبيرا أى يوم القيامة وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أى ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذابا أليما أى يوم القيامة كما قال تعالى (فبشرهم بعذاب أليم)

﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر أى بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى (ولو يجعل الله للناس الشر) الآية وكذا فسر ابن عباس ومجاهد وقتادة وقد تقدم فى الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ولهذا قال تعالى (وكان الإنسان عجولا) وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين هم بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلى رجليه وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس فقال الحمد لله فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحتهما فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه فهم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع ، وقال يارب عجل قبل الليل

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُونا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّانَهُ تَفْصِيلًا ﴾

يتمن تعالى على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا فى الليل وينتشدوا فى النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك ولهذا قال (لابتغوا فضلا من ربكم) أى فى معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك (ولتعلموا عدد السنين والحساب) فانه لو كان الزمان كله نسقا واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شئ من ذلك كما قال تعالى (قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون * قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلمكم تشكرون) وقال تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خافعة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) وقال تعالى (وله اختلاف الليل والنهار) وقال (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل

يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) وقال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ثم إنه تعالى جعل الليل آية أى علامة يعرف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة وهى النور وطلوع الشمس النيرة فيه وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا كما قال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق - إلى قوله - آيات لقوم يتقون) وقال تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) الآية قال ابن جريج عن عبد الله ابن كثير فى قوله (فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) قال ظامة الليل وسدف النهار وقال ابن جريج عن مجاهد الشمس آية النهار والقمر آية الليل (فمحونا آية الليل) قال : السواد الذى فى القمر وكذلك خلقه الله تعالى وقال ابن جريج قال ابن عباس كان القمر يضىء كما تضىء الشمس والقمر آية الليل والشمس آية النهار فمحونا آية الليل السواد الذى فى القمر وقدرى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة أن ابن السكواء سأل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقال يأمر المؤمنين ماهذه اللطخة التى فى القمر فقال ويحك أما تقرأ القرآن ؟ فمحونا آية الليل فهذه محوه . وقال قتادة فى قوله (فمحونا آية الليل) كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذى فيه وجعلنا آية النهار مبصرة أى منيرة وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم وقال ابن أبى نجيع عن ابن عباس (وجعلنا الليل والنهار آيتين) قال ليلا ونهارا كذلك خلقهما الله عز وجل

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وطائره هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ويلزم به ويجازى عليه (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقال (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) وقال (إنما تجزون ما كنتم تعملون) وقال (من يعمل سوءا يجز به) الآية والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ويكتب عليه ليلا ونهارا صباحا ومساء

وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لطائر كل إنسان فى عنقه » قال ابن لهيعة يعنى الطيرة ، وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث غريب جداً والله أعلم . وقوله (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى نجتمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة إما يمينه إن كان سعيدا أو بشماله إن كان شقيا منشورا أى مفتوحا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره) ولهذا قال تعالى (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت لأنك ذكرت جميع ما كان منك ولا ينسى أحد شيئا مما كان منه وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى وقوله (ألزمناه طائره فى عنقه) إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه كما قال الشاعر .

اذهب بها اذهب بها طوقها طوق الحمام

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال « لاعدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » كذا رواه ابن جرير ، وقد رواه الإمام عبد بن حميد فى مسنده متصلا فقال : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة عن أبى الزبير عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « طير كل عبد فى عنقه »

وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إسحق حدثنا عبد الله حدثنا ابن لهيعة حدثني يزيد أن أبى الخير حدثه أنه سمع عقبة بن عامر

رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ قال « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة ياربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب جل جلاله : اختتموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت » إسناده جيد قوى ولم يخرجوه وقال معمر عن قتادة (الزمناه طائره في عنقه) قال عمله (ونخرج له يوم القيامة) قال نخرج ذلك العمل (كتابا يلقاه منشورا) قال معمر وتلا الحسن البصري (عن اليمين وعن الشمال قعيد) يا ابن آدم بسطت لك صحيفةك ووكل بك ملائكة كرىمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أقل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفةك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك الآية فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله

﴿ مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه (ومن ضل) أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فإنما ينجى على نفسه وإنما يعود وبال ذلك عليه ثم قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا يحمل أحد ذنب أحد ولا ينجى جان إلا على نفسه كما قال تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء) ولا منافاة بين هذا وبين قوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقوله (ومن أوزار الذين يضلوهم بغير علم) فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ولا يحمل عنهم شيئا وهذا من عدل الله ورحمته بعباده وكذا قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أخبار عن عدله تعالى وأنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه بارسال الرسول إليه كقوله تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاء نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) وكذا قوله (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم منكم يتاون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وقال تعالى (وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فمسا للظالمين من نصير) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء في اللفظة التي جاءت معجزة في صحيح البخارى عند قوله تعالى (إن رحمة الله قريب من المحسنين) حدثنا عبد الله بن سعد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن صالح بن كيسان عن الأعرج بإسناده إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال « وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحدا وإنه ينشئ للنار خلقا فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ؟ ثلاثا » وذكر تمام الحديث فهذا إنما جاء في الجنة لأنها دار فضل وأما النار فإنها دار عدل لا يدخلها أحد إلا بعد الاعتذار إليه وقيام الحجة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخارى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ « تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال « فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه فتقول قط فها لك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا »

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديما وحديثا وهى الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف ومن مات في الفتره ولم تبلغه دعوته وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه ثم نذكر فضلا ملخصا من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان ﴿ فالحديث الأول ﴾ عن الأسود

ابن سريـع قال الإمام أحمد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود ابن سريـع أن رسول الله ﷺ قال « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً . ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في فترة ، فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبر ، وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول . فبدأ خدموا نبيهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذي نفس محمد بيده لودخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » وبالسناد عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله غير أنه قال في آخره « فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن لم يدخلها يسحب اليها » وكذا رواه إسحق بن راهويه عن معاذ بن هشام ، ورواه البيهقي في كتاب الاعتقاد من حديث أحمد بن إسحاق عن علي بن عبد الله المديني به وقال هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي رافع عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أربعة كلهم يدلي على الله بحجة » فذكر نحوه ، ورواه ابن جرير من حديث معمر بن همام عن أبي هريرة فذكره مرفوعاً ، ثم قال أبو هريرة فاقروا إن شئتم (وما كنا معذنين حق نبعت رسولا) وكذا رواه معمر بن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفاً

(الحديث الثاني) عن أنس بن مالك . قال أبو داود الطيالسي حدثنا الربيع عن يزيد هو ابن أبان قال : قلنا لأنس يا أبا حمزة ما تقول في أطفال المشركين ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « لم يكن لهم سيئات فيعذبوا بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من أهل الجنة »

(الحديث الثالث) عن أنس أيضاً . قال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن ليث عن عبد الوارث عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأربعة يوم القيامة : بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الفاني لهم كلهم يتكلم فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار ابرز ويقول لهم إني كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم ادخلوا هذه قال : فيقول من كتب عليه الشقاء يارب آني ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال ومن كتب عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً ، قال : فيقول الله تعالى أتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار ، وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد بإسناده مثله (الحديث الرابع) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده أيضاً حدثنا قاسم بن أبي شبة حدثنا عبد الله يعني ابن داود عن عمر بن زرع عن يزيد بن أمية عن البراء قال . سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال « هم مع آبائهم » وسئل عن أولاد المشركين فقال « هم مع آبائهم » فقيل يا رسول الله ما يعملون ، قال « الله أعلم بهم » ورواه عمر بن زرع عن يزيد بن أمية عن رجل عن البراء عن عائشة فذكره

(الحديث الخامس) عن ثوبان قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الحاق البزار في مسنده حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا ربحان بن سعيد حدثنا عباد بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة قال « إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون ربنا لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا لك أمر ولو أرسلت إلينا رسولا لسكننا أطوع عبادك فيقول لهم ربهم أرايتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون نعم ، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تعيظاً وزفيراً فرجعوا إلى ربهم فيقولون ربنا أخرجنا أو أجرنا منها ، فيقول لهم ألم ترعوا أني إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك موافقهم فيقول اعمدوا إليها فادخلوها فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا وقالوا ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول ادخلوها داخرين » فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « لودخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً » ثم قال البزار ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه لم يروه عن أيوب إلا عباد ولا عن عباد إلا ربحان بن سعيد ، قلت وقد ذكره ابن حبان في ثقافته ، وقال يحيى بن معين والنسائي لا بأس به ولم ير ضه أبو داود ، وقال أبو حاتم شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به (الحديث السادس) عن

أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الحدرى : قال الإمام محمد بن يحيى الذهلى حدثنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الهالك في الفترة والمعتوه والولود : يقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ، ويقول المعتوه رب لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ، ويقول الولود رب لم أدرك العقل فترفع لهم نار فيقال لهم ردوها ، قال فيردها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان في علم الله شقياً لو أدرك العمل ، فيقول إياى عصيتم فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ ! » وكذا رواه البزار عن محمد بن عمر بن هياج الكوفي عن عبيد الله بن موسى عن فضيل بن مرزوق به ثم قال لا يعرف من حديث أبي سعيد إلا من طريقه عن عطية عنه ، وقال في آخره « فيقول الله إياى عصيتم فكيف برسلى بالغيب » (الحديث السابع) عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال هشام بن عمار ومحمد بن المبارك الصورى حدثنا عمرو بن واقد عن يونس بن جليس عن أبي إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل عن نبي الله ﷺ قال « يؤتى يوم القيامة بالمسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيراً فيقول المسوخ يارب لو آتيتنى عقلا ما كان من آتيتنى عقلا بأسعد منى » وذكر في الهالك في الفترة والصغير نحو ذلك « فيقول الرب عز وجل إني أمركم بأمر فطيعوني ، فيقولون نعم فيقول اذهبوا فادخلوا النار قال ولو دخلوها ما ضرهم فتخرج عليهم قوابص فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون سراعا ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك فيقول الرب عز وجل قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون وعلى علمى خلقتكم وإلى علمى تصيرون ، ضمهم ، فتأخذهم النار » (الحديث الثامن) عن أبي هريرة رضى الله عنه وأرضاه . قد تقدم روايته مدرجة مع رواية الأسود ابن سريع رضى الله عنه وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ، » وفي رواية قلوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً ، قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » . وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا عبد الرحمن بن ثابت عن عطاء بن قره عن عبد الله بن ضمرة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فيما أعلم شك موسى قال « ذرارى المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن حماد عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال « إني خلقت عبادى حنفاء » وفي رواية لغيره « مسلمين » (الحديث التاسع) عن سمرة رضى الله عنه رواه الحافظ أبو بكر البرقاني في كتابه المستخرج على البخارى من حديث عوف الأعرابى . عن أبي رجاء العطاردى عن سمرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « كل مولود يولد على الفطرة » فناداه الناس يا رسول الله وأولاد المشركين ، قال « وأولاد المشركين » وقال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبه ابن مكرم الضبي عن عيسى بن شعيب عن عباد بن منصور عن أبي رجاء عن سمرة قال سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال « هم خدم أهل الجنة »

(الحديث العاشر) عن عم خنساء . قال أحمد حدثنا روح حدثنا عوف عن خنساء بنت معاوية عن بنى صريم قالت حدثنى عمى قال : قلت يا رسول الله من فى الجنة ، قال « النبى فى الجنة والشهيد فى الجنة والولود فى الجنة والوئيد فى الجنة » . فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث ، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب فى صحيح البخارى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان فقال له جبريل هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين قالوا يا رسول الله وأولاد المشركين ، قال « نعم وأولاد المشركين » ومنهم من جزم لهم بالنار لقوله عليه السلام « هم مع آبائهم » ومنهم من ذهب إلى أنهم يتمتعون يوم القيامة فى العرصات فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة ، ومن عصى دخل النار داخرا وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة . وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها وقد صرحت به الأحاديث المقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض : وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى عن أهل السنة والجماعة وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب الاعتقاد وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ

والنقاد . وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى بعد ما تقدم من أحاديث الامتحان ثم قال ، وأحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل ولا ابتلاء فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ﴿ والجواب ﴾ عما قال أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن ، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال وقد قال تعالى (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود) الآية ، وقد ثبت في الصحيح وغيرها أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفحة الواحدة طبقا واحداً كما أراد السجود خرق لقفاه . وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه ويتكرر ذلك مراراً ويقول الله تعالى يا ابن آدم ما أغدرك ثم يأذن له في دخول الجنة ، وأما قوله فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم فليس هذا بمنع من صحة الحديث فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ومنهم الساعي ومنهم الماشي ومنهم من يحب حبواً ومنهم المكدوش على وجهه في النار . وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فانه يكون عليه برداً وسلاماً فهذا نظير ذاك ، وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل وهذا أيضاً شاق على النفوس جدا لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور والله أعلم . ﴿ فصل ﴾ إذا تقرر هذا فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال ﴿ أحدها ﴾ أنهم في الجنة واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم في رواية أحمد عن خنساء عن عمها أن رسول الله ﷺ قال « والمولود في الجنة » وهذا استدلال صحيح ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم الله منه أنه يطيع جعل روحه في البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجب فأمره إلى الله تعالى ويوم القيامة يكون في النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان ونقله الأشعري عن أهل السنة ، ثم إن هؤلاء القائلين بأنهم في الجنة منهم من يجعلهم مستقلين فيها ومنهم من يجعلهم خدماً لهم كما جاء في حديث علي بن زيد عن أنس عند أبي داود الطيالسي وهو ضعيف والله أعلم (والقول الثاني) أنهم مع آبائهم في النار واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي المغيرة حدثنا عبدة بن ضمرة ابن حبيب حدثني عبد الله بن أبي قيس مولى غطيف أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت: قال رسول الله ﷺ « هم تبع لآبائهم » فقلت يا رسول الله بلا أعمال ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن محمد بن حرب عن محمد بن زياد الهماني سمعت عبد الله بن أبي قيس سمعت عائشة تقول سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذراري المؤمنين قال « هم مع آبائهم » قلت فذراري المشركين ؟ قال « هم مع آبائهم » فقلت بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ورواه أحمد أيضاً عن وكيع عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل وهو متروك عن مولاته بهية عن عائشة أنها ذكرت أطفال المشركين لرسول الله ﷺ فقال « إن شئت أسمعك تضاعفهم في النار » وروى عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا عثمان بن أبي شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي رضي الله عنه قال : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية فقال « هما في النار » قال فلما رأى الكراهية في وجهها فقال لها « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت فولدى منك ؟ قال

« إن المؤمنين وأولادهم في الجنة وإن المشركين وأولادهم في النار - ثم قرأ - (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان أحقنا بهم ذريتهم) » وهذا حديث غريب فإن في إسناده محمد بن عثمان مجهول الحال وشيخه زاذان لم يدرك علياً والله أعلم . وروى أبو داود من حديث ابن أبي زائدة عن أبيه عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ « الوائدة والموءودة في النار » ثم قال الشعبي حدثني به علقمة عن أبي وائل عن ابن مسعود ، وقد رواه جماعة عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن سلمة بن قيس الأشجعي قال : أتيت أنا وأخي النبي ﷺ فقلنا إن أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقرى الضيف وتصل الرحم وإنها وأدت أختنا في الجاهلية لم تبلغ الحنف فقال « الوائدة والموءودة في النار إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم » وهذا إسناد حسن

﴿ والقول الثالث ﴾ التوقف فيهم واعتمدوا على قوله صلى الله عليه وسلم « الله أعلم بما كانوا عاملين » وهو في الصحيحين من حديث جعفر بن أبي إياس عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وكذلك هو في الصحيحين من حديث الزهري عن عطاء بن يزيد ، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سئل عن أطفال المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة لأن الأعراف ليس دار قرار ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف والله أعلم

﴿ فصل ﴾ ولعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي تقطع به إن شاء الله عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن بعض العلماء أنهم توقفوا في ذلك وأن الولدان كلهم تحت المشيئة ، قال أبو عمر ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث منهم حماد بن زيد وحماد ابن سلمة وابن المبارك وإسحق بن راهويه وغيرهم قالوا وهو يشبه ما رسم مالك في موطنه في أبواب القدر وما أورده من الأحاديث في ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه وليس عن مالك فيه شيء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة انتهى كلامه وهو غريب جداً ، وقد ذكر أبو عبد الله القرطبي في كتاب التذكرة نحو ذلك أيضاً والله أعلم . وقد ذكرنا أيضاً حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال « أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم . وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم » رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه . ولما كان الكلام في هذه المسئلة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة وقد يتكلم فيها من لا علم عند عن الشارع كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن الحنفية وغيرهم وأخرج ابن حبان في صحيحه عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العطاردي سمعت ابن عباس رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يزال أمر هذه الأمة موالياً أو مقارباً ما لم يتكلموا في الولدان والقدر » قال ابن حبان يعني أطفال المشركين ، وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم به ثم قال وقد رواه جماعة عن أبي رجاء عن ابن عباس موقوفاً

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله (أمرنا) فالمشهور قراءة التخفيف واختلف المفسرون في معناها ف قيل معناه أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً كقوله تعالى (أتاها أمرنا ليلاً ونهاراً) إن الله لا يأمر بالفحشاء ، قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة رواه ابن جريج

عن ابن عباس وقاله سعيد بن جبيرة أيضاً ، وقال ابن جرير يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء قلت إنما يحى هذا على قراءة من قرأ (أمرنا مترفياً) قال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله (أمرنا مترفياً ففسقوا فيها) يقول ساطعنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب وهو قوله (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها) الآية وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس ، وقال العوفي عن ابن عباس (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ففسقوا فيها) يقول أكثرت أعدادهم وكذا قال عكرمة والحسن والضحاك وقتادة ، وعن مالك عن الزهري (أمرنا مترفياً) أكثرتنا ، وقد استشهد بعضهم بالحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا روح بن عبادة حدثنا أبو نعيم العدوي عن مسلم بن بديل عن إياس ابن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة » قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه الغريب المأمورة كثيرة النسل والسكة الطريقة المصطفة من النخل والمأبورة من التأبير ، وقال بعضهم إنما جاء هذا متناسبا كقوله : « مأزورات غير مأجورات »

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه قد أهلك أئمة من المكذبين للرسول من بعد نوح ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فحقوبتكم أولى وأحرى . وقوله (وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) أي هو عالم بجميع أعمالهم خيراً وشرها لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْأَلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء وهذه مقيدة لاطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال (عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم) أي في الدار الآخرة (يصلها) أي يدخلها حتى تعمه من جميع جوانبه (مذموماً) أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه ، إذ اختار الفاني على الباقي (مدحوراً) مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً . روى الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا رويد عن أبي إسحق عن زرعة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وقوله (ومن أراد الآخرة) أي أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور (وسعى لها سعيها) أي طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (وهو مؤمن) أي قلبه مؤمن أي مصدق بالثبوت والجزاء (فأولئك كان سعيهم مشكوراً)

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

يقول تعالى (كلا) أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه (من عطاء ربك) أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجوز فيعطى كلا ما يستحقه من السعادة والشقاوة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى ولا مغير لما أراد ولهذا قال (وما كان عطاء ربك محظوراً) أي لا يمنعه أحد ولا يردده راد . قال قتادة (وما كان عطاء ربك محظوراً) أي منقوصاً ، وقال الحسن وغيره أي ممنوعاً ثم قال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)

بعضهم على بعض) أى فى الدنيا فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقيبح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا فإن منهم من يكون فى الدرجات وسلاسلها وأغلاها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه كما أن أهل الدرجات يتفاوتون فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وفى الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء » ولهذا قال تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) وفى الطبرانى من رواية زاذان عن سلمان مرفوعاً « ما من عبد يريد أن يرتفع فى الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله فى الآخرة أكبر منها » ثم قرأ (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً (فتقعد مذموماً) أى على إشراكك به (مخذولاً) لأن الرب تعالى لا ينصرك بل يهلكك إلى الذى عبدت معه وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا بشير بن سليمان عن سيار أبي الحكم عن طارق بن شهاب عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغبى إما أجلاً وإما غنى عاجلاً » ورواه أبو داود والترمذى من حديث بشير بن سلمان به ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَٰغِضُ إِلَيْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

يقول تعالى أمر بعبادته وحده لا شريك له فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد (وقضى) يعنى وصى ، وكذا قرأ أبو بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال (وبالوالدين إحساناً) أى وأمر بالوالدين إحساناً كقوله فى الآية الأخرى (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وقوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما آف) أى لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأنيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ (ولا تنهرهما) أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح كما قال عطاء بن أبي رباح فى قوله (ولا تنهرهما) أى لا تنفض يدك عليهما ، ولما نهى عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال (وقل لهما قولاً كريماً) أى لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) أى تواضع لهما بفعلك (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) أى فى كبرهما وعند وفاتهما ، قال ابن عباس ثم أنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال « آمين آمين آمين » قيسل يا رسول الله علام ماأمنت ؟ قال « أتانى جبريل فقال يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل آمين ، فقلت آمين ، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل آمين فقلت آمين ، ثم قال رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة ، قل آمين ، فقلت آمين » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا علي بن زيد عن زارة بن أوفى عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول « من ضم يتيماً من أبوين

مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة البتة ومن أعتق امرأ مسلماً كان فكاً من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه » ثم قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت علي بن زيد فذكر معناه إلا أنه قال عن رجل من قومه يقال له مالك أو ابن مالك وزاد « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار فأبعده الله »

(حديث آخر) وقال الإمام أحمد حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن زرارة بن أوفى عن مالك بن عمرو القشيري سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار فان كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا حدثنا شعبة عن قتادة سمعت زرارة بن أوفى يحدث عن أبي مالك القشيري قال : قال النبي ﷺ « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه » ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة به وفيه زيادات آخر (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة » صحيح من هذا الوجه ولم يخرجوه سوى مسلم من حديث أبي عوانة وجريير وسليمان بن بلال عن سهيل به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا ربعي بن إبراهيم قال أحمد وهو أخو إسماعيل ابن علي وكان يفضل على أخيه عن عبد الرحمن بن إسحق عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فأنسلخ فلم يغفر له ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة » قال ربعي لا أعلمه إلا قال « أو أحدهما » ورواه الترمذي عن أحمد بن إبراهيم الدورقي عن ربعي بن إبراهيم ثم قال غريب من هذا الوجه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا محمد حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل حدثنا أسيد بن علي عن أبيه عن أبي عبيد عن أبي أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدي قال بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من الأنصار فقال يا رسول الله هل بقي على من برأبوى شيء بعد موتها أبرهما به ، قال « نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن سليمان وهو ابن الغسيل به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني محمد بن طلحة بن عبيد الله بن عبد الرحمن عن أبيه عن معاوية بن جهمه السلمي أن جهمه جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال « فهل لك من أم » قال نعم قال « فالزمها فان الجنة عند رجلها » ثم الثانية ثم الثالثة في مقاعد شتى كمثل هذا القول ، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث ابن جريج به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدم بن معديكرب عن النبي ﷺ قال « إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالآقرب فالأقرب » وأخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عياش به .

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا يونس حدثنا أبو عوانة عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بني ربوع قال أتيت النبي ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول « يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده حدثنا إبراهيم بن المستمر العروقي حدثنا عمرو بن سفيان حدثنا الحسن بن أبي جعفر عن ليث بن أبي سليم عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً معه يطوف بها فسأل النبي صلى الله عليه وسلم هل أدت حقها قال « لا ولا بفرقة واحدة » أو كما قال ثم قال البزار لانه لم يروى إلا من هذا الوجه . قلت والحسن بن أبي جعفر ضعيف والله أعلم

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾

قال سعيد بن جبير هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك فقال (ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين) وقوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قال قتادة للمطيعين أهل الصلاة ، وعن ابن عباس المسيحين وفي رواية عنه المطيعين المحسنين ، وقال بعضهم هم الذين يصلون بين العشاءين وقال بعضهم هم الذين يصلون الضحى ، وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قال الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون ، وكذا رواه عبد الرزاق عن الثوري ومعمّر عن يحيى بن سعيد عن ابن المسيب بنحوه وكذا رواه الليث وابن جرير عن ابن المسيب به وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد هم الراجعون إلى الخير وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الحلاء فيستغفر الله منها ووافقه مجاهد في ذلك ، وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلمة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير في قوله (فإنه كان للأوابين غفوراً) قل كنا نعد الأبواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لي ما أصبت في مجاسي هذا . وقال ابن جرير والأولى في ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجوع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه ، وهذا الذي قاله هو الصواب لأن الأبواب مشتق من الأبواب وهو الرجوع يقال آب فلان إذا رجع قال تعالى (إن إلينا إيابهم) وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رجع من سفر قال « آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون »

﴿ وَآتَاكَ الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُوراً ﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث « أمك وأباك ثم أدناك أدناك » وفي رواية « ثم الأقرب فالأقرب » وفي الحديث « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه » وقال الحافظ أبو بكر البرار حدثنا عباد بن يعقوب حدثنا أبو يحيى التيمي حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال لما نزلت (وآت ذا القربى حقه) دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاه فسدك ثم قال لانعم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمي وحيد بن حماد بن الحوار وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده لأن الآية مكية وفدك إنما فتحت مع خير سنة سبع من الهجرة فكيف يلتزم هذا مع هذا ؟ فهو إذا حديث منكر والأشبه أنه من وضع الرافضة والله أعلم : وقد تقدم الكلام على المساكين وأبناء السبيل في سورة براءة بما أغنى عن إعادته ههنا ، وقوله (ولا تبذر تبذيراً) لما أمر بالانفاق نهى عن الإسراف فيه بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية ثم قال منفراً عن التبذير والسرف (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أي أشباههم في ذلك . قال ابن مسعود التبذير الانفاق في غير حق وكذا قال ابن عباس وقال مجاهد لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً . وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد . وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ « تخرج الزكاة من مالك إن كان فانها طهرة تطهرك وتصل أقرباءك وتعرف حق السائل والجار والمساكين » فقال يا رسول الله أقلل لي ؟ قال (فآت ذا القربى حقه والمساكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً) فقال حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله فقال رسول الله ﷺ

« نعم إذا أدبتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها ، وإنما على من بدلها » وقوله (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) أى فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته ولهذا قال (وكان الشيطان لربه كفوراً) أى جحوداً لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته بل أقبل على معصيته ومخالفته ، وقوله (وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك) الآية أى إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بأعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة (فقل لهم قولا ميسوراً) أى عدم وعدا بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله ، هكذا فسر قوله (فقل لهم قولا ميسوراً) بالوعد : مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر والحسن وقتادة وغير واحد

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى آمراً بالاعتدال فى العيش دأماً للبخل ناهياً عن السرف (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى لا تكن بخيلاً ممنوعاً لا تعطى أحدا شيئاً كما قالت اليهود عليهم لعائن الله يد الله مغلولة أى نسبوه إلى البخل تعالى وتقدس الكريم الوهاب وقوله (ولا تبسطها كل البسط) أى ولا تسرف فى الانفاق فتعطى فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتعبد ملوماً محسوراً وهذا من باب ألف والضم أى فتعبد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى سلمى فى العاقبة

ومن كان ذا مال فيبخل بماله * على قومه يستغن عنه ويذمم

ومنى بسطت يدك فوق طاقتك تعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير وهو الدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً فانها تسمى الحسير وهو مأخوذ من الكلال كما قال (فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقاب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أى كليل عن أن يرى عيباً هكذا فسر هذه الآية بأن المراد هنا البخل والسرف : ابن عباس والحسن وقتادة وابن جرير وابن زيد وغيرهم ، وقد جاء فى الصحيحين من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « مثل البخل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من نديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع » هذا لفظ البخارى فى الزكاة وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ « أنفق هكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ولا توكل فيوكل الله عليك » وفى لفظ « ولا تحصى فيحصى الله عليك » وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قال لى أنفق أنفق عليك » وفى الصحيحين من طريق معاوية بن أبى مزرع عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً » وروى مسلم عن قتبية عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعاً « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله » وفى حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعاً « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعه ففجروا » وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً »

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا سكين بن عبد العزيز حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وقوله (إن ربك يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر) إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء فيغني من يشاء ويفقر من يشاء لما له في ذلك من الحكمة ولهذا قال (إنه كان عباده خيرا بصيرا) أى خيرا بصيرا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر كما جاء في الحديث « إن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا ، والفقر عقوبة عيادا بالله من هذا وهذا

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنْزِلُ عَنْكُمْ نَزْرُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الولد بولده لأنه نهى عن قتل الأولاد كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أى خوف أن تفتقروا فى ثنى الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال (نحن نرزقهم وإياكم) وفى الأنعام (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) أى من فقر (نحن نرزقكم وإياهم) وقوله (إن قتلهم كان خطئا كبيرا) أى ذنبا عظيما وقرأ بعضهم كان خطأ كبيرا وهو بمعناه ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك — قلت ثم أى ؟ — قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك — قلت ثم أى ؟ — قال أن تزاني بحليلة جارك »

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده عن الزنا وعن مقاربتة ومخالطة أسبابه ودواعيه (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة) أى ذنبا عظيما (وساء سبيلا) أى وبس طريقا ومسلكا

وقد قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا جرير حدثنا سليم بن عامر عن أبي أمامة أن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه فقال « ادنه » فدنا منه قريبا فقال « اجلس » فجلس فقال « أتحبه لأملك » ؟ قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأمهاتهم قال « أتحبه لابنتك ؟ » قال لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لبناتهم قال « أتحبه لأختك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لأخواتهم قال « أتحبه لعمتك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لعماتهم قال « أتحبه لخالاتك ؟ » قال لا والله جعلنى الله فداك قال ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال فوضع يده عليه وقال « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه و أحصن فرجه » قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء . وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن الميثم بن مالك الطائى عن النبي ﷺ قال « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له »

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾

يقول تعالى ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعى كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا باحدى ثلاث : النفس بالنفس والزانى المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفى السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » وقوله (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى سلطنة على القاتل فانه بالخيار فيه إن شاء قتله قودا وإن شاء عفا عنه على الدية وإن شاء عفا عنه مجانا كما ثبتت السنة بذلك . وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية

السلطنة أنه سيملك لأنه كان ولي عثمان وقد قتل عثمان مظلوماً رضي الله عنه وكان معاوية يطالب علياً رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم لأنه أموي وكان على رضي الله عنه يستمهل في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأتي معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما قاله ابن عباس واستنبطه من هذه الآية الكريمة وهذان الأمر العجب ، وقدرى ذلك الطبراني في معجمه حيث قال حدثنا يحيى بن عبد الباقي حدثنا أبو عمير بن النحاس حدثنا ضمرة بن ربيعة عن ابن شاذب عن مطر الوراق عن زهيد الجرمي قال : كنا في سمر ابن عباس فقال : إني محدثكم بحديث ليس بسر ولا علانية إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان يعني عثمان قلت لعل اعترل فلو كنت في جحر طلبت حتى تستخرج فعصاني ، وإيم الله ليتأمرن عليكم معاوية وذلك أن الله يقول (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل) الآية وليجملنكم قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس ، فمن أخذ منكم يومئذ بما يعرف نجا ، ومن ترك وأتم تاركون كنتم كقرون من القرون هلك فيمن هلك ، وقوله (فلا يسرف في القتل) قالوا معناه فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أويقص من غير القاتل ، وقوله (إنه كان منصوراً) أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وغالباً وقدر

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

يقول تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده) أي لاتتصرفوا في مال اليتيم إلا بالعبطة (ولا تأكلوها)^(١) إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستغفف ومن كان فقيراً فليأكل كل بالمعروف) وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لاتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم » وقوله (وأوفوا بالعهد) أي الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه (إن العهد كان مسئولاً) أي عنه وقوله (وأوفوا الكيل إذا كلتهم) أي من غير تطفيف ولا تبخسوا الناس أشياءهم (وزنوا بالقسطاس) قرئ بضم القاف وكسر ها كالقسطاس وهو الميزان قال مجاهد هو العدل بالرومية وقوله (المستقيم) أي الذي لا عوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب (ذلك خير) أي لكم في معاشكم ومعادكم ولهذا قال (وأحسن تأويلاً) أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم . قال سعيد عن قتادة (ذلك خير وأحسن تأويلاً) أي خير ثواباً وأحسن عاقبة . وابن عباس كان يقول يامعشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم هذا المسكيات وهذا الميزان ، قال وذكرنا أن نبي الله عليه الصلاة والسلام كان يقول « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك »

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول لا تقفل ، وقال العوفي لا ترم أحداً بما ليس لك به علم وقال محمد ابن الحنفية يعني شهادة الزور ، وقال قتادة لاتقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وعلمت ولم تعلم فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذي هو التوهم والخيال كما قال تعالى (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) وفي الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بشئ مطية الرجل زعموا » وفي الحديث الآخر « إن أفرى الفري أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا » وفي الصحيح « من تحلم حلماء كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل » وقوله (كل أولئك) أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد (كان عنه مسئولاً) أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة وتساءل عنه وعما عمل فيها

(١) في جميع النسخ: ولانأكلوا أموالكم إسرافاً الخ وهو غلط ، ربما كان سببه أن المصنف ذكر أولاً الآية ولانأكلوا أموالهم إلى أموالكم ثم ذكر هذه فسقط من النسخ آخر الآية الأولى وأول الثانية .

ويصح استعمال أولئك مكان تلك كما قال الشاعر :

فم المنازل بعد منزلة اللوى * والعيش بعد أولئك الأيام

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبخر في المشية (ولا تمش في الأرض مرحاً) أى متبخترا متايلا مشى الجبارين (إنك لن تخرق الأرض) أى لن تقطع الأرض بمشيك قاله ابن جرير واستشهد عليه بقول ربيعة بن العجاج :

* وقاتم الأعماق خاوى المخترقن *

وقوله (ولن تبلغ الجبال طولا) أى بتأيلك وفخرك وإعجابك بنفسك ، بل قد يحازى فاعل ذلك بنقيض قصده كما ثبت في الصحيح « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض وفي الحديث « من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لمه أبعض إليهم من السكاب والخزير » وقال أبو بكر بن أبي الدنيا في كتاب الخمول والتواضع : حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير حدثنا حجاج بن محمد عن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر عليه ابن الأهم يريد المنصور وعليه جباب خز قد نسد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشى ويتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثاني عطفه ، مصر خده ، ينظر في عطفه ، أى حميق ينظر في عطفه في نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ، والله ان يمشى أحدهم طبيعته يتأجلج تأجلج المجنون في كل عضو منه نعمة ، وللشيطان به لعنة فسمعه ابن الأهم فرجع يعتذر إليه ، فقال لاعتذر إلى ربك إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً) إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) ورأى البختری العابد رجلاً من آل على يمشى وهو يخطر في مشيته فقال له ياهذا : إن الذى أكرمك به لم تكن هذه ، شيته قال فتركها الرجل بعد . ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته فقال إن للشياطين إخواناً وقال خالد بن معدان : إياكم والخطر فإن الرجل يده من سائر جسده رواها ابن أبي الدنيا ، وقال ابن أبي الدنيا حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا حماد بن زيد عن يحيى عن سعيد عن محسن قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مشيت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض » وقوله (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) أما من قرأ سيئة أى فاحشة فعنائه عنده كل هذا الذى نهينا عنه من قوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) إلى هنا فهو سيئة مؤاخذ عليها مكروهاً عند الله لا يحبه ولا يرضاه ، وأما من قرأ سيئه على الإضافة فعنائه عنده كل هذا الذى ذكرناه من قوله (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) إلى هنا فسيئه أى قبيحه مكروه عند الله ، هكذا وجه ذلك ابن جرير رحمه الله

﴿ ذَلِكَ يَمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَقْلَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾

يقول تعالى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتأق في جهنم ملوماً) أى تلومك نفسك ويلومك الله والخلق (مدحوراً) أى مبعداً من كل خير ، قال ابن عباس وقتادة مطروداً والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فانه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى رادا على المشركين الكاذبين الزاعمين عليهم لعائن الله ان الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، ثم ادعوا أنهم بنات الله ثم عبدهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً فقال تعالى منكر عليهم (أفأصفاكم ربكم بالبنين) أى خصصكم بالذكور (واتخذ من الملائكة إناثاً) أى واختار لنفسه على زعمكم البنات ثم شدد الإنكار عليهم فقال (إنكم لتقولون قولا عظيماً) أى في زعمكم أن لله ولداً ثم جعلكم ولده الاناث التى تأنفون أن يكن لكم ورعاً قتلتموهن بالوأد فتلك إذا قسمة ضيزى وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتمكم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكأهم آتية يوم القيامة فردا) .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يقول تعالى (ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم بذكور ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ فينزعروا عما هم فيه من الشرك والظلم والافك (وما يزيدهم) أى الظالمين منهم (إلا نفورا) أى عن الحق وبعداً منه .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَّبِعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفاً لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والتقربة فاعبدوه أتم وحده كما يعبدونه تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه فإنه لا يخب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال (سبحانه وتعالى عما يقولون) أى هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى (علواً كبيراً) أى تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً

﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن أى من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته

ففى كل شىء له آية * تدل على أنه واحد

كما قال تعالى (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً) وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سليمان بن ميمون مؤذن مسجد الرملة حدثنا عروة بن رويم عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين القام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع . فلما رجع قال « سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع نسيج كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لدى العلو بما علا ، سبحان

العلی الأعلی سبحانه وتعالی . وقوله (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) أى وما من شیء من المخلوقات إلا یسبح بحمد الله (ولكن لا تفقهون تسبیحهم) أى لا تفقهون تسبیحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فی الحيوانات والجمادات والنباتات وهذا أشهر القولین كما ثبت فی صحیح البخاری عن ابن مسعود أنه قال كنا نسمع تسبیح الطعام وهو يؤكل . وفی حدیث أبی ذر أن النبی ﷺ أخذ فی یده حصیات فسمع لمن تسبیح کحنین النحل ، وكذا فی ید أبی بکر وعمر وعثمان رضی الله عنهم وهو حدیث مشهور فی المسانید ، وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهیعة حدثنا زبأن عن سهل بن معاذ عن ابن أنس عن أبیه رضی الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل علی قوم وهم وقوف علی دواب لهم ورواحل فقال لهم « اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسی لأحادیثكم فی الطرق والأسواق قرب مركوبة خیر من راکبها وأكثر ذكرا لله منه » وفی سنن النسائی عن عبد الله بن عمرو قال : نهی رسول الله صلی الله علیه وسلم عن قتل الضفدع وقال « نقیقها تسبیح » وقال قتادة عن عبد الله بن أبی عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهی كلمة الإخلاص التي لا یقبل الله من أحد عملا حتی یقولها ، وإذا قال الحمد لله فهی كلمة الشکر التي لم یشكر الله عبد قط حتی یقولها ، وإذا قال الله أكبر فهی تملأ ما بین السماء والأرض ، وإذا قال سبحان الله فهی صلاة الخلائق التي لم یدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبیح . وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدي واستسلم . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن وهب حدثنا جریر حدثنا أبی سمعت مصعب بن زهیر یحدث عن زید بن أسلم عن عطاء بن یسار عن عبد الله بن عمرو قال أتى النبی ﷺ أعرابی علیه جبة من طیالسة مكفوفة بدیاج : أومزورة بدیاج فقال إن صاحبكم هذا یرید أن یرفع كل راع بن راع ویضع كل رأس بن رأس فقام إلیه النبی ﷺ مغضباً فأخذ بمجامع جبهته فاجتذبه فقال « لا أرى علیك ثياب من یعقل » ثم رجع رسول الله صلی الله علیه وسلم فجلس فقال « إن نوحا علیه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنیه فقال إنی قاص علیكما الوصیة آمركما باثنتین وأنها كما عن اثنتین أنها كما عن الشرك بالله والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله فان السموات والأرض وما فیهما لو وضعت فی كفة المیزان ووضعت لا إله إلا الله فی الكفة الأخری كانت أرجح ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله علیهما لقصصتهما أو لقصصتهما ، وأمركما بسبحان الله وبحمده فانها صلاة كل شیء وبها یرزق كل شیء ورواه الإمام أحمد أيضاً عن سلیمان بن حرب عن حماد بن زید عن مصعب بن زهیر به أطول من هذا وتفرد به ، وقال ابن جریر حدثنی نصر بن عبد الرحمن الأودی حدثنا محمد بن یعلی عن موسى بن عبدة عن زید بن أسلم عن جابر بن عبد الله رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أخبركم بشیء أمر به نوح ابنه ؟ إن نوحا علیه السلام قال لابنه یا بنی آمرك أن تقول سبحان الله فانها صلاة الخلق وتسبیح الخلق وبها یرزق الخلق » قال الله تعالی (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) إسناده فیہ ضعف فان الأودی ضعیف عند الأكثرین ، وقال عكرمة فی قوله تعالی (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) قال الاسطوانة تسبح والشجرة تسبح - الاسطوانة الساریة - وقال بعض السلف : صریر الباب تسبیحه وخریر الماء تسبیحه قال الله تعالی (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) وقال سفیان الثوری عن منصور عن إبراهیم قال الطعام یسبح ویشهد لهذا القول آیه السجدة فی الحج ، وقال آخرون إنما یسبح من كان فیہ روح یعنون من حیوان ونبات قال قتادة فی قوله (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) قال كل شیء فیہ روح یسبح من شجر أو شیء فیہ ، وقال الحسن والضحاك فی قوله (وإن من شیء إلا یسبح بحمده) قال كل شیء فیہ الروح وقال ابن جریر حدثنا محمد بن حمید حدثنا یحیی بن واضح وزید بن حباب قال حدثنا جریر أبو الخطاب قال كنا مع زید الرقاشی ومعه الحسن فی طعام فقدموا الخوان ، فقال زید الرقاشی یا أبا سعد یسبح هذا الخوان ؟ فقال كان یسبح مرة - قلت الخوان هو المائدة من الخشب - فكان الحسن رحمه الله ذهب إلی أنه لما كان حیا فیہ خضرة كان یسبح فلما قطع وصار خشبة یايسة انقطع تسبیحه وقد یتأنس لهذا القول بحدیث ابن عباس أن رسول الله صلی الله علیه وسلم مر بقبرین فقال « إنهما لیعذبان وما یعذبان فی کبر أما أحدهما فكان لا یتنزه من القول وأما الآخر فكان

يمشى بالتيمة » ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة ثم قال « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » أخرجه في الصحيحين قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة فإذا يبسا انقطع تسبيحهما والله أعلم وقوله (إنه كان حليماً غفوراً) أى إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فان استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) الآية وقال تعالى (وكأين من قرية أهلكنا) لها وهي ظالمة) الآية وقال (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة) الآية ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه تاب عليه كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله) الآية وقال ههنا (إنه كان حليماً غفوراً) كما قال في آخر فاطر (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً) إلى أن قال (ولو يؤاخذ الله الناس) إلى آخر السورة .

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أُبْرِهِمْ نُفُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً قال قتادة وابن زيد هو الأكنة على قلوبهم كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) أى مانع حائل أن يصل إلينا بما نقول شيء وقوله (حجاباً مستوراً) بمعنى ساتر كيمون ومشوم بمعنى يامن وشائم لأنه من بينهم وقيل مستوراً عن الأبصار فلا تراه وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى ومال إلى ترجيحه ابن جرير رحمه الله وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو موسى الهروى إسحق بن إبراهيم حدثنا سفيان عن الوليد بن كثير عن يزيد بن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله تعالى عنها قالت لما نزلت (تبت يدا أبي لهب) جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول: مذما أتيننا - أو أتيننا - قال أبو موسى الشك منى، ودينه قلينا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس وأبو بكر إلى جنبه فقال أبو بكر رضى الله عنه لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك فقال « إنها لن ترانى » وقرأ قرآنا اعتصم به منها (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً) قال فجاءت حتى قامت على أبي بكر فلم تر النبي ﷺ فقالت يا أبا بكر بلغنى أن صاحبك هجانى فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ما هجاك قال فانصرفت وهي تقول لقد علمت قريش أنى بنت سيدها . وقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) وهي جمع كنان الذى يغشى القلب (أن يفقهوه) أى لئلا يفهموا القرآن (وفي آذانهم وقراً) وهو الثقل الذى يمنعهم من مماع القرآن، مماعا ينفعهم ويهدون به . وقوله تعالى (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) أى إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت لا إله إلا الله (ولوا) أى أدبروا راجعين (على أديبارهم نفوراً) ونفور جمع نافر كنعود جمع قاعد ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل والله أعلم كما قال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) الآية قال قتادة في قوله (وإذا ذكرت ربك في القرآن) الآية ان المسلمين لما قالوا لا إله إلا الله أنكروا ذلك المشركون وكبرت عليهم فضاضها إبليس وجنوده فأبى الله إلا أن يمضيا ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها ، إنها كلمة من خاصمها فليج ومن قاتلها نصر إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التى يقطعها الراكب في ليال قلائل ويسير الدهر في فثام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها ﴿ قول آخر في الآية ﴾ روى ابن جرير حدثني الحسين بن محمد الذارع حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء السكبي حدثنا عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قوله (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أديبارهم نفوراً) هم الشياطين وهذا غريب جداً في تفسيرها وإلا فالشياطين إذا قرئ القرآن أونودى بالأذان أودى كراهه انصرفوا

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَسْحُورًا * أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرا من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السحر على المشهور أو من السحر وهو الرثة أى إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يأكل كما قال الشاعر :

فان تسألينا فم نحن فانا * عصفير من هذا الأنام المسحر

وقال الراجز : * يسحر بالطعام وبالشراب * أى يغذى وقد صوب هذا القول ابن جرير وفيه نظر لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور له رؤى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ومنهم من قال شاعر ومنهم من قال كاهن ومنهم من قال مجنون ومنهم من قال ساحر ولهذا قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصا ، قال محمد بن إسحق فى السيرة حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث أن أباسفيان بن حرب وأباجهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بن زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نسبح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أباسفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا علبية والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس وأنا والذى حلفت به . قال ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكيم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجأنا على الركب وكنا كفرنسى رهان قالوا منابى يأتيه الوحى من السماء فتمى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . قال فقام عنه الأخنس وتركه .

﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المستعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك (أنذا كنا عظاما ورفاتا) أى ترابا قاله مجاهد وقال عيسى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما غبارا (أننا لمبعوثون خلقا جديدا) أى يوم القيامة بعدما بلىنا وصرنا عندما لا نذكر كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر (يقولون أننا لمردودون فى الحافرة * أنذا كنا عظاما ونخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة) وقوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خاقه) الآيتين فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يحییهم فقال (قل كونوا حجارة أو حديدا) إذ هما أشد امتناعا من العظام والرفات (أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) قال ابن إسحق عن ابن أبى نجیح عن مجاهد سألت ابن عباس عن ذلك فقال : هو الموت وروى عطية عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لأحييتكم ، وكذا قال سعيد بن جبیر وأبو صالح والحسن وقتادة

والضحاك وغيرهم ، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذى هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فانه لا يمتنع عليه شئ إذا أَراده

وقد ذكر ابن جرير ههنا حديثا « يحاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أُمْلَح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة أتعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : ثم يقال يا أهل النار أتعرفون هذا ؟ فيقولون نعم ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت » وقال مجاهد (أو خالقاً مما يكبر في صدوركم) يعنى السماء والأرض والجبال وفى رواية : ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم ، وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك عن الزهرى فى قوله (أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم) قال النبى ﷺ قال مالك ويقولون هو الموت . وقوله تعالى (فسيقولون من يعيدنا) أى من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً (قل الذى فطركم أول مرة أى الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكورا ثم صرتم بشرا تنتشرون فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية وقوله تعالى (فسيقولون إليك رءوسهم) قال ابن عباس وقتادة يحركونها استهزاء وهذا الذى قاله هو الذى تعرفه العرب من لغاتها لأن الانعاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظلم وهو ولد النعامة نعض لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه ويقال نعضت سنه إذا تحركت وارتفعت من مبيتها . وقال الراجزى :

* ونعضت من هرم أسنانها *

وقوله (ويقولون متى هو) إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) وقوله (قل عسى أن يكون قريباً) أى احذروا ذلك فانه قريب إليكم سيأتىكم لامحالة فكل ما هو آت . وقوله تعالى (يوم يدعوكم) أى الرب تبارك وتعالى (إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى إذا أمركم بالخروج منها فانه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) أى إنما هو أمر واحد باتتهار فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى تقولون كماكم إجابة لأمره وطاعة لا رادته قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فتستجيبون بحمده أى بأمره وكذا قال ابن جريج . وقال قتادة بعمرته وطاعته ، وقال بعضهم (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى وله الحمد فى كل حال . وقد جاء فى الحديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم كأنى بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون لا إله إلا الله » وفى روايه يقولون (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وسيأتى فى سورة فاطر . وقوله تعالى (وتظنون) أى يوم تقومون من قبوركم (إن لبئس) أى فى الدار الدنيا (إلا قبلاً) وكقوله تعالى (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبئس إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبئس إلا يوماً) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وقال تعالى (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون)

﴿ وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومجاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فانهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعال ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فانه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، وعداوته ظاهرة بينة ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فان الشيطان ينزع فى يده أى فرما أصابه بها .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أنى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فانه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده فيقع في حفرة من النار » أخرجاه من حديث عبد الرزاق . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا على بن زيد عن الحسن قال حدثني رجل من بني سليط قال أتيت النبي ﷺ وهو في رفلة من الناس فسمعتة يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ههنا » قال حماد وقال بيده إلى صدره « وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدث أحدهما والمحدث شر والمحدث شر والمحدث شر »

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْخِكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعْزِّكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

يقول تعالى (ربكم أعلم بكم) أيها الناس أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق (إن يشرهم) بأن يوفقكم لطاعته والابانة إليه (أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا) أي إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار . وقوله (وربك أعلم بمن في السموات والأرض) أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وكما قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات) وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لا تفضلوا بين الأنبياء » فان المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية لا بمقتضى الدليل فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولى العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصافي آيتين من القرآن في سورة الأحزاب (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وفي الشورى في قوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على الشهور وقد بسطنا به دلالة في غير هذا الموضع والله الموفق وقوله تعالى (وآتيناه داود زبوراً) تنبيه على فضله وشرفه . قال البخاري حدثنا إسحاق بن نصر أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ » يعني القرآن

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله (ادعوا الذين زعتمتم من دونه) من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم (فإنهم) لا يملكون كشف الضر عنكم (ولا تحويلاً) أي بأن يحولوه إلى غيركم والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر . قال العوفي عن ابن عباس في قوله (قل ادعوا الذين زعتمتم) الآية قال كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً وهم الذين يدعون يعني في الملائكة والمسيح وعزيراً وقوله تعالى (أولئك الذين يدعون) الآية روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعشى عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا وفي رواية قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم ، وقال قتادة عن معبد ابن عبد الله الرماني عن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن مسعود في قوله (أولئك الذين يدعون) الآية قال نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم فنزلت

هذه الآية وفي رواية عن ابن مسعود كانوا يعبدون صنفا من الملائكة يقال لهم الجن فذكره وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال عيسى وأمه وعزير وقال مغيرة عن إبراهيم كان ابن عباس يقول: في هذه الآية : هم عيسى وعزير والشمس والقمر ، وقال مجاهد عيسى والعزير والملائكة ، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله (يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا لا يعبر به عن الماضي فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة وقال الوسيلة هي القرية كما قال قتادة ولهذا قال (أيهم أقرب) وقوله تعالى (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف يشكف عن المناهي وبالرجاء يكثر من الطاعات ، وقوله تعالى (إن عذاب ربك كان محذورا) أي ينبغي أن يحذرنه ويخاف من وقوعه وحصوله عياذاً بالله منه

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ أنه مامن قرية إلا سهلها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم (عذاباً شديداً) إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضية (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال تعالى (فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا) وقال « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله (الآيات .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴾

قال سنيد عن حماد بن زيد عن أيوب عن سعيد بن جبيرة قال : قال المشركون يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء فمنهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحيي الموتى فان سرك أن تؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً فأوحى الله إليه : إني قد سمعت الذي قالوا فإن شئت أن نستأني بقومك استأنت بهم . قال « يارب استأني بهم » وكذا قال قتادة وابن جريج وغيرها ، وروى الإمام أحمد حدثنا عثمان بن محمد حدثنا جرير عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً وأن ينحى الجبال عنهم فيررعوا فقيل له : إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم . قال « لا ، بل استأني بهم » وأنزل الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية ورواه النسائي من حديث جرير بن عبيد الله . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن حكيم عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك قال « وتفعلون ؟ » قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة فقال « بل باب التوبة والرحمة » وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا محمد بن إسماعيل بن علي الأنصاري حدثنا خلف بن تميم المصيصي عن عبد الجبار بن عمر الأبلي عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت : سمعت الزبير يقول لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس « يا آل عبد مناف إني نذير » فجاءته قريش فحذروهم وأنذروهم فقالوا تزعم أنك نبي يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال وإن موسى سخر له البحر وإن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فتتخذ محارث فنزرع ونأكل وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فتنتج منها وتقتنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيتهم . قال فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي

فلما سرى عنه قال « والذى نفسى بيده لقد أعطاني مأسألتهم ولو شئت لكان ولكنه خيرى بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلمكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحد من العالمين » ونزلت (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وقرأ ثلاث آيات ونزلت (ولو أن قرآناً سیرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) الآية ولهذا قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أى نبعث الآيات ونأتى بها على ماسأل قومك منك فإنه سهل علينا يسير لدينا إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد مأسألوها وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها كما قال الله تعالى فى المائدة (قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحد من العالمين) وقال تعالى عن ثمود حين سألوها آية ناقة تخرج من صخرة عينوها فدعا صالح عليه السلام ربه فأخرج لهم منها ناقة على مأسألوها فلما ظلموا بها أى كفروا بمن خلقها وكذبوا رسوله وعقروها فقال (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) ولهذا قال تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها (فظلموا بها) أى كفروا بها ومنعوا شر بها وقتلوا فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقوله تعالى (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) قال قتادة إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم بغيره ويذكرون ويرجعون ، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضى الله عنه فقال يا أيها الناس إن ربكم يستعقبكم فأعتبوه ، وهكذا روى أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر أحدثهم والله لأن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق عليه « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره » ثم قال - يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن رزى عبده أو نزى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أُرِيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى رسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته ونخبأله بأنه قد عصمه من الناس فانه القادر عليهم وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته . قال مجاهد وعروة بن الزبير والحسن وقتادة وغيرهم فى قوله (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى عصمك منهم وقوله (وما جعلنا الرؤيا التى أُريناك إلا فتنة للناس) الآية قال البخارى حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس (وما جعلنا الرؤيا التى أُريناك إلا فتنة للناس) قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به (والشجرة الملعونة فى القرآن) شجرة الزقوم وكذا رواه أحمد وعبد الرزاق وغيرهما عن سفيان بن عيينة به وكذا رواه العوفى عن ابن عباس . وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جبیر والحسن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغير واحد وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة والله الحمد والمنة . وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه وجعل الله ذلك ثباتاً وبقيناً لآخرين ولهذا قال (إلا فتنة) أى اختباراً وامتحاناً ، وأما الشجرة الملعونة فهى شجرة الزقوم لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله : هاتوا لنا عمراً وزبداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول ترقوا فلا تعلم الزقوم غير هذا ، حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن

البصري وغير واحد وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسرهم كذلك بشجرة الزقوم وقيل المراد بالشجرة الملعونة بنو أمية وهو غريب ضعيف ، وقال ابن جرير حدثت عن محمد بن الحسن بن زبالة حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد حدثني أبي عن جدي قال رأى رسول الله ﷺ بنى فلان يزرون على منبره نزو القروء فسأه ذلك فما استجمع ضاحكا حتى مات قال وأنزل الله في ذلك (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) الآية وهذا السند ضعيف جدا فان محمد بن الحسن بن زبالة متروك وشيخه أيضا ضعيف بالكلية ، ولهذا اختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم قال لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك أى فى الرؤيا والشجرة وقوله (ونخوفهم) أى الكفار بالوعيد والعذاب والنسكال (فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أى تماديا فيما هم فيه من الكفر والضلال وذلك من خذلان الله لهم

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُوْخِرَ تَنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْضَنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يذكر تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم فانه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقار له (قال أسجد لمن خلقت طينا) كما قال فى الآية الأخرى (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) وقال أيضا أرايتك يقول للرب جراءة وكفرا والرب يعلم وينظر (قال أرايتك هذا الذى كرمت على) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول لأستولين على ذريته إلا قليلا وقال مجاهد لأحتوين وقال ابن زيد لأضاهم وكلها متقاربة والمعنى أرايتك هذا الذى شرفته وعظمته على لئن أنظرتنى لأضاهن ذريته إلا قليلا منهم

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَابَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له (اذهب) فقد أنظرتك كما قال فى الآية الأخرى قال (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم) أى على أعمالكم (جزاء موفورا) قال مجاهد وافرا ، وقال قتادة موفورا عليكم لا ينقص لكم منه . وقوله تعالى (واستغفر من استطعت منهم بصوتك) قيل هو الغناء قال مجاهد باللهو والغناء أى استخفهم بذلك وقال ابن عباس فى قوله (واستغفر من استطعت منهم بصوتك) قال كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ، وقال قتادة واختاره ابن جرير ، وقوله تعالى (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) يقول واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا وتسوقهم إليها سوفا وقال ابن عباس ومجاهد فى قوله (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) قال كل راكب وماش فى معصية الله وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ومنه نهى فى المسابقة عن الجلب والجنب ومنه اشتقاق الجلبة وهى ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى (وشاركهم فى الأموال والأولاد) قال ابن عباس ومجاهد هو ما أمرهم به من انفاق الأموال فى معاصى الله تعالى ، وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن

هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، وكذا قال قتادة وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم يعنى من البحائر والسوائب ونحوها وكذا قال الضحاك وقتادة ، وقال ابن جرير والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله . وقوله (والأولاد) قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك يعنى أولاد الزنا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هو ما كانوا يقتلوه من أولادهم سفها بغير علم . وقال قتادة عن الحسن البصرى قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءا للشيطان ، وكذا قال قتادة سواء ، وقال أبو صالح عن ابن عباس هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان . قال ابن جرير وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بادخاله في غير الدين الذى ارتضاه الله أو بالزنا بأمه أو بقتله أو وأده أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه لأن الله لم يخص بقوله (وشاركهم في الأموال والأولاد) معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى فكل ما عصى الله فيه أوبه أو أطيع الشيطان فيه أوبه فهو مشاركة ، وهذا الذى قاله متجه وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله عز وجل إني خلقت عبادى حنفاء فجاءهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا » وقوله تعالى (وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصص الحق يوم يلقى بالحق (إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفكم) الآية وقوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال تعالى (وكفى بربك وكيلًا) أى حافظًا ومؤيدا ونصيرا ، وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن موسى ابن وردان عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن لينسئ شياطينه كما ينسئ أحدكم بغيره فى السفر » ينسئ أى يأخذ بناصيته ويقهره

﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَلْبَثُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخير أعباده الفلك فى البحر وتسهيله لمصالح عباده لا يفتأهم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال (إنه كان بكم رحيمًا) أى إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منييين إليه مخلصين له الدين ولهذا قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى ذهب عن قلوبكم كل ماتعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هاربا فركب فى البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض إنه لا نغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده فقال عكرمة فى نفسه والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره فإنه لا ينفع فى البر غيره اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلا أجده رءوفا رحما ، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه . وقوله تعالى (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له (وكان الإنسان كفورا) أى سجيته هذا ينسى النعم ويخونها إلا من عصم الله

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر أنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا وهو المطر الذي فيه حجارة قاله مجاهد وغير واحد كما قال تعالى (إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسجر نعمة من عندنا) وقد قال في الآية الأخرى (وأمطرنا عليهم حجارة من طين) وقال (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور * أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقوله (ثم لا تجدوا لكم وكالا) أى ناصرا يرد ذلك عنكم وينقذكم منه

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾

يقول تبارك وتعالى أم أنتم أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفوا بتوحيدنا في البحر وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية فيرسل عليكم قاصفا من الريح أى يقصف الصوارى ويفرق المراكب قال ابن عباس وغيره القاصف ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها وقوله (فيغرقكم بما كفرتم) أى بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) قال ابن عباس: نصيرا وقال مجاهد: نصيرا ثائرا أى يأخذ بشاركم بعصمكم . وقال قتادة ولا تخاف أحدا يتبعنا بشيء من ذلك

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن تشریفه لبني آدم وتكرمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) أن يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بجمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية وحملناهم في البرأى على الدواب من الأنعام والحيل والبغال وفي البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ورزقناهم من الطيبات أى من زروع ونسار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهة اللذيذة والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ومحلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة قال عبيد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قالت الملائكة يا ربنا إناك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتعممون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة فقال الله تعالى : وعزى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت كن فسكان . وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه ، وقد روى من وجه آخر متصلا . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد بن صدقة البغدادي حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن خارجة المصيصي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا محمد أبو غسان محمد بن مطرف عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « إن الملائكة قالت يا ربنا أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمداك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو فكلما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قامت له كن فكان » وقد روى ابن عساکر من طريق محمد بن أيوب الرازى حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثني عثمان بن حصن بن عبيدة بن علاق سمعت عروة بن رويم اللخمي حدثني أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال « إن الملائكة قالوا ربنا خلقتنا وخلقنا بنى آدم وجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب

ويلبسون الثياب ويتزوجون النساء ويركبون الدواب، ينامون ويستريحون ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة فقال الله عز وجل : لا أجعل من خلقته يدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان» وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا عمر بن سهل حدثنا عبد الله بن تمام عن خالد الحذاء عن بسر بن شافع عن أبيه عن عبد الله ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل يا رسول الله ولا الملائكة قال « ولا الملائكة ، الملائكة محبورون بمنزلة الشمس والقمر » وهذا حديث غريب جداً

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُنْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أُنْمَىٰ وَأَصْلًا سَبِيلًا ﴾

نخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا في ذلك فقال مجاهد وقتادة أي بنبيهم وهذا كقوله تعالى (ولسلك أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط) الآية وقال بعض السلف هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ وقال ابن زيد بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع واختاره ابن جرير ، وروى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال بكتابهم فيحتمل أن يكون أراد هذا وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أي بكتاب أعمالهم وكذا قال أبو العالية والحسن والشاذلي وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) الآية ويحتمل أن المراد بإمامهم أي كل قوم ممن يأمنون به فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) وفي الصحيحين « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث وقال تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) وهذا لا ينافي أن يحيا بالذي إذا حكم الله بين أمة فانه لا بد أن يكون شاهداً على أمة بأعمالها كقوله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالبين والشاهد) وقوله تعالى (فكيف إذا جثا من كل أمة بشهيد وجثا بك على هؤلاء شهداء) ولكن المراد هنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أُوِّيَ كتابه بيمينه فأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ) أي من فرجه وسروره بما فيه من العمل السالح يقرؤه ويجب قراءته كقوله (فأما من أُوِّيَ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ... إلى قوله ... وأما من أُوِّيَ كتابه بشماله) الآيات ، وقوله تعالى (ولا يظلمون فتيلاً) في تقدم أن القليل هو الخط المستطيل في شق النواة . وقد روى الحافظ أبو بكر البرزاني حديثاً في هذا فقال : حدثنا محمد بن يعقوب ومحمد بن عثمان بن كرامة قالوا : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) قال « يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلأأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم أئمتنا بهذا ، وبارك لنا في هذا فيأتهم فيقول لهم أئتموا فإن لكل رجل منكم مثل هذا ، وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ويراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا اللهم لا تأتينا به فيأتهم فيقولون اللهم أخزهم فيقول أبعدهم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا » ثم قال البرزاني لا يروى إلا من هذا الوجه ، وقوله تعالى (ومن كان في هذه أُنْمَىٰ) الآية ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد (ومن كان في هذه) أي في الحياة الدنيا (أُنْمَىٰ) أي عن حجة الله وآياته وبيناته (فهو في الآخرة أُنْمَىٰ) أي كذلك يكون (وأصل سبيلًا) أي وأصل منه كما كان في الدنيا عياداً بالله من ذلك

﴿ وَإِنَّهٗ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَٰنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَبِيلًا * وَلَوْلَا

أَنْ تَبْتَئَكَ لَفَدْ كِدْتَ تَرَكْنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذْفَكَ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وثبتيه وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفّره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا سَنَةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ أن يترك الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة . وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك ، وقيل إنها نزلت بقبوك وفي صحته نظر . روى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض الحشر وأرض الأنبياء فصدق ما قالوا فعزاً غزوة قبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ قبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ما ختمت السورة (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا — إلى قوله — تحويلاً) فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال : فيها محياك ومماتك ومنها تبعث . وفي هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز قبوك عن قول اليهود وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) ولقوله تعالى (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وغزاها ليقص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من أصحابه والله أعلم ، ولو صح هذا الحمل عليه الحديث الذي رواه الوليد بن مسلم عن عقير بن معدان عن سالم بن عامر عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أَنْزَلَ الْقُرْآنَ فِي ثَلَاثَةِ أَمْكِيَّةٍ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالشَّامَ » قال الوليد يعني بيت المقدس وتفسير الشام بقبوك أحسن مما قال الوليد إنه بيت المقدس والله أعلم . وقيل نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له بالإسنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه بيد غير ميعة فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفّره بهم فقتل أشرفهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى (سَنَةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا) الآية أى هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وآذوه بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) الآية

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها (أقم الصلاة لذلولك الشمس) قيل لغروبها قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد وقال هشيم عن مغيرة عن الشعبي عن ابن عباس : دلوكها زوالها

ورواه نافع عن ابن عمر ورواه مالك في تفسيره عن الزهري عن ابن عمر وقوله أبو برزة الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن والضحاك وأبو جعفر الباقر وقتادة ، واختاره ابن جرير ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد عن الحكم بن بشير حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبي ليلى عن رجل عن جابر بن عبد الله قال دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ثم خرجوا حين زالت الشمس فخرج النبي ﷺ فقال « اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلست الشمس » ثم رواه عن سهل بن بكر عن أبي عوانة عن الأسود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس فمن قوله (لدلوك الشمس إلى غسق الليل) وهو ظلامه وقيل غروب الشمس أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقوله (وقرآن الفجر) يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خافاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه والله الحمد (إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود وعن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في هذه الآية (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار . وقال البخاري حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)

وقال الإمام أحمد حدثنا أسباط حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم وحدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) قال « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ثلاثهم عن عبيد بن أسباط ابن محمد عن أبيه به وقال الترمذي حسن صحيح . وفي لفظ في الصحيحين من طريق مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يتعافون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وقال عبد الله بن مسعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء . وكذا قال إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة وغير واحد في تفسير هذه الآية . وأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا من حديث الليث بن سعد عن زيادة عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول : من استغفرني أغفر له ، من يسألني أعطيه ، من يدعى فأستجيب له حتى يطلع الفجر . فلذلك يقول (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً) فيشهد الله وملائكة الليل وملائكة النهار فانه تفرد به زيادة ، وله بهذا حديث في سنن أبي داود . وقوله تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال « صلاة الليل » ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجّد ما كان بعد نوم . قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد وهو المعروف في لغة العرب ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يتهجد بعد نومه عن ابن عباس وعائشة وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم كما هو مبسوط في موضعه والله الحمد والمنة ، وقال الحسن البصري هو ما كان بعد العشاء ويحمل على ما كان بعد النوم واختلف في معنى قوله تعالى (نافلة لك) فقيل معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك فاجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة رواه العوفي عن ابن عباس وهو أحد قولي العلماء وأحد قولي الشافعي رحمه الله واختاره ابن جرير ، وقيل إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه . قال مجاهد وهو في المسند عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه . وقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) أى افعل هذا الذى أمرتك به لتقيمك يوم القيامة مقاما محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير قال أكثر أهل التأويل ذلك هو المقام الذى يقومه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادى يا محمد فيقول « ليك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله عز وجل ، ثم رواه عن بNDAR عن غندر عن شعبة عن أبي إسحق به ، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثوري عن أبي إسحق به ، وقال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وقاله الحسن البصري ، وقال قتادة هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) قلت لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله لياتى لفصل القضاء بين الخلائق وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى فكل يقول لست لها حتى يأتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول « أنا لها أنا لها » كما سئذ ذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى ، ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمته وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم . وفى حديث الصور أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لاتلىق إلا الله وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنيبون والمؤمنون فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك ، وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب السيرة فى باب الخصائص لله الحمد والمنة ولندكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود وبالله المستعان . قال البخارى حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي سمعت ابن عمر يقول إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبها يقولون : يا فلان اشفع يا فلان اشفع حتى تنهى الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعه الله مقاما محموداً . ورواه حمزة بن عبد الله عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن جرير حدثني محمد بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا شعيب بن الليث ثنا الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر أنه قال سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول سمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن فيبناهم كذلك استغاثوا بآدم فيقول لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بخلقه باب الجنة فيؤمئذ يبعثه الله مقاما محموداً . وهكذا رواه البخارى فى الزكاة عن يحيى بن بكير وعلقمة عن عبد الله بن صالح كلاهما عن الليث بن سعد به . وزاد فيؤمئذ يبعثه الله مقاما محموداً يحمده أهل الجمع كلهم . قال البخارى وحدثنا علي بن عياش حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محموداً الذى وعدته . حلت له شفاعتى يوم القيامة » انفرد به دون مسلم ﴿ حديث أبي بن كعب ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر » وأخرجه الترمذى من حديث أبي

عمر عبد الملك بن عمرو العقدي وقال حسن صحيح وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به، وقد قدمنا في حديث أبي بن كعب في قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال عليه السلام « فقلت اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى فيه الخاق حتى إبراهيم عليه السلام » عليه السلام قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا سعيد بن أبي عروبة حدثنا قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلبسون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يرشحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم لست هناكم ويذكر ذنبه الذي أصاب فيستحي ربه عز وجل من ذلك ويقول ولكن اتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك ويقول ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن . فيأتونه فيقول لست هناكم ولكن اتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحي ربه من ذلك ويقول ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول لست هناكم ولكن اتوا محمداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين - قال أنس - حتى استأذن على ربي فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني - قل - ثم قال ارفع محمد قل يسمع واشفع تشفع، وسل تعطه فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمني ثم أشفع فيجدي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم قال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمني ثم أشفع فيجدي حداً فأدخلهم الجنة قل، ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم قال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه، واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمني ثم أشفع فيجدي حداً فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فأقول بارب مابق إلا من حبسه القرآن » فحدثنا أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة » أخرجه من حديث سعيد به، وهكذا رواه الإمام أحمد عن عثمان بن عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بطوله . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا حرب بن معمر أبو الخطاب الأنصاري عن النضر ابن أنس عن أنس قال حدثني نبي الله صلى الله عليه وسلم قل « إني لأقائم أنظر أمتي تعبر الصراط إذا جاءني عيسى عليه السلام فقال هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال يجمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله نعم ما هم فيه فالخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كرامة وأما الكافر فيعشاه الموت فقال انظر حتى أرجع إليك فذهب نبي الله صلى الله عليه وسلم فقام تحت العرش فلقى ما لم يلق ما لم يلق مصطفي ولا نبي مرسل فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن اذهب إلى محمد وقل له ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فشفت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً فما زلت أتردد إلى ربي عز وجل فلا أقوم منه مقاماً إلا شفت حتى أعطاني الله عز وجل من ذلك أن قال يا محمد أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك » عليه السلام قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا الأسود بن عامر أخبرنا أبو إسرائيل عن الحارث بن حشيرة عن ابن بريدة عن أبيه أنه دخل على معاوية فإذا رجل يتكلم فقال بريدة يا معاوية تأذن لي في الكلام ؟ فقال نعم وهو يرى أنه سيتكلم بمثل ما قال الآخر فقال بريدة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدره » قال فترجوها أنت يا معاوية ولا يرجوها على رضى الله عنه عليه السلام حدثنا ابن مسعود عليه السلام قال الإمام أحمد حدثنا عارم بن الفضل حدثنا سعيد بن الفضل حدثنا سعيد بن زيد حدثنا علي ابن الحكيك البناني عن عثمان عن إبراهيم عن عاقمة والأسود عن ابن مسعود قال : جاء ابننا مليكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم

فقالا: إن أمنا تكرم الزوج وتعطف على الولد ، قال وذكر الضيف غير أنها كانت وأدت في الجاهلية ، فقال « أمكما في النار » قال فأدبرا والسوء يرى في وجوههما فأمر بهما فردا فرجما والسرور يرى في وجوههما رجاء أن يكون قد حدث شيء فقال « أمي مع أمكما » فقال رجل من المنافقين وما يغني هذا عن أمه شيئا ونحن نطأ عقيبيه . فقال رجل من الأنصار ولم أر رجلا قط أكثر سؤالا منه يا رسول الله هل وعدك ربك فيها أوفيهما . قال فظن أنه من شيء قد سمعه فقال « ما شاء الله ربي وما أطمعني فيه وإني لأقوم للمقام المحمود يوم القيامة » فقال الأنصاري يا رسول الله وما ذاك المقام المحمود ؟ قال ذاك إذا جرى بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام فيقول اكسوا خليلي فيؤتى بربطتين يضاوين فيلبسهما ثم يقعدنه مستقبل العرش ثم أوتى بكسوتي فألبسها فأقوم عن يمينه مقاما لا يقومه أحد فيغبطني فيه الأولون والآخرون » قال ويفتح لهم من السكوتر إلى الخوض فقال المنافق إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض فقال رسول الله ﷺ « حاله المسك ورضضاره اللؤلؤ » فقال المنافق لم أسمع كاليوم فانه قلما جرى ماء على حال أو رضراض إلا كان له نبت ؟ فقال الأنصاري يا رسول الله هل له نبت ؟ فقال : « نعم قضبان الذهب » قال المنافق لم أسمع كاليوم فإنه قلما ينبت قضيب إلا أورق وإلا كان له تمر قال الأنصاري يا رسول الله هل له ثمرة قال « نعم ألوان الجواهر وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل من شرب منه شربة لا يظمأ بعده ومن حرمه لم يرو بعده » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن أبي الزعراء عن عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول فذلك المقام المحمود » حديث أبي الدرداء رضي الله عنه ﷺ قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأدم ومن خلفي مثل ذلك وعن يميني مثل ذلك وعن شمالي مثل ذلك » فقال رجل يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأدم فما بين نوح إلى أمتك ؟ قال « هم عر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيامهم وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم »

حديث أبي هريرة رضي الله عنه ﷺ قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا أبو حيان حدثنا أبو زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أنى رسول الله ﷺ بإجم فرفع إليه الدراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذاك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلفك الله بيده وفتح فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول نوح إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن

يغضب بعده مثله قط وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومي نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم .
 فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبى الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا
 ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله فقد ذكر كذباته
 نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله
 اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول
 لهم موسى إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها
 نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكتبه ألقاها
 إلى مريم وروح منه وكتب الناس فى المهد صبيّاً فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول
 لهم عيسى إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً نفسى نفسى اذهبوا
 إلى غيرى اذهبوا إلى محمد ﷺ ، فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء
 وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم
 فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عز وجل ثم يفتح الله على ويلهم منى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتح على
 أحد قبلى ، فيقال يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع لك شفيع . ورفع رأسى فأقول أمى يا رب أمى يا رب أمى يارب ؟
 فيقال يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك
 من الأبواب ، ثم قال والذى نفس محمد بيده إن ما بين المسراعين من مصارع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة
 وبصرى ، أخرجه فى الصحيحين . وقال مسلم رحمه الله حدثنا الحكم بن موسى حدثنا هقل بن زياد عن الأوراعى حدثنى
 أبو عمار حدثنى عبد الله بن فروخ حدثنى أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول
 من ينشق عنه القبر يوم القيامة وأول شافع وأول مشفع » وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن داود بن
 يزيد الزعائرى عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)
 سئل عنها فقالت « هى الشفاعة » رواه الإمام أحمد بن محمد بن وكيع عن محمد بن عبيد عن داود عن أبيه عن أبي هريرة عن
 النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال « هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه »
 وقال عبيد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن علي بن الحسين قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة
 مد الله الأرض مد الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه - قال النبي صلى الله عليه وسلم - فأكون أول
 من يدعى وجبريل عن عيسى الرحمن تبارك وتعالى والله ما رآه قبلي ، فأقول أى رب إن هذا أخبرنى أنك أرسلته
 إلى فيقول الله عز وجل صدق ثم أشفع فأقول يا رب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض قال فهو المقام المحمود »
 وهذا حديث مرسل

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّىْ مِنْ أَمْرِكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا * وَقُلْ
 جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَطْلُ إِنَّ الْبَطْلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا جرير عن قابوس بن أبى ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال كان النبي ﷺ بمكة ثم
 أمر بالهجرة فأنزل الله (وقال رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً)
 وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله
 صلى الله عليه وسلم ليقتلوه أو يطردهوه أو يوثقوه فأراد الله قتال أهل مكة أمرهم أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله
 عز وجل (وقال رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) الآية ، وقال قتادة (وقال رب أدخلنى مدخل صدق)

يعنى المدينة (وأخرجنى مخرج صدق) يعنى مكة ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال وقال العوفى عن ابن عباس (أدخلنى مدخل صدق) يعنى الموت (وأخرجنى مخرج صدق) يعنى الحياة بعد الموت ، وقيل غير ذلك من الأقوال والأول أصح وهو اختيار ابن جرير . وقوله (واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً) قال الحسن البصرى فى تفسيره ما وعد به لينزع ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له . وقال قتادة فيها إن نبي الله صلى الله عليه وسلم علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولقراض الله ، ولإقامة دين الله فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديد ضعيفهم قال مجاهد (سلطاناً نصيراً) حجة بينة ، واختار ابن جرير قول الحسن وقناة وهو الأرجح لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى (لقد أرسلنا رسلاً بالبينات - إلى قوله - وأنزلنا الحديد) الآية . وفى الحديث « إن الله لينزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكد والتهديد الشديد وهذا هو الواقع . وقوله (وقل جاء الحق وزهق الباطل) الآية : تهديد ووعد لكفار قريش فانه قد جاءهم من الله الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم به وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع وزهق باطلهم أى اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أبى معمر عن عبد الله بن مسعود قال : دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعمها يعود فى يده ويقول « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد » وكذا رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع ومسلم والترمذى والنسائى كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به ، وكذا رواه عبد الرزاق عن ابن أبى نجيح به .

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا شبابة حدثنا المغيرة حدثنا أبو الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنماً تعبد من دون الله . فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها وقال « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه شفاء ورحمة للمؤمنين أى يذهب ما فى القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزينغ وميل فالقرآن يشفى من ذلك كله وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدق به واتبعه فانه يكون شفاء فى حقه ورحمة ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً والآفة من الكافر لا من القرآن كقوله تعالى (قل هو الذى آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وقال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أئيمكم زادته هذه إيماناً * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) والآيات فى ذلك كثيرة ، قال قتادة فى قوله (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فان الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين

﴿ وَإِذَا أُنْمِنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنَانِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلُّ يَوْمٍ يَعْمَلُ عَلَىٰ

شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن نقص الانسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه. قال مجاهد بعد عنا قلت وهذا كقوله تعالى (فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) وقوله (فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب ، والحوادث والنوائب (كان بثوساً) أى قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير كقوله تعالى (ولئن أذقنا الانسان منارحة ثم نزعناها منه إنه ليثوس كفور *) ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) وقوله تعالى (قل كل يعمل على شاكته) قال ابن عباس على ناحيته . وقال مجاهد على حديثه وطبيعته . وقال قتادة على نيته . وقال ابن زيد دينه وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى . وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعد لهم كقوله تعالى (وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم) الآية . ولهذا قال (قل كل يعمل على شاكته فربكم أعلم عن هدى سبيلا) أى منا ومنكم وسيجزي كل عامل بعمله فإنه لا تخفى عليه خافية

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرث في المدينة وهو متوكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح : وقال بعضهم لا نسأله . قال فسألوه عن الروح فقالوا يا محمد ما الروح ؟ فإزال متوكئاً على العسيب قال فظننت أنه يوحى إليه فقال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا نسأله . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث الأعمش به ولفظ البخاري عند تفسيره هذه الآية عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث وهو متوكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال مارابكم إليه ، وقال بعضهم لا يستقبلناكم بشيء تسكرهونه . فقالوا سلوه فسألوه عن الروح فأسألت النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً فعلمت أنه يوحى إليه فقامت مقامى فلما نزل الوحي قال (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) الآية وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بآدى الرأى أن هذه الآية مدنية وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة مع أن السورة كلها مكية . وقد يخاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك أو أنه نزل عليه الوحي بانه يجيبهم عما سألوهم بالآية المقدم إنزالها عليه وهى هذه الآية (ويسألونك عن الروح) وبما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد حدثنا فقيه حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : قالت قریش ليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فنزلت (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قالوا أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتى النوراة فقد أوتى خيراً كثيراً قال وأنزل الله (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر) الآية . وقد روى ابن جرير عن محمد بن المنثري عن عبد الأعلى عن داود عن عكرمة قال سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح فأأنزل الله (ويسألونك عن الروح) الآية فقالوا ترعّم أنما نؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) قال فنزلت (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر) الآية قال ما أوتيتم من علم فنجاكم الله به من النار فهو كثير طيب وهو فى علم الله قایل

وقال محمد بن إسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت بمكة (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أخبار يهود وقالوا يا محمد ألم يبلغنا عنك أنك تقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أفمنيتنا أم غيبت قومك فقال « كلا قد غيبت » فقالوا إنك تتلوننا أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء

فقال رسول الله ﷺ « هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم)

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال (أحدها) أن المراد أرواح بني آدم وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (ويسألونك عن الروح) الآية وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد وإنما الروح من الله ولم يكن نزل عليه فيه شيء فلم يحرج إليهم شيئا فأتاه جبريل فقال له (قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فأخبرهم النبي ﷺ بذلك فقالوا من جاءك بهذا قال جاءني به جبريل من عند الله فقالوا له والله ما قاله لك إلا عدونا فأُنزل الله (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) وقيل المراد بالروح ههنا جبريل قاله قتادة قال وكان ابن عباس يكتمه ؛ وقيل المراد به ههنا ملك عظيم بقدر الخلوقات كلها ؛ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (ويسألونك عن الروح) يقول الروح ملك . وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله بن عرس المصري حدثنا وهب بن روق بن هبيرة حدثنا بشر بن بكر حدثنا الأوزاعي حدثنا عطاء عن عبد الله بن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ملكا لو قيل له التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة لفعل ، تسبيحه سبحانه حيث كنت ، وهذا حديث غريب بل منكر . وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله حدثني علي حدثني عبد الله حدثني أبو مروان يزيد بن سمرة صاحب قيسارية عمن حدثه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في قوله (ويسألونك عن الروح) قال هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه لكل وجه منها سبعون ألف لسان لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله من كل تسبيحة ملكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة وهذا أثر غريب عجيب والله أعلم . وقال السهلي روى عن علي أنه قال : هو ملك له مائة ألف رأس لكل رأس مائة ألف وجه في كل وجه مائة ألف فم في كل فم مائة ألف يسبح الله تعالى بلغات مختلفة . قال السهلي وقيل المراد بذلك طائفة من الملائكة على صور بني آدم ، وقيل طائفة يرون الملائكة ولا تراهم فهم للملائكة كالملائكة لبني آدم ، وقوله (قل الروح من أمر ربي) أي من شأنه ومما استأثر بعلمه دونكم ولهذا قال (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى ، وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة أي شرب منه بمقاربه فقال يا موسى ما علمي وعامك وعلم الخلاق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر أو كما قال صلوات الله وسلامه عليه ولهذا قال تعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال السهلي قال بعض الناس لم يخبرهم عما سألوهم لأنهم سألوا على وجه التعنت وقيل أجابهم. وعول السهلي على أن المراد بقوله (قل الروح من أمر ربي) أي من شرعه أي فادخلوا فيه وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة وإنما ينال من جهة الشرع وفي هذا المسلك الذي طرقه وسلكه نظر والله أعلم . ثم ذكر السهلي الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها وقرر أنها ذات لطيفة كالنفس في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر وقرر أن الروح التي يتفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط اتصالها بالبدن واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم فهي إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء ، قل كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسما خاصا فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مصطارا أو خرا ولا يقال له ماء حينئذ إلا على سبيل المجاز ، وكذا لا يقال للنفس روح إلا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه ، فحاصل ما تقول إن الروح هي أصل النفس ومادتها والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن فهي من وجه لا من كل وجه وهذا معنى حسن والله أعلم . قلت وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامه وسألوا في ذلك كتبوا من أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده في كتاب سمعناه في الروح

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا وَكِيلًا * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . قال ابن مسعود رضى الله عنه يطرق الناس ربيع حمراء يعنى فى آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود (ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) الآية ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطيع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ولا مثال له ولا عدل له وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أنس محمد بن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا له إنا نأتيك بمثل ما جئتناه فأنزل الله هذه الآية . وفى هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة فآله أعلم . وقوله (ولقد صرّفنا للناس) الآية . أى بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ومع هذا فأبى أكثر الناس إلا كفورا أى جحودا للحق وردا للصواب

﴿ وَقَالُوا إِن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهُمَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قِمِيلًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا بونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلا من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد والأسود بن المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية وأممية بن خلف والعاص بن وائل وبنوها ومنها ابني الحجاج السهميين اجتمعوا أو من اجتمع منهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد فسلّموا وخاسموا حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك . فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء . وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه وسلم سريعا وهو يظن أنه قد إليك لعذر فيك وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفّهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي من قبيلج إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك ، فان كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رؤيا تراءى قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئى - فربما كان ذلك بذلنا أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بي ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقالوا يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلادا ولا أقل مالا ولا أشد عيشا منا فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا ففسألهم عما تقول حتى هو أم باطل ؟ فإن صنعت ما سألتك وصدقوك صدقتك وعرفنا به منزلتك عند الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم رسول الله ﷺ « ما بهذا بعثت إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك وتساءله فيجعل لك جنات وكنوزا وفصورا من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تتبعي فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما تلتمسه حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنا بفاعل ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وما بعث إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا فان تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك فانا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك » فقالوا يا محمد أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به ويحرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئنا به ، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل بالجماعة يقال له الرحمن وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا فقد أعذرتنا إليك يا محمد أما والله لا تتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلا . فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن الغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب فقال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفا لما فاتته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادعتهم أياه وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن إسحق حدثني بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء . وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشادا لأجيبوا إليه ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفرا وعنادا ، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئت أعطيناهم ما سألوا فان كفروا عذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال : « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزيير بن العوام أيضا عند قوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظنوا بها واما نرسل بالآيات إلا تخويفا) . وقال تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا * تبارك الذي إن شاء جعل لك خير من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك

قصوراً * بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً. وقوله تعالى (حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)
الينبوع: العين الجارية سألوه أن يجرى لهم عينا معينا في أرض الحجاز ههنا وههنا وذلك سهل على الله تعالى يسير
لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ولكن علم أنهم لا يهتدون كما قال تعالى (إن الذين حقت
عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة
وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا) الآية . وقوله تعالى (أو تسقط السماء كما زعمت) أى
أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتسمى وتزلى أطرافها فمجل ذلك في الدنيا وأسقطها كسفا أى قطعاً كقولهم
(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) الآية وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا
(أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين) فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ،
وأما نبي الرحمة ونبي التوبة للبعوث رحمة للعالمين فسأل انظارهم وتأجيلهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد
لا يشرك به شيئاً وكذلك وقع فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبد الله بن أبي أمية
الندى تبع النبي ﷺ وقال له ما قال أسلم إسلاماً تاماً وأتاب إلى الله عز وجل . وقوله تعالى (أو يكون لك بيت
من زخرف) قال ابن عباس ومجاهد وقتادة هو الذهب ، وكذلك هو في قراءة ابن مسعود أو يكون لك بيت من
ذهب (أو ترقى في السماء) أى تصعد في سلم ونحن ننظر إليك (ولن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه)
قال مجاهد أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة هذا كتاب من الله للفلان بن فلان تصبغ موضوعة عند رأسه ،
وقوله تعالى (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) أى سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر
من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألكم وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول
إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وقد فعلت ذلك وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل

قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا علي بن إسحق حدثنا ابن المبارك حدثنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زجر عن علي
ابن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال « عرض على ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت
لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكريك ، وإذا شبعت حمدتك
وشكرتك » ورواه الترمذي في الزهد عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به وقال هذا حديث حسن وعلى بن يزيد
يضعف في الحديث

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا * قُلْ لَوْ كَانَ
فِي الْأَرْضِ مَائِكَةٌ يَتَّبِعُونَ مُطِيعِينَ لَآتَيْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائِكَةً رَسُولًا ﴾

يقول تعالى (وما منع الناس) أى أكثرهم (أن يؤمنوا) ويتابعوا الرسل إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً
كما قال تعالى (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند
ربهم) وقال تعالى (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا) الآية . وقال فرعون ومأوؤه (أنؤمن
لبشرين مثلمانا وقومهما لنا عابدون ؟) وكذلك قالت الأمم لرسولهم (إن أتمم إلا بشر مثلتنا يريدون أن تصدونا عما كان يعبد
آبائنا فأتونا بسلطان مبين) والآيات في هذا كثيرة ، ثم قال تعالى منها على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث إليهم الرسل
من جنسهم ليفقهوا عنه ويغفروا منه لهم من خطيئتهم ومخاطبتهم بكلماته ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا
مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد
جاءكم رسول من أنفسكم) وقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب
والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فإذا كروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) ولهذا قال ههنا (قل لو كان

في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين (أى كما أتم فيها) لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا (أى من جنسهم . ولما كنتم أتم بشرا بعثنا فيكم رسلا منكم لطفاً ورحمة

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مرشدا نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به إنه شاهد على وعليكم ، عالم بما جئتمكم به فلو كنتم كاذبا عليه لاتقم منى أشد الانتقام كما قال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) وقوله (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى علما بهم بمن يستحق الانعام والإحسان والهداية بمن يستحق الشقاء والاضلال والازاعة ولهذا قال :

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَلَئِنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَهَمُّهُمْ كَلِمًا ذَبْتَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ومن يضل فلن تجد لهم أولياء من دونه أى يهدونهم كما قال (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) وقوله : (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم) قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا إسماعيل عن نفع قال سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يحشرهم على وجوههم » وأخرجاه في الصحيحين وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا الوليد بن جميع القرشى عن أبيه عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد قال : قام أبو ذر فقال يا بنى غفار قولوا ولا تخلفوا فان الصادق المصدوق حدثني أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج ، فوج راكبين طاعمين كاسين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار ، فقال قائل منهم هذان قد عرفناهما فما بال الذين يمشون ويسعون ؟ قال « يلقى الله عز وجل الآفة على الظهر حتى لا يبقى ظهر حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة فيعطها بالشارف ذات القتب فلا يقدر عليها » وقوله (عُمِيَآ) أى لا يبصرون (وبُكْمًا) يعنى لا ينطقون (وصُمًّا) لا يسمعون وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكما وعميا وصما عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه (مأواهم) أى منقلبهم ومصيرهم (جهنم كلما خبت) قال ابن عباس سكنت ، وقال مجاهد طفتت (زدناهم سعيراً) أى لهباً ووهجا وجرا كما قال (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

يقول تعالى هذا الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذى يستحقونه لأنهم كذبوا (بآياتنا) أى بأدلتنا وحجتنا واستبعدوا وقوع البعث (وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا) أى بالية نخرة (أننا لمبعوثون خلقاً جديداً) أى بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ فاحتج تعالى عليهم ونههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي

بخلقهم بقادر على أن يحيي الموتى (الآية وقال) أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (إلى آخر السورة . وقال ههنا (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشأهم نشأة أخرى كما بدأهم ، وقوله (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى جعل لاعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لا بد من انقضاءها كما قال تعالى (وما تؤخره إلا لأجل معدود) وقوله (فأبى الظالمون) أى بعد قيام الحجة عليهم (إلا كفورا) إلا تماديا فى باطلهم وضلالهم .

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه قل لهم يا محمد لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكنكم خشية الإنفاق قال ابن عباس وقتادة أى الفقر أى خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً لأن هذا من طباعكم وسجياكم ولهذا قال (وكان الإنسان قتورا) قال ابن عباس وقتادة أى بخيلا منوعا ، وقال الله تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا) أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار فقير والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه فان البخل والجزع والملمع صفة له كما قال تعالى (إن الإنسان خاق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين) ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز وبذل هذا على كرمه وجوده وإحسانه وقد جاء فى الصحيحين « يدا الله ملائى لا يفيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتهم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يفيض ما فى يمينه »

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَمَسَّاهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يُفْرِعَوْنُ مَشْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا * وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ لَئِن يَرَوْا الْفُتُورَ يُسْأَلُوا عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقته فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون وهى العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات قاله ابن عباس وقال محمد بن كعب هى اليد والعصا والخمس فى الأعراف والطمس والحجر ، وقال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة هى يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى ، وجعل الحسن البصرى والسنين ونقص الثمرات واحدة وعنده أن التسعة هى تلفظ العصا ما يافكون (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا وما نجت بهم ، فكذلك لو أجبناهؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا إلى آخرها لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله كما قال فرعون لموسى وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات (إني لأظنك يا موسى مسحورا) قيل بمعنى ساحر والله تعالى أعلم ، فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا وهى المعنى فى قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف — إلى قوله فى تسع آيات — إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين) فذكر هاتين الآيتين العصا واليد وبين الآيات الباقيات فى سورة الأعراف وفصلها . وقد أوتى موسى عليه السلام آيات

آخر كثيرة منها ضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه ومنها تظليلهم بالنعيم وإنزال المن والسلوى وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر فكانت حجة عليهم فخالقوها وعاندها كفرا وجحودا . فأما الحديث الذي رواه الإمام حدثنا يزيد حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادي رضى الله عنه قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبي حتى نسأله عن هذه الآيات (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) فقال لا تنقل له نبي فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين فسألاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسجروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا بىرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة - أو قال لا تفروا من الزحف شعبة الشاك - وأتم يهود عليكم خاصة أن لا تعدوا في السبت » فقبلا يديه ورجليه وقالوا نشهد أنك نبي قال « فما يمنعكم أن تتبعاني ؟ » قالوا لأن داود عليه السلام دعا أن لا يزال من ذريته نبي وإنما نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود . فهذا حديث رواه هكذا الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن جرير في تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال الترمذى حسن صحيح . وهو حديث مشكل وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بال عشر الكلمات فانها وصايا في التوراة لاتعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم ، ولهذا قال موسى لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) أى حججا وأدلة على صدق ما جئتك به (وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً) أى هالكاً قاله مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس ملعونا ، وقال أيضا هو والضحاك (مشبوراً) أى مغلوباً والهالك كما قال مجاهد يشمل هذا كله قال الشاعر :

إذا جارى الشيطان في سنن الله * ي ومن مال ميله مشبور

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله علمت وروى ذلك عن علي بن أبي طالب ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب لفرعون كما قال تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله ، وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث فان هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون ؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل عبد الله ابن سلمة فإن له بعض ما ينكر والله أعلم . ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات فحصل وهم في ذلك والله أعلم وقوله (فأراد أن يستفزه من الأرض) أى يخليهم منها ويزيلهم عنها (فأغرقناه ومن معه جميعاً وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآيتين ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوة على أشهر القولين وقهر أهلها ثم أطلقهم حلما وكرما كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم ووزر وعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال كذلك وأورثناها بني إسرائيل وقال ههنا (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم ليقيفاً) أى جميعكم أتم وعدوكم ، قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك : ليقيفاً أى جميعاً

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ

عَلَى مَكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد إنه بالحق نزل أى متضمنا للحق كما قال تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون) أى متضمنا علم الله الذى أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه وقوله (وبالحق نزل) أى ونزل إليك يا محمد محمولا محروسا لم يشب بغيره ولا زيد فيه ولا نقص منه بل وصل إليك بالحق فانه نزل به شديد القوى الأمين المسكين المطاع فى الملاء الأعلى وقوله (وما أرسلناك) أى يا محمد (إلا مبشرا ونذيرا) مبشرا لمن أطاعك من المؤمنين ونذيرا لمن عصاك من الكافرين ، وقوله (وقرآنا فرقناه) أما قراءة من قرأ بالتخفيف فعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفرقا منجما على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضا أنه قرأ فرقناه بالتشديد أى أنزلناه آية آية مبينا مفسرا ولهذا قال (لتقرأه على الناس) أى لتبلغه الناس وتتلوه عليهم أى (على مكث) أى مهل (ونزلناه تنزيلا) أى شيئا بعد شيء .

﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

يقول تعالى لبيه محمد ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنهم به من هذا القرآن العظيم (آمنوا به أولا تؤمنوا) أى سواء آمنتم به أم لا فهو حق فى نفسه أنزله الله ونوه بذكره فى سالف الأزمان فى كتبه المنزلة على رسله ، ولهذا قال (إن الذين أوتوا العلم من قبله) أى من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه ولم يبدلوه ولا حرفوه (إذا يتلى عليهم) هذا القرآن (يخرون للأذقان) جمع ذقن وهو أسفل الوجه (سجدا) أى لله عز وجل شكرا على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلا إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون (سبحان ربنا) أى تعظيما وتوقيرا على قدرته التامة وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ ولهذا قالوا (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وقوله (ويخرون للأذقان يبكون) أى خضوعا لله عز وجل وإيمانا وتصديقا بكتابه ورسوله (ويزيدهم خشوعا) أى إيمانا وتسليما كما قال (والذين اعتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (ويخرون) عطف صفة على صفة لاعطف السجود على السجود كما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليت الكتبية فى المزدحم

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُ يَهَا وَابْتِغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل اللانعين من تسميته بالرحمن (ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن فانه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم - إلى أن قال - له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض) الآية ، وقد روى مكحول أن رجلا من المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده « يا رحمن يا رحيم » فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية ، وكذا روى عن ابن عباس رواها ابن جرير ، وقوله (ولا تجهر بصلواتك) الآية . قال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم متوار

بمكة (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به قال : فقال الله تعالى لنبيه ﷺ (ولا تجهر بصلاتك) أى بقرأتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك (وابتغ بين ذلك سبيلا) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن إياس به ، وكذا رواه الضحاك عن ابن عباس وزاد فلما هاجر إلى المدينة سقط ذلك يفعل أى ذلك شاء ، وقال محمد بن إسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقا منهم فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئا فأنزل الله (ولا تجهر بصلاتك) فیتفرقوا عنك (ولا تخافت بها) فلا يسمع من أراد أن يسمع ممن يسترق ذلك منهم فلعله يرعوى إلى بعض ما يسمع فينتفع به (وابتغ بين ذلك سبيلا) وهكذا قال عكرمة والحسن البصري وقتادة نزلت هذه الآية في القراءة في الصلاة ، وقال شعبة عن أشعث بن سليم عن الأسود بن هلال عن ابن مسعود (ولا تخافت بها) من أسمع أذنيه قال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن سلمة بن علقمة عن محمد بن سيرين قال نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى قفراً خفض صوته وأن عمر كان يرفع صوته فقل لأبي بكر لم تصنع هذا ؟ قال أناجى ربي عز وجل وقد علم حاجتي ، فقل أحسنت . وقيل لعمر لم تصنع هذا ؟ قال أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان ، قيل أحسنت فلما نزلت (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) وابتغ بين ذلك سبيلا) قيل لأبي بكر ارفع شيئا ، وقيل لعمر اخفض شيئا ، وقال أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس نزلت في الدعاء ، وهكذا روى الثوري ومالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في الدعاء وكذا قال مجاهد وسعيد ابن جبير وأبو عياض ومكحول وعروة بن الزبير ، وقال الثوري عن ابن عياش العامري عن عبد الله بن شداد قال كان أعرابي من بني تميم إذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قال « اللهم ارزقني إبلا وولداً » قال فزلت هذه الآية (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) (قول آخر) قال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا حنص بن غياث عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها نزلت هذه الآية في التشهد (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) وبه قال حنص عن أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين مثله (قول آخر) قال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال لا تصل مرا آة للناس ولا تدعها مخافة الناس ، وقال الثوري عن منصور عن الحسن البصري (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال لا تحسن علانيتها وتسيء سريرتها وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به وهشام عن عوف عنه به وسعيد عن قتادة عنه كذلك (قول آخر) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (وابتغ بين ذلك سبيلا) قال أهل الكتاب يخافتون ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به ويصيحون هم به وراه فنهأ أن يصيح كما يصيح هؤلاء وأن يخافت كما يخافت القوم ثم كان السبيل الذي بين ذلك الذي سن له جبريل من الصلاة . وقوله (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى نزه نفسه عن النقائص فقال (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك) بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (ولم يكن له ولي من الدن) أى ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي أو وزير أو مشير بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له قال مجاهد في قوله (ولم يكن له ولي من الدن) لم يخالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد (وكبره تكبيرا) أى عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا ، قال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني أبو صخر عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) الآية قال إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً وقالت العرب : ليك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء

الله لذل فأنزل الله هذه الآية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) وقال أيضاً حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله هذه الآية (الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) الآية ، الصغير من أهله والكبير . قلت وقد جاء في حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمى هذه الآية آية العز وفي بعض الآثار أنها ماقرئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة والله أعلم ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا بشر بن سيجان البصري حدثنا حرب بن ميمون حدثنا موسى بن عبيدة الزبيدي عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة قال خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي أويدي في يده فأثنى على رجل رث الهيئة فقال « أي فلان ما بلغ بك ما أرى ؟ » قال السقم والضر يارسول الله قال « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال بلى ، مايسرنى أن شهدت بها معك بدرا أو أحدا ، قال فضحك رسول الله ﷺ وقال « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ » قال : فقال أبو هريرة يارسول الله إياي فعلمني قال « فقل يا أبا هريرة نوكلت على الحى الذى لا يموت ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً » قال فأثنى على رسول الله وقد حسنت حالى قال : فقال لى « مهم » قال قلت يا رسول الله لم أزل أقول الكلمات التى علمتنى ، إسناده ضعيف وفي متنه نكارة والله أعلم . آخر تفسير سورة سبحان والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الكهف وهى مكية ﴾

﴿ ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال سمعت البراء يقول : قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال « اقرأ فلان فانها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسيد بن الحضير كما تقدم في تفسير سورة البقرة . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا همام بن يحيى عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان ابن أبي طلحة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذى من حديث قتادة به ، ولفظ الترمذى « من حفظ ثلاث آيات من أول الكهف » وقال حسن صحيح ، (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن قتادة سمعت سالم بن أبي الجعد يحدث عن معدان عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » ورواه مسلم أيضاً والنسائي من حديث قتادة به ، وفي لفظ النسائي « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره ، (حديث آخر) وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن خالد عن شعبة عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال » فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن أبي الدرداء وقال أحمد حدثنا حسين حدثنا ابن لميعة حدثنا زيان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا ما بين السماء والأرض » انفرد به أحمد ولم يخرجوه ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره بإسناد له غريب عن خالد ابن سعيد بن أبي مريم عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » وهذا الحديث في رفعه نظر وأحسن أحواله الوقف . وهكذا روى الإمام سعيد بن منصور في سننه عن هشيم بن بشير عن أبي هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق . هكذا وقع موقوفا ، وكذا رواه الثوري عن أبي هاشم به من حديث أبي سعيد الخدري

وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي بكر محمد بن المؤمل حدثنا الفضيل بن محمد الشعراي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم حدثنا أبو هاشم عن أبي مجلز عن قيس بن عباد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعةين » ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وهكنا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في سننه عن الحاكم ، ثم قال البيهقي ورواه يحيى بن كثير عن شعبة عن أبي هاشم بإسناده أن النبي ﷺ قال « من قرأ سورة الكهف كما نزلت كانت له نوراً يوم القيامة » وفي المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن عبد الله بن مصعب عن منظور بن زيد بن خالد الجهني عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرفوعاً : من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى محمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتمها فإنه المحمود على كل حال وله الحمد في الأولى والآخرة ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ بل يهدي إلى صراط مستقيم واضحاً بيناً جليلاً نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين ولهذا قال (ولم يجعل له عوجاً) أى لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً ولهذا قال (قَيِّمًا) أى مستقيماً (لينذر بأساً شديداً من لدنه) أى لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الآخرة (من لدنه) أى من عند الله الذى لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد (ويبشر المؤمنين) أى بهذا القرآن الذين صدقوا بإيمانهم بالعمل الصالح (أن لهم أجراً حسناً) أى مثوبة عند الله جميلة (ما كثرين فيه) فى ثوابهم عند الله وهو الجنة خالدين فيه (أبداً) دائماً لازوالاً له ولا انقضاء . وقوله (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً) قال ابن إسحاق وهم مشركو العرب فى قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله (ما لهم به من علم) أى بهذا القول الذى افتروه واتنفكوه (ولا لآبائهم) أى لأسلافهم (كبرت كلمة) نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه . وقيل على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة كما تقول أكرم يزيد رجلاً قاله بعض البصريين ، وقرأ ذلك بعض قراء مكة كبرت كلمة كما يقال عظم قولك وكبر شأنك ، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر فإن هذا تبشيع لمقاتلهم واستعظام لانفكهم ولهذا قال (كبرت كلمة تخرج من أفواههم) أى ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترائهم ولهذا قال (إن يقولون إلا كذباً) وقد ذكر محمد بن إسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال حدثني شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعث قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى أتوا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ،

وسلوه عن الروح ماهوا؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أخبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمرهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتكم عنه » ولم يستثن فأنصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غدا واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معانيه إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل (ويسئلونك عن الروح ؟ قال الروح) الآية .

﴿ فَلَمَّا لَكَ بِخَيْعِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

يقال تعالى مسليا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على الشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) وقال (ولا تحزن عليهم) وقال (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) باخع أى مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) يعنى القرآن (أسفا) يقول لا تهلك نفسك أسفا ، قال قتادة : قاتل نفسك غضبا وحزنا عليهم ، وقال مجاهد جزعا والمعنى متقارب أى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار لادار قرار فقال (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أهملهم أحسن عملا) قال قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) أى وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا لا يثبت ولا ينتفع به كما قال العوفي عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) يقول يهلك كل شيء عليها ويبعد وقال مجاهد صعيدا جرزا بلقا ، وقال قتادة : الصعيد الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات ، وقال ابن زيد : الصعيد الأرض التى ليس فيها شيء . ألا ترى إلى قوله تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) وقال محمد بن إسحق (وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا) يعنى الأرض وإن ما عليها لقان وبائد وإن المرجع لألى الله فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرْبَنَا عَلَى أْذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَهُمُ الْخَزَائِينَ أَخَصِي لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ثم بسطها بعد ذلك فقال (أم حسبت) يعنى يا محمد (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجا) أى ليس أمرهم عجيبا فى قدرتنا وسلطاننا فإن

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى وأنه على ما يشاء قادر ولا يعجزه شيء، أعجب من أخبار أصحاب الكهف كما قال ابن جريج عن مجاهد (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) يقول قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال العوفي عن ابن عباس (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً) يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحق ما أظهرت من حججى على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف فهو الغار في الجبل وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المتذكرون، وأما الرقيم فقال العوفي عن ابن عباس هو واد قريب من أيلة وكذا قال عطية العوفي وقتادة. وقال الضحاك أما الكهف فهو غار الوادى والرقيم اسم الوادى وقال مجاهد الرقيم كتاب بنيانهم ويقول بعضهم هو الوادى الذى فيه كهفهم. وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله الرقيم كان يزعم كعب أنها القرية، وقال ابن جريج عن ابن عباس الرقيم الجبل الذى فيه الكهف، وقال ابن إسحق عن عبد الله بن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عباس قال اسم ذلك الجبل بنجلوس، وقال ابن جريج أخبرني وهب بن سليمان عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف بنجلوس واسم الكهف حيزم والكلب حمران. وقال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال القرآن أعلمه إلا حنانا والأواه والرقيم وقال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة يقول قال ابن عباس ما أدري ما الرقيم؟ كتاب أم بنيان؟ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الرقيم الكتاب، وقال سعيد ابن جبیر: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب ثم قرأ كتاب مرقوم. وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فيل بمعنى مرقوم كما يقال للمقتول قتل وللجروح جريح والله أعلم، وقوله (إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً) يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنهم عنه فهربوا منهم فلجأ إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم (ربنا آتنا من لدنك رحمة) أى هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا (وهيئ لنا من أمرنا رشداً) أى وقدر لنا من أمرنا رشداً هذا أى اجعل عاقبتنا رشداً كما جاء في الحديث «وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً» وفي المسند من حديث بسر بن أرطاة عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» وقوله (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) أى ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة (ثم بعثناهم) أى من رقدتهم تلك وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتى بيانه وتفصيله ولهذا قال (ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين) أى المختلفين فيهم (أحصى لما لبثوا أمداً) قيل عدداً، وقيل غاية فإن الأمد الغاية كقوله * سبق الجواد إذا استولى على الأمد *

﴿ تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ نَبَأُهُم بِالْحَقِّ إِنْهُمْ فَتِيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ أَعَزَّزْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رُحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما

الشايع من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل . وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً ، وقال مجاهد بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطعة يعنى الحلق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فآمنوا برهم أى اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو (وزدناهم هدى) استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى (وزدناهم هدى) كما قال (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وقال (ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك . وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فآله أعلم ، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالسكية فانهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم لمبايعتهم لهم ، وقد تقدم عن ابن عباس أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء وعن خبر ذى القرنين وعن الروح فدل هذا على أن هذا أمر محفوظ في كتب أهل الكتاب وأنه متقدم على دين النصرانية والله أعلم . وقوله (وربطنا على قلوبهم) إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض (يقول تعالى وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة فانه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والحلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون فيه في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويدبحون لها وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له دقيانوس وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذى خلق السموات والأرض فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينجاز منهم ويتبرز عنهم ناحية فكان أول من جلس منهم وحده أحدهم جلس تحت ظل شجرة فجاء الآخر فجلس إليها عنده وجاء الآخر فجلس إليهما وجاء الآخر فجلس إليهم وجاء الآخر وجاء الآخر ولا يعرف واحد منهم الآخر وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان كما جاء في الحديث الذى رواه البخارى تعليقا من حديث يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث سهيل عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ والناس يقولون : الجنسية علة الضم ، والغرض أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفاً منهم ولا يدرى أنهم مثله حتى قال أحدهم تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم إلا شئ ، فليظهر كل واحد منكم بأمره . فقال آخر أما أنا فإني والله رأيت ما قومي عليه فعرفت أنه باطل وإنما الذى يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شئ هو الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وقال الآخر وأنا والله وقع لى كذلك وقال الآخر كذلك حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله (وربطنا على قلوبهم) إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً (وإن لنفى التأييد أى لا يقع منا هذا أبداً لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ولهذا قال عنهم (لقد قلنا إذا شططا) أى باطلاً وكذباً وبهتاناً (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهاً لولا يأتون عليهم بسلطان بين) أى هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً) يقولون بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك فيقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم وأجلهم لينظروا فى أمرهم لعلمهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم فانهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة وهذا هو المشروع عند وقوع الفتنة فى الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء فى الحديث « يوشك

أن يكون خير مال أحدكم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع فلما وقع عزمهم على الذهاب والحرب من قومهم واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله (وإذا عثرتموه وما يعبدون إلا الله) أي وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم (فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته) أي يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم (ويهيئ لكم من أمركم) الذي أنتم فيه (مرفقاً) أي أمراً ترتفقون به فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك فيقال إنه لم يظفر بهم وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجأ إلى غار ثور وجاء المشركون من قريش في الطلب فلم يهتدوا إليه مع أنهم يبرون عليه وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جذع الصديق في قوله يارسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » وقد قال تعالى (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) فأنزل الله مكيفته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزير حكيم) فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، وقد قيل إن قومهم ظفروا بهم ووقفوا على باب الغار الذي دخلوه فقالوا ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ففعلوا ذلك ، وفي هذا نظر والله أعلم . فإن الله تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشيا كما قال تعالى .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه (ذات اليمين) أي يتقلص النور بمكة كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة (تزاور) أي تميل وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، ولهذا قال (وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال) أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدخل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب ويانه أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور النور يمينا ولا شمالا ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب فنعين ما ذكرناه والله الحمد ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة تقرضهم تركهم ، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منافحهم وتدبره ولم يخبرنا بإمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى ، وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالا فتقدم عن ابن عباس أنه قال هو قريب من أيلة ، وقال ابن إسحق هو عند نينوى وقيل ببلاد الروم وقيل ببلاد البلقاء والله أعلم بأى بلاد الله هو ، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه فقد قال صلى الله عليه وسلم « ما تركت شيئا يقرّبكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به » فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بإمكانه فقال (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم) قال مالك عن ابن زيد بن أسلم تميل (ذات اليمين) وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) أي في متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم قاله ابن عباس (ذلك من آيات الله) حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ، ولهذا قال تعالى (ذلك من آيات الله) ثم قال (من يهد الله فهو المهتد) الآية أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى ومن أضله فلا هادي له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَتْ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم لئلا يسرع إليها البلى فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقي لها ، ولهذا قال تعالى (وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود) وقد ذكر عن الثعلبي أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد كما قال الشاعر :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى * بأخرى الرزايا فهو يظن نائم

وقوله تعالى (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) قال بعض السلف يقلبون في العام مرتين قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض وقوله (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة: الوصيد الفناء ، وقال ابن عباس بالباب وقيل بالصعيد وهو التراب والصحيح انه بالفناء وهو الباب ومنه قوله تعالى (إنها عليهم مؤصدة) أى مطبقة مغلقة ويقال وصيد وأصيد يربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب ، قال ابن جريج يحرس عليهم الباب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض يبابهم كأنه يحرسهم وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر كما ورد به الحديث الحسن . وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال وهذا فائدة صعبة الاختيار فانه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . وقد قيل إنه كان كلب صيد لأحدهم وهو الأشبه وقيل كلب طباطب الملك وقد كان واقفهم على الدين وصحبه كلبه فأنه أعلم ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي حدثنا صدقة بن عمر الفسائي حدثنا عباد المقرئ سمعت الحسن البصري يقول كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير واسم هدهد سليمان عليه السلام عنفر واسم كلب أصحاب الكهف قطمير واسم عجل بن إسرائيل الذي عبدوه بهموت . وهبط آدم عليه السلام بالهند وحواء بجدة وإبليس بدست بيسان والحية بأصفهان ، وقد تقدم عن شعيب الجبائي أنه ساء حمران واختلوا في لونه على أقوال لا حاصل لها ولا طائل تحتها ولا دليل عليها ولا حاجة إليها بل هي مما ينهى عنه فإن مستندها رجم بالغيب ، وقوله تعالى (لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا وملكتم منهم رعباً) أى أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس حتى يبلغ الكتاب أجله وتنقضى رقدهم التي شاء تبارك وتعالى فيهم لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة والرحمة الواسعة .

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾

يقول تعالى كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين ولهذا تساءلوا بينهم (كم لبئتم ؟) أى كم رقدتم (قالوا لبئنا يوماً أو بعض يوم) لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار ولهذا استدرکوا فقالوا (أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبئتم) أى الله أعلم بأمركم وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم فأنه أعلم ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا (فابعثوا أحداكم بورقكم)

أى فضتكم هذه وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها فتصدقوا بها وبقي منها فلهمذا قالوا (فابعثوا أحكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى مدينتكم التى خرجتم منها والألف واللام للعهد (فلينظروا أيها أركى طعاماً) أى أطيب طعاماً كقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) وقوله (قد أفلح من تزكى) ومنه الزكاة التى تطيب المال وتطهره وقيل أ كثر طعاماً ومنه زكا الزرع إذا كثر قال الشاعر :

قبائلنا سبع وأتم ثلاثة وللسبع أركى من ثلاث وأطيب

والصحيح الأول لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال سواء كان كثيراً أو قليلاً ، وقوله (وليتلف) أى فى خروجه وذهابه وشرائه وإيابه يقولون وليختلف كل ما يقدر عليه (ولا يشعرون) أى ولا يعلمون (بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرجوكم) أى إن علموا بمكانكم (يرجوكم أو يعيدوكم فى ملتهم) يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانكم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا وإن وافقتموهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال (ولن تفلحوا إذا أبدا)

﴿ وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾

يقول تعالى (وكذلك أغترنا عليهم) أى أطلعنا عليهم الناس (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة ، وقال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك ، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة فى شراء شئ لهم ليأكلوه تنكر وخرج بمشى فى غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة وذكروا أن اسمها دقوس وهو يظن أنه قريب العهد بها وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وأمة بعد أمة وتغيرت البلاد ومن عليها كما قال الشاعر :

أما الديار فإنها كديارهم وأرى رجال الحى غير رجاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التى يعرفها ولا يعرف أحداً من أهلها لا خواصها ولا عوامها فجعل يتحير فى نفسه ويقول لعل بى جنونا أو مساً أو أنا حالم ويقول : والله ما بى شئ من ذلك وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة . ثم قال : إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى ، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه مامعه من النقفة وسأله أن يبيعه بها طعاماً فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها فدفعها إلى جاره وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون لعل هذا وجد كنزا فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النقفة لعله وجدها من كنز ومن أنت ؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون فحملوه إلى ولى أمرهم فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره وهو متحير فى حاله وما هو فيه فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف فقال لهم دعونى حتى أقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى فدخل ، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه وأخفى الله عليهم خبرهم ، ويقال بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم وكان مسلماً فيما قيل واسمه يندوسيس ففرحوا به وآنسوه بالكلام ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم وتوفاهم الله عز وجل فانه أعلم . قال قتادة : غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بكهف فى بلاد الروم فرأوا فيه عظاماً فقال قائل هذه عظام أهل الكهف فقال ابن عباس لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلثائة سنة رواء ابن جرير وقوله (وكذلك أغترنا عليهم) أى كما أرقدناهم وأيقظناهم بهياتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان (ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى فى أمر القيامة فمن مثبت لها ومن منكر فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف

حجة لهم وعليهم (فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم) أى سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم (قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً) حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين (أحدهما) أنهم المسلمون منهم (والثانى) أهل الشرك منهم فأنه أعلم ، والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر ، لأن النبي ﷺ قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وحالحيم مساجد » يحذر ما فعلوا وقدرونا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وََيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءَ ظَهْرٍ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال فدل على أنه لا قائل برابع ولما ضعف القولين الأولين بقوله (رجما بالغيب) أى قولاً بلا علم كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد . ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله (وثامنهم كلبهم) فدل على صحته وأنه هو الواقع فى نفس الأمر وقوله (قل ربي أعلم بعدتهم) إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى إذ لا احتياج إلى الحوض فى مثل ذلك بلا علم لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا . وقوله (ما يعلمهم إلا قليل) أى من الناس . قال قتادة قال ابن عباس أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة وكذا روى ابن جرير عن عطاء الخراساني عنه أنه كان يقول أنا ممن استثنى الله عز وجل ويقول عدتهم سبعة . وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس (ما يعلمهم إلا قليل) قال أنا من القليل كانوا سبعة فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو موافق لما قدمناه

وقال محمد بن إسحق بن يسار عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال لقد حدثت أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وضع الورق . قال ابن عباس فكانوا كذلك ليهم ونهارهم فى عبادة الله يسكون ويستغيثون بالله وكانوا ثمانية نفر: مكسملينا وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم ويعلجا ومرطونس وكسطونس ويرونس ودينخوس ويطبونس وقالوا هكذا وقع فى هذه الرواية ويحتمل أن هذا من كلام ابن إسحق ومن بينه وبينه فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة وهو ظاهر الآية وقد تقدم عن شعب الجبائي أن اسم كلبهم حمران وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته والله أعلم فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى سهلا هيناً فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة (ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب أى من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية فيه فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُّ رَبِّكَ إِذْ نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله فى المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « قال سليمان بن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفى رواية تسعين امرأة وفى رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله فقيل له - وفى رواية قال

له الملك - قل إن شاء الله فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان ، فقال رسول الله ﷺ -والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركا لحاجته « وفي رواية » ولقاتلوا في سبيل الله فرسانا أجمعون « وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف «غداً أجيئكم» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقد ذكرناه بطوله في أول السورة فأغنى عن إعادته وقوله (واذكر ربك إذا نسيت) قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثنى عند ذكرك له قاله أبو العالية والحسن البصرى ، وقال هشيم عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في الرجل يخلف قال له أن يستثنى ولو إلى سنة وكان يقول (واذكر ربك إذا نسيت) ذلك قيل للأعمش معتمده عن مجاهد فقال حدثني به ليث بن أبي سليم يرى ذهب كسائي هذا ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية عن الأعمش به . ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أى إذا نسى أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء حتى ولو كان بعد الحث قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحث اليمين ومسقطاً للكفارة وهذا الذى قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم وقال عكرمة (واذكر ربك إذا نسيت) إذا غضبت وقال الطبراني حدثنا محمد بن الحارث الجبلى حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد بن مسلم عن عبد العزيز بن حصين عن ابن أبي نجيع عن مجاهد عن ابن عباس في قوله (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله * واذكر ربك إذا نسيت) أن تقول إن شاء الله ، وروى الطبراني أيضاً عن ابن عباس في قوله (واذكر ربك إذا نسيت) الاستثناء فاستثنى إذا ذكرت ، وقال هى خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه ثم قال انفرد به الوليد عن عبد العزيز بن الحصين ، ويحتمل في الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسى الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان كما قال فتى موسى (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان فذكر الله تعالى سبب للذكر ولهذا قال (واذكر ربك إذا نسيت) وقوله (وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً) أى إذا مثلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك ، وقيل في تفسيره غير ذلك والله أعلم .

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية وهى ثلثمائة سنة بالشمسية فان تفاوت ما بين كل مائة سنة بالشمسية إلى الشمسية ثلاث سنين فلهذا قال بعد الثلثمائة وازدادوا تسعاً ، وقوله (قل الله أعلم باللبثوا) أى إذا مثلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء بل قل في مثل هذا (الله أعلم باللبثوا له غيب السموات والأرض) أى لا يعلم ذلك إلا هو ومن أطلع عليه من خلقه وهذا الذى قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد وغير واحد من السلف والخلف وقال قتادة في قوله (ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ) الآية هذا قول أهل الكتاب وقد رده الله تعالى بقوله (قل الله أعلم باللبثوا) قال وفي قراءة عبد الله وقالوا ولَبِثُوا يَعْنِي أَنَّهُ قَالَ النَّاسُ وَهَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَمُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي هَذَا الَّذِي زَعَمَهُ قَتَادَةُ نَظَرَ فَإِنَّ الَّذِي بَأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ لَبِثُوا ثَلَاثَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ غَيْرِ تِسْعٍ يَعْنُونَ بِالْشَّمْسِيَّةِ وَلَوْ كَانَ اللَّهُ قَدْ حَكَّى قَوْلَهُمْ لَمَا قَالَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ لَا حِكَايَةٌ عَنْهُمْ وَهَذَا اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَوَايَةُ قَتَادَةَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ مَنْقُطَةٌ ثُمَّ هِيَ شَاذَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ فَلَا يَحْتَاجُ بِهَا

والله أعلم وقوله (أبصر به وأسمع) أى إنه لبصير بهم سميع لهم . قال ابن جرير وذلك فى معنى المبالغة فى المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه وتأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء . ثم روى عن قتادة فى قوله (أبصر به وأسمع) فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وقال ابن زيد (أبصر به وأسمع) يرى أعمالهم ويسمع ذلك منهم سميعا بصيرا وقوله (ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى انه تعالى هو الذى له الخلق والأمر الذى لا معقب لحكمه وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير تعالى وتقدس

﴿ وَأَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس (لا مبدل لكلماته) أى لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل . وقوله (ولن تجد من دونه ملتحداً) عن مجاهد ملتحداً قال ملجأ وعن قتادة ولياً ولا مولى قال ابن جرير يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فانه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة . وقوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أى اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقبياء أو ضعفاء ، يقال إنها نزلت فى أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود وليفرد أولئك بمجلس على حدة فهاء الله عن ذلك فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية وقال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى عن إسرائيل عن المقدم بن شريح عن أبيه عن سعد هو ابن أبى وقاص قال كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى التياح قال سمعت أبا الجعد يحدث عن أبى أمامة قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قاص يقص فأمسك فقال رسول الله ﷺ « قص فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » وقال أحمد أيضاً حدثنا هاشم ثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت كردوس بن قيس وكان قاص العامة بالكوفة يقول أخبرنى رجل من أصحاب بدر أنه سمع النبي ﷺ يقول « لأن أقعد فى مثل هذا المجلس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » قال شعبة فقلت أى مجلس قال كان قاصاً وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا محمد حدثنا يزيد بن أبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى مما طاعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً » فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفاً وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد

منهم اثنا عشر ألفاً . وقال الحافظ أبو بكر البرار حدثنا محمد بن إسحق الأهوازي حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا عمرو ابن ثابت بن علي بن الأقرع عن الأغر أبي مسلم وهو الكوفي أن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي ﷺ سكت فقال النبي ﷺ « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » هكذا رواه أبو أحمد عن عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرع عن الأغر مرسلاً وحدثنا يحيى بن المعلى عن منصور حدثنا محمد بن الصلت حدثنا عمرو بن ثابت عن علي بن الأقرع عن الأغر أبي مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد قالوا: جاء رسول الله ﷺ ورجل يقرأ سورة الحج أو سورة الكهف فسكت فقال رسول الله ﷺ « هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » وقال الإمام أحمد ثنا محمد بن بكر ثنا ميمون المرثي ثنا ميمون ابن سياه عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات » تفرد به أحمد رحمه الله . وقال الطبراني ثنا إسماعيل بن الحسن ثنا أحمد بن صالح ثنا ابن وهب عن أسامة بن زيد عن أبي حازم عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض آياته (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى منهم نائر الرأس وجاف الجلد وذو الثوب الواحد فلما رأهم جلس معهم وقال « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أصبر نفسي معهم » عبد الرحمن هذا ذكره أبو بكر بن أبي داود في الصحابة وأما أبوه فن سادات الصحابة رضى الله عنهم . وقوله (ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) قال ابن عباس ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا (وكان أمره فرطاً) أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته ولا تعبط بما هو فيه كما قال (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ وقل يا محمد للناس هذا الذي جشتم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ولهذا قال (إنا أعتدنا) أى أرصدنا (للظالمين) وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه (ناراً أحاط بهم سرادقها) أى سورها . قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال « لسرادق النار أربعة جدر كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة » وأخرجه الترمذى في صفة النار وابن جرير في تفسيره من حديث دراج أبي السمع به

وقال ابن جرير قال ابن عباس (أحاط بهم سرادقها) قال حائط من نار . قال ابن جرير : حدثني الحسين بن نصر والعباس بن محمد قال حدثنا أبو عاصم عن عبد الله بن أمية حدثني محمد بن حيي بن يعلى عن صفوان بن يعلى عن ابن أمية قال : قال رسول الله ﷺ « البحر هو جهنم » قال فليل له كيف ذلك ؟ قتلا هذه الآية أو قرأ هذه الآية (ناراً أحاط بهم سرادقها) ثم قال « والله لا أدخلها أبداً أو ما دمت حياً لا تصيبني منها قطرة » . وقوله (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) الآية قال ابن عباس : المهل الماء الغليظ مثل دردى الزيت ، وقال مجاهد هو كالدسم والقيح وقال عكرمة هو الشيء الذي انتهى حره ، وقال آخرون هو كل شيء أذيب . وقال قتادة : أذاب ابن مسعود شيئاً من الذهب في أخدود فلما انماع وأزبد قال : هذا أشبه شيء بالمهل . وقال الضحاك : ماء جهنم أسود

وهى سوداء وأهلها سود ، وهذه الأقوال ليس شئ منها ينفي الآخر فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها فهو أسود متين غليظ حار ولهذا قال (يشوى الوجوه) أى من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم فى سرادق النار عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال « ماء كالمهل - قال - كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه » وهكذا رواه الترمذى فى صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج به . ثم قال لا نعرفه إلا من حديث رشدين وقد تكلم فيه من قبل حفظه هكذا قال : وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب عن ابن لهيعة عن دراج والله أعلم . وقال عبد الله بن المبارك وبقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو عن عبد الله بن بشر عن أبى أمامة عن النبي ﷺ فى قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال : « يقرب إليه فيتكرهه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه ، يقول الله تعالى (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بشس الشراب) » وقال سعيد بن جبیر : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم فىأكلون منها فاختلفت جلود وجوههم فلو أن مارا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذى قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الدميعة القبيحة (بشس الشراب) أى بشس هذا الشراب كما قال فى الآية الأخرى (وسقوا ماء حميما قطع أمعاءهم) وقال تعالى (تسقى من عين آية) أى حارة كما قال تعالى (وبين حميم آن) (وساء مرتفقا) أى وساءت النار منزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق كما قال فى الآية الأخرى (إنها ساءت مستقرا ومقاما)

﴿ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا * أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُفْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الْأَنْوَابُ وَحَسَنَتِ الْمُرْتَفَقَاتُ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثم يذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيها جاءوا به وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة فاتهم جنات عدن والعدن الإقامة (تجرى من تحتهم الأنهار) أى من تحت غرفهم ومنازلهم . قال فرعون (وهذه الأنهار تجري من تحتي) الآية (يحلون) أى من الحلية (فيها من أساور من ذهب) وقال فى المكان الآخر (ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وفصله ههنا فقال (ويلبسون ثيابا خضرا من سفدس وإستبرق) فالسندس لباس رفيع رقيق كالقمصان وما جرى مجراها وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق وقوله (متكنين فيها على الأرائك) الاتكاء قيل الاضطجاع وقيل التربع فى الجلوس وهو أشبه بالمراد ههنا ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئا » فيه القولان . والأرائك جمع أريكة وهى السرير تحت الحجلة والحجلة كما يعرفه الناس فى زماننا هذا بالبشخانة والله أعلم . قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة (على الأرائك) قال هى الحجال قال معمر وقال غيره السرزرى الحجال . وقوله (نعم الثواب وحسنت المرتفقا) أى نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم وحسنت مرتفقا أى حسنت منزلا ومقيلا ومقاما كما قال فى النار (بشس الشراب وساءت مرتفقا) وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله (إنها ساءت مستقرا ومقاما) ثم ذكر صفات المؤمنين فقال (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما)

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * ﴾

كَلِمَتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْمَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أى بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدثه فى جنباتهما وفى خللهما الزروع وكل من الأشجار والزروع مشمر مقبل فى غاية الجودة ولهذا قال (كلتا الجنتين آتت أكلها) أى أخرجت ثمرها (ولم تظلم منه شيئاً) أى ولم تنقص منه شيئاً (وفجّرنا خللهما نهراً) أى والأنهار متفرقة فىهما ههنا وههنا (وكان له ثمر) قيل المراد به المال روى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وقيل الثمار وهو أظهر ههنا ويؤيده القراءة الأخرى (وكان له ثمر) بضم الثاء وتسكين الميم فيكون جمع ثمرة كخشب وخشب . وقرأ آخرون ثمر بفتح الثاء والميم فقال أى صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يحاوره أى يجادله ويخاصمه يفتخر عليه ويتأس (أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً) أى أكثر خدماً وحشماً وولداً . قال قتادة تلك والله أمانة الفاجر كثرة المال وعزة النفس وقوله (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أى بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره للعاد (قال ما أظن أن تبید هذه أبداً) وذلك اغترار منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تنفى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة ولهذا قال (وما أظن الساعة قائمة) أى كائنة (ولئن رددت إلى ربى لأجدن منها منقلباً) أى ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ولولا كرامتى عليه ما أعطانى هذا كما قال فى الآية الأخرى (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى) وقال (أفرايت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً) أى فى الدار الآخرة تألى على الله عز وجل . وكان سبب نزولها فى العاص بن وائل كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاله وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار (أكفرت بالذى خلقك من تراب) الآية وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) الآية أى كيف تجحدون ربكم ودلالته عليه كظاهرة جلية كل أحد يعلمها من نفسه فانه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شئ من المخلوقات لأنه بمثابة فعل إسناد إيجاده إلى خالقه وهو الله لا إله لا هو خالق كل شئ ولهذا قال المؤمن (ولكننا هو الله ربى) أى لكن أنا لا أقول بمقاتلك بل أعترف لله بالوحدانيه والربوبية (ولا أشرك بربى أحداً) أى بل هو الله المعبود وحده لا شريك له ثم قال :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا) هذا تحضيض وحث على ذلك أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا جراح بن مخلد حدثنا عمر بن يونس حدثنا عيسى بن عون حدثنا عبد الملك بن زرارة عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » وكان يتأول هذه الآية (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) قال الحافظ أبو الفتح الأزدي عيسى بن عون عن عبد الملك ابن زرارة عن أنس لا يصح حديثه . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة وحجاج حدثني شعبة عن عاصم ابن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا قوة إلا بالله » تفرد به أحمد ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال الإمام أحمد حدثنا بكير بن عيسى حدثنا أبو عوانة عن أبي بلخ عن عمرو بن ميمون قال : قال أبو هريرة قال لى رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة تحت العرش ؟ » قال : قلت فذاك أبى وأمى قال « أن تقول لا قوة إلا بالله » قال أبو بلخ وأحسب أنه قال « فان الله يقول أسلم عبدي واستسلم » قال فقلت لعمرؤ قال أبو بلخ قال عمرو قلت لأبي هريرة لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لا إنها فى سورة الكهف (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وقوله (فعسى ربى أن يؤتينا خيرا من جنتك) أى فى الدار الآخرة (ويرسل عليها) أى على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبديد ولا تنفى (حسبنا من السماء) قال ابن عباس والضحاك وقادة ومالك عن الزهرى أى عذاباً من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ولهذا قال (فتصبح صعيدا زلقا) أى بلقعا ترابا أملس لا يثبت فيه قدم وقال ابن عباس كالجرز الذى لا يثبت شيئا وقوله (أو يصبح ماؤها غورا) أى غائرا فى الأرض وهو ضد النابيع الذى يطلب وجه الأرض فالعائر يطلب أسفلها كما قال تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتىكم بهاء معين) أى جار وسائح وقال ههنا (أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) والغور مصدر بمعنى غائر وهو أبلغ منه كما قال الشاعر :

تظل جياده نوحا عليه * تقلده أعنتها صفوفا
بمعنى نائحات عليه

(وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَابُ كَفِّهِ عَلَى مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)

يقول تعالى (وأحيط بشمره) بأمواله أو بثماره على القول الآخر والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته التى اغتر بها وألتهته عن الله عز وجل (فأصبح يقاب كفيه على ما أنفق فيها) وقال قتادة يصفى كفيه متأسفا متلثفا على الأموال التى أذهبها عليها (ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا * ولم تكن له فئة) أى عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز (ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا * هنالك الولاية لله الحق) اختلف القراء هم نافعهم من يقف على قوله (وما كان منتصرا هنالك) أى فى ذلك الوطن الذى حل به عذاب الله فلا منقذ له منه ويبتدى بقوله (الولاية لله الحق) ومنهم من يقف على (وما كان منتصرا) ويبتدى بقوله (هنالك الولاية لله الحق) ثم اختلفوا فى قراءة الولاية فمنهم من فتح الواو من الولاية فيكون المعنى هنالك الموالاة لله أى هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به

وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال ابن جريج وقال عطاء بن أبي رباح مثل ذلك ، وقال مجاهد : الباقيات الصالحات سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة في قوله (والباقيات الصالحات) قال لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله ، هن الباقيات الصالحات ، قال ابن جرير : وجدت في كتابي عن الحسن بن الصباح البزار عن أبي نصر التمار عن عبد العزيز بن مسلم عن محمد بن عجلان عن سعيد القبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات » قال وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « استكثروا من الباقيات الصالحات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال « اللذة » قيل وما هي يا رسول الله ؟ قال « التكبير والتلهيل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله » وهكذا رواه أحمد من حديث دراج به

قال وهب أخبرني أبو صخر أن عبد الله بن عبد الرحمن مولى سالم بن عبد الله حدثه قال : أرسلني سالم إلى محمد بن كعب القرظي في حاجة فقال قل له القى عند زاوية القبر فإن لي إليك حاجة قال فالتقيا فسلم أحدهما على الآخر ثم قال سالم ماتعد الباقيات الصالحات ؟ فقال لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال له سالم : متى جعلت فيها لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ قال : ما زلت أجعلها قال فراجعه مرتين أو ثلاثا فلم ينزع قال فأبيت ؟ قال سالم أجل فأبيت فإن أبا أيوب الأنصاري حدثني أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول « عرج بي إلى السماء فرأيت إبراهيم عليه السلام فقال يا جبريل من هذا الذي معك ؟ فقال محمد فرحب بي وسهل ثم قال مرأمتك فلتكثر من غراس الجنة فإن تربتها طيبة وأرضها واسعة فقلت وما غراس الجنة فقال لا حول ولا قوة إلا بالله »

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن يزيد عن العوام حدثني رجل من الأنصار من آل النعمان بن بشير قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء فرفع بصره إلى السماء ثم خفض حتى ظننا أنه قد حدث في السماء شيء ثم قال : « أما إنه سيكون بعدى أمراء يكذبون ويظلمون فمن صدقهم بكذبهم ومالهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه . ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات » .

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد عن أبي سلام عن مولى لرسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نج نج لحسن ما أثقلهن في الميزان : لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده - وقال - نج نج لحسن من لقي الله مستيقنا بهن دخل الجنة : يؤمن بالله واليوم الآخر وبالجنة والنار وبالبعث بعد الموت وبالחסاب » وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضى الله عنه في سفر فنزل منزلا فقال لغلामه اثنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها وأزمها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكثروا أنتم هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب » ثم رواه أيضا النسائي من وجه آخر عن شداد بنحوه . وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا محمد بن سعد العوفي حدثني أبي حدثنا عمر بن الحسين عن يونس بن نفع الجدي عن سعد بن جنادة رضى الله عنه قال : كنت في أول من أتى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الطائف فخرجت من أعلى الطائف من السراة غدوة فأتيته مني عند العصر فتصاعدت في الجبل ثم هبطت فأتيته النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وعلمني (قل هو الله أحد) و (إذا زلزلت) وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

وقال « هن الباقيات الصالحات » وبهذا الإسناد « من قام من الليل قنوصاً ومضمض فاه ثم قال سبحان الله مائة مرة والحمد لله مائة مرة والله أكبر مائة مرة ولا إله إلا الله مائة مرة غفرت ذنوبه إلا الدماء فانها لا تبطل » وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (والباقيات الصالحات) قال هي ذكر الله قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله وتبارك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وأستغفر الله وصلى الله على رسول الله والصيام والصلاة والحج والصدقة والعق والجهاد والصلاة وجميع أعمال الحسنات وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السموات والأرض . وقال العوفي عن ابن عباس : هي الكلام الطيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها واختاره ابن جرير رحمه الله

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعَرْضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَٰضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى : (يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا) أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وقال تعالى (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) وقال (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً) يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد وتبقى الأرض قاعاً صفصفاً أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمتاً أي لا وادي ولا جبل ولهذا قال تعالى (وترى الأرض بارزة) أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يوارى أحداً بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية . قال مجاهد وقادة (وترى الأرض بارزة) لا حجر فيها ولا غيابة قال قتادة : لا بناء ولا شجر . وقوله (وحشرناهم فلم تغادرناهم أحداً) أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين فلم تترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً كما قال (قل إن الأولين والآخرين لمجوعون إلى ميقات يوم معلوم) وقال (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وقوله (وعرضوا على ربك صفافاً) يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفافاً واحداً كما قال تعالى (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً كما قال (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقوله (لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) هذا تقرير للنكرين للعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم (بل زعمت أن لن نجعل لكم موعداً) أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن وقوله (ووضع الكتاب) أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والفتيل والقطمير والصغير والكبير (فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة (ويقولون يا ويلتنا) أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها . وروى الطبراني بإسناده المتقدم في الآية قبلها إلى سعد بن جنادة قال لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء فقال النبي ﷺ « اجمعوا من وجد عودا فليأت به ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به » قال فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركماً فقال النبي ﷺ « أترون هذا ؟ » فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعت هذا فليأت الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه « وقوله (ووجدوا ما عملوا حاضراً) أي من خير وشر كما قال تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) الآية

الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحى قال وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون في طرفها إذا التهب وقال الضحاك أيضا عن ابن عباس كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان السماء الدنيا وسلطان الأرض وكان مماسولت له نفسه من قضاء الله أنه رأى أن له بذلك شرفا على أهل السماء فوقع من ذلك في قلبه كبر لا يعلمه إلا الله واستخرج الله ذلك الكبر منه حين أمره بالسجود لآدم (فاستكبر وكان من الكافرين) قال ابن عباس قوله (كان من الجن) أى من خزان الجنان كما يقال للرجل مكى ومدنى وبصرى وكوفى وقال ابن جريج عن ابن عباس نحو ذلك ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال هو من خزان الجنة وكان يدبر أمر السماء الدنيا رواه ابن جرير من حديث الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد به ، وقال سعيد بن المسيب كان رئيس ملائكة سماء الدنيا ، وقال ابن إسحق عن خلاد بن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهدا وأكثروا علما فذلك دعاه إلى الكبر وكان من حى يسمون جنا . وقال ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبى نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال إن من الملائكة قبيلة من الجن وكان إبليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض فعصى فسخط الله عليه فمسخه شيطانا رجيا لعنه الله ممسوخا قال وإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه وإذا كانت في معصية فارجه ، وعن سعيد بن جبير أنه قال كان من الجنان الذين يعملون في الجنة وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه لخالفته للحق الذى بأيدينا وفي القرآن غنية عن كل ماعده من الأخبار المتقدمة لأنها لا تسكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان وقد وضع فيها أشياء كثيرة وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروه وبيّنوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكروه وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس منه فرضى الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل ، وقوله (ففسق عن أمر ربه) أى فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكامها وفسقت الفأرة من جحرها إذا خرجت منه للعبث والفساد ثم قال تعالى مفرعا وموبخا لمن اتبعه وأطاعه (أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني) الآية أى بدلا عني ولهذا قال (بئس للظالمين بدلا) وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس (وامتازوا اليوم أيها المجرمون - إلى قوله - أفلم تكونوا تعقلون)

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئا ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير* ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) الآية ولهذا قال (وما كنت متخذ المضلين عضدا) قال مالك : أعوانا

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿

يقول تعالى مخبرا عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريرا لهم وتوبيخا (نادوا شركائنا الذين زعمتم) أى فى دار الدنيا ادعوهم اليوم يتقذونكم مما أنتم فيه كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) وقوله (فدعوه فلم يستجيبوا لهم) كما قال (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوه فلم يستجيبوا لهم) الآية ، وقال (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) الآيتين وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقوله (وجعلنا بينهم موبقا) قال ابن عباس وقناة وغير واحد مهلكا ، وقال قتادة ذكر لنا أن عمرا البكالى حدث عن عبد الله بن عمرو قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة وقال قتادة: موبقا واديا فى جهنم

وقال ابن جرير حدثني محمد بن سنان القزاز حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن زريع سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى (وجعلنا بينهم موبقا) قال واد فى جهنم من قيح ودم ، وقال الحسن البصرى موبقا عداوة والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك ويجوز أن يكون واديا فى جهنم أو غيره والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير . وأما إن جعل الضمير فى قوله بينهم عائدا إلى المؤمنين والكافرين كما قال عبد الله بن عمرو إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به فهو كقوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) وقال (يومئذ يصدعون) وقال تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم - إلى قوله - وضل عنهم ما كانوا يفترون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى أنهم لما عاينوا جهنم حين جرى بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك (فإذا رأى المجرمون النار) تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم فان توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز وقوله (ولم يجدوا عنها مصرفا) أى ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها . قال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها موقعة من مسيرة أربعين سنة » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ينصب الكافر مقدار خمسين ألف سنة كما لم يعمل فى الدنيا وإن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها موقعة من مسيرة أربعين سنة »

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾

يقول تعالى ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ومع هذا البيان وهذا الفرقان الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني علي بن الحسين أن حسين بن علي أخبره أن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرقة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة فقال « ألا تصليان » فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شيئا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) أخرجاه فى الصحيحين .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات وأنه مامنهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وآخرون قالوا (اثننا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) وقالت قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) (وقالوا يا أيها الذي نزل عليك الذكرك إنك لمجنون لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك ثم قال (إلا أن تأتيتهم سنة الأولين) من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم (أو يأتيتهم العذاب قبلاً) أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة ثم قال تعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم ثم أخبر عن الكفار بأنهم (يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل وليس ذلك بحاصل لهم) واتخذوا آياتي وما أُنذروا هُزُوًا أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل وما أُنذروهم وخوفوهم به من العذاب (هزوا) أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التأكيد

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا * وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾

يقول تعالى وأي عباد الله ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها أي تناسها وأعرض عنها ولم يصغ لها ولا ألقى إليها بالا (ونسى ما قدمت يداه) أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة (إننا جعلنا على قلوبهم أكنة) أي قلوب هؤلاء (أكنة) أي أغشية وغشاوة (أن يفقهوه) أي لثلاث يفهموا هذا القرآن والبيان (وفي آذانهم وقراً) أي صمما معنويان عن الرشاد (وإن تدعهم إلى الهدى فإن يهتدوا إذا أبدا) وقوله (وربك الغفور ذو الرحمة) أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة (لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) كما قال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال (وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) والآيات في هذا كثيرة شتى ثم أخبر أنه يحلم ويسترويعفر ور بما هدى بعضهم من النقي إلى الرشاد ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال (بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً) أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل وقوله (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا) أي الأمم السالفة والقرون الحالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم (وجعلنا لمهلكهم موعداً) أي جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص أي وكذلك أتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْصِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا

حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنِّي جَاءْتُكَمَا لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا *
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً
مَنْ عِنْدِنَا وَعِلْمُنَّهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿

سبب قول موسى لفاته وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبدا من عباد الله يجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه وقال لفاته ذلك (لا أبرح) أى لا أزال سائرا (حتى أبلغ مجمع البحرين) أى هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين . قال الفرزدق : فما برحوا حتى تهادت نساؤهم * يبطحاء ذى قار عياب اللطائم * قال قتادة وغير واحد : هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب ، وقال محمد بن كعب القرظى مجمع البحرين عند طنجة يعنى فى أقصى بلاد المغرب فإله أعلم ، وقوله (أو أمضى حقبا) أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب فى لغة قيس سنة ثم قد روى عن عبد الله ابن عمرو أنه قال الحقب ثمانون سنة ، وقال مجاهد سبعون خريفا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (أو أمضى حقبا) قال دهر ، وقال قتادة وابن زيد مثل ذلك . وقوله (فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما) وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين وهناك عين يقال لها عين الحياة فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب وكان فى مكمل مع يوشع عليه السلام وطفق من المكمل إلى البحر فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت فى البحر فجل يسير فى الماء والماء له مثل الطاق لا يلبث بعده ، ولهذا قال تعالى (واتخذ سبيله فى البحر سربا) أى مثل السرب فى الأرض قال ابن جرير قال ابن عباس صار أثره كأنه حجر . وقال العوفي عن ابن عباس جعل الحوت لايمس شيئا من البحر إلا ييس حتى يكون صخرة وقال محمد بن إسحق عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير مكان الحوت الذى فيه فانجاب كالكوكة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه فقال (ذلك ما كنا نبغى) وقال قتادة سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر ثم سلك فيه فجعل لايسلك فيه طريقا إلا صار ماء جامدا وقوله (فلما جاوزا) أى المكان الذى نسيا الحوت فيه ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذى نسيه كقوله تعالى (يخرج منهما الثؤلؤ والمرجان) وإنما يخرج من المالح على أحد القولين فلما ذهباعن المكان الذى نسيه فيه بمرحلة (قال) موسى (لفاته آتانا غدا ما لقد لقينا من سفرنا هذا) أى الذى جاوزا فيه المكان (نصبا) يعنى تعباً (قال أرايت إذ أونا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) قال قتادة وقرأ ابن مسعود أن أذكره ولهذا قال (فاتخذ سبيله) أى طريقه (فى البحر عجبا قال ذلك ما كنا نبغى) أى هذا هو الذى نطلب (فارتدا) أى رجعا (على آثارهما) أى يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما (فوجد عبدا من عبادنا آتياه رحة من عندنا وعلمناه من لدنا علما) وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس إن نوحا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسأل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبدا يجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذه معك حوتا فتجعله بمكمل فحيما فقدت

الحوت، فهو ثم فأخذ حوتا فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فالتفت سبيله في البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفته (آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المسكان الذي أمره الله به ، قال له فتاه (أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا) قال فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا ، فقال (ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا) قال فرجما يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الحضر وأنى بأرضك السلام . فقال أنا موسى . فقال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم قال أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا (قال إنك لن تستطيع معى صبرا) يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت وأنت على علم من علم الله علمكه الله لأعلمه . فقال موسى (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) قال له الحضر (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكمأوهم أن يحملوهم فعرفوا الحضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والحضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدم ، فقال له موسى قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ؟ قال لاتؤخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم - فكانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الحضر : ما علمى وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما يمشيان على الساحل إذ أبصر الحضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الحضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى (أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا) قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا) قال وهذه أشد من الأولى ، (قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوها فوجدوا فيها جدارا يريد أن يتقض) أى ماثلا فقال الحضر بيده (فأقامه) فقال موسى : قوم أتيانهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وددنا أن موسى كان صبرا حتى يقص الله علينا من خبرهما » قال سعيد بن جبیر : كان ابن عباس يقرأ (وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) وكان يقرأ (وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين) ثم رواه البخارى عن قتبية عن سفيان بن عيينة فذكر نحوه وفيه فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها قال فوضع موسى رأسه فنام ، قال سفيان وفى حديث عن عمرو قال وفى أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حي فأصاب الحوت من ماء تلك العين فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفته (آتنا غداءنا) قال وساق الحديث ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر فقال الحضر لموسى ما علمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره وذكر تمامه بنحوه وقال البخارى أيضا حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار عن سعيد بن جبیر يزيد أحدهما على صاحبه وغيرها قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبیر قال إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال سلونى فقلت أى أباعباس جعلنى الله فداك بالكوفة رجل قاص يقال له نوف يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل أما عمرو فقال لى قال كذب عدو الله وأما يعلى فقال لى قال ابن عباس حدثنى أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « موسى رسول الله ذكر الناس يوما حتى إذا فاضت العيون وورقت القلوب ولى ، فأدركه رجل فقال أى رسول الله هل فى الأرض أحد أعلم منك ؟ قال لا : فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله ، قيل بلى قال أى رب ، وأين ؟ قال بجميع البحرين ، قال أى رب اجعل لى علما

أعلم ذلك به . قال لي عمرو قال حيث يفارقك الحوت وقال لي يعلى خذ حوتاميتا حيث ينفخ فيه الروح فأخذ حوتاً فجعله في مكمل فقال لفتاه لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت قال ما كلفت كبيراً فذلك قوله (وإذا قال موسى لفتاه) يوشع بن نون ليست عند سعيد بن جبير قال فبينما هو في ظل صخرة في مكان ثريان إذ يضرب الحوت وموسى نائم فقال فتاه لا أوقظك حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ويضرب الحوت حتى دخل في البحر فأمسك الله عنه جرية الماء حتى كأن أثره في حجر قال : فقال لي عمرو وهكذا كأن أثره في حجر وحلق بين إيهاميه واليتين تليهما قال (لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً) قال وقد قطع الله عنك النصب ليست هذه عند سعيد بن جبير أخبره فرجعا فوجدا خضرا قال : قال عثمان بن أبي سليمان على طنفسة خضراء على كبد البحر قال سعيد بن جبير مسجى ثوب قد جعل طرفه تحت رجله وطرفه تحت رأسه فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال هل بأرضي من سلام ؟ من أنت ؟ قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم قال فما شأنك ؟ قال : جئتكم لتعلمني مما علمت رشداً قال أما يكفيك أن التوراة بيديك وأن الوحي يأتيك يا موسى إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر حتى إذا ركبا في السفينة وجداهما برصغراً تحمل أهل هذا الساحل إلى هذا الساحل الآخر عرفوه فقالوا عبد الله الصالح قال قتلنا لسعيد بن جبير خضر قال نعم لأنحمله بأجر فخرقها ووتد فيها وتدا قال موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ) قال مجاهد منكر أقال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً كانت الأولى نسياناً والثانية شرطاً والثالثة عمداً قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً فانطلقا حتى لقياً غلاماً قتلته قال يعلى قال سعيد وجد غلاماً نافعاً ينعون فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه ثم ذبحه بالسكين فقال أقتلت نفساً زكية لم تعمل الحنث وابن عباس قرأها زكية زاكية مسلمة كقولك غلاماً زكياً فانطلقا فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال بيده هكذا ودفع بيده فاستقام قال لوشئت لا تخذت عليه أجراً قال يعلى حسببت أن سعيداً قال فمسحه بيده فاستقام قال لوشئت لا تخذت عليه أجراً قال سعيد أجراً نأكله وكان وراءهم ملك وكان أمامهم قرأها ابن عباس أمامهم ملك يزعمون عن غير سعيد أنه هدد بن بدد والغلام المقتول اسمه يزعمون حيسور ملك يأخذ كل سفينة غصبا فأردت إذا هي مرت به أن يدعها بعينها فإذا جاوزوا أصلحوها فاتفعوا بها منهم من يقول سدوها بكارورة ومنهم من يقول بالقار كان أبواه مؤمنين وكان هو كافراً فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً أن يحملهما جبه على أن يتابعاه على دينه فأردنا أن يبدلهم أرباباً منهم ما نأمنهم من بعد ذلك كفوله (أقتلت نفساً زكية) وقوله (وأقرب رحماً) هبابه أرحم منهما بالأول الذي قتل خضر وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبداً لاجارية وأما داود بن أبي عاصم فقال عن غير واحد أنها جارية وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطب موسى عليه السلام بني إسرائيل فقال ما أحد أعلم بالله وبأمره مني فأمر أن يلقي هذا الرجل فذكر نحو ما تقدم زيادة ونقصان والله أعلم وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن عمار عن الحكم بن عتيبة عن سعيد بن جبير قال جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم يا أبا العباس إن نوحاً بن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العلم إنما هو موسى بن ميثا ، قال سعيد فقال ابن عباس أنوف يقول هذا ياسعيد ؟ فقلت له نعم أنا سمعت نوحاً يقول ذلك قال أنت سمعته ياسعيد قال قلت نعم قال كذب نوف . ثم قال ابن عباس حدثني أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى بن إسرائيل سأل ربه فقال أي رب إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدلتني عليه فقال له نعم في عبادي من هو أعلم منك ثم نعت له مكانه وأذن له في لقيه ، فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح قد قيل له إذا حي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد أدركت حاجتك فخرج موسى ومعه فتاه ومعه ذلك الحوت يحملانه فسار حتى جهده السير وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء وذلك الماء ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقارنه شيء ميت إلا حي فلما نزلوا ومسى الحوت الماء حي فأتخذ سبيله في البحر سرباً فانطلقا فلما جاوزا النقلة قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، قال الفتى وذكر رأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت

وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا ، قال ابن عباس فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهى إليها فإذا رجل متلفف في كساء له فسلم موسى عليه فرد عليه السلام ثم قال له ما جاء بك إن كان لك في قومك لشغل قال له موسى جئت لك لتعلمي مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك فقال موسى بلى قال (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) أي إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل ولم تحط من علم الغيب بما أعلم (قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) وإن رأيت ما يخالفني ، قال (فان اتبعني فلا تسألني عن شيء) وإن أنكرته (حتى أحدث لك منه ذكرا) فانطلق يمشيان على ساحل البحر يتعرضان الناس يلتزمان من يحملهما حتى مرت بهما سفينة جديدة وثيقة لم يمر بهما من السفن شيء أحسن ولا أجمل ولا أوثق منها فسأل أهلها أن يحملوهما فحملوهما فلما اطمأنا فيها ولجت بهما مع أهلها أخرج منقارآله ومطرقة ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقتها ثم أخذ لوحا فطبقه عليها ثم جلس عليها يرقعها فقال له موسى ورأى أمرا أفظع به (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا * قال لا تؤاخذني بما نسيت) أي بما تركت من عهدك (ولا ترهقني من أمري عسرا) ثم خرجا من السفينة فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية فإذا غلمان يلعبون خلفها فيهم غلام ليس في الغلمان غلام أظرف منه ولا أثري ولا أوضأ منه فأخذه بيده وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله ، قال فرأى موسى أمرا فظيما لا صبر عليه ، صبي صغير قتله لا ذنب له قال (أقتلت نفسا زكية) أي صغيرة (بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا * قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا) أي قد أعذرت في شأني (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) فهدمه ثم قعد بينيه ، فضجر موسى مما يراه يصنع من التكليف وما ليس عليه صبر فأقامه قال (لو شئت لاتخذت عليه أجرا) أي قد استطعما فلم يطعمونا وضمناهم فلم يضيفونا ثم قعدت تعمل من غير صنيعه ولو شئت لأعطيت عليه أجرا في عمله ، قال (هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وفي قراءة أبي بن كعب (كل سفينة صالحة) وإنما عيبها لأرده عنها فسلمت منه حين رأى العيب الذي صنعت بها ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتييمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري) أي ما فعلته عن نفسي (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) فكان ابن عباس يقول ما كان الكنز إلا علما ، وقال العوفي عن ابن عباس قال لما ظهر موسى وقومه على مصر أنزل قومه مصر فلما استقرت بهم الدار أنزل الله أن ذكرهم بأيام الله فخطب قومه فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون وذكرهم هلاك عدوهم وما استخلفهم الله في الأرض وقال كلم الله نبيكم تكلما واصطفاني لنفسه وأنزل علي محبة منه وآتاكم الله من كل ما سألتموه فنيكم أفضل أهل الأرض وأنتم تقرءون التوراة فلم يترك نعمة أنعم الله عليهم إلا وعرفهم إياها . فقال له رجل من بني إسرائيل هم كذلك يا نبي الله قد عرفنا الذي تقول فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله ؟ قال لا . فبعث الله جبرائيل إلى موسى عليه السلام فقال إن الله يقول وما يدريك أين أضع علمي بلى إن لي على شط البحر رجلا هو أعلم منك . قال ابن عباس هو الحضر ، فسأل موسى ربه إن يريه إياه ، فأوحى إليه أن اثبت البحر فإنك تجد على شط البحر حوتا فخذنه فادفعه إلى فتاك ثم أزم شاطئ البحر فإذا نسيت الحوت وهلك منك فثم تجد العبد الصالح الذي تطلب . فلما طال سفر موسى نبي الله ونصب فيه سأل فتاه عن الحوت ، فقال له فتاه وهو غلامه (أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) لك ، قال الفتى لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله في البحر سربا فأعجب ذلك ، فرجع موسى حتى آتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى وجعل

موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا ييس عنه الماء حتى يكون صخرة فجعل نبي الله يعجب من ذلك حتى انتهى به الحوت جزيرة من جزائر البحر فلقى الخضر بها فسلم عليه فقال الخضر وعليك السلام ، وأنى يكون السلام بهذه الأرض ومن أنت ؟ قال أنا موسى . قال الخضر : صاحب بنى إسرائيل ؟ قال نعم فرحب به وقال ما جاء بك ؟ قال جئتك (على أن تعلمنى بما علمت رشدا * قال إنك لن تستطيع معى صبرا) يقول لا تطيق ذلك قال (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) قال فانطلق به وقال له : لا تسألنى عن شيء أصنعه حتى أبين لك شأنه فذلك قوله (حتى أحدث لك منه ذكرا) وقال الزهرى عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى فقال ابن عباس هو خضر فمر بهما أنهما بن كعب فدعاه ابن عباس فقال إني تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سئل السبيل إلى لقيه فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بينا موسى فى ملاء من بنى إسرائيل إذ جاءه رجل فقال تعلم مكان رجل أعلم منك ؟ قال لا ، فأوحى الله إلى موسى بلى عبدنا خضر فسأل موسى السبيل إلى لقيه فجعل الله له الحوت آية وقيل له إذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر فقال فتى موسى لموسى أرايت إذ أوتينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت قال موسى (ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) فوجدا عبدنا خضرا فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ، قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر (قال له موسى هل أتبعك) سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والاجبار وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم وقوله (أتبعك) أى أصحبك وأرافقك (على أن تعلمن مما علمت رشدا) أى مما علمك الله شيئا أسترشد به فى أمرى من علم نافع وعمل صالح فعندها (قال) الخضر لموسى (إنك لن تستطيع معى صبرا) أى إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك لأنى على علم من علم الله ما علمك الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه وأنت لا تقدر على صحبتي (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) فإنا أعرف أنك ستكر على ما أنت معذور فيه ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك (قال) أى موسى (ستجدنى إن شاء الله صابرا) أى على ما أرى من أمورك (ولا أعصى لك أمرا) أى ولا أخالفك فى شيء فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام (قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء) أى ابتداء (حتى أحدث لك منه ذكرا) أى حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى

قال ابن جرير حدثنا حميد بن جبير حدثنا يعقوب عن هارون عن عبيدة عن أبيه عن ابن عباس قال سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال أى رب أى عبادك أحب إليك قال الذى يذكرنى ولا ينسانى قال فأبى عبادك أقضى قال الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى قال أى رب أى عبادك أعلم قال الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى قال أى رب هل فى أرضك أحد أعلم منى قال نعم قال فمن هو ، قال الخضر قال وأين أطلبه ؟ قال على الساحل عند الصخرة التى ينفلت عندها الحوت قال فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة فسلم كل واحد منهما على صاحبه فقال له موسى إني أحب أصحبك قال إنك لن تطيق صحبتي قال بلى قال فان صحبتي (فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا) قال فسار به فى البحر حتى انتهى

إلى مجمع البحرين وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه قال وبعث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره فقال لموسى كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء قال ما أقل مارزاً قال يا موسى فإن علمى وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به فمن ثم أمر أن يأتي الخضر وذ كرتام الحديث في خرق السفينة وقتل الغلام وإصلاح الجدار وتفسيره له ذلك .

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر أنهما انطلقا لما توافقا واصطجبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا في السفينة وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بعير نول يعنى بغير أجرة تكرمة للخضر فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولجبت أى دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعه فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه (أخرقتها لتغرق أهلها) وهذه اللام لام العاقبة لالام التعليل كما قال الشاعر :

* لدوالموت وابنوا للخراب * (لقد جئت شيئاً إمرأ) قال مجاهد منكراً وقال قتادة عجباً فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط (ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً) يعنى وهذا الصنيع فعلته قصداً وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها لأنك لم تحط بها خبراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت (قال) أى موسى (لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمرى عسراً) أى لا تضيق على ولا تشدد على ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال « كانت الأولى من موسى نسياناً »

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾

يقول تعالى (فانطلقا) أى بعد ذلك (حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى وأنه عمد إليه من بينهم وكان أحسنهم وأجملهم وأضواءهم فقتله ، وروى أنه احتز رأسه وقيل رضخه بحجر ، وفي رواية اقتاعه بيده والله أعلم فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول وبادر فقال (أقتلت نفساً زكية) أى صغيرة لم تعمل الحنث ولا عملت إثمًا بعد فقتلته (بعير نفس) أى بغير مستند لقتله (لقد جئت شيئاً نكراً) أى ظاهر النكارة (قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً) فأكد أيضاً في التذكير بالشرط الأول فلهذا قال له موسى (إن سألتك عن شيء بعدها) أى إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة (فلا تصححني قد بلغت من لدني عذراً) أى قد أعذرت إلى مرة بعد مرة ، قال ابن جرير حدثنا عبد الله بن زياد حدثنا حجاج بن محمد عن حمزة الزيات عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى لولبت مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصحيني قد بلغت من لدني عذراً » مثقلة

﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا حِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَبْقِصَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهما (انطلقا) بعد المراتين الأولى (حتى إذا أتيا أهل قرية) روى ابن جرير عن ابن سيرين

أُنها الأبلّة ، وفي الحديث « حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً » أى بخلاء (فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل والانتقاض هو السقوط ، وقوله (فأقامه) أى فردّه إلى حالة الاستقامة ، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى ردميله وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له (لو شئت لاتخذت عليه أجراً) أى لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً (قال هذا فراق بيني وبينك) أى لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك (سأنبئك بتأويل) أى بتفسير (ما لم تستطع عليه صبرا)

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الحضر عليه السلام على حكمة باطنه فقال إن السفينة إنما خرقها لأعيابهم لأنهم كانوا يعمرون بها على ملك من الظلمة (يأخذ كل سفينة) صالحة أى جيدة (غصبا) فأردت أن أعيابها لأرده عنها لعيابها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها وقد قيل إنهم أيتام ، وروى ابن جريج عن وهب بن سلمان عن شعيب الجبائي أن اسم ذلك الملك هدد بن بدو وقد تقدم أيضاً في رواية البخاري وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق وهو من الملوك المنصوص عليهم في التوراة والله أعلم

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه حيثور . وفي هذا الحديث عن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الغلام الذي قتله الحضر طبع يوم طبع كافراً » رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق عن سعيد بن عباس به ، ولهذا قال (فكان أبواه مؤمنين فخشيناهما أن يرهقهما طغياناً وكفراً) أى يحملهما حبه على متابعتيه على الكفر ، قال قتادة قد فرح به أبواه حين ولد وحزننا عليه حين قتل ولو بقي لكان في هلاكهما فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب وصح في الحديث « لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) وقوله (فأردنا أن يبدلنا ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً) أى ولداً أزكى من هذا وهما أرحم به منه قاله ابن جريج وقال قتادة أبروا الله وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل لما قتله الحضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم قاله ابن جريج

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة لأنه قال أولاً (حتى إذا أتيا أهل قرية) وقال ههنا (فكان لعلامين يتيمين في المدينة) كما قال تعالى (فكانين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) معنى مكة والطائف ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لعلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة وقتادة وغير واحد كان تحته مال مدفون لهما وهو ظاهر السياق من الآية وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال العوفي عن ابن عباس كان تحته كنز علم وكذا قال سعيد

ابن جبير ، وقال مجاهد صحف فيها علم ، وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوى ذلك . قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الحالق البزار في مسنده المشهور حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا بشر بن المنذر حدثنا الحارث ابن عبد الله اليحصبي عن عياش بن عباس الغساني عن أبي حنيفة عن أبي ذر رفعه قال : إن الكثر الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجب لمن أيقن بالقدر لم نصب وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل لا إله إلا الله محمد رسول الله . وبشر بن المنذر هذا يقال له قاضي المصيصة قال الحافظ أبو جعفر العقيلي في حديثه وهم وقد روى في هذا آثار عن السلف فقال ابن جرير في تفسيره حدثني يعقوب حدثنا الحسن بن حبيب ابن ندبة حدثنا سلمة عن نعيم الغبري وكان من جلساء الحسن قال : سمعت الحسن يعني البصري يقول في قوله (وكان تحته كنز لهما) قال لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وحدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عبد الله بن عباس عن عمر مولى غفرة قال إن الكثر الذي قال الله في السورة التي يذكر فيها الكهف (وكان تحته كنز لهما) قال كان لوحا من ذهب مصمت مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عجب لمن عرف النار ثم ضحك عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب عجب لمن أيقن بالموت ثم أمن أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحدثني أحمد بن حازم الغفاري حدثنا هنادة بنت مالك الشيبانية قالت سمعت صاحب حماد بن الوليد الثقي يقول : سمعت جعفر بن محمد يقول في قول الله تعالى (وكان تحته كنز لهما) قال سطران ونصف لم يتم الثالث : عجب للمؤمن بالرزق كيف يتعب وعجب للمؤمن بالحساب كيف يغفل وعجب للمؤمن بالموت كيف يفرح . وقد قال الله (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) قالت وذكروا أنها حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر منهما صلاح وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء وكان نساجا وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة وورد به الحديث المتقدم وإن صح لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالا لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب وفيه مال جليل أكثر مما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم . وقوله (وكان أبوهما صالحا) فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينهم بها كما جاء في القرآن ووردت به السنة قال سعيد بن جبير عن ابن عباس حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاحا وتقدم أنه كان الأب السابع فله أعلم . وقوله (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما) ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال في الغلام (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة) وقال في السفينة (فأردت أن أعيها) فله أعلم . وقوله تعالى (رحمة من ربك وما فعلته عن أمري) أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ووالدي الغلام وولدي الرجل الصالح وما فعلته عن أمري أي لسكني أمرت به ووقفت عليه وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) وقال آخرون كان رسولاً وقيل بل كان ملكاً نقله الماوردي في تفسيره وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان ولياً فله أعلم . وذكر ابن قتبية في المعارف أن اسم الخضر بلياً بن ملسكان بن فالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشذ بن سام ابن نوح عليه السلام قالوا وكان يكنى أبا العباس ويلقب بالخضر وكان من أبناء الملوك ذكره النووي في تهذيب الأسماء وحكى هو وغيره في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه وذكروا في ذلك كتابات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث ولا يصح شيء من ذلك وأشهرها أحاديث التمزية وإسناده ضعيف ، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك واحتجوا بقوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر « اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد في الأرض » وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه ولو كان حياً لسكان من أتباع النبي صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم وأصحابه لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين الجن والإنس وقد قال « لو كان موسى وعيسى حينئذ لا وسعهما إلا اتباعي » وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف إلى غير ذلك من الدلائل . قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في الخضر قال « إنما سمى خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهرت من تحته خضراء » ورواه أيضاً عن عبد الرزاق وقد ثبت أيضاً في صحيح البخاري عن همام عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهرت من خضراء » والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس وهو المشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل المراد بذلك وجه الأرض وقوله (ذلك تأويل مالم تستطع عليه صبرا) أي هذا تفسير ماضق به ذرعا ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال (تستطع) وقبل ذلك كان الاشكال قويا ثقيلا فقال (سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف كما قال (فما استطاعوا أن يظهروه) وهو الصعود إلى أعلاه (وما استطاعوا له نقبا) وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم . فان قيل : فما بال فتي موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع ، وقد صرح في الأحاديث المقدمة في الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ؟ وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره حيث قال : حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة حدثني ابن إسحاق عن الحسن بن عمار عن أبيه عن عكرمة قال قيل لابن عباس : لم نسمع لفتى موسى يذكر في حديث وقد كان معه قال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال شرب الفتى من الماء فخلد فأخذه العالم فطابق به سفينة ثم أرسله في البحر فانها لم توج به إلى يوم القيامة وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب ، إسناده ضعيف والحسن متروك وأبوه غير معروف

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَهَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ويسألونك) يا محمد (عن ذى القرنين) أي عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يستلون منهم ما يمتحنون به النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة السجدة ، وقد أورد ابن جرير ههنا والأموى في مغازيه حديثاً أسنده وهو ضعيف عن عقبة بن عامر أن نقرأ من اليهود جاءوا يستلون النبي صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين فأخبرهم بما جاءوا له ابتداء فكان فيما أخبرهم به أنه كان شاباً من الروم وأنه بنى الاسكندرية وأنه علاه ملك إلى السماء وذهب به إلى السدور أي أقواما وجوههم مثل وجوه السكلاب وفيه طول ونكارة ورفعته لا يصح وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل ، والعجب أن أبازرعة الرازي مع جلالة قدره ساقه بتامه في كتابه دلائل النبوة وذلك غريب منه ، وفيه من النكارة أنه من الروم وإنما الذي كان من الروم الاسكندر الثاني وهو ابن فيليس المقدوني الذي تأسس به الروم ، فأما الأول (١) فقد ذكر الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام ، وأما الثاني فهو اسكندر بن فيليس المقدوني اليوناني وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم . وهو الذي تأسس به الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل كما ذكره الأزرق وغيره وأنه طاف مع الخليل عليه السلام بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم عليه السلام وقرب إلى الله قربانا ، وقد ذكرنا طرفا صالحا من أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية والله الحمد . وقال وهب بن منبه : كان ملكا وإنما سمي ذا القرنين (١) قوله فأما الأول الخ كذا بالنسخ وفي العبارة شبه تكرار فحذفناه .

لأن صفحتي رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك الروم وفارس ، وقال بعضهم كان في رأسه شبه القرنين ، وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي الطفيل قال سئل على رضى الله عنه عن ذى القرنين فقال كان عبداً ناصحاً لله فناصره دعا قومه إلى الله فضر به على قرنه فمات فأحياه الله فدعا قومه إلى الله فضر به على قرنه فمات فسمى ذا القرنين ، وكذا رواه شعبة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل سمع علياً يقول ذلك ، ويقال إنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشرق والمغرب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب ، وقوله (إنا مكننا له فى الأرض) أى أعطيناه ملكاً عظيماً مكننا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشرق والمغرب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك البلاد وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها ، وقوله (وآتيناه من كل شئ سبياً) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقتادة والضحاك وغيرهم : يعنى علماً ، وقال قتادة أيضاً فى قوله (وآتيناه من كل شئ سبياً) قال منازل الأرض وأعلامها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وآتيناه من كل شئ سبياً) قال تعليم الألسنة قال كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم ، وقال ابن لهيعة حدثنى سالم ابن غيلان عن سعيد بن أبى هلال أن معاوية بن أبى سفيان قال لكعب الأحبار أنت تقول إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى ؟ فقال له كعب إن كنت قلت ذلك فإن الله قال (وآتيناه من كل شئ سبياً) وهذا الذى أنكره معاوية رضى الله عنه على كعب الأحبار هو الصواب والحق مع معاوية فى ذلك الانكار فإن معاوية كان يقول عن كعب إن كنا لنبلو عليه الكذب يعنى فيما ينقله لأنه كان يعتمد نقل ما ليس فى صحفه ولكن الشأن فى صحفه أنها من الاسرائيليات التى غالبا مبدل متصحف محرف مخلق ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى شئ منها بالسكينة فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض . وتأويل كعب قول الله (وآتيناه من كل شئ سبياً) واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحفه من أنه كان يربط خيله بالثرى غير صحيح ولا مطابق فإنه لا سبيل للبشر إلى شئ من ذلك ولا إلى الترقى فى أسباب السموات وقد قال الله فى حق بلقيس (وأوتيت من كل شئ) أى مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب أى الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء وكتب ملوك الأرض واذلال أهل الشرك قد أوتى من كل شئ مما يحتاج إليه مثله سبياً والله أعلم . وفى المختارة للحافظ الضياء المقدسى من طريق قتيبة عن أبى عوانه عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد قال : كنت عند على رضى الله عنه وسأله رجل عن ذى القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب ؟ فقال سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد .

﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَرْغُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْيَتَيْنِ بِمَا آتَى تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

قال ابن عباس (فأتبع سبباً) يعنى بالسبب المنزل ، وقال مجاهد (فأتبع سبباً) منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب ، وفى رواية عن مجاهد (سبباً) قال طرفى الأرض ، وقال قتادة أى اتبع منازل الأرض ومعالمها ، وقال الضحاك (فأتبع سبباً) أى المنازل ، وقال سعيد بن جبير فى قوله (فأتبع سبباً) قال : علماً وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى والسدى ، وقال مطر : معالم وآثار كانت قبل ذلك

وقوله (حتى إذا بلغ مغرب الشمس) أى فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فتعذر وما يذكره أصحاب القصص والأخبار

من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشيء للاحقية له وأكث ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاف زنادقتهم وكذبهم وقوله (وجدها تغرب في عين حمئة) أى رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهى لاتفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لاتفارقة والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين كما قال تعالى (إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون) أى طين أملتس وقد تقدم بيانه ، وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أنبأنا نافع بن أبي نعيم سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول كان ابن عباس يقول في عين حمأة ثم فسرهما ذات حمأة قال نافع وسئل عنها كعب الأحبار فقال أتم أعلم بالقرآن منى ولكنى أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء ، وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد وقال أبو داود الطيالسي حدثنا محمد بن دينار عن سعد بن أوس عن مصدع عن ابن عباس عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة ، وقال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعنى حارة وكذا قال الحسن البصري ، وقال ابن جرير والصواب أنهما قراءتان مشهورتان وأنها قرأ القارىء فهو مصيب قلت ولانفاة بين معنيهما إذ قد تكون حارة لجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاها الشعاع بلا حائل وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأحبار وغيره . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوام حدثني مولى لعبد الله ابن عمرو عن عبد الله قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غابت فقال « في نار الله الحامية لولا ما يزعها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض » قلت ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وفي صحة رفع هذا الحديث نظر ولعله من كلام عبد الله بن عمرو من زاملتيه اللتين وجدها يوم اليرموك والله أعلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا محمد يعنى ابن بشر حدثنا عمرو بن ميمون أنبأنا ابن حاضراً أن ابن عباس ذكر له أن معاوية ابن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف (تغرب في عين حامية) قال ابن عباس لمعاوية ما قرؤها إلا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمرو كيف تقرأها فقال عبد الله كما قرأتها قال ابن عباس فقلت لمعاوية في بيتي نزل القرآن فأرسل إلى كعب فقال له أين تجد الشمس تغرب في التوراة ؟ فقال له كعب سل أهل العربية فانهم أعلم بها . وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين وأشار بيده إلى المغرب قال ابن حاضراً لو أنى عندك أدبتك بكلام تزداد فيه بصيرة في حمئة قال ابن عباس وإذا ما هو قلت فيما يؤثر من قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في تخلقه بالعلم واتباعه إياه

بلغ المشارق والمغرب يبتغى * أسباب أمر من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها * في عين ذى خلب وثا ط حرم

فقال ابن عباس ما الحلب قلت الطين بكلامهم قال فما اللطاف قلت الحمأة قال فما الحرمد قلت الأسود قال فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال اكتب ما يقول هذا الرجل وقال سعيد بن جبيرة بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ (وجدها تغرب في عين حمئة) فقال كعب والذي نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرأها كما أنزلت في التوراة غير ابن عباس فانا نجدتها في التوراة تغرب في مدرة سوداء ، وقال أبو يعلى الموصلي حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف قال في تفسير ابن جريج (ووجد عندها قوما) قال مدينة لها اثنا عشر ألف باب لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجب ، وقوله (ووجد عندها قوما) أى أمة من الأمم ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم وقوله (قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً) معنى هذا أن الله تعالى مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفروهم وخيره إن شاء قتل وسبي وإن شاء من أو فدى يعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه في قوله (أما من ظلم) أى استمر على كفره وشركه بربه (فسوف نعذبه) قال قتادة بالقتل وقال السدي كان يعصى لهم بقر النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا وقال وهب بن منبه كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم ويوتنهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم ، وقوله (ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً) أى شديداً بليغاً وجيعاً ألماً وفي هذا إثبات المعاد والجزاء . وقوله وأما من آمن أى تابعتنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له (فله جزاء الحسنى أى في الدار الآخرة عند الله

عز وجل (وسنقول له من أمرنا يسرا) قال مجاهد: معروفا .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

يقول تعالى ثم سلك طريقا فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آتاهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الأقليم المتأخم لهم ، وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى (وجدها تطلع على قوم) لم نجعل لهم من دونها سترا (أى ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلمهم وتستترهم من حر الشمس . قال سعيد بن جبير كانوا حمرا قصارا مساكنهم الغيران أكثر معيشتهم من السمك .

وقال أبو داود الطيالسي حدثنا سهل بن أبي الصلت سمعت الحسن وسئل عن قول الله تعالى (لم نجعل لهم من دونها سترا) قال إن أرضهم لا تحمل البناء فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم قال الحسن هذا حديث سمرة ، وقال قتادة ذكر لنا أنهم بأرض لا تنبت لهم شيئا فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم وعن سلمة بن كهيل أنه قال : ليست لهم أكنان إذا طلعت الشمس طلعت عليهم فلا أحدهم أذن أن يفرش إحداها ويلبس الأخرى ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قال هم الزنج . وقال ابن جرير في قوله (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) قال لم يبنوا فيها بناء قط ولم يبن عليهم فيها بناء قط كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس أو دخلوا البحر وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها ، قالوا لا نبرح حتى تطلع الشمس ما هذه العظام ؟ قالوا هذه جيف جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا ، قال فذهبوا ههنا رين في الأرض وقوله (كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا) قال مجاهد والسدى : علما أى نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض فانه تعالى (لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) .

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَسْكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن ذى القرنين ثم أتبع سببا أى ثم سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبالان متناوحتان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيشون فيها فسادا ويهلكون الحرث والنسل ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين « ان الله تعالى يقول : يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث النار فيقول وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها فقال ان فيكم أمتين ما كاتتا في شيء إلا . كثرته يأجوج ومأجوج » وقد حكى النووى رحمه الله في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى

خرج من آدم فاختلط بالتراب فخلقوا من ذلك ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليسوا من حواء وهذا قول غريب جداً ثم لا دليل عليه لا من عقل ولا من نقل ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب لما عندهم من الأحاديث المقتعلة والله أعلم

وفي مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك » قال بعض العلماء هؤلاء من نسل يافث أبي الترك ، وقال إنما سمى هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة وإلا فهم أقرباء أولئك ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكلهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدھا والله أعلم . وقوله (وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولاً) أى لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس (قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً) قال ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس أجراً عظيماً يعنى أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً فقال ذو القرنين بعة وديانة وصلاح وقصد للخير (ما مكنتي فيه ربي خيراً) أى إن الذى أعطانى الله من الملك والممكنين خيراً لى من الذى يجمعونه كما قال سليمان عليه السلام (أئذ يأتى الله من الخير مما أتاكم) الآية وهكذا قال ذو القرنين الذى أنا فيه خير من الذى تبدلونه ولكن ساعدونى بقوة أى بعملكم وآلات البناء (أجعل بينكم وبينهم ردماً) أتونى زبر الحديد (والزبر جمع زبرة وهى القطعة منه قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وهى كاللينة يقال كل لينة زنة قطار بالدمشق أو تزيد عليه (حتى إذا ساوى بين الصدفين) أى وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رموس الجبلين طولاً وعرضاً واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال (قال انفخوا) أى أوجع عليه النار حتى صار كله ناراً (قال أتونى أفرغ عليه قطراً) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى هو النحاس زاد بعضهم اللذاب ويستشهد بقوله تعالى (وأسلنا له عين القطر) ولهذا يشبه بالبرد المحر . قال ابن جرير حدثنا بشر بن يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً قال يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج قال « انعه لى » قال كالبرد المحر طريقة سوداء وطريقة حمراء قال « قد رأيته » هذا حديث مرسل ، وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه وجهز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ومن ملك إلى ملك حتى وصلوا إليه ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً وعليه أقفال عظيمة ورأوا بقية اللبى والعمل فى برج هناك وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له وأنه عال منيف شاهر لا يستطيع ولا ماحوله من الجبال ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من سنتين وشاهدوا أهوالاً وعجائب ، ثم قال الله تعالى ،

﴿ فَمَا أَسْطَمُوا أَنْ يُظْهِرُوهُ وَمَا أَسْطَمُوا لَهُ نَقَبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال (فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً) وهذا دليل على أنهم لم يقدرُوا على نقبه ولا على شئ منه فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبى عروة عن قتادة حدثنا أبو رافع عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً

فيعودون اليه كأشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شمس الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله فيستثنى فيعودون اليه وهو كهينته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع وعليها كهينة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفا في رقابهم فيقتلهم بها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكرا من لحومهم ودمائهم » ورواه أحمد أيضا عن حسن هو ابن موسى الأشهب عن سفيان عن قتادة به وكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث أبو رافع وأخرجه الترمذي من حديث أبي عوانة عن قتادة ثم قال غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه وإسناده جيد قوى ولكن منته في رفعه نكارة لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتفاعه ولا من تقبه لاحكام بنائه وصلابته وشده ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلجسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقولون غدا نفتحه فيأتون من الغد وقد عاد كما كان فيلجسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل فيقواون كذلك فيصبحون وهو كما كان فيلجسونه ويقولون غدا نفتحه ويلهمون أن يقولوا إن شاء الله فيصبحون وهو كما فارقه فيفتحونه وهذا متجه ولعل أباهريرة تلقاه من كعب فانه كان كثيرا ما كان يجالسه ويحدثه فحدث به أبوهريرة فتوهم بعض الرواة عنه أنه رفوع فرفعه والله أعلم

ويؤيد ما قلناه من أنهم لم يتمكنوا من تقبه ولا تقب شيء منه ومن نكارة هذا المرفوع قول الإمام أحمد حدثنا سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أبي سفيان عن أمها أم حبيبة عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ - قال سفيان أربع نسوة - قالت استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وحاقي قالت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال « نعم إذا كثرت الحيث » هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث الزهري ولكن سقط في رواية البخاري ذكر حبيبة وأثبتها مسلم وفيه أشياء عزيزة نادرة قليلة الوقوع في صناعة الإسناد منها رواية الزهري عن عروة وهما تابعيان ومنها اجتماع أربع نسوة في سنده كلهن يروى بعضهن عن بعض ثم كل منهن صحابية ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان رضى الله عنهن ، وقدرى نحو هذا عن أبي هريرة أيضا فقال البزار حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا مؤمل بن إسماعيل حدثنا وهب عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد التسعين ، وأخرجه البخاري ومسلم من حديث وهب به . وقوله (قال هذا رحمة من ربى) أى لما بناه ذوالقرنين (قال هذا رحمة من ربى) أى بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلا يمنعهم من العيث في الأرض والفساد (فإذا جاء وعد ربى) أى إذا اقترب الوعد الحق (جعله دكاء) أى ساواه بالأرض تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويا لاسنام لها وقال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) أى مساويا للأرض . وقال عكرمة في قوله (فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) قال طريقا كما كان (وكان وعد ربى حقا) أى كائنا لا محالة . وقوله (وتركنا بعضهم) أى الناس يومئذ أى يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم وهكذا قال السدى في قوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قال ذاك حين يخرجون على الناس وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال كما سيأتى بيانه عند قوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق) الآية وهكذا قال ههنا (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قال هذا أول يوم القيامة (ثم نفخ في الصور) على أثر ذلك (فجمعناهم جمعا) وقال آخرون بل المراد بقوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قال إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن ، وروى ابن جرير عن محمد ابن حميد عن يعقوب القمى عن هرون بن عنترة عن شيخ من بني فزارة في قوله (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في

يعض) قال إذا ماج الإنس والجن قال إبليس أنا أعلم لكم علم هذا الأمر فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول مامن مامن محيص ثم يظعن يمينا وشمالا إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض فيقول مامن محيص فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كاشراك فأخذ عليه هو وذريته فبينما هم عليه إذ هجموا على النار فأخرج الله خازنًا من خزان النار فقال يا إبليس ألم تكن لك منزلة عند ربك ألم تكن في الجنان؟ فيقول ليس هذا يوم عتاب لو أن الله فرض على فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبد مثلها أحد من خلقه فيقول فإن الله قد فرض عليك فريضة فيقول ما هي فيقول يأمرك أن تدخل النار فيتلكأ عليه فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم في النار فتزفر النار زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى لركبتيه ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يعقوب القمي به ثم رواه من وجه آخر عن يعقوب عن هارون عن عنترة عن أبيه عن ابن عباس (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) قال الإنس والجن يموج بعضهم في بعض

وقال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس الاصهاني حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات حدثنا أبو داود الطيالسي حدثنا المغيرة بن مسلم عن أبي إسحق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معاشهم ولن يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً وإن من ورائهم ثلاث أمم تاويل وتاييس ومنسك » هذا حديث غريب بل منكر ضعيف . وروى النسائي من حديث شعبة عن النعمان بن سالم عن عمرو بن أوس عن أبيه عن جده أوس بن أبي أوس مرفوعاً « إن يأجوج ومأجوج لهم نساء يحامعون ماشاءوا وشجر يلقحون ماشاءوا ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً » وقوله (ونفخ في الصور) والصور كجاء في الحديث قرن ينفخ فيه والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام كما قد تقدم في الحديث بطوله والأحاديث فيه كثيرة . وفي الحديث عن عطية عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جهته واستمع متى يؤمر » قالوا كيف تقول قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقوله (فجمعناهم جمعاً) أي أحضرنا الجميع للحساب (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة أنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل المم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك » ثم قال مخبراً عنهم (الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) أي تعافلوا وتعاموا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وقال ههنا (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ثم قال (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دُونِي أَوْلِيَاءَ) أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ويتفعلون به (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا نَزَّلَتْ رَبُّهُمْ وَلِقَاءَهُ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا * ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو عن مصعب قال : سألت أنى يعنى سعد بن أبى وقاص عن قول الله (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) أمم الحرورية قال لا هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه فكان سعد رضى الله عنه يسميهم الفاسقين ، وقال على بن أبى طالب والضحاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن على رضى الله عنه أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء بل هى أعم من هذا فان هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلىة وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها وأن عمله مقبول وهو مخطئ ، وعمله مردود كما قال تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية) وقال تعالى (وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقال تعالى (والذين كفروا ببرهم أعمالهم كسراب بقيعة يمسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وقال فى هذه الآية الكريمة (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) ثم فسرهم فقال (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا) أى عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) أى يعتقدون أنهم على شىء وأنهم مقبولون محبوبون ، وقوله (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه) أى جحدوا آيات الله فى الدنيا وبراهينه التى أقام على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً) أى لا تثقل موازينهم لأنها خالية عن الخير . قال البخارى حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا سعيد بن أبى مريم أخبرنا المغيرة حدثنى أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لىأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرءوا إن شئتم (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً) » وعن يحيى بن بكير عن مغيرة بن عبد الرحمن عن أبى الزناد مثله هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً ، وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحق عن يحيى بن بكير به ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالرجل الأكول الشراب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها » قال وقرأ (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً) وكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن أبى الصلت عن أبى الزناد عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة مرفوعاً فذكره بلفظ البخارى سواء وقال أحمد بن عمرو بن عبد الحالى البرار حدثنا العباس بن محمد حدثنا عون بن عمارة حدثنا هاشم بن حسان عن واصل عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له فلما قام على النبي ﷺ قال « يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله له يوم القيامة وزناً » ثم قال تفرد به واصل مولى أبى عنبسة وعون بن عمارة وليس بالحافظ ولم يتابع عليه وقد قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن سمرة عن أبى يحيى عن كعب قال يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة ، اقرءوا (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً) وقوله (ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا) أى إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورساله هزوا استهزوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به أن لهم جنات الفردوس قال مجاهد : الفردوس هو البستان الرومية ، وقال كعب والسدى والضحاك : هو البستان الذى فيه شجر الأعناب وقال أبو أمامة : الفردوس سرّة الجنة وقال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها وقد روى هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن جبیر عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها »

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن سمرة مرفوعاً وروى عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعاً بنحوه وروى ذلك كله ابن جرير رحمه الله ، وفي الصحيحين « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة » وقوله تعالى (نزلاً) أى ضيافة فإن النزول الضيافة وقوله (خالدين فيها) أى مقيمين ساكنين فيها لا يظفون عنها أبداً (لا ينفون عنها حولا) أى لا يختارون عنها غيرها ولا يحبون سواها كما قال الشاعر

فجئت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن حبها انحول

وفي قوله (لا ينفون عنها حولا) تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمله فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا انتقالا ولا ظمنا ولا رحلة ولا بدلا

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفذ البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك (ولو جئنا بمثله) أى بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جرا بحور تعدد ويكتب بها ما نفدت كلمات الله كما قال تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر عده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) وقال الربيع بن أنس إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها وقد أنزل الله ذلك (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي) يقول لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله والشجر كله أقلام لانتكسرت الأقلام وفي ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا ينشئ عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي ينشئ على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول ، إن مثل نعم الدنيا أولها وآخرها في نعم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْمِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

روى الطبراني من طريق هشام بن عمار عن إسماعيل بن عياش عن عمرو بن قيس الكوفي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان أنه قال هذه آخر آية أنزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه (قل) لمؤلا المشركين المكذبين برسالاتهم إليهم (إنما أنا بشر مثلكم) فمن زعم أى كاذب فليأت بليأت بمثل ما جئت به فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي عما سألتهم من قصه أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر لولا ما أطلعني الله عليه وإنما أخبركم (إنما إليكم) الذى أدعوكم إلى عبادة (إله واحد) لا شريك له (فمن كان يرجو لقاء ربه) أى ثوابه وجزاءه الصالح (فليعمل عملاً صالحاً) ما كان موافقاً لشرع الله (ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وهو الذى يرد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل . لا بد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر بن عبد الكريم الجزري عن طاوس قال : قال رجل يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد ، وقال الأعمش حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بني هاشم عن شهر بن حوشب قال جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال أنبئني عما أسألك عنه . أ رأيت رجلاً يصلى يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويصوم يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، ويحج يبتغى وجه الله ويحب أن يحمد ، فقال عبادة ليس له شيء إن الله تعالى يقول : أنا خير شريك فمن كان له معنى شريك فهو له كله لا حاجة لى فيه . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا كثير بن زيد عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه عن جده قال كنا نتناوب رسول الله ﷺ

فنبئت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا فكثر المحبوسون وأهل النوب فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هذه النجوى ؟ » قال قلنا تبنا إلى الله أي نبي الله إنما كنا في ذكر المسيح وفرقنا منه فقال « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي ؟ » قال : قلنا بلى قال « الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي لمكان الرجل » . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد يعني ابن بهرام قال : قال شهر بن حوشب قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة بن الصامت فأخذ يميني بشماله وشمال أبي الدرداء يمينه فخرج يمشي بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به فقال عبادة بن الصامت إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن ترياً الرجل من شبع المسلمين يعني من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه وأحل حلاله وحرم حرامه ونزله عند منزله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت . قال فيينا نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه وعوف بن مالك فجلسا إلينا فقال شداد إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من الشهوة الخفية والشرك » فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ألم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية ففسد عرفناها هي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد رأيتم لورأيتم رجلا يصلي أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا نعم والله إن من صلى أو صام أو تصدق له لقد أشرك فقال شداد فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من صلى يرأى فقد أشرك ، ومن صام يرأى فقد أشرك ، ومن تصدق يرأى فقد أشرك » قال عوف بن مالك عند ذلك أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به فقال شداد عند ذلك فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يقول أنا خير تسمي من أشرك بي من أشرك بي شيئا فان عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به ، أنا عنه غني »

طريق أخرى لبعضه قال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني عبد الواحد بن زياد أخبرنا عبادة بن نسي عن شداد ابن أوس رضى الله عنه أنه بكى فقبل له ما يبكيك قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني ، سمعت رسول الله يقول « أخوف على أمتي الشرك والشهوة الخفية » قلت يا رسول الله أشرك أمتك من بعدك قال « نعم أما إنهم لا يعبدون سميا ولا قمرا ولا حجرا ولا ولنا ولكن يرادون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه » ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذكوان عن عبادة بن نسي به وعبادة فيه ضعف وفي سماعه من شداد نظر في حديث آخر قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن علي بن جعفر الأحمر حدثنا علي بن ثابت حدثنا قيس بن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك من أشرك بي أحدا فهو له كليله » ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبه سمعت العلاء يحدث عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال « أنا خير الشركاء فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » تفرد به من هذا الوجه في حديث آخر قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا الليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ، قال « الرياء » يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » في حديث آخر قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر أخبرنا عبد الحميد يعني ابن جعفر أخبرني أبي عن زياد بن ميناء عن أبي سعيد بن أبي فزالة الأنصاري وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب نوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث محمد وهو البرساني به في حديث آخر قال الإمام أحمد حدثنا

أحمد بن عبد الملك حدثنا بكار حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به » وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال « من يرأى يرأى الله به ومن يسمع يسمع الله به » حديث آخر قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثني عمرو بن مرة قال سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « من سمع الناس بعمله سمع الله به ، مسامح خلقه وصغره وحقره » فذكرت عينا عبد الله ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن يحيى ، الإيلي حدثنا الحارث بن غسان حدثنا أبو عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف مجتمعة فيقول الله ألقوا هذا واقلبوا هذا فتقول الملائكة يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً فيقول إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي » ثم قال الحارث بن غسان روى عنه جماعة وهو ثقة بصرى ليس به بأس ، وقال وهب حدثني يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الأعرج عن عبيد الله بن قيس الحزاعي أن رسول الله ﷺ قال « من قام رياء وسمعة لم يزل في مقت الله حتى يجلس » وقال أبو يعلى حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عوف ابن مالك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فذلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » وقال ابن جرير حدثنا أبو عامر إسحاق بن عمرو السكوني حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس السكندى أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الآية ، وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية آخر سورة الكهف والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هي مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق حدثنا النضر بن شميل حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ في ليلة: (فمن كان يرجوا لقاء ربه) الآية كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة » غريب جداً .

آخر تفسير سورة الكهف

﴿ تفسير سورة مريم وهي مكية ﴾

وقد روى محمد بن إسحق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ كَهَيْعَتِ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبَّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْئِي وَيَرِثُ مِنْهُ ۚ إِنِّي اتَّخَذْتُ الرَّحْمَنَ وَلِيًّا * وَلَئِنْ رَأَيْتُ بِكَ آيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ لَأَكْفُرَنَّ * وَلَئِنْ أَتَاكَ نَفْعٌ مِنْهُ لَأَكْفُرَنَّ * وَلَئِنْ أَتَاكَ نَفْعٌ مِنْهُ لَأَكْفُرَنَّ * وَلَئِنْ أَتَاكَ نَفْعٌ مِنْهُ لَأَكْفُرَنَّ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله (ذكر رحمت ربك) أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وقرأ يحيى بن يعمر (ذكر رحمت ربك عبده زكريا) وزكريا يمد ويقصر قراءتان مشهورتان . وكان نبيا عظيما من أنبياء بني إسرائيل ، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاريا كل من عمل يده في التجارة . وقوله (إذ نادى ربه نداء خفياً) قال بعض المفسرين إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، حكاه الماوردي وقال الآخرون إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله كما قال قتادة في هذه الآية (إذ نادى ربه نداء خفياً) إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي ، وقال بعض السلف قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول:

خفية يارب يارب يارب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك (قال رب إني وهن العظم مني) أي ضعفت وخارت القوى واشتعل الرأس شيئا) أي اضطرم المشيب في السواد كما قال ابن دريد في مقصورته

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجا
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا

والمراد من هذا الاخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة ، وقوله (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أي ولم أعهد منك إلا الاجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك ، وقوله (وإني خفت الموالى من ورأى) قرأ الأ كثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول : وعن الكسائي أنه سكن الياء كما قال الشاعر

وكان أيديهم في القاع القرق أيدي جوار يتعاطين الورق
وقال الآخر فتى لويبارى الشمس ألفت قناعها أو القمر السارى لألنى المقالدا
ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي

تغاير الشعر منه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقال مجاهد وقتادة والسدى : أراد بالموالى العصبية ، وقال أبو صالح السكالة ، وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كان يقرؤها (وإني خفت الموالى من ورأى) بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباني من بعدى وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا فسأل الله ولدا يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه فأجيب في ذلك لا أنه خشى من وراثتهم له ماله فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده وأن يأنف من وراثته عصباته له ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم هذا وجه (الثانى) أنه لم يذكر أنه كان ذامال بل كان نجارا يأكل من كسب يديه ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيما الأنبياء فإنهم كانوا أزهد شئ في الدنيا (الثالث) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « لا نورث ، ما تركنا صدقة » وفي رواية عند الترمذى بإسناد صحيح « نحن معشر الأنبياء لا نورث » وعلى هذا فتعين حمل قوله (فهب لى من لدنك وليا يرثنى) على ميراث النبوة ولهذا قال (ويرث من آل يعقوب) كقوله (وورث سليمان داود) أى فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه فلو لا أنها وراثته خاصة لما أخبر بها وكل هذا يقرره ويثبت ما صح فى الحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » قال مجاهد فى قوله (يرثنى ويرث من آل يعقوب) كان وراثته علما وكان زكريا من ذرية يعقوب . وقال هشيم أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قال يكون نبيا كما كانت آبائهم أنبياء ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن يرث نبوته وعلمه ، وقال السدى يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب وعن مالك عن زيد بن أسلم (ويرث من آل يعقوب) قال نبوتهم وقال جابر بن نوح وزيد بن هارون كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح فى قوله (يرثنى ويرث من آل يعقوب) قال يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن النبي ﷺ قال « یرحم الله زكريا وما كان عليه من وراثته ماله ويرحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد » وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « یرحم الله أخى زكريا ما كان عليه من وراثته ماله حين قال : هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب » وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح والله أعلم ، وقوله (واجعله رب رضيا) أى مرضيا عندك وعند خلقك تجبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه

﴿ يَزَكِّرْ يَا إِبْرَاهِيمَ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفا وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له (يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى) كما قال تعالى (هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحسورا ونبيا من الصالحين) وقوله (لم نجعل له من قبل سميا) قال قتادة وابن جرير (أي شبيها أخذته من معنى قوله (فاعبدوه واصطبروا لعبادته هل تعلم له سميا) أي شبيها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي لم تلد العواقر قبله مثله وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له وكذلك امرأته كانت عاقرا من أول عمرها بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام فانهما إنما تعجبا من البشارة بأسحق لكبرهما لا لعقرهما ولهذا قال (أبشروني على أن مسنى الكبر فم تبشرون) مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل ثلاث عشرة سنة وقالت امرأته (يا ويلتى ألدو أنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)

﴿ قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غَلَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ففرح فرحا شديدا وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد مع أن امرأته كانت عاقرا لم تلد من أول عمرها مع كبرها ومع أنه قد كبر وعتا أي عسا سظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع والعرب تقول للعود إذا يبس عتا يعتو عتيا وعتوا وعسا يعسو عسوا وعسيا ، وقال مجاهد: عتيا يعني قبحول العظم ، وقال ابن عباس وغيره عتيا يعني الكبر والظاهر أنه أخص من الكبر وقال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن ابن عباس قال لقد علمت السنة كلها غير أني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا ولا أدري كيف كان يقرأ هذا الحرف (وقد بلغت من الكبر عتيا) أو عسيا ، ورواه الإمام أحمد عن شرح بن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به (قال أي الملك عجيبا لزكريا عما استعجب منه) كذلك قال ربك هو على هين (أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لأم من غيرها) (هين) أي يسير سهل على الله ، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا) كما قال تعالى (هل أنى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا)

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن زكريا عليه السلام أنه (قال رب اجعل لي آية) أي علامة ودليلا على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم عليه السلام (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (قال آيتك) أي علامتك (أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا) أي أن تجلس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة وغير واحد اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال ابن زيد بن أسلم كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة . وقال العوفي عن ابن عباس (ثلاث ليال سويا أي متتابعات والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح كما قال تعالى في آل عمران (قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعنبي والإسكار) وقال مالك عن زيد بن أسلم (ثلاث ليال سويا) من غير خرس وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم

الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها (إلا رمزاً) أى إشارة ولهذا قال في هذه الآية الكريمة (فخرج على قومه من المحراب) أى الذى بشر فيه بالولد (فأوحى إليهم) أى أشار إشارة خفية سريعة (أن سبحوا بكرة وعشيا) أى موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه . قال مجاهد (فأوحى إليهم) أى أشار وبه قال وهب وقتادة ، وقال مجاهد في رواية عنه (فأوحى إليهم) أى كتب لهم في الأرض وكذا قال السدى :

﴿ يَبْحِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بَوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ولهذا نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أى تعلم الكتاب بقوة أى بجد وحرص واجتهاد (وآتيناك الحكم صبياً) أى الفهم والعلم والجد والعزم والاقبال على الخير والاكتساب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال مالم لعب خلقنا قال فلهذا أنزل الله (وآتيناك الحكم صبياً) وقوله (وحناناً من لدنا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وحناناً من لدنا) يقول ورحمة من عندنا وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد لا يقدر عليها غيرنا وزاد قتادة رحم الله بها زكريا وقال مجاهد (وحناناً من لدنا) وتعطفنا من ربه عليه وقال عكرمة (وحناناً من لدنا) قال محبة عليه وقال ابن زيد أما الحنان فالمحبة ، وقال عطاء بن أبى رباح (وحناناً من لدنا) قال تعظيماً من لدنا وقال ابن جريج أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا والله ما أدرى ما حنانا وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور سألت سعيد بن جبيرة عن قوله (وحناناً من لدنا) فقال سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيئاً والظاهر من السياق أن قوله وحناناً معطوف على قوله (وآتيناك الحكم صبياً) أى وآتيناك الحكم وحناناً وزكاة أى وجعلناه ذا حنان وزكاة فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب حنت الناقة على ولدها وحنت المرأة على زوجها ومنه سميت المرأة حنة من الحنية وحن الرجل إلى وطنه ومنه التعطف والرحمة كما قال الشاعر :

تعطف على هداك المليك * فان لكل مقام مقالا

وفي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يبق رجل في النار ينادى ألف سنة يا حنان يا منان » وقد يثنى ومنهم من يجعل ما ورد من ذلك لغة بذاتها كما قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا * حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله وزكاة معطوف على وحناناً فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ، وقال قتادة الزكاة العمل الصالح ، وقال الضحاك وابن جريج العمل الصالح الزكى ، وقال العوفي عن ابن عباس (وزكاة) قال بركة (وكان تقياً) طهر فلم يعمل بذنوب ، وقوله (وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً) لما ذكر تعالى طاعة لربه وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ومجانبة عقوقهما قولاً وفعلاً أمراً ونهياً ولهذا قال (ولم يكن جباراً عصياً) ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) أى له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال ، وقال سفيان بن عيينة أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم قال فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلم عليه فقال (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً) رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (جباراً عصياً) قال كان

ابن المسيب يذكر قال : قال رسول الله ﷺ « ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا » قال قتادة ما أذن ذنب ولا هم بامرأة ، مرسل وقال محمد بن إسحق عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا » ابن إسحق مدلس وقد عنعن هذا الحديث فأنه أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أوهم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وهذا أيضاً ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة والله أعلم ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني . فقال له الآخر أنت خير مني فقال له عيسى أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك فعرف والله فضلها .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعله آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ولهذا ذكرهما في آل عمران وهما وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه وأنه على ما يشاء قادر فقال (واذكر في الكتاب مريم) وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران وأنها نذرتها محررة أي تخدم مسجد بيت المقدس وكانوا يتقربون بذلك (فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبأها نبأًا حسنًا) ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة فكانت إحدى العابדות الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدعوى وكانت في كفالة زوج أختها زكريا بن بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فذكر أنه كان يجد عندها نمر الشتاء في الصيف ونمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام (انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا) أي اعتزلتهم وتنحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس . قال السدي لحيض أصابها ، وقيل لغير ذلك قال أبو كدينة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قيل ربك (فانتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا) قال خرجت مريم مكانًا شرقيًا فصلوا قبل مطامع الشمس رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال ابن جرير أيضاً حدثنا إسحاق بن شاهين حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر عن ابن عباس قال : إني لأعلم خلق الله لأى شيء اتخذت النصرى المشرق قبله لقول الله تعالى (فانتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا) واتخذوا ميلاد عيسى قبله ، وقال قتادة (مكانًا شرقيًا) شامعًا متنجسًا ، وقال محمد بن إسحق ذهبت بقلتها لتستقي الماء ، وقال نوف البكالي اتخذت لها منزلًا تتعبد فيه فأنه أعلم وقوله (فانتبذت من دونهم حجابًا) أي استترت منهم وتوارت فأرسل

الله تعالى إليها جبريل عليه السلام (فتمثل لها بشراً سوياً) أى على صورة إنسان تام كامل ، قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدى في قوله (فأرسلنا إليها روحنا) يعنى جبرائيل عليه السلام وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن فانه تعالى قد قال فى الآية الأخرى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالىة عن أبي بن كعب قال إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم عليه السلام وهو الذى تمثل لها بشراً سوياً أى روح عيسى فحملت الذى خاطبها وحل فيها وهذا فى غاية الغرابة والنسكارة وكأنه إسرائيلى (قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) أى لما تبدى لها الملك فى صورة بشر وهى فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد بها على نفسها فقالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً) أى إن كنت تخاف الله تذكر له بالله وهذا هو الم شروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل فخوفته أولاً بالله عز وجل . قال ابن جرير حدثني أبو كريب حدثنا أبو بكر عن عاصم قال : قال أبو وائل وذكر قصة مريم فقال قد علمت أن التقى ذونية حين قالت (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك) أى فقال لها الملك محبياً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها لست بما تظنين ولستى رسول ربك أى بعثنى الله إليك ، ويقال إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا وعاد إلى هيئته وقال (إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً) هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهورى القراء ، وقرأ الآخرون (لأهب لك غلاماً زكياً) وكلا القراءتين له وجه حسن ومعنى صحيح وكل تستلزم الأخرى (قالت أى يكون لى غلام) أى فتعجبت مريم من هذا وقالت كيف يكون لى غلام أى على أى صفة يوجد هذا الغلام منى ولست بذات زوج ولا يتصور منى الفجور ولهذا قالت (ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً) والبغى هى الزانية ولهذا جاء فى الحديث النهى عن مهر البغى (قال كذلك قال ربك هو على هين) أى فقال لها الملك محبياً لها عما سألت إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة فانه على ما يشاء قادر ولهذا قال (ولنجعل له آية للناس) أى دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخلقتهم الذى نوع فى خلقهم فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه وقوله (ورحمة منا) أى ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده كما قال تعالى فى الآية الأخرى (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين) أى يدعو إلى عبادة ربه فى مهده وكهولته قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم حدثنا مروان حدثنا العلاء بن الحارث السكونى عن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام كنت إذا خلوت حدثنى عيسى وكلمنى وهو فى بطنى وإذا كنت مع الناس سبىح فى بطنى وكبر ، وقوله (وكان أمراً مقضياً) يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها كما قال تعالى (ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقال (والى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا) قال محمد بن إسحق (وكان أمراً مقضياً) أى إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد ، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره ولم يحك غيره والله أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْمَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال إنها استسلمت لقضاء الله تعالى فذكر غير

واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فلما حملت به ضاقت ذرعاً ولم تدر ماذا تقول للناس فانها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما تخبرهم به غير أنها أفتت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا . وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك . فحملت امرأته فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها وقالت أشعرت يامريم أتى حبلى ؟ فقالت لها مريم وهل علمت أيضاً أتى حبلى وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجد الذى فى بطنها يسجد للذى فى بطن مريم أى يعظمه ويخضع له فان السجود كان فى ملتهم عند السلام مشروعا كما سجد ليوسف أبواه وإخوته وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ولكن حرم فى ملتنا هذه تكميلا لتعظيم جلال الرب تعالى ، قال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين قال قرئ على الحارث ابن مسكين وأنا أسمع أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك رحمه الله بلفظى أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة وكان حملهما جميعا معا فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم إني أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك قال مالك أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر وقال عكرمة ثمانية أشهر قال ولهذا لا يعيش ولد ثمانية أشهر وقال ابن جريج أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبد الله الثقفي سمع ابن عباس وسئل عن حمل مريم قال لم يكن إلا أن حملت فوضعت وهذا غريب وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى (فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) فالفاء وإن كانت للتعقيب لكن تعقيب كل شيء بحسبه كقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما) فهذه الفاء للتعقيب بحسبها . وقد ثبت فى الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوما وقال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فصبح الأرض مخضرة) فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها ثم صرفه ما يعلم من براءتها وزاهاها ودينها وعبادتها ثم تأمل ماهى فيه فجعل أمرها يحوس فى فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول فقال يامريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلى على . قالت وما هو ؟ قال هل يكون قط شجر من غير حب وهل يكون زرع من غير بذر وهل يكون ولد من غير أب . فقالت نعم وفهمت ما أشار اليه . أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر وهل يكون ولد من غير أب فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم فصديقها وسلم لها حالها ، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالرية انتبذت منهم مكانا قصيا أى قاصيا منهم بعيدا عنهم لثلاثراهم ولا يروها ، قال محمد بن إسحق : فلما حملت به وملاأت قلاتها ورجعت استمسك عنها الدم وأصابها ما يصاب الحامل على الولد من الوصب والتوحم وتغير اللون حتى فطر لسانها فمادخل على أهل بيت مادخل على آل زكريا وشاع الحديث فى بنى إسرائيل فقالوا إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها فى الكنيسة غيره وتوارت من الناس وانحذت من دونهم حجابا فلا يراها أحد ولا تراه ، وقوله (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة) أى فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة فى المكان الذى تنحت اليه وقد اختلفوا فيه فقال السدى كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس ، وقال وهب بن منبه ذهبت هاربة فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق ، وفى رواية عن وهب كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس فى قرية هناك يقال لها بيت لحم ، قلت وقد تقدم فى أحاديث الاسراء من رواية النسائي عن أنس رضى الله عنه والبيهقى عن شداد بن أوس رضى الله عنه أن ذلك ببيت لحم فالله أعلم وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض ولا يشك فيه النصارى أنه ببيت لحم وقد تلقاه الناس وقد ورد به الحديث إن صح ، وقوله تعالى إخبارا عنها (قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) فيه دليل على جواز تمنى الموت عند

الفتنة فأنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية فقالت (يا ليتنى مت قبل هذا) أى قبل هذا الحال (وكنت نسيانسيا) أى لم أخلق ولم أك شيئا قاله ابن عباس ، وقال السدى قالت وهى تطلق من الحبل استحياء من الناس يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل (وكنت نسيانسيا) نسي فترك طلبه كخرق الحيز إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي ، وقال قتادة (وكنت نسيانسيا) أى شيئا لا يعرف ولا يذكر ولا يدري من أنا ، وقال الربيع بن أنس (وكنت نسيانسيا) هو السقط ، وقال ابن زيد لم أكن شيئا قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمى الموت إلا عند الفتنة عند قوله (توفى مسلما وألحقى بالصالحين)

﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

قرأ بعضهم من تحتها بمعنى الذى تحتها ، وقرأ الآخرون من تحتها على أنه حرف جر ، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس (فناداها من تحتها) جبريل ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ، وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدى وقاتدة : إنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام أى ناداها من أسفل الوادى ، وقال مجاهد (فناداها من تحتها) قال عيسى بن مريم وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال الحسن هو ابنها وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها قال أو لم تسمع الله يقول (فأشارت إليه) واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره ، وقوله (أن لا تحزنى) أى ناداها قائلا لا تحزنى (قد جعل ربك تحتك سرية) قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحق عن البراء بن عازب (قد جعل ربك تحتك سرية) قال الجدول وكذا قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : السرى النهر ، وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه ، وقال مجاهد هو النهر بالسريانية ، وقال سعيد بن جبير السرى النهر الصغير بالنبطية ، وقال الضحاك هو النهر الصغير بالسريانية ، وقال إبراهيم النخعي هو النهر الصغير وقال قتادة هو الجدول بلغة أهل الحجاز ، وقال وهب بن منبه . السرى هو ربيع الماء ، وقال السدى هو النهر واختار هذا القول ابن جرير وقد ورد في ذلك حديث مرفوع فقال الطبراني حدثنا أبو شعيب الحراني حدثنا يحيى بن عبد الله الباقلي حدثنا أيوب بن نهيك سمعت عكرمة مولى ابن عباس سمعت ابن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن السرى الذى قال الله لمريم (قد جعل ربك تحتك سرية) نهر أخرجه الله لثشرب منه » وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه . وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى قال فيه أبو حاتم الرازى ضعيف . وقال أبو زرعة : منكر الحديث وقال أبو الفتح الأزدى : متروك الحديث ، وقال آخرون المراد بالسرى عيسى عليه السلام وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر وهو إحدى الروايتين عن قتادة وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر ولهذا قال بعده (وهزى إليك بجذع النخلة) أى وخذى إليك بجذع النخلة ، قيل كانت يابسة قاله ابن عباس وقيل مشجرة قال مجاهد كانت عجوة ، وقال الثوري عن أبي داود نقيع الأعمى كانت صرفانة والظاهر أنها كانت شجرة ولكن لم تكن في إبان ثمرها قاله وهب بن منبه ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاما وشربا فقال (تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقري عينا) أى طيبي نفسا ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ثم تلا هذه الآية الكريمة وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا شيبان حدثنا مسرور بن سعيد التميمي حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ « أكرموا

عنكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام وليس من الشجر شيء يلقح غيرها وقال رسول الله ﷺ « أظعموا نساءكم الولد الرطب فان لم يكن رطب فتمر وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران » هذا حديث منكر جدا ورواه أبو يعلى عن شيان به ، وقرأ بعضهم (تساقط) بتشديد السين وآخرون بتخفيفها ، وقرأ أبو نهيك (تسقط عليك رطباً جنياً) وروى أبو إسحق عن البراء أنه قرأها (يساقط) أى الجذع والسكل متقارب

وقوله (فأما ترين من البشر أحداً) أى مهمارأت من أحد (فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكله اليوم إنسيا) المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي لثلاثين (فلن أكله اليوم إنسيا) قال أنس بن مالك في قوله (إني نذرت للرحمن صوما) قال : صمتا وكذا قال ابن عباس والضحاك وفي رواية عن أنس صوما وصمتا وكذا قال قتادة وغيرهما ، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام ، نص على ذلك السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد . قال ابن إسحق عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك ؟ قال أصحابه حلف أن لا يكلم الناس اليوم فقال عبد الله بن مسعود كلم الناس وسلم عليهم فان تلك امرأة علمت أن أحدا لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعنى بذلك مريم عليها السلام ليكون عذرا لها إذا سئلت ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله وقال عبد الرحمن بن زيد لما قال عيسى لمريم (لا تحزنى) قالت وكيف لا أحزن وأنت معى لا ذات زوج ولا مملوكة أى شيء عذرى عند الناس ؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا قال لها عيسى أنا كفيفك الكلام (فأما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكله اليوم إنسيا) قال هذا كله من كلام عيسى لأمه وكذا قال وهب

﴿ فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهُ تَحْمِلُهُ قَالُوا يَتَرَيِّمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً قَرِيحاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُنْكَلُ مِنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحدا من البشر فانها ستكفي أمرها ويقام بحجتها فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه فأخذت ولدها فأنت به قومها تحمله فلما راوها كذلك أعظموا أمرها واستكروه جدا وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا أى أمرا عظيما قاله مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا شيان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالى قال وخرج قومها في طلبها قال وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئا فلقوا راعي بقر فقالوا رأيت فتاة كذا وكذا نعتها قال لا ولكنى رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط قالوا وما رأيت قال رأيتها الليلة تسجد نحو هذا الوادى . قال عبد الله بن أبي زياد وأحفظ عن شيان أنه قال رأيت نورا ساطعا فتوجهوا حيث قال لهم فاستقبلتهم مريم فلما رأتهن قعدت وحملت ابنها في حجرها فجاءوا حتى قاموا عليها (وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا) أمرا عظيما (يا أخت هرون) أى ياشيية هرون في العبادة (ما كان أبوك امرا سوء وما كانت أمك بغيا) أى أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصالح والعبادة والزهادة فكيف صدر هذا منك قال على ابن أبي طلحة والسدي قيل لها (يا أخت هرون) أى أختى موسى وكانت من نسله كما يقال للتميمي يا أختا نعيم وللضري يا أختا مضر وقيل نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة وحكى ابن جرير

عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هرون . ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين الهجستاني حدثنا ابن أبي مريم حدثنا الفضل يعني ابن أبي فضالة حدثنا أبو صخر عن القرظي في قول الله عز وجل (يا أخت هرون) قال هي أخت هرون لأبيه وأمه وهي أخت موسى أخى هرون التي قصت أثر موسى (فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) وهذا القول خطأ محض فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل فدل على أنه آخر الأنبياء بعثا وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهما ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي » ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي لم يكن متأخرا عن الرسل سوى محمد ولكان قبل سليمان وداود فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليهما السلام في قوله تعالى (ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) وذكر القصة إلى أن قال (وقتل داود جالوت) الآية والذي جراً القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه قال وقامت مريم بنت عمران أخت موسى وهرون النبيين تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله ويشكرنه على ما أنعم به على بني إسرائيل فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلطة شديدة بل هي باسم هذه وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس سمعت أبي يذكره عن سماك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجران فقالوا أرأيت ما تقرءون (يا أخت هرون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال فرجعت فذكرت ذلك رسول الله ﷺ فقال « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » انفرد باخراجه مسلم والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن إدريس عن أبيه عن سماك به ، وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس ، وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن سعيد بن أبي صدقة عن محمد بن سيرين قال أنبئت أن كعبا قال إن قوله (يا أخت هرون) ليس بهرون أخى موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فاني أجدينيهما ستمائة سنة قال فسكت وفي هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضا حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قوله (يا أخت هرون) الآية قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هرون مصلحا محببا في عشيرته وليس بهرون أخى موسى ولكنه هرون آخر قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم يسمى هرون من بني إسرائيل ، وقوله (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية وقد كانت يومها ذلك صائمة صائمة فأحالت الكلام عليه وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه فقالوا متهمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتاعب بهم (كيف نكلم من كان في المهد صبيا) قال ميمون بن مهران (فأشارت إليه) قالت كلوه فقالوا على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيا : وقال السدي لما (أشارت إليه) غضبوا وقالوا لـسخرتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها (قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا) أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره كيف يتكلم ؟ قال إني عبد الله ، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه وقوله (آتاني الكتاب وجعلني نبيا) تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة قال نوف البكالي لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا - إلى قوله - مادمت حيا) وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناني رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) الآية ، وقال عكرمة (آتاني الكتاب) أي قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن المصنف حدثنا يحيى بن سعيد

هو العطار عن عبد العزيز بن زياد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان عيسى بن مريم قد درس التوراة وأحكمها وهو في بطن أمه فذلك قوله (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا) يحيى بن سعيد العطار الحمصي متروك وقوله (وجعلني مباركا أينما كنت) قال مجاهد وعمر بن قيس والثوري وجعلني معلما للخير وفي رواية عن مجاهد نفاعا وقال ابن جرير حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس الخزومي سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال لقي عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي؟ قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده، وقد أجمع الفقهاء على قول الله (وجعلني مباركا أينما كنت) وقيل ما بركته؟ قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان وقوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) كقوله تعالى لمحمد ﷺ (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين). وقال عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس في قوله (وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) قال أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت. ما أثبتها لأهل القدر. وقوله (وبرأ بولدي) أي وأمرني ببر والدي ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه والوالدين إحسانا) وقال (أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير) وقوله (ولم يجعلني جبارا شقيا) أي ولم يجعلني جبارا مستكبرا عن عبادته وطاعته وبر والدي فأشقى بذلك: قال سفيان الثوري الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف لا تجد أحدا عاقلا لوالديه إلا وجدته جبارا شقيا ثم قرأ (وبرأ بولدي ولم يجعلني جبارا شقيا) قال ولا تجد سيء الملة إلا وجدته مختالا فخورا ثم قرأ (وماملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا). وقال قتادة ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص في آيات سلطه الله عليهم وأذن له فبهن فقالت طوبى للبطن الذي حملك وطوبى للبدن الذي أرضعت به فقال نبي الله عيسى عليه السلام يحييها طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع مافيه ولم يكن جبارا شقيا وقوله (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) إثبات منه لعبوديته لله عز وجل وأنه مخلوق من خلق الله يحيى ويميت ويبعث كسائر المخلوقات ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد صلوات الله وسلامه عليه

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَاِدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَفَى الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام (قول الحق الذي فيه يمترون) أي يختلف الباطلون والمحقون من آمن به وكفربه ولهذا قرأوا كثيرون قول الحق برفع قول وعمر بن عبد الله بن عامر قول الحق، وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى بن مريم قال الحق والرفع أظهر إعرابا ويشهد له قوله تعالى (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) ولما ذكر تعالى أنه خالقه عبدا نبيا نزه نفسه القدسة فقال (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه) أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علوا كبيرا (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أي إذا أراد شيئا فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خالقه من تراب ثم له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين) وقوله (وإن الله ربِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته فقال (فأعبدوه هذا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أي هذا الذي جئكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدى ومن خالقه ضل وغوى. وقوله (فاختلاف الأحزاب من بينهم) أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبده ورسوله وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عابيه لعائن الله على

أنه ولد زينة ، وقالوا كلامه هذا سحر ، وقالت طائفة أخرى إنما تكلم الله وقال آخرون بل هو ابن الله ، وقال آخرون ثالث ثلاثة وقال آخرون بل هو عبد الله ورسوله وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله اليه المؤمنين ، وقد روى نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف . قال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة في قوله (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون) قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال بعضهم هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية فقال الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل أنت فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه فقال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الاسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله . قال الرابع كذبت بل هو عبد الله ورسوله وكنهه وهم المسلمون . فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا فاقتلوا وظهر على المسلمين ، وذلك قول الله تعالى (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) قال قتادة وهم الذين قال الله (فاختلف الأحزاب من بينهم) قال اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً ، وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس وعن عروة بن الزبير عن بعض أهل العلم قريباً من ذلك ، وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم أن قسطنطين جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفًا اختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلفا متبايناً جداً فقالت كل شريعة فيه قولاً فمائة تقول فيه شيئاً وسبعون تقول فيه قولاً آخر وخمسون تقول شيئاً آخر ومائة وستون تقول شيئاً ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فقال إليهم الملك وكان فيلسوفاً فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الحيانة العظيمة ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعا كثيرة وحرفوا دين المسيح وغيره فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها بلاد الشام والجزيرة والروم فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة وبنت أمه هيلانة قامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي يزعم اليهود أنه المسيح وقد كذبوا بل رفعه الله إلى السماء وقوله (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) تهديد ووعد شديد لمن كذب على الله وافتري وزعم أن له ولداً ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلاً وثقة بقدرته عليهم فانه الذي لا يعجل على من عصاه كما جاء في الصحيحين « إن الله لم يلجأ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يحملون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم » وقد قال الله تعالى (وكأين من قرية أهلكنا ثم أخذتها وإلى المصير) وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) ولهذا قال ههنا (فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم) أي يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكنهه ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُرُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره كما قال تعالى (ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى عنهم شيئاً ولو كان

هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله ولهذا قال (أسمع بهم وأبصر) أى ما أسمعهم وأبصرهم (يوم يأتوننا) يعنى يوم القيامة (لكن الظالمون اليوم) أى فى الدنيا (فى ضلال مبين) أى لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك ثم قال تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة) أى أنذر الخلاق يوم الحسرة (إذ قضى الأمر) أى فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه (وهم) أى اليوم (فى غفلة) عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة (وهم لا يؤمنون) أى لا يصدقون به . قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ قال فيشربون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - فيقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ قال فيشربون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت - قال - فيؤمر به فيذبح قال ويقال يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون) وأشار بيده ثم قال « أهل الدنيا فى غفلة الدنيا » هكذا رواه الإمام أحمد وقد خرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما من حديث الأعمش به ولفظهما قريب من ذلك ، وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة حدثنى أسباط ابن محمد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وفى سنن ابن ماجه وغيره من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه وهو فى الصحيحين عن ابن عمر ورواه ابن جريج قال : قال ابن عباس فذكر من قبله نحوه ، ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه يؤتى بالموت كأنه دابة فيذبح والناس ينظرون ، وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء عن عبد الله هو ابن مسعود فى قصة ذكرها قال فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار وهو يوم الحسرة فىرى أهل النار البيت الذى فى الجنة ويقال لهم لو علمتم فتأخذهم الحسرة قال ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار فيقال لهم لولا أن الله من عليكم ، وقال السدى عن زياد عن زر بن حبیش عن ابن مسعود فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أتى بالموت فى صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ثم ينادى مناد يا أهل الجنة هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه ثم ينادى مناد يا أهل النار هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ثم يذبح بين الجنة والنار ثم ينادى يا أهل الجنة هو الخلود أبداً والدين ويا أهل النار هو الخلود أبداً والدين فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحدميتا من فرح ماتوا ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحدميتا من شهقة ماتوا فذلك قوله تعالى (وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر) يقول إذا ذبح الموت ، ورواه ابن أبي حاتم فى تفسيره وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة) من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وأنذرهم يوم الحسرة) قال يوم القيامة وقرأ (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) وقوله (إننا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً بل هو الوارث لجميع خلقه الباقى بعدهم الحاكم فيهم فلا تنظم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة قال ابن أبي حاتم ذكر هدية بن خالد القيسى حدثنا حزم بن أبي حزم القطعى قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة : أما بعد فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت فجعل مصيرهم إليه وقال فيما أنزل فى كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه وأشهد ملائكتنا على حفظه انه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ

لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مَنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ واذكر في الكتاب إبراهيم وائل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام واذكر
لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذرية ويدعون أنهم على ملته وقد كان صديقا نبيا مع أبيه
كيف نهاه عن عبادة الأصنام فقال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) أى لا ينفعك ولا يدفع
عنك ضررا (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك) يقول وإن كنت من صلبك وترانى أصغر منك لأنى ولدك فاعلم
أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطاعت عليه ولا جاءك (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى طريقا
مستقيما موصلا إلى نيل المطالب ، والنجاة من الرهوب (يا أبت لا تعبد الشيطان) أى لا تطعه فى عبادتك هذه الأصنام
فانه هو الداعى إلى ذلك والراضى به كما قال تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين)
وقال (إن يدعون من دونه إلا أنا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) وقوله (إن الشيطان كان للرحمن عصيا) أى مخالفا
مستكبرا عن طاعة ربه فطرده وأبعده فلا تتبعه تصر مثله (يا أبت إني أخاف أن يمسه عذاب من الرحمن) أى على
شركك وعصيانك لما أمرك به (فتكون للشيطان وليا) يعنى فلا يكون لك مولى ولا ناصرا ولا مغنيا إلا إبليس وليس
إليه ولا إلى غيره من الأمور شئ بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك كما قال تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من
قبلك فزبن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم)

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ
سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْزَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ
بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

يقول تعالى محبرا عن جواب أبى إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه انه قال (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟)
يعنى إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فاتته عن سبها وشتمها وعيها فانك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك
وسبيتك وهو قوله (لأرجمنك) قاله ابن عباس والسدى وابن جريج والضحاك وغيرهم ، وقوله (واهجرنى مليا) قال
مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق يعنى دهرا وقال الحسن البصرى زمانا طويلا وقال السدى (واهجرنى
مليا) قال أبدأ . وقال على بن أبى طلحة والعوفى عن عباس (واهجرنى مليا) قال سويا سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة
وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدلى وأبو مالك وغيرهم واختاره ابن جرير فعندها قال إبراهيم لأبيه (سلام عليك)
كما قال تعالى فى صفة المؤمنين (وإذا خاطبهم الجاهلين قالوا سلاما) وقال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه
وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلون) ومعنى قول إبراهيم لأبيه (سلام عليك) يعنى أما أنا
فلا ينالك منى مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة (سأستغفر لك ربى) ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر
ذنبك (إنه كان بى حفيا) قال ابن عباس وغيره لطيفا أى فى أن هدىنى لعبادته والاخلاص له . وقال قتادة ومجاهد
وغيرهما إنه كان بى حفيا قال عوده الإجابة وقال السدى الحنفى الذى يهتم بأمره ، وقد استغفر إبراهيم ﷺ
لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله
(ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين فى ابتداء
الإسلام وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ

قالوا لقوامهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء (الآية) ، يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به ، ثم بين تعالى أن إبراهيم أفلح عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين - إلى قوله - وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم) وقوله (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى) أى أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله (وأدعو ربى) أى وأعبد ربى وحده لا شريك له (عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً) وعسى هذه موجبة لامحالة فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ

﴿ فَلَمَّا أَعَزَّ لَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴾

يقول تعالى فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله أبدله الله من هو خير منهم ووهب له إسحاق ويعقوب يعنى ابنه وابن إسحاق كما قال في الآية الأخرى (ويعقوب نافلة) وقال (ومن وراء إسحاق يعقوب) ولا خلاف أن إسحاق والدي يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق) ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب أى جعلنا له نسلا وعقباً نبياء أقر الله بهم عينه في حياته ولهذا قال (وكلا جعلنا نبياً) فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس فقال « يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله » وفي اللفظ الآخر « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » وقوله (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الثناء الحسن وكذا قال السدى ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير إنما قال علياً لأن جميع الملل والأديان يتنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه عطف بذكر الكلام فقال (واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً) قرأ بعضهم بكسر اللام من الاخلاص في العبادة ، قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى لبابة قال : قال الحواريون ياروح الله أخبرنا عن المخلص لله قال: الذى يعمل لله لا يحب أن يحمد الناس ، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى كما قال تعالى (إني اصطفيتك على الناس) (وكان رسول نبياً) جمع الله له بين الوصفين فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وقوله (وناديناه من جانب الطور) أى الجانب (الأيمن) من موسى حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة فآهاتلوح فقصدتها فوجدتها في جانب الطور الأيمن منه غريبه عند شاطئ الوادى فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناداه ، روى ابن جرير حديثنا ابن بشار حديثنا يحيى هو القطان حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وقربناه نجياً) قال أدنى حتى سمع صريف القلم وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم يعنون صريف القلم بكتابة التوراة وقال السدى (وقربناه نجياً) قال أدخل في السماء فكلم وعن مجاهد نحوه ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وقربناه نجياً) قال نجاً بصدقه ، وروى ابن أبى حاتم حديثنا عبد الجبار بن عاصم حديثنا محمد بن سلمة الحرانى عن أبى واصل عن شهر بن حوشب عن عمرو بن معد يكرب قال لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكرًا

ولساناً ذا كراً وزوجة تعين على الخير فلم أخزن عنك من الخير شيئاً ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً .
وقوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) أى وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبيا كما قال في الآية الأخرى
(وأخى هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون) وقال (قد أوتيت سؤلك ياموسى)
وقال (فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) ولهذا قال بعض السلف ما شفع أحد في أحد شفاعته
في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبيا قال الله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا) قال
ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال : قال ابن عباس قوله (ووهبنا له من رحمتنا أخاه
هارون نبيا) قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً عن يعقوب
وهو ابن إبراهيم الدورقي به .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق
الوعد . قال ابن جرير لم يعد ربه عدة إلا أنجزها يعنى ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفاهها حقها . وقال ابن جرير
حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلا
مكاناً أن يأتيه فيه فجاء ونسى الرجل فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال ما برحت من ههنا ؟ قال لا
قال إني نسيت قال لم أكن لأبرح حتى تأتيني فلذلك (كان صادق الوعد) وقال سفيان الثوري بلغني أنه أقام في ذلك
المكان ينتظره حولا حتى جاءه . وقال ابن شاذب بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكنا ، وقد روى أبو داود في سننه
وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه مكارم الأخلاق من طريق إبراهيم بن طهمان عن عبد الله بن ميسرة عن
عبد الكريم يعنى ابن عبد الله بن شقيق عن أبيه عن عبد الله بن أبي الحساء قال بايعت رسول الله ﷺ قبل
أن يبعث فبقيت له على بقية فوعده أن آتية بها في مكانه ذلك قال فنسيت يومى والغد فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه
ذلك فقال لى « يا فتى لقد شققت على أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك » لفظ الخرائطي وساق آثارا حسنة في ذلك ، ورواه
ابن منده أبو عبد الله في كتاب معرفة الصحابة بإسناده عن إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة عن عبد الكريم به
وقال بعضهم إنما قيل له (صادق الوعد) لأنه قال لأبيه (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) فصدق في ذلك ، فصدق
الوعد من الصفات الحميدة كما أن خلفه من الصفات الذميمة قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون *
كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقال رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب
وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » ولما كانت هذه صفات المنافقين كان التلبس بضعها من صفات المؤمنين ، ولهذا
أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق الوعد أيضاً
لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال « حدثنى فصدقنى ووعدنى
فوفى لى » ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
عدة أو دين فليأتنى أنجز له فجاء جابر بن عبد الله فقال إن رسول الله ﷺ قال « لو قد جاء مال البحرين أعطيتك
هكذا وهكذا وهكذا » يعنى ملء كفيه فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً فغرف يديه من المال ثم أمره بعده فإذا
هو خمسمائة درهم فأعطاه مثلها معها ، وقوله (وكان رسولاً نبياً) في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما
وصف بالنبوة فقط وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « إن الله
اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث فدل على صحة ما قلناه وقوله (وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة
وكان عند ربه مرضياً) هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والحلة السديدة حيث كان صابراً على طاعة ربه

عز وجل أمراً بها لأهلها كما قال تعالى لرسوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) الآية وقال (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) أي مروهم بالمعروف وانهموم عن المنكر ولا تدعومهم هملافناً كلهم النار يوم القيامة ، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فان أبت نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فان أبى نضحت في وجهه الماء » أخرجه أبو داود وابن ماجه . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً وأن الله رفعه مكاناً علياً ، وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة . وقد روى ابن جرير ههنا أثرأ غريباً عجيباً فقال حدثني يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرني جرير بن حازم عن سليمان الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال ابن يساف قال سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له ما قول الله عز وجل لإدريس (ورفعناه مكاناً علياً) فقال كعب أما إدريس فان الله أوحى إليه أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم فأحب أن يزداد عملاً فأتاه خليل له من الملائكة فقال له إن الله أوحى إلى كذا وكذا فكلم لى ملك الموت فليؤخرنى حتى أزداد عملاً فجمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدراً فكلم ملك الموت فى الذى كله فيه إدريس فقال وأين إدريس ؟ فقال هو ذا على ظهري قال ملك الموت العجب بعثت وقيل لى اقبط روح إدريس فى السماء الرابعة فجعلت أقول كيف أقبط روحه فى السماء الرابعة وهو فى الأرض فقبض روحه هناك فذلك قول الله (ورفعناه مكاناً علياً) هذا من أخبار كعب الأخبار الاسرائيليات ، وفى بعضه نكارة والله أعلم

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أنه سأل كعباً فذكر نحوه ما تقدم غير أنه قال لذلك الملك هل لك أن تسأله يعنى ملك الموت كم بقى من أجلى لىكى أزداد من العمل وذكر باقيه وفيه أنه لما سأله عما بقى من أجله قال لا أدرى حتى أنظر فنظر ثم قال إنك تسألنى عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين فنظر الملك تحت جناحه فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً فكان لا يغفر إبرة إلا قال سبحان الله فكان يمسى حين يمسى وايس فى الأرض أحد أفضل عملا منه وذكر بقيته كالذى قبله أو نحوه وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (ورفعناه مكاناً علياً) قال إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى . وقال سفيان عن منصور عن مجاهد (ورفعناه مكاناً علياً) قال السماء الرابعة وقال العوفى عن ابن عباس (ورفعناه مكاناً علياً) قال رفع إلى السماء السادسة فمات بها وهكذا قال الضحاك بن مزاحم وقال الحسن وغيره فى قوله (ورفعناه مكاناً علياً) قال : الجنة .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾

يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط بل جنس الانبياء عليهم السلام استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس (الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم) الآية قال السدى وابن جرير رحمه الله فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس والذى عنى به من ذرية نوح إبراهيم والذى عنى به من ذرية إبراهيم

إسحق ويعقوب وإسماعيل والذي عني به من ذرية إسرائيل موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم ، قال ابن جرير ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس فانه جد نوح (قات) هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام ، وقد قيل إنه من أنبياء بنى إسرائيل أخذوا من حديث الإسراء حيث قال في سلامه على النبي صلى الله عليه وسلم مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح ولم يقل والولد الصالح كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام . وروى ابن أبي حاتم حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن عمر أن إدريس أقدم من نوح فبعثه الله إلى قومه فأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله ويعملوا ما شاءوا فأبوا فأهلكهم الله عز وجل ، وما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم *) وهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * - إلى قوله - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال سبحانه وتعالى (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) وفي صحيح البخارى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس أفى ص سجدة ؟ فقال نعم ثم تلا هذه الآية (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فنبىكم ممن أمر أن يقتدى بهم قال وهو منهم يعنى داود . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمدا وشكرا على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكى جمع بك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمواظبتهم . قال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر قال قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم فسجد وقال هذا السجود فأين البكى يريد البكاء . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وسقط من روايته ذكر أبي معمر فيما رأيت فأنه أعلم

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْعَنُونَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ومن اتبعهم من القائمين بمحود الله وأوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه ، ذكر أنه (خلف من بعدهم خلف) أى قرون آخر (أضاعوا الصلاة) وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع لأنها عماد الدين وقوامه وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذاتها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا أى خسارا يوم القيامة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا فقال قائلون المراد بإضاعته تركها بالكلى قاله محمد بن كعب القرظى وابن زيد بن أسلم والسدى واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة للحديث « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » والحديث الآخر « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » وليس هذا محل بسط هذه المسألة . وقال الأوزاعى عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة فى قوله (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) قال إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركا كان كفرا . وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعيد عن ابن مسعود أنه قيل له إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن (الذين هم عن صلاتهم ساهون) و (على صلاتهم دائمون) و (على صلاتهم يحافظون) فقال ابن مسعود على مواقيتها . قالوا ما كنا نرى ذلك إلا على الترك قال ذلك الكفر ، قال مسروق لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى

إفراطهم الهلكة وإفراطهم إضاعتهم عن وقتهم ، وقال الأوزاعي عن إبراهيم بن يزيد أن عمر بن العزيز قرأ (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) ثم قال لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت ، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) قال عند قيام الساعة وذهب صالحى أمة محمد ﷺ ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله ، وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون فى آخر الزمان ، وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا الحسن الأشيب حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات) قال هم فى هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والجر فى الطرق لا يخافون الله فى السماء ولا يستحيون من الناس فى الأرض ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منان الواسطى حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا حيوة حدثنا بشير بن أبي عمرو الحولاني أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أباسعيد الحدرى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يحدوثرأتهم ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومناق وفاجر » وقال بشير قلت للوليد ماهؤلاء الثلاثة ؟ قال المؤمن مؤمن به والمناقى كافر به والفاجر يكل به ، وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقرئ ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن موسى أنبأنا عيسى بن يونس حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن وهب عن مالك عن أبي الرجال أن عائشة كانت ترسل بالشئ صدقة لأهل الصفة وتقول لا تعطوا منه ببريا ولا ببرية فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « هم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة » هذا حديث غريب وقال أيضاً حدثني أبي حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك حدثنا الوليد بن جرير عن شيخ من أهل المدينة أنه سمع محمد بن كعب القرظي يقول فى قول الله (فخلف من بعدهم خلف) الآية قال هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك ، وقال كعب الأحبار والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل شرايين للشهوات تراكين للصلوات لعابيين بالكعبات رقادين عن العتات مفرطين فى الغدوات تراكين للجماعات قال ثم تلا هذه الآية (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضياعات ، وقال أبو الأشهب العطاردى أوحى الله إلى داود عليه السلام يادود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فان القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي ، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو زيد التميمي عن أبي قبيل أنه سمع عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « إني أخاف على أمتي اثنين : القرآن واللبن ^(١) » أما اللبن فيتبعون الزيف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة ، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين ورواه عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة حدثنا أبو قبيل عن عقبة بن مرفوعا بنحوه تفرد به ، وقوله (فسوف يلقون غيا) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (فسوف يلقون غيا) أى خسرا ، وقال قتادة شراً وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحق عن أبي إسحق السبيعي عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود (فسوف يلقون غيا) قال واد فى جهنم بعيد القعر خبيث الطعم وقال الأعمش عن زياد عن أبي عياض فى قوله (فسوف يلقون غيا) قال واد فى جهنم من قيح ودم وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير حدثني عباس بن أبي طالب حدثنا محمد بن زياد حدثنا شريك بن قنطاري عن قنطاري عن عامر الخزازى قال جئت أبا أمامة صدى بن عجلان الباهلى فقلت حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بطعام ثم قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفاً ثم تنتهى إلى غي وآثام » قال قلت ماغى وآثام قال : قال « بئران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار » وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه (أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) وقوله فى الفرقان (ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) هذا حديث غريب ورفعه منكر ، وقوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً) أى إلا

(١) كذا فى النسخة المكية وفى النسخة الأميرية : الكبي ، بدل اللبن .

من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم ولهذا قال (فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا) وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها ، وفي الحديث الآخر « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئا ولا قبولوا بما عملوه قبلا فينقص لهم بما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا وذهب مجانا من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفورا رحيما)

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾

يقول تعالى الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب أي هي من الغيب الذي يؤمنون به ومارأوه وذلك لشدة إيمانهم وقوة إيمانهم وقوله (إنه كان وعده مأتيا) تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره فإن الله لا يخلف اليعاد ولا يبدله كقوله (كان وعده مفعولا) أي كأننا لا محالة ، وقوله ههنا (مأتيا) أي العباد صائرون إليه وسيأتونه ومنهم من قال (مأتيا) بمعنى آتيا لأن كل مأتاك فقد أتيت كما تقول العرب أتت على خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد ، وقوله (لا يسمعون فيها لغوا) أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا ، وقوله (إلا سلاما) استثناء منقطع كقوله (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيا إلا قليلا سلاما سلاما) وقوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلا ونهارا ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيا بأضواء وأنوار كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخضون فيها ولا يتغوطون آتيتهم وأمشطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشيا » أخرجه في الصحيحين من حديث معمر به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحاق حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشهداء على بارق نهر يساب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا » تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال الضحاك عن ابن عباس (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال مقادير الليل والنهار ، وقال ابن جرير حدثنا علي بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم قال سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال : ليس في الجنة ليل هم في نور أبدا ولهم مقدار الليل والنهار يعرفون مقدار الليل بارخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وافتتاح الأبواب وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم عن خليل عن الحسن البصري وذكر أبواب الجنة فقال أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فنهم افتتحي انقلقي ففعل ، وقال قتادة في قوله (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فيها ساعتان بكرة وعشى ليس ثم ليل ولانهار وإنما هو ضوء ونور ، وقال مجاهد ليس بكرة ولا عشى ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا وقال الحسن وقتادة وغيرهما كانت العرب الأنعم فيهم من يتغدى ويتعشى فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وقال ابن مهدي عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) قال البكور يرد على العشى والعشى يرد على البكور ليس فيها ليل ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثني أبي حدثني محمد بن زياد قاضي أهل شباط عن عبد الله بن حدير

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « مامن غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات إلا أنه يزف إلى ولي الله فيها زوجة من الحور العين أدناهن التي خلقت من الزعفران » قال أبو محمد هذا حديث غريب منكر ، وقوله (تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) إلى أن قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)

﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعلى ووکیع قالوا: حدثنا عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبرائيل « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال فنزلت (وما تنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية . انفرد بإخراجه البخاري فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبي نعیم عن عمر بن ذر به ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عمر بن ذر به وعندهما زيادة في آخر الحديث فكان ذلك الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم وقال العوفي عن ابن عباس احتبس جبرائيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وحزن فأتاه جبرائيل وقال يا محمد (وما تنزل إلا بأمر ربك) الآية . وقال مجاهد لبث جبرائيل عن محمد ﷺ اثنتي عشرة ليلة ويقولون أقل فلما جاءه قال « يا جبرائيل لقد رمت على حتى ظن المشركون كل ظن » فنزلت (وما تنزل إلا بأمر ربك) الآية . قال وهذه الآية كالتى في الضحى قال وكذلك قال الضحاک بن مزاحم وقتادة والسدي وغير واحد : إنها نزلت في احتباس جبرائيل ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال أبطأ جبرائيل النزول على النبي صلى الله عليه وسلم أربعين يوما ثم نزل فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « ما نزلت حتى اشتقت إليك » فقال له جبريل بل أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور فأوحى الله إلى جبرائيل أن قل له (وما تنزل إلا بأمر ربك) الآية رواه ابن أبي حاتم رحمه الله وهو غريب ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال أبطأت الرسل على النبي ﷺ ثم أتاه جبريل فقال له « ما حبسك يا جبريل . » فقال له جبريل وكيف تأتكم وأنتم لاتقصون أظفاركم ولا تنقون براجمكم ولا تأخذون شواربكم ولا تستأكون . ثم قرأ (وما تنزل إلا بأمر ربك) إلى آخر الآية . وقد قال الطبراني حدثنا أبو عامر النحوي حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي حدثنا إسماعيل بن عياش أخبرني ثعلبة بن مسلم عن أبي كعب مولى ابن عباس عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن جبرائيل أبطأ عليه فذكر له ذلك فقال وكيف وأنتم لا تقصون أظفاركم ولا تنقون شواربكم ولا تستأكون ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي اليمان عن إسماعيل بن عياش عن ابن عباس بنحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا المغيرة بن حبيب عن مالك بن دينار حدثني شيخ من أهل المدينة عن أم سلمة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصلحي لنا المجلس فانه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قط » وقوله (له ما بين أيدينا وما خلفنا) قيل المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا وما خلفنا أمر الآخرة (وما بين ذلك) ما بين النفختين هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة في رواية عنهما والسدي والريبع بن أنس وقيل (ما بين أيدينا) ما يستقبل من أمر الآخرة (وما خلفنا) أي ماضى من الدنيا (وما بين ذلك) أي ما بين الدنيا والآخرة ، وروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري واختاره ابن جرير أيضا والله أعلم . وقوله (وما كان ربك نسيا) قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيك ربك وقد تقدم

عنه أن هذه الآية كقوله (والضحي والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى) وقال ابن أبي حاتم حدثنا يزيد بن محمد ابن عبد الصمد الدمشقي حدثنا محمد بن عثمان يعني أبا الجماهر حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء يرفعه قال « ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته فان الله لم يكن لينسى شيئاً » ثم تلا هذه الآية (وما كان ربك نسياً) وقوله (رب السموات والأرض وما بينهما) أى خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه (فاعبدوه واصطبروا لعبادته هل تعلم له شيئاً) قال طلى بن أبي طلحة عن ابن عباس هل تعلم للرب مثلاً أو شبهة وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وقتادة وابن جريج وغيرهم ، وقال عكرمة عن ابن عباس ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَّبُّكَ لَنُحْشِرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ عَنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَاشَهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَغْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته كما قال تعالى (وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لنف خلق جديد) وقال (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقال ههنا (ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً) يستدل تعالى بالبداية على الاعادة يعنى أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً أفلا يعيده وقد صار شيئاً كما قال تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وفى الصحيح « يقول الله تعالى كذبتى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبى ، وأذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذبنى ، أما تكذبيه إياى فقله لن يعيدنى كما بدأتى وليس أول الخلق بأهون على من آخره ، وأما أذاه إياى فقله إن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وقوله (فو ربك لنحشرنهم والشيطان) أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً) قال العوفي عن ابن عباس يعنى قعوداً كقوله (وترى كل أمة جاثية) وقال السدى فى قوله جثياً يعنى قياماً ، وروى عن مرة عن ابن مسعود مثله . وقوله (ثم لننزعن من كل شيعه) يعنى من كل أمة قاله مجاهد (أيهم أشد على الرحمن عتياً) قال الثورى عن على بن الأقرع عن أبى الأحوص عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعاً ثم بدأ بالأكبر فالأكبر جرماً وهو قوله (ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً) وقال قتادة (ثم لننزعن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً) قال ثم لننزعن من أهل كل دين قاداتهم ورؤساءهم فى الشر وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف وهذا كقوله تعالى (حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار - إلى قوله - بما كنتم تكسبون) وقوله (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً) ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال فى الآية المتقدمة (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون)

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُجِى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن حرب حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن زياد البرسانى عن أبى ممية قال اختلقنا فى الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقاعضهم يدخلونها جميعاً ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له إنا اختلافنا فى الورود فقال يردونها جميعاً ، وقال سليمان بن مرة يدخلونها جميعاً وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال

صعنا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبق بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن النار ضجيجا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا» غريب ولم يخرجوه وقال الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد بن معدان قال : قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال قد مررت عليها وهي خامدة ، وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم قال كان عبد الله بن رواحة واضع رأسه في حجر امرأته فبكي فبكت امرأته قال ما يبكيك قالت رأيتك تبكي فبكت قال إني ذكرت قول الله عز وجل (وإن منكم إلا واردها) فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية - وكان مريضاً وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عيمان عن مالك بن مغول عن أبي إسحق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال يا ليت أمي لم تلدني ثم يبكي فقل له ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها ، وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري قال : قال رجل لأخيه هل أتاك أنك وارد النار قال نعم قال فهل أتاك أنك صادر عنها ، قال لا ، قال فقيم الضحك قال فما رأي ضاحكا حتى لحق بالله وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس الورود الدخول فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) وردوا أم لا وقال (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) أوردهم أم لا ، أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع . وروى ابن جريج عن عطاء قال : قال أبو راشد الحواري وهو نافع بن الأزرق (لا يسمعون حسيستها) فقال ابن عباس ويلك أمجنون أنت أين قوله (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) (وإن منكم إلا واردها) والله إن كان دعاء من مضى : اللهم أخرجني من النار سالما ، وأدخلني الجنة غانما ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن عبيد المحاربي حدثنا أسباط عن عبد الملك عن عبيد الله عن مجاهد قال كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق فقال له يا ابن عباس رأيت قول الله (وإن منكم إلا واردها) كان على ربك حتما مقضيا) قال أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا . وقال أبو داود الطيالسي قال شعبة أخبرني عبد الله بن السائب عن سمع ابن عباس يقرؤها (وإن منهم إلا واردها) يعني البر والفاجر ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) الآية (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) فسمى الورود على النار دخولا وليس بصادر . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن عن إسرائيل عن السدي عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود (وإن منكم إلا واردها) قال رسول الله ﷺ « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم » ورواه الترمذي عن عبيد ابن حميد عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي به ، ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود مرفوعا هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعا ، وقد رواه أسباط عن السدي عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم فمنهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير ومنهم من يمر كأجود الخيل ومنهم من يمر كأجود الإبل ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القناد حافته ملائكة معهم كلاب من نار يخطفون بها الناس . وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا خالد بن أسلم حدثنا النضر حدثنا إسرائيل أخبرنا أبو إسحق عن أبي الأحوص عن عبد الله قوله (وإن منكم إلا واردها) قال الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الأولى كالبرق والثانية كالريح والثالثة كأجود الخيل والرابعة كأجود البهائم ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم ، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرها من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم . وقال ابن جرير حدثني

يعقوب حدثنا ابن علي عن الجريري عن أبي السليل عن غنيم بن قيس قال ذكروا ورود النار فقال كعبه تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق برهم وفاجرهم ثم يناديها مناد أن امسكي أصحابك ودعي أصحابي قال فتخسف بكل ولي لها هي أعلم بهم من الرجل بولده ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم قال كعب ما بين منكم الحازن من خزنتها مسيرة سنة مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعمائة ألف وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر عن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ « إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرًا والحديبية » قالت فقلت أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) قالت : فسمعتة يقول (ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا) . وقال أحمد أيضاً حدثنا ابن إدريس حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » قالت حفصة أليس الله يقول (وإن منكم إلا واردها) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثم تنجي الذين اتقوا) الآية وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم »

وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا زمعة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم » قال الزهري كأنه يريد هذه الآية (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) . وقال ابن جرير حدثني عمران بن بكار السكلاعي حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن عيم حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال « ان الله تعالى يقول هي نارى أسلطها على عبدي المؤمن لتسكون حظه من النار في الآخرة » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه . وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو اليمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ (وإن منكم إلا واردها) . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زباني بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة » فقال عمر إذا نستكثر يارسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أكثر وأطيب » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا بأجر سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم » قال الله تعالى (وإن منكم إلا واردها) وإن الله كره في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعائة ضعف ، وفي رواية بسبعائة ألف ضعف ، وروى أبو داود عن أبي الطاهر عن ابن وهب وعن يحيى بن أيوب كلاهما عن زباني عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ « إن الصلاة على وأصيام والله كره يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعائة ضعف » . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قوله (وإن منكم إلا واردها) قال هو المر عليها : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (وإن منكم إلا واردها) قال ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الزلون والزلات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سباطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم » وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله (كان على ربك حتماً مقضياً) قال قسمًا واجبًا : وقال مجاهد : حتماً ، قال قضاء وكذا قال ابن جريج وقوله (ثم تنجي الذين اتقوا) أى إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصي بحسبهم نجى الله تعالى المؤمنين

المتقين منها بحسب أعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم السق كانت في الدنيا ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهى مواضع السجود وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان فيخرجون أولاً من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ثم الذى يليه ثم الذى يليه حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر لا إله إلا الله ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (ثم نجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَنًا وَرِثِيًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم (خير مقاماً وأحسن ندياً) أى أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً وهو مجتمع الرجال للحديث أى ناديتهم أعمر وأكثروا وطارقاً يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم محتفون مستترون في دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبراً عنهم (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) وقال قوم نوح (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) وقال تعالى (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم (وكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ) أى وكَمْ مِنْ أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم (هم أحسن أثناً ورثياً) أى كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً قال الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس (خير مقاماً وأحسن ندياً) قال المقام المنزل والندى المجلس والأثاث المتاع والرثى المنظر ، وقال العوفي عن ابن عباس المقام المسكن والندى المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم) فالمقام المسكن والنعيم . والندى المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط (وتأتون في ناديتكم النكر) والعرب تسمى المجلس النادى ، وقال قتادة لما رأوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في عيشهم خشونة وفيهم قسافة فعرض أهل الشرك ما تسمعون (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) وكذا قال مجاهد والضحاك ومنهم من قال فى الأثاث هو المال ومنهم من قال الثياب ومنهم من قال المتاع والرثى المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ، وقال الحسن البصرى يعنى الصور وكذا قال مالك (أثناً ورثياً) أى أكثر أموالاً وأحسن صوراً والكل متقارب صحيح .

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين برهبهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل (من كان في الضلالة) أى منا ومنكم (فليمدد له الرحمن مدّاً) أى فأمهلهم الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقض أجله (إما العذاب) يصيبه (وإما الساعة) بغتة تأتية (فسيعلمون) حينئذ (من هو شر مكاناً وأضعف جنداً) فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى . قال مجاهد فى قوله (فليمدد له الرحمن مدّاً) فليدعه الله فى طغيانه هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير

رحمه الله وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر تعالى مباهلة اليهود في قوله (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على البطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق فإنه لا يضركم الدعاء فنكلوا عن ذلك وقد تقدم تقدير ذلك في سورة البقرة مبسوط والله الحمد ، وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والعلو في دعواهم أن عيسى ولد الله وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى وأنه مخلوق كآدم قال تعالى بعد ذلك (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا نددع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل الله لعنة على الكاذبين) فنكلوا أيضا عن ذلك

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَغْيِ نَصِيبٌ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) الآيتين . وقوله (والباقيات الصالحات) قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف (خير عند ربك ثوابا) أى جزاء (وخير مردا) أى عاقبة ومردا على صاحبها ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثير عن أنى سلمة بن عبد الرحمن قال جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عودا يابساً فحط ورقه ثم قال « إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة » قال أبو سلمة فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهلن الله ولا كبرن الله ولأسبحن الله حتى إذا رأى الجاهل حسب أنى مجنون وهذا ظاهره أنه مرسل ولكن قد يكون من رواية أنى سلمة عن أبي الدرداء والله أعلم ، وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أنى معاوية عن عمر بن راشد عن يحيى عن أنى سلمة عن أبي الدرداء فذكر نحوه

﴿ أفرأيت الذي كفرَ بآياتِنَا وَقَالَ لَا وَتَيْنَ مَالًا وَوَلَدًا * أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرْدًا ﴾

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خباب بن الأرت قال كنت رجلاً قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث قال فأنى إذا مت ثم بعثت جئت لى ثم مال وولد فأعطيتك فأنزل الله (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا - إلى قوله - ويأتينا فردا) أخرجه صاحب الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفى لفظ البخارى كنت قينا بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً فجئت أتقاضاه فذكر الحديث وقال (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال موثقاً

وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن الأعمش عن أنى الضحى عن مسروق قال : قال خباب بن الأرت كنت قينا بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل فاجتمعت لى عليه دراهم فجئت لأتقاضاه فقال لى لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث قال فإذا بعثت كان لى مال وولد قال فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (أفرأيت الذي كفر بآياتنا) الآيات وقال العوفى عن ابن عباس إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين فأتوه يتقاضونه فقال أستم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا بلى قال فان موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولدا ولأوتين مثل كتابكم الذى

جثم به ف ضرب الله مثله في القرآن فقال (أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فردا) وهكذا قال مجاهد وقتادة وغيرهم إنها نزلت في العاص بن وائل ، وقوله (لأوتين مالا وولدا) قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه قال رؤبة :

الحمد لله العزيز فردا * لم يتخذ من ولد شيء ولدا

وقال الحارث بن حنظلة : ولقد رأيت معاشرنا * قد ثَمروا مالا وولدا

وقال الشاعر : فليت فلانا كان في بطن أمه * وليت فلانا كان ولد حمار

وقيل إن الولد بالضم جمع والولد بالفتح مفرد وهي لغة قيس والله أعلم ، وقوله (أطلع الغيب) إنكار على هذا القائل (لأوتين مالا وولدا) يعني يوم القيامة أي أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك (أم اتخذ عند الرحمن عهدا) أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق وقال الضحاك عن ابن عباس (أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا) قال لا إله إلا الله فيرجو بها وقال محمد بن كعب القرظي (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) قال شهادة أن لا إله إلا الله ثم قرأ (إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) وقوله (كلا) هي حرف ردع لما قبلها وتأكيدها (سنكتب ما يقول) أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم (ونعد له من العذاب مدا) أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا (ونرثه ما يقول) أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولدا زيادة على الذي له في الدنيا بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ، ولهذا قال تعالى (ويأتينا فردا) أي من المال والولد قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ونرثه ما يقول) قال نرثه . وقال مجاهد (ونرثه ما يقول) ماله وولده وذلك الذي قال العاص بن وائل . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (ونرثه ما يقول) قال ما عنده وهو قوله (لأوتين مالا وولدا) وفي حرف ابن مسعود ونرثه ما عنده وقال قتادة (ويأتينا فردا) لا مال له ولا ولد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ونرثه ما يقول) قال ما جمع من الدنيا وما عمل فيها قال (ويأتينا فردا) قال فردا من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا * فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعْدُهُمْ عَذَابًا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة (عزًّا) يعتزون بها ويستنصرونها ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال (كلا سيكفرون بعبادتهم) أي يوم القيامة (ويكونون عليهم ضدًّا) أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقرأ أبو نهيك (كل سيكفرون بعبادتهم) وقال السدي (كلا سيكفرون بعبادتهم) أي بعبادة الأوثان وقوله (ويكونون عليهم ضدًّا) أي بخلاف ما رجوا منهم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ويكونون عليهم ضدًّا) قال أعوانا قال مجاهد عوننا عليهم تخاصمهم وتكذبهم وقال العوفي عن ابن عباس (ويكونون عليهم ضدًّا) قال قرناء وقال قتادة قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض ، وقال السدي (ويكونون عليهم ضدا) قال الخصماء الأشداء في الخصومة وقال الضحاك (ويكونون عليهم ضدًّا) قال أعداء . وقال ابن زيد الضد : البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة . وقوله (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تغويهم إغواء ، وقال العوفي عنه تعرضهم على محمد وأصحابه ، وقال مجاهد تشليهم إشلاء ، وقال قتادة تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله ، وقال سفيان الثوري تغريهم إغراء وتسهلهم استعجالاً ، وقال السدي تظفيم ظفیاناً ، وقال عبد الرحمن بن زيد هذا كقوله تعالى (ومن يعش

عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين) وقوله (فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا) أى لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم (إنما نعد لهم عدا) أى إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاته وقال (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون) الآية (فهل الكافرين أمهلهم رويدا) (إنما نلهم ليزدادوا إثماً) (نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) وقال السدى إنما نعد لهم عدا: السنين والشهور والأيام والساعات ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إنما نعد لهم عدا) قال نعد أنفسهم في الدنيا

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَةً * لَا يَمْلِكُونَ الشَّمْعَةَ إِلَّا مَنْ أَلْبَسَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾

يخبر تعالى عن أولائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوه فيما أخبروهم وأطاعوه فيما أمرهم به وابتغوا عمامته زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه والوفدهم القادمون ركباناً ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم فانهم يساقون عنفاً إلى النار (وردا) عطاشاً قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد وههنا يقال (أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس اللأى عن ابن مرزوق (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً فيقول من أنت فيقول أما تعرفني ؟ فيقول لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك . فيقول أنا عمالك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه فطالما ركبتك في الدنيا فهل أركبني فيركبه فذلك قوله (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال ركباناً ، وقال ابن جرير حدثني ابن المنذر حدثنا ابن مهدي عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال على الإبل وقال ابن جريج على النجائب ، وقال الثوري على الإبل النوق ، وقال قتادة (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال إلى الجنة : وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه حدثنا سويد بن سعيد أخبرنا على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق حدثنا النعمان بن سعيد قال كنا جلوساً عند على رضي الله عنه فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) قال لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رجائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به وزاد عليها رجائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقي مثله . وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن على فقال حدثنا أبي حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي سمعت أبا معاذ البصري قال: إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) فقال ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رجال الذهب شرك نعالم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دنس ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة من ياقوت حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين ياعلى فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعث قيمها فيفتح له فإذا رآه خر له - قال مسلمة أراه قال ساجداً - فيقول ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكنت بأمرك فيتبعه ويقفو أثره

فتستخف الحوراء العجالة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول أنت حبي وأنا حبك وأنا الخالدة التي لا أموت وأنا الناعمة التي لا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط وأنا القيمة التي لا أظعن فيدخل بيتاً من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق : أحمر وأصفر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبها. وفي البيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون حشية على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الحلل يقضى جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه : الأنهار من تحتهم تتردد أنهار من ماء غير آسن قال صاف لا كدر فيه وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضرع الماشية وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعصرها الرجال بأقدامهم وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستجلى الثمار فان شاء أكل قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكئاً ثم تلا (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً) فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض وربما قال أخضر فترفع أجنحتها فياً كل من جنوبها أى الألوان شاء ثم تطير فتذهب فيدخل الملك فيقول سلام عليكم (تلك الجنة التي أوتتموها بما كنتم تعلمون) ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نور » هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً وقد روينا في المقدمات من كلام على رضى الله عنه بنحوه وهو أشبه بالصحة والله أعلم وقوله (ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً) أى عطاشاً (لا يملكون الشفاعة) أى ليس لهم من يشفع لهم كاشفع المؤمنين بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقه ، قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) قال العهد شهادة أن لا إله إلا الله ويبرأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجوا إلا الله عز وجل : وقال ابن أبي حاتم حدثنا عثمان بن خالد الواسطي حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن السعوى عن عون بن عبد الله عن أبى فاخته عن الأسود بن يزيد قال قرأ عبد الله يعنى ابن مسعود هذه الآية (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) ثم قال اتخذوا عند الله عهداً فان الله يقوم يوم القيامة من كان له عند الله عهد فليقم قالوا يا أبا عبد الرحمن فعلمنا قال قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة فانى أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك ان تسكننى إلى عملى يقربنى من الشر ويبياعدنى من الخير وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهداً تؤديه إلى يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . قال السعوى فحدثنى زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفاً مستجيبراً مستغفراً راهباً راغباً إليك . ثم رواه من وجه آخر عن السعوى بنحوه

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ * وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً فقال (وقالوا اتخذوا الرحمن ولداً لقد جئتم) أى فى قولكم هذا (شيئاً إذا) عظماً ويقال إذا بكسر الهمزة وفتحها ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى وقوله (تكاد السموات يتفطر منه وتنشق الأرض وتخِر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً) أى يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بنى آدم إعظاماً للرب وإجلالاً لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدة وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا كفء له بل هو الأحد الصمد

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

قال ابن جرير حدثنى على حدثنا عبد الله حدثنى معاوية عن على عن ابن عباس فى قوله (تكاد السموات يتفطر منه

وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً) قال إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » فقالوا يارسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال « تلك أوجب وأوجب » ثم قال « والذي نفسي بيده لو جىء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن » هكذا رواه ابن جرير وبشبه له حديث البطاقة والله أعلم ، وقال الضحاك (تكاد السموات يتفطرن منه) أى يتشققن فرقاً من عظمة الله ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وتنشق الأرض أى غضباً له عز وجل وتخر الجبال هداً قال ابن عباس هداً ، وقال سعيد بن جبيرة هداً ينكسر بعضها على بعض متابعات ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقرئ حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا مسعر عن عون بن عبد الله قال إن الجبل لينادى الجبل باسمه يافلان هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل ؟ فيقول نعم ويستبشر ، قال عون لمى للخير أسمع أفيسمع الزور والباطل إذا قيل ولا يسمع غيره ثم قرأ (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً* أن دعوا للرحمن ولداً) ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا هودة حدثنا عوف عن غالب بن عجر حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال - كان لهم فيها منفعة ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تسلكم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة قولهم اتخذ الرحمن ولداً فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال كعب الأحبار غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعيد ابن جبيرة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويجعل له ولد وهو يعافهم ويدفع عنهم ويرزقهم » أخرجاه في الصحيحين وفي لفظ « انهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم » وقوله (وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً) أى لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته لأنه لا كفاء له من خلقه لأن جميع الخلائق عبيده ولهذا قال (إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً* لقد أحصاهم وعدهم عدداً) أى قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ذكرهم وأثامهم وصعيرهم وكبيرهم (وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) أى لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحداً

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾

يخبر تعالى أنه يغفر لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات وهي الأعمال التي ترضى الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغفر لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة وهذا أمر لا بد منه ولا يحيد عنه وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه - قال - فيحبه جبريل قال ثم ينادى في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه قال فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال يا جبريل إني أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه قال فيبغضه أهل السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض » ورواه مسلم من حديث سهيل ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع مولى ابن عمر

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون أبو محمد المرائي حدثنا محمد بن عباد الخزومي عن ثوبان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليلتمس مرضات الله عز وجل فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل إن فلانا عبدي يلتمس أن يرزقني ألا وإن رحمتي عليه فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع ثم يهبط إلى الأرض » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن محمد بن سعد الواسطي عن أبي ظبية عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الملة من الله - قال شريك هي المحبة - والصيت من السماء فإذا أحب الله عبدا قال لجبريل عليه السلام إني أحب فلانا فينادي جبريل إن ربكم يمحى - يعني محب - فلانا فأجابه - أرى شريكا قد قال فتنزل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبدا قال لجبريل إني أبغض فلانا فأبغضه قال فينادي جبريل إن ربكم يبغض فلانا فأبغضوه - أرى شريكا قال - فيجري له البغض في الأرض » غريب ولم يخرجوه

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو داود الحفري حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - وهو الدراوردي عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إني قد أحببت فلانا فأجبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قول الله عز وجل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) » ورواه مسلم والترمذي كلاهما عن عبد الله عن قتبية عن الدراوردي به وقال الترمذي حسن صحيح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (سيجعل لهم الرحمن وداً) قال حبا وقال مجاهد عنه سيجعل لهم الرحمن ودا قال محبة في الناس في الدنيا وقال سعيد بن جبير عنه يحبهم ويحبهم يعني إلى خلقه المؤمنين كما قال مجاهد أيضا والضحاك وغيرهم ، وقال العوفي عن ابن عباس أيضا : الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق ، وقال قتادة (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا) أي والله في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ، وقال قتادة وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله ، وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها فسكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج فكان لا يعظم فكث بذلك سبعة أشهر وكان لا يمر على قوم إلا قالوا انظروا إلى هذا المرائي فأقبل على نفسه فقال لا أراني أذكر إلا بشر لأجعلن عملي كله لله عز وجل فلم يزد على أن قلب نيته ولم يزد على العمل الذي كان يعمل فـكان يمر بعد بالقوم فيقولون رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) وقد روى ابن جرير أيضاً أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف وهو خطأ فإن هذه السورة بكاملها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك والله أعلم ، وقوله (فإنما يسرناه) يعني القرآن (بلسانك) أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل (لتبشر به المتقين) أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله (وتذريه قوماً لداً) أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد قوماً لداً لا يستقيمون ، وقال الثوري عن إسماعيل وهو السدي عن أبي صالح (وتذريه قوماً لداً) عوجاً عن الحق ، وقال الضحاك الألد الخصم وقال القرظي الألد الكذاب ، وقال الحسن البصري (قوماً لداً) صما وقال غيره صم آذان القلوب ، وقال قتادة قوماً لداً يعني قريشا ، وقال العوفي عن ابن عباس (قوماً لداً) فجارا وكذا روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد ، وقال ابن زيد : الألد الظاوم وقرأ قوله تعالى (وهو ألد الخصام) وقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن) أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك

وابن زيد يعنى صوتا ، وقال الحسن وقتادة هل ترى عينا أو تسمع صوتا ، والركز فى أصل اللغة هو الصوت الخفى ، قال الشاعر : فتوحشت ركز الأنيس فراعها * عن ظهر غيب والأنيس سقامها . آخر تفسير سورة مريم والله الحمد والمنة . ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة طه والله الحمد .

﴿ تفسير سورة طه وهى مكية ﴾

روى إمام الأئمة محمد بن إسحق بن خزيمة فى كتاب التوحيد عن زياد بن أيوب عن إبراهيم بن النضر الحزامى حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار عن عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقة - يعنى عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام فلما سمعت الملائكة قالوا طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسن تتكلم بهذا » هذا حديث غريب وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيهما

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلًا مِّنْ أَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، وقال ابن حاتم حدثنا الحسين ابن محمد بن شيبة الواسطى حدثنا أبو أحمد - يعنى الزبيرى - أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : طه يا رجل وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء ومحمد بن كعب وأبى مالك وعطية العوفى والحسن وقتادة والضحاك والسدى وابن أبى أنهم قالوا : طه بمعنى يا رجل ، وفى رواية عن ابن عباس وسعيد ابن جبير والثورى أنها كلمة بالنبطية معناها يا رجل . وقال أبو صالح هى معربة وأسند القاضى عياض فى كتابه الشفاء من طريق عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا هاشم بن القاسم عن ابن جعفر عن الربيع بن أنس قال كان النبی ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله تعالى (طه) يعنى طأ الأرض يا محمد (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) ثم قال ولا يخفى ما فى هذا من الأكرام وحسن المعاملة وقوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) قال جوير عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال للمشركون من قريش ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فأنزل الله تعالى (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى) فليس الأمر كما زعمه المبطلون بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيرا كثيرا كما ثبت فى الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال حدثنا أحمد بن زهير حدثنا العلاء بن سالم حدثنا إبراهيم الطالقانى حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن سماك بن حرب عن ثعلبة بن الحكم قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عبادته إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالى » إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الأئبى ذكره أبو عمرو فى استيعابه ، وقال نزل البصرة ثم تحول إلى السكوفة ، وروى عنه سماك بن حرب . وقال مجاهد فى قوله (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) هى كقوله (فاقروا ما تيسر منه) وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة وقال قتادة (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) لا والله ما جعله شقاء ولكن جعله رحمة ونورا ودليلا إلى الجنة (إلا تذكرة لمن يخشى) إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحمة بها عباده ليتذكر ذاكر وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه ، وقوله (تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى) أى هذا القرآن الذى

قلت وقد خلط في هذا الحديث ودخل عليه شيء في شيء وحديث في حديث وقد يحتمل أنه تعمد ذلك أو أدخل عليه فيه والله أعلم وقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) أى أنزل هذا القرآن الذى خلق الأرض والسموات العلى الذى يعلم السر وأخفى كما قال تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (يعلم السر وأخفى) قال السر ما أسر به آدم فى نفسه (وأخفى) ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فأنه يعلم ذلك كله فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقى علم واحد وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة وهو قوله (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال الضحاك (يعلم السر وأخفى) قال السر ما يتحدث به نفسك وأخفى ما لم يتحدث به نفسك بعد وقال سعيد بن جبيرة أنت تعلم ما تسر اليوم ولا تعلم ما تسر غداً والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً ، وقال مجاهد (وأخفى) يعنى الوسوسة وقال أيضاً هو وسعيد بن جبيرة (وأخفى) أى ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه ، وقوله (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) أى الذى أنزل عليك القرآن هو الله الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر سورة الأعراف والله الحمد والمنة

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى فى ذكر قصة موسى وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته فأصل الطريق وكانت ليلة شاتية ونزل منزلاً بين شعاب وجبال فى برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب وجعل يقده بزند معه ليورى نارا كما جرت له العادة به فجعل لا يقده شيئاً ولا يخرج منه شرر ولا شيء فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا أى ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم (إني آنست نارا على آتيتكم منها بقبس) أى شهاب من نار وفى الآية الأخرى (أو جذوة من النار) وهى الحجر الذى معه لهب (لعلكم تصطلون) دل على وجود البرد وقوله (بقبس) دل على وجود الظلام وقوله (أو أجداً على النار هدى) أى من يهدينى الطريق دل على أنه قد تاه عن الطريق كما قال الثورى عن أبى سعد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (أو أجداً على النار هدى) قال من يهدينى إلى الطريق وكانوا شاتين وضلوا الطريق فلما رأى النار قال إن لم أجداً أحداً يهدينى إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَزِدَى ﴾

يقول تعالى (فلما أتاهما) أى النار واقترب منها (نودى يا موسى) وفى الآية الأخرى (نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله) وقال ههنا (إني أنا ربك) أى الذى يكلمك ويخاطبك (فاخلع نعليك) قال على بن أبى طالب وأبو ذر وأبو أيوب وغير واحد من السلف كاتمان جلد حمار غير ذكى ، وقيل إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة : وقال سعيد بن جبيرة كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ، وقيل ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (طوى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس

هو اسم لا وادى وكذا قال غير واحد ، فعلى هذا يكون عطف بيان وقيل عبارة عن الأمر بالوطء بقدمية ، وقيل لأنه قدس مرتين وطوى له البركة وكررت والأول أصح كقوله (إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى) وقوله (وأنا اخترتك) كقوله (إني اصطفتيك على الناس برسالاتي وبكلامي) أى على جميع الناس من الموجودين فى زمانه ، وقد قيل إن الله تعالى قال يا موسى أتترى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال لا قال لأنى لم يتواضع إلى أحد تواضعك ، وقوله (فاستمع لما يوحى) أى استمع الآن ما أقول لك وأوحى إليك (إني أنا الله لا إله إلا أنا) هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وقوله (فاعبدنى) أى وحدنى وقم بعبادتى من غير شريك (وأقم الصلاة لذكرك) قيل معناه صل لذكركنى وقيل معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لى ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا الثنى بن سعيد عن قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ قال « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فان الله تعالى قال وأقم الصلاة لذكرك » وفى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارته أن يصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك » وقوله (إن الساعة آتية) أى قائمة لا محالة وكائنة لا بد منها وقوله (أكاد أخفيها) قال الضحاك عن ابن عباس انه كان يقرؤها أكاد أخفيها من نفسى يقول لأنها لا تخفى من نفس الله أبدا ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس من نفسه وكذا قال مجاهد وأبو صالح ويحيى بن رافع ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (أكاد أخفيها) يقول لا أطلع عليها أحداً غيرى وقال السدى ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة وهى فى قراءة ابن مسعود إني أكاد أخفيها من نفسى يقول كتمتها من الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت ، وقال قتادة أكاد أخفيها وهى فى بعض القراءات أخفيها من نفسى ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت وهذا كقوله تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقال (ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة) أى ثقل عليها على أهل السموات والأرض ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب حدثنا أبو نميلة حدثني محمد بن سبل الأسدى عن ورقاء قال أقرأنيها سعيد بن جبير أكاد أخفيها يعنى بنصب الألف وخفض الفاء يقول أظهرها ثم أما سمعت قول الشاعر :

داب شهرين ثم شهراً دميكا بأربكين يخفيان غميرا

قال السدى الغمير نبت رطب ينبت فى خلال ييس ، والأربكين موضع ، والدميك الشهر التام وهذا الشعر لكعب ابن زهير . وقوله سبحانه وتعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى أقيمها لا محالة لأجزى كل عامل بعمله (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (وإنما تجزون ما كنتم تعملون) وقوله (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها) الآية المراد بهذا الخطاب أحاد المكلفين أى لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه فى دنياه وعصى مولاه واتبع هواه فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر (فتردى) أى تهلك وتعطب قال الله تعالى (وما يفتى عنه ماله إذا تردى) .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفِي بِهَا كُلِّي غَمَمِي وَلِي فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلَيْسَ لِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل وأنه لا يأتى به إلا نبي مرسل ، وقوله (وما تلك بيمينك يا موسى) قال بعض المفسرين إنما قال له ذلك على سبيل الإيتناس له وقيل وإنما قال له ذلك على وجه التقرير أى أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن (وماتلك بيمينك يا موسى) استفهام تقرير (قال هى عصاى أتوكؤ عليها) أى أعتمد عليها فى حال المشى

(وأهش بها على غنمى) أى أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمى ، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل الحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يجبط وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً . وقوله (ولى فيها مآرب أخرى) أى مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك ، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التى أبهمت فقليل كانت تضىء له بالليل وتحرس له الغنم إذا نام ويفرسها فتصير شجرة تظله وغير ذلك من الأمور الحارقة للعادة ، والظاهر أنها لم تكن كذلك ولو كانت كذلك لما استنكر موسى عليه الصلاة والسلام صيورتها ثعبانا فما كان يفر منها هاربا ولكن كل ذلك من الأخبار الاسرائيلية ، وكذا يقول بعضهم إنها كانت لآدم عليه الصلاة والسلام وقول الآخر إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة ، وروى عن ابن عباس أنه قال كان اسمها ماشا والله أعلم بالصواب . وقوله تعالى (قال ألقها يا موسى) أى هذه العصا التى فى يدك يا موسى ألقها (فألقاها فإذا حية تسعى) أى صارت فى الحال حية عظيمة ثعبانا طويلا يتحرك حركة سريعة فإذا هى تهتز كأنها جان وهو أسرع الحيات حركة ولكنه صغير فهذه فى غاية الكبر وفى غاية سرعة الحركة (تسعى) أى تمشى وتضطرب قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حفص بن جميع حدثنا سالك عن عكرمة عن ابن عباس (فألقاها فإذا هى حية تسعى) ولم تكن قبل ذلك حية فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعها فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولى مدبراً ونودى أن يا موسى خذها فلم يأخذها ثم نودى الثانية أن خذها ولا تخف فقليل له فى الثالثة إنك من الآمنين فأخذها . وقال وهب بن منبه فى قوله (فألقاها فإذا حية تسعى) قال فألقاها على وجه الأرض ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظرا إليه الناظرون يدب يلتمس كأنه يتبعى شيئا يريد أخذه يمر بالصخرة مثل الخلفة من الإبل فيلتقمها ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه تتقدان ناراً وقد عاد الحجن منها عرفاً قليل شعر مثل النيازك وعاد الشعبتان منها مثل القلب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يعقب فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ثم نودى يا موسى أن ارجع حيث كنت فرجع موسى وهو شديد الخوف فقال (خذها) يمينك (ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى) وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف فدخلها بخلال من عيدان فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده فقال له ملك أرايت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئا قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب ثم قبض فإذا هى عصاء التى عهدا وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ولهذا قال تعالى (سنعيدها سيرتها الأولى) أى إلى حالها التى تعرف قبل ذلك

﴿ وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَىٰ لِنُرِيَكَ مِنْ ؕ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ * أذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَخْلُ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * أُشَدِّدْ بِهِ أَرْزِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كُنْ نَسَبَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكَرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيرًا ﴾ ٥

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام وهو أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه كما صرح به فى الآية الأخرى وههنا عبر عن ذلك بقوله (واضم يدك إلى جناحك) وقال فى مكان آخر (واضم إليك جناحك من الرهب فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون وملكه) وقال مجاهد واضم يدك إلى جناحك كفك تحت عضدك وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تخرج تتلأأ كأنها فلقة قمر وقوله (تخرج بيضاء من غير سوء) أى من غير

برص ولا أذى ومن غير شين قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم ، وقال الحسن البصري أخرجها والله كأنها مصباح فعمل موسى أنه قد لقي ربه عز وجل ولهذا قال تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) وقال وهب قال له ربه: ادنه فلم يزل يدينه حتى سجد ظهره بمخدع الشجرة فاستقر وذهبت عنه الرعدة وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه وقوله (اذهب إلى فرعون إنه طغى) أى اذهب إلى فرعون ملك مصر الذى خرجت فاراً منه وهارباً فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ومعه فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسى الرب الأعلى . قال وهب بن منبه : قال الله لموسى انطلق برسالتى فإنك بسمعى وعينى وإن معك يدي وبصري وإنى قد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة فى أمرى فأنت جند عظيم من جندي بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتى وأمن مكبرى وغرته الدنيا عنى حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وزعم أنه لا يعرفنى فإني أقسم بعزى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار فإن أمرت السماء حصبتها وإن أمرت الأرض ابتلعته وإن أمرت الجبال دمرته وإن أمرت البحار غرقته ولكنه هان على وسقط من عينى ووسعته حلمى واستغثت بما عندي وحقنى إنى أنا الغنى لاغنى غيرى فبلغه رسالتى وادعه إلى عبادتى وتوحيدي وإخلاصى وذكره أيامى وحذره تقمى وبأسى وأخبره أنه لا يقوم شئ لغضبي وقل له فيما بين ذلك قولاً لنا لعل له يتذكر أو يخشى وأخبره أنى إلى العفو والغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا فإن ناصيته بيدي ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى وقل له أجب ربك فإنه واسع المغفرة وقد أمهلك أربعائة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتتمثل به وتصعد عباده عن سبيله وهو يعطر عليك السماء وينبت لك الأرض لم تسقم ولم تهرم ولم تفقر ولم تغلب ولو شاء الله أن يجعل لك العقوبة لفعل ولكنه ذواناة وحلم عظيم وجاهده بنفسك وأخيك وأنتا تحتسبان بجهاده فإني لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبتة نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ولا تعجبكم زينة ولا مامتع به ولا تعدا إلى ذلك أعينكم فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ولو شئت أن أزينكم من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتها ففعلت ولكنى أرغب بكم عن ذلك وأزويه عنكم وكذلك أفعل بأوليائى وقديما ما جرت عادى فى ذلك فإني لأدودهم عن نعيمها وزخارفها كما يدود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة وما ذاك لهوائهم على ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى سائلاً موفراً لم تكلمه الدنيا ، واعلم أنه لا يترس لى العباد بزينة هى أبلغ فيما عندي من الزهد فى الدنيا فإنها زينة المتقين عالم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع وسياهم فى وجوههم من أثر السجود أولئك أوليائى حقاً حقاً ، فإذا لقينهم فاخفض لهم جناحك وذلل قلبك ولسانك واعلم أنه من أهان لى ولياً أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة وبأدائى وعرض لى نفسه ودعائى إليها وأنا أسرع شئ إلى نصرته أوليائى ، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ، أم يظن الذى يعادىنى أن يعجزنى أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى . وكيف وأنا اللاتر لهم فى الدنيا والآخرة لا أكل نصرتهم إلى غيرى رواء ابن أبى حاتم (قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم ، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك وأجبرهم وأشدهم كفراً وأكثرهم جزواً وأعمرهم ملكاً وأطعاهم وأبلغهم تمرداً بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره ، هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم فى حجر فرعون على فراشه ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم هذه المدة بكمالها ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ولهذا قال (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى) أى إن لم تكن أنت عونى ونصيرى وعضدى وظهيرى وإلا فلا طاقة لى بذلك (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى) وذلك لما كان أصابه من اللغث حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه كما سأتى بيانه وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث

يزول العى ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ولهذا بقيت بقية قال الله تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال (أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) أى يفصح بالكلام ، وقال الحسن البصرى (واحمل عقدة من لسانى) قال حل عقدة واحدة ولو سأل أكثر من ذلك أعطيت ، وقال ابن عباس شكى موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتل وعقدة لسانه فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رءداً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه فكانه سؤله فحل عقدة من لسانه ، وقال ابن أبى حاتم ذكر عن عمر بن عثمان حدثنا بقية عن أرطاة بن اللندر حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب عنه قال أتاه ذو قرابة له فقال له ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك ولست تعرب فى قراءتك فقال القرطى يا ابن أخى أأنت أفهمك إذا حدثتك . قال نعم قال فان موسى عليه السلام إنما سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه ولم يزد عليها هذا لفظه . وقوله (واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى) وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام فى أمر خارجى عنه وهو مساعدة أخيه هرون له . قال الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال نبي هرون ساعدني حين نبي موسى عليهما السلام وقال ابن أبى حاتم ذكر عن ابن نمير حدثنا أبو أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها خرجت فما كانت تعتمر فنزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه ؟ قالوا لا ندرى . قال أنا والله أدرى ؟ قالت فقلت فى نفسى فى حلفه لا يستثنى إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه . قال موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت صدق والله . قلت ومن هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى عليه السلام (وكان عند الله وجيهاً) وقوله (اشد به أذى) قال مجاهد ظهري (وأشركه فى أمرى) أى فى مشاورتى (كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) قال مجاهد لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً ، وقوله (إنك كنت نبيا بصيرا) أى فى اصطفاك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون فلك الحمد على ذلك

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى * وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ * وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبَابًا مَنًى وَلِتَصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ * فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ * وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام فيما سأل من ربه عز وجل وتذكيره بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملكه أن يقتلوه لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان فاتخذت له تابوتا فسمته ترضعه ثم تضعه فيه وترسله فى البحر وهو النيل وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربط الحبل فانقلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها فى قوله (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها) فذهب به البحر إلى دار فرعون (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) أى قدرا مقدورا من الله حيث كانوا يقتلون الغلمان من بنى إسرائيل حذرا من وجود موسى فحكم الله وله السلطان العظيم والقدرة التامة أن لا يربى إلا على فراش فرعون ويفذى بطعامه وشرابه مع محبة وزوجته له ولهذا قال تعالى (يأخذه عدو لى وعدو له * وألقيت عليك محبة منى) أى عند عدوك جعلته يحبك قال سلمة بن كهيل (وألقيت عليك محبة منى) قال حبيبك إلى عبادى (ولتصنع على عيني) قال أبو عمران الجوني تربى بعين الله وقال قتادة تغذى على عيني وقال معمر بن المثنى (ولتصنع على عيني) بحيث أرى ، وقال عبد الرحمن بن زيد

ابن أسلم يعنى أجمله فى بيت الملك ينعم ويترف وغذاؤه عندهم غذاء الملك فذلك الصنعة . وقوله (إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها) وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبأها قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) فجاءت أخته وقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) تعنى هل أدلكم على من يرضعكم بالأجرة فذهبت به وهم معها إلى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً واستأجروها على إرضاعه فتألم بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء فى الحديث « مثل الصانع الذى يحتسب فى صنعة الخبز كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » وقال تعالى ههنا (فرجعناك إلى أمك كي تقر عنها ولا تحزن) أى عليك (وقتلت نفساً) يعنى القبطى (فنجيناك من الغم) وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله فقر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) . وقوله (وقتناك فتونا) قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه قوله (وقتناك فتونا) (حديث الفتون) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا أصبغ بن زيد حدثنا القاسم بن أبى أيوب أخبرنى سعيد بن جبير قال سأل عبيد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام (وقتناك فتونا) فسأله عن الفتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فان لها حديثاً طويلاً فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون فقال تذكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أبناء وملوكاً فقال بعضهم إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام فقال فرعون كيف نرون فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكر إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا ليوشكن أن تقبضوا بنى إسرائيل فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى يكفونكم فاقبلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فانهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فخافوا مكائدهم إياكم ولم يفعلوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى بهروان فى العام الذى لا يدع فيه الغلمان فولدته علانية آمنة فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع فى قلبها الهم والحزن وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو فى بطن أمه مما يراد به فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من الرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها ابنها أتاه الشيطان فقالت فى نفسها ما فعلت بابنى لو ذبح عندى فواريته وكففته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه فاتى الماء به حتى أوفى به عند فريضة مستقى جوارى امرأة فرعون فلما رأيته أخذته فأردن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن إن فى هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة نملك بما وجدنا فيه فحملته كهيئته لم يخرج منه شيئاً حتى دفعه إليها فلما فتحته رأته فيه غلاماً فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الدباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت لهم أقروه فان هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه فان وهبه لى كنتم قد أحسستم وأجملتم وإن أمر بذبحه لم المكم فأتت فرعون فقالت قرّة عين لى ولك فقال فرعون يكون لك فأما لى فلا حاجة لى فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك » فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها لأن تختار له ظئراً فجعل كلأخذته امرأة منهم لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق وجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والهاف قالت لأخته قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرأ أحنى ابنى أم قد

أكلته الدواب ونسيت ما كان الله وعدها فيه فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب أن يسمو بصرة الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به فقالت من الفرحة حين أعيانهم الطؤرات أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا ما يدريك ما نصحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا في ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير فقالت نصحهم له وشفقتهم عليه رغبته في صهر الملك ورجاء منفعة الملك فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر فجاءت أمه فلما وضعتها في حجرها نزا إلى نديها فمضت حتى امتلأ جنبها ريا وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا فأرسلت إليها فأتت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت امكثي ترضعي ابني هذا فإني لم أحب شيئا حبه قط قالت أم موسى لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع فان طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آلوه خيرا فإني غير تاركة بيتي وولدي ، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه لما قد قضى فيه فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى أزيريني ابني فوعدها يوما تزيرها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لحزانها وظورها وقهارمتها لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك وأنا باعثة أمينا يحصى ما يصنع كل إنسان منكم فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون فلما دخل عليها بجلته وأكرمه وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه ثم قالت لآتين به فرعون فلينحله وليكرمه فلما دخلت به عليه جعله في حجره فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض فقال الغواة من أعداء الله لفرعون ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعطوك ويصرعك فأرسل إلى التباحين ليذبحوه وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به . وأريد به فتونا فجاءت امرأة فرعون فقالت ما بالك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال ألا ترى أنه يزعم أنه يصرعني ويعاونني فقالت اجعل بيني وبينك امرأ يعرف الحق به اثت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه فان بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ففكرت إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فارتفعها منه مخافة أن يحرقا يده فقالت المرأة ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به وكان الله بالغا فيه أمره ، فلما بلغ أشده وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع فبينما موسى عليه السلام يعيش في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلي فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعونى فغضب موسى غضبا شديدا لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره فوكز موسى الفرعونى فقتله وليس يراها أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي فقال موسى حين قتل الرجل هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ثم قال (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار فأتى فرعون فقبله إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم فقال ابغوني قتله ومن يشهد عليه فان الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا نبت فاطلموا إلى علم ذلك أخذ لكم بحكمكم فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبنا إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعونى فصادف موسى قد ندب على ما كان منه وكره الذي رأى فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعونى فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوى مبين فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعونى فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوى مبين أن يكون إياه أراد ولم يكن أراد وإنما أراد الفرعونى فخاف الإسرائيلي وقال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتاركا وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع

من الإسرائيليين من الخبر حين يقول ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هيتهم يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم فجاء رجل من شيعه موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره وذلك من الفتون يا ابن جبير ، فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل فانه قال (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل * ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان) يعنى بذلك حابستين غنمهما فقال لهما ما خطبكما معاليتين لاتسقيان مع الناس ؟ قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم وإنما نسقى من فضول حياضهم فسقى لهما فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال (ربى إني لما أنزلت إلى من خير فقير) واستنكر أبوها سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطاناً فقال إن لكما اليوم لشأناً فأخبرته بما صنع موسى فأمر إحداها أن تدعوه فأتت موسى فدعته فلما كلمه قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته فقالت إحداها (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) فاحتملته الغيرة على أن قال لهما ما يدريك ما نوته وما أمانته فقالت أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه وأما الأمانة فانه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ثم قال لى امشى خلفى وانعنى لى الطريق فلم يفعل هذا إلا وهو أمين فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت فقال له هل لك أن أنسحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجيج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة وكانت ستان عدة منه فقصى الله عنه عدته فأتىها عشرا ، قال سعيد وهو ابن جبير : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال هل تدري أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا وأنا بومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله وجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئا ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التى كان وعده فانه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك فقال الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت أجل وأولى ، فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك فى القرآن فشكا إلى الله تعالى ما يغذر من آل فرعون فى القتل وعقدة لسانه فانه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام وسأل ربه أن يعينه بأخيه هرون يكون له ردها ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فأتاه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه وأوحى الله إلى هرون وأمره أن يلقاه ، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هرون عليه السلام ، فانطلقا جميعا إلى فرعون فأقاما على بابه حين لا يؤذن لهما ثم أذن لهما بعد حجاب شديد فقالا (إنا رسول ربك) قال فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن ؟ قال فما تريدان ؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت قال أريد أن تؤمن بالله وترسل معنابى إسرائيل ؟ فأبى عليه وقال ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة اليه خافها فارتجف عن سريره واستنثا بموسى أن يكفها عنه ففعل ثم أخرج يده من بجيبه فرآها بيضاء من غير سوء يعنى من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول ، فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما وينذهبا بطريقتك المثلّى يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب وقالوا له اجمع لهما السحرة فانهم بأرشدك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما فأرسل إلى المدائن فحضر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا بما يعمل هذا الساحر ؟ قالوا يعمل بالحيات ، قالوا فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل فما أجربنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم أتم أقاربى وخاصتى وأنا صانع اليكم كل شئ أحببتهم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحضر الناس ضحى . قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا

في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض انطلقوا فلنحضر هذا الأمر (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ؟ (قالوا يا موسى إما أن تلتقي وإما أن نكون نحن الملقين * قال بل ألقوا جبالهم وعصيم وقالو بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فافرة فاها فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا إلى الثعبان تدخل فيه حتى ما أبت عصا ولا حبلا إلا ابتعلته فلما عرف السحرة ذلك قالوا لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنا بالله وبما جاء به موسى من عند الله وتوب إلى الله بما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الوطن وأشياعه وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون (فقلبوا هالكوا وقلبوا صاغرين) وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا مضت أخلف مواعده وقال هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويواتقه على أن يرسل معه بني إسرائيل فإذا كف ذلك عنه أخلف مواعده ونكث عهده حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانقلب اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه ثم التقي على من بقي بعد من فرعون وأشياعه ، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى إنا لمدركون افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال وعدنى ربى إذا أتيت البحر اشترق اثنتي عشرة فرقة حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه التقي عليهم البحر كما أمر فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه فدعا ربه فأخرجه له بيده حتى استيقنوا بهلاكه ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم (قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه) الآية . قد رأيتم من العبر وسمعت ما يكفكم ومضى فأنزلهم موسى منزلا وقال أطيعوا هارون فاني قد استخلفته عليكم فاني ذاهب إلى ربى وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فضعه فقال له ربه حين آتاه لم أفطرت وهو أعلم بالذى كان ، قال يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفى طيب الريح قال أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ارجع فصم عشرين ثم ائتني ففعل موسى عليه السلام ما أمر به ، فلما رأى قومه أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك وكان هارون قد خطبهم وقال إنكم قد خرستم من مصر ولقوم فرعون عندكم عواري وودائع ولكم فهم مثل ذلك فاني أرى أنكم تحسبون ما لكم عندهم ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكية لأنفسنا فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه فى ذلك الحفير ثم أوقد عليه النار فأحرقته فقال لا يكون لنا ولا لهم وكان السامري من قوم يعبدون البقر جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا قفضى له أن رأى أثر اقْبَضَ منه قبضة فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام يا سامري ألا تلتقي ما فى يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك فقال هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بك البحر ولا ألقها لشيء ، إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال أريد أن يكون عجلا فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح وله خوار ، قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط

إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه وكان ذلك الصوت من ذلك ففرق بنو إسرائيل فرقا فقالت فرقة
ياسامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق ، فقالت فرقة لانكذب بهذا حتى يرجع إلينا
موسى فان كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا وإن لم يكن ربنا فانا نتبع قول موسى ، وقالت فرقة هذا
من عمل الشيطان وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل
وأعلنوا التكذيب به ، فقال لهم هارون (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري) قالوا فما بال
موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ، هذه أربعون يوما قد مضت ، وقال سفهاؤهم أخطأ ربهم فهو يطلبه يتبعه ، فلما كلم الله
موسى وقال له ما قال أخبره بما لقي قومه من بعده (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) فقال لهم ما سمعتم في القرآن
وأخذ برأس أخيه يجره إليه وألقى الألواح من الغضب ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف إلى السامري
فقال له ما حملك على ما صنعت قال قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم (فنبذتها وكذلك سولت
لى نفسى ، قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى الهلك الذى ظلت عليه عاكفا
لنحرقنه ثم لننفسنه في اليم نفساً) ، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنه واغبط الذين كان
رأيهم فيه مثل رأى هارون فقالوا لجماعتهم يا موسى سل لناربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا فاختار
موسى قومه سبعين رجلا لذلك لا يآلو الخير خيار بنو إسرائيل ومن لم يشرك في العجل فانطلق بهم يسأل لهم
التوبة فرجفت بهم الأرض فاستجيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال (رب لو شئت أهلكهم
من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا) وفهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل
وإيمانه به فلذلك رجفت بهم الأرض فقال (ورحمى وسعت كل شئ فسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم
بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يحدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) فقال يا رب
سألتك التوبة لقومى فقلت إن رحمى كتبها لقوم غير قومى هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة
فقال له إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن
وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل
والمقتول ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب فأمرهم
بالذى أمرهم به أن يبايعهم من الوظائف فتقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرؤا بها فتنق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ودنا منهم
حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيامهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء
الجبل مخافة أن يقع عليهم ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكرو
وذكروا من عمارهم أمراً عجيباً من عظمها فقالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ماداموا فيها فان
يخرجوا منها فانا ندخلون قال رجلان من الذين يخافون قيل ليزيد هكذا قرأت قال نعم من الجبارين آمنا بموسى وخرجا
إليه قالوا نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فانهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم فادخلوا عليهم
الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون ويقول أناس إنهم من قوم موسى فقال الذين يخافون بنو إسرائيل (قالوا يا موسى
إنالن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسامهم فاسقين
ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسامهم كما ساءهم موسى
فاسقين وحرما عليهم أربعين سنة يتدبون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار وظلل عليهم الغمام
في التيه وأنزل عليهم الن والسلوى وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا وأمر موسى
فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا في كل ناحية ثلاثة أعين وأعلم كل سبط عينتهم التي يشربون منها فلا يرتحلون
من مكان إلا وجدوا ذلك بالحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس : رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى
ﷺ وصدق ذلك عندى أن مهاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث فأذكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى

على موسى أمر القتل الذى قتل فقال كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك فغضب ابن عباس فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى فقال له يا أبا إسحاق هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى ؟ قال إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره هكذا رواه النسائى فى السنن الكبرى وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما مما أبيض نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار . أو غيره والله أعلم وممعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً ، وقوله عز وجل

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْؤُوسَى * وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * أَذْهَبَ أَنْتَ وَأُخُوكَ بَنَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام إنه لبث مقيم فى أهل مدين فآرا من فرعون وملئه يرمى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد والأمر كله لله تبارك وتعالى وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ولهذا قال (ثم جئت على قدر يا موسى) قال مجاهد أى على موعد ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (ثم جئت على قدر يا موسى) قال على قدر الرسالة والنبوة . وقوله (واصطنعتك لنفسى) أى اصطفتك واجتبيتك رسولا لنفسى أى كما أريد وأشاء ، وقال البخارى عند تفسيرها حدثنا الصلت بن محمد حدثنا مهدي بن ميمون حدثنا محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « التقى آدم وموسى فقال موسى أنت الذى أشقى الناس وأخرجتهم من الجنة فقال آدم وأنت الذى اصطفاك الله برسائله واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة قال نعم قال فوجدته مكتوبا على قلب أن يخلقنى قال نعم فحج آدم موسى » أخرجه وقوله (اذهب أنت وأخوك بآياتى) أى بحججى وبراهينى ومعجزاتى (ولا تنيا فى ذكرى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لا تبطلنا ، وقال مجاهد عن ابن عباس لا تضعنا والمراد أنهما لا يفترا فى ذكر الله بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه وقوة لهما وسلطاناً كسراً له كما جاء فى الحديث « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه » وقوله (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) أى تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه (فقولا له قولاً ليناً لئلا يتذكر أو يخشى) هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال يزيد الرقاشى عند قوله (فقولا له قولاً ليناً)

يامن يتحجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولا ويناديه ؟

وقال وهب بن منبه قولاً له إني إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة وعن عكرمة فى قوله (فقولا له قولاً ليناً) قال لا إله إلا الله ، وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى (فقولا له قولاً ليناً) أعذرا إليه قولاً له إن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً وقال بقیه عن على بن هارون عن رجل عن الضحاک بن مزاحم عن الزال بن سبرة عن على فى قوله (فقولا له قولاً ليناً) قال كنه وكذا روى عن سفيان الثورى كنه بأبى مرة والحاصل من أقوالهم أن دعوتهم له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وقوله (لعلله يتذكر أو يخشى) أى لعلله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى أى يوجد طاعة من خشية ربه كما قال تعالى (لمن أراد أن يذكر أو يخشى) فالتذكر الرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة ، وقال الحسن البصرى (لعلله يتذكر أو يخشى) يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه ، وههنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ويروى لأمية بن

أبي الصلت فيما ذكره ابن إسحاق .

وأنت الذي من فضل من ورحة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان باغيا
فقلوا له هل أنت سويت هذه	بلاوتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آ أنت رفعت هذه	بلا عمدا رفق إذن بك بانيا
وقولا له آ أنت سويت وسطها	منيرا إذا ماجنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة	فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى	فيصبح منه البقل يهتز رايا
ويخرج منه حبه في رءوسه	ففي ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله عز وجل :

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَقْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَتَبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)

يقول تعالى إخبارا عن موسى وهرون عليهما السلام أنهما قالا مستجيبين بالله تعالى شاكرين إليه (إننا نخاف أن يقرط علينا أو أن يطغى) يعنيان أن يبدد إليهما بعقوبة أو يعتدى عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك قال عبدا الرحمن ابن زيد بن أسلم أن يقرط يعجل وقال مجاهد يبسط علينا وقال الشحاك عن ابن عباس أو أن يطغى : يعتدى (قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) أى لا تخافا منه فإني معكما أسمع كلامكما وكلامه وأرى مكانكما ومكانه لا يخفى على من أمركم شيء واعلموا أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بأذنى وبعد أمرى وأنا معكما بخفي وظهي ونصرى وتأنيدي وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال لما بعث الله عز وجل موسى إلى فرعون فقال رب أى شيء أقول قال قل هياشرا هيا قال الأعمش فسر ذلك أنا الحى قبل كل شيء والحى بعد كل شيء إسناده جيد وشيء غريب (فأتياه فقولا إنا رسولا بك) قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس أنه قال مكنا على بابهما حين لا يؤذن لهما حتى أذن لهما بعد حجاب شديد وذكر محمد بن إسحاق بن يسار أن موسى وأخاه هرون خرجا فوقفا باب فرعون يلتمسان الأذن عليه وهما يقولان : إنا رسولا رب العالمين فأذنوا بنا هذا الرجل فمكنا فيما بلغنى سنتين يغدوان ويروحان لا يعلم بهما ولا يجترىء أحد على أن يخبره بشأنهما حتى دخل عليه بطال له يلاعبه ويضحكه فقال له أيها الملك إن على بابك رجلا يقول قولنا عجبا يزعم أن له إلها غيرك أرسله إليك . قال بياي ؟ قال نعم قال أدخلوه فدخل ومعه أخوه هرون وفي يده عصاه فلما وقف على فرعون قال إني رسول رب العالمين فعرفه فرعون ، وذكر السدى أنه لما قدم بلاد مصر ضاف أمه وأخاه وهما لا يعرفانه وكان طعامهما يلتذ الطفيل وهو اللفت ثم عرفاه وسلموا عليه فقال له موسى باهرون إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فادعوه إلى الله وأمرك أن تعاونى قال افعل ما أمرك ربك فذهبا وكان ذلك ليلا فضرب موسى باب القصر بعصاه فسمع فرعون فغضب وقال من يجترىء على هذا الصنيع الشديد فأخبره السدنة والبوابون بأن ههنا رجلا مجنوننا يقول إنه رسول الله فقال على به فلما وقفا بين يديه قالوا وقال لهما ما ذكر الله في كتابه وقوله (قد جئناك بآية من ربك) أى بدلالة ومعجزة من ربك (والسلام على من اتبع الهدى) أى والسلام عليك إن اتبعت الهدى ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابا كان أوله « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم

الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يوثك الله أجرك مرتين » وكذلك لما كتب مسيلة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا صورته من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد فإني قد أشركتك في الأمر فلك المذر ولى الوبر ولكن قريش قوم يعتدون فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم « من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ولهذا قال موسى وهرون عليهما السلام لفرعون (والسلام على من اتبع الهدى إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى) أى قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته كما قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى) وقال تعالى (فأندرتكم ناراً تلتظى * لا يصلها إلا الأشتى * الذى كذب وتولى) وقال تعالى (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) أى كذب بقلبه وتولى بفعله

﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عَلِمْنَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال لموسى منكرا وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربهم ومليكه قال (فمن ربكما يا موسى) أى الذى بعثك وأرسلك من هو فإني لأعرفه وما علمت لكم من إله غيرى (قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) قال طي بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول خلق لكل شيء زوجة وقال الضحاك عن ابن عباس جعل الإنسان إنسانا والحمار حمارا والشاة شاة وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد أعطى كل شيء صورته وقال ابن أبى نجيع عن مجاهد: سوى خلق كل دابة وقال سعيد بن جبير فى قوله (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) قال أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ولا للدابة من خلق الكلب ولا للكلب من خلق الشاة وأعطى كل شيء ما ينبغى له من النكاح وهياكل شيء على ذلك ليس شيء منها يشبه شيئا من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح ، وقال بعض المفسرين أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كقوله تعالى (الذى قدر فهدى) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أى كتب الأعمال والآجال والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجعل الخليفة على ما أراد (قال فما بال القرون الأولى) أصح الأقوال فى معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتاج بالقرون الأولى أى الذين لم يعبدوا الله أى فما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره فقال له موسى فى جواب ذلك هم وإن لم يعبدوه فإن عمالهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزئهم بعملهم فى كتاب الله وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمار (لا يضل ربى ولا ينسى) أى لا يشذ عنه شيء ولا يفوته صغير ولا كبير ولا ينسى شيئا يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئا تبارك وتعالى وتقدس وتنزهه فان علم الخلق يعتريه نقصان أحدهما عدم الاحاطة بالشيء والآخر نسيانه بعد علمه فتره نفسه عن ذلك

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَوَسَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَ كُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾

هذا من تمام كلام موسى فيها وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه فقال (الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)

ثم اعترض الكلام بين ذلك ثم قال (الذى جعل لكم الأرض مهادا) وفي قراءة بعضهم مهدا أى قرارا تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها (وسلك لكم فيها سبلا) أى جعل لكم طرقا تمشون فى مناكبها كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون) (وأنزله من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) أى من أنواع النباتات من زروع وثمار ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع (كلوا وارعوا أنعامكم) أى شئ لطعامكم وفاكهتكم وشئ لأنعامكم لأقواتها خضرا وبيضا (إن فى ذلك لآيات) أى لدلالات وحججا وبراهين (لأولى النهى) أى لدوى العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) أى من الأرض مبدؤكم فان أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها نعيدكم أى وإليها تصيرون إذا متم وبلغتم ومنها نخرجكم تارة أخرى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وهذه الآية كقوله تعالى (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) وفى الحديث الذى فى السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر وقال منها خلقناكم ثم أخذ أخرى وقال وفيها نعيدكم ثم أخرى وقال ومنها نخرجكم تارة أخرى وقوله (ولقد أرأيناكم آياتنا كلها فكذب وأبى) يعنى فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات وعان ذلك وأبصره فكذب بها وأبأها كفرا وعنادا وبغيا كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية

(قَالَ أَجِئْتُنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَمَّا تَيَسَّنَا بِسِحْرِ مُشْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى)

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهى إلقاء عصاه فصارت ثعبانا عظيما ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس فيتبعونك وتكثرنا بهم ولا يتم هذا معك فان عندنا سحرا مثل سحرك فلا يفرنك ما أنت فيه (فاجعل بيننا وبينك موعدا) أى يوما نجتمع نحن وأنت فيه فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك (قال) لهم موسى (موعدكم يوم الزينة) وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الأنبياء وبطلان معارضة السحر لحوارق العادات النبوية ولهذا قال (وأن يخشع الناس) أى جميعهم (ضحى) أى ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ولهذا لم يقل ليلا ولكن نهارا ضحى قال ابن عباس وكان يوم الزينة يوم عاشوراء وقال السدى وقتادة وابن زيد كان يوم عيدهم وقال سعيد بن جبير كان يوم سوقهم ولا منافاة قلت وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده كما ثبت فى الصحيح وقال وهب ابن منبه قال فرعون ياموسى اجعل بيننا وبينك أجلا ننظر فيه قال موسى لم أؤمر بهذا إنما أمرت بمناجرتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلا وقل له أن يجعل هو قال فرعون اجعله إلى أربعين يوما ففعل وقال مجاهد وقتادة مكانا سوى منصفاً وقال السدى عدلا وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مكانا سوى مستويين الناس وما فيه لا يكون صوت ولا شئ يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوحين يرى

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَأْتِيَكُمْ لَا تَقْتُلُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى * فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنَّ هَٰذَا نَسْجَرٌ يَأْتِيكُمُ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمَا صَفَاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى)

يقول تعالى مخبرا عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين تولى أى شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان وقد كان السحر فيهم كثيرا نافقا جدا كما قال تعالى (وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم) ثم أتى أى اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة وجلس فرعون على سرير مملكته واصطف له أ كابر دولته ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ومعه أخوه هرون ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفًا وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم ويتمنون عليه وهو يعدهم ويعذبهم يقولون (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) (قال لهم ويلكم لا تفترؤا على الله كذبا) أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وإنها مخلوقة وليست مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله (فيسحبتكم بعذاب) أى يهلككم بعقوبة هلاك لا بقية له (وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم) قيل معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي ، وقائل يقول بل هو ساحر وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (وأسرؤا النجوى) أى تناجوا فيما بينهم (قالوا إن هذان لساحران) وهذه لغة لبعض العرب جاءت هذه القراءة على إعرابها ، ومنهم من قرأ (إن هذين لساحران) وهذه اللغة المشهورة وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس بهذا موضعه . والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم : تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهرون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم . وقوله (ويذهب بطريقتكم المثلث) أى ويستبدل بهذه الطريقة وهى السحر فانهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها يقولون إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بهادونكم ، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله (ويذهب بطريقتكم المثلث) يعنى ملككم الذى هم فيه والعيش . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نعم بن حماد حدثنا هشيم عن عبد الرحمن بن إسحاق سمع الشعبي يحدث عن على في قوله (ويذهب بطريقتكم المثلث) قال يصرفا وجوه الناس إليهما ، وقال مجاهد (ويذهب بطريقتكم المثلث) قال أولوا الشرف والعقل والأسنان . وقال أبو صالح بطريقتكم المثلث أشرفكم وسروا بكم ، وقال قتادة وطريقتهم المثلث يومئذ بنو إسرائيل وكانوا أكثر القوم عددا وأموالا فقال عدوا لله يريدان أن يذهبا لهما أنفسهما وقال عبد الرحمن بن زيد بطريقتكم المثلث بالذى أنتم عليه ، وقوله (فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا) أى اجتمعوا كلكم صفا واحدا وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه (وقد أفلح اليوم من استعلى) أى منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل وأما هو فينال الرياسة العظيمة

(قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ)

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى (إما أن تلقى) أى أنت أولا (وإما أن نكون أول من ألقى) أى أنتم أولا لئرى ماذا تصنعون من السحر وليظهر للناس جلية أمرهم (فإذا حبالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا (قالوا بعزة فرعون إننا لنحن الغالبون) وقال تعالى (سجروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال ههنا (فإذا حبالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة وكانوا جما غفيرا وجمعا كثيرا فألقى كل منهم عصا وجبلا حتى صار الوادى ملاء حيات يركب بعضها بعضا ، وقوله (فأوجس في نفسه خيفة موسى) أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ويفتروا بهم قبل أن يلقى ما في يمينه فأوحى الله تعالى اليه في الساعة الراهنة أن ألقى ما في يمينك يعنى عصاك فإذا هوى تلقفها ماصنعوا وذلك أنها صارت تنينا عظيمها هائلا ذاقوا من وعنق ورأس وأضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعتها والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهرة نهرا ضحوة ، فقامت المعجزة وانفج البرهان ووقع الحق وبطل السحر ولهذا قال تعالى (إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حذيثنا محمد بن موسى الشيباني حدثنا حماد بن خالد حدثنا ابن معاذ - أحسبه الصائغ - عن الحسن بن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أخذتم - يعنى الساحر - فاقتلوه - ثم قرأ - (ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال لا يؤمن حيث وجد » وقد روى أصله الترمذى موقوفا ومرفوعا . فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مرية فيه ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشيء كن فيكون فعند ذلك وقعوا سجدا لله وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ولهذا قال ابن عباس وعبيد بن عمير : كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة . قال محمد بن كعب كانوا ثمانين ألفا ، وقال القاسم بن أبى بزة كانوا سبعين ألفا وقال السدى بضعة وثلاثين ألفا ، وقال الثورى عن عبد العزيز ابن رفيع عن أبى تمامة كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفا ، وقال محمد بن إسحق كانوا خمسة عشر ألفا ، وقال كعب الأحماس كانوا اثني عشر ألفا ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن على بن حمزة حدثنا على بن الحسين ابن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس كانت السحرة سبعين رجلا أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء قال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا المسيب بن واضح بمكة حدثنا ابن المبارك قال : قال الأوزاعى لما خر السحرة سجدا رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها ، قال وذكر عن سعيد بن سلام حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سلمان عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قوله (وألقى السحرة سجدا) قال رأوا منازلهم تبين لهم وهم فى سجودهم وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بزة

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَيْنَكُمُ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَمَّا مَنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَكَ خَطِيئَتَا مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى مارأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب شرع فى المسكبرة والبهت وعدل إلى استعمال جلاله وسلطانه فى السحرة فتهدهم وتوعدهم وقال (آمنتم له) أى صدقتموه (قبل أن آذن لكم) أى وما أمرتكم بذلك وافتم على ذلك ، وقال قولا يعلم هو والسحرة والحلق كلهم أنه بهت وكذب (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) أى أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى وافتمم أنتم وإياه على وعلى ريعتى لتظهروه كما قال تعالى فى الآية الأخرى (إن هذا المكر مكروهم فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون) ثم أخذ يتهدهم فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل) أى لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم قال ابن عباس فكان

أول من فعل ذلك رواء ابن أبي حاتم . وقوله (ولتعلمن أننا أشد عذابا وأبقى) أى أتم تقولون إني وقومى على ضلالة وأتم معوسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل و(قالوا لن نؤثر لك على ما جاءنا من البينة) أى لن نختار لك على ما حصل لنا من الهدى واليقين (والذى فطرنا) يحتمل أن يكون قسما ويحتمل أن يكون معطوفا على البينات ، يعنون لا نختار لك على فطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم المبتدى خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت (فاقض ما أنت قاض) أى فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك (إنما تقضى هذه الحياة الدنيا) أى إنما لك تسلط فى هذه الدار وهى دار الزوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار (إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) أى ما كان منا من الآثام خصوصا ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد حدثنا سفيان ابن عيينة عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (وما أكرهتنا عليه من السحر) قال أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل فأمر أن يعلموا السحر بالفرما وقال عاموهم تعلما لا يعلمه أحد فى الأرض ، قال ابن عباس فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا (آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر) وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقوله (والله خير وأبقى) أى خير لنا منك (وأبقى) أى أدام ثوابا بما كنت وعدتنا ومنيتنا وهو رواية عن ابن إسحاق رحمه الله . وقال محمد بن كعب القرظى (والله خير) أى لنا منك إن أطيع (وأبقى) أى منك عذابا إن عصى ، وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضا . والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ * وَمَنْ يَأْتِهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدى ويرغبونه فى ثوابه الأبدى الخلد فقالوا (إنه من يأت ربه مجرما) أى يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم (فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) كقوله (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) وقال (ويتجنبها الأشقي الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) وقال تعالى (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كثرن) وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا إسماعيل أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدرى قال قال رسول الله ﷺ « أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فجما أذن فى الشفاعة جىء بهم ضبائر ضبائر فثبوا على أنهار الجنة فيقال يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل » فقال رجل من القوم كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن الفضل كلاهما عن أبي سلمة سعيد بن يزيد به وقال ابن أبي حاتم ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال حدثنا أبي حدثنا حبان سمعت سليمان التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه الآية (إنه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) قال النبي ﷺ « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهلها فان النار تمسهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فتجعل الضبائر فيؤتى بهم نهرا يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما ينبت العشب فى حميل السيل » وقوله تعالى (ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات) أى ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمنا القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله (فأولئك لهم الدرجات العلى) أى الجنة ذات الدرجات العالىات والغرف الآمنات والمساكن الطيبات . قال الإمام أحمد حدثنا عفان أنبأنا همام حدثنا زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن عبادة بن الصامت عن

النبي ﷺ قال « الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنها تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها فإذا سألت الله فاسأله الفردوس » ورواه الترمذى من حديث يزيد بن هارون عن همام به ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى أخبرنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن أبيه قال كان يقال الجنة مائة درجة في كل درجة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فهن الياقوت والحلى في كل درجة أمير يرون له الفضل والسودد ، وفي الصحيحين « إن أهل عليين يرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم - قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء قال - بلى والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وفي السنن وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعموا وقوله (جنات عدن) أى إقامة وهى بدل من الدرجات العلى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كثرين أبداً (وذلك جزاء من تزكى) أى طهر نفسه من الدنس والحُبث والشرك وعبد الله وحده لاشريك له واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب

﴿ وَلَمَّا أُوحِيَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۚ فَاتَّبِعْهُمْ فَفَعَلْنَا مَا نَشَاءُ مِنْ الْأَلَمِ مَا غَشِيَهُمْ ۚ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام حين رأى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل أن يسرى بهم في الليل ويذهب بهم من قبضة فرعون وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لاداع ولا محجب فغضب فرعون غضبا شديدا وأرسل في المدائن حاشرين أى من يجمعون له الجند من بلدانه ورسايقه يقول إن هؤلاء لشردمة قليلون وإنهم لنا لغاظون ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين أى عند طلوع الشمس (فلما تراءى الجمعان) أى نظر كل من الفريقين إلى الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معى ربي سيهدين) ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم وفرعون وراءهم فعند ذلك أوحى الله إليه (أن اضرب لهم طريقا في البحر يبسا) فضرب البحر بعصاه وقال انقلب على ياذن الله فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم أى الجبل العظيم فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض فلهمذا قال (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا) أى من فرعون (ولا تخشى) يعنى من البحر أن يفرق قومك ثم قال تعالى (فاتبعهم فرعون بمجنوده فغشيهم من اليم) أى البحر (ما غشيهم) أى الذى هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى (والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى) وقال الشاعر :

* أنا أبو النجم وشعرى شعرى * أى الذى يعرف وهو مشهور . وكما تقدم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد كذلك يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار ويشس الورد المورود

﴿ يَذُنِّيٰٓ إِسْرَٔٓءِيلَ قَدْ أَتَيْنٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰٓةَ ۚ وَٱلسَّلَٰوَىٰ ۚ كُلُوْا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَن يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوَىٰ ۚ وَإِنِّي لَأَنفَارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحَٰتٍ ۖ أُوَفِّيْهِمْ أَجْرَهُ ۖ ﴾

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام ومنته الجسم حيث أنجاهم من عدوهم فرعون وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد كما قال (وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون) وقال البخارى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا هذا اليوم الذى أظفر الله فيه

موسى على فرعون فقال « نحن أولى بموسى فصوموه » رواه مسلم أيضا في صحيحه ، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذى كله الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية وأعطاه التوراة هنالك وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريبا ، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفًا من الله ورحمة بهم وإحسانا إليهم ولهذا قال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفؤا فيه فيحل عليكم غضبي) أى كلوا من هذا الرزق الذى رزقكم ولا تطفؤا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة وتخالفوا ما أمرتكم به (فيحل عليكم غضبي) أى أغضب عليكم (ومن يحمل عليه غضبي فقد هوى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى فقد شقى وقال شفى بن مانع إن في جهنم قصرا يرمى الكافر من أعلاه فيهوى في جهنم أربعين خريفا قبل أن يبلغ الصلصال وذلك قوله (ومن يحمل عليه غضبي فقد هوى) رواه ابن أبى حاتم وقوله (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا) أى كل من تاب إلى تبت عليه من أى ذنب كان حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل ، وقوله تعالى (تاب) أى رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وقوله (وآمن) أى بقلبه (وعمل صالحا) أى بجوارحه ، وقوله (ثم اهتدى) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى ثم لم يشكك ، وقال سعيد بن جبير (ثم اهتدى) أى استقام على السنة والجماعة ، وروى نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف وقال قتادة (ثم اهتدى) أى أزم الإسلام حتى يموت ، وقال سفيان الثوري (ثم اهتدى) أى علم أن لهذائوبا ، وثم ههنا لترتيب الخبر على الخبر كقوله (ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات)

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَبْدِكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمُ غَضَبُ مَنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون (وأنوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون) وواعد ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرا فتمت أربعين ليلة أى يصومها ليلا ونهارا وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك فسارع موسى عليه السلام مبادرا إلى الطور واستخلف على بني إسرائيل أخاه هرون ولهذا قال تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري) أى قادمون ينزلون قريبا من الطور (وعجلت إليك رب لترضى) أى لتزداد عني رضا (قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري) أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية أنه كان اسمه هرون أيضا وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح التضمنة للتوراة كما قال تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين) أى عاقبة الخارجين عن طاعتي الخائفين لأمرى ، وقوله (فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا) أى بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، هو فيما هو فيه

من الاعتناء بأمرهم وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم وفيها شرف لهم وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم ولهذا قال رجع إليهم غضبان أسفا والأسف شدة الغضب وقال مجاهد غضبان أسفا أى جزعا وقال قتادة والسدى أسفا حزينا على ما صنع قومه من بعده (قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) أى أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادى الله (أظال عليكم العهد) أى فى انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم (أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم) أم ههنا بمعنى بل وهى الاضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثانى كأنه يقول بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا أى بنوا إسرائيل فى جواب ما أنبهم موسى وقرعهم (ما أخلفنا موعدك بملكنا) أى عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر ففقدواها أى ألقيناها عنا ، وقد تقدم فى حديث الفتون أن هرون عليه السلام هو الذى كان أمرهم بالقاء الحلى فى حفرة فيها نار وهى فى رواية السدى عن أبى مالك عن ابن عباس إنما أراد هرون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة ويجعل حجرا واحدا حتى إذا رجع موسى عليه السلام رأى فيه ما يشاء ثم جاء ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول وسأل من هرون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوة فدعا له هرون وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له فقال السامرى عند ذلك أسأل الله أن يكون عجلا فكان عجلا له خوار أى صوت استدراجا وإمهالا ومحنة واختبارا ولهذا قال (فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار) وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عباد بن عباد بن السخري حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن هرون مر بالسامرى وهو يبعث العجل فقال له ما تصنع فقال أصنع ما يضر ولا ينفع فقال هرون اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه ومضى هرون وقال السامرى اللهم إنى أسألك أن تخور فخار فكان إذا خارسجدوا له وإذا خار رفعوا رؤوسهم . ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال أعمل ما ينفع ولا يضر وقال السدى كان يخور ويعشى فقالوا أى الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه (هذا إليكم وإله موسى فنسى) أى نسيه ههنا وذهب يتطلبه كذا تقدم فى حديث الفتون عن ابن عباس وبه قال مجاهد وقال سماك عن عكرمة عن ابن عباس فنسى أى نسى أن يذكرهم أن هذا إليكم وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فقالوا (هذا إليكم وإله موسى) قال فكفتموا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا قط يعنى مثله يقول الله (فنسى) أى ترك ما كان عليه من الإسلام يعنى السامرى قال الله تعالى ردا عليهم وتقريرهم وبياناً لنقضهم وسخافة عقولهم فإذهبوا إليه (أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) أى العجل أفلا يرون أنه لا يخبرهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى فى دنياهم ولا فى آخرهم قال ابن عباس رضى الله عنهما لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج منه فيسمع له صوت ، وقد تقدم فى حديث الفتون عن الحسن البصرى أن هذا العجل اسمه بهموت وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجاهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فأنفوها عنهم وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير كما جاء فى الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب يعنى هل يصلى فيه أم لا فقال ابن عمر رضى الله عنهما انظروا إلى أهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى الحسين وهم يسألون عن دم البعوضة ١

﴿وَلَمَّا قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾

يخبر تعالى عما كان من نهى هرون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ، ذوالعرش المجيد الفعال لما يريد (فاتبعوني وأطيعوا أمرى) أى فيما أمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه (قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى) أى لا ترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هرون فى ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه

﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِبَلْحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلاً عند ذلك غضبا وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية وأخذ برأس أخيه يحرقه إليه وقد قدمنا فى سورة الأعراف بسط ذلك وذكرنا هناك حديث « ليس الخبر كالمعاينة » وشرع يلوم أخاه هرون فقال (ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني) أى فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع (أف عصيت أمرى) أى فيما كنت قدمت إليك وهو قوله (اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) قال (يا ابن أم) ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف ولهذا قال (يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى) الآية . هذا اعتذار من هرون عند موسى فى سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم (قال إني خشيت) أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لى لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم (ولم ترقب قولى) أى وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس وكان هرون هائبا مطيعاً له

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّاتِ لِي نَفْسِي * قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

يقول موسى عليه السلام للسامرى ما حملك على ما صنعت وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت قال محمد بن إسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان السامرى رجلاً من أهل باجرما وكان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر فى نفسه وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل وكان اسمه موسى بن ظفر وفى رواية عن ابن عباس أنه كان من كرمان وقال قتادة كان من قرية سامرا (قال بصرت بما لم يبصروا به) أى رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون (فقبطت قبضة من أثر الرسول) أى من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث أخبرنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن السدى عن أبى بن عمارة عن على رضى الله عنه قال إن جبريل عليه السلام لما نزل فصعد بموسى عليه السلام إلى السماء بصر به السامرى من بين الناس فقبط قبضة من أثر الفرس قال وحمل جبريل موسى عليهما السلام خلفه حتى إذا دنا من باب السماء صعد وكتب الله الألواح وهو يسمع صرير الأقلام فى الألواح فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال نزل موسى فأخذ العجل فأحرقه ، غريب ، وقال مجاهد (فقبطت قبضة من أثر الرسول) قال من تحت حافر فرس جبريل ، قال والقبضة ملء الكف والقبضة بأطراف الأصابع ، قال مجاهد نبذ السامرى أى ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل فانسبك

عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه فهو خواره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن يحيى أخبرنا علي بن المديني حدثنا يزيد بن زريع حدثنا عماره حدثنا عكرمة أن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان فقبض قبضة من أثر الرسول فبيست أصابعه على القبضة ، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون فقال لهم السامري إنما أصابكم من أجل هذا الحلي فاجمعوا فجمعوه فأوقدوا عليه فذاب فرآه السامري فألقى في روعه أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت كن فكان فقذفت القبضة وقال كن فكان عجلاً جسداً له خوار فقال (هذا إليهم وإله موسى) ولهذا قال (فنبذتها) أي ألقىتهام مع من ألقى (وكذلك سولت لي نفسي) أي حسنته وأعجبها إذ ذاك (قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) أي كما أخذت ومسست مالم يكن لك أخذه ومسسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس أي لا تماس الناس ولا يمسونك (وإن لك موعداً) أي يوم القيامة (لن تخلفه) أي لا يحيد لك عنه ، وقال قتادة (أن تقول لا مساس) قال عقوبة لهم وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس : وقوله (وإن لك موعداً لن تخلفه) قال الحسن وقتادة وأبو نهيك لن تعيب عنه وقوله (وانظر إلى إلهك) أي معبودك (الذي ظلت عليه عاكفاً) أي أقمت على عبادته يعني العجل (لتجرقنه) قال الضحاك عن ابن عباس والسدي سحله بالمبارد وألقاه على النار ، وقال قتادة استحال العجل من الذهب لحما ودما فجرقه بالنار ثم ألقى رماده في البحر ولهذا قال (ثم لنفسفه في الم نسا) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عماره بن عبد الله وأبي عبد الرحمن عن علي رضي الله عنه قال : إن موسى لما تعجل إلى ربه عمده السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل ثم صوره عجلاً قال فعمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب فقالوا لموسى ما توبتنا ؟ قال يقتل بعضكم بعضاً وهكذا قال السدي وقد تقدم في تفسير سورة البقرة ثم في حديث الفتون بسط ذلك وقوله تعالى (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً) يقول لهم موسى عليه السلام ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو أي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له فإن كل شيء فقير إليه عبد له وقوله (وسع كل شيء علماً) نصب على التمييز أي هو عالم بكل شيء ، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ، والآيات في هذا كثيرة جداً

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا * خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجالية والأمر الواقع كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، وهذا وقد آتيناك من لدنا أي من عندنا ذكراً وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذي لم يعط نبي من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم كتاباً مثله ولا أكمل منه ولا أجمع لحبر ما سبق وخبر ما هو كائن وحكم الفصل بين الناس منه ، وقوله تعالى (من أعرض عنه) أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً وابتغى الهدى من غيره فإن الله يناله ويهديه إلى سواء الجحيم ولهذا قال (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً) أي إنما كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم كما قال (لنذركم به ومن بلغ) فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع فمن اتبعه هدى

ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقى في الدنيا والنار موعده يوم القيامة ولهذا قال (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا خالد بن فيه) أى لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بش الحمل حملهم

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال « قرن ينفخ فيه » وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السموات والأرض ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام وجاء في الحديث « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحى جبهته وانتظر أن يؤذن له » فقالوا يا رسول الله كيف تقول ؟ قال « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقوله (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) قيل معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال (يتخافتون بينهم) قال ابن عباس يتسارون بينهم أى يقول بعضهم لبعض إن لبثتم إلا عشرا أى في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام أو نحوها قال الله تعالى (نحن أعلم بما يقولون) أى في حال تناجهم بينهم (إذ يقول أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً) أى العاقل الكامل فيهم (إن لبثتم إلا يوما) أى لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ولهذا قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة — إلى قوله — ولكنكم كنتم لا تعلمون) وقال تعالى (أولم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) الآية وقال تعالى (كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) أى إنما كان لبثكم فيها قليلا لو كنتم تعلمون لأنتمم الباقي على الفائى ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف قدمتم الحاضر الفائى على الدائم الباقي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

يقول تعالى (ويسألونك عن الجبال أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول ؟ قل ينسفها ربي نسفا) أى يذهبها عن أما كنها ويعحقها ويسيرها تسييرا (فيذرها) أى الأرض (قاعا صفصفا) أى بساطا واحداً والقاع هو المستوى من الأرض والصفصصف تأكيد لمعنى ذلك وقيل الذى لا نبات فيه والأول أولى وإن كان الآخر مرادا أيضا باللازم ولهذا قال (لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) أى لا ترى في الأرض يومئذ واديا ولا رابية ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف (يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له) أى يوم يرون هذه الأحوال والأحوال يستجيبون مسارعين إلى الداعى حينما أمروا بادرؤا إليه ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) وقال (مهطعين إلى الداع) وقال محمد ابن كعب القرظى يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة ويطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله (يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له) وقال قتادة لا عوج له لا يعملون عنه وقال أبو صالح لا عوج له لا عوج عنه وقوله (وخشعت الأصوات للرحمن) قال ابن عباس سكنت وكذا قال السدى (فلا تسمع إلا همسا) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس يعنى وطء الأقدام وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فلا تسمع إلا همسا) الصوت الخفى وهورواية عن عكرمة والضحاك وقال سعيد بن جبير (فلا تسمع إلا همسا) الحديث وسره ووطء الأقدام فقد جمع سعيد كلا القولين

وهو محتمل أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر وهو مشيه في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فتدكيون في حال دون حال فقد قال تعالى (يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد)

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنْتِ أُلُوجُهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

يقول تعالى (يومئذ) أى يوم القيامة (لاتنفع الشفاعة) أى عنده (إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) وقال (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقال (يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتسكمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وفى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عزوجل أنه قال « آتى تحت العرش وآخر لله ساجدا ويفتح على بمحمد لا أحصياها الآن فيدعى ماشاء أن يدعى ثم يقول يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيجدلى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود » فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء . وفى الحديث أيضاً « يقول تعالى أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما وزن ذرة من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان » الحديث ، وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يحيط علماً بالخلائق كلهم (ولا يحيطون به علماً) كقوله (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وقوله (وعنت الوجوه للحى القيوم) قال ابن عباس وغير واحد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القيوم الذى لا ينام وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه فهو الكامل فى نفسه الذى كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به ، وقوله (وقد خاب من حمل ظلماً) أى يوم القيامة فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء ، وفى الحديث « يقول الله عزوجل وعزى وجلالى لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم » وفى الصحيح « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة والحياة كل الحياة من لقي الله وهو به مشرك فإن الله تعالى يقول إن الشرك لظلم عظيم » وقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) لما ذكر الظالمين ووعدهم ثنى بالمؤمنين وحكمهم وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أى لا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والمهضم النقص

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ أَنْ يُفْقَضَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

يقول تعالى ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لاحالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولا عى (وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون) أى يتركون السيئات والمحارم والفواحش (أو يحدث لهم ذكراً) وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات (فتعالى الله الملك الحق) أى تنزه وتقدس الملك الحق الذى هو حق ووعدته حق ووعدته حق ورسله حق والجنة حق والنار حق وكل شيء منه حق ، وعدله تعالى أن لا يعذب أحدا قبل الانذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، وقوله (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن

يقضى إليك وحيه) كقوله تعالى في سورة الأقسام يوم القيامة (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه *)
 فاذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه) وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
 يعالج من الوحى شدة فكان مما يحرك به لسانه فأنزل الله هذه الآية يعنى أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحى
 كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشدته الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه
 لئلا يشق عليه فقال (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) أى أن نجتمع في صدرك ثم تقرأه على الناس
 من غير أن تنسى منه شيئا (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) وقال في هذه الآية (ولا تعجل بالقرآن من
 قبل أن يقضى إليك وحيه) أى بل أنصت فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده (وقل رب زدنى علما) أى
 زدنى منك علما ، قال ابن عيينة رحمه الله ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ولهذا جاء في
 الحديث « إن الله تابع الوحى على رسوله حتى كان الوحى أكثر ما كان يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال
 ابن ماجه حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن نمير عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضى
 الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ما ينفعنى وزدنى علما والحمد لله
 على كل حال » وأخرجه الترمذى عن أبي كريب عن عبد الله بن نمير به وقال غريب من هذا الوجه ، وراه البزار
 عن عمرو بن على الفلاس عن أبي عاصم عن موسى بن عبيدة به وزاد في آخره « وأعوذ بالله من حال أهل النار »

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَفْسِيٰ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
 إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَسَادُمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا
 تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ وَلَا تَصْبَىٰ * فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَسَادُمُ هَلْ أَدْلَاكَ عَلَىٰ
 شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ
 وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :
 إنما سمى الانسان لأنه عهد إليه فنسى وكذا رواه على بن أبي طلحة عنه ، وقال مجاهد والحسن : ترك ، وقوله
 (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق
 تفضيلا ، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة وفي الأعراف وفي الحجر والكهف وسيأتى في آخر
 سورة ص يذكر تعالى فيها خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفا وتكريما وبين عداوة إبليس لبنى آدم ولأبهم
 قديما ولهذا قال تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى) أى امتنع واستكبر (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك) يعنى
 حواء عليهما السلام (فلا يخرجكما من الجنة فتشقى) أى إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب
 رزقك فانك ههنا في عيش رغيد هنىء بلا كلفة ولا مشقة (إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) إنما قرن بين الجوع
 والعرى لأن الجوع ذل الباطن والعرى ذل الظاهر (وأنت لا تظمأ فيها ولا تصبى) وهذان أيضا متقابلان فالظما
 حر الباطن وهو العطش والصبى حر الظاهر . وقوله (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد
 ومملك لا يبلى) قد تقدم أنه دلاهما بغيرور (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن
 يأكل من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة فلم يزل بهما إبليس حتى أكل منها وكانت شجرة الخلد يعنى
 التى من أكل منها خلد ودام مكثه وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد فقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة عن

أبي الضحاك سمعت أبا هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد » ورواه الإمام أحمد ، وقوله (فأكل منها فبدت لها سوءاتها) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الحسن بن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن بن أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر للرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول ما بدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة فأخذت شعره شجرة فنزعها فناداه الرحمن يا آدم منى تفر فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ولكن استحياء أرايت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة ؟ قال نعم » فذلك قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب فلم يسمعه منه وفي رفعه نظر أيضاً وقوله (وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة) قال مجاهد يرقعان كهيئة الثوب وكذا قال قتادة والصدى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن عون حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى عن المنهال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (وطفقا يخضفان عليهما من ورق الجنة) قال يزعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما وقوله (وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى) قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « حاج موسى آدم فقال له أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتولموني على أمر كتبته الله على قبل أن يخلقني أو قدره الله على قبل أن يخلقني - قال رسول الله ﷺ - فحج آدم موسى » وهذا الحديث له طرق في الصحيحين وغيرها من المسانيد . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني أنس بن عياض عن الحارث بن أبي ذئاب عن يزيد بن هرمز قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى قال موسى أنت الذي خلقتك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك ، قال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجياً فبكى ووجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قال موسى بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال أتولموني على أن عملت عملاً كتب الله على أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة - قال رسول الله ﷺ - فحج آدم موسى » قال الحارث وحدثني عبد الرحمن بن هرمز بذلك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .

﴿ قَالَ أَهَيْطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمًى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمًى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعاً أي من الجنة كلكم ، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة (بعضكم لبعض عدو) قال آدم وذريته ، وإبليس وذريته وقوله (فإما يأتينكم مني هدى) قال أبو العالية : الأنبياء والرسل والبيان (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى) قال ابن عباس لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (ومن أعرض عن ذكري) أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداً (فإن له معيشة ضنكاً) أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح ل صدره بل صدره ضيق حرج ل ضلاله وإن تنعم ظاهره ولبس ماشاء وأكل ماشاء وسكن حيث شاء فإن قلبه مالم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (فإن له معيشة ضنكاً) قال الشفاء وقال العوفي عن ابن عباس (فإن له معيشة ضنكاً) قال كلما أعطيته عبداً من عبادي قل أو أكثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه وهو الضنك في المعيشة ، وقال أيضاً إن

قوما ضلّالا أعرضوا عن الحق وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين فكانت معيشتهم ضنكا وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس خلفا لهم معاشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب فإذا كان العبد يكذب بالله ويسىء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته فذلك الضنك ، وقال الضحّاك هو العمل السيء والرزق الحثيث وكذا قال عكرمة ومالك بن دينار وقال سفيان ابن عيينة عن أبي حازم عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قوله (معيشة ضنكا) قال يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه ، قال أبو حاتم الرازي : النعمان بن أبي عياش يكنى أبا سلمة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله عز وجل (فان له معيشة ضنكا) قال ضمة القبر له والموقوف أصبح . وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجرية واسمه عبد الرحمن عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعا وينور له قبره كالقمر ليلة البدر أتدرون فيم أنزلت هذه الآية (فان له معيشة ضنكا) أتدرون ما المعيشة الضنك ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « عذاب الكافر في قبره والذي نفسى بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تنينا ، أتدرون ما التنين ؟ تسعة وتسعون حية لكل حية سبعة رموس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون » رفعه منكرا جدا وقال البزار حدثنا محمد بن يحيى الأزدي حدثنا محمد بن عمرو حدثنا هشام بن سعد عن سعيد بن أبي هلال عن ابن حجرية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل (فان له معيشة ضنكا) قال « المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة » وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (فان له معيشة ضنكا) قال « عذاب القبر » إسناده جيد وقوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال مجاهد وأبو صالح والسدي لاحجته وقال عكرمة عمى عليه كل شيء إلا جهنم ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضا كما قال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكيا وصميا وأعمى) الآية ولهذا يقول (رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا) أى في الدنيا (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك (فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) فان الجزاء من جنس العمل . فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلا في هذا الوعيد الخاص وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى فانه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك ، قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا خالد بن يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن رجل عن سعد بن عباد عن رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجدم » ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبي زياد عن عيسى بن فائد عن عباد بن الصامت عن النبي ﷺ فذكر مثله سواء

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾

يقول تعالى وهكذا نجزي السرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة (لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق) ولهذا قال (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) أى أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه ولهذا قال رسول الله ﷺ للتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة »

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى * وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَايِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١﴾

يقول تعالى (أفلم يهد) لهؤلاء المكذبين بما جتهد به يا محمد كم أهلكتنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الحالية التي خلفوهم فيها يعيشون فيها (إن في ذلك لآيات لأولي النهي) أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة كما قال تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وقال في سورة الم السجدة (أو لم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يعيشون في مساكنهم) الآية ثم قال تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى) أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة ولهذا قال لنبية مسلياً له (فاصبر على ما يقولون) أي من تكذيبهم لك (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس) يعني صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعني صلاة العصر كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عمارة بن رؤبة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لن يلبج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به وفي المسند والسنن عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه وإن أعلاه منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين » وقوله (ومن آناء الليل فسبح) أي من ساعاته فتعبد به وحمله بعضهم على المغرب والعشاء (وأطراف النهار) في مقابلة آناء الليل (لعلك ترضى) كما قال تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وفي الصحيح « يقول الله تعالى يا أهل الجنة فيقولون ليبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول إني أعطيتكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » وفي الحديث الآخر « يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهي الزيادة » .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٢﴾

يقول تعالى لنبية محمد صلى الله عليه وسلم لا تنظر إلى ما هؤلاء الترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعم فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادى الشكور ، وقال مجاهد أزواجاً منهم يعني الأغنياء فقد آتاك خيراً مما آتاهم كما قال في الآية الأخرى (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم لا تمدن عينيك) الآية وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في الآخرة أمر عظيم لا يحمد ولا يوصف كما قال تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولهذا قال (ورزق ربك خير وأبقى) وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة فابتدرت عينا عمر بالبكاء فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا عمر ؟ » فقال يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه فقال « أو في شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » فكان صلى الله عليه وسلم أزهق الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حملت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله ولم يدخر لنفسه شيئاً لقد ،

قال ابن أبي حاتم أنبأنا يونس أخبرني ابن وهب أخبرني مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا » قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال « بركات الأرض » وقال قتادة والسدى : زهرة الحياة الدنيا يعني زينة الحياة الدنيا وقال قتادة (لفتنهم فيه) لتبليهم وقوله (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ورفأ وكان له ساعة من الليل يصلي فيها فربما لم يغم فنعقول لا يقوم الليلة كما كان يقوم وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله وقال (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها) وقوله (لانسألك رزقا نحن نرزقك) يعني إذا أتمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - إلى قوله - إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) ولهذا قال لانسألك رزقا نحن نرزقك ، وقال الثوري لانسألك رزقا أي لانكفك الطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن هشام عن أبيه أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفا فإذا رجع إلى أهله فدخل الدار قرأ (ولا تمدن عينيك - إلى قوله - نحن نرزقك) ثم يقول : الصلاة ، الصلاة رحمكم الله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطراني حدثنا سيار حدثنا جعفر عن ثابت قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهله صلوا ، صلوا . قال ثابت وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة عن أبيه عن أبي خالد الوالبي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » وروى ابن ماجه من حديث الضحاك عن الأسود عن ابن مسعود سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول « من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك » ، وروى أيضا من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان عن أبيه عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأتيه من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » وقوله (والعاقبة للمتقوى) أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله ، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « رأيت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة وأن ديننا قد طاب »

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بَيِّنَاتٌ مِّن رَّبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار في قولهم (لولا) أي هلا يا بني محمد بآية من ربه أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى (أولم تأتوهم بينة ما في الصحف الأولى) يعني القرآن العظيم الذي أنزله عليه الله وهو أمي لا يحسن الكتابة ولم يدرس أهل الكتاب وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها فإن القرآن مهيمن عليها يصدق الصحيح ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين) أولم يكفهم أنا أنزلنا

عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطاها عليه السلام وهو القرآن وإلافه من العجرات ما لا يحصى ولا يحد ولا يحصى كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه ثم قال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً (أى لو أننا أهلكناه هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ونزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا (ربنا لولا أرسلنا رسولاً) قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال (فتتبع آياتك من قبل أن نزل ونخزي) بين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعتون معاندون لا يؤمنون (ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون - إلى قوله - بما كانوا يصدفون) وقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) الآية وقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها) الآيتين ، ثم قال تعالى (قل) أى يا محمد لمن كذبتك وخالفك واستمر على كفره وعناده (كل متربص) أى منا ومنكم (فربصوا) أى فانتظروا (فستعلمون من أصحاب الصراط السوى) أى الطريق المستقيم (ومن اهتدى) إلى الحق وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله تعالى (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً) وقال (سيعلمون غذا من الكذاب الأشر) . آخر تفسير سورة طه والله الحمد والمنة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء والله الحمد

(تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام وهى مكية)

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار ثنا غندر ثنا شعبة عن أبي إسحق سمعت عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال ، بنو إسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق الأول وهن من تлады

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ يُخَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يُلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ * قُلْ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْضَامٌ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِنَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ * مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ)

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها وأن الناس في غفلة عنها أى لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها ، وقال النسائي حدثنا أحمد بن نصر حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد عن النبي ﷺ (في غفلة معرضون) قال « في الدنيا » وقال تعالى (أتى أمر الله فلا تستعجلوه وقال (اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا) الآية ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن هانىء أبي نواس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس في غفلاتهم * ورحا المنية تطلحن

فقليل له من أين أخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى (اقتراب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) وروى (١) في ترجمة عامر بن ربيعة من طريق موسى بن عبيد الآمدى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه الرجل فقال إني استقطعت

(١) هذا الخبر غير موجود في النسخة المكية .

من رسول الله صلى الله عليه وسلم واديا في العرب وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا (اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) ثم أخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) أي جديد إنزاله (إلا استمعوه وهم يلعبون) كما قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه وتقصوا منه وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضا لم يشب رواه البخارى بنحوه ، وقوله (وأسروا النجوى الذين ظلموا) أي قائلين فيما بينهم خفية (هل هذا إلا بشر مثلكم) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبعدون كونه نبيا لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم ولهذا قال (أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون) أي أفنتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر فقال تعالى عجيبا لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب (قال ربى يعلم القول في السماء والأرض) أي الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذى لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذى يعلم السر في السموات والأرض وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم وفي هذا تهديد لهم ووعد وقوله (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء) هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحياتهم فيه وضلالهم عنه فتارة يجعلونه سحرا وتارة يجعلونه شعرا وتارة يجعلونه أضغاث أحلام وتارة يجعلونه مفترى كما قال (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقوله (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) يعنون كسافة صالح وآيات موسى وعيسى وقد قال الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية ، ولهذا قال تعالى : (ما آمنت قبلكم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) أي ما آتينا قرية من القرى الذى بعث فيها الرسل آية على يديهم فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك ؟ كلا ، بل (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجل وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهده مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قال ابن أبي حاتم رحمه الله ذكر عن زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن زيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول : كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقرأ بعض القرآن فجاء عبد الله بن أبي سلول ومعه نمرقة وزريرة فوضع واتكأ وكان صبيحا فصيحا جدلا فقال يا أبا بكر قل لحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح وجاء داود بالزبور وجاء صالح بالناقة وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر رضى الله عنه فخرج رسول الله ﷺ فقال أبو بكر قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق فقال رسول الله ﷺ : « إنه لا يقام لى إنما يقام لله عز وجل » فقلنا يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق ، فقال : « إن جبريل قال لى اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك وفضيلته التى فضلت بها فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود وأمرنى أن أنذر الجن وآتاني كتابه وأنا أمى وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر وذكر اسمى فى الأذان وأمدنى بالملائكة وآتاني النصر وجعل الرعب أمامى وآتاني الكوثر وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعون رءوسهم وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفا من أمتى الجنة بغير حساب وآتاني السلطان والملك وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش وأحل لى ولأمتى الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا » وهذا الحديث غريب جدا

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا آلَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم) أى جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة كما قال فى الآية الأخرى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى) وقال تعالى (قل ما كنت بدعاً من الرسل) وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا (أبشر يهودنا) ولهذا قال تعالى (فاسألوا أهل الذكركم إن كنتم لا تعلمون) أى اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة وإن كانوا بشراً وذلك من تمام نعمة الله على خلقه إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم ، وقوله (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) أى بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام كما قال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلوا الطعام ويمشون فى الأسواق) أى قد كانوا بشراً من البشر يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً كما توهمه المشركون فى قولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً * أو يلقي إليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها) الآية ، وقوله (وما كانوا خالدين) أى فى الدنيا بل كانوا يعيشون ثم يموتون (وما جعلنا للبشر من قبلك الخلد) وخصتهم بهم يوحى إليهم من الله عز وجل تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه ، وقوله (ثم صدقناهم الوعد) أى الذى وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين صدقهم الله وعده وفعل ذلك ولهذا قال (فأنجيناهم ومن نשא) أى أتباعهم من المؤمنين (وأهلكنا المسرفين) أى المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَانَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَرُكْضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم) قال ابن عباس شرفكم وقال مجاهد حديثكم وقال الحسن دينكم (أفلا تعقلون) أى هذه النعمة وتلقونها بالقبول كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقوله (وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً) هذه صيغة تكثير كما قال (وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) وقال تعالى (وكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها) الآية . وقوله (وأنشأنا بعدها قوماً آخرين) أى أمة أخرى بعدهم (فلما أحسوا بأسنا) أى تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم (إذا هم منها يركضون) أى يفرون هاربين (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أنرفتم فيه ومساكينكم) هذا هم نزلوا أى قيل لهم نزلوا لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والعيشة والمساكن الطيبة ، قال قتادة استهزاء بهم (لعلكم تسألون) أى عما كنتم فيه من أداء شكر النعم (قالوا يويلنا إننا كنا ظالمين) اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين) أى مازالت تلك المقالة وهى الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً وخمدت حركاتهم وأصواتهم نحوذا

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَتَّخِذَ مِنْ دُونِهَا إِذَا كُنَّا فَعَالِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق أى بالعدل والقسط ليجزى الدين أساءوا بما عملوا ويمجى الذى

أحسنوا بالحسنى وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً كما قال (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهمو لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) قال ابن أبي نجيب عن مجاهد (لو أردنا أن نتخذ لهمو لاتخذناه من لدنا) يعنى من عندنا ، يقول وما خلقنا الجنة ولا ناراً ولا موتاً ولا عبثاً ولا حساباً ، وقال الحسن وقتادة وغيرها (لو أردنا أن نتخذ لهمو) اللهو المرأة بلسان أهل اليمن ، وقال إبراهيم النخعي (لاتخذناه) من الحور العين ، وقال عكرمة والسدى : والمراد باللهو ههنا الولد وهذا والذي قبله متلازمان وهو كقوله تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سيما عما يقولون من الافاك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة (سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً) وقوله (إن كنا فاعلين) قال قتادة والسدى وإبراهيم النخعي ومغيرة بن مقسم أى ما كنا فاعلين وقال مجاهد : كل شيء في القرآن إن فهو إنكار ، وقوله (بل نقذف بالحق على الباطل) أى نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال (فيدمغه فإذا هو زاهق) أى ذاهب مضمحل (ولكم الويل) أى أيها القائلون لله ولد (مما تصفون) أى تقولون وتفترون . ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال (وله من في السموات والأرض ومن عنده) يعنى الملائكة (لا يستكبرون عن عبادته) أى لا يستكفون عنها كما قال (لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون * ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وقوله (ولا يستحشرون) أى لا يتعبون ولا يملون (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً قادرين عليه كما قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤسرون) وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن أبى دلامة البغدادى أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا ما نسمع من شيء . فقال رسول الله ﷺ « إني لأسمع أطييط السماء وما تلام أن تثط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » غريب ولم يخرجوه . ثم رواه أعنى ابن أبى حاتم من طريق يزيد بن أبى زريع عن سعيد عن قتادة مرسل ، وقال محمد بن إسحق عن حسان بن مخارق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال جلست إلى كعب الأخبار وأنا غلام فقلت له أرأيت قول الله تعالى للملائكة (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل . فقال من هذا العلام ؟ فقالوا من بنى عبد المطلب ، قال : فقبل رأسى ثم قال يا بنى إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس أليس تتكلم وأنتم تتنفس وتمشى وأنتم تتنفس ؟

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُذْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْئَلُ عَمَّا يُفَعِّلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يذشرون) أى هم يحبون الموتى وينشرونهم من الأرض أى لا يقدر على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعبدها معه ، ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفست السموات والأرض فقال (لو كان فيهما آلهة) أى في السموات والأرض (لفست) كقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لنذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) وقال ههنا (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أى عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً سبحانه وتعالى وتقدس وترزه عن الذى يفترون ويأفكون علواً كبيراً . وقوله (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) أى هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه وعلمه وحكمته وعدله ولطفه (وهم يسئلون) أى وهو سائل خلقه عما يعملون كقوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وهذا كقوله تعالى (وهو يحجر ولا يحار عليه)

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْخَلْقَ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

يقول تعالى (أم اتخذوا من دونه آلهة قل يا محمد هاتوا برهانكم) أى دليلكم على ما تقولون (هذا ذكر من معي) يعنى القرآن (وذكر من قبلى) يعنى الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه ولهذا قال (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) كما قال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له والفطرة شاهدة بذلك أيضا والمشركون لا برهان لهم وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى رادا على من زعم أن له تعالى وتقدس ولدا من الملائكة كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال (سبحانه بل عباد مكرمون) أى الملائكة عباد الله مكرمون عنده فى منازل عالية ومقامات سامية وهم له فى غاية الطاعة قولوا وفعلا (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) أى لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) وقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فى آيات كثيرة فى معنى ذلك (وهم من خشيته) أى من خوفه ورهبته (مشفقون *) ومن يقل منهم إني إله من دونه أى ادعى منهم أنه إله من دون الله أى مع الله (فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) أى كل من قال ذلك وهذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه كقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقوله (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

يقول تعالى منها على قدرته التامة وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال (أولم ير الذين كفروا) أى الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المتبدي بالتدوير فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه ألم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا أى كان الجميع متصلا بعضه ببعض

متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه من هذه فجعل السموات سبعة والأرض سبعة وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء فأمرت السماء وأنبئت الأرض ولهذا قال (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عيانا وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء
ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال سفيان الثوري عن أبيه عن عكرمة قال سئل ابن عباس : الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال أرايتم السموات والأرض حين كانتا رتقا هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن أبي حمزة حدثنا حاتم عن حمزة بن أبي محمد عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلا أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناها . قال اذهب إلى ذلك الشيخ فأسأله ، ثم تعال فأخبرني بما قال لك ، قال فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال ابن عباس : نعم كانت السموات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى في القرآن علما ، صدق هكذا كانت قال ابن عمر قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن فالآن علمت أنه قد أوتى في القرآن علما وقال عطية العوفي كانت هذه رتقا لا تمطر فأمرت وكانت هذه رتقا لا تنبت فأنبتت ، وقال إسماعيل بن أبي خالد سألت أبا صالح الحنفي عن قوله (أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) قال كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سموات وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين ، وهكذا قال مجاهد وزاد ولم تكن السماء والأرض متماسكتين . وقال سعيد بن جبير بل كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك ففتقهما الذي ذكر الله في كتابه ، وقال الحسن وقتادة كانتا جميعا ففصل بينهما بهذا الهواء وقوله (وجعلنا من الماء كل شيء حي) أي أصل كل الأحياء . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر حدثنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة أنه قال يابني الله إذا رأيتك قرت عيني وطابت نفسي فأخبرنا عن كل شيء قال : « كل شيء خلق من ماء » . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن قتادة عن أبي ميمونة عن أبي هريرة قال : قلت يارسول إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فأنبئني عن كل شيء قال « كل شيء خلق من ماء » قال قلت أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة . قال « أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ثم ادخل الجنة بسلام » ورواه أيضا عبد الصمد وعفان وبهز عن همام تفرد به أحمد وهذا إسناد على شرط الصحيحين إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن واسمه سليم والترمذي يصحح له وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلًا والله أعلم . وقوله (وجعلنا في الأرض رواسي) أي جبالا أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب وتتجرك فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع فإنه نادل الهواء والشمس لي شاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات ، ولهذا قال (أن تميد بهم) أي لئلا تميد بهم ، وقوله (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) أي نغرا في الجبال يسلكون فيها طرقا من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد فيجعل الله فيه فجوة نغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ولهذا قال (لعلمهم بهتدون) وقوله (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) أي على الأرض وهي كالقبة عليها كما قال (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) وقال (والسماء وما بناها) (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بني الإسلام على خمس » أي خمسة دعائم وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب (محفوظا) أي عاليا محروسا أن ينال وقال مجاهد : مرفوعا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي حدثني أبي عن أبيه عن أشعث يعني ابن إسحق القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال رجل يارسول الله ما هذه السماء قال « موج مكفوف عنكم » إسناده غريب وقوله (وهم عن آياتها

معروضون) كقوله (وكأئن من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون) أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في أياها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها . وقد ذكر ابن أبي الدنيا رحمه الله في كتابه التفكير والاعتبار : أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلمت غمامة فلم يرد ذلك الرجل شيئاً مما كان يحصل لغيره فشكى ذلك إلى أمه فقالت له يا بني فلعلك أذنبت في مدة عبادتك هذه فقال لا والله ما أعلمه قالت فلعلك هممت قال لا ولا هممت قالت فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر فقال نعم كثيراً قالت فمن ههنا أتيت ثم قال منها على بعض آياته (وهو الذي خلق الليل والنهار) أي هذا في ظلامه وسكونه وهذا بضائه وأنسه يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر (والشمس والقمر) هذه لما نور يخصها وفلك بذاته وزمان على حدة وحركة وسير خاص وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر (وكل في فلك يسبحون) أي يدورون قال ابن عباس يدورون كما يدور المغزل في الفلكة قال مجاهد فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن كقوله تعالى (فالحق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّنْ فَعْلَمٍ أَنَّهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ * كَأَنَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوهُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْآخِرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿

يقول تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك) أي يا محمد (الخلد) أي في الدنيا بل (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الحضرة عليه السلام مات وليس بحي إلى الآن لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً وقد قال تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد) وقوله (أفأئن مت) أي يا محمد (فهم الخالدون) أي يؤملون أن يعيشوا بعدك لا يكون هذا بل كل إلى الفناء ولهذا قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وقد روى عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي ينبغي خلاف الذي مضى تهياً لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله (ونبلوكم بالشئ والخير فتنه) أي نختبركم بالمصائب تارة وبالنعمة أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ومن يصبر ومن يفتك كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ونبلوكم يقول نبيناكم بالشئ والخير فتنه بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر والحلال والحرام والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله (وإلينا ترجعون) أي فنجازيكم بأعمالكم

﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُونَ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ * خَلَقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿

يقول تعالى لنبيه صاوات الله وسلامه عليه (وإذ أراك الذين كفروا) يعني كفار قريش كآبي جهل وأشباهه (إن يتخذونك إلا هزواً) أي يستهزئون بك وينقصونك يقولون (أهذا الذي يذكر آلهتكم) يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم قال تعالى (وهم يذكرون الرحمن هم كفرون) أي وهم كفرون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى (وإذ أراك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا * إن كاد ليشركنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعامون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً) وقوله (خلق الإنسان من عجل) كما قال في الآية الأخرى (وكان الإنسان عجولاً) أي في الأمور قال مجاهد خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق

الخلائق فلما أحيى الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل بخلقى قبل غروب الشمس وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثي عن أبي سامة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط منها وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى - وقبض أصابعه يقللها - فسأل الله خيراً إلا أعطاه إياه » قال أبو سامة فقال عبد الله بن سلام قد عرفت تلك الساعة هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة وهي التي خلق الله فيها آدم قال الله تعالى (خلق الإنسان من عجل سارياًكم آياتى فلا تستعجلون) والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك فقال الله تعالى خلق الإنسان من عجل لأنه تعالى عجل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته يؤجل ثم يعجل وينظر ثم لا يؤخر ولهذا قال (سارياًكم آياتى) أى تقمى وحكمى واقتدارى على من عصانى (فلا تستعجلون)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكديبا وجحودا وكفرا وعنادا واستبعادا فقال (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) قال الله تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) أى لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا . ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم (لهم من فوقهم ظلم من النار ومن تحتهم ظلم) (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال في هذه الآية (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) وقال (سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم (ولا هم ينصرون) أى لا ناصر لهم كما قال (وما لهم من الله من واق) وقوله (بل تأتيتهم بغتة) أى (تأتيتهم النار بغتة) أى فجأة (فتبتهتهم) أى تدعهم فيستسلمون لها حائرين لا يدرون ما يصنعون (فلا يستطيعون ردها) أى ليس لهم حيلة فى ذلك (ولا هم ينظرون) أى ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ مَن يَكْلَأُ كُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) يعنى من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه كما قال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله * ولقد جاءك من نبيا المرسلين) ثم ذكر تعالى نعمته على عبده فى حفظه لهم بالليل والنهار وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام فقال (قل من يكأؤكم بالليل والنهار من الرحمن) أى بدل الرحمن يعنى غيره كما قال الشاعر

جارية لم تلبس المرقصا ولم تذق من البقول الفستقا

أى لم تذق بدل البقول الفستق وقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) أى لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم بل يعرضون عن آياته وآلائه ثم قال (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) استفهام إنكار وتقرير وتوبيخ ، أى ألهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا لا ، ولا كما زعموا ولهذا قال (لا يستطيعون نصر أنفسهم) أى

هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم وقوله (ولا هم منا يصحبون) قال العوفي عن ابن عباس ولا هم منا يصحبون أى يجارون وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير وقال غيره ولا هم منا يصحبون يمنعون

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ * قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ * وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ)

يقول تعالى مخبرا عن الشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه فاعتقدوا أنهم على شيء ثم قال واعظالمهم (أفلا يرون أنا تأتي الأرض تنقصها من أطرافها) اخلف المفسرون في معناه وقد أسلفناه في سورة الرعد وأحسن ما فسر بقوله تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلمهم يرجعون) وقال الحسن البصري يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ولهذا قال (أفهم الغالبون) يعنى بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون وقوله (قل إنما أُنذركم بالوحي) أى إنما أنا مبلغ عن الله ما أُنذرتكم به من العذاب والشكال ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلى ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ولهذا قال (ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) وقوله (ولئن مسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ) أى ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا وقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) أى ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، وقوله (فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) كما قال تعالى (ولا يظلم ربك أحدا) وقال (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال لقمان (يا بني إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كاهنتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن ليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلى قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى وسلم « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول أأنكر من هذا شيئا ؟ أظلمت كتبتي الحافظون ؟ قال لا يارب قال أظلمت عذرتك أو حسنة ؟ قال فهت الرجل فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول أحضروه فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول إنك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة قال ولا يتحمل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم (١) » ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث الليث بن سعد وقال الترمذى حسن غريب وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عمرو بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيما يل به الميزان قال فيبعث به إلى النار قال فإذا أدبر به إذا صامع

من عند الرحمن عز وجل يقول لا تعجلوا فانه قد بقى له فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان » وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو نوح مرارا أنبأنا ليث بن سعد عن مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأضربهم وأشتتهم فكيف أنا منهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقى قبلك » فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف فقال رسول الله ﷺ « ماله لا يقرأ كتاب الله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) » فقال الرجل يا رسول الله ما أجد شيئا خيرا من فراق هؤلاء - يعني عبيده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ * وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيرا ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان) قال مجاهد يعني الكتاب وقال أبو صالح التوراة وقال قتادة التوراة حالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل ، وقال ابن زيد يعني النصر وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية شتملة على التفرقة بين الحق والباطل والهدى والضلال والغي والرشاد والحلال والحرام وعلى ما يحصل نورا في القلوب وهداية وخوفا وإنابة وخشية ولهذا قال (الفرقان وضياء وذكر للمتقين) أى تذكيرا لهم وعظة ، ثم وصفهم فقال (الذين يخشون ربهم بالغيب) كقوله (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) وقوله (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) (وهم من الساعة مشفقون) أى خائفون وجلون ، ثم قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) يعني القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (أفأنتم له منكرون) أى أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور ؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشد من قبل أى من صفه ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) وما يذكر من الأخبار عنه في إدخال أبيه له في السرب وهو رضيع وأنه خرج به بعد أيام فنظر إلى الكوكب والنخلوقات فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم فعاتمها أحاديث بنى إسرائيل فما وافق منها الحق مما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح وما خالف شيئا من ذلك رددناه وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه بل نجعله وقفا وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف في روايته وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ولا حاصل له مما ينتفع به في الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين في دينهم لبيته هذه الشريعة الكاملة الشاملة ، والذى نسلكه في هذا التفسير الاعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية

لما فيها من تشييع الزمان ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم فانهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة. والمقصود ههنا أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أى من قبل ذلك وقوله (وكنا به عالمين) أى وكان أهلاً لذلك ، ثم قال (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون هذا هو الرشدى الذى أوتيه من صغره الأنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله عز وجل فقال (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) أى معتكفون على عبادتها قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد الصباح حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا سعيد ابن طريف عن الأصم بن نباتة قال : مر على رضى الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون لأن يمس أحدكم جرأ حتى يطفأ خير له من أن يمسها (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال ولهذا قال (لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) أى السلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالسلام معكم فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم ، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلهتهم (قالوا أجتنبنا الحق أم أنت من اللاعبين) يقولون هذا السلام الصادر عنك تقوله لأعنا أو محقافيه فإننا لم نسمع به قبلك (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن) أى ربكم الذى لا إله غيره وهو الذى خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذى ابتدأ خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء (وأنا على ذلكم من الشاهدين) أى وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه

﴿ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولَوا مُدْبِرِينَ ﴾ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَهْلِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَلِقُونَ ﴿

ثم أقسم الخليل قسماً سمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم أى ليحترصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أى إلى عيدهم وكان لهم عيد يخرجون إليه ، قال السدى : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه يابى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم فجعلوا يعرون عليه وهو صريع فيقولون : مه فيقول إني سقيم فلما جاز عمتهم وبقي ضعفاؤهم قال (تالله لأكيدن أصنامكم) فسمعه أولئك : وقال ابن إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا يا إبراهيم ألا نخرج معنا ؟ قال إني سقيم وقد كان بالأمس قال (تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) فسمعه ناس منهم وقوله (فجعلهم جذاذا) أى حطاما كسرهما كلها إلا كبيرا لهم يعنى إلا الصنم الكبير عندهم كما قال (فراغ عليهم ضرباً باليمين) وقوله (لعلمهم إليه يرجعون) ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم لعلمهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والاذلال الدال على عدم إلهيتها وعلى سخافة عقول عابديها (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) أى فى صنيعه هذا (قالوا سمعنا فتى يذكُرهم يقال له إبراهيم) أى قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم سمعنا فتى أى شاباً يذكُرهم يقال له إبراهيم ، قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن منصور حدثنا جرير بن عبد الحميد عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب وتلا هذه الآية (قالوا سمعنا فتى يذكُرهم يقال له إبراهيم) . وقوله (قالوا فاتوا به على آعين الناس) أى على رؤس الأشهاد فى الملا الأكر بحضرة الناس كلهم وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام أن يبين فى هذا الحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقابهم فى عبادة هذه الأصنام التى لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تملك لها نصراً فكيف يطلب منها شئ من

ذلك ؟ (قالوا أنت فعلت هذا بآلاتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا) يعنى الذى تركه لم يكسره (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفى الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين فى ذات الله قوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله (إني سقيم) - قال - وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل فقال إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس فأرسل إليه فجاء فقال ما هذه المرأة منك قال أختى قال فاذهب فأرسل بها إلى ، فانطلق إلى سارة فقال إن هذا الجبار قد سألتني عنك فأخبرتني أنك أختى فلا تكذبنى عنده فانك أختى فى كتاب الله وإنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذ شديدا فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت له فأرسل فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمنثلها أو أشد ففعل ذلك الثالثة فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين فقال ادعى الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابها فقال إنك لم تأتى بآسان ولكنك أنتينى بشيطان أخرجه وأعطها هاجر . فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انقلبت من صلاته وقال مهم قالت كفى الله كيد الكافر الفاجر وأخذهنى هاجر » قال محمد بن سيرين فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال تلك أمكم يا بنى ماء السماء

﴿ فَرجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ لَعْنٌ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال (فرجعوا إلى أنفسهم) أى بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم فقالوا (إنكم أنتم الظالمون) أى فى ترككم لها مهجلة لا حافظ عندها (ثم نكسوا على رؤوسهم) أى ثم أطرقوا فى الأرض فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) قال قتادة أدركت القوم حيرة سوء فقالوا (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) وقال السدى (ثم نكسوا على رؤوسهم) أى فى الفتنة وقال ابن زيد أى فى رأى وقول قتادة أظهر فى المعنى لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً ولهذا قالوا له (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم) أى إذا كانت لا تنطق وهى لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) أى أفلا تدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر . فأقام عليهم الحجة والزمهم بها ولهذا قال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) الآية

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾

لمادحضت حجتهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم فقالوا حرقوه وانصروا آلهمكم إن كنتم فاعلين فجمعوا خطبا كثيرا جدا ، قال السدى حتى إن كانت المرأة تمرض فتندري أن عوفيت أن تحمل خطباً لحريق إبراهيم ثم جعلوه فى جوبة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شر عظيم ولهب مرتفع لم توقد ناراً قط مثلاً وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد ، قال شعيب الجبائى

اسمه زين فحسب الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل كما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى في النار وقلها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل وروى الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو هشام حدثنا إسحق بن سليمان عن أبي جعفر عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار قال اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك » ويروي أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ، وقال شعيب الجبائي كان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة فآله أعلم وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء فقال ألك حاجة فقال أما إليك فلا وأما من الله فبلى ، وقال سعيد بن جبير ويروى عن ابن عباس أيضا قال لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول متى أومر بالمطر فأرسله قال فكان أمر الله أسرع من أمره قال الله (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال لم يبق نار في الأرض إلا طفت وقال كعب الأحبار لم ينتفع أحد يومئذ بنار ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه وقال الثوري عن الأعمش عن شيخ عن علي بن أبي طالب (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) قال لا تضربه وقال ابن عباس وأبو العالية لولا أن الله عز وجل قال وسلاما لأذى إبراهيم بردها ، وقال جوير عن الضحاك كوني بردا وسلاما على إبراهيم قالوا صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب فأصبح ولم يصبه منها شيء حتى أخذها الله قال ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق فلم يصبه منها شيء غير ذلك وقال السدي كان معه فيها ملك الظل

وقال علي بن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا يوسف بن موسى حدثنا مهران حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن المنهال بن عمر قال أخبرت أن إبراهيم ألقى في النار قال فكان فيها إما خمسين وإما أربعين قال ما كنت أياها وليالي قط أطيب عيشا إذ كنت فيها وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها ، وقال أبو زرعة بن عمرو ابن جرير عن أبي هريرة قال إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك نعم الرب ربك يا إبراهيم وقال قتادة لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار ، إلا الوزغ وقال الزهري أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله وسماه فويسقا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا عبيد الله ابن أخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا جرير بن حازم أن نافعا حدثه قال حدثني مولاة الفاكه بن الغيرة الخزومي قالت دخلت على عائشة فرأيت في يديها رمحا فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت تقتل به هذه الأوزاغ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ فانه كان ينفخ على إبراهيم » فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله ، وقوله (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) أي المفلوطين الأسفلين لأنهم أرادوا بني الله كيدا فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك ، وقال عطية العوفي لما ألقى إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَمَعْنَاهُمْ فِي أُمَّةٍ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبْدِينَ * وَلُوطًا إِتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ * وَادْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم مهاجرا إلى بلاد الشام إلى الأرض

المقدسة منها . قال الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قال الشام وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة وكذا قال أبو العالية أيضاً وقال قتادة كان بأرض العراق فأنجاه الله إلى الشام وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة وما نقص من الأرض زيد في الشام وما نقص من الشام زيد في فلسطين ، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال ، وقال كعب الأحبار في قوله (إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) إلى حران وقال السدي انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام فلقى إبراهيم سارة وهي ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتروجها على أن يفر بها ، رواه ابن جرير وهو غريب والشهور أنها ابنة عمه وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده ، وقال العوفي عن ابن عباس إلى مكة ألا تسمع إلى قوله (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً) وقوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) قال عطاء ومجاهد عطية ، وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عيينة النافلة ولد الولد يعني أن يعقوب ولد لإسحاق كما قال (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سألت واحدا فقال (رب هب لي من الصالحين) فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة (وكلا جعلنا صالحين) أي الجميع أهل خير وصلاح (وجعلناهم أئمة) أي يقتدى بهم (يهدون بأمرنا) أي يدعون إلى الله بإذنه ولهذا قال (وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) من باب عطف الخاص على العام (وكانوا لنا عابدين) أي فاعلين لما يأمرهم الناس به ثم عطف بذكر لوط وهو هاران بن هاران قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى (فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي) فآناه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبشاه إلى سدوم وأعمالها فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ولهذا قال (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الجبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين)

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه (فدعاه به أتى مغلوب فاتصر) وقال نوح (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ولهذا قال ههنا (إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله) أي الذين آمنوا به كما قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل) وقوله (من الكرب العظيم) أي من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل وكانوا يتصدون لأذاه ويتواصون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلافه ، وقوله (ونصرناه من القوم) أي ونجيناه وخلصناه منتصرين من القوم (الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين) أي أهلكهم الله بعامة ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتُخَصِّنَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿

قال ابن إسحاق عن مرة عن ابن مسعود كان ذلك الحرث كرما قد تدلت عنا قيده ، وكذا قال شريح وقال ابن عباس النفس الرعى ، وقال شريح والزهرى وقتادة ، النفس لا يكون إلا بالليل زاد قتادة والهمل بالنهار وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب وهارون بن إدريس الأصم قال حدثنا المحاربى عن أشعث عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود فى قوله (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم) قال كرم قد أنبتت عنا قيده فأفسدته قال قضى داود بالغنم لصاحب الكرم فقال سليمان غير هذا يابى الله قال وماذا قال تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله (ففهمناها سليمان) وكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد حدثنا خليفة عن ابن عباس قال قضى داود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب فقال لهم سليمان كيف قضى بينكم فأخبروه فقال لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود فدعاه فقال كيف تقضى بينهم ؟ قال أدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذه أصحاب الحرث وردوا الغنم إلى أصحابها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا خديج عن أبى إسحاق عن مرة عن مسروق قال الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من غنم إلا أكلته فأتوا داود فأعطاهم رقابها فقال سليمان لا بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم فيكون لهم لبنها ونفعها ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذى كان ليلة نفشت فيه الغنم ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم وهكذا قال شريح ومرة ومجاهد وقتادة وابن زيد وغير واحد وقال ابن جرير حدثنا ابن أبي زياد حدثنا يزيد بن هارون أن ابناً لإسماعيل عن عامر قال جاء رجلان إلى شريح فقال أحدهما إن شياها هذا قطعت غزلاً لى فقال شريح نهراً أم ليلاً فان كان نهراً فقد برى ، صاحب الشياها وإن كان ليلاً فقد ضمن ثم قرأ (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث) الآية وهذا الذى قاله شريح شبهه بما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث الليث بن سعد عن الزهرى عن حرام بن سعيد بن محيصة أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها ، وقد علل هذا الحديث وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب الأحكام وبالله التوفيق ، وقوله (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى أياه الحسن فبكى فقال ما يبكيك ؟ قال يا أبا سعيد بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ورجل مال به الهوى فهو فى النار ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة فقال الحسن البصرى إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم قال الله تعالى (وداود وسليمان إذا يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ثم قال يعنى الحسن إن الله اتخذ على الحكم ثلاثاً لا يشتروا به ثمناً قليلاً ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال (فلا تخشوا الناس واخشوني) وقال (ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً) قلت أما الأنبياء عليهم السلام فسلكهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد

فأخطأ فله أجر » فهذا الحديث يرد نصاماتوهم إياس من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار والله أعلم ، وفى السنن :
القضاة ثلاثة قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ورجل حكم بين الناس على جهل
فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار وقرىب من هذه القصة المذكورة فى القرآن مارواه الإمام أحمد
فى مسنده حيث قال حدثنا على بن حفص أخبرنا ورقاء عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله
ﷺ « بينا امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الئنب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى فخرجتا
فدعاهما سليمان فقال هاتوا السكين أشقه بينكما فقالت الصغرى یرحمك الله هو ابنها لا تشقه فقضى به للصغرى » وأخرجه
البخارى ومسلم فى صحيحهما وبوب عليه النسائى فى كتاب القضاء (باب الحاکم یومهم خلاف الحکم لیسعلم الحق) وهكذا
القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساکر فى ترجمة سليمان عليه السلام من تاريخه من طریق الحسن بن سفيان
عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس فذكر قصة مطولة ملخصها
أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم فامتنعت على كل منهم فاتفقوا فيما بينهم عليها
فشهدوا عند داود عليه السلام أنها مكنت من نفسها كلباً لها قد عودته ذلك منها فأمر برجمها فلما كان عشية ذلك اليوم
جلس سليمان واجتمع معه ولدان مثله فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزى أولئك وآخر بزى المرأة وشهدوا عليها
بأنها مكنت من نفسها كلباً فقال سليمان فرقوا بينهم فسأل أولهم ما كان لون السكب فقال أسود فعزله واستدعى الآخر
فسأله عن لونه فقال أحمر وقال الآخر أغبر وقال الآخر أبيض فأمر عند ذلك بقتلهم فحكى ذلك لداود عليه السلام
فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة فسألهم متفرقين عن لون ذلك السكب فاختلَفوا عليه فأمر بقتلهم وقوله (وسخرنا
مع داود الجبال يسبحن والطير) الآية وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء
فتجاوبه وترد عليه الجبال تأويها ولهذا لما مر النبی صلى الله عليه وسلم على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من
الليل وكان له صوت طيب جدا فوقف واستمع لقراءته وقال « لقد أوتى هذا زمماراً من زمائر آل داود » قال
يارسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحببنا . وقال أبو عثمان النهدى مسمعت صوت صنّج ولا يربط ولا زممار
مثل صوت أبى موسى رضى الله عنه ، ومع هذا قال عليه الصلاة والسلام « لقد أوتى زمماراً من زمائر آل داود »
وقوله (وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم) يعنى صنعة الدروع قال قتادة إنما كانت الدروع قبله صفائح
وهو أول من سردها حلقة كما قال تعالى (وألنا له الحديد أن يعمل سبغات وقدّر فى السرد) أى لا توسع الحلقة فتقلق
السبارة ولا تغلظ السمار فتقد الحلقة ولهذا قال (تحصنكم من بأسكم) يعنى فى القتال (فهل أتم شاكرون) أى نعم
الله عليكم لما ألهمه عبده داود فعله ذلك من أجلكم وقوله . (ولسليمان الريح عاصفة) أى وسخرنا لسليمان الريح
العاصفة (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) يعنى أرض الشام (وكنا بكل شئ عالمين) وذلك أنه كان له بساط
من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والحيل والجمال والحيام والجنّ ثم يأمر الريح أن تحمله
فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل وتوضع آلاته وحشمه
قال الله تعالى (فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب) وقال تعالى (غدوها شهر ورواحها شهر) قال ابن
أبي حاتم ذكر عن سفيان بن عيينة عن أبى سنان عن سعيد بن جبیر قال كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى فيجلس
مما يليه مؤمنو الإنس ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجنّ ثم يأمر الطير فتظلمهم ثم يأمر الريح فتحملهم صلى الله عليه
وسلم وقال عبدالله بن عبيد بن عمير كان سليمان يأمر الريح فتجتمع كالطود العظيم كالجبل ثم يأمر بفراشه فيوضع على
أعلى مكان منها ثم يدعو بفرس من ذوات الأجنحة فيرتفع حتى يصعد على فراشه ثم يأمر الريح فترتفع به كل شرف
دون السماء وهو مطأطئ رأسه ما يلتفت يمينا ولا شمالا تعظيما لله عز وجل وشكرا لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله
عز وجل حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه وقوله (ومن الشياطين من يغوصون له) أى فى الماء يستخرجون اللآلىء
والجواهر وغير ذلك (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ذلك كما قال تعالى (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين

القرص ورجعت ثم إن إبليس أتاها في صورة طبيب فقال لها إن زوجك قد طال سقمه فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بني فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك فقالت ذلك لأيوب فقال قد أتاك الحبيث لله على إن برأت أن أجلك مائة جلة فخرجت تسعى عليه فحظر عنها الرزق فجعلت لاتأى أهل بيت فيريدونها فلما اشتد عليها ذلك وخافت على أيوب الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً فأثت به أيوب فلما رآه أنكره وقال من أين لك هذا قالت عملت لأناس فأطعموني فأكل منه فلما كان الغد خرجت فطابت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية فأعطوها أيضاً من ذلك الطعام فأثت به أيوب فقال والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو فوضعت خمارها فلما رأى رأسها محلوفاً جزع جزعاً شديداً فعند ذلك دعا الله عز وجل فقال (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي أن الشيطان الذي عرج في أيوب كان يقال له مبسوط قال وكانت امرأة أيوب تقول ادع الله فيشفيك فجعل لا يدعو حتى مر به نفر من بني إسرائيل فقال بعضهم لبعض: ما أصابه، ما أصابه إلا بذنوب عظيم أصابه فعند ذلك قال (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وحدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا جرير بن حازم عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال كان لأيوب عليه السلام أخوان فجا آيوما فلم يستطيعا أن يدنوا منه من ريحه فقاما من بعيد فقال أحدهما للآخر لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع من شيء قط فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت ليلة قط شعبان وأنا أعلم مكان جائع فصدقتي فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال: اللهم إن كنت تعلم أني لم يكن لي قيصان قط وأنا أعلم مكان عار فصدقتي فصدق من السماء وهما يسمعان ثم قال: اللهم بعزتك ثم خرساجدا فقال اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني فمارفع رأسه حتى كشف عنه، وقدرناه ابن أبي حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له كانا يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذلك قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب عليه السلام ما أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعا فيذكران الله فأرجع إلي يبيق فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق، قال وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب» رفع هذا الحديث غريب جداً. وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال وألبسه الله حلة من الجنة فتجلى أيوب فجلس في ناحية وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت يا عبد الله أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا لعل الكلاب ذهبت به أو الذئب فجعلت تسكلمه ساعة. فقال ويحك أنا أيوب قالت أنت سخر مني يا عبد الله فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله علي جسدي، وبه قال ابن عباس ورد عليه ماله وولده عيانا ومثلهم معهم، وقال وهب بن منبه أوحى الله إلى أيوب قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فانهم قد عصوني فيك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرأدا من ذهب فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال فقيل له يا أيوب أمانت شبع قال يارب ومن يشبع من رحمتك» أصله في الصحيحين وسيأتي في موضع آخر. وقوله (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) قد تقدم عن ابن عباس أنه قال ردوا عليه بأعيانهم وكذا رواه العوفي عن ابن عباس أيضاً وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد وبه قال الحسن وقتادة، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة، وإن كان

أخذه من نقل أهل الكتاب وصح ذلك عنهم فهو بما لا يصدق ولا يكذب ، وقد سماها ابن عساكر في تاريخه : رحمة الله تعالى قال ويقال اسمها ليا بنت ميثا بن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، قال ويقال ليا بنت يعقوب عليه السلام زوجة أيوب كانت معه بأرض الثنية ، وقال مجاهد قيل له يا أيوب إن أهلك لك في الجنة فإن شئت أتيناك بهم وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم قال لا بل أتركهم في الجنة فتركوا له في الجنة وعوض مثلهم في الدنيا ، وقال حماد بن زيد عن أبي عمران الجوني عن نوف البكالي قال أوتي أجرهم في الآخرة وأعطى مثلهم في الدنيا ، قال فحدثت به مطرفا فقال ما عرفت وجهها قبل اليوم وهكذا روى عن قتادة والسدي وغير واحد من السلف والله أعلم وقوله (رحمة من عندنا) أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به (وذكرى للعابدين) أي وجعلناه في ذلك قدوة لثلاثين أهل البلاء أمما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، ولتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الحليل عليهما السلام وقد تقدم ذكره في سورة مريم وكذا إدريس عليه السلام وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي وقال آخرون إنما كان رجلا صالحا وكان ملكا عادلا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير في ذلك فأنه أعلم . قال ابن جرير عن مجاهد في قوله (وذا الكفل) قال رجل صالح غير نبي تكفل لني قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل ففعل ذلك فسمى ذا الكفل وكذا روى ابن أبي نجیح عن مجاهد أيضا ، وروى ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا داود عن مجاهد قال لما كبر اليسع قال لو أني استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم في حياتي حتى أنظر كيف يفعل فجمع الناس فقال من يتقبل مني بثلاث أستخلفه فيصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب قال فقام رجل تردريه الأعين فقال أنا ، فقال أنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم قال فردده ذلك اليوم وقال مثلها في اليوم الآخر فسكت الناس : وقام ذلك الرجل فقال أنا فاستخلفه قال فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك فقال دعوني وإياه فأتاه في صورة شيخ كبير فقير فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة - وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم ، قال فقام ففتح الباب فجعل يفض عليه فقال إن بني وبين قومي خصومة وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا ، وجعل يطول عليه حتى حضر الروح وذهبت القائلة فقال إذا رحت فأتني أخذك بحقك فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينظره فلا يراه ، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا قال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقبل لك إذا قعدت فأتني قال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جعدوني قال فانطلق فإذا رحت فأتني قال فقامته القائلة فراح فجعل ينتظره ولا يراه وشق عليه الناس فقال لبعض أهله لا تدع أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فإني قد شق على النوم فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل : وراك ، وراك قال إني قد أتيتك أمس وذكرته له أمرى فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة في البيت فتسور منها فإذا هو في البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال واستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم أمرك قال أما من قبلي والله فلم تؤت فانظر من أين أتيت قال فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه وإذا الرجل معه في البيت فعرفه فقال أعدوا الله قال نعم أعيتني في كل شيء ففعلت ما ترى لأغضبك فسماء الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير بن إسحق عن داود عن مجاهد بمثله ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يونس حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن مسلم قال : قال ابن عباس كان قاض في بني إسرائيل فحضره الموت فقال من يقوم مقامى على أن لا يغضب قال : فقال رجل : أنا فسمى ذا الكفل

قال فكان ليله جميعاً يصلي ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس قال وله ساعة يقلبها قال فكان كذلك فأتاه الشيطان عند نومه فقال له أصحابه مالك ؟ قال إنسان مسكين له على رجل حق وقد غلبني عليه قالوا كما أنت حتى يستيقظ قال وهو فوق نائم قال فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه قال فسمع فقال مالك قال إنسان مسكين له على رجل حق قال فاذهب فقل له يعطيك قال قد أبى قال اذهب أنت إليه قال فذهب ثم جاء من الغد فقال مالك قال ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً قال اذهب إليه فقل له يعطيك حقك فذهب ثم جاء من الغد حين قال : قال فقال له أصحابه اخرج فقل لله بك تجيء كل يوم حين ينام لا تدعه ينام قال فجعل يصيح من أجل أنى إنسان مسكين لو كنت غنياً ، قال فسمع أيضاً فقال مالك قال ذهبت إليه فضر بني ، قال امش حتى أجيء معك قال فهو ممسك بيده فلما رآه ذهب معه شريده منه ففر . وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث ومحمد بن قيس وأبي حنيفة الأكبر وغيرهم من السلف نحو هذه القصة والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الجاهر أخبرنا سعيد بن بشير حدثنا قتادة عن كنانة بن الأخنس قال سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر : ما كان ذو الكفل نبياً ولكن كان — يعنى فى بنى إسرائيل — رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة فتكفل له ذو الكفل من بعده فكان يصلى كل يوم مائة صلاة فسمى ذا الكفل ، وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال أبو موسى الأشعري فذكره منقطعاً والله أعلم ، وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن عبد الله بن عبد الله عن سعد مولى طلحة عن ابن عمر قال : سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعته إلا مرة أو مرتين حتى عدت سبع مرات ولكن قد سمعته أكثر من ذلك قال « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاه ستين ديناراً على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته أرعدت وبكت فقال ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط وإنما حملني عليه الحاجة قال فتفعلين هذا ولم تفعليه قط ١١ ثم نزل فقال اذهبي بالدينارين لك ثم قال والله لا يعصى الله الكفل أبداً فأت من ليلته فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله للكفل » هكذا وقع في هذه الرواية الكفل من غير إضافة والله أعلم وهذا الحديث لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة وإسناده غريب ، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان الكفل ولم يقل ذو الكفل فلعله رجل آخر والله أعلم

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة ن ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية نينوى وهى قرية من أرض الموصل فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث فلما تحققوا منه ذلك وعلوا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادهن ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ورغبت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادهن ، وثقت الغنم وسخلمها ، فرفع الله عنهم العذاب قال الله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال الله تعالى (فسأهم فكان من المدحضين) أى وقعت عليه القرعة فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه فى البحر وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر — فيما قاله ابن مسعود —

حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقي نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً فان يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجنًا ، وقوله (وذا النون) يعنى الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة . وقوله (إذ ذهب مغاضباً) قال الضحاك لهومه (فظن أن لن نقدر عليه) أى تضيق عليه فى بطن الحوت يروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى (ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاهها * سيجعل الله بعد عسر يسراً) وقال عطية العوفى أى فظن أن لن نقدر عليه أى تقضى عليه كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير فان العرب تقول قدر وقدّر بمعنى واحد ، وقال الشاعر فلا عائد ذاك الزمان الذى مضى * تباركت ما تقدر يكن ذلك الأمر

ومنه قوله تعالى (فالتقى الماء على أمر قد قدر) أى قدر وقوله (فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) قال ابن مسعود ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل وكذا يروى عن ابن عباس وعمر بن الخطاب وميمون وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والضحاك والحسن وقتادة وقال سالم بن أبي الجعد: ظلمة حوت فى بطن حوت آخر فى ظلمة البحر قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما وذلك أنه ذهب به الحوت فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر فسمع يونس تسبيح الحصى فى قراره فعند ذلك وهنالك قال (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وقال عوف الأعرابي لما صار يونس فى بطن الحوت ظن أنه قد مات ثم حرك رحله فلما تحركت سجد مكانه ثم نادى يا رب اتخذت لك مسجداً فى موضع لم يبلغه أحد من الناس وقال سعيد بن أبي الحسن البصرى مكث فى بطن الحوت أربعين يوماً رواهما ابن جبير وقال محمد بن إسحق بن يسار عمن حدثه عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر قال وسبح وهو فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة قال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح ، قال نعم قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله تعالى (وهو سقيم) » رواه ابن جرير ورواه البزار فى مسنده من طريق محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة فذكر بنحوه ثم قال لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخى ابن وهب ثنا عمى حدثني أبو صخر أن يزيد الرقاشي قال سمعت أنس بن مالك ولا أعلم إلا أن أنس يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ أن يونس النبي عليه السلام حين بدأ له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش فقالت الملائكة يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال أما تعرفون ذاك ؟ قالوا لا يا رب ومن هو ؟ قال عبدي يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة قالوا يا رب أولاً ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء قال بلى فأمر الحوت فطرحة فى العراء ، وقوله (فاستجباله ونجّياه من الغم) أى أخرجه من بطن الحوت وتلك الظلمات (وكذلك تنجى المؤمنين) أى إذا كانوا فى الشدائد ودعونا منييين اليها ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء فقد جاء الترحيب فى الدعاء به عن سيد الأنبياء . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن عمير حدثنا يونس بن أبي إسحق الهمداني حدثنا إبراهيم بن محمد بن سعد حدثني والدى محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص رضى الله عنه قال مررت بعثمان ابن عفان رضى الله عنه فى المسجد فسلمت عليه فملاً عينيه منى ثم لم يرد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شيء مرتين قال لا وما ذاك قلت لا إلا أنى مررت بعثمان آنفاً فى المسجد فسلمت عليه فملاً عينيه منى ثم لم يرد على السلام قال فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك

السلام قال ما فعلت قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت قال ثم إن عثمان ذكر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بي آنفا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ما ذكرت قط إلا تعشى بصرى وقلبي غشاوة قال سعد فأنا أنبئك بها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من هذا أبو إسحاق؟ » قال قلت نعم يا رسول الله قال « فمه » قلت لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك قال « نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » ورواه الترمذي والنسائي في اليوم والليلة من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالدة الأحمري عن كثير ابن زيد عن المطلب بن حنطب قال أبو خالدة أحسبه عن مصعب يعني ابن سعد عن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا بدعاء يونس استجيب له » قال أبو سعيد يريد به (وكذلك تنجي المؤمنين) وقال ابن جرير حدثني عمران ابن بكار السكلاعي حدثنا يحيى بن صالح حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن حدثني بشر بن منصور عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبي وقاص يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اسم الله الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى » قال قلت يا رسول الله هي ليونس خاصة أم للجماعة المسلمين قال « هي ليونس بن متى خاصة وللجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عز وجل (فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين) فهو شرط من الله لمن دعاه به » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي شريح حدثنا داود بن المخبر بن محمد بن المقدسي عن كثير بن معبد قال سألت الحسن فقلت يا أبا سعيد: اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى؟ قال ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى (وإذا النون إذ ذهب مغاضبا - إلى قوله - وكذلك تنجي المؤمنين) ابن أخي هذا اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا وقد تقدمت القصة مبسطة في أول سورة مريم وفي سورة آل عمران أيضاً وههنا أخصر منها (إذ نادى ربه) أي خفيه عن قومه (رب لا تذرني فردا) أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس (وأنت خير الوارثين) دعاء وثناء مناسب للمسئلة قال الله تعالى (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه) أي امرأته قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت وقال عبد الرحمن بن مهدي عن طلحة بن عمرو عن عطاء كان في لسانها طول فأصلحها الله وفي رواية كان في خلقها شيء فأصلحها الله وهكذا قال محمد بن كعب والسدي والأظهر من السياق الأول . وقوله (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) أي في عمل القربات وفعل الطاعات (ويدعوننا رغبا ورهبا) قال الثوري رغبا فيما عندنا ورهبا مما عندنا (وكانوا لنا خاشعين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي مصدقين بما أنزل الله وقال مجاهد : مؤمنين حقا وقال أبو العالية خائفين وقال أبو سنان الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً وعن مجاهد أيضا خاشعين أي متواضعين وقال الحسن وقتادة والضحاك خاشعين أي متذللين لله عز وجل وكل هذه الأقوال متقاربة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا محمد بن فضيل حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال : أما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله وتشتوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا

الإلحاف بالمسئلة فإن الله عز وجل أننى على زكريا وأهل بيته فقال (إنهم كانوا يسارعون في الحيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين)

﴿وَأَلْتِي أَحْصَنْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام فيذكر أولاً قصة زكريا ثم يتبعها بقصة مريم لأن تلك مربوطه بهذه فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب فإنها إيجاد ولد من أننى بلا ذكر هكذا وقع في سورة آل عمران وفي سورة مريم وههنا ذكر قصة زكريا ثم أتبعها بقصة مريم بقوله (والتي أحصنت فرجها) يعنى مريم عليها السلام كما قال في سورة التحريم (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا) وقوله (وجعلناها وابنها آية للعالمين) أى دلالة على أن الله على كل شىء قدير وأنه يخلق ما يشاء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون وهذا كقوله (ولنجعله آية للناس) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمر بن على حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن شعيب يعنى ابن بشير عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (للعالمين) قال العالمين الجن والإنس

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله (إن هذه أمتكم أمة واحدة) يقول دينكم دين واحد وقال الحسن البصرى في هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال (إن هذه أمتكم أمة واحدة) أى سنتكم سنة واحدة فقوله إن هذه إن واسمها وأمتكم خبر إن أى هذه شريعتكم التى يدين لكم ووضعت لكم وقوله أمة واحدة نصب على الحال ولهذا قال (وأنا ربكم فاعبدون) كما قال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً - إلى قوله - وأنا ربكم فاتقون) وقال رسول الله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات دينا واحد» يعنى أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) وقوله (وتقطعوا أمرهم بينهم) أى اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب ولهذا قال (كل إلينا راجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل بحسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولهذا قال (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن) أى قلبه مصدق وعمل عملاً صالحاً (فلا كفران لسعيه) كقوله (إننا لانضيع أجر من أحسن عملاً) أى لا يكفر سعيه وهو عمله بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال (وإننا له كاتبون) أى يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شىء

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَقُمْتُ عَلَى الْوَعْدِ الْحَقِّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْتَيْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

يقول تعالى (وحرام على قرية) قال ابن عباس وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة هكذا صرح به ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أى لا يتوبون والقول الأول أظهر والله أعلم ، وقوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) قد قدمنا أنهم من سلالة

آدم عليه السلام بل هم من نسل نوح أيضا من أولاد يافث أي أبي الترك والترك شذمة منهم تركوا من وراء السد الذي بناه ذوالقرنين وقال (هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا * وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الآية وقال في هذه الآية الكريمة (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) أي يسرعون في المشي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك (ولا ينبئك مثل خبير) هذا إخبار عالم ما كان وما يكون الذي يعلم غيب السموات والأرض لإله إلا هو . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن مثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبد الله بن أبي يزيد قال : رأى ابن عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض يلعبون فقال ابن عباس هكذا يخرج يأجوج ومأجوج وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية ﴿ فالحديث الأول ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس كما قال الله عز وجل (وهم من كل حدب ينسلون) فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ويشربون مياه الأرض حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون مافيه حتى يتركوه يابسا حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول قد كان ههنا ماء مرة حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء قال ثم يهزأ أحدهم حربته ثم رمى بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دما للبلاء والفتنة فيبيناهم على ذلك بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كنف الجراد الذي يخرج في أعناقهم فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس فيقول المسلمون ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ، قال فينحدر رجل منهم محتسبا نفسه قد أوطئها على أنه مقتول فينزل فيجدهم موتى بعضهم على بعض فينادي ياه مشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفأكم عدوكم فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم فما يكون لهم رعى إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط » ورواه ابن ماجه من حديث يونس بن بكير عن ابن إسحاق به ، ﴿ الحديث الثاني ﴾ قال الإمام أحمد أيضا حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثني يحيى بن جابر الطائفي قاضي حمص حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي عن أبيه أنه سمع النواس بن سميان السكلابي قال ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفف فيه ورفع حتى ظنناه في ناحية النخل فقال « غير الدجال أخوفني عليكم فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ امرئ حجيجه نفسه والله خليفتي على كل مسلم وإنه شاب جمع ققط عينه طافية وإنه يخرج خلة بين الشام والعراق فعاث يمينا وشمالا يعباد الله اثبتوا - قلنا يارسول الله مالئته في الأرض ؟ - قال أربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم » قلنا يارسول الله فذلك اليوم الذي هو كسنة أي كفيينا فيه صلاة يوم وليلة قال « لا . اقدروا له قدره » قلنا يارسول الله فما أسرع في الأرض قال « كالفيت استدبرته الريح قال فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنب وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذرى وأمدته خواصر وأسبغه ضروعا ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله فتبعه أموالهم فيصبحون محلين ليس لهم من أموالهم شيء ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتبعه كنوزها كيما سيب النحل - قال - ويأمر برجل فيقتل فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتي رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل إليه فيبيناهم على ذلك إذ بعث الله عز وجل المسيح عيسى بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق بين مهرودتين واضعا يديه على أجنحة ملكين فيتبعه فيدركه فيقتله عند باب بلد الشرق - قال - فيبيناهم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أني قد أخرجت عبادا من عبادي لا يدان لك بقتالهم فحرر عبادي إلى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج كما قال تعالى (وهم من كل حدب ينسلون) فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل عليهم نغفا فيرقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة فيهبط عيسى وأصحابه فلا يجدون في الأرض بيتا إلا قد ملأه

زهمهم وينتقم فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل فيرسل الله عليهم طيراً كأنها أعناق البخت فتحمّلهم فتطرحهم حيث شاء الله » قال ابن جابر فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال فتطرحهم بالمهيل : قال ابن جابر ققلت يا أبا يزيد وأين الهيل قال مطلع الشمس قال « ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة ويقال للأرض انبتى ثمرك ودرى بركتك قال فيومئذياً كل النفر من الرمانة فيستظلون بقحفها وبارك في الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر تكفي الفخذ . والشاة من الغنم تكفي أهل البيت قال فيبيناهم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أوقال مؤمن - ويبقى شرار الناس يهارجون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة » انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري ورواه مع بقية أهل السنن من طرق عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وقال الترمذي حسن صحيح

الحديث الثالث ﴿ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عمرو عن ابن حرملة عن خالته قالت : خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصعبه من لدغة عقرب فقال « إنكم تقولون لاعدو لكم وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج عراض الوجوه صغار العيون صهب الشفاف من كل حذب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة » وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو عن خالد بن عبد الله بن حرملة المدلجي عن خالته له عن النبي ﷺ فذكره مثله سواء .

الحديث الرابع ﴿ قد تقدم في آخر تفسير سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد عن هشيم عن العوام عن جبلة ابن سحيم عن مرثد بن عمار عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « لقيت ليلة أسرى في إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام - قال - فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال لا علم لي بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال أما وجبتها فلا أعلم بها أحد إلا الله وفيما عهد إلى ربي أن السجال خارج وبمعي قضييان فإذا رأي ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله إذا رأي حتى إن الحجر والشجر يقول ياه مسلم إن تختى كافراً ففعل فافتله قال فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم - قال - فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيطون بلادهم ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمترون على ماء إلا شربوه - قال - ثم يرجع الناس إلى أوطانهم يشكونهم فأدعوا الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى نجوى الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقدفهم في البحر ففما عهد إلى ربي أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدري أهلها متى تفجؤهم ولادها ليلاً أو نهاراً » ورواه ابن ماجه عن محمد بن بشار عن يزيد بن هرون عن العوام بن حوشب به نحوه وزاد قال العوام ووجد تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون) ورواه ابن جرير ههنا من حديث جبلة به والأحاديث في هذا كثيرة جداً والآثار عن السلف كذلك ، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معمر عن غير واحد عن حميد بن هلال عن أبي الصيف قال : قال كعب إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فثوبهم فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجى ، غدا فنخرج فيعيده الله كما كان فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان فيحفرونه حتى يسمع الذين يلونهم قرع فثوبهم فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول نجى ، غدا فنخرج إن شاء الله فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه فيحفرون حتى يخرجوا فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة فيشربون ماءها ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون قد كان ههنا مرة ماء فيفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليهم مخضبة بالدماء فيقولون غلبنا أهل الأرض وأهل السماء فیدعوا عليهم عيسى بن مريم عليه السلام فيقول اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم فاكفناهم بما شئت فيسلط الله عليهم دوداً يقال له النغف فيفرس رقابهم ويبعث الله عليهم طيراً تأخذهم بمناقيرها فتلقهم في البحر ويبعث الله عينا يقال لها الحياة يطهر الله الأرض وينبت بها حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن قيل وما السكن يا كعب قال أهل

البيت قال فينبأ الناس كذلك إذا أتاها الصريخ أن ذا السويقتين يريد أن يبيعه عيسى بن مريم طليعة سبعمائة أو بين السبعمائة والثمانمائة حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحاً عسائية طيبة فيقبض فيها روح كل مؤمن ثم يبقى عجاج الناس فيتسافدون كما تتسافد البهائم فمئل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه متى تضع قال كعب فمن قال بعد قولي هذا شيئاً أو بعد علمي هذا شيئاً فهو المكلف ، وهذا من أحسن سياقات كعب الأخبار لما شهد له من صحيح الأخبار ، وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق ، وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمران عن قتادة عن عبد الله بن أبي عتبة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج » انفرد بإخراجه البخاري وقوله (واقرب الوعد الحق) يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأحوال والزلزال والبلابل أزفت الساعة واقتربت فإذا كانت ووقعت قال الكافرون هذا يوم عسر ، ولهذا قال تعالى (فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام (ياويلنا) أي يقولون ياويلنا (قد كنا في غفلة من هذا) أي في الدنيا (بل كنا ظالمين) يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءَ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْنا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قال ابن عباس أي وقودها يعني كقوله (وقودها الناس والحجارة) وقال ابن عباس أيضاً حصب جهنم يعني شجر جهنم ، وفي رواية قال (حصب جهنم) يعني حطب جهنم بالزنجية وقال مجاهد وعكرمة وقتادة حطبها وهي كذلك في قراءة علي وعائشة رضي الله عنهما وقال الضحاك حصب جهنم أي ما يرمى به فيها وكذا قال غيره والجميع قريب وقوله (أنتم لها واردون) أي داخلون (لوكان هؤلاء آلهة ما وردوها) يعني لوكانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها (وكل فيها خالدون) أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون (لهم فيها زفير) كما قال تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) والزفير خروج أنفاسهم والشهيق ولوج أنفاسهم (وهم فيها لا يسمعون)

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن فضيل حدثنا عبد الرحمن يعني السعدي عن أبيه قال : قال ابن مسعود إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توايت من نار فيها مسامير من نار فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره ثم تلا عبد الله (لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) ورواه ابن جرير من حديث حجاج بن محمد عن السعدي عن يونس بن حبان عن ابن مسعود فذكره ، وقوله (إن الذين سبقت لهم منا الحسنَى) قال عكرمة الرحمة وقال غيره السعادة (أولئك عنها مبعدون) لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنَى وزيادة) وقال (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله ما بهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب فقال (أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيستها) أي حريقها في الأجساد ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عمار حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن أبيه عن أبي عثمان الحريري عن أبي عثمان (لا يسمعون حسيستها) قال حيات على الصراط تلسعهم فإذا لسعهم

قال حس حس وقوله (وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون) فسلمهم من المحذور والرهوب وحصل لهم المطلوب والمحبوب قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي شريح حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني عن ليث بن أبي سليم عن ابن عم النعمان بن بشير عن النعمان بن بشير قال وسمي مع علي ذات ليلة فقرا (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال أنا منهم وعمر منهم وعثمان منهم والزيير منهم وطلحة منهم وعبد الرحمن منهم أو قال سعد منهم قال وأقيمت الصلاة فقام وأظنه يجزئونه وهو يقول (لا يسمعون حسيسها) وقال شعبة عن أبي بشر عن يوسف المكي عن محمد بن حاطب قال سمعت عليا يقول في قوله (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى) قال عثمان وأصحابه ، ورواه ابن أبي حاتم أيضا ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد وليس بابن ماهر عن محمد بن حاطب عن علي فذكره ولفظه عثمان منهم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) فأولئك أولياء الله يمشون على الصراط مراهم أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثيا فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزيز والمسيح كما قال حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج وعثمان عن عطاء عن ابن عباس (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) ثم استثنى فقال (إن الدين سبقت لهم منه الحسنى) فيقال هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل وكذا قال عكرمة والحسن وابن جريج وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى) قال نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة حدثنا أبو زهير حدثنا سعد بن طريف عن الأصمعي عن علي في قوله (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى) قال كل شيء يعبد من دون الله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى بن مريم إسناده ضعيف وقال ابن أبي نجيب عن مجاهد (أولئك عنها مبعدون) قال عيسى وعزير والملائكة وقال الضحاك عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي صالح وغير واحد وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا غريبا جدا فقال حدثنا الفضل بن يعقوب المرخاني حدثنا سعيد بن مسleme بن عبد الملك حدثنا الليث بن أبي سليم عن مغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال عيسى وعزير والملائكة وذكر بعضهم قصة بن الزبيري ومناظرة المشركين قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن علي بن سهل حدثنا محمد بن حسن الأنماطي حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعة حدثنا يزيد بن أبي حكيم حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال جاء عبد الله بن الزبيري إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) فقال ابن الزبيري قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى بن مريم كل هؤلاء في النار مع آلهتنا ؟ فنزلت (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ثم نزلت (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه الأحاديث المختارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان يعني الثوري عن الأعمش عن أصحابه عن ابن عباس قال لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال المشركون فالملائكة وعزير وعيسى يبعدون من دون الله فنزلت (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) الآلهة التي يبعدون (وكل فيها خالدون) وروى عن أبي كدينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل ذلك وقال فنزلت (إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله في كتاب السيرة وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جالس معهم وفي المسجد غير واحد من رجال قريش فتسكك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث فسكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفحمه وتلا عليه وعليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) — إلى قوله — هـ

فيها لا يسمعون) ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبير السهمي حتى جلس معهم فقال الوليد ابن الغيرة لعبد الله بن الزبير والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب أنفأ ولا قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد الله بن الزبير أما والله لو وجدته لحصمته فسلوا محمداً كل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده فجنح نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيزاً والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبير ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرهم بعبادته » وأنزل الله (إن الذين سبقتم لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) أى عيسى وعزير ومن عبدوا من الأجار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ونزل فيما يذكر أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون - إلى قوله - ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) ونزل فيما ذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضره من حجة وخصومته (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك لإجدلاً بل هم قوم خصمون * إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لى إسرائيل * ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) أى ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام فكفى به دليلاً على علم الساعة يقول « فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم » وهذا الذى قاله ابن الزبير خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى حماد لا تعقل ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعبادها ولهذا قال (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده وعول ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن ما لا يعقل عند العرب وقد أسلم عبد الله بن الزبير بعد ذلك وكان من الشعراء المشهورين ، وقد كان يهاجى المسلمين أولاً ثم قال معتذراً

يا رسول المليك إن لسانى * راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذا جارى الشيطان فى سنن النفسى ومن مال ميله مشور

وقوله (لا يحزنهم الفزع الأكبر) قيل المراد بذلك الموت رواه عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة عن عطاء وقيل المراد بالفزع الأكبر النفخة فى الصور قاله العوفي عن ابن عباس وأبو سنان سعيد بن سنان الشيبانى واختاره ابن جرير فى تفسيره وقيل حين يؤمر بالعبء إلى النار قاله الحسن البصرى وقيل حين تطبق النار على أهلها قاله سعيد بن جبير وابن جرير وقيل حين يذبح الموت بين الجنة والنار قاله أبو بكر الهذلى فيما رواه ابن أبى حاتم عنه ، وقوله (وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) يعنى تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم (هذا يومكم الذى كنتم توعدون) أى فآملوا ما يسركم .

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ ﴾

يقول تعالى هذا كائن يوم القيامة (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب) كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد قال البخارى حدثنا مقدم بن محمد حدثنى عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتسكون السموات بيمينه » انفرد به من هذا الوجه البخارى رحمه الله : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أنى حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرقى حدثنا محمد بن سلمة عن أبى الواصل عن أبى المليح الأزدي عن أبى الجوزاء الأزدي عن ابن عباس قال : يطوى الله السموات السبع بما فيها من الخليفة والأرضين السبع بما فيها من

الحليقة يطوى ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة ، وقوله (كطى السجل للكتب) قيل المراد بالسجل الكتاب ، وقيل المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة ، قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا يحيى بن يمان حدثنا أبو الوفاء الأشجعي عن أبيه عن ابن عمر في قوله تعالى (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتاب) ، قال السجل ملك فإذا صعد بالاستغفار قال اكتبها نورا وهكذا رواه ابن جرير عن أبي كريب عن ابن يمان به ، قال ابن أبي حاتم وروى عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين أن السجل ملك ، وقال السدي في هذه الآية السجل ملك موكل بالصحف فإذا مات الإنسان رفع كتابه إلى السجل فطواه ورفعته إلى يوم القيامة ، وقيل المراد به اسم رجل صحابي كان يكتب للنبي ﷺ الوحي ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا نوح بن قيس عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتاب) قال السجل هو الرجل ، قال نوح وأخبرني يزيد بن كعب هو العوذى عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبي ﷺ وهكذا رواه أبو داود والنسائي كلاهما عن قتيبة بن سعيد عن نوح بن قيس عن يزيد بن كعب عن عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال : السجل كاتب للنبي ﷺ صلى الله عليه وسلم ورواه ابن جرير عن نصر بن علي الجهضمي كما تقدم ورواه ابن عدى من رواية يحيى ابن عمرو بن مالك النكري عن أبيه عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كاتب يسمى السجل وهو قوله (يوم تطوى السماء كطى السجل للكتاب) قال كما يطوى السجل الكتاب كذلك تطوى السماء ثم قال وهو غير محفوظ . وقال الخطيب البغدادي في تاريخه أنبأنا أبو بكر البرقاني أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجي أنبأنا أحمد بن الحسين الكرخي أن حمدان بن سعيد حدثهم عن عبد الله بن غير عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر قال السجل كاتب للنبي ﷺ وهذا منكر جدا من حديث نافع عن ابن عمر لا يصح أصلا وكذلك ما تقدم عن ابن عباس من رواية أبي داود وغيره لا يصح أيضا ، وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه وإن كان في سنن أبي داود منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المزني فصح الله في عمره ونسأ في أجله ، وختم له بصلاح عمله ، وقد أفردت لهذا الحديث جزءا على حديثه والله الحمد . وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للانكار على هذا الحديث ورده أتم رد وقال : لا يعرف في الصحابة أحد اسمه السجل وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم معروفون وليس فيهم أحد اسمه السجل ، وصدق رحمه الله في ذلك وهو من أقوى الأدلة على نكارة هذا الحديث ، وأما من ذكره في أسماء الصحابة فإنما اعتمد على هذا الحديث لا على غيره والله أعلم ، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة قاله علي بن أبي طلحة والعوفي عنه ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة فعلى هذا يكون معنى الكلام يوم تطوى السماء كطى السجل للكتاب أى على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله (فلما أسلموا وتله للجهنم) أى على الجبين ، وله نظائر في اللغة والله أعلم . وقوله (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) يعنى هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديدا كما بدأهم هو القادر على إعادتهم وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعده الله الذي لا يتخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك ولهذا قال (إنا كنا فاعلين) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع أبو جعفر وعبيدة العمى قالوا حدثنا شعبة عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال « إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » وذكر تمام الحديث أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ذكره البخاري عند هذه الآية في كتابه ، وقد روى ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عائشة عن رسول الله ﷺ نحو ذلك ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (كما بدأنا أول خلق نعيده) قال : يهلك كل شيء كما كان أول مرة

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغا لِقَوْمٍ

عَبِيدِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٠١﴾

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثته الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم) وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ولهذا قال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) قال الأعمش : سألت سعيد بن جبيرة عن قوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) فقال الزبور : التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وقال مجاهد : الزبور الكتاب ، وقال ابن عباس والشعبي والحسن وقتادة وغير واحد : الزبور الذي أنزل على داود والله ذكر التوراة وعن ابن عباس الذكر القرآن ، وقال سعيد بن جبيرة الذي ذكر الله في السماء ، وقال مجاهد الزبور الكتاب بعد الذكر والذكر أم الكتاب عند الله واختار ذلك ابن جرير رحمه الله وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول ، وقال الثوري هو اللوح المحفوظ ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء والذكر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون . وقال مجاهد عن ابن عباس (إن الأرض يرثها عبادي الصالحون) قال أرض الجنة وكذا قال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبيرة والشعبي وقتادة والسدي وأبو صالح والربيع بن أنس والثوري ، وقال أبو الدرداء نحن الصالحون وقال السدي هم المؤمنون ، وقوله (إن في هذا لبلغا لقوم عابدين) أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ بلغا لمنفعه وكفاية لقوم عابدين وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم وقوله (وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ومن ردها وجحدتها خسر الدنيا والآخرة كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبش القرار) وقال تعالى في صفة القرآن (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) . وقال مسلم في صحيحه حدثنا ابن أبي عمير حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة قال قيل يا رسول الله ادع على المشركين قال « إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة » انفرد بإخراجه مسلم وفي الحديث الآخر « إنما أنا رحمة مهداة » رواه عبد الله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً قال إبراهيم الحربي وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أباه هريرة . وكذا قال البخاري وقد سئل عن هذا الحديث فقال كان عند حفص بن غياث مرسلاً . قال الحافظ ابن عساكر وقد رواه مالك بن سعيد بن الحسن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً ثم ساقه من طريق أبي بكر ابن المقرئ وأبي أحمد الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفي حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري عن أبي أسامة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أنا رحمة مهداة » ثم أورده من طريق الصائغ بن مسعود عن سفيان بن عيينة عن مسعر عن سعيد بن خالد عن رجل عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين » . قال أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان حدثنا أحمد بن صالح قال وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدراوردي وإبراهيم بن محمد بن عمر بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عمرو بن عوف عن محمد بن صالح التمار عن ابن شهاب عن محمد بن جبيرة بن مطهم عن أبيه قال : قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن خمره يا معشر قريش إن محمداً

نزل يثرب وأرسل طلائعه وإنما يريد أن يصيب منكم شيئاً فاحذروا أن تمرؤا طريقه أو تقاربوه فإنه كالأسد الضارى إنه حق عليكم لأنكم تفتيموه نفى الفردان عن الناس والله إن له لسحرة ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين وإنكم قد عرفتم عداوة ابني قيلة يعنى الأوس والخزرج فهو عدو استعان بعدو فقال له مطعم بن عدى يا أبا الحكم والله ما رأيت أحداً أصدق لساناً ولا أصدق موعداً من أخيكم الذى طردتم وإذ فعلتم الذى فعلتم فكونوا أكف الناس عنه قال أبو سفيان بن الحارث كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابني قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة وإن أطمعتموني ألتأتموم حير كنانة أو تخرجوا محمداً من بين ظهرانيهم فيكون وحيداً مطروداً ، وأما ابنا قيلة فوالله ما هما وأهل دهلك فى المدلة إلا سواء وسأ كفكم حدهم وقال

سأمنح جانباً منى غليظاً * على ما كان من قرب وبعد * رجال الحزرجية أهل ذل * إذا ما كان هزل بعد جد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « والذى نفسى بيده لأقتلنهم ولأصلبنهم ولأهدينهم وهم كارهون إني رحمة بعثنى الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر وأنا الحاشى الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب » وقال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحاً . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثني عمرو بن قيس عن عمرو بن أبى قرة الكندى قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حذيفة إلى سلمان فقال سلمان يا حذيفة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال « أيمارجل سببته فى غضبي أو لعنته لعنة فأنا أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون وإنما بعثنى الله رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة » ورواه أبو داود عن أحمد بن يونس عن زائدة فإن قيل فأى رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير حدثنا إسحق بن شاهين حدثنا إسحق الأزرق عن المسعودى عن رجل يقال له سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفى مما أصاب الأمم من الحسف والقذف وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث المسعودى عن أبى سعد وهو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه والله أعلم وقد رواه أبو القاسم الطبرانى عن عبدان ابن أحمد عن عيسى بن يونس الرملى عن أبوب بن سويد عن المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين) قال من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الحسف والقذف

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيْنَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُذِرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ * إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ * وَإِنْ أُذِرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يقول تعالى أمر أرسوله صلوات وسلامه عليه أن يقول للشركين (إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون) أى متبعون على ذلك مستسلمون منقادون له (فإن تولوا) أى تركوا ما دعوتهم إليه (فقل آذنتكم على سواء) أى أعلمتكم أنى حرب لكم كما أنكم حرب لى برى ومنكم كما أنتم بر آمنى كقوله (وإن كذبوك فقل لى عملى ولاكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برى مما تعملون) وقال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) أى ليسكن علمك وعلمهم بنبد اليهود على سواء وهكذا ههنا (فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء) أى أعلمتكم ببراءتى منكم وبراءتكم منى لعلى بذلك . وقوله (وإن أذرى أقرب أم بعيد ما توعدون) أى هو واقع لا محالة ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده (إنه يعلم الجهر من القول

ويعلم ما تكتُمون) أى إن الله يعلم الغيب جميعه ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ويعلم السر وأخفى ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل . وقوله (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) أى وما أدري لعل هذافتنة لكم ومتاع إلى حين قال ابن جرير لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى وحكاه عون عن ابن عباس فالله أعلم (قال رب احكم بالحق) أى افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين) وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ، وعن مالك عن زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا شهد غزاة قال (رب احكم بالحق) وقوله (وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) أى على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك والله المستعان عليكم فى ذلك . آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام والله الحمد والمنة .

(تفسير سورة الحج)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها ، وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة ، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها) وقال تعالى (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة) الآية ، وقال تعالى (إذا رجفت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا) الآية فقال قائلون هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة فى قوله (إن زلزلة الساعة شىء عظيم) قال قبل الساعة ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث الثورى عن منصور والأعمش عن إبراهيم عن علقمة فذكره ، قال وروى عن الشعبي وإبراهيم وعبيد بن عمير نحو ذلك وقال أبو كدينة عن عطاء عن عامر الشعبي (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم) قال هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة ، وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك فى حديث الصور من رواية إسماعيل بن رافع قاضى أهل المدينة عن يزيد بن أبي زياد عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب القرظى عن رجل عن أنى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لمسافرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاها إسرأفيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قال أبو هريرة يارسول الله وما الصور ؟ قال قرن قال فكيف هو ؟ قال « قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله إسرأفيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء الله ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) فتسير الجبال فتكون ترابا وترج الأرض بأهلها رجا وهى التى يقول الله تعالى (يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة) فتكون الأرض كالفينة الموبقة فى البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها وكالغنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح فيمتمد الناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضا وهى التى يقول الله تعالى (يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من

الله من عاصم ومن يضل الله فباله من هاد) فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمرا عظيما فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالملهل ، ثم خسف شمسها وقمرها واشتدت نجومها ثم كسخت عنهم - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - والأموات لا يعلمون بشيء من ذلك « قال أبوهريرة فمن استثنى الله حين يقول (ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) قال « أولئك الشهداء وإنما يصل الفزع إلى الأحياء أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) وهذا الحديث قد رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغير واحد مطولا جدا والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنه قبل يوم الساعة أضيفت إلى الساعة لقربها منها كما يقال أشراط الساعة ونحو ذلك والله أعلم ، وقال آخرون بل ذلك هول وفزع وزلزال ولبلال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور واختار ذلك ابن جرير واحتجوا بأحاديث : (الأول) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن هشام حدثنا قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره وقد تقارب من أصحاب السير رفع بهاتين الآيتين صوته : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) فلما سمع أصحابه بذلك حثوا الملطي وعرفوا أنه عند قول يقوله فلما دنوا حوله قال « أتدرون أي يوم ذاك ، ذاك يوم ينادي آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل فيقول يا آدم ابعث بعثك إلى النار فيقول يارب وما بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة » قال فأبأس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضا حكمه فلما رأى ذلك قال « أبشروا واعملوا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال فسرى عنهم ثم قال « اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو الرقعة في ذراع الدابة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي في كتاب التفسير من سننهما عن محمد بن بشار عن يحيى وهو القطان عن هشام وهو الدستوائي عن قتادة به بنحوه وقال الترمذي حسن صحيح (طريق آخر) لهذا الحديث : قال الترمذي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا ابن جده عن الحسن عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال لما نزلت (يا أيها الناس اتقوا ربكم - إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد) قال نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال « أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال - ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار قال يارب وما بعث النار قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة » فأنشأ المسلمون فيكون فقال رسول الله ﷺ « قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن عت وإلا كملت من المنافقين ، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقعة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير - ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة - فكبروا ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة - فكبروا ثم قال - إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » فكبروا ثم قال ولا أدري أقال الثلثين أم لا وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة به ثم قال الترمذي أيضا هذا حديث صحيح وقد روى عن عروة عن الحسن عن عمران بن الحصين وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن والعلاء بن زياد العدوي عن عمران بن الحصين فذكره وهكذا روى ابن جرير عن بنادر عن غندر عن عوف عن الحسن قال باغى أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العسرة ومعه أصحابه بعد ما شارف المدينة قرأ (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وذكر الحديث فذكر نحو سياق ابن جده عن الله أعلم ، (الحديث الثاني) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن الطباع حدثنا أبو سفيان يعني العمري عن معمر عن قتادة عن أنس قال نزلت (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) وذكر يعني نحو سياق الحسن عن عمران غير أنه قال ومن هلك من كثرة الجن والإنس ،

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى ذالما لمن كذب بالبعث وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى معرضا عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید من الإنس والجن وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الشلالة الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم) أى علم صحيح (ويتبع كل شيطان مرید ، كتب عليه) قال مجاهد يعنى الشيطان يعنى كتب عليه كتابة قدرية (أنه من تولاه) أى اتبعه وقلده (فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير) أى يضلّه في الدنيا ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج وقد قال السدى عن أبى مالك نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث وكذلك قال ابن جريح . وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن مسلم البصرى حدثنا عمرو بن البختري أبو قتادة حدثنا المعتمر حدثنا أبو كعب السكي قال: قال خبيث من خبيثاء قريش أخبرنا عن ربكم من ذهب هو أو من فضة هو أو من نحاس هو ؟ فتعقعت السماء قطعة - والقطعة في كلام العرب الرعد - فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه ، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد : جاء يهودى فقال يا محمد أخبرنى عن ربك من أى شيء هو من در أم من يا قوت ؟ قال فجاءت صاعقة فأخذته

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِمِمَّمَوْا أَسَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتَّقُوا وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْخَلْقُ وَأَنَّهُ يَخْفِي الْغُيُوبَ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْأُبُورِ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال (يا أيها الناس إن كنتم في ريب) أى في شك (من البعث) وهو المعاد ، وقيام الارواح والاجساد ، يوم القيامة (فانا خالقناكم من تراب) أى أصل برئه لكم من تراب وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام (ثم من نطفة) أى ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين (ثم من علقه ثم مضغة) وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجمع إليها ثم تنقب علقه حمراء بإذن الله فتعكث كذلك أربعين يوماً ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى (ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) أى كما تشاهدونها (لنبيين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) أى وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها كما قال مجاهد في قوله تعالى (مخلقة وغير مخلقة) قال هو السقط مخلوق وغير مخلوق فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفض فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى وكتب رزقها وأجلها وشقي أو سعيد كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق

« إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح »

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث داود بن أبي هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن قيل غير مخلقة لم تكن نسمة وقذفها الأرحام دما وإن قيل مخلقة قال أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد ما الأجل وما الأثر وبأي أرض يموت . قال فيقال للنطفة من ربك ؟ فتقول الله فيقال من رازقك ؟ فتقول الله فيقال له اذهب إلى الكتاب فانك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال فتخلق فتعيش في أجهلها وتأكل رزقها وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك ثم تلاعها الشعبي (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفها الأرحام دما وإن كانت مخلقة نكست نسمة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوما أو خمس وأربعين فيقول أي رب أشقي أم سعيد فيقول الله ويكتبان فيقول أذكر أم أنثى فيقول الله ويكتبان ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ثم تطوى الصحف فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص » ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة ومن طريق آخر عن أبي الطفيل بنحو معناه . وقوله (ثم نخرجكم طفلا) أي ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ولهذا قال (ثم لتبلغوا أشدكم) أي يتكامل القوى ويتزايد ويصل إلى عفوان الشباب وحسن النظر (ومنكم من يتوفى) أي في حال شبابه وقواه (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الحرف وضعف الفكر ولهذا قال (لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) كما قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقد قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا خالد الزيات حدثني داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصاري عن أنس بن مالك رفع الحديث قال « المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان كانا معه أن يحفظا وأن يشهدا فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام آمنه الله من البلياء الثلاث : الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته ونجاوزه عن سيئاته فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفعه في أهل بيته وكتب أمين الله وكان أسير الله في أرضه فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه » هذا حديث غريب جدا وفيه نكارة شديدة ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده موقوفا ومرفوعا فقال : حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملي عن عمرو بن جعفر عن أنس قال : إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة آمنه الله من أنواع البلياء من الجنون والبرص والجذام . فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها . وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله في أرضه وشفعه في أهله » ثم قال حدثنا هشام حدثنا الفرج حدثني محمد بن عبد الله العامري عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، ورواه الإمام أحمد أيضا حدثنا أنس بن عياض حدثني يوسف بن أبي بردة الأنصاري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن

أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والبرص والجذام » وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء ورواه الحافظ أبو بكر البرز عن عبد الله بن شبيب عن أبي شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبي قتادة العدوي عن ابن أخي الزهري عن عمه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الانابة إليه بما يحب فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله وأحبه أهل السماء فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله في أرضه وشفع في أهل بيته »

وقوله (وترى الأرض هامدة) هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة غبراء مهشمة . وقال السدي ميتة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشجار النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ولهذا قال تعالى (وأنبتت من كل زوج بهيج) أي حسن المنظر طيب الريح . وقوله (ذلك بأن الله هو الحق) أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء (وأنه يحيي الموتى) أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع (إن الذي أحياها يحيي الموتى إنه على كل شيء قدير) (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) (وأن الساعة آتية لا ريب فيها) أي كائنة لا شك فيها ولا مرية (وأن الله يبعث من في القبور) أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم ربما يوجد لهم بعد العدم كما قال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) والآيات في هذا كثيرة . وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدي عن عمه أبي رزین العقيلي واسمه لقيط بن عامر أنه قال يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخدبا به ؟ » قلنا بلى ، قال « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه ؟ قال « أما مررت بوادي أهلك ممحلا ؟ » قال بلى قال « ثم مررت به يهتر خضرأ » قال بلى قال « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به ثم رواه الإمام أحمد أيضا حدثنا علي بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبي رزین العقيلي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال « أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخضبة ؟ » قال نعم قال « كذلك النشور » والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبي الحجاج عن معاذ بن جبل قال : من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور دخل الجنة

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صحيح . بل بمجرد الرأي والهوى ، وقوله (ثانی : ظلمه) قال ابن عباس

وغيره مستكبر عن الحق إذا دعى إليه ، وقال مجاهد وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم (ثاني عطفه) أى لاوى عطفه وهى رقبته يعنى يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثنى رقبته استكباراً كقوله تعالى (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاطين مبين فتولى بركنه) الآية وقال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وقال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤسهم ورأيهم يصدون وهم مستكبرون) وقال لقمان لابنه (ولا تصغر خدك للناس) أى تميله عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى (وإذا تتلى عليه آياتنا لى مستكبراً) الآية . وقوله (ليضل عن سبيل الله) قال بعضهم هذه لام العاقبة لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندون أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله . ثم قال تعالى (له في الدنيا خزي) وهو الاهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاءه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة لأنها أكبر همه ومبلغ علمه (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك) أى يقال له هذا تقريعاً وتوبيخاً (وأن الله ليس بظلام للعبيد) كقوله تعالى (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترنون) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام عن الحسن قال بلغني أن أحدهم غرق في اليوم سبعين ألف مرة

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا لَازَمُوا الضُّرَّ وَمَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ انْقِلَابٌ الْمُبِيدُ * يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾

قال مجاهد وقتادة وغيرهما (على حرف) على شك وقال غيرهم على طرف ومنه حرف الجبل أى طرفه أى دخل في الدين على طرف فان وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر . وقال البخارى حدثنا إبراهيم بن الحارث حدثنا يحيى بن أبي بكر حدثنا إسرائيل عن أبي الحصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الناس من يبعد الله على حرف) قال كان الرجل يقدم المدينة فان ولدت امرأته غلاماً وتنجت خيله قال هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنج خيله قال هذا دين سوء وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحاق القمى عن جعفر بن أبي الغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألون فإذا رجعوا إلى بلادهم فان وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن قالوا إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا ما في ديننا هذا خير فأنزل الله على نبيه (ومن الناس من يبعد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به) الآية . وقال العوفي عن ابن عباس : كان أحدهم إذا قدم المدينة وهم أرض دونه فان صح بها جسمه وتنجت فرسه مهراً حسناً وولدت امرأته غلاماً رضى به واطمأن إليه وقال ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيراً وإن أصابته فتنة والفتنة البلاء أى وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً ، وذلك الفتنة ، وهكذا كرقادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه فان أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أوضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر ، وقال مجاهد في قوله (انقلب على وجهه) أى ارتد كافراً وقوله (خسر الدنيا والآخرة) أى فلا هو حصل من الدنيا على شيء وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والاهانة ، ولهذا قال تعالى (ذلك هو الخسران المبين) أى هذه هى الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة وقوله

(يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه) أى من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهى لاتنفعه ولا تضره (ذلك هو الضلال البعيد) ، وقوله (يدعو لمن ضره أقرب من نفعه) أى ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن وقوله (لبئس المولى ولبئس العشير) قال مجاهد يعنى الوثن يعنى لبئس هذا الذى دعاه من دون الله مولى يعنى ولياً وناصرأ (وبئس العشير) وهو الخالط والمعاشر واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب (من يعبد على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) وقول مجاهد إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام والله أعلم

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا بإيمانهم بأفعالهم فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات فأورثهم ذلك سكناً الدرجات العاليات فى روضات الجنات ، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال (إن الله يفعل ما يريد)

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ * وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾

قال ابن عباس من كان يظن أن لن ينصره الله محمدأ صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أى بحبل (إلى السماء) أى سماء بيته (ثم ليقطع) يقول ثم ليختمق به وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (فليمدد بسبب إلى السماء) أى ليتوصل إلى بلوغ السماء فان النصر إنما يأتى محمدأ من السماء (ثم ليقطع) ذلك عنه إن قدر على ذلك وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى وأبلغ فى التسمك فان المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدأ وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فان الله ناصر له لا محالة قال الله تعالى (إنا لننصر رسلاً ووالذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) الآية ولهذا قال (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيط) قال السدى يعنى من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وقال عطاء الخراسانى فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيط وقوله (وكذلك أنزلناه) أى القرآن (آيات بينات) أى واضحات فى لفظها ومعناها حجة من الله على الناس (وأن الله يهدي من يريد) أى يضل من يشاء ويهدي من يشاء وله الحكمة التامة والحجة القاطعة فى ذلك (لا يستل عما يفعل وهم يستلون) أما هو فالحكمة ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين وقد قدمنا فى سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الناس فيهم والنصارى والمجوس والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فانه تعالى (يفصل بينهم يوم القيامة) ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار فانه تعالى شهيد على أفعالهم حفيظ لأقوالهم عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ

وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) وقال ههنا (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض) أي من الملائكة في أقطار السموات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطيور (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وقوله (والشمس والقمر والنجوم) إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبت من دون الله فبين أنها تسجد لحاقيها وأنه امر بوبه مسخرة (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن) الآية وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال لي : قال رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت » وفي المسند وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه في حديث الكسوف « إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له » وقال أبو العالية ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجدا حين يغيب ثم لا ينصرف حتى يؤذن له فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته . وأما الجبال والشجر فسجودها بقاء ظلالها عن اليمين والشمائل وعن ابن عباس قال جاء رجل فقال يا رسول الله إني رأيتي الليلة وأنا نائم كأنني أصلي خلف شجرة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجرا وضع عني بها وزرا واجعلها لي عندك ذخرا وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة . رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، وقوله (والدواب) أي الحيوانات كلها وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر فرب مركوبة خير أو أكثر ذكر الله تعالى من رآكها وقوله (وكثير من الناس) أي يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك (وكثير حق عليه العذاب) أي ممن امتنع وأبى واستكبر (ومن يهين الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن شيبان الرملي حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال قيل لعلي إن ههنا رجلا يتكلم في المشيئة فقال له علي يا عبد الله خاتمك الله كما يشاء أو كما شئت قال بل كما شاء قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت قال بل إذا شاء قال فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت قال بل إذا شاء قال فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء قال بل حيث يشاء قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي يقول ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت في النار » رواه مسلم . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالنا : حدثنا ابن لهيعة ، قال حدثنا مشرح بن هاعان أبو مصعب الماعفري قال سمعت عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدة تين قال « نعم فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما » ورواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن لهيعة به وقال الترمذي ليس بقوى وفي هذا نظر فإن ابن لهيعة قد صرح فيه بالسمع وأكثروا تقموا عليه تدليسه وقد قال أبو داود في الرسائل حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح أنبأنا ابن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن عامر بن جش عن خالد بن معدان رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال « فضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدة تين » ثم قال أبو داود وقد أسند هذا يعني من غير هذا الوجه ولا يصح ، وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلي حدثني ابن أبي داود حدثنا يزيد بن عبد الله حدثنا الوليد حدثنا أبو عمرو حدثنا حفص بن غياث حدثني نافع قال : حدثني أبو الجهم أن عمر سجد سجدة تين في الحج وهو بالجالية وقال إن هذه فضلت بسجدة تين ، وروى أبو داود وابن ماجه من حديث الحارث بن سعيد العتي عن عبد الله بن منين عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأ خمس عشرة

سجدة في القرآن منها ثلاث في المفصل وفي سورة الحج سجدتان ، فهذه شواهد يشد بعضها بعضا

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

ثبت الصحيحين من حديث أبي مجلز عن قيس بن عماد عن أبي ذر أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية (هذان خصمان اختصموا في ربهم) نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر . لفظ البخاري عند تفسيرها ، ثم قال البخاري حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا أبو مجلز عن قيس بن عماد عن علي بن أبي طالب أنه قال : أنا أول من ينجو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة قال قيس : وفيهم نزلت (هذان خصمان اختصموا في ربهم) قال هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . انفرد به البخاري وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله (هذان خصمان اختصموا في ربهم) قال اختصم المسلمون وأهل الكتاب فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنجن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون كتابنا يقضى على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء فنجن أولى بالله منكم فأفاج الله الإسلام على من ناواه وأنزل (هذان خصمان اختصموا في ربهم) وكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وقال شعبه عن قتادة في قوله (هذان خصمان اختصموا في ربهم) قال مصدق ومكذب ، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في هذه الآية مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، وقال في رواية هو وعطاء في هذه الآية هم المؤمنون والكافرون ، وقال عكرمة (هذان خصمان اختصموا في ربهم) قال هي الجنة والنار قالت النار اجعاني للعقوبة وقالت الجنة اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن ولهذا قال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) أي فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبیر من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى (يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود) أي إذا صب على رؤوسهم الحميم وهو الماء الحار في غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبیر هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأعضاء قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وغيرهم وكذلك تذوب جلودهم وقال ابن عباس وسعيد تساقط

وقال ابن جرير حدثني محمد بن المنني حدثني إبراهيم أبو إسحق الطالقاني حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن ابن حجرية عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه وهو الصهر ثم يعاد كما كان » ورواه الترمذي من حديث ابن المبارك وقال حسن صحيح وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي نعيم عن ابن المبارك به ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن أبي الخوارى قال سمعت عبد الله بن السري قال : يأتيه الملك يحمل الإناء بكتبين من حرارته فإذا أدناه من وجهه تسكره قال فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه فيفرغ دماغه ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه فذلك قوله (يصهر به ما في بطونهم والجلود) ، وقوله (ولهم مقامع من حديد) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض » وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الحدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لثقت ثم عاد كما كان ، ولو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا

لأَتْنِ أَهْلَ الدُّنْيَا » وقال ابن عباس في قوله (ولهم مقامع من حديد) قال يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور ، وقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) قال الأعمش عن أبي ظبيان عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة لا يضيء لها ولا جمرها ثم قرأ (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) وقال زيد بن أسلم في هذه الآية (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) قال بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل ابن عياض : والله ما طمعوا في الخروج إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ولكن يرفعهم لها وتردهم مقامعها ، وقوله (وذوقوا عذاب الحريق) كقوله (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار عياذا بالله من حالهم وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة نسأل الله من فضله وكرمه فقال (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا (يحلون فيها) من الحلية (من أساور من ذهب ولؤلؤا) أي في أيديهم كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » وقال كعب الأحبار : إن في الجنة ملكا لو شئت أن أسميه لسميته يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة لو أبرز قلب منها - أي سوار منها - لرد شعاع الشمس كما ترد الشمس نور القمر ، وقوله (ولباسهم فيها حرير) في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه كما قال (عالمهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحواف الدنيا أساور من فضة وستائرهم منها حرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) وفي الصحيح « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » قال عبد الله بن الزبير : من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة قال الله تعالى (ولباسهم فيها حرير) وقوله (وهدوا إلى الطيب من القول) كقوله تعالى (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وقوله (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قليلا سلاما سلاما) فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب وقوله (ويلقون فيها تحية وسلاما) لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون به ويقرعون به يقال لهم (ذوقوا عذاب الحريق) وقوله (وهدوا إلى صراط الحميد) أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسده إليهم كما جاء في الحديث الصحيح « أنهم يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » وقد قال بعض المفسرين في قوله (وهدوا إلى الطيب من القول) أي القرآن وقيل لا إله إلا الله وقيل الأذكار المشروعة (وهدوا إلى صراط الحميد) أي الطريق المستقيم في الدنيا وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه والله أعلم

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَسْكَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِذْ فِيهِ بِالْخَادِ يُظْلَمْ نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه ودعواهم أنهم أولياؤه (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) الآية وفي هذه الآية دليل على أنها مدنية كما قال في سورة البقرة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله

منه أكبر عند الله) وقال ههنا (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام) أى ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام أى ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر وهذا الترتيب فى هذه الآية كقوله تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله وقوله (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد) أى ينعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام وقد جعله الله شرعاً سواء لافرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه (سواء العاكف فيه والباد) ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكنائها كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (سواء العاكف فيه والباد) قال ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام وقال مجاهد (سواء العاكف فيه والباد) أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل وكذا قال أبو صالح وعبد الرحمن بن سابط وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة سواء فيه أهله وغير أهله وهذه المسألة هى التى اختلف فيها الشافعى وإسحق بن راهويه بمسجد الحيف وأحمد بن حنبل حاضراً أيضاً فذهب الشافعى رحمه الله إلى أن رباع مكة تلك وتورث وتؤجر واحتج بحديث الزهرى عن على بن الحسن عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد قال قلت يا رسول الله أنزل غداً فى دارك بمكة ؟ فقال « وهل ترك لنا عقيل من رباع » ثم قال « لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة فجعلها سجناً بأربعة آلاف درهم وبه قال طاوس وعمرو بن دينار وذهب إسحق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا تؤجر وهو مذهب طائفة من السلف ونص عليه مجاهد وعطاء واحتج إسحق بن راهويه بما رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عيسى بن يونس عن عمر بن سعيد بن أبى حيوة عن عثمان بن أبى سليمان عن عاتمة بن نضلة قال : توفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن ، وقال عبد الرزاق بن جهم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو أنه قال لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها وقال أيضاً عن ابن جريح كان عطاء يهوى عن السكراء فى الحرم وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها فكان أول من بوب دار سهيل بن عمرو فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك فقال أنظرنى يا أمير المؤمنين إني كنت امرأ تاجراً فأردت أن آخذ بابين يخرسان لى ظهري قال فلك ذلك إذا . وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال يا أهل مكة لا تتخذوا للدوركم أبواباً لينزل البادى حيث يشاء قال وأخبرنا معمر عن عمن سمع عطاء يقول (سواء العاكف فيه والباد) قال ينزلون حيث شاءوا ، وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نجيح عن عبد الله بن عمرو موقوفاً « من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً » ونوسط الإمام أحمد فقال تلك وتورث ولا تؤجر جمعاً بين الأدلة والله أعلم ، وقوله (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) قال بعض المفسرين من أهل العربية الباء ههنا زائدة ، كقوله (تنبت بالدهن) أى تنبت الدهن وكذا قوله (ومن يرد فيه بإلحاد) تقديره إلحاداً وكما قال الأعشى :

ضمنت برزق عيالنا أرماحنا * بين المراحل والصرح الأجرد

وقال الآخر : بواد يمان ينبت العشب صدره * وأسفله بالمرخ والشهان

والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهيم ولهذا عداه بالباء فقال (ومن يرد فيه بإلحاد) أى يهيم فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار وقوله (بظلم) أى عامداً قاصداً أنه ظلم ليس يتناول كما قال ابن جريح عن ابن عباس هو التعمد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : بظلم بشرك ، وقال مجاهد أن يعبد فيه غير الله ، وكذا قال قتادة وغير واحد وقال العوفي عن ابن عباس بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم وقال مجاهد بظلم بعمل فيه عملاً سيئاً وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادى فيه النمر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هارون أمياً شعبة عن السدى أنه سمع مرة يحدث عن عبد الله يعنى ابن مسعود فى قوله (ومن يرد فيه

بالحاد بظلم) قال لو أن رجلا أراد فيه بالحاد بظلم وهو بعدن أبيين لأذاقه الله من العذاب الأليم قال شعبة هو رفعه لنا وأنا لا أرفعه لكم ، قال يزيد هو قد رفعه ، ورواه أحمد عن يزيد بن هارون به ، قلت هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري ووقفه أشبه من رفعه ، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود ، وكذلك رواه أسباط وسفيان الثوري عن السدي عن مرة عن ابن مسعود موقوفا والله أعلم ، وقال الثوري عن السدي عن مرة عن عبد الله قال ما من رجل يهم بسيرة فتكتب عليه ولو أن رجلا بعدن أبيين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم ، وكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد الحاد فيه لا والله وبلى والله ، وروى عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو مثله ، وقال سعيد بن جبير شتم الحاد ظم فما فوقه ، وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن عطاء عن ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) قال تجارة الأمير فيه وعن ابن عمر بيع الطعام بمكة الحاد وقال حبيب بن أبي ثابت (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) قال المحتكر بمكة وكذا قال غير واحد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهري أنبأنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى عن عمه عمارة ابن ثوبان حدثني موسى بن باذان عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال « احتكر الطعام بمكة الحاد » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا عطاء بن دينار حدثني سعيد ابن جبير قال : قال ابن عباس في قول الله (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) قال نزلت في عبد الله بن أنيس أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار فافتخروا في الأنساب فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصارى ثم ارتد عن الإسلام ثم هرب إلى مكة فنزلت فيه (ومن يرد فيه بالحاد بظلم) يعني من لجأ إلى الحرم بالحاد يعني بميل عن الإسلام وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد ولكن هو أعم من ذلك بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول ، أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراد به سوء ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال « يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم » الحديث وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن كنانة حدثنا إسحاق بن سعيد عن أبيه قال أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير فقال يا ابن الزبير إياك والإلحاد في حرم الله فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه سيلحد فيه رجل من قريش لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت » فانظر لا تكن هو ، وقال أيضا في مسند عبد الله بن عمرو بن العاص حدثنا هاشم حدثنا إسحاق بن سعيد حدثنا سعيد بن عمرو قال أتى عبد الله بن عمر : عبد الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال يا ابن الزبير إياك والإلحاد في الحرم فاني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها » قال فانظر لا تكن هو ، لم يخرج أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

هذا فيه تقرير وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي أرشده إليه وسلمه له وأذن له في بناءه ، واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أي ؟ قال « بيت المقدس » قلت كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » وقد قال الله تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا) الآيتين وقال تعالى

(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا وقال تعالى ههنا (أن لا تشرك بي شيئا) أى ابنه على اسمى وحدى (وطهر بيتي) قال قتادة ومجاهد من الشرك (للطائفين والقائمين والركع السجود) أى اجعله خالصا لمؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له فالطائف به معروف وهو أخص العبادات عند البيت فانه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها (والقائمين) أى فى الصلاة ولهذا قال (والركع السجود) فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشترعان إلا مختصين بالبيت فالطواف عنده والصلاة إليه فى غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب وفى النافلة فى السفر والله أعلم ، وقوله (وأذن فى الناس بالحج) أى نادى الناس بالحج داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فذكر أنه قال يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم فقال ناد وعلينا البلاغ فقام على مقامه وقيل على الحجر وقيل على الصفا وقيل على أبى قبيس وقال يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من فى الأرحام والأصلاب وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لييك اللهم لييك هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم وأوردها ابن جرير وابن أبى حاتم مطولة ، وقوله (يأتوك رجالا وعلى كل ضامر) الآية قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا لمن قدر عليه أفضل من الحج راكبا لأنه أقدمهم فى الله كرفدلى على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم وقال وكيع عن أبى العميس عن أبى حنيفة عن محمد بن كعب عن ابن عباس قال ما أساء على شىء إلا إنى وددت أنى كنت حججت ماشيا لأن الله يقول (يأتوك رجالا) والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل اقتداء برسول الله ﷺ فانه حج راكبا مع كمال قوته عليه السلام ، وقوله (يأتين من كل فج) يعنى طريق كما قال (وجعلنا فيها فجاجا سبيلا) وقوله (عميق) أى بعيد قاله مجاهد وعطاء والسدى وقاتادة ومقاتل ابن حيان والثورى وغير واحد وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم حيث قال فى دعائه (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالرَّسُولِ لَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ) ثم لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿

قال ابن عباس (ليشهدوا منافع لهم) قال منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والتدائخ والتجارات ، وكذا قال مجاهد وغير واحد : إنها منافع الدنيا والآخرة كقوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وقوله (ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) قال شعبة وهشيم عن أبى بشر عن سعيد بن ابن عباس رضى الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به وروى مثله عن أبى موسى الأشعرى ومجاهد وقاتادة وعطاء وسعيد بن جبير والحسن والضحاك وعطاء الخراسانى وإبراهيم النخعى وهو مذهب الشافعى والشافعى والشهور عن أحمد بن حنبل ، وقال البخارى حدثنا محمد بن عرعة حدثنا شعبة عن سليمان عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال « ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه » قالوا ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج غاظا بنفسه وماله فلم يرجع بشىء » رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه بنحوه وقال الترمذى حديث حسن غريب صحيح ، وفى الباب عن ابن عمر وأبى هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر ، قلت وقد تفصيت هذه الطرق وأفردت لها جزءا على حدة فمن ذلك ما قال الإمام أحمد حدثنا عثمان أنبأنا أبو عوانة عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام

العشر فأكثرها فهن من التهليل والتكبير والتحميد » وروى من وجه آخر عن مجاهد عن ابن عمر بنحوه ، وقال البخاري وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرها وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله (والفجر وليال عشر) وقال بعض السلف إنه المراد بقوله (وأتمناها بعشر) وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت فيه صحيح مسلم عن أبي قتادة قال سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال أحسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث ، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيره ، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه وقيل ذلك أفضل لاشتغاله على ليلة القدر التي خير من ألف شهر . وتوسط آخرون فقالوا أيام هذا أفضل وليالي ذلك أفضل وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم (قول ثان) في الأيام المعلومات قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر وإبراهيم النخعي وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه (قول ثالث) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن المديني حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا ابن عجلان حدثني نافع أن ابن عمر كان يقول : الأيام المعلومات المعدادات هن جميعهن أربعة أيام فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده ، والأيام المعدادات ثلاثة أيام بعد يوم النحر هذا إسناد صحيح إليه ، وقاله السدي وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) يعني به ذكر الله عند ذبحها (قول رابع) إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب أبي حنيفة ، وقال ابن وهب حدثني ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق وقوله (على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام (ثمانية أزواج) الآية وقوله (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) استدلل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي وهو قول غريب والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها قال عبد الله بن وهب قال لي مالك أحب أن يأكل من أضحيته لأن الله يقول (فكلوا منها) قال ابن وهب وسألت الليث فقال لي مثل ذلك وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم (فكلوا منها) قال كان للمشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل ، وروى عن مجاهد وعطاء نحو ذلك . قال هشيم عن حصين عن مجاهد في قوله (فكلوا منها) قال هي كقولهم (فإذا حللتم فاصطادوا) (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض) وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره ، واستدل من نصر القول بأن الأضاحي يتصدق منها بالنصف بقوله في هذه الآية (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) فجزأها نصفين نصف للمضحى ونصف للفقراء ، والقول الآخر أنها تجزأ ثلاثة أجزاء ثلث له وثلث بهديه وثلث يتصدق به لقوله تعالى في الآية الأخرى (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتز) وسيأتي الكلام عليها عندها إن شاء الله وبه الثقة ، وقوله (البائس الفقير) قال عكرمة هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف : وقال مجاهد هو الذي لا ييسر يده ، وقال قتادة هو الزمن . وقال مقاتل بن حيان هو الضرب وقوله (ثم ليقتضوا تفهمهم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار ونحو ذلك وهكذا روى عطاء ومجاهد عنه وكذا قال عكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقال عكرمة عن ابن عباس (ثم ليقتضوا تفهمهم) قال التفث للناسك وقوله (وليوفوا نذورهم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني نحر ما نذر من أمر البدن . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (وليوفوا نذورهم) نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج ، وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد (وليوفوا نذورهم) قال الذبائح . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد (وليوفوا نذورهم) كل نذر إلى أجل . وقال عكرمة (وليوفوا نذورهم) قال حجه . وكذا روى الإمام أحمد وابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان في قوله (وليوفوا نذورهم) قال نذور الحج فكل من

دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة ومزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به ، وروى عن مالك نحوه هذا وقوله (وليطوفوا بالبيت العتيق) قال مجاهد يعني الطواف الواجب يوم النحر : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن أبي حمزة قال : قال لي ابن عباس أنقرا سورة الحج يقول الله تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) فان آخر الناسك الطواف بالبيت العتيق : قلت وهكذا صنع رسول الله ﷺ فانه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات ثم نحر هديه وحلق رأسه ثم أقام فطاف بالبيت ، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض ، وقوله (بالبيت العتيق) فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر لأنه من أصل البيت الذي بناه إبراهيم وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت حين قصرت بهم النفقة ، ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر وأخبر أن الحجر من البيت ولم يستلم الركنين الشاميين لأنهما لم يتما على قواعد إبراهيم العتيقة ، ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر العدني حدثنا سفيان عن هشام بن حجر عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (وليطوفوا بالبيت العتيق) قال لأنه أول بيت وضع للناس وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعن عكرمة أنه قال إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق يوم العرق زمان نوح ، وقال خفيف إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط ، وقال ابن أبي نجيع وليث عن مجاهد أعتق من الجبارة أن يساطوا عليه وكذا قال قتادة وقال حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن بن مسلم عن مجاهد لأنه لم يرد أحد بسوء إلا هلك ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن ابن الزبير قال إنما سمي البيت العتيق لأن الله أعتقه من الجبارة ، وقال الترمذي حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد حدثنا عبد الله بن صالح أخبرني الليث عن عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن محمد بن عمرو عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ « إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار » وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن سهل المحاربي عن عبد الله بن صالح به وقال إن كان صحيحا ، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب ثم رواه من وجه آخر عن الزهري مرسل

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * خُفَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء الناسك وما يليق عليها من الثواب الجزيل (ومن يعظم حرمت الله) أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما في نفسه (فهو خير له عند ربه) أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل فسكنا على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات قال ابن جرير قل مجاهد في قوله (ذلك ومن يعظم حرمت الله) قال الحرمة مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها وكذا قال ابن زيد . وقوله (وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أي أحلنا لكم جميع الانعام وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، وقوله (إلا ما يتلى عليكم) أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخفة الآية قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة ، وقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) من ههنا لبيان الجنس أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به

سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) ومنه شهادة الزور ، وفي الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قلنا بلى يا رسول الله قال « الإشراف بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس فقال - ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت ، وقال الإمام أحمد حدثنا مروان بن معاوية الفزاري أنبأنا سفيان بن زياد عن فاطمة بن فضالة عن أيمن بن خريم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال « يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشرافاً بالله » ثلاثاً ثم قرأ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور) وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن منيع عن مروان بن معاوية به ثم قال غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد وقد اختلف عنه في رواية هذا الحديث ولا نعرف لأيمن بن خريم ممسكاً من النبي ﷺ وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن عبيد حدثنا سفيان العصفري عن أيمن بن خريم عن حبيب بن النعمان الأسدي عن خريم بن فاطمة الأسدي قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح فلما انصرف قام قائماً فقال « عدلت شهادة الزور الإشراف بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية (فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) وقال سفيان الثوري عن عاصم بن أبي النجود عن وائل بن ربيعة عن ابن مسعود أنه قال : تعدل شهادة الزور الإشراف بالله ثم قرأ هذه الآية ، وقوله (حنفاء لله) أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق ولهذا قال (غير مشركين به) ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء) أي سقط منها (فتخطفه الطير) أي تقطعه الطيور في الهواء (أو تهوى به الريح في مكان سحيق) أي بعيد مهلك لمن هوى فيه ولهذا جاء في حديث البراء : أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء فلا تفتح له أبواب السماء بل تفلح روحه طرحة من هناك ثم قرأ هذه الآية وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم بحروفه وألفاظه وطريقه . وقد ضرب تعالى للمشركين مثلاً آخر في سورة الأنعام وهو قوله (قل أئندعوا من دون الله مالا يغنئكم ولا يضرننا ونرد على أعقابنا بعد إذ هदानا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى) الآية

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

يقول تعالى هذا (ومن يعظم شعائر الله) أي أوامره (فإنها من تقوى القلوب) ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن كما قال الحسك عن مقسم عن ابن عباس تعظيمها استئمانها واستحسانها . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ليلى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس (ذلك ومن يعظم شعائر الله) قال : الاستئمان والاستحسان والاستعظام ، وقال أبو أمامة عن سهل : كنا نسمن الأضحية بالمدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخاري وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « دم غفراء أحب إلى الله من دم سوداوين » رواه أحمد وابن ماجه قالوا : والغفراء هي البيضاء بياضاً ليس بناصع فالبيضاء أفضل من غيرها وغيرها يحزى أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل في سواد وينظر في سواد ويمشي في سواد رواه أهل السنن وصححه الترمذي - أي فيه نكتة سواد في هذه الأماكن ، وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سميين أقرنين أملحين موجوءين وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين : قيل هما الحصيان وقيل اللذان رض خصياها ولم يقطعهما والله أعلم . وعن علي رضي الله عنه قال أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن

وأن لا تضجى بمقابلة ولا مدابرة ولا شرقاء ولا خرقاء ، رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ولهم عنه ، قال نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضجى بأعضب القرن والأذن ، قال سعيد بن المسيب : العضب النصف فأكثر وقال بعض أهل اللغة : إن كسر قرنها الأعلى فهي قصاء فأما العضب فهو كسر الأسفل وأعضب الأذن قطع بعضها ، وعند الشافعى أن الأضحية بذلك مجزئة لكن تكره ، وقال أحمد لا تجزىء الأضحية بأعضب القرن والأذن لهذا الحديث ، وقال مالك إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزىء ، والا أجزأ والله أعلم . وأما المقابلة فهي التي قطع مقدم أذنهما والمدابرة من مؤخر أذنهما ، والشرقاء هي التي قطعت أذنهما طولا . قاله الشافعى والأصمعى وأما الخرقاء فهي التي خرقت السمة أذنهما خرقا مدورا والله أعلم ، وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ « أربع لا تجوز في الأضاحي : العوراء البين عورها والمریضة البين مرضها والعرجاء البين ضلعها والكسيرة التي لا تنقي » رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى لأن الشاء يسبقونها إلى الرعى فلم هذا لا تجزىء التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث ، واختلف قول الشافعى في المریضة مرضا يسيرا على قولين وروى أبو داود عن عتبة بن عبد السلمي أن رسول الله ﷺ نهى عن المصفرة والمستأصلة والبختاء والمشيمة والكسيرة ، فالمصفرة قيل الهزيلة وقيل المستأصلة الأذن والمستأصلة مكسورة القرن والبختاء هي العوراء والمشيمة هي التي لا تزال تشيع خلف الغنم ولا تتبع لضعفها والكسيرة العرجاء فهذه العيوب كالممانعة من الإجزاء فإن طرأ العيب بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عند الشافعى خلافا لأبي حنيفة وقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : اشتريت كبشا أضجى به فعدا الذئب فأخذ الألية فسألت النبي ﷺ فقال « ضح به » ولهذا جاء في الحديث أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن أى أن تكون الهدية والأضحية سميعة حسنة ثمينة كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمر قال أهدى عمر نجيبا فأعطى بها ثلثمائة دينار فأبى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أهديت نجيبا فأعطيت بها ثلثمائة دينار فأبى عمر وأشترى بثمنها بدنا قال لا « أخرها يا أبا » وقال الشجاع عن ابن عباس البدن من شعائر الله وقال محمد بن أبى موسى الوقوف ومردافة والجار والرمى والخلق والبدن من شعائر الله وقال ابن عمر أعظم الشعائر البيت وقوله (لكم فيها منافع) أى لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى قال مقسم عن ابن عباس في قوله (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) قال ما لم تسم بدنا وقال مجاهد في قوله (لكم فيها منافع إلى أجل مسمى) قال الركوب والابن والولد فإذا سميت بدنة أو هديا ذهب ذلك كله وكذا قال عطاء والنخلك وقنادة وعطاء الخراسانى وغيرهم ، وقال آخرون بل له أن يذبح بها وإن كانت هديا إذا احتاج إلى ذلك كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة قال « اركبها » قال إنها بدنة قال « اركبها ويحك » في الثانية أو الثالثة وفي رواية لمسلم عن جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال « اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها » وقال شعبه بن زهير عن أبى ثابت الأعمى عن النخيرة بن أبى الحر عن علي أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها فقال لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها وقوله (ثم حملها إلى البيت العتيق) أى محل الهدى واتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى (هديا بالغ الكعبة) وقال (والهدى معكوف أن يباع محله) وقد تقدم الكلام على معنى البيت العتيق قريبا والله الحمد وقال ابن جرير عن عطاء قال : كان ابن عباس يقول : كل من طاف بالبيت فقد حل قال الله تعالى (ثم محما إلى البيت العتيق)

﴿ وَإِكُلْ أُمَّةً جَعَلْنَا مَنْسَكًا لَيْدَ كُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَمِ فَإِلَيْكُمْ رُجْعُهُمْ وَأَحَدٌ قُلْ أَهْلُوا وَبَشِّرِ الْمُخْمِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

يخبر تعالى انه لم يزل ذبح الناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا في جميع الملل وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولكل أمة جعلنا منسكا) قال عيدا وقال عكرمة ذبحا ، وقال زيد بن أسلم في قوله (ولكل أمة جعلنا منسكا) إنما مكته لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها . وقوله (ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام) كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين أقرنين فسقى وكبر ووضع رجله على صفاحهما ، وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا زيد بن هرون أن أناسا سلام بن مسكين عن عائذ الله المجاشعي عن أبي داود - وهو نفع بن الحارث - عن زيد بن أرقم قال : قات أوقالوا يارسول الله ماهذه الأضاحي ؟ قال « سنة أبيكم إبراهيم » قالوا ما لنا منها ؟ قال « بكل شعرة حسنة » قال فالصوف ؟ قال « بكل شعرة من الصوف حسنة » وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سننه من حديث سلام بن مسكين به

وقوله (فإنكم إلى واحد فله أسلموا) أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضا فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ولهذا قال (فله أسلموا) أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته (وبشر الخبيثين) قال مجاهد المظمئين وقال الضحاك وقتادة المتواضعين وقال السدي الوجلين وقال عمرو بن أوس : الخبيثين الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا ، وقال الثوري (وبشر الخبيثين) قال المظمئين الراضين بقضاء الله المستسلمين له وأحسن بما يفسر بما بعده وهو قوله (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) أي خافت منه قلوبهم (والصابرين على ما أصابهم) أي من المصائب ، قال الحسن البصري والله لنصبرن أولئكم لكن (والقيمين الصلاة) قرأ الجمهور بالإضافة السبعة وبقية العشرة أيضا ، وقرأ ابن السمين (والقيمين الصلاة) بالنصب وعن الحسن البصري (والقيمين الصلاة) وإنما حذف النون ههنا تخفيفا ولو حذف للزيادة لوجب خفض الصلاة ولكن على سبيل التخفيف فصبت أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه (ومما رزقناهم ينفقون) أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقراءهم ومخاويجهم ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين فإنهم بالعكس من هذا كله كما تقدم تفسيره في سورة براءة

﴿ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممثنا على عبيده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدي إليه كما قال تعالى (لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) الآية ، قال ابن جريج قال عطاء في قوله (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله) قال البقرة والبعر وكذا روى عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري ، وقال مجاهد إنما البدن من الإبل (قلت) أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح الحديث ، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ، وقال إسحق بن راهويه وغيره بل تجزئ البقرة والبعر عن عشرة وقد ورد به حديث في مسند الإمام أحمد وسنن النسائي وغيرها قاله أعلم . وقوله (لكم فيها خير) أي ثواب في الدار الآخرة ، وعن سليمان بن يزيد السكعي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « ماعمل ابن آدم يوم النحر عملا أحب إلى الله من إهراق دم وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفسا » رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه . وقال سفيان الثوري كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن فقيل له تستدين

وتسوق البدن ؟ فقال إني سمعت الله يقول (لكم فيها خير) وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نخيرة في يوم عيد » رواه الدارقطني في سننه ، وقال مجاهد (لكم فيها خير) قال أجز ومنافع ، وقال إبراهيم النخعي يركبها ويحملها إذا احتاج إليها . وقوله (فاذكروا اسم الله عليها صواف) وعن المطالب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال « باسم الله والله أكبر اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي » رواه أحمد وأبو داود والترمذي . وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكبش في يوم عيد فقال حين وجههما « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المتدينين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين اللهم منك ولك عن محمد وأمة » ثم سمي الله وكبر وذبح وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سميين أقرنين أملحين فلذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة ثم يقول « اللهم هذا عني عني جميعها من شهد لك بالوحد وشهدني بالبلاغ » ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ثم يقول « هذا عن محمد وآل محمد » فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما رواه أحمد وابن ماجه . وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله (فاذكروا اسم الله عليها صواف) قال قياما على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول باسم الله والله أكبر لا اله إلا الله اللهم منك ولك : وكذلك روى عن مجاهد وعلى بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس نحو هذا . وقال ليث عن مجاهد إذا عقلت رجلاً اليسرى قامت على ثلاث ، وروى ابن أبي نجيع عنه نحوه . وقال السجستاني عقلت رجلاً فتكون على ثلاث . وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قاتل في بدنه وهو ينجرها فقال أيتها قيامة مقبلة سنة أبي القاسم ﷺ وعن جابر أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن ، معقولة اليسرى قائمة على ماقي من قوائمها رواه أبو داود وقال ابن لهيعة حدثني عطاء بن دينار أن سالم بن عبد الله قال لسالم بن عبد الله قف من شقها الأيمن وانحر من شقها الأيسر ، وفي صحيح مسلم عن جابر في صفة حجة الوداع قال فيه فحز رسول الله ﷺ يده ثلاثاً وستين بدنة جعل يطعمها بخربة في يده . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال في حرف ابن مسعود (صوافن) أي معقولة قياما وقال سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد من قرأها صوافن قال معقولة من قرأها صواف قال نصف بين يديها وقال طاوس والحسن وغيرهما (فاذكروا اسم الله عليها صوافي) يعني خالصة لله عز وجل وكذا رواه مالك عن الزهري . وقال عبد الرحمن بن زيد صوافي ليس فيها شرك كثير الجاهلية لأصنامهم وقوله (فإذا وجهت جنوبها) قال ابن أبي نجيع عن مجاهد يعني سقطت إلى الأرض وهو رواية عن ابن عباس وكذا قال مقاتل بن حيان . وقال العوفي عن ابن عباس فإذا وجهت جنوبها يعني نحرته . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فإذا وجهت جنوبها يعني ماتت وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرته حتى تموت وتبرد حركتها ، وقد جاء في حديث مرفوع « لا تعجلوا النفوس أن ترهق » وقد رواه الثوري في جامعه عن أيوب عن يحيى بن أبي كثير عن قرافصة الحنفي عن عمر بن الخطاب أنه قال ذلك ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم « إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وايرج ذبيحته » وعن أبي واقد الليثي قال : قال رسول الله ﷺ « ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه . وقوله (فاكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر) قال بعض السلف قوله (فاكلوا منها) أمر بإباحة . وقال مالك يستحب ذلك وقال غيره يجب وهو وجه لبعض الشافعية . واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر فقال العوفي عن ابن عباس القانع المستغنى بما أعطيته وهو في بيته والمعتر الذي يتعرض لك ويطلب بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب القرظي . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس القانع المتعفف والمعتر السائل وهذا

قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه ، وقال ابن عباس وعكرمة وزيد بن أسلم والسكبي والحسن البصري ومقاتل بن حيان ومالك بن أنس القانع هو الذي يقطع إليك ويسألك والمعتز الذي يعتريك يتضرع ولا يسألك وهذا لفظ الحسن وقال سعيد بن جبير القانع هو السائل قال أما سمعت قول الشماخ

لمال المرء يصلحه فيغني * مفارقة أعف من القنوع

قال يغني من السؤال وبه قال ابن زيد وقال زيد بن أسلم القانع المسكين الذي يطوف والمعتز الصديق والضعيف الذي يزور وهو رواية عن ابنه عبد الرحمن بن زيد أيضا ، وعن مجاهد أيضا القانع جارك الغني الذي يبصر ما يدخل بيتك والمعتز الذي يعتزل من الناس ، وعنه أن القانع هو الطامع والمعتز هو الذي يعتز بالبدن من غنى أو فقر وعن عكرمة نحوه وعنه القانع أهل مكة ، واختار ابن جرير أن القانع هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال والمعتز من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء فثلث لصاحبها يأكله وثلث يهديه لأصحابه وثالث يتصدق به على الفقراء لأنه تعالى قال (فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتز) وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للناس « إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدمكم » وفي رواية « فكلوا وادخروا وتصدقوا » وفي رواية « فكلوا وأطعموا وتصدقوا » : والقول الثاني : أن المضحي يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله في الآية للتقدمة (فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير) ولقوله في الحديث « فكلوا وادخروا وتصدقوا » فإن أكل الكل قليل لا يضمن شيئا وبه قال ابن سريج من الشافعية وقال بعضهم يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها وقليل يضمن نصفها وقليل ثلثها وقليل أدنى جزء منها وهو المشهور من مذهب الشافعي ، وأما الجلود ففي مسند أحمد عن قتادة بن النعمان في حديث الأضاحي « فكلوا وتصدقوا واستمتعوا بجلودها ولا تبيعوها » ومن العلماء من رخص في بيعها ومنهم من قال يقاسم الفقراء فيها والله أعلم بمسألة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نضلي ثم نرجع فننحر فمن فعل فقد أصاب سنتنا ومن ذبح قبل الصلاة فإثمها هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء » أخرجه فلم هذا قال الشافعي وجماعة من العلماء : إن أول وقت ذبح الأضاحي إذ طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين زاد أحمد وأن يذبح الإمام بعد ذلك لما جاء في صحيح مسلم وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام ، وقال أبو حنيفة أما أهل السواد من القرى ونحوها فليهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عنده لهم ، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام والله أعلم ، ثم قيل لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده وقيل يوم النحر لأهل الأمصار لتيسر الأضاحي عندهم وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده وبه قال سعيد بن جبير وقيل يوم النحر ويوم بعده لجميع وقيل ويومان بعده وبه قال الإمام أحمد ، وقيل يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده وبه قال الشافعي لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أيام التشريق كلها ذبح » رواه أحمد وابن حبان وقيل إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذى الحجة ، وبه قال إبراهيم النخعي وأبوسلمة بن عبد الرحمن ، وهو قول غريب وقوله (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون) يقول تعالى من أجل هذا (سخرناها لكم) أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم كما قال تعالى (أو لم يروا أننا خلقنا لهم معاملة آيديننا أنعاما فهم لها مالكون — إلى قوله — أفلا يشركون) وقال في هذه الآية الكريمة (كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون)

﴿ لَنْ يَبْنَالَ اللَّهُ لِحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَآلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ

عَلَى مَا هَدَانَا رَبُّكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ٢٤

يقول تعالى إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا الضحايا لذكروا عند ذبحها فانه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها فانه تعالى هو الغني عما سواه وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرايبهم

ونضحوا عليها من دماؤها فقال تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج قال كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بالحوم الإبل ودماؤها فقال أصحاب رسول الله ﷺ فنحن أحق أن ننضح فأُنزل الله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى يتقبل ذلك ويجزى عليه كما جاء فى الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وجاء فى الحديث « إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل وإن الدم ليقع من الله مكان قبل أن يقع إلى الأرض » كما تقدم فى الحديث رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن عائشة مرفوعاً فعنه أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا والله أعلم وقال وكيع عن يحيى بن مسلم ابن الضحاك سألت عامراً الشعبي عن جلود الأضاحى فقال (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها) إن شئت فضع وإن شئت فأمسك وإن شئت فتصدق وقوله (كذلك سخرها لكم) أى من أجل ذلك سخر لكم البدن (لتكبروا الله على ما هداكم) أى لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه وقوله (وبشر المحسنين) أى وبشر يا محمد المحسنين أى فى عملهم القائمين بحمد الله والتبعية ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربهم عز وجل **مسألة** وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى أن قبول الأضحية على من ملك نصاباً وزاد أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضاً واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات عن أنى هديره مرفوعاً « من وجد سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا » على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل وقال ابن عمر : أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يضحى رواه الترمذى وقال الشافعى وأحمد : لا تجب الأضحية بل هى مستحبة لما جاء فى الحديث « ليس فى المال حق سوى الزكاة » وقد تقدم أنه عليه الصلاة والسلام ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم ، وقال أبو سريحة كنت جاراً لأنى بكر وعمر فكانا لا يضحيان خشية أن يقتدى الناس بهما ، وقال بعض الناس الأضحية سنة كفاية إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة أو بيت سقطت عن الباقيين لأن المقصود إظهار الشعار : وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن وحسنه الترمذى عن محنف بن سليم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات « على كل أهل بيت فى كل عام أضحية وعتيرة ، هل تدرون ما العتيرة ؟ هى التى تدعونها الرجبية » وقد تكلم فى إسناده ، وقال أبو أيوب كان الرجل فى عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته فياً كانوا يطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى رواه الترمذى وصححه وابن ماجه ، وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله رواه البخارى ، وأما مقدار سن الأضحية فقد روى مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال « لا تذبحوا إلا مسنة إلا أن تعسر عليكم فذبحوا جذعة من الضأن » ومن ههنا ذهب الزهرى إلى أن الجذع لا يجزى ، وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذع يجزى من كل جنس وهما غريبان ، والذى عليه الجمهور إنما يجزى الشئ من الإبل والبقر والغنم أو الجذع من الضأن ، فأما الشئ من الإبل فهو الذى له خمس سنين ودخل فى السادسة ، ومن البقر ما له سنتان ودخل فى الثالثة ، وقيل ما له ثلاث ودخل فى الرابعة ومن الغنم ما له سنتان ، وأما الجذع من الضأن فقليل ما له سنة قليل عشرة أشهر . وقيل ثمانية ، وقيل ستة أشهر وهو أقل ما قيل فى سنة وما دونه فهو حمل والفرق بينهما أن الحمل شعر ظهره قائم ، والجذع شعر ظهره نائم . قد انفرق صدعين والله أعلم

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن الذين ءامنوا إلى شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكاثمهم وينصرهم كما قال تعالى (أليس الله بكاف عبده) وقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شئ قدراً) وقوله (إن الله لا يحب كل خوان كفور) أى لا يحب من عباده من انصف بهذا وهو الخيانة فى العهد والوفاق لا يبقى بما قال ، والكفر الجحد لانعم فلا يعترف بها

﴿ أُوْذِنَ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيَ حَقٍّ إِلَّا

أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٢٥﴾

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم هذه أول آية نزلت في الجهاد واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وقال ابن جرير حدثني يحيى بن داود الواسطي حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون لهلكن ، قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال أبو بكر رضى الله تعالى عنه فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق به ، وزاد قال ابن عباس وهى أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذى والنسائى في التفسير من سننهما وابن أبى حاتم من حديث إسحاق بن يوسف زاد الترمذى ووکیع كلاهما عن سفيان الثوري به وقال الترمذى حديث حسن وقد رواه غير واحد عن الثوري وليس فيه ابن عباس وقوله (وإن الله على نصرهم لقدير) أى هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثبتتكم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فإن يضل أعمالهم سيدهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويغزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) وقال (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون) وقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) وقال (ولنبلوكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) والآيات في هذا كثيرة ، ولهذا قال ابن عباس في قوله (وإن الله على نصرهم لقدير) وقد فعل ، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً فلو أمر المسلمون وهم أقل من العشر بقتال الباقيين لشق عليهم ، ولهذا لما بيع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نيفاً وثمانين قالوا يا رسول الله ألا نمل على أهل الوادى يعنون أهل منى لىالى منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني لم أؤمر بهذا » فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذراً مذر فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمعوا عليه وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومقلاً يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك فقال تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق) قال العوفي عن ابن عباس أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعنى محمداً وأصحابه (إلا أن يقولوا ربنا الله) أى ما كان لهم إلى قومهم إساءة ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لاشريك له وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما في نفس الأمر ، وأما عند المشركين فانه أكبر الذنوب كما قال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود (وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون

لاهم لولا أنت ما هتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا * فأنزلن سكينه علينا
وثبت الأقدام أن لا قينا * أن الألى قد بغوا علينا * إذا أرادوا فتنة أبينا

فوافقهم رسول الله ﷺ ويقول معهم آخر كل قافية فإذا قالوا : إذا أرادوا فتنة أيينا يقول أيينا يمد بها صوته ثم قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقهم ويقدره من الأسباب لفست الأرض ولأهلك القوى الضعيف (لهدمت صوامع) وهى المعابد الصغار لارهبان قاله ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والضحاك وغيرهم وقال قتادة هى معابد الصابئين وفى رواية عنه صوامع الجوس وقال مقاتل بن حيان هى البيوت التى على الطرق (ويبيع) وهى أوسع منها وأكثر عابدين فيها وهى للنصارى أيضاً قاله أبو العالية وقاتادة والضحاك وابن صخر ومقاتل بن حيان وخصيف وغيرهم ، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره أنها كنائس اليهود وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس اليهود ومجاهد إنما قال هى الكنائس والله أعلم ، وقوله (وصلوات) قال العوفى عن ابن عباس الصلوات الكنائس وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة : إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات ، وحكى السدى عمن حدثه عن ابن عباس أنها كنائس النصارى وقال أبو العالية وغيره الصلوات معابد الصابئين وقال ابن أبى نجيع عن مجاهد الصلوات مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق وأما المساجد فهى للمسلمين ، وقوله (يذكر فيها اسم الله كثيرا) فقد قيل الضمير فى قوله يذكر فيها عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات وقال الضحاك الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا ، وقال ابن جرير الصواب لهدمت صوامع الرهبان ويبيع النصارى وصلوات اليهود وهى كنائسهم ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب . وقال بعض العلماء هذا ترق من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد وهى أكثر عمارا وأكثر عبادا وهم ذوو القصد الصحيح ، وقوله (ولينصرن الله من ينصره) كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم) وقوله (إن الله لقوى عزيز) وصف نفسه بالقوة والعزة ببقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور وعدوه هو المتهور قال الله تعالى (ولقد سبقت كامتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز)

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾
وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى الربيع الزهرانى حدثنا حماد بن زيد عن أيوب وهشام عن محمد قال : قال عثمان بن عفان فينا نزلت (الذين إن مكانهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنا فى الأرض فأقمنا الصلاة وآتيناه الزكاة وأمروا بالمعروف ونهينا عن المنكر والله عاقبة الأمور فهى لى ولأصحابى وقال أبو العالية هم أصحاب محمد ﷺ وقال الصباح بن سودة الكندى سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول (الذين إن مكانهم فى الأرض) الآية ثم قال ألا إنها ليست على الوالى وحده ولكنها على الوالى والمولى عليه : ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم وبما للوالى عليكم منه إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤخذكم بحقوق الله عليكم وأن يأخذ لبعضكم من بعض وأن يهديكم لى هى أقوم ما استطاع وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها ولا المخالف سرها علانياتها ، وقال عطية العوفى هذه الآية كقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض) وقوله (والله عاقبة الأمور) كقوله تعالى (والعاقبة للمتقين) وقال زيد بن أسلم (والله عاقبة الأمور) وعند الله ثواب ما صنعوا

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ

مَدِينَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأُمْلِيتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلكم قوم نوح — إلى أن قال — وكذب موسى) أى مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات (فأُمليت للكافرين) أى أنظرتهم وأخترتهم (ثم أخذتهم فكيف كان نكير) أى فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتهم لهم ! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه أنا ربكم الأعلى وبين إهلاك الله له أربعون سنة وفي الصحيحين عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذهم يفلته » ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم أليم شديد) ثم قال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها) أى كم من قرية أهلكناها (وهى ظالمة) أى مكذبة لرسولها (فهى خاوية على عروشها) قال الضحاك سقوفها أى قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها (وبئس معتلة) أى لا يستقي منها ولا يردى أحد بعد كثرة واردتها والازدحام عليها (وقصر مشيد) قال عكرمة يعنى الميئس بالجص وروى عن على بن أبى طالب ومجاهد وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى الليث والضحاك نحو ذلك ، وقال آخرون هو المنيف المرتفع وقال آخرون المشيد المنيع الحصين وكل هذه الأقوال متقاربة ، ولا منافاة بينها فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصاته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وقوله (أفلم يسيروا فى الأرض) أى بأبدانهم وبفكرهم أيضاً وذلك كاف كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكير والاعتبار حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار قال أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام أن : يا موسى اتخذ نعلين من حديد وعصا من سح فى الأرض ثم اطلب الآثار والعبر حتى يتخرق النعلان وتنكسر العصا . وقال ابن أبى الدنيا قال بعض الحكماء أحى قلبك بالمواعظ ونوره بالتفكير وموته بالزهد وقوه باليقين وذلك بالموت وقدره بالفناء وبصره فجائع الدنيا وحنزره صولة الدهر وفجش تقلب الأيام واعرض عليه أخبار الماضين وذكره ما أصاب من كان قبله وسيره فى ديارهم وآثارهم وانظر ما فعلوا وأين حلوا وعم انقلبوا . أى فانظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنعكال (فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها) أى فيعتبرون بها (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) أى ليس العمى عمى البصر وإنما العمى عمى البصيرة وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدرك ما الحبر وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن حيان الأندلسى الشنترينى وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة

يا من يصيخ إلى داعى الشقاء وقد * نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكري فقيم ترى * فى رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل * لم يهده المهاديان العين والأثر
لا الدهري بقى ولا الدنيا ولا الفلك الـ * أعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحان عن الدنيا وإن كرها * فراقها الثاوبان البدن والخضر

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (ويستعجلونك بالعذاب) أى هؤلاء الكفار الملهدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر كما قال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة

من السماء أو اثنتا بعذاب أليم) (وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب) وقوله (ولن يخلف الله وعده) أى الذى قد وعد من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه ، والاكرام لأوليائه ، قال الأصمعى كنت عند أبى عمرو بن العلاء فجاءه عمرو بن عبيد فقال يا أبا عمرو هل يخلف الله الميعاد ؟ فقال لا ، فذكر آية وعيد فقال له أمن العجم أنت ؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤما وعن الإيعاد كرما أما سمعت قول الشاعر :

ليرهب ابن العم والجار سطوتى * ولا أنثنى عن سطوة التهديد
فانى وإن أوعده أو وعدته * لخلف إيعادى ومنجز موعدى

وقوله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) أى هو تعالى لا يعجل فان مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى ولهذا قال بعد هذا (وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنى عبدة ابن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام » ورواه الترمذى والنسائى من حديث الثورى عن محمد بن عمرو به وقال الترمذى حسن صحيح ، وقد رواه ابن جرير عن أبى هريرة موقوفا فقال : حدثنى يعقوب ثنا ابن علية ثنا سعيد الجريرى عن أبى نضرة عن سمير بن نهار قال : قال أبو هريرة : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم ، قلت وما مقدار نصف يوم ؟ قال أو ما تقرأ القرآن ، قلت بلى ، قال (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وقال أبو داود فى آخر كتاب الملاحم من سننه حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ أنه قال « إني لأرجو أن لا تعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وما نصف يوم ؟ قال خمسمائة سنة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) قال من الأيام التى خلق الله فيها السموات والأرض . ورواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن المهدي ، وبه قال مجاهد وعكرمة ونص عليه أحمد بن حنبل فى كتاب الرد على الجهمية وقال مجاهد هذه الآية كقوله (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عارم بن محمد بن الفضل حدثنا حماد بن زيد عن يحيى بن عتيق عن محمد بن سيرين عن رجل من أهل الكتاب أسلم قال : إن الله تعالى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) وجعل أجل الدنيا ستة أيام وجعل الساعة فى اليوم السابع (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) فقدمت الستة الأيام وأنتم فى اليوم السابع فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها ففى أية لحظة ولدت كان تماما

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به (قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين) أى إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد وليس إلى من حسابكم من شيء أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار (لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (وإنا أنا لكم نذير مبين * فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم (لهم مغفرة ورزق كريم) أى مغفرة لما سلف من سيئاتهم ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم ، قال محمد بن كعب القرظى إذا سمعت الله تعالى يقول (ورزق كريم) فهو الجنة . وقوله (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) قال مجاهد يثبطون الناس عن متابعة النبى صلى الله عليه وسلم وكذا قال عبد الله بن الزبير مثبطين ، وقال ابن عباس معاجزين مراغمين (أولئك أصحاب الجحيم)

وهي النار الحارة الموجهة الشديدة عذابها ونكالتها أجارنا الله منها قال الله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم فلما بلغ هذا الموضع (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) قال فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهم ترتجى ، قالوا ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) ورواه ابن جرير عن بNDAR عن غندر عن شعبة به بنحوه وهو مرسى وقد رواه البزار في مسنده عن يوسف بن حماد عن أمية بن خالد عن شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بمكة سورة النجم حتى انتهى إلى (أفرايتم اللات والعزى) وذكر بقيته ، ثم قال البزار لانهلم يروى متصلا إلا بهذا الإسناد تفرد بوصله أمية بن خالد وهو ثقة مشهور وإنما يروى هذا من طريق السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، ثم رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية وعن السدى مرسلا وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس مرسلا أيضا وقال قتادة كان النبي ﷺ يصلى عند المقام إذ نعى فألقى الشيطان على لسانه وإن شفاعتها لترجى ، وإنما لمع الغرائيق العلى فحفظها المشركون واجرى الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قرأها فذلت بها ألسنتهم فأنزل الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) الآية فدحر الله الشيطان ، ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي حدثنا محمد بن إسحق الشيبى حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : أنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون لربكان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرنائه وأصحابه ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم وأحزنه ضلالهم فكان يتمنى هداهم فلما أنزل الله سورة النجم قال (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الله ذكر وله الأئني) ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال وإنهن لهن الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلا كبيرا فرفض بل وكفه ترابا فسجد عليه فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما المسلمون فمجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ولم يكن المسلمون سمعوا الذى ألقى الشيطان في مسامع المشركين فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أُمْنِيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثهم به الشيطان

أن رسول الله ﷺ قد قرأها في السورة فسجدوا لتعظيم آلهتهم ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين عثمان بن مظعون وأصحابه وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم وصلوا مع رسول الله ﷺ وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة فأقبلوا سراعاً وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من القرية ، وقال الله (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) فلما بين الله قضاءه وبرأه من سجع الشيطان انقلب المشركون بضلاتهم وعداوتهم المسلمين واشتدوا عليهم وهذا أيضاً مرسل ، وفي تفسير ابن جرير عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام نحوه وقد رواه الحافظ أبو بكر البهقي في كتابه دلائل النبوة فلم يحزبه موسى بن عقبة ساقه من مغازيه بنحوه قال وقد روينا عن أبي إسحق هذه القصة (قلت) وقد ذكرها محمد بن إسحق في السيرة بنحو من هذا وكلها مراسلات ومنقطعات والله أعلم ، وقد ساقها البغوي في تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحو من ذلك ثم سأل ههنا سؤالاً كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه ، ثم حكى أجوبة عن الناس من ألقاها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس كذلك في نفس الأمر بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم

وهكذا تنوعت أجوبة المشركين عن هذا بتقدير صحته ، وقد تعرض القاضي عياض رحمه الله في كتاب الشفاء لهذا وأجاب بما حاصله أنها كذلك لبوتها وقوله (إلا إذا ألقى الشيطان في أمنيته) هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من الرسل والأنبياء ، قال البخاري : قال ابن عباس (في أمنيته) إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان (ثم يحكم الله آياته) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (إذا نعى ألقى الشيطان في أمنيته) يقول إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، وقال مجاهد (إذا نعى) يعني إذا قال ويقال أمنيته قراءته (إلا أمانى) يقرءون ولا يكتبون قال البغوي وأكثروا المفسرين قالوا معنى قوله (نعى) أي تلا وقرأ كتاب الله (ألقى الشيطان في أمنيته) أي في تلاوته قال الشاعر في عثمان حين قتل :

نعى كتاب الله أول ليلة وآخرها لافي حمام المقادر

وقال الضحاك (إذا نعى) إذا تلا قال ابن جرير هذا القول أشبه بتأويل الكلام ، وقوله (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي فيبطل الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان وقال الضحاك نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته ، وقوله (والله عليم) أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية (حكيم) أي في تقديره وخلقه وأمره له . الحكمة التامة والحجة البالغة ولهذا قال (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض) أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان : قال ابن جرير (الذين في قلوبهم مرض) هم المنافقون (والقاسية قلوبهم) هم المشركون . وقال مقاتل بن حيان هم اليهود (وإن الظالمين لفي شقاق بعيد) أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره بل هو كتاب عزيز (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله (فيؤمنوا به) أي يصدقوه ويتقيدوا له (فتخبت له قلوبهم) أي تخضع وتذل له قلوبهم (وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) أي في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوقمهم لمخالفة الباطل واجتنابه وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية أى في شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جرير واختاره ابن جرير ، وقال سعيد بن جبير وابن زيد منه أى مما ألقى الشيطان (حتى تأتيتهم الساعة بغتة) قال مجاهد فجأة ، وقال قتادة (بغتة) بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وعرثتهم ونعمتهم فلا تعفوا بالله إنه لا يعترف بالله إلا القوم الفاسقون وقوله (أو يأتيتهم عذاب يوم عقيم) قال مجاهد قال أبو بن كعب هو يوم بدر ، وكذا قال مجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير ، قال عكرمة ومجاهد في رواية عنهما هو يوم القيامة لا ليل له وكذا قال الضحاك والحسن البصري وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد ولهذا قال (الملك يومئذ الله يحكم بينهم) كقوله (مالك يوم الدين) وقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً) (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله وعملوا بمقتضى ما علموا وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم (فى جنات النعيم) أى لهم النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم (فأولئك لهم عذاب مهين) أى مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق كقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيَدْخُلْنَهُمْ دُخْلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّقَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والحلن وفارق بلاده فى الله ورسوله ونصرة لدين الله ثم قتلوا أى فى الجهاد أو ماتوا أى حتف أنفهم من غير قتال على فرسهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل كما قال تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وقوله (ليرزقهم الله رزقاً حسناً) أى ليخرجن عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقرر به أعينهم (وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلا يرضونه) أى الجنة كما قال تعالى (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم كما قال ههنا (ليرزقهم الله رزقاً حسناً) ثم قال (ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم) أى بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله وبمن يستحق ذلك (حلیم) أى يعلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه وتوكلهم عليه . فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فانه حى عند ربه يرزق كما قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) والأحاديث فى هذا كثيرة كما تقدم وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه وعظيم إحسان الله إليه قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حدثنا المسيب بن واضح حدثنا ابن المبارك عن عبد الرحمن بن شريح عن ابن الحارث - يعنى عبد الكريم - عن ابن عقبة يعنى أبا عبيدة بن عقبة قال : قال شرحبيل ابن السمط : طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم فر بى سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه فقال إني سمعت رسول الله

يقول « من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر وأجرى عليه الرزق وأمن من الفتنين وقرأوا إن شئتم (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين ليدخلهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حكيم) » وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا زيد بن بشر أخبرني همام أنه سمع أبا قبيل وربيعة ابن سيف المعافري يقولان كنا برودس ومعنا فضالة بن عبيد الأنصار صاحب رسول الله ﷺ فر بجنازتين أحدهما قتيل والأخرى متوفى فمال الناس على القتيلى فقال فضالة مالى أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا ؟ فقالوا هذا القتيلى فى سبيل الله فقال والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت اسمعوا كتاب الله (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا) حتى بلغ آخر الآية وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا ابن لهيعة حدثنا سلامان بن عامر الشيبانى أن عبد الرحمن بن جحدم الحولانى حدثه أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين أحدهما أسيب بمنجنيق والأخر توفى فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى فقبل له تركت الشهيد فلم تجلس عنده فقال ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت إن الله يقول (والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقهم الله رزقا حسنا) الآيتين فما تبتغى أيها العبد إذا دخلت مدخلا وترزقت رزقا حسنا والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت . ورواه ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب أخبرني عبد الرحمن بن شريح عن سلامان ابن عامر قال كان فضالة برودس أميرا على الأرباع فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والأخر متوفى فذكر نحو ماتقدم وقوله (ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به) الآية ذكر مقاتل بن حيان وابن جرير أنها نزلت فى سرية من الصحابة لقوا جمعا من المشركين فى شهر محرم فناشدهم المسلمون لثلاثا يقتلوه فى الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم (إن الله لعفو غفور)

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء كما قال (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب) ومعنى إيلاجه الليل فى النهار والنهار فى الليل إدخاله من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما فى الشتاء وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما فى الصيف وقوله (وأن الله سميع بصير) أى سميع بأقوال عباده بصير بهم لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم ولما تبين أنه المتصرف فى الوجود الحاكم الذى لا معقب لحكمه قال (ذلك بأن الله هو الحق) أى الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له لأنه ذو السلطان العظيم الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وكل شىء فقير إليه ، ذليل لديه (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) أى من الأصنام والأنداد والأوثان وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل لأنه لا يملك ضرا ولا نفعا وقوله (وأن الله هو العلى الكبير) كما قال (وهو العلى العظيم) وقال (وهو الكبير المتعال) فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا رب سواه لأنه العظيم الذى لا أعظم منه العلى الذى لا أعلى منه ، الكبير الذى لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علوا كبيرا

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ

بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَخْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١﴾

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه وأنه يرسل الرياح فتثير سحابا فيمطر على الأرض الجزر التي لا نبات فيها وهي هامة يابسة سوداء ممحلة (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) وقوله (فتصبح الأرض مخضرة) الفاء ههنا للتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه كما قال تعالى (فجعلنا النطفة علقة فجعلنا العلقة مضغة) الآية وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل شيئين أربعين يوما ومع هذا هو معقب بالفاء وهكذا ههنا قال (فتصبح الأرض مخضرة) أى خضراء بعد يابسا^(١) ومحولها . وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز أنها تصبح عقب المطر خضراء فالله أعلم وقوله (إن الله لطيف خبير) أى عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر لا يخفى عليه خافية فبوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به كما قال لقمان (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) وقال (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الحب فى السموات والأرض) وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) وقال (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) ولهذا قال أمية بن أبى الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل فى قصيدته

وقولا له من ينبت الحب فى الثرى * فيصبح منه البقل يهتز رايا

ويخرج منه حبه فى رءوسه * ففى ذلك آيات لمن كان واعيا

وقوله (له ما فى السموات وما فى الأرض) أى ملكه جميع الأشياء وهو غنى عما سواه وكل شيء فقير إليه عبد لديه وقوله (ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض) أى من حيوان وحمار وزروع وثمار كما قال (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) أى من إحسانه وفضله وامتنانه (والفلك تجري فى البحر بأمره) أى بتسخيره وتسييره أى فى البحر العجاج وتلاطم الأمواج تجري الفلك بأهلها بريح طيبة ورفق وتؤدة فيحملون فيها ما شاءوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد وقطر إلى قطر ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) أى لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها ، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ولهذا قال (إن الله بالناس لرءوف رحيم) أى مع ظلمهم كما قال فى الآية الأخرى (وإن ربك لدو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) ، وقوله (وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور) كقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وقوله (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) وقوله (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) ومعنى الكلام كيف تجعلون لله أندادا وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف (وهو الذى أحياكم) أى خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر فأوجدكم (ثم يميتكم ثم يحييكم) أى يوم القيامة (إن الإنسان لكفور) أى جحود

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ * وَإِنْ جَدُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَخْتَكُم بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا ، قال ابن جرير يعنى لكل أمة نبي منسكا قال : وأصل المنسك فى كلام العرب هو الموضع الذى يعتاده الإنسان ويتردد إليه إما لحير أو شر قال ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها

(١) المناسب يابسها لأنه يخال أرض يابس أى يابسة

وعكفوهم عليها ، فإن كان كما قال من أن المراد لكل أمة نبي جعلنا منسكا فيكون المراد بقوله فلا ينزعك في الامر أى هؤلاء المشركون وإن كان المراد لكل أمة جعلنا منسكا جعلنا قديرا كما قال (ولكل وجهة هو موليها) ولهذا قال ههنا (هم ناسكوه) أى فاعلوه فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق ولهذا قال (وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم) أى طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود وهذه كقوله (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) . وقوله (وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون) كقوله (وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أتم بريثون بما أعمل وأنا برى بما تعملون) وقوله (الله أعلم بما تعملون) تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله (هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم) ولهذا قال (الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون) وهذه كقوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب) الآية

﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقهم وأنه محيط بما فى السموات وما فى الارض فلا يعزب عنه مقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وأنه تعالى سلم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » وفى السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال « أول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما أكتب ؟ قال اكتب ما هو كائن فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا ابن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار حدثنى سعيد بن جبیر قال : قال ابن عباس خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام ، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى اكتب فقال القلم وما أكتب قال علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله لئن لم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض (وهذا من علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضاً فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك على الوجه الذى يفعلونه فيعلم قبل الخلق أن هذا يطبع باختياره وهذا يعصى باختياره وكتب ذلك عنده وأحاط بكل شىء علماً وهو سهل عليه يسير لديه ولهذا قال تعالى (إن ذلك فى كتاب إن الله على الله يسير)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تَتَلَّاهُمْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُنتُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَّبِعُ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً يعنى حجة وبرهاناً كقوله (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسا به عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) ولهذا قال ههنا (ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم) أى ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفقوه وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ولهذا توعدهم تعالى بقوله (وما للظالمين من نصير) أى من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال ثم قال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) أى وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله وأنه لا إله إلا هو وأن رسله الكرام حق وصدق (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أى يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل

الصحيحة من القرآن ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء (قل) أي يا محمد لهؤلاء (أفأنبشكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا) أي النار وعذابها ونكالمها أشد وأشق وأظم وأعظم مما تخوفون به أو لياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تتألون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم . وقوله (وبش المصير) أي وبش النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً (إنها ساءت مستقراً ومقاماً)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

يقول تعالى منها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها (يا أيها الناس ضرب مثل) أي لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به (فاستمعوا له) أي أنصتوا وتفهموا (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة مرفوعاً قال «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخالق فليخلقوا مثل خالقي ذرة أو ذبابة أو حبة» وأخرجه صاحبها الصحيح من طريق عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخالق فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة) ثم قال تعالى أيضاً (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد بل بلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال (ضعف الطالب والمطلوب) قال ابن عباس : الطالب الصنم والمطلوب الذباب واختاره ابن جرير وهو ظاهر السياق وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم ثم قال (ما قدروا الله حتى قدره) أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها (إن الله لقوي عزيز) أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ويعزها) (إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدى ويعيد) (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله (عزيز) أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار .

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شريعته وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته (إن الله سميع بصير) أي سميع لأقوال عباده بصير بهم عليهم بمن يستحق ذلك منهم كما قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور) أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً — إلى قوله — وأحصى كل شيء عدداً) فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم حافظ لهم ناصر لجنابهم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) الآية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي

اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج هل هي مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ « فضلت سورة الحج بسجدين فمن لم يسجدهما فلا يقرأها » وقوله (وجاهدوا في الله حق جهاده) أى بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم كما قال تعالى (اتقوا الله حق تقاته) وقوله (هو اجتباكم) أى يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع (وما جعل عليكم في الدين من حرج) أى ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشئ يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا ، فالصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين تجب في الحضر أربعاً وفي السفر تقصر إلى اثنتين وفي الخوف يصلها بعض الأئمة ركعة كما ورد به الحديث وتصلى رجالاً وركبانا مستقبلين القبلة وغير مستقبلين وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها والقيام فيها يسقط لعذر المرض فيصلها المريض جالساً فإن لم يستطع فعلى جنبه إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات في سائر الفرائض والواجبات ولهذا قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السمجة » وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن « بشرنا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا » والأحاديث في هذا كثيرة ولهذا قال ابن عباس في قوله (وما جعل عليكم في الدين من حرج) يعنى من ضيق وقوله (ملة أبيكم إبراهيم) قال ابن جرير نصب على تقدير (ما جعل عليكم في الدين من حرج) أى من ضيق بل وسعه عليكم كلمة أبيكم إبراهيم ، قال ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم (قلت) وهذا المعنى في هذه الآية كقوله (قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً) الآية وقوله (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قال الإمام عبد الله بن المبارك عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في قوله (هو سماكم المسلمين من قبل) قال الله عز وجل . وكذا قال مجاهد وعطاء والضحاك والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (هو سماكم المسلمين من قبل) يعنى إبراهيم وذلك لقوله (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال ابن جرير وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين وقد قال الله تعالى (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر (وفي هذا) يعنى القرآن وكذا قال غيره (قلت) وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان فى كتب الأنبياء يتلى على الأحرار والرهبان فقال (هو سماكم المسلمين من قبل) أى من قبل هذا القرآن (وفي هذا) روى النسائي عند تفسير هذه الآية أنبأنا هشام بن عمار حدثنا محمد بن شعيب أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال أخبرني الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال « من دعا بدعوى الجاهلية فانه من جنى جهنم » قال رجل يا رسول الله وإن صام وصلى قال « نعم وإن صام وصلى » فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله ، وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) من سورة البقرة ولهذا قال (ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) أى إننا جعلناكم هكذا أمة وسطاء ولا خيارا مشهودا بعد التكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة (شهداء على الناس) لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة فى أن الرسل بلغتهم رسالتهم

والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وذكرنا حديث نوح وأمه بما أغنى عن إعادته ، وقوله (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى قابلا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها فأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهو الإحسان إلى خالق الله بما أوجب للفقير على الغنى من إخراج جزء نزر من ماله فى السنة للضعفاء والمساكين كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة التوبة وقوله (واعتصموا بالله) أى اعتصموا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به (هو مولاكم) أى حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم (فنعلم المولى) ونعم النصير (يعنى نعم المولى ونعم النصير) من الأعداء، قال وهيب بن الورد يقول الله تعالى : ابن آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أعظمك فيمن أعظم ، وإذا ظلمت فاصبر وارض بنصرتى فان نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك . رواه ابن أبى حاتم والله أعلم . آخر تفسير سورة الحج والله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة المؤمنون مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَاهُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرني يونس بن سليم قال أهدى على يونس بن يزيد الألبى عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عبد الرحمن بن عبيد القارى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وأرضنا » ثم قال - لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة » ثم قرأ (قد أفلح المؤمنون) حتى ختم العشر ، ورواه الترمذى فى تفسيره والنسائى فى الصلاة من حديث عبد الرزاق به ، وقال الترمذى منكر لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه ، وقال النسائى فى تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبي عمران عن يزيد بن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن فقرأت (قد أفلح المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون) قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم لما خلق الله الجنة عدن وغرسها بيده نظر إليها وقال لها تسكمنى فقالت (قد أفلح المؤمنون) قال كعب الأحبار لما أعد لهم من السكرامة فيها وقال أبو العالية فأنزل الله ذلك فى كتابه ، وقد روى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا فقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن مسلمة حدثنا وهيب عن الجريرى عن أبى نصره عن أبى سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تسكمنى فقالت (قد أفلح المؤمنون) فدخاتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوكة ، ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن عبيد الله العمري حدثنا عدى بن الفضل حدثنا الجريرى عن أبى نصره عن أبى سعيد عن النبي ﷺ قال « خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك - قال البزار ورأيت فى موضع آخر فى هذا الحديث -

حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك . فقال لها تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون) فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك » ثم قال البزار لا نعلم أحداً رفعه إلا عدى بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله جنة عدن خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ثم قال لها تكلمي فقالت (قد أفلح المؤمنون) « بقية عن الحجازيين ضعيف ، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العيسى عن إسماعيل السدي عن أبي صالح عن ابن عباس رفعه « لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال (قد أفلح المؤمنون) قال وعزى وجلالى لا يخاورنى فيك بخيل » وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد السكابي حدثنا يعيث بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصابها الأولؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت (قد أفلح المؤمنون) فقال الله وعزى وجلالى لا يخاورنى فيك بخيل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وقوله تعالى (قد أفلح المؤمنون) أى قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف (الذين هم في صلاتهم خاشعون) قال علي بن أبي طاحه عن ابن عباس (خاشعون) خائفون ما يكونون وكذا روى عن مجاهد والحسن وقتادة والزهرى ، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه الخشوع خشوع القلب وكذا قال إبراهيم النخعي ، وقال الحسن البصري كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح ، وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون) خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم ، قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مصلاه فإن كان قد اعتاد النظر فليغمض ، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضاً مرسلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية ، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين كما قال النبي ﷺ في الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « حُبب إلىّ الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم أن رسول الله ﷺ قال يا بلال « أرحنا بالصلاة » وقال الإمام أحمد أيضاً ثنا عبد الرحمن بن مهدي ثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبي على صهر لنا من الأنصار فحضرت الصلاة فقال يا جارية اتنى بوضوء لعلّى أصلى فأستريح ، فرأنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قم يا بلال فأرحنا بالصلاة » ، وقوله (والذين هم عن اللغو معرضون) أى عن الباطل وهو يشعل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصى كما قاله آخرون ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) قال قتادة : أتاكم الله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك . وقوله (والذين هم للزكاة فاعلون) الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكّية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة ، والظاهر أن التى

فرضت بالمدينة إنما هي ذات النصب والمقادير الخاصة وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية (وأتوا حقه يوم حصاده) وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله (قد أفلح من زكاهها) وقد خاب من دسها) وكقوله (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) على أحد القولين في تفسيرها وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم . وقوله (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يفتعون فيما نهى الله عنه من زنا ولواط ، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال (فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك) أي غير الأزواج والإماء (فأولئك هم العادون) أي المعتدون . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة أن امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله (أو ما ملكت أيمانهم) فأتى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبي ﷺ : تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها قال فضرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم . هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق ، وإباحة حرامها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم . وقد استدلل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة (والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى (فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال : حدثني علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولا يجمعهم مع العاملين ويدخلهم النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه : النا كح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والشارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والنا كح حليلة جاره » هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجبالته والله أعلم . وقوله (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها . وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » وقوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أي ؟ قال « الجهاد في سبيل الله » أخرجه في الصحيحين . وفي مستدرك الحاكم قال « الصلاة في أول وقتها » وقال ابن مسعود ومسروق في قوله (والذين هم على صلواتهم يحافظون) يعني مواقيت الصلاة ، وكذا قال أبو الفتح وعلقمة بن قيس وسعيد بن جبير وعكرمة ، وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضاليتها كما قال رسول الله ﷺ « استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال (أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة . وفوقه عرش الرحمن » ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامنكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله (أولئك هم الوارثون) » وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد (أولئك هم الوارثون) قال مامن عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار ،

فأما المؤمن فيبنى بيته الذى فى الجنة ويهدم بيته الذى فى النار ، وأما الكافر فيهدم بيته الذى فى الجنة ويبنى بيته الذى فى النار . وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ﷺ قال : « يحىء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى » وفى لفظ له قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار » فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبابردة بالله الذى لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له ، قلت وهذه الآية كقوله تعالى (تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً) وكقوله (وتلك الجنة التى أورشتموها بما كنتم تعملون) وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس ، وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه غناب الله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس (من سلالة من طين) قال من صفوة الماء وقال مجاهد: من سلالة أى من مئبى آدم ، وقال ابن جرير إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه . وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب إلى السياق فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشكرون) وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والحيث والطيب وبين ذلك » وقد رواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الأعرابي به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح (ثم جعلناه نطفة) وهذا الضمير عائد على جنس الإنسان كما قال فى الآية الأخرى (وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أى ضعيف كما قال (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين) يعنى الرحم معد لذلك مهياً له (إلى قدر معلوم فقدرنا فنعلم القادرون) أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة ولهذا قال ههنا (ثم خلقنا النطفة علقة) أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة قال عكرمة وهى دم (فخلقنا العلقة مضغة) وهى قطعة كالبنعمة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط (فخلقنا المضغة عظما) يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصها وعروقها . وقرأ آخرون (فخلقنا المضغة عظما) قال ابن عباس وهو عظم الصلب وفى الصحيح من حديث أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب » (فكسونا العظام لحماً) أى جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه (ثم أنشأناه خلقاً آخر) أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة

واضطراب (فتبارك الله أحسن الخالقين) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا النضر يعني ابن كثير مولى بني هاشم حدثنا زيد بن علي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ثلاث ثلاث قوله (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني نفخنا فيه الروح ، وروى عن أبي سعيد الخدري أنه نفخ الروح قال ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني نفخنا فيه الروح ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبي والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ، وقال العوفي عن ابن عباس (ثم أنشأناه خلقاً آخر) يعني نفخه من حال إلى حال إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً ثم احتلم ثم صار شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرمًا . وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع في هذه التقلات والأحوال والله أعلم ، قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ^(١) ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغاً مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : رزقه أجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد ، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيجتم له بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيجتم له بعمل أهل الجنة فيدخلها » أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الأعمش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي خيثمة قال : قال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتعكث أربعين يوماً ثم تنحدر في الرحم فتسكون علقه . وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودى إن هذا يزعم أنه نبي فقال لأسألته عن شيء لا يعلمه إلا نبي قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الإنسان ؟ فقال « يا يهودى من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة ، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب ، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم » فقال هكذا كان يقول من قبلك . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا ؟ شقي أم سعيد أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله فيكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص » وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو وها بن دينار به نحوه ، ومن طريق أخرى عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد عن أبي شريح الغفاري بنحوه والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول : أي رب نطفة أي رب علقه أي رب مضغ فإذا أراد الله خلقها قال أي رب ذكر أو أنثى ؟ شقي أم سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ قال فذلك يكتب في بطن أمه » أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله (فتبارك الله أحسن الخالقين) يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال وشكل إلى شكل حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخالق قال (فتبارك الله أحسن الخالقين) قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس قال : قال عمر يعني ابن الخطاب رضي الله عنه وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا آدم ابن أبي إياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد بن ثابت الأنصاري قال أُملي على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة

(١) زاد في بعض الروايات : نطفة

من طين - إلى قوله - خلقنا آخر) فقال معاذ (فتبارك الله أحسن الخالقين) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم تضحك يا رسول الله ؟ فقال « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين » وفي إسناد جابر بن زيد الجعفي ضعيف جدا وفي خبره هذا نكارة شديدة وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة وكذلك إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً فآله أعلم . وقوله (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) يعنى بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) يعنى النشأة الآخرة (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) يعنى يوم المعاد . وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق ويوفى كل عامل عمله إن خيراً فخير وإلا ثم افتر

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفْلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السموات السبع ، وكثير ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وهكذا في أول الم السجدة التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة فى أولها خلق السموات والأرض ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد . وقوله (سبع طرائق) قال مجاهد يعنى السموات السبع وهذه كقوله تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً) (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علماً) وهكذا قال ههنا (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) أى ويعلم ما يلعج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يرجع فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره ، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَنِيعٌ لِّلْكَالِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا أَلْسِنَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحمَلُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التى لا تعد ولا تحصى فى إنزاله القطر من السماء بقدر أى بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ولا قليلاً فلا يكفى الزروع والثمار بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به حتى إن الأرض التى تحتاج ماء كثيراً لزروعها ولا تحتل دمنها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ويقال لها الأرض الجرز يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها فيأتى الماء يحمل طينا أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لأن أرضهم سباح يخلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور ، وقوله (فأسكناه فى الأرض) أى جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض ، وجعلنا فى الأرض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى . وقوله (وإنا على ذهاب به لقادون) أى لو شئنا أن لا تمطر لعلنا ولو شئنا أذى لصرفناه عنكم إلى السباح والبرارى والقفار لعلنا ، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض بل ينبجر على

وجها لفلنا ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفلنا ولكن بلفظه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض فيفتح العيون والأنهار ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنظفون فله الحمد والمنة . وقوله (فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب) يعنى فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أى بساتين وحدائق (ذات بهجة) أى ذات منظر حسن وقوله (من نخيل وأعناب) أى فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشئ وبين نظيره وكذلك فى حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره ، وقوله (سمع فيها فواكه كثيرة) أى من جميع الثمار كما قال (بنبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وقوله (ومنها تأكلون) كأنه معطوف على شئ مقدر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنها تأكلون ، وقوله (وشجرة تخرج من طور سيناء) يعنى الزيتون ، والطور هو الجبل وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر فان عرى عنها مسمى جبلا لا طورا والله أعلم ، وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون ، وقوله (نبت بالدهن) قال بعضهم الباء زائدة وتقديره نبت الدهن كما فى قول العرب ألقى فلان بيده أى يده وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره تخرج بالدهن أو تأتى بالدهن ولهذا قال (وصنع) أى أدم قاله قتادة (للأكليين) أى فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامي عن أبى أسيد واسمه مالك ابن ربيعة الساعدي الأنصاري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة » وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق أنا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ائتمموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة » ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق . قال الترمذى ولا يعرف إلا من حديثه وكان يضطرب فيه فربما ذكر فيه عمر وربما لم يذكره . قال أبو القاسم الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبى حدثنا سفيان بن عيينة حدثنى الصعب بن حكيم بن شريك بن نميلة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمنى من رأس بعير بارد وأطعمنا زيتا وقال هذا الزيت المبارك الذى قال الله لنبىه صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعلى الفلك تحملون) يذكر تعالى ما جعل لحلقه فى الأنعام من المنافع وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حمائلها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم) وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشركوا به وخالف أمره وكذب رسله (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) أى ألا تخافون من الله فى إشراركم به ؟ فقال الملائكة والسادة والأكابر منهم (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يعنون يرفع عليكم ويتعاطم

بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) أى لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ما معناه بهذا أى يبعثه البشر فى آبائنا الأولين بعنون هذا سلافهم وأجدادهم فى السهور الماضية ، وقوله (إن هو إلا رجل به جنه) أى مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم واختصه من بينكم بالوحى (فتربصوا به حتى حين) أى انظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلَ * فَأَعْيَيْنَا وَوَحَيْنَا فَاِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَاِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه فى الآية الأخرى (فدعاربه أنى مغلوب فاتنصر) وقال ههنا (رب انصرنى بما كذبون) فعند ذلك أمره الله تعالى بصناعة السفينة وإحكامها وإتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أى ذكرًا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وأن يحمل فيها أهله (إلا من سبق عليه القول منهم) أى من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم ، وقوله (ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) أى عند معاينة إنزال المطر العظيم لاتأخذك رافة بقومك وشفقة عليهم وطمع فى تأخيرهم لعلمهم يؤمنون فأنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطه فى سورة هود بما يعنى عن إعادة ذلك ههنا وقوله (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) كما قال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستويوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقبون) وقد امثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى (وقل رب أنزلى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين) وقوله (إن فى ذلك لآيات) أى إن فى هذا الصنيع وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين آيات أى لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاء وابه عن الله تعالى وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شئ عليم بكل شئ وقوله (وإن كنا لمبتلين) أى لمختبرين للعباد بارسال المرسلين

﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ السُّلَاطِمُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ لَأَنَّكُمْ إِذَا أَخْسِرُونَ * أَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ * هَئِثَآ هَئِثَآ لِمَا توعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّیُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ

غُثَاءَ فَبَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قبل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل المراد بهؤلاء نوح لقوله (فأخذتهم الصيحة بالحق) وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري وكذبوا بقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجنائي وقالوا (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * ههنا ههنا لما توعدون) أى بعد ذلك (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) أى فيما جاءكم به من الرسالة والندارة والاختبار بالمعاد (وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون) أى استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه (قال عما قليل ليصبحن نادمين) أى بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به (فأخذتهم الصيحة بالحق) أى وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وظغائنهم والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة (تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) وقوله (فجعلناهم غثاء) أى صرعى هالكي كغثاء السيل وهو الشيء الحقيق التافه الهالك الذى لا ينتفع بشيء منه (فبعداً للقوم الظالمين) كقوله (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخِرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتَرَا كَلَّمَآ جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَاهُ بِقَضَاهُمْ بَعْضُهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين) أى إنما وخلائق (ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) يعنى بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل وخلفاً بعد سلف (ثم أرسلنا رسولنا تترى) قال ابن عباس يعنى يتبع بعضهم بعضاً وهذا كقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) يعنى جمهورهم وأكثرتهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وقوله (فاتبعنا بعضهم بعضاً) أى أهلكتناهم كقوله (وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح) وقوله (وجعلناهم أحاديث) أى أخباراً وأحاديث للناس كقوله (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزوق)

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِبَادُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج الباهيات والبراهين القاطعات وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشيرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه وذلك بعد أن قسم الله فرعون والقيبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون)

﴿ وَجَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى ، وقوله (وآويناها إلى ربوة ذات قرار معين) قال الضحاك عن ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة ، قال ابن عباس وقوله (ذات قرار) يقول ذات خصب (ومعين) يعني ماء ظاهراً وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة وقال مجاهد ربوة مستوية ، وقال سعيد بن جبيرة (ذات قرار ومعين) استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة (ومعين) الماء الجاري . ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة من أي أرض هي ؟ فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ليس الربى إلا بمصر والماء حين يسيل يكون الربى عليها القرى ولولا الربى غرقت القرى وروى عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جدا وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله (وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال هي دمشق قال وروى عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس (ذات قرار ومعين) قال : أنهار دمشق وقال ليث ابن أبي سليم عن مجاهد وآويناها إلى ربوة قال عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول : في قول الله تعالى (إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال هي الرملة من فلسطين ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي حدثنا رواه ابن الجراح حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة حدثنا الشيباني عن ابن وعله عن كريب السجولي عن مرة الهندي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل « إنك تموت بالربوة » فمات بالربوة وهذا حديث غريب جداً وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين) قال المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى (قد جعل ربك تحتك سريان) وكذا قال الضحاك وقتادة إلى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الأظهر لأنه المذكور في الآية الأخرى والقرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا أولى ما يفسره ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّ أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده الرسل عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال والقيام بالصالح من الأعمال فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاء فجاءهم الله عن العباد خيراً . قال الحسن البصري في قوله (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أسمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال اتهاوا إلى الحلال منه ، وقال سعيد بن جبيرة والضحاك (كلوا من الطيبات) يعني الحلال ، وقال أبو إسحق السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه ، وفي الصحيح « وما من نبي إلا رعى الغنم » قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال « نعم وأنا صككت أرهاها على قراريط لأهل مكة » وفي الصحيح « إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده » وفي الصحيحين « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه

وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النجيان الحكم بن نافع حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب أن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قال بعثت إلى النبي ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالى ، فشرب منه فلما كان من الغد أتته أم عبد الله بنت شداد فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه ، فقال لها « بذلك أمرت الرسل أن لاتأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا » وقد ثبت في صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسنند الإمام أحمد واللفظ له من حديث فضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأتى يستجاب لذلك » وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فضيل بن مرزوق . وقوله (وإن هذه أمتكم أمة واحدة) أى دينكم يامعشر الأنبياء دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ولهذا قال (وأنا ربكم فاتقون) وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الأنبياء وأن قوله (أمة واحدة) منصوب على الحال وقوله (فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا) أى الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء (كل حزب بما لديهم فرحون) أى يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتواعدا (فذرهم في غمرتهم) أى فى غيهم وضلالهم (حتى حين) أى إلى حين حينهم وهلاكهم كما قال تعالى (فمهل الكافرين أمهلهم وريدا) وقال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون) وقوله (أيعجبون أنما نهدم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) يعنى أيعجبون هؤلاء الغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد نكسر أمهم علينا ومعزتهم عندنا كالأيسر الأمر كما يزعمون في قولهم (نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء ولهذا قال (بل لا يشعرون) كما قال تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) الآية . وقال تعالى (إنما على لهم ليزدادوا إثما) وقال تعالى (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم) الآية وقال ذرني ومن خلقت وحيدا - إلى قوله - عنيدا) وقال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا) الآية والآيات في هذا كثيرة ، قال قتادة في قوله (أيعجبون أنما نهدم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) قال مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح ابن محمد عن مرة الهمداني حدثنا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قالوا وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال « غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يعجوا السىء بالسىء ولكن يعجوا بالسىء بالحسن إن الحبيث لا يعجوا الحبيث »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِثَأْنِ رَبِّهِمْ يَوْمُنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكرهم كآمال الحسن البصري : إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأماناً (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) أي يؤمنون بآياته السكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه) أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه ، وإن كان خيراً فهو حق كما قال الله (والذين هم بربهم لا يشركون) أي لا يعبدون معه غيره بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه لا نظير له ولا كفاء له : وقوله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون) أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوافهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الإشفاق والاحتياط كما قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال « لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به بنحوه ، وقال « لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم (أولئك يسارعون في الخيرات) » وقال الترمذي : وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية (والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجة) أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون . وروى هذا مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك . قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا إسماعيل المسكي حدثنا أبو خلف مولى بني جهم أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقالت مرحباً بأبي عاصم ما يعمك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أمهل فقالت : ما كنت لتفعل ؟ قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها ؟ قالت آية آية ؟ قال (الذين يؤتون ما آتوا) (والذين يأتون ما آتوا) فقالت أيتها أحب إليك ؟ فقلت والذي نفسي بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعاً أو الدنيا وما فيها قالت وما هي ؟ فقلت (الذين يأتون ما آتوا) فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرأها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف . فيه إسماعيل بن مسلم المسكي وهو ضعيف ، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر ، لأنه قال (أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المتأخرين أو المقصرين والله أعلم

﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ * لَا تَجْتَرُوا يَوْمَ الْبُيُوتِ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سُعِرَا تَهْجُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي إلا ما تطيق حملة والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ولهذا قال (ولدينا كتاب ينطق بالحق) يعني كتاب الأعمال (وهو لا يظلمون) أي لا يخسرون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو

ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرنا على الكفار والمشركين من قريش (بل قلوبهم في غمرة) أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (ولهم أعمال) أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك (هم لها عاملون) قال لابد أن يعملوها كذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد ، وقال آخرون (ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون) أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لاحتمال تحقق عليهم كلة العذاب ، وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن ، وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود «فوالذى لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» وقوله (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون) يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم (إذا هم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى (ذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكلاً وجيماً) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنامن قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وقوله (لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتتصرون) أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكنتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى إذا دعيتم أبيتكم وإن طلبتكم امتنعتم (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير) وقوله (مستكبرين به سامراً تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإيائهم إياه استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله فعلى هذا الضمير فى به فيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام . (والثانى) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة (والثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى ممرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائي فى التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبیر يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية (مستكبرين به سامراً تهجرون) فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهل سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه وقد أظن ابن أبى حاتم ههنا بما هذا حاصله

﴿ أَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَسَكَبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى منكرنا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لاسيما آبائهم الذين ماتوا فى الجاهلية حيث لم يبلغهم

كتاب ولا أتاها نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . وقال قتادة (أفلم يدبروا القول) إذا والله يحدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لوتدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهملكوا عند ذلك . ثم قال منكرنا على الكافرين من قريش (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم أي أفقدرون على إنكار ذلك والمباهاة فيه ، ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وهكذا قال المغيرة بن شعبه لنايب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك . وقوله (أم يقولون به جنة) يحكى قول المشركين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه يقول القرآن أي افتراه من عنده أو أن به جنونا لا يدري مايقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن فإنه قد أتاهاهم من كلام الله مالا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ولا يستطيعون أبداً لأبدان ولهذا قال (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون) يحتمل أن تكون هذه جملة حالية أي في حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة والله أعلم

وقال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال له « أسلم » فقال الرجل إنك لتدعوني إلى امرأنا له كاره فقال نبي الله ﷺ « وإن كنت كارهها » وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبي الله ﷺ « رأيت لو كنت في طريق وعر وعت فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أ كنت تتبعه ؟ » قال نعم : قال « فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه » وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم لقي رجلاً فقال له « أسلم » فتصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ « رأيت لو كان لك فتیان أحدهما إذا حدثك صدقك ، وإذا ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك أم فتاك الذي إذا حدثك كذباك وإذا ائتمنته خانك ؟ » قال بل فتأى الذي إذا حدثني صدقي وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم « كذا كم أنتم عند ربكم » . وقوله (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) قال مجاهد وأبو صالح والسدي الحق هو الله عز وجل والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ثم قال (أهي يسمعون رحمة ربك) وقال تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا أأمسكنكم خشية الإنفاق) الآية ، وقال (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيرا) ففي هذا كله تبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو السكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتديره لحاقه تعالى وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال (بل أتيناهم بذكرهم) أي القرآن (فهم عن ذكرهم معرضون) وقوله (أم تسألهم خراجاً) قال الحسن أجرة ، وقال قتادة جملاً (فخراج ربك خير) أي أنت لا تسألهم أجر . ولا جملاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكافئين) وقال (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) وقال (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً) وقوله (وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم * وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لنا كبون) قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف ابن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكاً ففقد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم

سفر اتهموا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال أرايتم إن أوردتكم رياضا معشبة وحياضا رواء فتبعوني ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم وأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألكم على تلك الحال فجعلت لي إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعوني ؟ قالوا بلى ، قال فان بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هي أروى من هذه فاتبعوني قال فقالت طائفة صدق والله لتتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار وتغلبوني تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرفكم بسماكم وأسماءكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمي ، فيقال يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم ، فلا عرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لهما ثناء ينادي يا محمديا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادي يا محمديا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرسها حمحمه فينادي يا محمديا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم ينادي يا محمديا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت » وقال علي بن المديني هذا حديث حسن الإسناد إلا أن حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعري القمي (قلت) بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحق ، وقال فيه يحيى بن معين : صالح ووثقه النسائي وابن حبان وقوله (وإن الدين لا يؤمنو بالأخرة عن الصراط لنا كبون) أي أعادلون جائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها وقوله (ولورحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) يخبر تعالى عن غاظهم في كفرهم بأنه لو أراح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولا استمعروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعتهم لتولوا وهم معرضون) وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لما نهوا عنه - إلى قوله - بعبعوثين) فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون ، قال الضحاك عن ابن عباس : كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْأْتُهُمْ فِيهِ مُمْسِكُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُخْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمعروا على غيهم وضلالهم ما استكانوا أي ما خشعوا (وما يتضرعون) أي ما دعوا كما قال تعالى (فلولوا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) الآية ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة المروزي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبي عن يزيد - يعني النحوي - عن عكرمة

عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلم - يعني الوبر والدم - فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية ، وكذا رواه النسائي عن محمد بن عفيف عن علي بن الحسين عن أبيه به ، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال « اللهم أغنى عنهم بسبع كسبع يوسف » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله بن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ؟ فقال وهب نحن في طرف من عذاب الله والله يقول (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لرهبهم وما يتضرعون) قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقليل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة : وقوله (حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون) أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطع آمالهم ورجاؤهم : ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بها في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله (قليلا ما تشكرون) أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله (وما أكره الناس ولو حرصت بمؤمنين) ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليفة وذوره لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لمقامات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا إلا أعاده كما بداهم ولما قال (وهو الذي يحيى ويميت أي يحيى الرمم ويميت الأمم) وله اختلاف الليل والنهار) أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرها كقوله (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) الآية . وقوله (أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء ، ثم قال مخبرا عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين (بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنون الاعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم وهذا الانكار والتكذيب منهم كقوله إخبارا عنهم (أنذا كنا عظاما نحرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة * فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة هو بكل خلق عليم) الآيات

﴿ قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَدِّ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والمملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ولهذا قال رسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يمكن شيئا ولا يستبدون بشيء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فقال (قل لمن الأرض ومن فيها ؟) أي من مالكمها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمار وسائر صنوف المخلوقات (إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله (أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك (قل أفلا تذكرون) أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟) أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من السكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف الخلوقات كما جاء في الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سمواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة ، وفي الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كمثل الحلقة في تلك الفلاة » ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطري العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة ، وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة ، وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما مبنى عرشاً لارتفاعه . وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض في العرش كالتمثيل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثوري عن عمار الذهبي عن مسلم البطيين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفي رواية : إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال ههنا (ورب العرش العظيم) أى الكبير وقال في آخر السورة (رب العرش الكريم) أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه من ياقوتة حمراء ، وقال ابن مسعود . إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه . وقوله (سيقولون لله قل أفلا تتقون) أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب التفكير والاعتبار . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنا عبيد الله بن جعفر أخبرني عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنماً فقال لها ابنها يا أمه من خلقك ؟ قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت الله قال فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فاني أسمع الله شأننا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع . قال ابن عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث ، قال عبد الله بن دينار كان ابن عمر كثيراً ما يحدثنا بهذا الحديث قلت في إسناد عبيد الله ابن جعفر المديني والد الإمام علي بن المديني وقد تكلموا فيه فأنه أعلم . (قل من بيده ملكوت كل شيء) أى بيده الملك (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا والذى نفسى بيده » وكان إذا اجتهد في اليمين قال « لا ومقلب القلوب » فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف (وهو يحير ولا يحار عليه إن كنتم تعلمون) كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره وليس لمن دونه أن يحير عليه لئلا يقتات عليه ولهذا قال الله (وهو يحير ولا يحار عليه) أى وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : وقال الله (لا يستل عما يفعل وهم يسئلون) أى لا يستل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم كما قال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقوله (سيقولون لله) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يحير ولا يحار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له (قل فأتى تسجرون) أى فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى (بل أتيناكم بالحق) وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك (وإنهم لسكاذبون) أى في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون) فالشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال

الله عنهم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّمَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض) أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينظم الوجود ، والمشهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه ببعض في غاية السكال (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التامع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزاً ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً فإما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكناً لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً ، ولهذا قال تعالى (ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون) أى عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه (فتعالى عما يشركون) أى تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه محمد ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم (رب إمّا ترينى ما يوعدون) أى إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلنى فيهم كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون » وقوله تعالى (وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون) أى لو شئنا لأريناك ما نحلهم من النقم والبلاء والحن . ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسئ إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) وهذا كما قال في الآية الأخرى (ادفع بالتي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا) الآية أى وما يلهم هذه الوصية أو هذه الحصلة أو الصفة (إلا الذين صبروا) أى على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف ، وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقوله تعالى (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أى فى شئ من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والنجس وغير ذلك من الأمور ، ولهذا روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان

رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه . ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحق وقال الترمذي حسن غريب

﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو الفرطين في أمر الله تعالى وقيل لهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال (رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلا) كما قال تعالى (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت - إلى قوله - والله خير بما تعملون) وقال تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب - إلى قوله - ما لكم من زوال) وقال تعالى (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) وقال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) وقال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا - إلى قوله - وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (وترى الظالمين لمارأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل) وقال تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل) والآية بعدها . وقال تعالى (وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا المظالم من نصير) فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار حين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم . وقوله ههنا (كلا إنها كلمة هو قائلها) كلا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طاب ولا تقبل منه وقوله تعالى (إنها كلمة هو قائلها) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أى لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحاً ولما كان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) قال قتادة : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأه عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار ، وقال محمد بن كعب القرظي (حتى إذا جاء أحدكم الموت قال رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت) قال فيقول الجبار (كلا إنها كلمة هو قائلها) وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : إذا قال الكافر رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وقال قتادة في قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت) قال كان العلماء بن زياد يقول : لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة : والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظي نحوه وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل - يعنى ابن عياض - عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : إذا وضع - يعنى الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمراً ، قال فيضيق عليه قبره ويلثمه فهو كالمهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها

وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثني سلمة بن تمام حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم ، حية عند رأسه

وحية عند رجله يقر صانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) . وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى (ومن ورائهم) يعني أمامهم . وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة . وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم . وقال أبو صخر : البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون وفي قوله تعالى (ومن ورائهم برزخ) تهديد للمؤلفاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما كان تعالى (من ورائهم جهنم) وقال تعالى (ومن ورائه عذاب غليظ) وقوله تعالى (إلى يوم يبعثون) أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث « فلا يزال معذبا فيها » أى في الأرض

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَتَفَجَّعُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾

يغير تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرى والد لولده ولا يلوى عليه ، قال الله تعالى (ولا يسأل حميم حميما يصرونهم) أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه) الآية وقال ابن مسعود : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلة فليجيء فليأخذ حتمه - قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصدق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (رواه ابن أبي حاتم

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أم بكر بنت السور بن مخزومة عن عبيد الله بن أبي رافع عن السور - هو ابن مخزومة - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فاطمة بضعة منى يعطينى ما يعطيها وينشطنى ما ينشطها ، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي ونسبى وصهرى » وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن السور بن مخزومة أن رسول الله ﷺ قال « فاطمة بضعة منى يربى بها ويؤذى ما آذاها » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر « ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة في الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم » قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتدتم القهقرى « وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضى الله عنه أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبي طالب رضى الله عنهما قال : أما والله ما بى إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة إلا نسبي ونسبى » رواه الطبرانى والبخارى والبيهقى والحافظ الضياف في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفا عظاما وأكراما رضى الله عنه ، فقد روى الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي العاص ابن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبي القاسم البغوى حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي ونسبى » وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا « سألت ربي عز وجل أن لا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج

إلى أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك » ومن حديث عمار بن سيف عن إسماعيل عن عبد الله بن عمرو ، وقوله تعالى (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون) أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ، قاله ابن عباس (فأولئك هم المفلحون) أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ، وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا (ومن خفت موازينه) أى ثقلت سيئاته على حسناته (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا داود بن المخبر حدثنا صالح المري عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال : إن لله ملكا موكلًا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فان ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً : إسناد ضعيف فان داود بن المخبر ضعيف متروك ولهذا قال تعالى (في جهنم خالدون) أى ما كثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون (تلتفج وجوههم النار) كما قال تعالى (وتغشى وجوههم النار) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظمورهم) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة ابن أبي الغراء حدثنا محمد بن سليمان الأصماني عن أبي سنان ضرار بن مرة عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إن جهنم لما سبق لها أهلها تلقاهم لمبها ثم تلتفجهم لفجة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب » وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الحضرمي بن علي بن يونس القطان حدثنا عمرو بن أبي الحارث بن الحضرمي حدثنا سعيد بن سعيد المقبري عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى (تلتفج وجوههم النار) قال تلتفجهم لفجة تسيل لحومهم على أعقابهم ، وقوله تعالى (وهم فيها كالخون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني عابسون ، وقال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود (وهم فيها كالخون) قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه . وقال الإمام أحمد رحمه الله أخبرنا علي بن إسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال « (وهم فيها كالخون) » قال - قال تشويه النار فقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه . وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة » ورواه الترمذي عن سويد ابن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَىٰ عَالِيكَمْ فَاكُنتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴾ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿

هذا تفریع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أو بقتهم في ذلك فقال تعالى (ألم تكن آياتي تأتي على عايتكم فكنتم بها تكذبون) أى قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال (وما كنا معذبين حتى ننبئ رسولا) وقال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - إلى قوله - فسحقاً لأصحاب السعير) ولهذا قالوا (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين) أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن نتقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها . ثم قالوا (ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أى ارددنا إلى الدنيا فان عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال (فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل * إلى قوله - فالحكم لله العلى الكبير) أى لاسبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْتِرْنَا وَإِنَّا وَارِثُنَا وَأَنتَ

خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخَرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار . يقول (اخشوا فيها) أى امكثوا فيها ساغرير مهانين أذلاء (ولا تكلمون) أى لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي قال العوفي عن ابن عباس (اخشوا فيها ولا تكلمون) قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان الروزي حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : إن أهل جهنم يدعون مالكاً فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم إنكم ما كنتم قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ، ثم يدعون ربهم فيقولون (ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون) قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم (اخشوا فيها ولا تكلمون) قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أو لها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال : قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يا رب فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه فيجىء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل يا فلان أنا فلان فيقول ما أعرفك قال فعند ذلك يقولون (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فانا ظالمون) فعند ذلك يقول الله تعالى (اخشوا فيها ولا تكلمون) فإذا قال ذلك أظبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ، ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعبادة المؤمنين وأوليائهم فقال تعالى (إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آملنا فافقرنا وارتحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً) أى فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي (حتى أنسواكم ذكري) أى حملكم بغضهم على أن أنسىهم معاملتي وكنتم منهم تضحكون) أى من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى (إن الذين أجمعوا أن لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر وإذا مروا بهم يتغامزون) أى يلتمسونهم استهزاء ثم أخبر تعالى عما حازى به أوليائه وعباده الصالحين فقال تعالى (إن جزيتهم اليوم بما صبروا) أى على إذا كم لهم واستهزأكم بهم (أنهم هم الفائزون) أى جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة واللجنة والنجاة من النار

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولوصبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أوليائه المتقون (قال كم لبئتم في الأرض عدد سنين) أى كم كانت إقامتكم في الدنيا (قالوا لبئنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين) أى الحاسبين (قال إن لبئتم إلا قليلاً) أى مدة يسيرة على كل تقدير (لو أنكم كنتم تعلمون) أى لما آثرتم الغنى على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ ولا استحققتهم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أبي نع بن عبد السكلاعى أنه سمعه يخطب الناس فقال : قال رسول الله ﷺ « إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبئتم في الأرض

عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم - قال - لنعم ما تجزتم في يوم أو بعض يوم وحتى ورضوانى وجنتى امكثوا فيها خالدين مخلصين ؟ ثم قال يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا البثنا يوماً أو بعض يوم فيقول بئس ما تجزتم في يوم أو بعض يوم نارى وسخطى امكثوا فيها خالدين مخلصين « وقوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) أى أفظنتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل لا عبث أى لتعبثوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل (وأنكم إلينا لا ترجعون) أى لا تعودون في الدار الآخرة كما قال تعالى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) يعنى ههنا ، وقوله (فتعالى الله الملك الحق) أى تقدر أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك (لا إله إلا هو رب العرش الكريم) فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أى حسن النظر بهى الشكل كما قال تعالى (وأنبتنا فيها من كل زوج كريم) : قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا علي بن محمد الطنافسى حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقى عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يؤدى عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافداً يباق وقليلاً بكثير وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب المهالكين وسيكون من بعدكم الباقيين حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غداً ورائها إلى الله عز وجل قد قضى نحبها وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير محمد ولا موسى قد فارق الأحباب وباشر التراب ، ووجه الحساب ، مرتين بعمله غنى عما ترك فقير إلى ما قدم . فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواعيقه ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف رداءه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن نصير الخولاني ثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حسن بن عبد الله أن رجلاً مصاباً مر به عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق) حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بماذا قرأت في أذنه ؟ » فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لو أن رجلاً موقناً قرأها على جبل لزال » وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا ، وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا إسحق بن وهب العلاف الواسطي حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن مزاحم عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أمان أمى من العرق إذا ركبوا السفينة باسم الله الملك الحق ، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ، باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم »

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواء ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى (ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به) وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله (فإنما حسابه عند ربه) أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر (إنه لا يفلح الكافرون) أى لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجا . قال قتادة : ذكر

لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « ما تعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأيهما إذا أصابك ضرر فدعوته كشفه عنك ؟ » قال : الله عز وجل . قال « فأيهما إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعلمون ولا تعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمني . هذا امرئ من هذا الوجه ، وقدرى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسندا عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك . وقوله تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنوب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويرفقه فى الأقوال والأفعال . آخر تفسير سورة المؤمنون .

﴿ تفسير سورة النور وهى مدنية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ سُورَةُ النُّورِ وَقُرْآنُهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * الرَّأْيِيَّةُ وَالزَّانِي فَاجِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَاذَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْسَ لَهُ عَذَابُهُمَا طَافَةٌُ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى هذه السورة أنزلناه ، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى مع ما عداها (وفرضناها) قال مجاهد وقبادة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم (وأنزلنا فيها آيات بينات) أى مفسرات واضحة (لعلمكم الذكرون) ثم قال تعالى (الزانية والزانى فاجداواكل واحد منهما مائة جادة) يعنى هذه الآية السكرية فيها لكم رضى فى الحد ، ولما لم يفرق فيه تفصيل ومزاج ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرا وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا وهو الذى قد وطئ فى سكاخ صحيح وهو حر بالغ عاقل ، فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن محصنا جادة كما فى الآية وزاد على ذلك أن يغرب عاما عن يده عند جمهور العلماء ، فلا فإدى حليمة رحمه الله فإن عنده أن الغريب إلى رأى الإمام بن شاذى غريب وإن شاء لم يغرب ، وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أى عتبة بن مسعود بن خالد الجهمى فى الأمرين الذين أنزا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابنى هذا كان عسيفا - يعنى أجنبيا - على هذا فزنى بإمرأته ففدت ابنى منه بمائة شاة وواحدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابنى جادة مائة وغريب عام وأن على امرأة هذا : الرحم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « واللهى نفسى بيده لأقتلن بينكما بكتاب الله تعالى . الوليدة والعنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جادة وغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » فعدا عليها فاعترفت فرجمها : وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جادة مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إذا كان محصنا وهو الذى قد وطئ فى سكاخ صحيح وهو حر بالغ عاقل فانه يرجم كما قال الإمام مالك حديث ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قاتل فجعلا الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وآله بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعينناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجما بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فينبأوا بترك فرضه قد أنزلنا الله . فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف . أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك موطولا ، وهذه قطعة منه فيها مقصودنا هنا وروى الإمام أحمد عن هشيم عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حديث عبد الرحمن بن عوف أن عمر

ابن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول : ألا وإن ناسا يقولون ما الرجم في كتاب الله وإنما فيه الجلد وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ولولا أن يقول قائل أو ينكلم متكلم أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت . وأخرجه النسائي من حديث عبيد الله بن عبد الله به ، وقد روى الإمام أحمد أيضا عن هشيم عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال خطب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فذكر الرجم فقال إنا لا نجد من الرجم بدا فإنه حد من حدود الله تعالى ، ألا وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقول قائلون إن عمر زاد في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف ، وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عون وفلان وفلان أن رسول الله ﷺ قد رجم ورجمنا بعده ، ألا إنه سيكون قوم من بعدكم يكذبون بالرجم وبالشفاعة وبعباد القبر ويقوم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا . وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان عن يحيى الأنصاري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب « إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم » الحديث رواه الترمذي من حديث سعيد بن عمر وقال صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا أبو عون عن محمد هو ابن سيرين قال ابن عمر نبئت عن كثير بن الصلت قال كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت كنا نقرأ : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، قال مروان ألا كتبتها في المصحف ؟ قال ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال أنا أشفيك من ذلك قال قلنا فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم فقال يا رسول الله اكتب لي آية الرجم قال « لا أستطيع الآن » هذا ونحو ذلك . وقد رواه النسائي من حديث محمد بن الثني عن غندر عن شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت به ، وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ففسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به والله أعلم

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاعتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحض بين الجلد والآية والرجم للسنة كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه لما أتى بسراجة وكانت قد زنت وهى محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال جلدها بكتاب الله ورجمها بسنة رسول الله ﷺ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن الحسن بن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عباد بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتعريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » وقوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) أى في حكم الله أى لا ترأفوا بهما في شرع الله وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك قال مجاهد (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) قال إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطى وكذا روى عن سعيد بن جبير وعطاء ابن أبى رباح وقد جاء في الحديث « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب » وفي الحديث الآخر « الحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يتطروا أربعين صباحا » وقيل المراد (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح . قال عامر الشعبي (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) قال رحمة في شدة الضرب وقال عطاء ضرب ليس بالمبرح ، وقال سعيد بن أبى عروبة عن حماد بن أبى سليمان يجلد القاذف وعليه ثيابه والزانى تخلع ثيابه ثم تلا (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) فقلت هذا في الحكم قال هذا في الحكم والجلد يعنى في إقامة الحد وفي شدة الضرب وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا

وكيع عن نافع عن ابن عمرو عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلاها قال نافع أراه قال وظهريها قال قلت (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) قال يابني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها ، وقوله تعالى (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أى فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك ، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها فقال « ولك في ذلك أجر »

وقوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) هذا فيه تشكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما وأنجع في ردعهما فإن في ذلك تقييحا وتوبييحا وفضيحة إذا كان الناس حضورا . قال الحسن البصري في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) يعنى علانية ثم قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد : الطائفة الرجل الواحد إلى الألف ، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد إن الطائفة تصدق على واحد ، وقال عطاء بن أبي رباح اثنان ، وبه قال إسحق بن راهويه وكذا قال سعيد بن جبير (طائفة من المؤمنين) قال : يعنى رجلين فصاعدا ، وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعدا وقال عبد الرزاق حدثني ابن وهب عن الإمام مالك في قوله (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعدا وبه قال الشافعي وقال ربيعة : خمسة ، وقال الحسن البصري : عشرة وقال قتادة أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أى نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) قال ليس ذلك للفضيحة إنما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة أى لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عامية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك (الزانية لا ينكحها إلا زان) أى عاص بزناه (أو مشرك) لا يعتد تحريمه قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة) قال ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزنى بها إلا زان أو مشرك وهذا إسناد صحيح عنه وقد روى عنه من غير وجه أيضا ، وقد روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والنخاع ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك . وقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) أى تعاطيه والزواج بالبغايا أو تزويج العفاف بالرجال الفجار وقال أبو داود الطيالسي حدثنا قيس عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وحرم ذلك على المؤمنين) قال حرم الله الزنا على المؤمنين وقال قتادة ومقاتل بن حيان : حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا وتقدم ذلك فقال (وحرم ذلك على المؤمنين) وهذه الآية كقوله تعالى (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) وقوله (محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) الآية ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى مادامت كذلك حتى تستتاب فإن تاب صح العقد عليها وإلا فلا وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى (وحرم ذلك على المؤمنين) وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال : قال أبي حدثنا الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله ﷺ في امرأة يقال لها أم مهزل كانت تسافح وتشترط له أن

تتفق عليه قال فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها قال فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) وقال النسائي أخبرنا عمرو بن عدى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها فأنزل الله عز وجل (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قال الترمذى حدثنا عبد بن حميد حدثنا روح بن عباد عن عبيد الله بن الأحنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة قال وكانت امرأة بنى بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال فجئت حتى انتهت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت إلى عرفتني فقالت: مرثد؟ فقلت مرثد فقالت مرحباً وأهلاً هلم فبت عندنا الليلة : قال فقلت يا عناق حرم الله الزنا فقالت يا أهل الحيام هذا الرجل يحمل أسراكم قال فتبعني ثمانية ودخلت الحديقة فأنتهت إلى غار أو كهف فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني قال ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فجعلته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهت إلى الآخر ففككت عنه أحبله فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً - مرتين - ؟ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد على شيئاً حتى نزل (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) فقال رسول الله ﷺ « يا مرثد : الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والنسائي في كتاب النكاح من سقتهما من حديث عبيد الله بن الأحنس به ، وقال ابن حاتم حدثنا أبي حدثنا مسدد أبو الحسن حدثنا عبد الوارث عن حبيب المعلم حدثني عمرو بن شعيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر عن عبد الله بن عمرو كلاهما عن عبد الوارث به وقال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا عاصم بن محمد عن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أخيه عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالماً يقول : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال والديوث . وثلاث لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه . ومدمن الخمر ، والمثان بما أعطى » ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمري عن عبد الله بن يسار به . وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يعقوب حدثنا أبي حدثنا الوليد بن كثير عن قطن بن وهب عن عويمر بن الأجدع عن عمن حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال حدثني عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « ثلاثة حرم الله عليهم الجنة ، مدمن الخمر ، والعاق لوالديه ، والذي يقر في أهله الخبث » وقال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثني شعبة حدثني رجل من آل سهل بن حنيف عن محمد بن عمار عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة ديوث » يستشهد به لما قبله من الأحاديث وقال ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلام بن سوار حدثنا كثير بن سليم عن الضحاك بن مزاحم سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن يلتقي الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر » في إسناده ضعف . وقال الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح في اللغة : الديوث القنزع وهو الذى لا غيرة له ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سننه أخبرنا محمد بن إسماعيل بن علية عن يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة وغيره عن هارون بن رباب عن عبد الله بن عبيد بن عمير وعبد الكريم عن عبد الله ابن عبيد بن عمير عن ابن عباس . عبد الكريم رفعه إلى ابن عباس وهارون لم يرفعه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ

فقال إن عندي امرأة من أحب الناس إلى وهي لا تمنع يد لامس قال « طلقها » قال لا صبر لي عنها قال « استمتع بها » ثم قال النسائي هذا الحديث غير ثابت وعبد الكريم ليس بالقوي وهارون أثبت منه وقد أرسل الحديث وهو ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم قلت وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث وقد خالفه هارون بن رباب وهو تابعي ثقة من رجال مسلم فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق عن إسحاق بن راهويه عن النضر بن شميل عن حماد بن سلمة عن هارون بن رباب عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس مسنداً فذكره بهذا الإسناد فرجاله على شرط مسلم إلا أن النسائي بعد روايته له قال هذا خطأ والصواب مرسل : ورواه غير النضر على الصواب وقد رواه النسائي أيضاً وأبو داود عن الحسين بن حريث أخبرنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسين بن واقد عن عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره وهذا الإسناد جيد . وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعف له كما تقدم عن النسائي ومنكر كما قال الإمام أحمد هو حديث منكر ، وقال ابن قتيبة : إنما أراد أنها سخية لا تمنع سائلاً وحكاها النسائي في سننه عن بعضهم فقال وقيل سخية تعطى ، ورد هذا بأنه لو كان المراد لقال لا ترد يد ملتصق ، وقيل المراد إن سجيبتها لا ترد يد لامس لأن المراد أن هذا واقع منها وأنها تفعل الفاحشة فإن رسول الله ﷺ لا يأذن في مصاحبة من هذه صفيتها فإن زوجها والحالة هذه يكون ديوناً وقد تقدم الوعيد على ذلك ، ولكن لما كانت سجيبتها هكذا ليس فيها محاسنة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد أمره رسول الله ﷺ بفراقها فلما ذكر أنه يحجبها أباح له البقاء معها لأن محبته لها محقة ووقوع الفاحشة منها متوهم فلا يصار إلى الضرر العاجل لتوهم الآجل والله سبحانه وتعالى أعلم ، قالوا فأما إذا حصلت توبة فانه يحل التزويج كما قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن ابن أبي ذئب قال سمعت شعبة مولى ابن عباس رضى الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال إني كنت ألم بامرأة أتت منها ما حرم الله عز وجل على فرزق الله عز وجل من ذلك توبة فأردت أن أزوجهما فقال أناس إن الزاني لا ينكح إلا زانيه أو مشركة فقال ابن عباس ليس هذا في هذا انكحها فما كان من إثم فعلي وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء أن هذه الآية منسوخة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال ذكر عنده (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) قال كان يقال (وأنكحوا الأيامى منكم) قال كان يقال الأيامى من المسلمين وهكذا رواه أبو عبيد القاسم ابن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضاً الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً وليس فيه نزاع بين العلماء فإن أقام القاذف بيته على صحة ما قاله دأ عنه الحد ولهذا قال تعالى (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جادة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلد (الثاني) أنه ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس ، ثم قال تعالى (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية . واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب واقتضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف فذهب الإمام مالك وأحمد الشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ونص عليه سعيد بن

المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً ، وقال الإمام أبو حنيفة إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً ومن ذهب إليه من السلف القاضى شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَتْ أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

هذه الآية الكريمة فيها فرج للازواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها إلى الإمام فيدعى عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين أى فيما رماها به من الزنا (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين) فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وحرمت عليه أبداً ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين أى فيما رماها به (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) ولهذا قال (ويدرأ عنها العذاب) يعنى الحد (أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين) والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين (فخصها بالغضب كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهى تعلم صدقه فيما رماها به ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها والغضب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه ، ثم ذكر تعالى رأفته بخلقها ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من التيق فقال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته أى لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم) وأن الله تواب (أى على عبادته ، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغالطة (حكيم) فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه ، وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة . قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا عباد بن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً) قال سعد بن عباد وهو سيد الأنصار رضى الله عنه أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » فقالوا يا رسول الله لا تلمه فإنه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرأ وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله إني لا آتى بهم حتى يقضى حاجته — قال فما لبثوا إلا يسيراً — حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً فرأى بعينه وسمع بأذنيه فلم يهيجه حتى أصبح ففعلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني جئت أهلى عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذنى فذكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار وقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد الآن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ويبطل شهادته فى الناس فقال هلال والله إني لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجاً . وقال هلال يا رسول الله فانى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله

يعلم إني لصديق . فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الوحي ، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تربع وجهه يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي فنزلت (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله) الآية فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أبصر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً » فقال هلال قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرسلوا إليها » فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا فقال هلال والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما فقال كذب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاعنوا بينهما » فقيل لهلal اشهد فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فقال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يحلني عليها فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم قيل للرأه اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين وقيل لها عند الخامسة اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلك آت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفصح قومي فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها وقال « إن جاءت به أصهب أريشع حمش الساقين فهو لهلal وإن جاءت به أورق جعداً حاليّاً خدلج الساقين سابع الألتين فهو الذى رميت به » فجاءت به أورق جعداً حاليّاً خدلج الساقين سابع الألتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » قال عكرمة فكان بعد ذلك أمراً على مصر وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب ، ورواه أبو داود عن الحسن بن على عن يزيد بن هارون به نحوه مختصراً ، ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحيح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما قال البخارى : حدثني محمد بن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن هشام بن حسان حدثني عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قدف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحاء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « البينة أوحد في ظهرك » فقال بارسول الله إذا أرى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق بالنفس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول « البينة وإلا حد في ظهرك » فقال هلال والنبي بعثك بالحق إني لصديق ولينزلن الله ما يرى في ظهري من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه (والذين يرمون أزواجهم -- فقرأ حتى بلغ -- إن كان من الصادقين) فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما نائب » ثم قامت فشهدت ، فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة قال ابن عباس فتلك آت ونكست حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفصح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أبصروها فإن جاءت به أ كحل العينين سابع الألتين خدلج الساقين فهو اشريك بن سحاء » فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا مامضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن » انفرد به البخارى من هذا الوجه ، وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزياى حدثنا بونس بن محمد حدثنا صالح وهو ابن عمر حدثنا عاصم يعني ابن كليب عن أبيه حدثني ابن عباس قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى امرأته برجل فذكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يردد حتى أنزل الله تعالى (والذين يرمون أزواجهم) فقرأ حتى فرغ من الآيتين فأرسل إليهما فدعاها فقال : « إن الله تعالى قد أنزل فيكما » فدعا الرجل فقرأ عليه فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ثم أمر به فأمسك على فيه فوعظه فقال له « كل شئ أهون عليه من لعنة الله » ثم أرسله فقال « لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » ثم دعاها فقرأ عليها فشهدت أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها وقال : « ويحك كل شئ أهون من غضب الله » ثم أرسلها فقالت : غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فقال رسول الله

ﷺ « أما والله لأقضين بينكما قضاء فصلا » قال فولدت فما رأيت مولوداً بالمدينة أكثر منه فقال « إن جاءت به لكذا وكذا فهو كذا ، وإن جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا » فجاءت به يشبهه الذي قذفت به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير قال سئلت عن التلاعنين أيفرق بينهما في إماره ابن الزبير فما دريت ما أقول فقممت من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلت يا أبا عبد الرحمن التلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال سبحانه الله إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال يا رسول الله أرايت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تسكلم تسكلم بامر عظيم وإن سككت سككت على مثل ذلك فسككت فلم يجبه فلما كان بعد ذلك أتاه فقال الذي سألتك عنه قد ابتليت به فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور (والذين يرمون أزواجهن) حتى بلغ (أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين) فبدأ بالرجل فوعظه وذكره وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبت ثم نثي بالمرأة فوعظها وذكرها وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة : والذي بعثك بالحق إنه لكاذب. قال فبدأ بالرجل فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ثم نثي بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرق بينهما رواه النسائي في التفسير من حديث عبد الملك بن أبي سليمان به وأخرجه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن حماد حدثنا أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال ، كنا جلوسا عشية الجمعة في المسجد فقال رجل من الأنصار : أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تسكلم جلدتموه ، وإن سككت سككت على غيظ ، والله لأن أصبحت صحيحا لأسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأله فقال يا رسول الله إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتله قتلتموه وإن تسكلم جلدتموه ، وإن سككت سككت على غيظ اللهم احكم ، قال فنزلت آية الامعان فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به . انفرد بأخراجه مسلم فرواه من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش به وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال له سل رسول الله ﷺ أرايت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله أقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل قال فاقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال ما صنعت إنك لم تأتني بخير ، سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا سأله . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيها . قال : فدعاهما ولاعن بينهما . قال عويمر ان انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ فصارت سنة التلاعنين ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبصروها فإن جاءت به أسحمت أدعج العينين عظيم الزليلتين فلا أراه الا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كانه وحره فلا أراه إلا كاذبا » فجاءت به على الذمت المسكروه . أخرجه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي ورواه البخاري أيضا من طرق عن الزهري به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أرايت رجلا رأى مع امرأته رجلا أقتله فقتلونه أم كيف يفعل ؟ فأنزل الله تعالى فيهما ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد قضى فيك وفي امرأتك » قال فتلاعنا وأنا شاهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففارقها فكانت سنة أن يفرق بين التلاعنين ، وكانت حاملا فأنكر حملها وكان ابنها يدعى اليها . ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لها . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إسحق بن النضير حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس بن أبي إسحق عن أبيه عن زيد بن بتيص عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر « لورايت مع أم رومان رجلا ما كنت فاعلا ؟ » قال كنت والله فاعلا به شرا ، قال « فأنت يا عمر ؟ » قال كنت والله فاعلا كنت أقول لعن الله الأعجز فإنه خبيث . قال فنزلت (والذين يرمون أزواجهن ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم) ثم قال لانعلم أحدا أسنده إلا النضر بن شميل عن يونس

ابن إسحاق ثم رواه من حديث الثوري عن أبي إسحاق عن زيد بن بقيق مرسلًا قاله أعلم ، وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي حدثنا محمد بن الحسين عن هشام بن عمار عن ابن سيرين عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحاء قد فقه هلال بن أمية بامرأته فرفعه إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ « أربعة شهود وإلا فجد في ظهرك » فقال يا رسول الله إن الله يعلم إنى لصادق ولينزلن الله عليك ما يرى به ظهري من الجلد فأنزل الله آية اللعان (والذين يرمون أزواجهم) إلى آخر الآية قال فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رमितها به من الزنا » فشهد بذلك أربع شهادات ثم قال له في الخامسة « ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رमितها به من الزنا » ففعل ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال « قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » فشهدت بذلك أربع شهادات ثم قال لها في الخامسة « وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » قال فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكنت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت لا أفصح قومي سائر اليوم فمضت على القول ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال « انظروا فإن جاءت به جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحاء وإن جاءت به أبيض سبطا قصير العينين فهو لهلال بن أمية » فجاءت به جعدا حمش الساقين فقال رسول الله ﷺ « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لى ولها شأن »

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنِّمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولذبيبه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ فقال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) أى جماعة منكم يعنى ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فنكسوا به وجوزه آخرون منهم وبقي الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري قال أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث (١) عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى ، وكلمهم قد حدثني بطائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا ، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذى حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا : ذكروا أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أفرغ بين نسائه فأتيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، قالت عائشة رضى الله عنها فأفرغ بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما نزل الحجاب فأنا أحمل في هودجى وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمعت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدرى فإذا عقدلى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتصت عقدى فحبسنى ابتعاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فحملوه على بعير الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، قالت وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغصهن اللحم إعماءا كان العلقه من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكانت جارية حديثة السن فيبعثوا الجمال وساروا ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتييمت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفقدونى (١) كذا في الأميرة ، وفي البعوى عن عائشة .

فيرجعون إلى ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الله كوانى قد عرس من وراء الجيش فأدليج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأثنانى فعرفتى حين رآنى وقد كان رآنى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخرمت وجهى بجلبائى والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقودى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك في شأنى وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمناها شهرًا والناس يفضيئون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يربىنى في وجمعى أنى لا أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول « كيف تيكم ؟ » فذلك الذى يربىنى ولا أشعر بالشئ حتى خرجت بعد ما نهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا تخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في النزاهة في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن تتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وأم مسطح وهى بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب^(١) فأقبلت أنا وابنة أبى رهم أم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعرثت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بشما قلت تسبين رجلا شهد بدرا ؟ فقالت أى هنتاه ألم تسمعى ما قال ؟ قلت وماذا قال ؟ قالت فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ثم قال « كيف تيكم ؟ » فقلت له أتأذن لى أن آتى أبوى ، قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت أبوى فقلت لأمى يا أمتاه لماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت أى بنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيفة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكرهن عليها . قالت فقلت سبحان الله وقد تحدث الناس بها فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى ، قالت فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسماء بن زيد حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسماء بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى يعلم في نفسه لهم من الود ، فقال أسماء يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال يا رسول الله لم ينطق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدق الخبر . قالت فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال « أى بريرة هل رأيت من شئ يريبك من عائشه » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت منها أمرا قط أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأنى الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سلول ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه في أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلى إلا معى » فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتله فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكثوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالى كبدى قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، قالت ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى شيء

قالت فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال « أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت أملت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه فان العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قاص دمعى حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبى أجب عنى رسول الله فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأبى أجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم أنى بريئة لاتصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لصدقنى فوالله ما أجدلى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشى قالت وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى يبرئى يبرأتى ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئى الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى إنه ليتجدد منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شاة من ثقل القول الذى أنزل عليه : قالت فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال « أبشرى يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك » قالت فقالت لى أمى قومى إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذى أنزل براءتى وأنزل الله عز وجل (إن الدين جاءوا بالإفك عصبة منكم) العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرايته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤنوا أولى القرى) — إلى قوله — ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال والله لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمرى فقال « يا زينب ماذا علمت أورأت ؟ » فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خبراً قالت عائشة وهى التى كانت تسامىنى من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع . وطمعت أختها حمزة بنت جحش تخارب لما فيها كنت فيمن هلك . قال ابن شهاب فهذه ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الزهط أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث الزهرى وهكذا رواه ابن إسحاق عن الزهرى كذلك قال : وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن نزم الأنصارى عن عمرة أخبرنى أبى عن عائشة بنحو ما تقدم والله أعلم . ثم قال البخارى وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال أخبرنى أبى عن عائشة رضى الله عنها قالت لما ذكر من شأنى الذى ذكر وما علمت به . قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه فى خطيباً فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله . ثم قال أما بعد أشيروا على فى أناس أنبوا أهلى وإيم الله ما علمت على أهلى إلا خيراً وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله ائذن لنا أن نضرب أساقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرفى المسجد وما علمت فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح فعثرت فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانهتريتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك فقلت فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث فقلت وقد كان هذا ؟ قالت نعم والله فرجعت إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً ووعكت وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم

أرسلني إلى بيت أبي فأرسل معي الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفلى وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أم رومان ماجاء بك يابنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني فقالت يابنية خفي عليك الشأن فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسنها ، وقيل فيها فقلت وقد علم به أبي ؟ قالت نعم قلت ورسول الله ﷺ ؟ قالت نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لأمي ما شأنها قالت بانها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه رضى الله عنه فقال أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فسأل عني خادمتي فقالت يارسول الله لا والله ما علمت عليها عيبا إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خيرها أو عجينها ، واتهرها بعض أصحابه فقال اصدق رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت سبحان الله والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصانع على تبر الذهب الأحمر ، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له ، فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أثي قط . قالت عائشة رضى الله عنها فقتل شهيدا في سبيل الله قالت وأصبح أبوأي عندي فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ثم دخل ، وقد اكتنفتي أبوأي عن يميني وعن شمالي فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبى إلى الله فان الله يقبل التوبة عن عباده » قالت وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت ألا تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئا فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إلى أبي فقلت له أجب رسول الله ﷺ قال فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أُمي فقلت أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إنى لم أفعل والله عز وجل يشهد إنى لصادقة ماذا كنتم تفعلون عندي عندكم لقد تكلمتم به وأثربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إنى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قديرات به على أنفسها وإنى والله ما أجدلى ولكم مثالا والتهمت اسم يعقوب فلم أقدر عليه إلا أبايوسف حين قال (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته فسكتنا ورفع عنه وإنى لأتبين السرور في وجهه وهو مسح جبينه ويقول « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك » قالت وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لى أبوأي قومي اليه فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده ولا أحمدا ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه ، وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيراً ، وأما أختها حمزة بنت جحش فهلكت فيمن هلك ، وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والنافق عبد الله بن أبي بن سلول وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمزة ، قالت فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً فأُنزل الله تعالى (ولا يأتل أولو الفضل منكم) يعنى أبا بكر (والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين) يعنى مسطحاً إلى قوله (ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا . وعادله بما كان يصنع . هكذا رواه البخارى من هذا الوجه معلقاً بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات . وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفیان بن وكيع عن أبي أسامة مطولاً به مثله أو نحوه . ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة يبعثه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت لما نزل عذرى من السماء جاءنى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرنى بذلك فقلت : بحمد الله لا بحمدي . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن أبي عدى عن محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة أيضاً عن عائشة قالت : لما نزل عذرى قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى هذا حديث حسن ووقع عند أبي داود تسميتهم حسان بن ثابت ومسطح بن أنثة وحمزة بنت جحش . فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد روى من حديث أمها أم رومان رضى الله

عنها فقال الإمام أحد حدثنا علي بن عاصم أخبرنا حصين عن أبي وائل عن مسروق عن أم رومان قالت بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله بابنها وفعل ، فقالت عائشة ولم ؟ قالت إنه كان فيمن حدث الحديث قالت وأي الحديث قالت وكذا قالت وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت وبلغ أبا بكر ؟ قالت نعم فخرت عائشة رضى الله مغشياً عليها فما أفادت إلا وعليها حمى بنافض قالت ففقت فدرتها قالت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم قال « فما شأن هذه ؟ » فقلت يارسول الله أخذتها حمى بنافض قال « فلعله في حديث تحدث به » قالت فاستوت عائشة قاعدة فقالت والله لئن حلفت لكم لاتصدقوني ولئن اعذرت اليكم لاتعذروني ثملى ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال (فصر جميل والله المستعان على ما تصفون) قالت فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله عذرها فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فدخل فقال يا عائشة « إن الله تعالى قد أنزل عذرك » فقالت بحمد الله لا بحمدك فقال لها أبو بكر تقوين هذا لرسول الله ﷺ قالت نعم قالت وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله فأنزل الله (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة) إلى آخر الآية فقال أبو بكر بلى فوصله . تفرد به البخارى دون مسلم من طريق حصين ، وقدرناه البخارى عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به وفي لفظ أبي عوانة حدثني أم رومان وهذا صريح في سماع مسروق منها وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمن النبي ﷺ قال الخطيب وقد كان مسروق يرسله فيقول سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف اعتقد الراوى أنها سألت فظنه متصلاً قال الخطيب وقد رواه البخارى كذلك ولم تظهر له علته كذا قال والله أعلم . ورواه بعضهم عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود عن أم رومان فأنه أعلم ، فقله تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك) أى الكذب والبهت والافتراء (عصبه) أى جماعة منكم (لا تحسبوه شراً لكم) أى يا آل أبي بكر (بل هو خير لكم) أى فى الدنيا والآخرة لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم (الذى لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضى الله عنه وعنها وهى فى سياق الموت قال لها أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ونزلت براءتك من السماء . وقال ابن جرير فى تفسيره حدثني محمد بن عثمان الواسطى حدثنا جعفر ابن عون عن المولى بن عوفان عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت عائشة وزينب رضى الله عنهما فقالت زينب أنا التى نزل ترويحى من السماء وقالت عائشة أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن العطل على الرحلة فقالت لها زينب يا عائشة ما قلت حين ركبتىها ؟ قالت : قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت قلت كلمة المؤمنين وقوله تعالى (لكل امرئ ما اكتسب من الإثم) أى لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب (والذى تولى كبره منهم) قيل ابتداء به وقيل الذى كان يجمعهم ويستوشيه ويندعه ويشيعه (له عذاب عظيم) أى على ذلك ، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى بن سلول قبجه الله تعالى ولعنه وهو الذى تقدم النص عليه فى الحديث وقال ذلك مجاهد وغير واحد ، وقيل بل المراد به حسان بن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يدل على إيراد ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره وهو الذى قال له رسول الله ﷺ « هاجهم وجبريل معك » وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال كنت عند عائشة رضى الله عنها فدخل حسان بن ثابت فأمرت فأتيت له وسادة فلما خرج قلت لعائشة ما تصنعين بهذا ؟ يعنى يدخل عليك وفى رواية قيل لها أتأذنين لهذا يدخل عليك وقد قال الله (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ؟ قالت وأى عذاب أشد من العمى وكان قد ذهب بصره لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب

العظيم ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ وفي رواية أنه أنشدها عند ما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال
حصان رزان ما تزن بريه * وتصبح غرثي من لحوم النوافل

فقال أما أنت فلست كذلك ، وفي رواية : لكنك لست كذلك وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا
سلمة بن علقمة حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمتلت به إلا رجوت
له الجنة قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء
فان أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
أنشتمه ولست له بكفاء ؟ * فشر كما لخير كما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه * وبحري لا تكدره الدلاء

ف قيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغوا ؟ قالت لا إنما اللغوا ما قيل عند النساء ، قيل أليس الله يقول (والذى تولى
كبره منهم له عذاب عظيم) قالت أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف ؟ تعنى الضربة التى ضربه إياها صفوان بن المعطل
السلمى حين بلغه عنه أنه يتكلم فى ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله

﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين فى قصة عائشة رضى الله عنها حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السوء وما ذكر
من شأن الإفك فقال تعالى (لولا) يعنى هلا (إذ سمعتموه) أى ذلك الكلام الذى رمت به أم المؤمنين رضى الله
عنها (ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا) أى قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فان كان لا يليق بهم فأم المؤمنين
أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى . وقد قيل إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامراته رضى
الله عنهما كما قال الإمام محمد بن إسحق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بنى النجار أن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى
قالت له امراته أم أيوب يا أبى أيوب أمتسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال نعم وذلك الكذب أكنت
فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله قال فعائشة والله خير منك ، قال فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل
من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا
ما قالوا ، ثم قال تعالى (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون) الآية أى كما قال أبو أيوب وصاحبته ، وقال محمد بن عمر الواقدي
حدثني ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب أن أم أيوب قالت لأبى أيوب :
ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة ؟ قال بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ، قالت لا والله قال فعائشة
والله خير منك : فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله عز وجل (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات
بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين) يعنى أبى أيوب حين قال لأم أيوب ما قال ويقال إنما قالها أبى بن كعب ، وقوله
تعالى (ظن المؤمنون) الخ أى هلا ظنوا الخير فان أم المؤمنين أهلها وأولى به . هذا ما يتعلق بالباطن ، وقوله (وقالوا) أى
بالسنتهم هذا إفك مبين) أى كذب ظاهر على أم المؤمنين رضى الله عنها فان الذى وقع لم يكن ريبة وذلك أن مجيء أم
المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة وال جيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين
أظهرهم ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد بل كان هذا يكون
لو قدر خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما روابه أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة
الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة ، قال الله تعالى (لولا) أى هلا (جاءوا عليه) أى على ما قالوه (بأربعة شهداء)

يشهدون على صحة ما جاءوا به (فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى فى حكم الله كاذبون فاجرون ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿

يقول تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة) أيها الخاضعون فى شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإيمانكم إليه فى الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة (لمسكم فيما أفضتم فيه) من قضية الافك (عذاب عظيم) وهذا فيمن عذبه إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحملة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأمّا من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين فى هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه : ثم قال تعالى (إذ تلقونه بألسنتكم) قال مجاهد وسعيد بن جبير أى يرويه بعضكم عن بعض يقول هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا وذكر بعضهم كذا ، وقرأ آخرون (إذ تلقونه بألسنتكم) وفى صحيح البخارى عن عائشة أنها كانت تقرأها كذلك وتقول هو من ولقى اللسان يعنى الكذب الذى يستمر صاحبه عليه ، تقول العرب : ولقى فلان فى السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن عائشة أنها كانت تقرأ (إذ تلقونه) وتقول هى ولقى القول قال ابن أبى مليكة : هى أعلم به من غيرها . وقوله تعالى (وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم) أى تقولون ما لا تعلمون ، ثم قال تعالى (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) أى تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً فكيف وهى زوجة النبي آدمى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظم عند الله أن يقال فى زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يباركها وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم) وفى الصحيحين « إن الرجل ليحكم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ بهوى بها فى النار أبعد مما بين السماء والأرض » وفى رواية « لا يلقى لها بالاً »

﴿ وَلَمْ يَلَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْمٌ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَكَلِّمَ بِهِذَا سُجَّحَتُكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿

هذا تأديب آخر بعد الأول الأمر بظن الخير أى إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة فأولى ينبغى الظن بهم خيراً ، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك ثم إن علق بنفسه شئ من ذلك وسوسة أو خيالاً فلا ينبغى أن يتكلم به فإن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى تجاوز لأهتى عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » أخرجه فى الصحيحين . وقال الله تعالى (ولولا إذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا) أى ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد (سبحانه هذا بهتان عظيم) أى سبحانه الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله . ثم قال تعالى (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً) أى ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أى فيما يستقبل ولهذا قال (إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم فأما من كان منافقاً بالكفر فله حكم آخر ، ثم قال تعالى (ويبين الله لكم الآيات) أى يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية (والله عليم حكيم) أى عليم بما يصلح عباده حكيم فى شرعه وقدره

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكتر منه ولا يشيعه ويذيعه فقد قال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم) أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبیح (لهم عذاب أليم في الدنيا) أي بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أي فردوا الأمور إليه ترشدوا وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون بن موسى الرقي حدثنا محمد بن عباد الخزومي عن نوبان عن النبي ﷺ قال « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته

﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنِ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول الله تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم) أي لولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رءوف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب إليه من هذه القضية وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) يعني طرائقه ومسالكه وما يأمربه (ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ، قال علي بن أبي طاحجة عن ابن عباس (خطوات الشيطان) عمله وقال عكرمة نزغانه وقال قتادة كل معصية فهي من خطوات الشيطان ، وقال أبو مجلز : النذور في المعاصي من خطوات الشيطان ، وقال مسروق سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه فقال هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل ، وقال الشعبي في رجل نذر ذبيح والله هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان بن عبد الله المصري حدثنا السري بن يحيى عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت على امرأتى فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأثبت عبد الله بن عمر فقال : إنما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفضه امرأة بالمدينة وأثبت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك . ثم قال تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً) أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها وذنوبها وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً (ولكن الله يزكي من يشاء) أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي ، وقوله (والله سميع) أي سميع لأقوال عباده (عليم) بمن يستحق منهم الهدى والضلال

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يقول تعالى (ولا يأتل) من الأتية وهي الحلف أي لا يحلف (أولو الفضل منكم) أي الطول والصدقة والإحسان (والسعة) أي الجدة (أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قربائكم

المساكين والمهاجرين . وهذا في غاية الترفق والعطف على صلاة الأرحام ولهذا قال تعالى (وليعفوا وليصغحوا)
 أى عما تقدم منهم من الاساءة والأذى ؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه
 الآية نزلت في الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا يرفع مسطح بن أثانة بنافعة أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال كما
 تقدم في الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان
 تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبة
 ونسيبه وهو مسطح بن أثانة فإنه كان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضى الله
 عنه ، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق
 رضى الله عنه معروفاً بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله (ألا تحبون
 أن يغفر الله لكم) الآية فإن الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح
 عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال
 والله لا أنزعها منه أبداً في مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبداً . فلماذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه
 وعن بنده

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ
 تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَاْمَأْمُونَ أَنَّ
 اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات العافلات خرج مخرج الغالب المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى
 بالدخول في هذا من كل محصنة ولا سيما التي كانت سبب النزول وهى عائشة بنت الصديق رضى الله عنهما وقد أجمع
 العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر في هذه الآية فإنه كافر
 لأنه معاند للقرآن ، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : أحدهما أنهم كفى والله أعلم وقوله تعالى (لعنوا في الدنيا
 والآخرة) الآية كقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) الآية . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضى الله عنها
 فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن حراش عن العوام عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس في الآية
 (إن الذين يرمون المحصنات العافلات للمؤمنات) قال نزلت في عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبيرة ومقاتل بن حيان
 وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا أحمد بن عبد الله بن عتبة بن جابر عن ابن عباس عن أبيه عن عائشة
 رضى الله عنها قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فبينما رسول الله ﷺ جالس عندى
 إذ أوحى إليه قالت وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى
 جالسا مسح على وجهه وقال « يا عائشة أبشري » قالت فقلت بحمد الله لا بحمدك فقراً (إن الذين يرمون المحصنات
 العافلات للمؤمنات - حتى بلغ - أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) هكذا أورده وليس فيه أن
 الحكم خاص بها وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وإن كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن
 قال كقوله والله أعلم وقال النجاشي وأبو الجوزاء وسلمة بن نبيب : المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من
 النساء وقال العوفي عن ابن عباس في الآية (إن الذين يرمون المحصنات العافلات للمؤمنات) الآية يعنى أزواج النبي
 ﷺ رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والعناب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك في أزواج النبي
 ﷺ ثم نزل بعد ذلك (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم)
 فأزيل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم

أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بني أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات) الآية قال في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) الآية قال فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور. فقوله وهي مبهمة أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضاً اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أمّاً في ذلك . وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن ابن أخى وهب حدثني عمي حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال « الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » أخرجه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عمر أبو خالد الطائفي المحرمي حدثني أبي ح وحديثنا أبو شعيب الحراني حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب حدثني موسى ابن أعين عن ليث عن أبي إسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قذف المحصنات يهدم عمل مائة سنة » وقوله تعالى (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد ويجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتبون الله حديثاً وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » وقال ابن أبي حاتم أيضاً حدثنا أبو شعبة إبراهيم بن عبد الله بن أبي شعبة الكوفي حدثنا منجاب بن الحارث التميمي حدثنا أبو عامر الأسدي حدثنا سفيان بن عبيد المكنب عن فضيل بن عمرو والفقيمي عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال « من محادثة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز على شاهد إلا من نفسى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام عليك شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطق فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقاً فعنك كنت أنا ضل » وقد رواه مسلم والنسائي جميعاً عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعي عن سفيان الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال : وقال قتادة : ابن آدم : والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك فراقهم واتق الله في شرك وعلايتك فانه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى (يومئذ يوفيه الله دينهم الحق) قال ابن عباس (دينهم) أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم ، وكذا قال غير واحد ، ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة ، وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب : يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ، وقوله (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) أي وعده ووعدته وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه

﴿ الْحَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : الحبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للحبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول - قال - ونزلت في عائشة وأهل الافك وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت والضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبته أهل التفاف إلى عائشة من كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الحبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهى طيبة لأنه أطيّب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لاشرا ولا قدرا ولهذا قال تعالى (أولئك مبرءون مما يقولون) أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان (لهم مغفرة) أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب (وورزق كريم) أى عند الله فى جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الجنة . قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسير بن جابر إلى عبد الله فقال لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها إليه وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده يتلها فيضمها إليها ثم قرأ عبد الله (الحبيثات للخبيثين والخبيثون للحبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) الآية ويشبه هذا ما رواه الإمام أحمد فى المسند مرفوعاً « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال اجزر لى شاة فقال اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم » وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَأَلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك فى استئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأمنوا أى يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فان أذن له وإلا انصرف كما ثبت فى الصحيح أن أباموسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى وإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر لتأتينى على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً ، فذهب إلى ملائ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك إلا

أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألمأني عنه الصفق بالأسواق . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا عمر عن ثابت عن أنس أو غيره أن النبي ﷺ استأذن على سعد بن عباد فقال « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبي ﷺ فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ، ولقد رددت عليك ولم أسمك وأردت أن أستمك من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل نبي الله فلما فرغ قال « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة ، وأفطر عندكم الصائمون » وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أبي عمرو الأوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول : حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد هو ابن عباد قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال « السلام عليكم ورحمة » فرد سعد ردا خفيا قال قيس : فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ « السلام عليكم ورحمة الله » ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال يا رسول الله إني كنت أسمع تسليمتك وأرد عليك ردا خفيا لست أكره علينا من السلام . قال فانصرف معه رسول الله ﷺ وأمر له سعد بغسل فاعتسل ثم ناوله خميعة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتعل بها ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عباد » قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمرا قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا قيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اركب » فأبى فقال « إما أن تركب وإما أن تنصرف » قال فانصرفت وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوى والله أعلم . ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود . حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني في آخرين قالوا حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول « السلام عليكم ، السلام عليكم » وذلك أن الدور لم يكن عليها بومئذ ستور ، انفرد به أبو داود . وقال أبو داود أيضا حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير حينئذ قال أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حمص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « هكذا عنك - أو هكذا - فإما الاستئذان من النظر » وقد رواه أبو داود الطيالسي عن سفيان الثوري عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود من حديثه ، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لو أن امرأ أطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح » وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي فدقت الباب فقال « من ذا ؟ » فقلت أنا قال « أنا أنا » كانه كرهه وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأور به في الآية وقال العوفي عن ابن عباس : الاستئناس الاستئذان ، وكذا قال غير واحد ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية (لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا) قال إنما هي خطأ من الكتاب حتى تستأذنوا وتسلموا وهكذا رواه هشيم عن أبي بشر وهو جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس بمثله ، وزاد وكان ابن عباس يقرأ (حتى تستأذنوا وتسلموا) وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه

وهذا غريب جدا عن ابن عباس وقال هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم قال في مصحف ابن مسعود حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وهذا أيضاً رواية عن ابن عباس وهو اختيار ابن جرير ، وقد قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن جريج أخبرني عمرو بن أبي سفيان أن عمرو بن أبي صفوان أخبره أن كلفة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلباً وجداية وضغابيس والنبي ﷺ بأعلى الوادي قال فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال ﷺ « ارجع فقل السلام عليكم أأدخل » وذلك بعد ما أسلم صفوان ، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه ، وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربيعة قال أتى رجل من بني عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته فقال أأجل ؟ فقال النبي ﷺ لحادمه « اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له : قل السلام عليكم أأدخل » فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال أأجل أو أنلج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها روضة « قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن يستأذن فقل له يقول السلام عليكم أأدخل » فسمعه الرجل فقال : السلام عليكم أأدخل فقال « ادخل » وقال الترمذي حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا سعيد بن زكريا عن غنبة بن عبد الرحمن عن محمد بن زاذان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « السلام قبل الكلام » ثم قال الترمذي غنبة ضعيف الحديث ذاهب ومحمد بن زاذان في إسناده نكارة وضعف ، وقال هشيم قال مغيرة قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأنى فسطاط امرأة من قريش فقال السلام عليكم أأدخل ؟ قالت ادخل بسلام فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال فولى ادخل قالت ادخل فدخل . ولابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول حدثني خالد بن إلياس حدثني جدتي أم إلياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت السلام عليكم أأدخل ؟ قالت ادخلوا ثم قالت (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها) الآية . وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم ، وقال أشعث عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت يا رسول الله إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها لا والد ولا ولد وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلي وأنا على تلك الحال : قال فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا) الآية وقال ابن جريج سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ثلاث آيات ججدهن الناس . قال الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً قال والأدب كله قد ججده الناس قال قلت أستأذن على أخواتي أيتام في حجرى معى في بيت واحد ؟ قال نعم فرددت عليه ليرخص لى فأنى فقال تحب أن تراها عريانة ؟ قلت لا قال فاستأذن قال فراجعته أيضاً فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال قلت نعم قال فاستأذن . قال ابن جريج وأخبرني ابن طاوس عن أبيه قال : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد في ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهري سمعت هزيل بن شرحبيل الأودي الأعشى أنه سمع ابن مسعود يقول عليكم الاذن على أمهاتكم ، وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته قال لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن حازم عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار عن ابن أخى زينب امرأة عبد الله بن مسعود عن زينب رضي الله عنها قالت كانت عبد الله إذا جاء من حاجة فاتته إلى الباب تتحنج وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، إسناده صحيح وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي هيرة قال كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تسكماً ورفع صوته ، وقال مجاهد حتى تستأنسوا قال تتحنجوا أو تنخموا

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال : إذا دخل الرجل بيته استجب له أن يتنحج أو يحرك نعليه ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية - ليلاً يتخونهم ، وفي الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهراً فأناخ بظاهرها وقال « انتظروا حتى ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستجد المغيبة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن واصل بن السائب حدثني أبو ثورة ابن أخي أبي أيوب عن أبي أيوب قال قلت يا رسول الله هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحج فيؤذن أهل البيت » هذا حديث غريب ، وقال قتادة في قوله (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثاً فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحى ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعذر . وقال مقاتل بن حيان في قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول حية صباحاً وحية مساءً وكان ذلك تحية القوم بينهم وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلت ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فقير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نهيًا نزهاً من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) الآية وهذا الذي قاله مقاتل : حسن ولهذا قال تعالى (ذلكم خير لكم) يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين المستأذن ولأهل البيت (لعلمكم تذكرون) وقوله تعالى (فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم) وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) أى إذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده (فارجعوا هو أزكى لكم) أى رجوعكم أزكى لكم وأظهر (والله بما تعملون عليم) وقال قتادة قال بعض المهاجرين لقد طلبت عمرى كله هذه الآية فما أدركتها أن أستأذن على بعض اخواني فيقول لى أرجع فأرجع وأنا مغتبط (١) (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) والله بما تعملون عليم (وقال سعيد بن جبير في الآية أى لا تقفوا على أبواب الناس وقوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) الآية هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المدة للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . قال ابن جرير قال ابن عباس (لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ثم نسخ واستثنى فقال تعالى (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم) وكذا روى عن عكرمة والحسن البصرى وقال آخرون : هي بيوت النجار كالحانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك واختار ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة والأول أظهر والله أعلم ، وقال مالك عن زيد ابن أسلم هي بيوت الشعر

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سرعاً كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن شعيب عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال : سألت النبی صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد به ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديثه أيضاً وقال الترمذى حسن صحيح وفي رواية لبعضهم فقال « أطرق بصرى » يعنى انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم وقال أبو داود حدثنا إسماعيل بن موسى الفزارى حدثنا شريك عن أبي ربيعة الأيادى (١) في النسخة السكية : متغبط .

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى « يا على لا تتبع النظرة النظرة فان لك الأولى وليس لك الآخرة » ورواه الترمذى من حديث شريك وقال غريب لا تعرفه إلا من حديثه ، وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أيتهم فأعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال « غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » وقال أبو القاسم البغوى حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « اكفلوا الى بستان كفل لكم بالجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب وإذا أؤعن فلا يخن وإذا وعد فلا يخلف وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم » وفي صحيح البخارى « من يكفل لى مابين لحبيه ومابين رجله كفل له الجنة » وقال عبد الرزاق أنا أنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال كل ماعصى الله به فهو كبيرة وقد ذكر الطرفين فقال (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب كما قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب . ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك فقال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) وحفظ الفرج تارة يسكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون) الآية وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء فى الحديث فى مسند أحمد والسنن « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (ذلك أزكى لهم) أى أظهر قلوبهم وأبقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصره ، ويروى فى قلبه . وروى الإمام أحمد حدثنا عتاب . حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن على بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يحد حلالوها » وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحديثه وعائشة رضى الله عنهم ولكن فى أسانيدها ضعف إلا أنها فى الترغيب ومثله يتسامح فيه ، وفى الطبرانى من طريق عبد الله بن زيد عن على بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا « الغض من أبصاركم ولحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم » وقال الطبرانى حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد بن حصص بن عمر الضرير المقرئ حدثنا يحيى بن أنى بكير حدثنا هرم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه محافى أبدا له إيمانا يحد حلالوها فى قلبه » وقوله تعالى (إن الله خير بما يصنعون) كما قال تعالى (لم خائفة الأعين وما خفى الصدور) وفى الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فرنا العينين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليمين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » رواه البخارى تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما ذكر وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا يهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك وحرمة طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون فى ذلك كثيرا جدا وقال ابن أبى الدنيا حدثنا أبو سعيد اللخنى حدثنا عمر بن سهل المازنى حدثنى عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل عين بأكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الثياب من خشية الله » عز وجل

﴿ وَقُلْ لِّلّٰهِ رُفِعَتِ يَغْضَضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَلِيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُمْ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْسَرْنَ عَلَىٰ خَيْرِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا بِمُؤَلَّتِهِنَّ أَوْ بِأَبْنَاءٍ أَوْ بِأَنْثَاهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ ﴾

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّاجِعِينَ
غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بَارِئِينَ لِيُفْلَحُوا
مَائِدَتَيْنِ مِنْ زَيْتَنٍ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيره منه لأزواجهن المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال
الشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن
أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير مترزات فيبدو ما في أرجلهن من الحلال وتبدو
صدورهن وذوائهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فقوله تعالى
(وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء
إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا ، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود
والترمذي من حديث الزهري عن زهارة مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه
وسلم وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ
« احتجبا منه » فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو عمايان
أنتما ؟ ألسنما تبصرانه » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن
إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل بنظر إلى الحبشة وهم يلعبون
بحراهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من وراءه وهو يستترها منهم حتى ملت ورجعت . وقوله
(ويحفظن فروجهن) قال سعيد بن جبير : عن الفواحيش وقال قتادة وسفيان عمار لا يحل لهن وقال مقاتل عن الزنا ،
وقال أبو العالية كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا هذه الآية (ويحفظن فروجهن)
أن لا يراها أحد ، وقوله تعالى (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) أي لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن
إخفاؤه : قال ابن مسعود كإدخال الثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المنفعة التي تجلب ثيابها وما يبدو من
أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكن إخفاؤه ونظيره في زى النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن
إخفاؤه وقال بقول ابن مسعود ، الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم ، وقال الأعمش عن سعيد بن
جبير عن ابن عباس (ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها) قال وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة
وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك وهذا محتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي
نهين عن إبدائها كما قال ، أبو إسحق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله (ولا يبدن زينتهن) الزينة القروط
والدملج والحلخال والقلادة ، وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال : الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار
وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة
والأخمة والأقراط من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري (إلا ما ظهر منها)
الخاتم والحلخال . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند
الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكي وموئل بن الفضل
الحراشي قالوا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر
دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصلح
أن يرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل . خالد بن دريك لم
يسمع من عائشة رضي الله عنها والله أعلم وقوله تعالى (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) يعني القناع يعمل لها صفات

ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وتراثبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فانهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهم تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن كما قال تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) وقال في هذه الآية الكريمة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطي به الرأس وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبیر (وليضربن) وليشددن (بخمرها على جيوبهن) يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء . وقال البخاري حدثنا أحمد بن شبيب حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها . وقال أيضاً حدثنا أبو نعيم حدثنا إبراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) أخذن أزهرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثني الزنجي بن خاله حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرات كأن علي رؤسهن الغربان . ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أن قرّة بن عبد الرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة قالت رحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن أكف مروطهن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به ، وقوله تعالى (ولا يدين زينتهن إلا لبواعلهن) أي أزواجهن (أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو أخوانهن أو بنى أخواتهن) كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم زينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى بن عبد الله بن هارون حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية (ولا يدين زينتهن إلا لبواعلهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن) حتى فرغ منها وقال لم يذكر العم ولا الحال لأنهما ينعان لأبنائهما ولا تضع خمارها عند العم والحال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتضع له بما لا يكون بخضرة غيره . وقوله (أو نسائهن) يعني تظهر زينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد فانهن لا يمتنعن من ذلك مانع فأما المسلمة فانها تعلم أن ذلك حرام فتزجر عنه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تبأثر المرأة المرأة تنعها لزوجها كأنه ينظر إليها » أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود وروى سعيد بن منصور في سننه حدثنا إسماعيل بن عياش عن هشام بن الغازي عن عبادة بن نسي عن أبيه عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما بعد فانه بلغني أن نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد في قوله (أو نسائهن) قال نسائهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن وليس المرأة المسلمة أن تتكشف بين يدي مشركة ، وروى عبد الله في تفسيره عن السكبي عن أبي صالح عن ابن عباس أو نسائهن قال هن المسلمات لا تبديهن ليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم ، وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول (أو نسائهن) فليست من نسائهن ، وعن مكحول وعبادة بن نسي أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة ، فأما ما رواه ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو عمير حدثنا

ضمرة قال : قال ابن عطاء عن أبيه قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس كان قوابل نساءهن اليهوديات والنصرانيات فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد والله أعلم . وقوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهن) قال ابن جرير يعنى من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة لأنها أمتها وإليه ذهب سعيد بن المسيب ، وقال الأَكثَرُونَ بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال « إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك » . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج الحمصى مولى معاوية أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة وأنه قد كان النبي ﷺ وهبه لابنته فاطمة فربته ثم أعتقه ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب رضى الله عنه . وروى الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن نيهان عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان لاحدا كن مكاتب وكان له ما يؤدى فلتحتجب منه » ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به وقوله تعالى (أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال) يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بكفاء وهم مع ذلك في عقولهم وله وحب ، ولاهمة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن قال ابن عباس هو المغنل الذى لا شهوة له . وقال مجاهد هو الأبله ، وقال عكرمة هو الخنث الذى لا يقوم ذكره ، وكذلك قال غير واحد من السلف ، وفي الصحيح من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينعت امرأة يقول إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم » فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطم . وروى الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة أنها قالت دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها مخنث وعندها عبد الله بن أبي أمية يعنى أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتش الله عليكم الطائف غدا فعليك بآبنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأم سلمة « لا يدخلن هذا عليك » أخرجه في الصحيحين من حديث هشام ابن عروة وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة ، فقال إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم هذا » فحجبه ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طريق عبد الرزاق به عن أم سلمة وقوله تعالى (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) يعنى لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسنة فلا يمكن من الدخول على النساء ، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله أفرايت الجمو ؟ قال « الحمالموت » وقوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن) الآية كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشى في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه فهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهى لقوله تعالى (ولا يضربن بأرجلهن) إلى آخره ومن ذلك أنها تنهى عن التطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا

يحيى بن سعيد القطان عن ثابت بن عمارة الحنفي عن غنيم بن قيس عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعنى زانية ، وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حسن صحيح رواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به . وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لقيته امرأة شمم منها ريح الطيب ولذيلها إعصار فقال يا أمية الجبار جئت من المسجد ؟ قالت نعم . قال لها : تطيبت قالت نعم . قال إني سمعت جى أبا القاسم عليه السلام يقول « لا يقبل الله صلاة امرأة طابت لهذا المسجد حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به . وروى الترمذي أيضاً من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها » ومن ذلك أيضاً أنهن زين من المني في وسط الطريق لما فيه من التبرج . قال أبو داود حدثنا الثعلبي حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد عن ابن أبي الهيثم عن شداد بن أبي عمرو بن حماس عن أبيه عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء « استأخرن فانه ليس لكن أن تحتضن الطريق ، عليكن بخافات الطريق » فكانت المرأة تلتصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به وقوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أى افعلي ما أمركم به من هذا الصفات الجلية والأخلاق الجلية واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى عنه والله تعالى هو المستعان

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۖ ﴾ وَلَيْسَتْ تُغْفَرُ الَّذِينَ لَا يَخِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَعْثُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَيَكْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا وَافْتَدَيْتُمُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْعَاءِ إِن أُرِدْتُمْ تَخَصُّصًا فَتَبَتُّعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ كُرْهِيهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴿ وَأَمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمُ ءَايَاتٍ مَُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة فقوله تعالى (وأنكحوا الأيما منكم) إلى آخره هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود وقد جاء في السنن من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تزوجوا الولود تزاوجوا فاني مباه بكم الأمم يوم القيامة » وفي رواية « حتى بالسقط » الأيما جميع أيم ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهري عن أهل اللغة ، يقال رجل أيم وامرأة أيم . وقوله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) الآية قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رغبتهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد الأزرق حدثنا عمر بن عبد الواحد عن سعيد — يعنى ابن عبد العزيز — قال بلغني أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجلكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى

في النكاح . يقول الله تعالى (إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) رواه ابن جرير وذكر البغوي عن عمر نحوه . وعن الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء ، والغايز في سبيل الله » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ومع هذا فزوجه بتلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعامها مامعه من القرآن . والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله ، وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث « تزوجوا فقراء يغنكم الله » فلا أصل له ولم أره بإسناد قوى ولا ضعيف إلى الآن وفي القرآن غنية عنه وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها والله الحمد والمنة ، وقوله تعالى (وليستغفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنهم الله من فضله) هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالاستغف عن الحرام كما قال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » الحديث ، وهذه الآية طائفة والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات - إلى قوله - وأن تنكحوا خير لكم) أي صبركم عن تزوج الإماء خير لكم لأن الولد يحى رقيقاً (والله غفور رحيم) قال عكرمة في قوله (وليستغفف الذين لا يجدون نكاحاً) قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشهى فإن كانت له امرأة فاذهب إليها وليقض حاجته منها ، وإن لم يكن له امرأة فاينظر في ملكوت السموات والأرض حتى يغنيه الله وقوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم وإيجاب بل السيد مخير إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه ، قال الثوري عن جابر عن الشعبي إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكتبه ، وكذا روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبي رباح إن يشأ كاتبه وإن يشأ لم يكتبه ، وكذا قال مقاتل بن حيان والحسن البصري ، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال البخاري وقال روح عن ابن جريج قالت لعطاء أوجب على إذا علمت له مالا أن أكتبه ، قال ما أراه إلا واجباً ، وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء تأثره عن أحد ، قال : لا ، ثم أخبرني أن موسى بن أنس أخبره أن سيرين سأل أنساً المكاتب وكان كثير المال فأبى فأنطلق إلى عمر رضي الله عنه فقال كاتبه فأبى فضربه بالذرة وبلغ عمر رضي الله عنه (فكتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) فكتبه هكذا ذكره البخاري معلماً ، ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء : أوجب على إذا علمت له مالا أن أكتبه ؟ قال ما أراه إلا واجباً . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن بكر حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك أن سيرين أراد أن يكتبه فتركه عليه فقال له عمر لئلا يكتبه إسناد صحيح ، وروى سعيد بن منصور حدثنا هشيم بن جوير عن الضحاك قال هي عزمة وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي وذهب في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام « لا يخل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس » وقال ابن وهب قال مالك : الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده . قال مالك وإنما ذلك أمر من الله تعالى وإذن منه للناس وليس بواجب ، وكذا قال الثوري وأبو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم وغيرهم واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية ، وقوله تعالى (إن علمتم فيهم خيراً) قال بعضهم أمانة وقال بعضهم صدقا ، وقال بعضهم مالا ، وقال بعضهم حيلة وكسباً ، وروى أبو داود في المراسيل عن يحيى بن أبي كثير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فكتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) قال « إن علمتم فيهم حرفة ولا ترسلوهم كلاً على الناس » : وقوله تعالى (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم معناه اطرحوهم من الكتابة بعضها ثم قال بعضهم مقدار الربع ، وقيل الثلث ، وقيل النصف ، وقيل جزء من الكتابة من غير حد ،

وقال آخرون بل المراد من قوله (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبيه ومقاتل بن حيان واختاره ابن جرير وقال إبراهيم النخعي في قوله (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) قال حث الناس عليه مولاة وغيره ، وكذا قال بريدة بن الحصيص الأسلمي وقتادة ، وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب ، وقد تقدم في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «ثلاثة حق على الله عونهم» فذكر منهم المكاتب يريد الأداء والقول الأول أشهر ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا وكيع عن ابن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر أنه كاتب عبد له يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حل فقال يا أبا أمية اذهب فاستعن به في مكاتبك فقال يا أمير المؤمنين لو تركته حتى يكون من آخر نجم ؟ قال أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) قال عكرمة فكان أول نجم أدى في الإسلام ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا هرون بن المغيرة عن عنبسة عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير قال : كان ابن عمر إذا كاتب مكاتباً لم يضع عنه شيئاً من أول نجومه مخافة أن يعجز فترجع إليه صدقته ، ولكنه إذا كان في آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) قال ضعوا عنهم من مكاتبهم ، وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي بزة وعبد الكريم ابن مالك الجزري والسدي ، وقال محمد بن سيرين في الآية كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته ، وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان المقرئ أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج أخبرني عطاء ابن السائب أن عبد الله بن جندب أخبره عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «ربع الكتابة» وهذا حديث غريب ورفعه منكر والأشبه أنه موقوف على علي رضي الله عنه كما رواه عنه أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله وقوله تعالى (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) الآية كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية السكرية فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً للخراجهن ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم .

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الحالق البزار رحمه الله في مسنده حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهري قال كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها معاذا يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) الآية ، وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية قال نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة كان يكرهها على الفجور وكانت لابأس بها فتأني فأنزل الله هذه الآية (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) وروى النسائي من حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر نحوه ، وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا علي بن سعيد حدثنا الأعمش حدثني أبو سفيان عن جابر قال كان لعبد الله بن أبي ابن سلول جارية يقال لها مسيكة وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) صرح الأعمش بالسماع من أبي سفيان بن طلحة ابن نافع فسدل على بطلان قول من قال لم يسمع منه إنما هو صحيفة حكاها البزار ، وروى أبو داود الطيالسي عن سليمان بن معاذا عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أن جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية فولدت أولاداً من الزنا فقال لها مالك لا تزني قالت والله لا أترى فضر بها فأنزل الله عز وجل (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) ، وروى البزار أيضاً حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال : كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها معاذا يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) إن أردن تحصناً - إلى قوله - ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري أن رجلا من قريش أسير يوم بدر وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها معاذة وكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لاسلامها وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) . وقال السدي أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية إلى أبي بكر رضي الله عنه فشكت إليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبي من يمددنا من محمد يغلبنا على مملوكنا فنزل الله فيهم هذا ، وقال مقاتل بن حيان بلغني والله أعلم أن هذه الآية نزلت في رجاءين كانا يكرهان أمتين لهما إحداهما اسمها مسيكة وكانت للانصار ، وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبي وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة فأتت مسيكة وأمها النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتا ذلك له فأنزل الله في ذلك (ولا تسكروها فتياتكم على البغاء) يعني الزنا ، وقوله تعالى (إن أردن تحصنا) هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، وقوله تعالى (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن ، وفي رواية « مهر البغي خيث وكسب الحجام خيث ، ومن السكب خيث » وقوله تعالى (ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) أي لهن كما تقدم في الحديث عن جابر . وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإمتهن على من أكرهن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة : وقال أبو عبيد حدثني إسحق الأزرق عن عوف عن الحسن في هذه الآية (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) قال لهن والله لهن والله : وعن الزهري قال غفور لهن ما أكرهن عليه وعن زيد بن أسلم قال غفور رحيم للمكرهات ، حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيد ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء عن سعيد بن جبيرة قال في قراءة عبد الله بن مسعود (فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم) لهن وإمتهن على من أكرهن ، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات) يعني القرآن فيه آيات واضحة مفسرات (ومثلاً من الدين خلوا من قبلكم) أي خبرا عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى (فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) أي زاجراً عن ارتكاب المسآثم والمحارم (وموعظة للمتقين) أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَّكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَسْكَدُ زَيْتُهَا بِضِيءٍ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (الله نور السموات والأرض) يقول هادي أهل السموات والأرض . قال ابن جريج قال مجاهد وابن عباس في قوله (الله نور السموات والأرض) يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما وقال ابن جرير حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس بن مالك قال : إن الله يقول نوري هدى واختار هذا القول ابن جرير وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي ابن كعب في قوله تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره) قال هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن

في صدره فضرب الله مثله فقال (الله نور السموات والأرض) فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال : مثل نور من آمن به ، قال فكان أبي بن كعب يقرؤها (مثل نور من آمن به) فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس أنه قرأها كذلك (مثل نور من آمن بالله) وقرأ بعضهم (الله منور السموات والأرض) وعن الضحاك (الله نور السموات والأرض) وقال السدي في قوله (الله نور السموات والأرض) فبنوره أضاءت السموات والأرض وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحق في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف « اعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهم ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن » الحديث ، وعن ابن مسعود قال إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله تعالى (مثل نوره) في هذا الضمير قولان (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداة في قلب المؤمن قاله ابن عباس (كشكاة) (والثاني) أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى (أمنن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) فشبه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ، فقوله (كشكاة) قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده (فيها مصباح) وهو الزبالة التي تضيء . وقال العوفي عن ابن عباس قوله (الله نور السموات والأرض مثل نوره كشكاة فيها مصباح) وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء ؟ فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كشكاة) والمشكاة كوة في البيت ، قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نوراً ثم سماها أنواعاً شتى ، وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد : هي الكوة بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال المشكاة الكوة التي لا منفذ لها وعن مجاهد المشكاة الحداث التي يعلق بها القنديل والقول الأول أولى وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال (فيها مصباح) وهو النور الذي في الزبالة ، قال أبي بن كعب المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره وقال السدي هو السراج (المصباح في زجاجة) أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية ، وقال أبي بن كعب وغير واحد هي نظير قلب المؤمن (الزجاجة كأنها كوكب دري) قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أي كأنها كوكب من در ، وقرأ آخرون دري ودري بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدر وهو الدفع ، وذلك أن النجم إذا رمى به يكون أشد استنارة من سائر الأحوال ، والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درازي ، قال أبي بن كعب : كوكب مضى ، وقال قتادة مضى مبين ضخمة (يوقد من شجرة مباركة) أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة (زيتونة) بدل أو عطف بيان (لشرقية ولا غربية) أي ليست في شرق بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ولا في غربها فيقلص عنها النور قبل الغروب بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره فيجىء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد أخبرنا عمرو بن أبي قيس عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال هي شجرة بالصحراء لا يظللها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يوارها شيء ، وهو أجود لزيتها وقال يحيى بن سعيد القنديلان عن عمران بن جرير عن عكرمة في قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال هي بصحراء وذلك أصفى لزيتها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن فروخ عن حبيب بن الزبير عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى (زيتونة لا شرقية ولا غربية) قال تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فإذا غربت غربت سابها فذلك أصفى ما يكون من الزيت وقال مجاهد في قوله تعالى (لا شرقية ولا غربية) قال ليست بشرقية لا تصيبها

الشمس إذا غربت ولا غربية لاتصيها الشمس إذا طلعت ولكنها شرقية وغربية تصيها إذا طلعت وإذا غربت .
وعن سعيد بن جبير في قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء) قال هو أجود الزيت قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس ، فالشمس تصيها بالغداة والعشي فتلك لاتعد شرقية ولا غربية . وقال السدي قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية) يقول ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو في صحراء تصيها الشمس النهار كله . وقيل المراد بقوله تعالى (لاشرقية ولا غربية) أنها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب ، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قول الله تعالى (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال هي خضراء ناعمة لاتصيها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت قال فكذلك هذا المؤمن قد أجبر من أن يصيها شيء من الفتن وقد يتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال ، إن قال صدق ، وإن حكم عدل ، وإن ابتلى صبر ، وإن أعطى شكر فهو في سائر الناس كالرجل الحى يمشى في قبور الأموات ، قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال هي وسط الشجر لاتصيها الشمس شرقا ولا غربا ، وقال عطية العوفي (لاشرقية ولا غربية) قال هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تقرب وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن الدشتكي حدثنا عمرو بن أبي قيس عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (لاشرقية ولا غربية) ليست شرقية ليس فيها غرب ، ولا غربية ليس فيها شرق ولكنها شرقية غربية ، وقال محمد بن كعب القرظي (لاشرقية ولا غربية) قال هي القبلية ، وقال زيد بن أسلم (لاشرقية ولا غربية) قال الشام وقال الحسن البصري لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية ، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره ، وقال الضحاك عن ابن (توفد من شجرة مباركة) قال رجل صالح (زيتونة لاشرقية ولا غربية) قال لا يهودى ولا نصرانى ، وأولى هذه الأقوال القول الأول وهو أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس تفرعه من أول النهار إلى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال تعالى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى لضوء إشراق الزيت ، وقوله تعالى (نور على نور) قال العوفي عن ابن عباس يعنى بذلك إيمان العبد وعمله ، وقال مجاهد والسدي يعنى نور النار ونور الزيت ، وقال أبي بن كعب (نور على نور) فهو يتقلب في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة وقال ثمر بن عطية جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال حدثني عن قول الله تعالى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار) قال يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء . وقال السدي في قوله تعالى (نور على نور) قال نور النار ونور الزيت حين اجتماعا أضاء ولا يضيء واحد بغير صاحبه كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . وقوله تعالى (يهدي الله لنوره من يشاء) أى يرشد الله إلى هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري حدثنا الأوزاعي حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله الديلمي عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » ^{طريق أخرى عنه} قال البرار حدثنا أيوب عن سويد عن يحيى بن أبي عمرو السيباني عن أبيه عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله خلق خلقه في ظلمة فأتى عليهم نورا من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأ ضل » ورواه البرار عن عبد الله بن عمرو من طريق آخر بلفظه وحروفه . وقوله تعالى (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداة في قلب المؤمن ختم الآية بقوله (ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم)

أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال . قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية حدثنا شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يعدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يعدها الدم والقيح فأى المدين غلبت على الأخرى غلبت عليه » إسناده جيد ولم يخرجوه

﴿ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً ذكر محايها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوت التي يعبد فيها ويوحّد فقال تعالى (في بيوت أذن الله أن ترفع) أى أمر الله تعالى بتمهدها وتطهيرها من الدنس والافسوس والآقوال والأفعال التي لا تنليق فيها . كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة (في بيوت أذن الله أن ترفع) قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان ابن أبي خيثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين . وقال قتادة هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها . وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول : مكتوب في التوراة إن بيوتى في الأرض للمساجد وإنه من توضع فأحسن وضوءه ثم زارنى في بيتي أكرمه وحق على الزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن ابن أبي حاتم في تفسيره : وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطهيرها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة والله الحمد والمثنة ونحن نعون الله تعالى نذكرها هنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان ، فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة » أخرجه في الصحيحين وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله بيتاً في الجنة » وللنسائي عن عمرو بن عنبسة مثله والأحاديث في هذا كثيرة جداً وعن عائشة رضى الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب . رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ، ولأحمد وأبو داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخاري قال عمر : ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس ، وروى ابن ماجه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم » وفي إسناده ضعف . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أمرت بتشديد المساجد » قال ابن عباس أزخرفها كما زخرفت اليهود والنصارى . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » رواه أحمد وأهل السنن إلا الترمذي وعن بريدة أن رجلاً أتته في المسجد فقال من دعا إلى الجمل الأحمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا وجدت إنما بنيت المساجد لما بنيت له » رواه مسلم . وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتاع وعن تناشد الأشعار في المساجد . رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي حسن . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد

فقلوا لا أريح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقلوا لا ردها الله عليك » رواه الترمذى وقال حسن غريب ، وقدرى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعا قال : خصال لا تنبغي في المسجد : لا يتخذ طريقا ولا يشهر فيه سلاح ولا ينفض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم فيه ولا يضرب فيه حد ولا يقتص فيه أحد ولا يتخذ سوقا ، وعن وائلة بن الأسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « جنبوا المساجد صيانتكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجروها في الجمع » ورواه ابن ماجه أيضا وفي إسنادهما ضعف ، أما أنه لا يتخذ طريقا فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا الحاجة إذا وجد مندوحة عنه ، وفي الأثر إن الملائكة لتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصل في فيه ، وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ولا ينفض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل فلما يخشى من إصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه ، ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذى أحدا كما ثبت ذلك في الصحيح وأما النهي عن المرور باللحم التي فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه إذا خافت التلوث ، وأما أنه لا يضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع ، وأما أنه لا يتخذ سوقا فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد « إن المساجد لم تبين لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » ثم أمر بسجل من ماء فأهريق على بوله وفي الحديث الثاني « جنبوا مساجدكم صيانتكم » وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم ، وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالحققة وهى الدرة وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحدا « ومجانينكم » يعنى لأجل ضعف عقولهم وسخر الناس بهم فيؤدى إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقديرهم المسجد ونحو ذلك « وبيعكم وشراءكم » كما تقدم « وخصوماتكم » يعنى التحاكم والحكم فيه ، ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأقضية في المسجد بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التى لاتناسبه ، ولهذا قال بعده « ورفع أصواتكم » وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا الجعد بن عبد الرحمن قال : حدثني يزيد بن خصفة عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائما في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر بن الخطاب فقال : اذهب فائتني بهذين فجئت بهما فقال من أنتما ؟ أو من أين أنتما ؟ قال من أهل الطائف . قال لو كنتم من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال النسائي : حدثنا سويد بن نصر عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال ، أتدرى أين أنت ؟ وهذا أيضا صحيح وقوله « وإقامة حدودكم وسل سيفكم » تقدما وقوله « واتخذوا على أبوابها المطاهر » يعنى المراحض التى يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة . وقد كانت قريبا من مسجد رسول الله ﷺ آثار (١) يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضئون وغير ذلك . وقوله « وجروها في الجمع » يعنى بجروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ ، وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبيد الله حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كان يحجر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة . إسناده حسن لا بأس به والله أعلم وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا » وذلك أنه إذا تواضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرج به إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة . فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مصلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه . ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة . وعند الدارقطنى مرفوعا « لا صلاة لرجل المسجد إلا في المسجد » وفي السنن « بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة » ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ بركله اليمنى وأن يقول كما ثبت في صحيح البخارى (٢) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا دخل المسجد يقول « أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم » قال فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم . وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح أبواب رحمتك . وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » ورواه النسائي عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل : اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم » ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ليث بن أبي سليم عن عبد الله بن حسين عن أمه فاطمة بنت حسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك » ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث حسن وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة بنت حسين الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى فهذا الذى ذكرناه مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع) وقوله (ويذكر فيها اسمه) أى اسم الله كقوله (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقوله (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) وقوله (وأن المساجد لله) الآية . وقوله تعالى (ويذكر فيها اسمه) قال ابن عباس يعنى يتلى كتابه ، وقوله تعالى (يسبح له فيها بالغدو والآصال) أى فى البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى بالغدو صلاة الغداة ويعنى بالآصال صلاة العصر وهما أول ما افترض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما وأن يذكرهما عباده . وكذا قال الحسن والضحاك (يسبح له فيها بالغدو والآصال) يعنى الصلاة ، ومن قرأ من القراء (يسبح له فيها بالغدو والآصال) بفتح الباء من (يسبح) على أنه مبنى للمبسم فاعله وقف على قوله (والآصال) وقفانما وابتدأ بقوله (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وكأنه مفسر للفاعل المحذوف كما قال الشاعر :

ليك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائع

كأنه قال : من يركب هذا يركب ، وكأنه قيل من يسبح له فيها ، قال رجال . وأما على قراءة من قرأ (يسبح) بكسر الباء فجعله فعلا وفاعله (رجال) فلا يحسن الوقف إلا على الفاعل لأنه تمام الكلام فقوله تعالى (رجال) فيه إشعار بهم جميع السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التى بها صاروا عمارا للمساجد التى هى بيوت الله فى أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية وأما النساء فصلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثني عمرو عن أبي السمع عن السائب مولى أم سلمة عن أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « خير مساجد النساء قعر بيوتهن » وقال أحمد أيضا : حدثنا هرون أخبرني عبد الله بن وهب حدثنا داود بن قيس عن عبد الله بن سويد الأنصاري عن عمته أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إني أحب الصلاة معك . قال « قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدي » قال فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلى فيه حتى أقيمت الله تعالى ، لم يخرجوه . هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن عمر أنه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتمنعوا إمام الله مساجد الله » رواه البخارى ومسلم ، ولأحمد وأبى داود « وبيوتهم خير لهم » وفي رواية « وليخرجن وهن تفلات » أى لاريج لهن . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس ، وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بنى إسرائيل . وقوله تعالى (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) الآية وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) الآية يقول تعالى لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم لأن ما عندهم ينفذ وما عند الله باق ، ولهذا قال تعالى (لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أى يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم ، قال هشيم عن شيان قال حدثت عن ابن مسعود أنه رأى قوماً من أهل السوق حيث نودى للصلاة المكتوبة تركوا يبايعاتهم ونهضوا إلى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود هؤلاء من الذين ذكر الله فى كتابه (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) الآية وهكذا روى عمرو بن دينار القهرمانى عن سالم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عبد الله بن بكير الصنعانى حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عبد الله بن بجير حدثنا أبو عبد ربه قال : قال أبو الدرداء رضى الله عنى قمت على هذا الدرج أبايع عابه أربع كل يوم ثلثمائة دينار أشهد الصلاة فى كل يوم فى المسجد أما إنى لا أقول إن ذلك ليس بحلال ولكنى أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) وقال عمرو بن دينار الأعور كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ففلا سالم هذه الآية (رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ثم قال هم هؤلاء ، وكذا قال سعيد ابن أبى الحسن والضحاك لاتلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة فى وقتها . وقال مطر الوراق كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه فى يده خفضه وأقبل إلى الصلاة ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) يقول عن الصلاة المكتوبة ، وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس وقال السدى عن الصلاة فى جماعة . وقال مقاتل بن حيان لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ، وقوله تعالى (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) أى يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب والأبصار أى من شدة الفزع وعظمة الأهوال كقوله (وأنذرهم يوم الآزقة) الآية وقوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطيراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) وقوله تعالى ههنا (ليجزيهم الله أحسن ما عموا) أى هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله (ويزيدهم من فضله) أى يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) الآية وقال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) الآية وقال (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) الآية وقال (والله يضاعف لمن يشاء) وقال ههنا (والله يرزق من يشاء بغير حساب) وعن ابن مسعود أنه جرى بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صائماً فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً ثم تلا قوله (يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار) رواه النسائى

وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلائق » وروى الطبراني من حديث بقية عن إسماعيل بن عبد الله الكندي عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾

هذان مثالان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار كما ضرب للنافقين في أول البقرة مثلين ناريا ومائيا وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيا وناريا ، وقد تكلمنا على كل منها في موضعه بما أغنى عن إعادته ولله الحمد والمنة . فأما الأول من هذين المثالين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الأمر على شيء . فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض بعد كأنه بحر طام ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضا واحد القيعان كما يقال جار وجيران وهى الأرض المستوية المنتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار وأما الآل فإنما يكون أول النهار يرى كأنه ماء بين السماء والأرض فاذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصد ليشرب منه فلما انتهى إليه (لم يجد شيئا) فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملا وأنه قد حصل شيئا فاذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عاينها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئا بالكيفية قد قبل إما لعدم الإخلاص أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال ههنا (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) وهكذا روى عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد . وفي الصحيحين أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزير بن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون ؟ فيقولون يا رب عطشنا فاسقنا فيقال ألا ترون ؟ فمثل لهم النار كأنها سرب يحطم بعضها بعضا فينطلقون فيتهاقون فيها ، وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطغام الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى (أو كظلمات في بحر لجي) قال قتادة (لجى) هو العميق (يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) أى لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يعرف حال من يقوده ولا يدرى أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب ؟ قال معهم ، قيل فالى أين يذهبون ، قال لا أدري وقال . العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما (يغشاه موج) الآية يعنى بذلك الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر وهى كقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) الآية وكقوله (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) الآية وقال أبى بن كعب في قوله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض) فهو يتقارب في خمسة من الظلم فكلامه ظامة ، وعمله ظامة ، ومدخله ظامة ، ومخرجه ظامة ، وصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار ، وقال السدى والربيع بن أنس نحو ذلك أيضا وقوله تعالى (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) أى من لم يهده الله فهو هالك

جاهل حائل بائر كافر كقوله (من يضل الله فلا هادي له) وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين (يهدي الله لنوره من يشاء) فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نورا وعن أيماننا نورا وعن شمائلنا نورا وأن يعظم لنا نورا ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتِ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أى من الملائكة والإناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية : وقوله تعالى (والطيور صافات) أى في حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبيح ألهمها وأرشدنا إليه وهو يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) أى كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ولهذا قال تعالى (والله عليم بما يفعلون) ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله العبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه (وإلى الله المصير) أى يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا) الآية فهو الخالق المالك لأله الحكم في الدنيا والآخرة وله الحمد في الأولى والآخرة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِزَّالًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الازجاء (ثم يؤلف بينه) أى يجمعه بعد تفرقه (ثم يجعله ركاما) أى متراكما أى يركب بعضه بعضاً (فتري الودق) أى المطر (يخرج من خلاله) أى من خلاله وكذا قرأها ابن عباس والشعناك ، قال عبيد بن عمير اللبي يبعث الله الميثرة فتقم الأرض فسا ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله الواقي فتلقح السحاب . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله ، وقوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) قال بعض النحاة (من) الأولى لا ابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا إنما يحىء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله (من جبال فيها من برد) معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن من الثانية عند هذا لا ابتداء الغاية أيضا لكنها بدل من الأولى والله أعلم ، وقوله تعالى (فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) يحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله (فيصيب به من يشاء) رحمة لهم (ويصرفه عن من يشاء) أى يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله (فيصيب به) أى بالبرد بقعة على من يشاء لما فيه من شر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم ، وقوله (يكاد سنا بركه يذهب بالأبصار) أى يكاد ضوء بركه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته . وقوله تعالى (يقلب الله الليل والنهار) أى يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا في طول الذي كان قصيرا ويقصر الذي كان طويلا والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار) أى لدلائل على عظمته تعالى كما قال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار) وما بعدها من الآيات الكريمة

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي

عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد (فمنهم من يمشى على بطنه) كالحية وما شاكلها (ومنهم من يمشى على رجلين) كالإنسان والطيور (ومنهم من يمشى على أربع) كالأنعام وسائر الحيوانات ولهذا قال (يخلق الله ما يشاء) أى بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال (إن الله على كل شيء قدير)

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً وأنه يرشد إلى تفهمها ونفعها أولى الأبواب والبصائر والنهى ولهذا قال (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يظنون يقولون قولاً باللسان (آمنوا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك) أى يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون مالا يفعلون ولهذا قال تعالى (وما أولئك بالمؤمنين) وقوله تعالى (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم) الآية أى إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك - إلى قوله - رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وفى الطبرانى من حديث روح بن عطاء عن أبي ميمونة عن الحسن عن سمرة مرفوعاً « من دعى إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لاحق له » وقوله تعالى (وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين) أى وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله (مذعنين) وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطله ثم . فاذعانه أو لا لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق بل لأنه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى (أفى قلوبهم مرض) الآية يعنى لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك فى الدين أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ، وأيا ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات ، وقوله تعالى (بل أولئك هم الظالمون) أى بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض وقال أنطلق إلى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعى

إلى حكم من حكم المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لاحق له » وهذا حديث غريب وهو مرسل ، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله فقال (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى سمعنا وطاعة . ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطالب والسلامة من المهروب فقال تعالى (وأولئك هم المفلحون) وقال قتادة فى هذه الآية (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقيبا بدريا أحد ثقباء الأنصار أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك ؟ قال بلى قال فان عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهاك وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، وأن لاتتازع الأمر أهله إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله . وقال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولاخير إلا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة ، قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : عروة الإسلام شهادة أن لاإله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين . رواه ابن أبى حاتم والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله ولأخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان وقوله (ومن يطع الله ورسوله) قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك ما نهىه عنه ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل . وقوله (فأولئك هم الفائزون) يعنى الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرَتُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لئن أمرتهم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى (قل لاتقسموا) أى لاتحلفوا ، وقوله (طاعة معروفة) قيل معناه طاعتكم طاعة معروفة أى قد علم طاعتكم إنما هى قول لافعل معه وكلا حلفتكم كذبتم كما قال تعالى (يحلفون لكم لترضوا عنهم) الآية . وقال تعالى (اتخذوا أيمانهم جنة) الآية ، فهم من سجيئهم الكذب حتى فيما يختارونه كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) وقيل المعنى فى قوله (طاعة معروفة) أى ليسكن أركم طاعة معروفة أى بالمعروف من غير حلف ولا أقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أنتم مثلهم (إن الله خبير بما تعملون) أى هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ، فالخلف واظهار الطاعة والباطن بخلافه وإن راج على الخلق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شيء من التدليس بل هو خير بضائر عبادته وإن أظهرها خلافها ثم قال تعالى (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله . وقوله تعالى (فإن تولوا) أى تتولوا عنه وتركوا ما جاءكم به (فإنما عليه ما حمل) أى إبلاغ الرسالة وآداء الأمانة (وعليكم ما حملتم) أى بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه (وإن تطيعوه تهتدوا) وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم (صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) الآية وقوله تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر) قال وهب بن منبه ، أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعيا

أن قم في بني إسرائيل فاني سأطلق لسانك بوحى فقام فقال : يا سماء اسمعى ويا أرض انصتى فإن الله يريد أن يقضى شأناً ويدير أمراً هو منفذه إنه يريد أن يحول الريف إلى القلاة والآجام إلى الغيطان والأنهار في الصحارى والنعمة في الفقراء ، والملك في الرعاة ويريد أن يبعث أمياً من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينة ولو يمشى على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيراً ونذيراً لا يقول الحنى أفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وأسدده بكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به به بعد الحلالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف بين أمة متفرقة ، وقلوب مخلقة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فاما من الناس عظيماً من الهلكة ، وأجعل أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدون مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل رواه ابن أبي حاتم .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمة خلفاء الأرض أى أمة الناس والولاية عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة : فانه صلى الله عليه وسلم لم يمض حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض الجن بكاملها . وأخذ الجزيرة من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس . وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذى تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهدا وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضى الله عنه ففتحوا طرقاتها وقتلوا خلقاً من أهلها . وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضى الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة . ومن على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله . وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس . وكسر كبرى وأهانته غاية الهوان وتقهر إلى أقصى مملكته وقصر قيصر ، وانزع يده عن بلاد الشام وأندلس إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالها في سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هناك الأندلس وقبرص : وبلاد القيروان وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقيل كسرى وباد مملكة بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت في الصحيح

أن رسول الله ﷺ قال « إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » فهنا نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ففسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يزال أمر الناس ماضيا ما أوليهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عنى فسألت أبى ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال قال « كلهم من قریش » ورواه البخارى من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به ، وفى رواية لمسلم أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك وذكر معه أحاديث أخر وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلا وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر فان كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء ، فأما هؤلاء فانهم يكونون من قریش يكونون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعيا ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم من شاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى . ومنهم المهدي الذى اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله ﷺ قال « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » وقال الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولم يكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا) الآية قال كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لاشريك له سرا ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح فصبروا على ذلك ما شاء الله ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة » وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح . ثم إن الله تعالى قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجة والشرط وغيروا فيغيرهم وقال بعض السلف خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حق فى كتاب الله ثم تلا هذه الآية ، وقال البراء بن عازب نزلت هذه الآية ونحن فى خوف شديد ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض — إلى قوله — لعلكم تشكرون) وقوله تعالى (كما استخلف الذين من قبلهم) كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض) الآية وقال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) الآيتين . وقوله (وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم) الآية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم حين وفد عليه « أتعرف الحيرة ؟ » قال لم أعرفها ولكن قد سمعت بها قال « فوالذى نفسى بيده ليعمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليبدلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدى بن حاتم فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتسكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن أبى سلمة عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عملا الآخرة

للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب » وقوله تعالى (يعبدوني لا يشركون بي شيئا) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال « يا معاذ » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال : ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال « هل تدري ما حق الله على العباد ؟ » قلت الله ورسوله أعلم ، قال « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » قال ثم سار ساعة ثم قال « يا معاذ بن جبل » قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال « فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم قال « فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم » أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة وقوله تعالى (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما ، فالصحابه رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغرب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا في سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك - وفي رواية - حتى يقاتلوا الدجال - وفي رواية - حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون » وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوِيَهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿

يقول تعالى آمرآ عباده المؤمنين باقامة الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة وهى الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين ورايه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى (أولئك سيرحمهم الله) . وقوله تعالى (لا تحسبن) أى لا تظن يا محمد أن (الذين كفروا) أى خالفوك وكذبوك (معجزين فى الأرض) أى لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى (وماواهم) أى فى الدار الآخرة (النار ولبئس المصير) أى بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان

الأجانب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيماهم وأطاعهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياما في فرشهم (وحين تفضعون ثيابكم من الظهيرة) أى في وقت القيلولة لأن الانسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله (ومن بعد صلاة العشاء) لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال ولهذا قال (ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) أى إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ولأنهم طوافون عليكم أى فى الخدمة وغير ذلك . ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى الهرة « إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم - أو الطوافات - » . ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء وكان عمل الناس بها قليلا جداً أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس كما قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لميعة حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيماكم) إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء (وإذا حضر القسمة أولو القربى) الآية ، والآية التى فى الحجرات (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى لفظ له أيضاً من حديث إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيماكم) إلى آخر الآية . وروى أبو داود حدثنا ابن الصباح وابن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه أخبرنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد سمع ابن عباس يقول : لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن وإنى لأمر جاريتى هذه تستأذن على قال أبو داود وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به ، وقال الثورى عن موسى بن أبي عائشة سألت الشعبي (ليستأذنكم الذين ملكت أيماكم) قال : لم تنسخ قلت فإن الناس لا يعملون بها فقال : الله المستعان وقال ابن أبي حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبي عمر عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى ثلاث عورات التى أمر الله بها فى القرآن فقال ابن عباس : إن الله ستر يحب الستر ، كان الناس ليس لهم سطور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم فرجما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة فى حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات التى سمى الله . ثم جاء الله بعد بالسور فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال ، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذى أمروا به . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ورواه أبو داود عن القعنبي عن الدراوردي عن عمرو بن أبي عمر به : وقال السدى كان أناس من الصحابة رضى الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم الله أن يأمرؤا الملوكين والعلماء أن لا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن ، وقال مقاتل بن حيان بلغنا والله أعلم أن رجلا من الأنصار وامراته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعاما فجعل الناس يدخلون بغير إذن : فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا إنه لا يدخل على المرأة وزوجها وهما فى ثوب واحد غلامهما بغير إذن فأنزل الله فى ذلك (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيماكم) إلى آخرها وما يدل على أنها محكمة لم تنسخ قوله (كذلك يبين الله لكم الآيات والله حكيم عليم) ثم قال تعالى (وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث .

قال الأوزاعى عن يحيى بن أبي كثير إذا كان الغلام رباعيا فانه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبير . وقال فى قوله (كما استأذن الذين من قبلهم) يعنى كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه ، وقوله (والقواعد من النساء) قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقادة

هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويثنى من الولد (اللاتي لا يرجون نكاحاً) أى لم يبق لهن تشوف إلى الزوج (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة) أى ليس عليهن من الحجب في التستر كما على غيرها من النساء قال أبو داود حدثنا أحمد بن محمد المروزي حدثني علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) الآية فندسخ واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً الآية . قال ابن مسعود في قوله (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) قال الجلباب أو الرداء وكذلك روى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والزهرى والأوزاعي وغيرهم ، وقال أبو صالح تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبدالله بن مسعود (أن يضعن من ثيابهن) وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق . وقال سعيد بن جبير في الآية (غير متبرجات بزينة) يقول لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبد الله حدثنا ابن المبارك حدثني سوار بن ميمون حدثنا طلحة بن عاصم عن أم المصاعن^(١) أنها قالت دخلت على عائشة رضى الله عنها فقلت يا أم المؤمنين ما تقولين في الحجاب والنفاض والصباغ والقرطين والخناخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق فقالت : يا معشر النساء قصتن كلهن واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات ، أى لا يخل لكن أن يروا منكهن محرماً . وقال السدي كان شريك لي يقال له مسلم ، وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان فجاء يوماً إلى السوق وأثر الحناء في يده فسألته عن ذلك فأخبرني أنه خضب رأس مولاته وهى امرأة حذيفة فأنكرت ذلك فقال إن شئت أدخلتك عليها فقلت نعم فأدخلني عليها فإذا هى امرأة جليلة فقاتل لها إن مسلماً حدثني أنه خضب رأسك فقالت نعم يا بني إني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً وقد قال الله تعالى في ذلك ماسمت . وقوله (وأن يستعففن خير لهن) أى وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً خير وأفضل لهن والله سميع عليم

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمَانُكُمْ مِمَّا فِى بُيُوتِكُمْ لَا تَنْسَوْنَ أَنَّ تَأْكُلُوا جُنَاحَ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذى رفع لأجله الحرج عن الأعْمى والأعرج والمرضى ههنا فقال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقال إنها نزلت في الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجهاد لا محالة أى أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم وكما قال تعالى في سورة براءة (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم)* ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه - إلى قوله - أن لا يجدوا ما ينفقون (وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعْمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جلسه والمرضى لا يستوفى من الطعام كغيره فكروهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظله وهم فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم ، وقال الضحاك كانوا

(١) لم نر هذا الاسم في كتب أسماء الرواة وفي النسخة الأميرية أم المصاعن .

قبل البعثة يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعزراً ولئلا يفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية قال كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمرضى إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت عمته أو بيت خالته فكان الرمي يتخرجون من ذلك يقولون إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم ، وقال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتجفف المرأة بشيء من الطعام فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم فقال الله تعالى (ليس على الأعمى حرج) الآية وقوله تعالى (ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم) إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ وليسوا به ما بعده في الحكم وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أنت ومالك لأبيك » وقوله (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم - إلى قوله - أو ما ملكتكم مفاتيحه) هذا ظاهر وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما ، وأما قوله (أو ما ملكتكم مفاتيحه) فقال سعيد بن جبير والسدي : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف وقال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفي مع رسول الله ﷺ في دفعون مفاتيحهم إلى ضعنائهم ويقولون قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يخل لنا أن نأكل منهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء فأنزل الله (أو ما ملكتكم مفاتيحه) وقوله (أو صديقكم) أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك ، وقال قتادة إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه وقوله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وذلك لما أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال فلا يخل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله (ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم) وكانوا أيضاً يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) وقال قتادة : كان هذا الحى من بنى كنانة يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية حتى أن كان الرجل ليسوق اللود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكلة ويشاربه فأنزل الله (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً) فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل كما رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا نأكل ولا نشبع . قال « لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به ، وقد روى ابن ماجه أيضاً من حديث عمرو بن دينار القهرمانى عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال « كلوا جميعاً ولا تفرقوا فان البركة مع الجماعة » وقوله (فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم) قال سعيد بن جبير والحسن البصرى وقاتدة والزهري يعنى فليسلم بعضكم على بعض ، وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة قال ما رأيته إلا يوجبه قال ابن جريج وأخبرني زياد عن ابن طاوس أنه كان يقول : إذا دخل أحدكم بيته فليسلم قال ابن جريج قلت لعطاء أو أجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم ؟ قال لا ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب إلى وما أدعه إلا ناسياً . وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وروى الثوري عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وقال

قنادة : إذ دخلت على أهالك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك . وحدثنا أن الملائكة ترد عليه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عويدي بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن أنس قال : أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال « يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهالك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة » . وقوله (تحية من عند الله مباركة طيبة) قال محمد بن إسحق حدثني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله سمعت الله يقول (فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة) فالتشهد في الصلاة : التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ثم يدعو لنفسه ويسلم . وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن إسحق . والله في صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ يخالف هذا والله أعلم وقوله (كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المقتضية المبرمة نبه تعالى عباده على أنه بين لعباده الآيات يانا شافيا ليتدبروها ويعقلوها لعلمهم يقولون

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته ، وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين السكاملين ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال (فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم) الآية . وقد قل أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ومسدداً قال حدثنا بشر هو ابن الفضل عن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي حديث حسن

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَافُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فبأمرهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبية صلى الله عليه وسلم قال فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير . وقال قنادة : أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود : وقال مقاتل في قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) يقول لا تسموه إذا دعوتهم ولا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) قال أمرهم الله أن يشرفوه

هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) إلى آخر الآية وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - إلى قوله - إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) الآية فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثاني في ذلك أن المعنى في (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم قهرا كما حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله أعلم . وقوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) قال مقاتل ابن حيان هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا باذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذب بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم ، وقال قتادة في قوله (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) يعنى لواذا عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) قال من الصف ، وقال مجاهد في الآية (لواذا) خلافا . وقوله (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أى عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » أى فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا (أن تصيبهم فتنه) أى في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة (أو يصيبهم عذاب أليم) أى في الدنيا بقتل أو حبس أو نحو ذلك كما روى الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفرائش وهذه الدواب اللأئي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها - قال - فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ يحجزكم عن النار هم عن النار فتغلبون وتتقحمن فيها » أخرجه من حديث عبد الرزاق

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال (قد يعلم ما أنتم عليه) وقد لتحقيق كما قال قبلها (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً) وقال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم) الآية وقال تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك الآية وقال (قد نعلم إنه ليحزنك الذى تقولون فاتهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال (قد نرى تقاب وجهك في السماء) الآية فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر كقول المؤذن تنقيها وثبوتاً : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة . فقوله تعالى (قد يعلم ما أنتم عليه) أى هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم - إلى قوله - إنه هو السميع العليم) وقوله (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) وقال تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر ، وقال

تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقال تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) الآية وقال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستورها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وقوله (ويوم يرجعون إليه) أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة (فينبئهم بما عملوا) أى يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى (يذأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال (ووضع الكتب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) ولهذا قال ههنا (ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام . آخر تفسير سورة النور والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الفرقان مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾

يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزل على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قوما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات) الآية وقال ههنا (تبارك) وهو تفاعل من البركة المستمرة الدائمة (الذي نزل الفرقان) الذي نزل فعل من التكرار والتكرر كقوله (والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسورا بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ولهذا ساء ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والنعى والرشاد والحلال والحرام وقوله (على عبده) هذه صفة مدح وثناء لأنه أضافه إلى عبوديته كما وصفه بها في أشرف أحواله وهى ليلة الإسراء فقال (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة إليه (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وكذلك وصفه عند أنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه فقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقوله (ليكون للعالمين نذيرا) أى إنما خصه بهذا الكتاب الفصل العظيم المبين المحكم الذى (لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) الذى جعله فرقانا عظما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال عليه السلام « بعثت إلى الأحمر والأسود » وقال « إني أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة » كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) الآية أى الذى أرسلنى هو مالك السموات والأرض الذى يقول لأشئ كن فيكون وهو الذى يحى ويميت ، وهكذا قال ههنا (الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك) ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك . ثم أخبر أنه (خلق كل شيء فقدره تقديراً) أى كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدييره وتسخيريه وتقديره

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الأصنام مالا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا كيف يملكون لعبادتهم ؟ (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أى ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيى ويميت ، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) كقوله (وما أمرنا إلا واحدة فكلح البصر) وقوله (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساعة) (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم جميعا لدينا محضرون) فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغى العبادة إلا له لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى لا ولد له ولا والد ولا عدل ولا بديل ولا وزير ولا نظير ، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أُكْتَتِبَهَا فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجاهلة من الكفار في قولهم عن القرآن (إن هذا إلا إفك) أى كذب (افتراه) يعنون النبي صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه قوم آخرون) أى واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعالى (فقد جاءوا ظلما وزورا) أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه (وقالوا أساطير الأولين اكتبها) يعنون كتب الأوائل أى استسخها (فهى تملى عليه) أى تقرأ عليه (بكرة وأصيلا) أى فى أول النهار وآخره وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم كل أحد يعلم بطلانه فانه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيئا من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقدفونه به فتارة من إفكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب ، وقال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا (قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض) الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا (الذى يعلم السر) أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى (إنه كان غفورا رحما) دعاء لهم إلى التوبة والانابة وإخبارهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوههم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى كما قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم يقتلوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وقال تعالى (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا *

أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا * أَنْظِرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا * تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ
جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا * بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا * إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَفَيْظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا صَقِيمًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا
هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم وإنما تعللوا بقولهم (ما لهذا الرسول
يا كل الطعام) يعنون كناناً كله ويحتاج إليه كما يحتاج إليه (ويشئ في الأسواق) أي يتردد فيها وإليه يطلب التكسب والتجارة
(لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً) يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهد على صدق ما يدعيه
وهذا كما قال فرعون (فالولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين) وكذلك قال هؤلاء على
السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا (أو يلقى إليه كنز) أي علم كنز ينفق منه (أو تكون له جنة يأكل منها) أي تسير معه
حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة (وقال الظالمون إن
تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) قال الله تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا) أي جاءوا بما يقذفونك به
ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل
يعرف كذبهم واقتراءهم في ذلك ولهذا قال (فضلوا) عن طريق الهدى (فلا يستطيعون سبيلاً) وذلك أن كل من خرج
عن الحق وطريق الهدى فانه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً ثم قال تعالى مخبراً
نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً
من ذلك) الآية، قال مجاهد يعني في الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً كبيراً كان أو صغيراً قال
سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خزيمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض
ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال «اجمعوها لي في
الآخرة» فأنزل الله عز وجل في ذلك (تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك) الآية وقوله (بل كذبوا بالساعة)
أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعناداً لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم
على قول ما يقولونه من هذه الأقوال (وأعدنا) أي أروشنا (لمن كذب بالساعة سعيراً) أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق
في نار جهنم قال الثوري عن سامة بن كهيل عن سعيد بن جبير (السعير) واد من قيح جهنم وقوله (إذا رأتهم) أي
جهنم (من مكان بعيد) يعني في مقام المحشر. قال السدي من مسيرة مائة عام (سمعوا لها نغيظاً وزفيراً) أي حنقاً
عليهم كما قال تعالى (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميز من الغيظ) أي يكاد ينفصل بعضها من بعض
من شدة غيظها على من كفر بالله، وروى ابن أبي حاتم حدثنا إدريس بن حاتم بن الأخنف الواسطي أنه سمع محمد بن
الحسن الواسطي عن أسع بن زيد عن خالد بن كثير عن خالد بن درياك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ
قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يقل على ما لم أقول أو ادعى إلى غير والديه أو اتسمى
إلى غير مواليه فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية - فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً «قيل يا رسول الله وهل لها من
عينين؟ قال أما سمعت الله يقول (إذا رأتهم من مكان بعيد)» الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خدش عن محمد
ابن يزيد الواسطي به وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم
عن أبي وائل قال خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر إلى

حديدة في النار ، وينظر الريح بن خيثم اليها فتايل الريح ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا) فصعق يعني الريح وحملوه إلى أهل بيته فرابطه عبد الله إلى الظهر فلم يبق رضى الله عنه ، وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال : إن العبد ليجر إلى النار فتشبه إليه شهقة البغلة إلى الشعر ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بإسناده مختصرا ، وقد رواه الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد ابن إبراهيم الدورقي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال : إن الرجل ليجر إلى النار فتزوى وتتقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن مالك ؟ قالت إنه يستجير منى فيقول أرسلوا عبيدى وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول أن تسعنى رحمتك ، فيقول أرسلوا عبيدى وإن الرجل ليجر إلى النار فتشبه إليه النار شهقة البغلة إلى الشعر وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف وهذا إسناده صحيح : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) قال إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ترتعد فرائضه حتى إن إبراهيم عليه السلام ليحشو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى . وقوله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال قتادة عن أبي أيوب عن عبيد الله بن عمرو قال : مثل الزوج في الرمح أى من ضيقه . وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن قول الله (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين) قال « والذى نفسى بيده ! إنهم ليستكبرون في النار كما يستكبر الوتد في الحائط » وقوله (مقرنين) قال أبو صالح يعنى مكثفين (دعوا هنالك ثبورا) أى بالويل والحسرة والحيية (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا) الآية . روى الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن يزيد عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادى ياثبورا وينادون ياثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول ياثبورا ويقولون ياثبورهم فيقال لهم لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا » لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة ، ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا) الآية أى لاتدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور : الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والحسار والدمار كما قال موسى لفرعون (وإنى لأظنك يافرعون مشبورا) أى هالكا قال عبد الله بن الزبير

إذ أجرى الشيطان في سنن الله ومن مال ميله مشبور

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا * لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾

يقول تعالى : يا محمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير وياقون في أما كتبها الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكا كما سماهم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله للمتقين من عباده التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم اليها (لهم فيها ما يشاءون) من نالاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبعثون عنها حولا وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ولهذا قال (كان على ربك وعدا مسئولا) أى لا بد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء

العربية أن معنى قوله (وعدا مستولا) أى وعدا واجبا . وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس (كان على ربك وعدا مستولا) يقول فسألوا الذى وعدهم وتجزؤه ، وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله (كان على ربك وعدا مستولا) إن الملائكة تسأل لهم ذلك (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) . وقال أبو حازم إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذى أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله (وعدا مستولا) وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور ثم قال (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم * إنا جعلناها فتنه للظالمين * إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه ردوس الشياطين * فإنهم لا كلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لىلى الجحيم إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون) .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيْعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا)

يقول تعالى مخبرا عما يقع يوم القيامة من تفريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله) قال مجاهد هو عيسى والعزير والملائكة (فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) الآية أى فيقول تبارك وتعالى للمعبودين أأنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنى قلت للناس اتخذونى وأبى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) الآية ولهذا قال تعالى مخبرا عما يحجب به المعبدون يوم القيامة (قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء) قرأ الأكترون بفتح الون من قوله (تتخذ من دونك من أولياء) أى ليس للأخلاق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك لأنحن ولاهم فبحن ماعدوناعم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك) الآية وقرأ آخرون (ما كان ينبغي لنا أن نتخذ^(١) من دونك من أولياء) أى ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإننا عبيد لك فقراء إليك وهى قرية المعنى من الأولى (ولكن متعتهم وآباءهم) أى طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أى نسوا ما أنزلته اليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك (وكانوا قوما بورا) قال ابن عباس أى هلكى ، وقال الحسن البصرى ومالك عن الزهرى أى لآخرى فيهم . وقال ابن الزبيرى حين أسلم :

يا رسول الملك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذ أجازى الشيطان فى سنن العى وهن ميهله مشبور

قال الله تعالى (فقد كذبوكم بما تقولون) أى فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زانى كقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله (فما تستظيعون صرفا ولا نصرا) أى لا يقدررون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم (ومن يظلم منكم) أى يشرك بالله (نذقه عذابا كبيرا)

(١) أى يضم الون وفتح الحاء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذية به ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة وليس ذلك بمناف لحلمهم ومنصبهم فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والحواريق الباهرة والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) وقوله (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام) الآية وقوله تعالى (وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون) أى اخترنا بعضهم ببعض وبلونا بعضهم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصى ولهذا قال (أتصبرون وكان ربك بصيرا) أى بمن يستحق أن يوحي إليه كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك ، وقال محمد بن إسحق في قوله (وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون) قال: يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون لفعلت ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم وأبتليكم بهم وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى إني مبتليكم ومبتلى بك » وفى المسند عن رسول الله ﷺ « لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » وفى الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا * وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا * أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْقَرًا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم ، وعنادهم في قولهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى بالرسالة كما تنزل على الأنبياء كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى (قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا (لولا أنزل علينا الملائكة) فزاهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان ولهذا قالوا (أو نرى ربنا) ولهذا قال الله تعالى (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) وقد قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآية وقوله تعالى (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) أى هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجى أيتها النفس الحبيثة في الجسد الحبيث ، أخرجى إلى سموم وحيم وظل من يحوم فتأبى الخروج وتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب (أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ولهذا قال في هذه الآية الكريمة (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فانهم يبشرون بالخيرات ، وحصول السرور . قال الله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم) وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : إن

الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمريته ، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) وقال آخرون : بل المراد بقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى) يعنى يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم فإن الملائكة في هذين اليومين يوم المات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللشكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبّر الكافرين بالحياة والحسرة فلا بشرى يومئذ للمجرمين (ويقولون حجرا محجورا) أى وتقول الملائكة لا لكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضى على فلان إذا منعه التصرف إما للفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه وإنما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق والغرض أن الضمير في قوله (ويقولون) عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا موسى يعنى ابن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدرى في الآية (ويقولون حجراً محجوراً) قال حراما مجرماً أن يبشر بما يبشر به المتقون ، وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة) أى يتعوزون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجراً محجوراً) وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيع عن مجاهد أنه قال في قوله (حجراً محجوراً) أى عوداً معاذاً فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيع عن مجاهد أنه قال (حجراً محجوراً) عوداً معاذاً الملائكة تقول ذلك فأنه أعلم . وقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل) الآية هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التى ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى إما الإخلاص فيها وإما التابعية لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل ، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) قال مجاهد والثورى (وقدمنا) أى عمدنا وكذا قال السدى وبعضهم يقول أتينا عليه . وقوله تعالى (فجعلناه هباء منثوراً) قال سفيان الثورى عن أبي إسحق عن الحارث عن علي بن أبي حمزة عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى والضحاك وغيرهم ، وكذا قال الحسن البصرى هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (هباء منثوراً) قال هو الماء المهرق ، وقال أبو الأحوص عن أبي إسحق عن الحارث عن علي (هباء منثوراً) قال الهباء وهج الدواب ، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً والضحاك وقاله عبد الرحمن بن زبدين أسلم وقال قتادة في قوله (هباء منثوراً) قال أمارأيت شمس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق ، وقال عبد الله ابن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبي سريع الطائي عن عبيد بن يعلى قال وإن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على منعمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذى لا يجوز ولا يظلم أحداً إذا إنها لا شيء بالسكية ، وشبهت في ذلك بالشئ النافه الحقيق المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالسكية كما قال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالبن والأذى - إلى قوله تعالى - لا يقدر أن على شيء مما كسبوا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) وتقدم الكلام على تفسير ذلك والله الحمد والمآلة . وقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) أى يوم القيامة (لا يستوى

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات والعرافات الآمات فيهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام (خالد بن فيها حسنت مستقرا ومقاما) وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أي بشئ المنزل منظرا وبشئ القيل ومقاما ولهذا قال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد يقتضى دخول الجنة لهم والنجاة من النار فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية فقال تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال الضحاك عن ابن عباس : إنما هي ساعة فيقال أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ويقل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار قال الله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال عكرمة إني لأعرف الساعة التي يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهي الساعة التي تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى الأكبر إذا انقلب الناس إلى أهلهم للقيولة فينصرف أهل النار إلى النار ، وأما أهل الجنة فينطلق بهم إلى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة وأطعموا كبده حوت فأشبعهم كلهم وذلك قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقال سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : لا ينتصف النهار حتى يقل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقرأ (ثم إن مرجعهم إلى الجحيم) : وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) قال قالوا في الغرف من الجنة وكان حسابهم إذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى (فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسبه حسابا يسيرا) * وينقلب إلى أهله مسرورا) وقال قتادة (خير مستقرا وأحسن مقيلا) مأوى ومنزلا وقال قتادة وحدث صفوان بن محرز أنه قال : يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا في الدنيا إلى الجنة والبياض فيحاسب فإذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به إلى النار والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول يا رب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول الله : صدق عبدى فأرسلوه فيؤمر به إلى الجنة ثم يترك ما شاء الله ، ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شرم قيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت ؟ فيقول رب خير مقل فيقال له عد . رواها ابن أبي حاتم كلها ، وقال ابن جرير : حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث أن سعيدا الصواف حدثه أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم يتقابلون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْخَلْقُ لِلرَّحْمَنِ كَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا * وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْمِئْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يُؤْيَلَتْنِي لَيْلَتَنِي لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغيام وهو ظلال النور العظيم الذي يهر الأبصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يحى الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد وهذا كما قال تعالى (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا) قال ابن عباس

رضي الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والإنس والبهائم والطيور وجميع الخلق
فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق
ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق وهم أكثر من
أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن
جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك
التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن
جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا
عز وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والإنس ، وجميع الخلق
لهم قرون كأ كعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل ما بين أخص قدم أحدهم
إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حيزته (١) مسيرة خمسمائة عام
وما بين حيزته إلى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام. وما فوق ذلك مسيرة
خمسمائة عام وجهنم محسمة ، هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني
الحجاج عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران أنه سمع ابن عباس يقول : إن هذه
السماء إذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الإنس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض
فيقول أهل الأرض جاء ربنا ؟ فيقولون لم يحنى ، وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء على قدر ذلك من التضعيف
إلى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والإنس . قال فتنزل
الملائكة الكروبيون ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة ، وبين فخذه ومنكبه
مسيرة سبعين سنة. قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجه صاحبه وكل ملك منهم واضع رأسه بين يديه (٢) يقول سبحان الملك
القدوس وعلى رؤوسهم شيء مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فمداره على علي بن زيد بن جدعان وفيه
ضعف في سياقاته غالباً وفيها نكارة شديدة ، وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم ، وقد قال
الله تعالى (فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك
فوقهم يومئذ ثمانية) قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك
بعد علمك . وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر
ابن عبد الله إذا نظر أهل الأرض إلى العرش يهبط عليهم من فوقهم شخصت إليه أبصارهم ورجفت كلامهم في أجوافهم
وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم إلى حناجرهم . قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا المعتمر بن
سليمان عن عبد الجليل عن أبي حازم عن عبد الله بن عمرو قال : يهبط الله عز وجل حين يهبط ويبنه وبين خلقه سبعون ألف
حجاب منها النور والظلمة فيضرب الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب وهذا موقف على عبد الله بن عمرو من كلامه
ولعله من الزاملتين والله أعلم

وقوله تعالى (الملك يومئذ الحق للرحمن) الآية كما قال تعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) وفي الصحيح
أن الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك أنا الديان أين ملوك الأرض ؟
أين الجبارون أين المتكبرون ؟ وقوله (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) أى شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء
فصل كما قال تعالى (فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير) فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما
المؤمنون فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا حسين بن موسى حدثنا ابن لهيعة
حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال : قيل يارسول الله (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ما أطول
هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه

من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا » وقوله تعالى (ويوم يعرض الظالم على يديه) الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مزية فيه وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعرض على يديه حسرة وأسفاً وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم في النار) الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعرض على يديه قائلاً (يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * ياويلنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً) يعنى من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك أمية ابن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرها (لقد أضلني عن الذكر) وهو القرآن (بعد إذ جاءني) أى بعد بلوغه إلى قال الله تعالى (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) أى يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنَّا قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال « يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية فكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه . فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ، من هجرانه ففسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) أى كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان في الأمم الماضية لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن) الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا (وكفى بربك هادياً ونصيراً) أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابيه وصدقته واتبعه فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة وإنما قال (هادياً ونصيراً) لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقهم طريقة القرآن فلهمنا قال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين) الآية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا * الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيههم حيث قالوا (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله (وقرآننا فرقناه) الآية ولهذا قال (لنثبت به فؤادك وترتلناه ترتيلاً) قال قتادة: بيناه تبييناً . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيراً (ولا يأتونك بمثل) أى بحجة وشبهة (إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) أى ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبتناهم بما هو الحق

في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا يأتونك بمثل) أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول (إلا جئناك بالحق) الآية أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم وما هذا إلا اعتناء وكبر شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحى من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلة ونهارا سفرا وحضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجها بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائي بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة ، قال الله تعالى (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا)

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات (الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال « إن الذي أمشاء على رجليه قادر أن يمليه على وجهه يوم القيامة » وهكذا قال مجاهد والحسن وقادة وغير واحد من المفسرين

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقَالْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِشَايُنَا فَدَمَّرْنَا نَهُمْ تَذْمِيرًا * وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثِلَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْذِيرًا * وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءَ أَقْلَمٍ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلًى كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من مشركي قومه ومن خالفه ومخذريهم من عقابه وأليم عذابه بما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أي نبيا موازرا ومؤيدا وناصرًا فكذبهما فرعون وجنوده (فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله تعالى بعث إليهم كل رسول فانهم كانوا يكذبون ، ولهذا قال تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم نقمه (فما آمن معه إلا قليلا) ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يبق منهم أحدا ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط (وجعلناهم للناس آية) أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) أي وأبقيناكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الفرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس) قد تقدم الكلام على قصتهما في غير ما سورة كسورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة ، وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج عن ابن عباس هم أهل قرية من قرى ثمود وقال ابن جريج : قال عكرمة أصحاب الرس بفاج وهم أصحاب يس ، وقال قتادة : فلج من قرى الحماة وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله (وأصحاب الرس) قال بئر بأذربيجان وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها ، وقال ابن إسحق عن محمد بن كعب

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود وذلك أن الله تعالى بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها إلا ذلك العبد الأسود ، ثم إن أهل القرية عدوا على النبي فحجروا له بشرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيخطب على ظهره ثم يأتي بخطبه فيبيعه ويشترى به طعاما وشرابا ثم يأتي به إلى تلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلى إليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت ، قال فكان ذلك ما شاء الله أن يكون ، ثم إنه ذهب يوما يخطب كما كان يصنع فجمع خطبه وحزم حزمته وفرغ منها فلما أراد أن يحتملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم إنه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم إنه هب واحتمل حزمته ولا يحسب إلا أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ثم إنه ذهب إلى الحفيرة موضعها الذي كانت فيه فالتمس فيه فلم يجده وكان قد بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه ، قال فكان بينهم يسألهم عن ذلك الأسود ما فعل فيقولون له لاندري حتى قبض الله النبي وهب الأسود من نومته بعد ذلك » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة » وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن إسحق عن محمد بن كعب مرسل وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه إدراجا والله أعلم : وقال ابن جرير لا يجوز أن يحمل هؤلاء على أنهم أصحاب الرأس الذين ذكروا في القرآن لأن الله أخبر عنهم أنه أهلكتهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم إلا أن يكون حدث لهم أحداث آمنوا بالنبي بعد هلاك آبائهم والله أعلم ، واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة البروج فأنه أعلم . وقوله تعالى (وقرونا بين ذلك كثيرا) أي وإنما أضعاف من ذكر أهلكتهم كثيرة ولهذا قال (وكلا ضربنا له الأمثال) أي بيناهم الحجج ووضحنا الأدلة كما قال قتادة وأزحنا الأعذار عنهم (وكلا تبرنا تبيرا) أي أهلكنا إهلا كما كقوله تعالى (وكما أهلكنا من القرون من بعد نوح) والقرن هو الأمة من الناس كقوله (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والأظهر أن القرن هو الأمة للمتعاصرون في الزمن الواحد وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث (ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) يعني قرية قوم لوط وهى سدوم التي أهلكتها الله بالقلب وبالطمر من الحجارة التي من سجيل كما قال تعالى (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) وقال (وإنكم لتمررون عليهم مصبحين * وبالليل أفلاتعقلون) وقال تعالى (وإنها لبسيلة مقيم) وقال (وإنهما لبإمام مبين) ولهذا قال (أفلم يكونوا يرونها) أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامره (بل كانوا لا يرجون نشورا) يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورا أي معادا يوم القيامة

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرْوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه كما قال تعالى (وإذا رأوك كفروا إن يتخذونك إلا هزوا) الآية يعنونه بالعبث والنقص ، وقال ههنا (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) هذا الذي بعث الله رسولا ؟) أي على سبيل التنقص والازدراء فقبجهم الله كما قال (ولقد استهزى برسلك من قبلك) الآية . وقوله تعالى (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا) يعنون أنه كاد يضلهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال الله تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وسوف يعلمون حين يرون العذاب) الآية . ثم قال تعالى لنبيه منها أن من

كتب الله عليه الشقاوة والضلال فانه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) أي هما استحسن من شيء ورآه حسنا في هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء) الآية ولهذا قال ههنا (أفأنت تكون عليه وكيلاً) قال ابن عباس كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فاذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول . ثم قال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) الآية أي هم أسوأ حالا من الأنعام السارحة فان تلك تفعل ما خلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل اليهم

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك والحسن وقتادة : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس (ولو شاء لجعله ساكناً) أي دائماً لا يزول كما قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً) الآيات . وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لا يعرف إلا بضده ، وقال قتادة والسدي دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله . وقوله تعالى (ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) أي الظل وقيل الشمس (يسيراً) أي سهلاً قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفياً وقال السدي قبضاً خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس ما فوقه ، وقال أيوب بن موسى في الآية (قبضاً يسيراً) قليلاً قليلاً ، وقوله (وهو الذي جعل لكم الليل لباساً) أي يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى (والليل إذا يغشى) (والنوم سباتاً) أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان فان الأعضاء والجوارح تسكن من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا (وجعل النهار نشوراً) أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى (وهن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) الآية

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لَنُنْخِثَ بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي بمجيء السحاب بعدها والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير فمنها ما يشير السحاب ، ومنها ما يحملها ومنها ما يسوقه ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ومنها ما يلقح السحاب ليحضر ولهذا قال تعالى (وأنزّلنا من السماء ماء طهوراً) أي آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراها . فهذا أصح ما يقال في ذلك ، وأما من قال إنه فعول بمعنى فاعل أو إنه مبنى للبالغة والتعدي فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي بإسناداه إلى حميد الطويل عن ثابت البناني قال دخلت مع أبي العالية في يوم مطير وطرق البصرة قدرة فصلى فقلت له فقال (وأنزّلنا من السماء ماء طهوراً) قال طهره ماء السماء وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال : أنزله الله طهوراً لا ينجسه شيء . وعن أبي سعيد قال : قيل يا رسول الله أتتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها النتن ولحوم الكلاب ؟ فقال « إن الماء طهور لا ينجسه شيء » رواه الشافعي وأحمد وصححه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي . وروى ابن أبي حاتم بإسناداه

حدثنا أبي حدثنا أبو الأشعث حدثنا معتمر سمعت أبي يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال : كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد : منه من السماء ومنه ما يسقيه الغيم من البحر فيذبه الرعد والبرق فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فأما النبات فما كان من السماء ، وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر أولوة ، وقال غيره : في البر وفي البحر در ، وقوله تعالى (لنحي به بلدة ميتاً) أى أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء فلما جاءها الحياء عاشت واكتست ربها أنواع الأزهار والألوان كما قال تعالى (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) الآية (ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) أى وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزرعهم وثمارهم كما قال تعالى (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) الآية وقال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) الآية : وقوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم لذكروا) أى أمطرنا هذه الأرض دون هذه وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعداها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقا والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة ، قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية (ولقد صرفناه بينهم لذكروا) فأي أكثر الناس (إلا كفورا) أى لذكروا باحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو لذكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقع عما هو فيه . وقال عمر مولى عقبة : كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا جبريل إني أحب أن أعلم أمر السحاب » قال : فقال له جبريل يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صلكم مختمة : أسق بلاد كذا وكذا ، كذا وكذا قطرة . رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) قال عكرمة يعنى الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوما على أثر سماء أصابهم من الليل « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب »

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدْنَاهُمْ بِجِهَادٍ كَبِيرٍ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

يقول تعالى (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) يدعوهم إلى الله عز وجل ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن (لأنذركم به ومن بلغ) (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) (لتندر أم القرى ومن حولها) (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وفي الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » وفيهما « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال تعالى (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به) يعنى بالقرآن قاله ابن عباس (جهادا كبيرا) كما قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية وقوله تعالى (وهو الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ) أى خلق المائتين الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال : قاله ابن جريج واختاره ابن جرير ، وهذا المعنى لاشك فيه فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لئنه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونا

في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم وقوله تعالى (وهذا ملح أجاج) أى ملح مر زقاق لا يستساغ وذلك كالبهار المعروفة في المشرق والمغرب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الحزر وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجرى ، ولكن توج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص ، فاجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك ، فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مألحة لئلا يحصل بسببها ثخن الهواء فيفسد الوجود بذلك ، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان ، ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتها طيبة ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر أتوضأ به ؟ فقال « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد وقوله تعالى (وجعل بينهما برزخاً وحجراً) أى بين العذب والمالح (برزخاً) أى حاجزاً وهو اليبس من الأرض (وحجراً محجوراً) أى مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر كقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبئى آلاء ربك تكذبان) وقوله تعالى (أن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً آله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون) وقوله تعالى (وهو الذى خلق من الماء بشراً) الآية أى خلق الإنسان من نقطة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء (فجعله نسبا وصهراً) فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهراً ثم يصير له أظهراً وأختان وقربات ، وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى (وكان ربك قديراً)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَمِّلْ بِهِ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضراً ولا نفعاً بلا دليل قادم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء ، والتشهي والأهواء ، فهم بالوهم ويقاثلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى (وكان الكافر على ربه ظهيراً) أى عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة يعلمهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) أى آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاثلون عنهم ، ويدبون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ورسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة قال مجاهد (وكان الكافر على ربه ظهيراً) قال يظاهر الشيطان على عصية الله ويعينه ، وقال سعيد بن جبير (وكان الكافر على ربه ظهيراً) بقول عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، وقال زيد بن أسلم (وكان الكافر على ربه ظهيراً) قال موالياً ، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) أى بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله (قل ما أسألكم عليه من أجر) أى على هذا البلاغ وهذا الانذار من

أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى (لمن شاء منكم أن يستقيم) (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا) أى طريقا ومسلكا ومنهجاً يقتدى فيها بما جئت به ، ثم قال تعالى (وتوكل على الحى الذى لا يموت) أى فى أموركم كلها كن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبدا الذى هو (الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) الدائم الباقي السرمدى الأبدى الحى القيوم رب كل شئ ، ومليكاه اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع إليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) . وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نفيل قال قرأت على معقل يعنى ابن عبيد الله عن عبد الله بن أبى حسين عن شهر بن حوشب قال ، لقي سلمان النبى ﷺ فى بعض فجاج المدينة فسجد له فقال « لاتسجدلى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت » وهذا مرسل حسن . وقوله تعالى (وسبح بحمده) أى اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أى أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلا) وقال تعالى (فاعبده وتوكل عليه) وقال تعالى (قل هو الرحمن آمنابه وعليه توكلنا) وقوله تعالى (وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى بعلمه التام الذى لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة . وقوله تعالى (الذى خلق السموات والأرض) الآية أى هو الحى الذى لا يموت وهو خالق كل شئ وربّه ومليكاه الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع فى ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها (فى ستة أيام ثم استوى على العرش) أى يدبر الأمر ويقضى الحق وهو خير الفاصلين وقوله (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) أى استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فما قاله فهو الحق وما أخبره به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شئ وجب رد نزاعهم إليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى (فإن تنازعتم فى شئ) الآية وقال تعالى (وما اختلقتم فيه من شئ فحكمه إلى الله) وقال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الاخبار وعدلا فى الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى (فاسأل به خبيرا) قال مجاهد فى قوله (فاسأل به خبيرا) قال ما أخبرتك من شئ فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية فى قوله (فاسأل به خبيرا) هذا القرآن خير به . ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أى لا نعرف الرحمن وكان ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ لاكتب « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا لانعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله تعالى (قل ادعوا الله أودعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) أى لانعرفه ولا نقر به (أنسجد لما تأمرنا) أى لجرد قولك (وزادهم نفورا) فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلهية ويسجدون له ، وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر فى موضعه والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

يقول تعالى مجدا نفسه ومعظما على جميل ما خلق فى السماوات من البروج وهى الكواكب العظام فى قول مجاهد

وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة . وقيل هي قصور في السماء للحرس ، يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد ابن كعب وإبراهيم النخعي وسليمان بن مهران الأعمش ، وهو رواية عن أبي صالح أيضا والقول الأول أظهر . اللهم إنا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ولهذا قال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا) وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى (وجعلنا سراجا وهاجا) (وقمرأ منيرا) أي مشرقا مضيئا بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى (وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا) وقال مخبرا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ألم تتروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ثم قال تعالى (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفا) أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران إذا ذهب هذا جاء هذا وإذا جاء هذا ذهب ذلك كما قال تعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) الآية وقال (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) الآية وقال (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) الآية . وقوله تعالى (لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أي جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادة عبادته له عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح « ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو حمزة عن الحسن أن عمر بن الخطاب أطل صلاة الضحى فقبل له صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال إنه بقي علي من وردي شيء ، فأحبت أن أمه أو قال أقضيه وتلاهذه الآية (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفا لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول من فاته شيء من الليل أن يعمل ما أدركه بالنهار ، أو من النهار أدركه بالليل وكذلك قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خلفا أي مختلفين أي هذا بسواده وهذا بضياؤه

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين (الذين يمشون على الأرض هونا) أي بسكينة ووقار من غير جريئة ولا استكبار كقوله تعالى (ولا تمشي في الأرض مرحا) الآية فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أثر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صب وكأأنما الأرض تنطوي له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال ما بالاك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة . وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأتتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا » وقال عبدالله بن المبارك عن معمر عن عمر بن الخطاب عن الحسن البصري في قوله (وعباد الرحمن) الآية قال : إن المؤمنين قوم ذللت منهم والله الأسع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة . فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاضم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أي إذا ساءفه عليهم الجاهل بالقول السيئ لم يقابلوههم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا

خيراً كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيد شدة الجاهل عليه إلا حُلماً وكما قال تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) الآية . وروى الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبي خالد الوالبي عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به » إسناده حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد (قالوا سلاماً) يعني قالوا اسداً ، وقال سعيد بن جبير ردوا معروفاً من القول ، وقال الحسن البصري قالوا سلام عليكم إن جهل علمهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل فقال تعالى (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) أي في طاعته وعبادته كما قال تعالى (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأصباح هم يستغفرون) وقوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية وقال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) الآية ولهذا قال تعالى (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) أي ملازماً دائماً كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراماً وإن يعطى جزيلاً فإنه لا يبالي

ولهذا قال الحسن في قوله (إن عذابها كان غراماً) كل شيء يصيب ابن آدم ويؤول عنه فليس بغرام وإنما الغرام اللازم مادامت الأرض والسموات وكذا قال سليمان التيمي ، وقال محمد بن كعب (إن عذابها كان غراماً) يعني ما نعموا في الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) أي بشئ المنزل منظر أو بشئ المقل مقاماً ، وقال ابن أبي حاتم عند قوله (إنها ساءت مستقراً ومقاماً) حدثنا أنى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مالك بن الحارث قال : إذا طرح الرجل في النار هوى فيها فإذا انتهى إلى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأساً من سم الأسود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة . وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها فأخذت بشفاهم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم إلى أقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت

وقال الإمام أحمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعني ابن مسكين عن أبي طلال عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل ذهب فأتني بعبدى هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين فيكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل أئتني به فإنه في مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى . فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى » وقوله تعالى (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) الآية أى ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم فيقصرزون في حقهم فلا يكفونهم بل عدلاً خياراً وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا (وكان بين ذلك قواماً) كما قال تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي تميم الغساني عن ضمرة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فقه الرجل قصده في معيشته » ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدى حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال - يعني العبدى - عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحسن القصد في الغنى وما أحسن القصد في الفقر

وما أحسن القصد في العبادة » ثم قال لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضي الله عنه ، وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف ، وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف . وقال غيره السرف النفقة في معصية الله عز وجل

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر ؟ قال « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أي ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال ثم أي ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السرى عن أبي معاوية به ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الأعمش ومنصور زاد البخاري وواصل ثلاثهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به قاله أعلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ، الحديث . طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السري يعني ابن إسماعيل حدثنا الشعبي عن مسروق قال : قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلست على نشز من الأرض وقعدت أسفل منه ووجهي حياض ركبتيه واغتتمت خلوتي وقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أي الذنب أكبر ؟ قال « أن تدعو لله ندا وهو خلقك » . قلت ثم مه ؟ قال « أن تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك » قلت ثم مه ؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » ثم قرأ (والذين لا يدعون مع الله) الآية وقال النسائي حدثنا قتبية بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع « ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشجع عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ؟ « لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن المديني رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الأنصاري سمعت أبا طيبة الكلاعي سمعت المقداد بن الأسود رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « ما تقولون في الزنا ؟ » قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره » قال « فما تقولون في السرقة ؟ » قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام قال « لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره » وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقر عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له » وقال ابن جرير أخرني يعلى عن سعيد بن جبيرة أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثرنا وزنوا فأكثرنا ثم أنوا محمداً ﷺ فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية ونزلت (قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عمرو بن عمرو عن أبي فاخنة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل « إن الله ينهك أن تعبد الخلق وتدع الخالق ، وينهك أن تقتل ولدك وتغزو كلبك ، وينهك أن تزني بحليلة جارك » قال سفيان وهو قوله (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية . وقوله تعالى (ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : أثاماً : واد في جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاماً) أودية في جهنم يعذب فيها

الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد ، وقال قتادة (يلقى أنثاماً) نكالا : كنا نحدث أنه واد في جهنم وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بني ، إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أمامة الباهلي موقوفاً ومرفوعاً أن غيا وأنثاماً بثران في قعر جهنم . أجازنا الله منهما بمنه وكرمه . وقال السدي (يلقى أنثاماً) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسرناه بما بعده مبدلاً منه وهو قوله تعالى (بضاعف له العذاب يوم القيامة) أي يكرر عليه ويغلظ (ويغلظ فيه مهانا) أي حقيراً ذليلاً . وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً) أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر (إلا من تاب) أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه ، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء (ومن يقتل مؤمناً متعمداً) الآية فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قد قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) الآية . قد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررنا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث ، وقوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) في معنى قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قولان أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفاً وبعد طول النفس الوجيفا

يعني تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها ، وقال عطاء بن أبي رباح هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيراً . وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ، وقال الحسن البصري أبدلهم الله بالعمل السوء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحساناً ، وبالكفر إسلاماً ، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين (والقول الثاني) أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ماضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوباً عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم^(١) فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا وكذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا وكذا ، فيقول نعم لا يستطيع أن يشكر من ذلك شيئاً فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لأأراها ههنا » قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، انفرد بإخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن إسماعيل حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطني صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محاسبها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبتهن حسنات فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبّر ثلاثاً وثلاثين تكبيرة ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ويسبح ثلاثاً وثلاثين تسبيحة فتلك مائة » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة وعارم قالوا حدثنا ثابت يعني ابن يزيد أبو يزيد حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإداسيئاته فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسنته ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قديلت حسنات ، وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلمان بن موسى الزهري أبو داود حدثنا أبو العباس عن أبيه عن أبي هريرة قال : لياثين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات . وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عبد الله

(١) قوله فعن أبي ذر الخ في بعض النسخ زيادة السند بما لفظه . قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعمر بن سويد عن أبي ذر الخ

ابن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفاً حرفاً وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا ، فعند ذلك مح الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : (هاؤم اقرءوا كتابيه) فهم أكثر أهل الجنة ، وقال على ابن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواها ابن أبي حاتم ، وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال : جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها يمينه لوقسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أأسمت ؟ » قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات » فقال يا رسول الله وغدراني وفجراتي ؟ فقال « وغدراتك وفجراتك » فولى الرجل يكبر ويهمل : وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال « أأسمت ؟ » فقال نعم ، قال « فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها » قال وغدراني وفجراتي ؟ قال « نعم » فما زال يكبر حتى توارى ، ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعاً ، وقال أيضاً حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زينت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ » (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب) الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً ، هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم ، وقد رواه ابن جرير من حديث إبراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول يا حسرتنا أخلق هذا الحسن النار ؟ وعنده أنه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها ، فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجاً وتوبة مما عملت ، وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت إلى الله عز وجل ، ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً فقال تعالى (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) أي فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه) الآية وقال تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) الآية وقال تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) الآية أي لمن تاب إليه

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِبِئَاتٍ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الأصنام وقيل الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل ، وقال محمد بن الحنفية هو اللغو والغناء ، وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك

والربيع بن أنس وغيرهم : هو أعياد الشركين . وقال عمرو بن قيس : هي المجالس السوء والحنأ . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقيل المراد بقوله تعالى (لا يشهدون الزور) أي شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال « الشرك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئا فجلس فقال « ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ولهذا قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال (مروا كراما) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرني إبراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر ببلهو فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريما » وحدثنا الحسين بن محمد بن سلمة النحوي ثنا حبان أنا عبد الله أنا محمد بن مسلم أخبرني ميسرة قال بلغني أن ابن مسعود مر ببلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريما » ثم تلا إبراهيم بن ميسرة (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) وهذه أيضا من صفات المؤمنين (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فهم في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) فقولاه (لم يخروا عليها صما وعميانا) أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى . قال مجاهد قوله (لم يخروا عليها صما وعميانا) قل لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصري رضى الله عنه : كم من رجل يقرؤها ويخروا عليها أصم أعمى . وقل فتادة قوله تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) يقول لم يسمعوا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم غفلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عند الله بن حمران ثنا ابن عون قال سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم مسجودا ولم يسمع ما سجدوا يسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعني أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغي للمؤمن أن يكون إمامة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطبعه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين . وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقرب لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج في قوله (هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام وقال الإمام أحمد حدثنا معمر بن بشير حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن بن جبير ابن نفير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجملت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ، ثم أقبل إليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتعنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهد كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يحببوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتهم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي

صلى الله عليه وسلم على أشرف حال بعث عليها نبياً من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده إن كان الرجل يرى والده وأخاه كافراً وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تفر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار ، وأنها التي قال الله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه ، وقوله تعالى (واجعلنا للمتقين إماماً) قال ابن عباس والحسن والسدي وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا في الخير . وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هدام متعدياً إلى غيرهم بالفع وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مكاباً ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينفع به من بعده أو صدقة جارية »

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * قُلْ مَا يَعْبَثُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة . والأقوال والأفعال الجليلة : قال بعد ذلك كله (أولئك) أى المتصفون بهذه (مجزون) يوم القيامة (الغرفة) وهى الجنة ، قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي ميمت بذلك لارتقاءها (بما صبروا) أى على القيام بذلك (ويلقون فيها) أى فى الجنة (تحية وسلاماً) أى يتبدرون فيها بالتحية والإكرام . ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعلهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وقوله تعالى (خالدين فيها) أى مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولا كما قال تعالى (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدون فيها مادامت السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى (حسنت مستقراً ومقاماً) أى حسنت منظراً وطابت مقيلاً ومنزلاً . ثم قال تعالى (قل ما يعبا بكم ربى) أى لا يبالى ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويسبحوه بكراً وأصيلاً . قال مجاهد وعمر بن شعيب (ما يعبا بكم ربى) يقول ما يفعل بكم ربى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (قل ما يعبا بكم ربى) الآية يقول لولا إيمانكم ، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان لهم حاجة لحب إليهم الإيمان كما حبيه إلى المؤمنين ، وقوله تعالى (فقد كذبتم) أيها الكافرون (فسوف يكون لزاماً) أى فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم يعنى مفتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كافرته بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصرى (فسوف يكون لزاماً) أى يوم القيامة ، ولا منافاة بينهما . آخر تفسير سورة الفرقان والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الشعراء وهى مكية ﴾

﴿ ووقع فى تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طَسَمَ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَكَالَ الْخَجِّ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا

إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة . وقوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات القرآن المبين أى البين الواضح الجلى الذى يفصل بين الحق والباطل والحقى والرشاد . وقوله تعالى (لعلك باخع) أى مهلك (نفسك) أى مما تحرص وتحزن عليهم (ألا يكونوا مؤمنين) وهذه تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كقوله (فلهلك باخع نفسك على آثارهم) الآية . قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم (لعلك باخع نفسك) أى قاتل نفسك قال الشاعر :

ألا أيهدا الباخع الحزن نفسه لشيء نخته عن يديه المقادر

ثم قال تعالى (إن نشأ تنزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى لو نشأ لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ولكن لا نفعل ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختيارى . وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا * أفأنت تكبره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية فنفذ قدره ومضت حكمته وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم ثم قال تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) أى كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) وقال تعالى (ثم أرسلنا رسlnا تترى كلما جاء أمة رسولا كذبوه) الآية ولهذا قال تعالى ههنا (فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) أى فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نباء هذا التكذيب بعد حين (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان . قال سفيان الثوري عن رجل عن الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لثيم (إن فى ذلك لآية) أى دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسوله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه . وقوله (وإن ربك لهو العزيز) أى الذى عز كل شيء وقهره وغلبه (الرحيم) أى بخلقه فلا يجعل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن إسحاق : العزيز فى نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَبَصِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِنَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي

مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملكه ، ولهذا قال تعالى (أن اتت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) هذه أعداء سأل من الله إزاحتها عنه كما قال في سورة طه (قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري — إلى قوله — قد أوتيت سؤالك يا موسى) وقوله تعالى (ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) أى بسبب قتل القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر (قال كلا) أى قال الله له لا تخف من شيء من ذلك كقوله (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا — أى برهاننا — فلا يصلون إليكما بآياتنا أننا ومن اتبعكمنا الغالبون) (فاذهب بآياتنا إنا معكم مستمعون) كقوله (إني معكما أسمع وأرى) أى إني معكم بحفظي وكلاءتى ونصرى وتأيدى (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) كقوله في الآية الأخرى (إنا رسول ربك) أى كل منا أرسل إليك (أن أرسل معنابى إسرائيل) أى أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه الخالصون وهم معك في العذاب المهين ؛ فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال (ألم نربك فينا وليدا) الآية أى أما أنت الذى ربيناها فى بيتنا وعلى فراشنا وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك ولهذا قال (وأنت من الكافرين) أى الجاحدين . قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير (قال فعلتها إذا) أى فى تلك الحال (وأنا من الضالين) أى قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم (وأنا من الضالين) أى الجاهلين ، قال ابن جريج وهو كذلك فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (ففرت منكم لما خفتكم) الآية أى انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر فقد أرسلنى الله إليك فان أطعته سلمت وإن خالفته عطيت ، ثم قال موسى (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) أى وما أحسنت إلى وريثتى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل فجعلتهم عبيدا وخداما تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعييتك ، أفينى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم أى ليس ما ذكرته شيئا بالنسبة إلى ما فعلت بهم

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوَالَهُ أَلَا اسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وججوده فى قوله (وما رب العالمين) وذلك أنه كان يقول لقومه (ما علمت لكم من إله غيرى) (فاستخف قومه فأطاعوه) وكانوا يحجدون الصانع جل وعلا ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى إني رسول رب العالمين قال له فرعون ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسر علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدى هذه الآية كقوله تعالى (قال فمن ربكم يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط فانه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين (قال رب السموات والأرض وما بينهما) أى خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لا شريك له هو الذى خلق الأشياء كلها العالم العلوى وما فيه من الكواكب

الثوابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون (إن كنتم موقنين) أى إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة ، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله (ألا تستمعون ؟) أى ألا تعجبون من هذا فى زعمه أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى (ربكم ورب آبائكم الأولين) أى خالفكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه (قال) أى فرعون لقومه (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى ليس له عقل فى دعواه أن ثم رباً غيرى (قال) أى موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة فأجاب موسى بقوله (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها فان كان هذا الذى يزعم أنكم صادقا فليعكف الأمر وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً كما قال تعالى عن (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فانت بها من المغرب) الآية . ولهذا لما غلب فرعون وانهضت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿ قُلْ لِّئِنْ تَخَذْتِ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلََنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ * قَالَ أُولُو جِثَّتِكَ بَشَىءٌ مُّبِينٌ * قَالَ فَاتِّبِعْ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) فعند ذلك قال موسى (أولو جثتك بشىء مبين ؟) أى يبرهان قاطع واضح (قال فانت به إن كنت من الصادقين * قالقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) أى ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج (ونزع يده) أى من جيبه (فإذا هى بيضاء للنظرين) أى تتلأأ كقطعة من القمر فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعداوة فقال للملأ حوله (إن هذا الساحر عليم) أى فاضل بارع فى السحر ، فروج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) الآية أى أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ (قالوا أرجه وأخاه وأبعث فى المدائن حاشرين * يأتواك بكل سحار عليم) أى أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكته وأقاليم دولته كل سحار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت وتكون لك النصر والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ليجمع الناس فى صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهره

﴿ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَدْبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَعْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا

لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ * قَالُوا ءَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقيط في سورة الأعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والإيمان متواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) (وقل جاء الحق وزهق الباطل) الآية ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوا من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأضنعهم وأشدهم تخيلا في ذلك ، وكان السحرة جمعا كثيرا ؛ وجما غفيرا ، قيل كانوا اثني عشر ألفا وقيل خمسة عشر ألفا ، وقيل سبعة عشر ألفا ، وقيل تسعة عشر ألفا ، وقيل بضعة وثلاثين ألفا ، وقيل ثمانين ألفا ، وقيل غير ذلك والله أعلم بعدتهم . قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم : سابور وعادور وحطط ومصفي ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) ولم يقولوا تتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى بل الرعية على دين ملكهم (فلما جاء السحرة) أى إلى مجلس فرعون وقد ضربوا له وطاقا وجمع خدمه وحشمه ووزرائه ورؤساء دولته وجنود مملكته . فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أى هذا الذى جمعنا من أجله فقالوا (أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) أى وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائى ، فعادوا إلى مقام المناظرة (قالوا يا موسى إما أن تأتي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا) وقد اختصر هذا ههنا فقال لهم موسى (ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا هذا بشواب فلان ، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم (سجدوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) وقال في سورة طه (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى - إلى قوله - ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقال ههنا (فألقى موسى عصاه فإذا هوى تلقف ما يافكون) أى تحتطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا ، قال الله تعالى (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون - إلى قوله - رب موسى وهارون) فكان هذا أمرا عظيما جدا وبرهانا قاطعا للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الدين استنصر بهم وطلب منهم أن يظلبوا غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة وسجدوا لله رب العالمين الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غالبا لم يشاهد العالم مثله وكان وقحاجر يثا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فعدل إلى المسكوبة والعناد ودعوى الباطل فشرع يتهدهم ويتوعددهم ويقول (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وقال (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) الآية

﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

تهدهم فلم ينفع ذلك فيهم وتوعددهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قلوبهم من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيد به وجعله له حجة ودلالة

على صدق ما جاء به من ربه ، ولهذا لما قال لهم فرعون (آمنت له قبل أن آذن لكم ؟) أى كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا على في ذلك فإن أذنت لكم فعلتم وإن منعتكم امتنعتم فإني أنا الحاكم المطاع (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فانهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل . ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا (لاضير) أى لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به (إنا إلى ربنا متقربون) أى المرجع إلى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ولهذا قالوا (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أى ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر (إن كنا أول المؤمنين) أى بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والشكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلا من مصر وأن يعضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل . خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كشف القمر تلك الليلة فآله أعلم . وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذى حمّله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم . وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على بن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبي إسحق عن ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعرابي فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعاهدنا » فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما حاجتك ؟ » قال ناقة برحلهما وأعزيتيحتها أهلى ، فقال « أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ » فقال له أصحابه وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول الله ؟ قال « إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل نحن نحدثك أن يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأينكم يدري أين قبر يوسف ؟ قالوا ما يعلمه إلا عجوز من بنى إسرائيل ، فأرسل اليها فقال لها دليني على قبر يوسف ، فقالت والله لا أفعل حتى تعطيني حكمى ، فقال لها وما حكمك ؟ قالت حكمى أن أكون معك في الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك فقبل له أعطها حكمها - قال - فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما أنضبوه قالت احفروا فلما حفروا واستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار » وهذا حديث غريب جداً والأقرب أنه موقوف والله أعلم : فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا محجب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم (إن هؤلاء) يعنى بنى إسرائيل (لشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) أى لطائفة قليلة (وإنهم لنا لغائظون) أى كل وقت يصل منهم الينا ما يغيظنا (وإننا لجمع حاذرون) أى نحن كل وقت نخذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف (وإننا لجمع حاذرون) أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم وأبيد

خضراء هم فجوزى في نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم) أى فخرجوا من هذا النعم إلى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والممالك والجاه الوافر في الدنيا (كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها إلى باركننا فيها) الآية وقال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين) الآيتين .

(فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ناذ كره غير واحد من الإسرائيليات من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل دهم فقيه نظر . وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفي ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذي أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لافائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم (فَأَتَبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها (فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ) أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ) وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا (إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) أى لا يصل إليكم شيء مما تتخذون فان الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هرون عليه السلام المقدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام يابى الله ههنا أمرك ربك أن تسير ؟ فيقول نعم فاقرب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق باذن الله . وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والسكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله إليه (أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) وقال فتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدري من أى جانب يضربه موسى فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يابى الله أين أمرك ربك عز وجل ؟ قال أمرنى أن أضرب البحر قال فاضربه ، وقال محمد بن إسحق أوحى الله - فما ذكرلى - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظارا لما أمره الله ، وأوحى الله إلى موسى (أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) فضربه بها ففيا سلطان الله الذى أعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد أنه جاءه فكانه فقال انفلق على أبأخالد باذن الله . قال الله تعالى (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) أى كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقا لكل سبط طريق ، وزاد السدى وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ،

وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلم تفتح فصار يبسا كوجه الأرض قال الله تعالى (فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) وقال في هذه القصة (وأزلنا الآخرين ثم) أي هنالك قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي (وأزلنا) أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه (وأنجيناهم موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين) أي أنجيناهم موسى وبنو إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود أن موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فانفرق لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا بني الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعني البحر فأقحم فرسه فسبح به فخرج فقال أين أمرت يا بني الله قال ما أمرت إلا بهذا الوجه قال والله ما كذب ولا كذبت ثم اقتحم الثانية فسبح ثم خرج فقال أين أمرت يا بني الله ؟ قال ما أمرت إلا بهذا الوجه قال والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر مسطرا لكل مسبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون التقي البحر عليهم فأغرقهم ، وفي رواية إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انظم عليهم البحر فمارئ سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى (إن في ذلك لآية) أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة (وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك له العزيز الرحيم) تقدم تفسيره .

﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَيِّهِمْ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عُكُوفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء . أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ أن يتلوه على أمته ليقصدوا به في الاخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل أي من صغره إلى كبره فانه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل (فقال لأبيهم وقومه ماذا تعبدون) أي ماهذه التماثيل التي أنتم لها عكفون ؟ (قالوا نعبد أصناما فننظر لها عكفين) أي مقيمين على عبادتها ودعائها (قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرونكم * قالوا بلى وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك وإنما رآوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون فعند ذلك قال لهم إبراهيم (أفرايتم ما كنتم تعبدون * أنتم وأباؤكم الأقدمون * فإنهم عدولي إلا رب العالمين) أي إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإني عدولها لا أبالي بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) الآية وقال هود عليه السلام (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيته إن ربي على صراط مستقيم) وهكذا تبرا إبراهيم من آلهتهم فقال (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله) الآية . وقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم - إلى قوله - حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة) يعني لا إله إلا الله

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء (الذي خلقني فهو يهدين) أي هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلاق إليه فكل يجري على ما قدر له وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء (والذي هو يطعمني ويسقيني) أي هو خالق ورازق بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحياه الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسا كثيرا . وقوله (وإذا مرضت فهو يشفين) أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى أمرا للعصيان أن يقول (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة فأسند الانعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن (وأنا لا ندرى أشير أم أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وكذا قال إبراهيم (وإذا مرضت فهو يشفين) أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه (والذي يميتني ثم يحييني) أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبعث ويبعث (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِي إِنِّي كَانُ مِنْ الْفَاسِقِينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْعَمُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتم به حكما . قال ابن عباس وهو العلم ، وقال عكرمة هو الالب ، وقال مجاهد هو القرآن ، وقال السدي هو النبوة . وقوله (وألحقني بالصالحين) أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاختيار « اللهم في الرفيق الأعلى » قلما ثلاثا . وفي الحديث في الدعاء « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدين » وقوله (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي واجعل لي ذكرا جميلا بعدى أذكر به ويقعدني في الخير كما قال تعالى (وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين) قال مجاهد وقتادة (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) يعني الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى (وآتيناه في الدنيا حسنة) الآية وكقوله (وآتيناه أجره في الدنيا) الآية ، قال ليث بن أبي سليم كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة . وقوله تعالى (واجعلني من ورثة جنة النعيم) أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الخليل بعدى وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم . وقوله (واغفر لاني) الآية كقوله (ربنا اغفر لي ولوالدي) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حليم) وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه فقال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه - إلى قوله - وما أملك لك من الله من شيء) وقوله (ولا تخزني يوم يبعثون) أي أجرني من الجزى يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم . وقال البخاري عند هذه الآية: قال إبراهيم بن طهمان عن ابن أبي ذئب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه العبرة والفترة » وفي رواية أخرى حدثنا إسماعيل حدثنا أخى عن ابن أبي ذئب

عن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يلقى إبراهيم أباه فيقول يا رب إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين » هكذا رواه عند هذه الآية . وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفردا به ولفظه « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتره وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تصيبي فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون فأني خزي أخزي من أبي الأبعد فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذبح متلخخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » ورواه عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبير وقوله (ولا تخزني يوم يبعثون) أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثني أبي حدثني إبراهيم بن طهمان عن محمد بن عبد الرحمن عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقتره وقال له قد نهيتك عن هذا فعصيتي » قال لكني اليوم لا أعصيك واحدة ، قال يا رب وعدتني أن لاتخزني يوم يبعثون فإن أخزيت أباه فقد أخزيت الأبعد . قال يا إبراهيم إني حرمتها على الكافرين فأخذ منه . قال يا إبراهيم أين أبوك ؟ قال أنت أخذته مني ، قال انظر أسفل منك فنظر فإذا ذبيح يتمرغ في نتنه فأخذ بقوائمه فألقى في النار » وهذا إسناد غريب وفيه نكارة والذبح هو الذبح من الضباع كأنه حول آذر إلى صورة ذبيح متلخخ بعذرتة فيلقى في النار كذلك . وقد رواه البزار بإسناده من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وفيه غرابه . ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد الغافر عن أبي سعيد عن النبي ﷺ بنحوه وقوله : (يوم لا ينفع مال ولا بنون) أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بـلء الأرض ذهبا (ولا بنون) أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبري من الشرك وأهله ولهذا قال (إلا من أتى الله بقلب سليم) أي سالم من الدنس والشرك قال ابن سيرين : القلب السليم أن يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، وقال ابن عباس (إلا من أتى الله بقلب سليم) القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وقال مجاهد والحسن وغيرهما (بقلب سليم) يعني من الشرك ، وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض قال الله تعالى (في قلوبهم مرض) قال أبو عثمان النيسابوري هو القلب السالم من البدعة المظمنة إلى السنة

﴿ وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ الْمُتَّقِينَ * وَبُرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُوكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أُتْجِعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(وأزلفت الجنة المتقين) أي قربت وأدنت من أهلها مزخرفة مزينة لناظرها وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا وعملوا لها في الدنيا (وبرزت الجحيم للغاوين) أي أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر وقيل لأهلها تقريرا وتوبيخا (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون) أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فانكم وإياها اليوم حسب جهنم أتم لها واردون ، وقوله (فككبكبوا فيها هم والغاؤون) قال مجاهد يعني فدهوروا فيها .

وقال غيره كبوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعواهم إلى الشرك (وجنود إبليس أجمعون) أي ألقوا فيها عن آخرهم (قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) أي يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة (تالله إن كنا لفي ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين (وما أضلنا إلا المجرمون) أي مادعانا إلى ذلك إلا المجرمون (فما لنا من شافعين) قال بعضهم يعني من اللائكة كما يقولون (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل) وكذا قالوا (فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم) أي قريب : قال قتادة يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع (ولو أن لنا كرة فسكون من المؤمنين) وذلك أنهم يطمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يرضون والله تعالى يعلم أنهم لوردوا إلى دار الدنيا ليعادوا لمانه وواعنه وإنهم لكاذبون ، وقد أخبر الله تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة ص ثم قال تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) ثم قال تعالى (إن في ذلك آية وما كان أكثرهم مؤمنين) أي إن في حاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد آية أي لدلالة واضحة جليلة على أن لا إله إلا الله (وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك له العزيز الرحيم)

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد فبعثه الله ناهياً عن ذلك وتحذيراً من ويل عقابه فسكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الشغال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل فلهمذا قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره (إني لكم رسول أمين) أي إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها (فاتقوا الله وأطيعوا ما أسألكم عليه من أجر) الآية أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أذكر ثواب ذلك عند الله (فاتقوا الله وأطيعوا) فقد وضع لكم بيان صدق ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمني عليه

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ نَزَّاتُكَ الْأَرْضِ لَنْ تَكُونَ * قَالُوا وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُنَا إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقولون لا تؤمن لك ولا تتبعك وتتأسى في ذلك هؤلاء الأذليين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا ولهذا (قالوا أنتم نزازتكم الأرض لن تكون) قال وما علمي بما كانوا يعملون) أي وأي شيء يلزمي من اتباع هؤلاء ولو كانوا على شيء كانوا عليه لا يلزمي التفتيق عنهم والبحث والفحص إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياي وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل (إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين) كأنهم سألوهم أنه إن يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال (وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين) أي إنما بعثت نذيراً فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه سواء كان شريفاً أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً

﴿ قَالُوا أَنْتُمْ نَزَّاتُكَ يُنُوحُ لَتَكُونَ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَانْفُتِحْ يَدَيَّ وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الْمَشْجُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي

ذَلِكَ لآيَةٍ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعومهم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد وقالوا في الآخر (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك (لتكونن من المرجومين) أي لترجمنك فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال (رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً) الآية كما قال في الآية الأخرى (فدع ربه أنى مغلوب فانتصر) إلى آخر الآية . وقال ههنا (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين) والمشحون هو المملوء بالأمعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي أنجيننا نوحاً ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم) .

﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ * وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَالَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنفُسِهِمْ وَبَنِينَ * وَجَنَّتْ وَعْيُونُ * إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام أنه دعا قومه عاداً وكان قومه يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في سورة الأعراف (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول الشديد والأرزاق البارة والأموال والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولا وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحذرهم تقمته وعذابه في مخالفته وبطشه فقال لهم كما قال نوح لقومه إلى أن قال (أتنبون بكل ريع آية تعبثون) اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوارى الطرق المشهورة يبنون هناك بناياتاً محكاها نلاً باهراً ولهذا قال (أتنبون بكل ريع آية) أي معلما بناء مشهوراً (تعبثون) أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لئلا احتياج إليه بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان وإتعاث للأبدان في غير فائدة واشتغال بما لا يجدى في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) قال مجاهد ، والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد ، وفي رواية عنه بروج الحمام ، وقال قتادة هي مأخذ الماء . قال قتادة وقرأ بعض الكوفيين (وتتخذون مصانع كأنكم خالدون) وفي القراءة المشهورة (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أي لكي تقيموا فيها أبداً وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم ، وروى ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبد الله بن عتبة أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في القنطرة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون مالا تاكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيّلون فأصبح أملاهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ . وقوله (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أي يصفهم بالقوة والغلظة

والجبروت (فاتقوا الله وأطيعون) أى اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال (واتقوا الله الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فنانفع فيهم

(قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم ورغبهم وبين لهم الحق ووضحه (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أى لا ترجع عما نحن عليه (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين) وهكذا الأمر فان الله تعالى قال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) وقال تعالى (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية وقولهم (إن هذا إلا خلق الأولين) قرأ بعضهم (إن هذا إلا خلق الأولين) بفتح الحاء وتسكين اللام ، قال ابن مسعود والعوفى عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين كما قال المشركون من قريش (وقالوا أساطير الأولين اكتبها ففى على عليه بكرة وأصيلا) وقال (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون * فقد جاءوا ظلماً وزوراً * وقالوا أساطير الأولين) وقال (وقيل للذين كفروا ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) وقرأ آخرون (إن هذا إلا خلق الأولين) بضم الحاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد ولهذا قالوا (وما نحن بمعذبين) ، قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (إن هذا إلا خلق الأولين) يقول دين الأولين . وقاله عكرمة وعطاء الخراسانى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقوله تعالى (فكذبوه فأهلكناهم) أى استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله وقد بين سبب إهلاكه إياهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية أى ريحا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدا فكان سبب إهلاكهم من جنسهم فإنهم كانوا أعنى شىء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعنى منهم وأشد قوة كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد) وهم عاد الأولى كما قال تعالى (وأنه أهلك عادا الأولى) وهم من نسل إرم بن سام بن نوح (ذات العماد) الذين كانوا يسكنون العمدة ، ومن زعم أن إرم مدينة فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) أى لم يخلق مثل هذه القبيلة فى قوتهم وشدتهم وجبروتهم ولو كان المراد بذلك مدينة لقال التى لم يكن مثلها فى البلاد وقال تعالى (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يمجدون) وقد قدمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا مقدار أنف الثور ، عنت على الحزنة فأذن الله لها فى ذلك فسلكت فحصبت بلادهم فحصبت كل شىء لهم كما قال تعالى (تدمير كل شىء بأمر ربها) الآية وقال تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية - إلى قوله - حسوما - أى كاملة - فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) أى بقوا أبدانا بلأردوس وذلك أن الريح كانت تأتى الرجل منهم فتقتله وترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتنكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل تنقر وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) ولهذا قال تعالى (فكذبوه فأهلكناهم) الآية

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وقد قدمنا في سورة الأعراف الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام فوصل إلى تبوك ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك . وكانوا بعد عاد وقبل الحليل عليه السلام . فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له وأن يطيعوه فما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه وأخبرهم أنه لا يتبعى بدعوتهم أجرا منهم وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل ثم ذكركم آلاء الله عليهم فقال

﴿ أَتُنْتَفِرُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْجِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

يقول لهم واعظا لهم ومخبرهم تقيم الله أن تحل بهم ومدكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في أمن من المهدورات . وأنبئت لهم من الجنات . وفجر لهم من العيون الجارية وأخرج لهم من الزروع والثمار ولهذا قال (ونخل طلوعها هضيم) قال العوفي عن ابن عباس أئيع وبلغ فهو هضيم ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ونخل طلوعها هضيم) يقول معشبة وقال إسماعيل بن أبي خالد عن عمرو بن أبي عمرو — وقد أدرك الصحابة — عن ابن عباس في قوله (ونخل طلوعها هضيم) قال إذا رطب واسترخى رواه ابن أبي حاتم ثم قال : وروى عن أبي صالح نحو هذا وقال أبو إسحاق عن أبي العلاء (ونخل طلوعها هضيم) قال هو المذنب من الرطب وقال مجاهد : هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال ابن جريج سمعت عبد الكريم أنبأنا أمية سمعت مجاهدا يقول (ونخل طلوعها هضيم) قال : حين يطالع تقبض عليه فهضمه فهو من الرطب الهضم ومن اليباس المشيم تقبض عليه فهشمه . وقال عكرمة وقتادة : الهضم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم وقال مرة هو الطلع حين يتفرق ويخضر . وقال الحسن البصري هو الذي لا نوى له ، وقال أبو صخر : ما رأيت الطلع حين ينشق عنه السك فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضم

وقوله (وتنجتون من الجبال بيوتا فارهين) قال ابن عباس وغير واحد يعنى حاذقين . وفي رواية عنه شريهين أشرين وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما فانهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعينا من غير حاجة إلى سكنها وكانوا حاذقين متقين لنجتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال (فاتقوا الله وأطيعوا) أى أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا (ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) يعنى رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُودٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم (قالوا إنما أنت من المسحورين) قال مجاهد وقتادة يعنون من السحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس (من المسحورين)

يعنى من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فانتسا * عصافير من هذا الأنام المسحر

يعنى الذين لهم سحر والسحر هو الرثة ، والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة أنهم يقولون إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك ، ثم قالوا (ما أنت إلا بشر مثلنا) يعنى فكيف أوحى إليك دوننا كما قالوا فى الآية الأخرى (أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر * سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتى بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملوهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التى وصفوها فأمن بعضهم وكفر أكثرهم (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) يعنى ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أتم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فكثرت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى وينتفعون بلبنها يحملون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ؛ فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماثلوا على قتلها وعقرها (فعقروها فأصبحوا نادمين فآخذهم العذاب) وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا فى ديارهم حائمين (إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور مناخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ؛ فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ؛ وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث ولهذا قال تعالى

﴿ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ إِنْ مِنْ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَأْخَلَكُمْ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْفَالِغِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتى خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا (لئن لم تنته يالوط) أى عما جئتنا به (لتكون من المخرجين) أى تنفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) فلما رأى أنهم لا يرتدعون

عمام فيه وأنهم مستمررون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال (إني لعملكم من القالين) أي المبعضين لا أحبه ولا أرضى به وإني برىء منكم ثم دعا الله عليهم فقال (رب نجني وأهلي مما يعملون) قال الله تعالى (فنجيناها وأهلها أجمعين) أي كلهم (إلا عجوزاً في الغابرين) وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأعراف وهود وكذا في الحجر حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته وأنهم لا يلتفتوا إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه فصبروا لأمر الله واستمروا وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال تعالى (ثم دمرنا الآخرين) * وأمطرنا عليهم مطراً - إلى قوله - وإن ربك لهو العزيز الرحيم

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إني لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب ، من أنفسهم وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة وقيل شجر ملتف كالقيضة كانوا يعبدونها فلهذا لما قال : كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يظن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيبا عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم . وقد روى إسحق بن بشر السكاهلي - وهو ضعيف - حدثني ابن السدي عن أبيه وزكريا بن عمرو عن خفيف عن عكرمة قال : ما بعث الله نبيا مرتين إلا شعيبا مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة ، وروى أبو القاسم البغوي عن هذبة عن همام عن قتادة في قوله تعالى (وأصحاب الرس) قوم شعيب وقوله (وأصحاب الأيكة) قوم شعيب ، وقاله إسحق بن بشر . وقال غير جوير أصحاب الأيكة ومدين هما واحد والله أعلم . وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعيد عن سعيد بن أبي هلال عن ربيعة بن سيف عن عبيد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا النبي عليه السلام » وهذا غريب وفي رفعه نظر والأشبه أن يكون موقوفا ، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء السكيا والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولِينَ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء السكيا والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال (أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخاسرين) أي إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم ولا تبخسوا السكيا فنعطوه ناقصا وتأخذوه إذا كان لكم تاما وإيا ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون (وزنوا بالقسطاس المستقيم) والقسطاس هو الميزان وقيل هو القبان . قال بعضهم هو معرب من الرومية . قال مجاهد القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية ، وقال قتادة القسطاس العدل ، وقوله (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أي لا تقصوهم أموالهم (ولا تعنوا في الأرض مفسدين) يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) وقوله (واتقوا الذي خلقكم والجيل الأولين) يخوفهم بأس الله

الذى خاقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام (ربكم ورب آبائكم الأولين) قال ابن عباس ومجاهد والسدى وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (والجيلة الأولين) يقول خلق الأولين . وقرأ ابن زيد (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا)

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به نمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا (إنما أنت من المسحورين) يعنون من السحورين كما تقدم (وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين) أى تتعمد الكذب فيما تقوله لأن الله أرسلك إلينا (فأسقط علينا كسفا من السماء) قال الضحاك : جانبنا من السماء ، وقال قتادة قطعا من السماء وقال السدى عذابا من السماء . وهذا شبيه بما قالت قریش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إلى أن قالوا (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) وقوله (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) الآية ، وهكذا قال هؤلاء الكفار الجاهلة (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية (قال ربى أعلم بما تعملون) يقول الله أعلم بكم فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوها جزاء وفاقا ولهذا قال تعالى (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت اليهم سحابة أظلمهم فجعلوا يطلقون إليها يستظلون بظلالها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولها ووهجا عظيما ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ولهذا قال تعالى (إنه كان عذاب يوم عظيم) . وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق فى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعبدون فى ملتنا) فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة ، وفى سورة هود قال (فأخذتهم الصيحة) وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله فى قولهم (أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن تفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب أن تأتهم صيحة تسكنهم فقال (فأخذتهم الصيحة) الآية ، وههنا قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) قال قتادة : قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه : إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء ، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردا وراحة فأعلم بذلك قومه فأنوها جميعا فاستظلوا تحتها فأجبت عليهم نارا ، وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، بعث الله اليهم الظلة حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد فى القلى ، وقال محمد بن كعب القرظى : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة فى دارهم حتى خرجوا منها فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا إلى البيوت فتسقط عليهم فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال ما رأيت كاليوم ظلا أطيب ولا أبرد من هذا ، هلموا أيها الناس فدخلوا جميعا تحت الظلة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب (فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وقال محمد بن جرير : حدثني الحارث حدثني الحسن حدثني سعيد بن

زيد أخو حماد بن زيد حدثنا حاتم بن أبي صغيرة حدثني يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية (فأخذهم عذاب يوم الظلة) الآية قال بعث الله عليهم رعدة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت من الشمس فوجدوا لها برداً ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً . قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أي العزيز في انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾
يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ (وإنه) أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث) الآية (لتزيل رب العالمين) أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك (نزل به الروح الأمين) وهو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفي والسدي والضحاك والزهري وابن جريج وهذا مما لا نزاع فيه . قال الزهري وهذه كقوله (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه) وقال مجاهد : من كالمه الروح الأمين لاتأكله الأرض (على قلبك لتكون من المنذرين) أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى (على قلبك) يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص (لتكون من المنذرين) أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه وتبشر به المؤمنين المتبعين له وقوله تعالى (بلسان عربي مبين) أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر مقبلاً للحجة دليلاً إلى الحجة . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي بكر العتكي حدثنا عباد بن عباد المهلب عن موسى بن محمد عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه في يوم دجن إذ قال لهم « كيف ترون بواسقها » قالوا ما أحسنها وأشد تراكمها قال « فكيف ترون قواعدها » قالوا ما أحسنها وأشد تمكسها قال « فكيف ترون جرسها » قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال « فكيف ترون رجاها استدارت » قالوا ما أحسنها وأشد استدارتها قال « فكيف ترون برقها أوميض أم خفق أم يشق شقا » قالوا بل يشق شقا قال « الحياء الحياء إن شاء الله » قال فقال رجل يا رسول الله بأبي وأمي ما أفصحك ما رأيت الذي هو أعرب منك قال فقال « حق لي وإنما أنزل القرآن بلساني والله يقول (بلسان عربي مبين) » وقال سفيان الثوري . لم ينزل وحى إلا بالعربية ثم ترجم كل نبي لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا بِنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد (وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) والزبر ههنا هي الكتب وهي جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود ، وقال الله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر) أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ) أي أوليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وأمثه كما أخبر بذلك من آمن

منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكهم قال الله تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الآية ثم قال تعالى محبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به ولهذا قال (ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) كما أخبر عنهم في الآية الأخرى (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا) الآية ؛ وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) الآية وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية

﴿ كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

يقول تعالى كذلك سلكنا في قلوب المجرمين (لا يؤمنون به) أي (حتى يروا العذاب الأليم) أي (حتى يروا العذاب الأليم) أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم اللعنة وألهم سوء الدار (فأتيتهم بغتة) أي عذاب الله بغتة (وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظر) أي (يؤمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظر وأقليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله كما قال الله تعالى (وأنذر الناس يوم يأتيتهم العذاب — إلى قوله — ما لكم من زوال) فكل ظالم وفاجر وكافر إذ شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً ؛ هذا فرعون لما دعا عليه السكام بقوله (ربنا إنك آتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا — إلى قوله — قال قد أجيبت دعوتكما) فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم (حتى إذا أدركه العرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل — إلى قوله — وكنت من المفسدين) وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده) الآيات وقوله تعالى (أفبعذابنا يستعجلون) إنكار عليهم وتهديد لهم فانهم كانوا يقولون للرسول تكديباً واستبعاداً : اثنتا بعداد الله ، كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) الآيات ثم قال (أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحينئذ من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر) وقال تعالى (وما يغني عنه ماله إذا تردى) ولهذا قال تعالى (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون)

وفي الحديث الصحيح « يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا فيصنع في الجنة صبغة ثم يقال له هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول لا والله يارب » أي ما كن شيئاً كان . ولهذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي أنت تطلب

ثم قال تعالى محبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الاغذار إليهم ، والانذار لهم وبعثة الرسل إليهم ، وقيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (وما أهلكنا من قرية إلا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ) كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا — إلى قوله — وأهالها ظالمون)

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله (وما تنزلت به الشياطين) ثم ذكر أنه يمنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه أحدها أنه ما ينبغي لهم أى ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لأن من سبجائهم الفساد وإخلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم فيبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة . ولهذا قال تعالى (وما ينبغي لهم) وقوله تعالى (وما يستطيعون) أى ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك قال الله تعالى (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا في مدة إنزال القرآن على رسول الله فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتهب الأمر ، وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأنيده لكتابته ولرسوله ، ولهذا قال تعالى (إنهم عن السمع لمعزولون) كما قال تعالى مخبرا عن الجن (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا * وأنا كنا نعد منهم قاعا عدلا لسمع فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا * - إلى قوله - أم أراد

هم ر.م.ر. (ر.م.ر.)

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَسْكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرْبُّكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَابُكُ فِي السَّجْدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ومخبرا أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمرا لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أى الأذنين إليه : وأنه لا يخلص أحد منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ولهذا قال تعالى (فان عصوك فقل إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هى فرد من أجزائها كما قال تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون) وقال تعالى (لتنذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وقال تعالى (لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) وقال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وفي صحيح مسلم « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها (الحديث الأول) قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الله بن نمير عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يحىء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ » قالوا نعم . قال « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب تبأ لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله (تبأ يدا أبى لهب وتب) ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى من طرق عن الأعمش به (الحديث الثانى) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لما نزلت (وأنذر عشيرتك الأقربين) قام رسول الله ﷺ فقال « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب

لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم » انفرد بإخراجه مسلم (الحديث الثالث) قال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنا عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتاك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص فقال « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أنكم رحماسا بلبها يلا لها » ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به ، وقال الترمذي غريب من هذا الوجه ، ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسل ولم يذكر فيه أبا هريرة ، والموصول هو الصحيح ، وأخرجه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا محمد يعني بن إسحق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله ، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئا ، سلاني من مالي ما شئتما » تفرد به من هذا الوجه . وتفرد به أيضا عن معاوية عن زائدة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ، ورواه أيضا عن حسن ثنا ابن لهيعة عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا . وقال أبو يعلى حدثنا سويد ابن سعيد حدثنا ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « يا بني قصي يا بني هاشم يا بني عبد مناف أنا النذير والموت المغير . والساعة الموعد » . (الحديث الرابع) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد التيمي عن أبي عثمان عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قال لما نزلت (وأنذر عشيرتاك الأقربين) صدر رسول الله ﷺ روضة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي « يا بني عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه » ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان ابن طرخان التيمي عن أبي عثمان عبد الرحمن بن سهل النهدي عن قبيصة وزهير بن عمرو الهذلي به . (الحديث الخامس) قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن الأعمش عن الهذال عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتاك الأقربين) جمع النبي ﷺ من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم « من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي ؟ » فقال رجل لم يسمه شريك يا رسول الله أنت كنت بحري من يقوم بهذا ، قال ثم قال لا خير ثلاثا قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي أنا الطريق أخرى بأبسط من هذا السياق قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ماجد عن علي رضي الله عنه قال . جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بني عبد المطلب وهم رهط وكاهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدأ من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كاهو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعض فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أولم يشرب وقال « يا بني عبد المطلب إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأياكم يبايعني على أن يكون أخى وصاحبي » قال فلم يبق إليه أحد ، قال فقامت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال « اجلس » ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي « اجلس » حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي (طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر) قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يوسف بن بكير عن محمد بن إسحاق قال : حدثني من سمع عبد الله بن الحارث بن نوفل واستكتمني اسمه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ (وأنذر عشيرتاك الأقربين) واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) قال رسول الله ﷺ « عرفت أني إن بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فصمت فجاءني جبريل عليه السلام فقال يا محمد إناك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك » قال علي رضي

الله عنه فدعاني فقال يا علي « إن الله تعالى قد أمرني أنذر عشيرتي الأقربين فعرفت أنني إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت عن ذلك ثم جاءني جبريل فقال يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك : فاصنع لنا يا علي شاة طلى صاع من طعام وأعد لنا عس لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب » ففعلت فاجتمعوا إليه وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب السكافر الحبشي فقدمت إليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشققها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال « كلوا بسم الله » فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ « اسقهم يا علي » فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بדרه أبو لهب إلى السلام فقال : لهد ما سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ « يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني إلى ماسمعت قبل أن أكلهم القوم » ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ « اسقهم يا علي » فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعاً ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بדרه أبو لهب بالسلام فقال : لهد ما سحركم صاحبكم : فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان الغد : قال رسول الله ﷺ « يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني إلى ماسمعت قبل أن أكلهم القوم » ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وإيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثله ثم قال رسول الله ﷺ « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة » قال أحمد بن عبد الجبار بلغني أن ابن إسحق إنما سمعه من عبيد الغفار بن القاسم أبي مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث :

وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن عبيد الغفار بن القاسم أبي مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله « إني جئتكم بخير الدنيا والآخرة : وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيتكم يواظرن على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟ » قال فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت - وإني لأحدثهم سناً وأرمصهم عينا وأعظمهم بطناً وأخمشهم ساقاً - أنا يا بني الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال « إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا » ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أملك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبيد الغفار بن القاسم أبي مريم وهو متروك كذاب شيعي اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله ﷺ بطريق أخرى قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي أخبرنا الحسين بن عيسى بن ميسرة الحارثي حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث قال : قال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال لي رسول الله ﷺ « اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا » قال ففعلت ثم قال لي « ادع بني هاشم » قال فدعوتهم وإنهم يومئذ أربعون رجلاً أو أربعون رجلاً وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بإدامها ، قال فلما أتوا بالقصة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذروتها ثم قال « كلوا » فأكلوا حتى شبعوا وهي على هيئتها لم يزد ودوامها إلا اليسير قال ثم أتيتهم بالإناء فشربوا حتى رووا ، قال وفشل فضل ، فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم فبدروه السلام فقالوا ما رأينا كاليوم في السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال « اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام » فصنعت قال ودعاهم فلما أكلوا وشربوا قال فبدروه فقالوا مثل مقالهم الأولى فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام » فصنعت قال فجمعهم فلما أكلوا وشربوا بדרهم رسول الله

صلى الله عليه وسلم الكلام فقال « أياكم يقضى عني ديني ويكون خليفتي في أهلي ؟ » قال فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله قال وسكت أنا لسن العباس . ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت أنا بإرسول الله قال وإني يومئذ لأسوأهم هيئة وإني لأعشى العينين ضخم البطن خمش الساقين ، فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي رضي الله عنه ، ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه في أهله يعني إن قتل في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل فلما أنزل الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فعند ذلك أمن وكان أولاً يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيماناً وإيقاناً وتصديقاً لرسول الله ﷺ من علي رضي الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا والله أعلم دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش عموماً وخصوصاً حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى أي إنمنا أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي من طريق عمرو بن سمرة عن محمد بن سودة عن عبد الواحد الدمشقي قال رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون فقبل له مبال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أزهّد الناس في الدنيا الأنبياء وأشدّهم عليهم الأقربون » وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين - إلى قوله - فقل إني بريء مما تعملون) ، وقوله تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم) أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلك ، وقوله تعالى (الذي يراك حين تقوم) أي هو معن بك كما قال تعالى (فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) قال ابن عباس (الذي يراك حين تقوم) يعني إلى الصلاة ، وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده ، وقال الحسن (الذي يراك حين تقوم) إذا صليت وحدك ، وقال الضحاك (الذي يراك حين تقوم) أي من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة (الذي يراك) قائماً وجالساً وعلى حالائك وقوله تعالى (وتقبلك في الساجدين) قال قتادة (الذي يراك حين تقوم وتقبلك في الساجدين) قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع . وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري وقال مجاهد كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه . ويشهد لهذا ما صح في الحديث « سووا صفوفكم فإني أراكم من وراء ظهري » وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية يعني تقبله من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً وقوله تعالى (إنه هو السميع العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى (وما تكون في شأن وما تلومنه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) الآية .

﴿ هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ * تَزَلَّ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ * يَأْتُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ماجاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رثي من الجن فنهز الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ونبه أن ماجاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين فانهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم

وإنما ينزلون على من يشاء كلهم ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال الله تعالى (هل أنبئكم) أى أخبركم (على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم) أى كذوب فى قوله وهو الأفاك (أثيم) وهو الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة (يلقون السمع) أى يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى من حديث الزهري أخبرنى يحيى بن عروة بن الزبير أنه سمع عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة رضى الله عنها : سألت ناس النبى ﷺ عن الكهان فقال « إنهم ليسوا بشيء » قالوا يارسول الله فانهم يحدثون بالشئ يكون حقاً ، فقال النبى ﷺ « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » . وروى البخارى أيضاً حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول : إن النبى ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعهم مسترقوا السمع ، ومسترقوا السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ثم يلقها الآخر إلى من تحته حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن ، وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » تفرد به البخارى . وروى مسلم من حديث الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريباً من هذا وسيأتى عند قوله تعالى فى سبأ (حتى إذا فزع عن قلوبهم) الآية . وقال البخارى وقال الليث حدثنى خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث فى العنان - والعنان الغمام - بالأمر فى الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة » ورواه البخارى فى موضع آخر من كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبى زيد عن الليث عن عبد الله بن أبى جعفر عن أبى الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة بنحوه وقوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن ، وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرها ، وقال عكرمة كان الشعراءان يتهاجيان فينتصر لهذا فنام من الناس ولهذا فنام من الناس فأنزل الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون) وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهاد عن يحنس مولى مصعب بن الزبير عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبى صلى الله عليه وسلم « خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - ، لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلى شعراً » وقوله تعالى (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقال الضحاك عن ابن عباس فى كل فن من الكلام ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقال الحسن البصرى قد والله رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها مرة فى شتمة فلان ومرة فى مدح فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً يبطل ويذم قوماً يبطل . وقوله تعالى (وأنهم يقولون مالا يفعلون) قال العوفى عن ابن عباس كان رجلاً على عهد رسول الله أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال الله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون مالا يفعلون) . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنه هو الواقع فى نفس الأمر . فإن الشعراء يتبعجون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيكتثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا لأنهم يقولون مالا يفعلون ؟ على قولين . وقد

ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد في الطبقات والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن فضالة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسنة أن خليلها * بميسان يسقى في زجاج وحنتم * إذا شئت غنتي دهاقين قرية ورقاصة تحنو على كل مبسم * فان كنت ندماني فبالأ كبراسقني * ولا تسقني بالأصغر المتثل

لعل أمير المؤمنين يسوؤه * تنادى بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال أي والله إنه ليسوءني ذلك ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته ، وكتب اليه عمر (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) (أما بعد) فقد بلغني قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادى بالجوسق المتهدم

وايم الله إنه ليسوؤني وقد عزلتك . فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر فقال والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً . وقد قلت ما قلت فلم يذكر أنه حده على الشراب وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون مالا يفعلون ولكنه ذمه عمر رضي الله عنه ولامه على ذلك وعزله به ، ولهذا جاء في الحديث « لأن يمتلي جوف أحدكم قبحاً يريه خير له من أن يمتلي شعراً » والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا شاعر لأن حاله مناف لحالم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقال تعالى (إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً مانتدكرون * تنزيل من رب العالمين) وهكذا قال ههنا (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) إلى أن قال (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) إلى أن قال (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفك أثيم * يلقون السمع وأكثهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ؟ وأنهم يقولون مالا يفعلون) وقوله (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله مولى تميم الداري قال لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال « أتم » (وذكروا الله كثيراً) قال « أتم » (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال « أتم » رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحق وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة عن الوليد بن أبي كثير عن يزيد بن عبد الله عن أبي الحسن مولى بني نوفل أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية (والشعراء يتبعهم الغاؤون) يبكيان فقال رسول الله ﷺ وهو يقرأها عليهما (والشعراء يتبعهم الغاؤون) حتى بلغ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال « أتم » وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) إلى قوله (وأنهم يقولون مالا يفعلون) قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله قد علم الله أني منهم فأنزل الله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الآية وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر ، وام يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها والله أعلم ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بنم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقاع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ . فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامندح الإسلام

وأهله في مقابلة ما كان يذمه ، كما قال عبد الله بن الزبيري حين أسلم .

يا رسول اللّٰه إن لسانى * راتق ما فتقت إذ أنا بور

إذا جرى الشيطان في سنن النعى * و من مال ميله مشبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجوّه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه ، وهكذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال يا رسول الله ثلاث أعطينهن قال « نعم » قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك قال « نعم » قال وتؤمرتنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال « نعم » وذكر الثالثة ولهذا قال تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً) قيل معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم وقيل في شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق وقوله تعالى (واتصروا من بعد ما ظلموا) قال ابن عباس يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم - أوقال - هاجهم وجبريل معك » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل فقال رسول الله ﷺ « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل » وقوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) كقوله تعالى (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) الآية ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يا كم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة » قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) يعنى من الشعراء وغيرهم ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا إياس بن أبى نيمة قال حضرت الحسن ومر عليه بخنازة نصرانى فقال (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان بن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول قد اندق قضيب زوره (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . وقال ابن وهب أخبرني ابن سريج الاسكندراني عن بعض المشيخة أنهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتون عليها أو يصطلون إذا بركبنا قد أقبلوا فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم - قال - وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) قال فضالة بن عبيد هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل المراد بهم أهل مكة وقيل الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم كما قال ابن أبى حاتم . ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطى حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن الحبر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : كتب أبى في وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين.

﴿ تفسير سورة النمل وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أََعْمَلُهُمْ فَهُمْ

يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور ، وقوله تعالى (تلك آيات) أى هذه آيات (القرآن وكتاب مبين) أى بين واضح (هدى وبشرى للمؤمنين) أى إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرها والجنة والنار كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر) الآية وقال تعالى (لتبشرا به المتقين وتنذر به قوما لدا) ولهذا قال تعالى ههنا (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى يكذبون بها ويستبعدون وقوعها (زينا لهم أعمالهم فهم يعمَهُون) أى حسنا لهم ما هم فيه ومددنا لهم فى غيرهم فهم يتهمون فى ضلالهم وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة كما قال تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية (أولئك الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا والآخرة (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أى ليس يخسر أنفسهم وأموالهم وسواهم من أهل المحشر وقوله تعالى (وإنك لنتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى (وإنك) يا محمد (لتأخذ) القرآن من لدن حكيم عليم (أى من عند حكيم عليم أى حكيم فى أمره ونهيه عليم بالأموال جليلها وحقيقها ، فخبيره هو الصدق المحض وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا)

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بَخِيرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبِّحَنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * يَمْوَسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَتَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنَّرُ كَأَنَّهُآ جَانٌّ وَلِي مُدِيرٌ وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام كيف اصطفاه الله وكلمه ونجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة وابتعثه إلى فرعون وملئه فيجحدوا بها وكهروا واستكبروا عن اتباعه والالتحاق له . فقال تعالى (إذ قال موسى لأهله) أى اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك فى ليل وظلام فآتس من جانب الطور ناراً أى رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال (لأهله) أى آنست ناراً سآتىكم منها بخير) أى عن الطريق (أو آتاكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون) أى استدفئون به وكان كما قال . فانه رجع منها بخير عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ولهذا قال تعالى (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) أى فلما أتتها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها والنار تضطرم فى شجرة خضراء لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء قال ابن عباس وغيره لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يوهج ، وفى رواية عن ابن عباس نور رب العالمين فوقف موسى متعجباً مما رأى (فنودى أن بورك من فى النار)

قال ابن عباس تقدس (ومن حولها) أى من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود هو الطيالسي حدثنا شعبة والمسعودى عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » زاد المسعودى « وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره » ثم قرأ أبو عبيدة (أن بورك من في النار ومن حولها) وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة ، وقوله تعالى (وسبحان الله رب العالمين) أى الذى يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته وهو العلى العظيم المبين لجميع المخافات ولا يكتنفه الأرض والسموات بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات

وقوله تعالى (يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) أعلمه أن الذى يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذى عز كل شيء وقهره وغلبه الحكيم فى أقواله وأفعاله ، ثم أمره أن يلقى عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ولهذا قال تعالى (فلما رآها تهتز كأنها جان) والجان ضرب من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً : وفى الحديث نهى عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك (ولى مدبراً ولم يعقب) أى لم يلتفت من شدة فرقه (يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى الرسولون) أى لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبياً وجيهاً . وقوله تعالى (إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم) هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سوء ثم أفلح عنه ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كما قال تعالى (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وقال تعالى (ومن يعمل سوء أو يظلم نفسه) الآية والآيات فى هذا كثيرة جداً . وقوله تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج يضاء من غير سوء) هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده فى جيب درعه فإذا أدخلها وأخرجها خرجت يضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تلالاً كالبرق الخاطف : وقوله تعالى (فى تسع آيات) أى هاتان اثنتان من تسع آيات تؤيدك بهن وأجمعاهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه (إنهم كانوا قوماً فاسقين) وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) كما تقدم تقرير ذلك هنالك ، وقوله تعالى (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أى بينة واضحة ظاهرة (قالوا هذا سحر مبين) وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين (وجحدوا بها) أى فى ظاهر أمرهم (واستيقنوا أنفسهم) أى علوا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها (ظلما وعلواً) أى ظالماً من أنفسهم سحجية ملعونة وعلواً أى استكباراً عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم فى اهلاك الله إياهم وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة وفجوى الخطاب يقول احذروا أيها المكذبون ل محمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى فان محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقتنة بوجوده فى نفسه وشمائله وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ الواثق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمٰنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ * وَخَشِرَ سُلَيْمٰنَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا

الْعَمَلُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَخْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة والملك والتحسين التام في الدنيا والنبوة والرسالة في الدين ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين (قال ابن أبي حاتم ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل . قال الله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) وقال الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان عليهما السلام وقوله تعالى (وورث سليمان داود) أى فى الملك والنبوة وليس المراد وراثته المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود فانه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة فان الأنبياء لا تورث أء . والله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » وقال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) أى أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتحسين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهايم ويعرف ما تقول وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهايم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والنوال . ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يتخاطب به الطيور فى الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى (علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) أى مما يحتاج إليه الملك (إن هذا هو الفضل المبين) أى الظاهر البين لله علينا ، قال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع - قال - فخرج ذات يوم وأغالت الأبواب فأقبلت امرأة تطالع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت ؟ فقال الذى لا يهاب الملوك ولا يمتنع من الحجاب فقال داود أنت إذا والله ملك الموت مرحبا بأمر الله فتزمل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان عليه السلام للطير أظلى داود فظلت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها سليمان اقضى جناحا جناحا » قال أبو هريرة يا رسول الله كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يسه يومئذ المضحية . قال أبو الفرج ابن الجوزى : المضحية هى النور الحمراء . وقوله تعالى (وحشر سليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) أى وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الإنس وكانوا هم الذين يلونه والجن وهم بعدهم فى النزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه ، فان كان حر أظلمته منه بأجنحتها . وقوله (فهم يوزعون) أى يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزله التى هى مرتبة له ، قال مجاهد جعل على كل صنف وزعة يردون أولها على آخرها لئلا يتقدموا فى السير كما يفعل الملوك اليوم . وقوله

(حتى إذا أتوا على وادي النمل) أى حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) أورد ابن عساكر من طريق إسحاق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن أن اسم هذه النملة حرس وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب . أى خافت على النمل أن تحطمها الحبول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها (فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه) أى ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعلىمنى منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالاسلام لك ، والإيمان بك (وأن أعمل صالحا ترضاه) أى عملا تحبه وترضاه (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) أى إذا توفيتنى فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك ، ومن قال من المفسرين إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلاحاصل لها . وعن نوف البكالى أنه قال كان نمل سليمان أمثال الذئب ، هكذا رأيته مضبوطا بالياء المشاة من تحت وإنما هو بالياء الموحدة وذلك تصحيف والله أعلم . والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك وهذا أمر عظيم جداً . وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا مسعر عن زيد العمى عن أبي الصديق الناجي قال خرج سامان بن داود عليهما السلام يستسقى فاذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهى تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ولاغنى بنا عن سقياك وإلا تسقنا تمسكنا . فقال سليمان : ارجعوا فتدسقتم بدعوة غيركم . وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قرصت نبيا من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفى أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ؟ »

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَنِ مَّيِّينٍ ﴾

قال مجاهد وسعيد بن جبیر وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض فاذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبت الماء من قراره ، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره (فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع ابن الأزرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له قف يا ابن عباس غلبت اليوم ، قال ولم ؟ قال إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي فقال ابن عباس ، لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبتة ثم قال له ويحك إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس وكان أعور قد بلغ الثمانين فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه فألح عليه شهوراً فأخبره أن رجلين من أهل خراسان نزلا عنده جماعة في قرية برزة وسألاه عن واديهما فأريتهما إياه فأخرجاه مجامر وأوقدا فيها بخوراً كثيراً حتى عجمع الوادي بالدخان ، فأخذوا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار ، فاستبشرا

بها عظيماً وقال الحمد لله الذي لم يخيب سفرنا من سنة وكسرا الحمار وأخذنا الحية فأدخلها في عنقها ميلاً فاحتجلاً به ، فسألتهما أن يكحلاني فأبيا فألحجت عليهما وقلت لابد من ذلك وتوعدتهما بالدولة فكحلاني الواحدة اليمنى فحين وقع في عنق نظرت إلى الأرض تحتي مثل المرأة أنظر ماتحتها كما ترى المرأة ثم قال لي : سر معنا قليلاً فسرت معهما وهما يحدثان حتى إذا بعدت عن القرية أخذاني فكتفاني وأدخل أحدهما يده في عنق فقفاهاورمي بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفاً حتى مر بي نفر ففك وثاقى ، فهذا ما كان من خبر عيني وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن عمرو الفسائي حدثنا عباد بن ميسرة النخعي عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان عليه السلام . وقال محمد بن إسحق : كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه فقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد (فقال مالي لأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله (لأعذبه عذاباً شديداً) قال الأعمش عن النهال بن عمرو عن سعيد بن عباس يعني تنف ريشه ، وقال عبد الله بن شداد تنف ريشه وتشميسه وكذا قال غير واحد من السلف إنه تنف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والخل . وقوله (أو لأذبحنه) يعني قتله (أو ليأتيني بسلطان مبین) بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ، فقال هل استثنى ؟ قالوا نعم قال (لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبین) قال نجوت إذا . قال مجاهد إنما دفع الله عنه يره بأمه

﴿ فَكَانَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِيطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنْتًا يَاقِينَ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَارَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى (فكث) الهدهد (غير بعيد) أى غاب زماناً يسيراً ثم جاء فقال سليمان (أحطت بما لم تحط به) أى اطاعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك (وجئتكم من سبأ بنتاً ياقين) أى بخبر صدق حق يقين ، وسبأهم حمير وهم ملوك اليمن ، ثم قال (إني وجدت امرأة تملكهم) قال الحسن البصري وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال قتادة : كانت أمها جنية وكان مؤخر قدمها مثل حافر الدابة من بيت مملكة ، وقال زهير بن محمد : هى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان وأمها فارعة الجنية ؛ وقال ابن جرير بلقيس بنت ذى شرج وأمها بلتعة وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسن حدثنا مسدد حدثنا سفيان بن عيينة عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان مع صاحبة سليمان مائة ألف قيل تحت كل ألف مائة ألف مقاتل ، وقال الأعمش عن مجاهد : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل ألف مائة ألف مقاتل ، وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى (إني وجدت امرأة تملكهم) كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل وكانت بارض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء ، وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن والله أعلم وقوله (وأوتيت من كل شيء) أى من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن (ولها عرش عظيم) يعنى سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلى . قال زهير بن محمد كان من ذهب وصفحاته مرهولة بالياقوت والزبرجد ؛ طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً ؛ وقال محمد بن إسحق : كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد والؤلؤ وكان إنما يخدمها النساء ولها ستمائة امرأة تلى الخدمة ، قال علماء التاريخ : وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء

محكم وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه ، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً ولهذا قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) أى عن طريق الحق (فهم لا يهتدون) وقوله (ألا يسجدوا لله) معناه (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله) أى لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ، كما قال تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقرأ بعض القراء (ألا يا اسجدوا لله) جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء ، وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله ، وقوله (الذى يخرج الحب فى السموات والأرض) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعلم كل خبيثة فى السماء والأرض ، وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقناة وغير واحد . وقال سعيد بن المسيب : الحب الماء وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم خبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق . المطر من السماء والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام المهدد الذى جعل الله فيه من الخاصة ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودخلها وقوله (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال ، وهذا كقوله تعالى (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقوله (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو المدعو الله وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم : الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه . ولما كان المهدد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والمهدد والصرد ، وإسناده صحيح .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيَّتْ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للمهدد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) أى أصدقت فى إخبارك هذا (أم كنت من الكاذبين) فى مقاتلتك لتتخلص من الوعيد الذى أوعدتك ؟ (اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها . وأعطاه ذلك الهدد فجمله . قيل فى جناحه كما هى عادة الطير ، وقيل بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلاء التى كانت تختلئ فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أداورياسة فتجبرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلو على وأتوني مسلمين) فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم (يا أيها الملأ إني أتيت إلى كتاب كريم) تعنى بكرمه ما رآته من عجب أمره كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أداورياسة وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلو على وأتوني مسلمين) فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فانه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . قال العلماء لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام . وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً فى تفسيره حيث قال : حدثنا أبى حدثنا هارون بن الفضل أبو يعلى الحياط حدثنا أبو يوسف عن سلمة بن صالح عن عبد الكريم أبى أمية عن

ابن بريدة عن أبيه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ فقال « إني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود » قلت يا نبي الله أي آية ؟ قال « سأعلمكمها قبل أن أخرج من المسجد » قال فاتمى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه فقالت نسي ثم التفت إلى وقال « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » هذا حديث غريب وإسناده ضعيف . وقال ميمون بن مهران كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية . فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) . وقوله (أن لا تعلموا على) قال قتادة يقول لا تجبروا على (وأتوني مسلمين) وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم لا تمتنعوا ولا تكبروا على وأتوني مسلمين . قال ابن عباس موحدن ، وقال غيره مخلصين ، وقال سفيان بن عيينة : طائعين .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسَ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت (يا أيها الملا أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون) أي حتى تحضرون وتشيرون (قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد) أي منوا إليها بدهم وعددهم وقوتهم ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : (والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) أي نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس إن شئت أن نقصديه ونحاربه فما لنا عاقبة عنه . وبعد هذا فالأمر إليك مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه . قال الحسن البصري رحمه الله : فوضوا أمرهم إلى علة تضطرب نديها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان . وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطيور . وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدد أمرًا عجيباً بديعاً فقالت لهم إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص إلى ويسكن الملاك والدمار دون غيرنا . ولهذا قالت (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) . قال ابن عباس أي إذا دخلوا بلدًا عنوة أفسدوه أي خربوه (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر . قال ابن عباس قالت بلقيس (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) قال الرب عز وجل (وكذلك يفعلون) ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة فقالت (وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) أي سأبعث إليهم بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلهذا قبل ذلك منا ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً نحملة إليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا : قال قتادة رحمه الله ما كان أعقابها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلى . وغير ذلك وقال بعضهم أرسلت بلقيس من ذهب ، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب : قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرها أرسلت جوارى في زى الغلمان وغلمان في زى الجوارى فقالت إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي قالوا فأمرهم سليمان فتوضوا فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء وجعلت الغلام يفتري فيزعم بذلك . وقيل بل جعلت الجارية

تغسل باطن يدها قبل ظاهرها والغلام بالعكس ، وقيل بل جعلت الجوارى يغسلن من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى كفوفهم ولا منافاة بين ذلك كله والله أعلم . وذكر بعضهم أنها أرسلت إليه بقدح ليملاه ماء رواء لامن السماء ولا من الأرض : فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك ، وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أن كان ذلك أم لا ، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات ، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالسكينة ولا اعتنى به بل أعرض عنه ، وقال منكرأ عليهم (أتمدون بمال ؟) أى أتصنعوننى بمال لأترككم على شرككم ومملككم ؟ (فلما آتاني الله خير مما آتاكم) أى الذى أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أتم فيه (بل أتم بهديتكم تفرحون) أى أتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه : أمر سليمان الشياطين فوهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسالها ذلك قالوا ما يصنع هذا بهديتنا ، وفي هذا جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسول والقصاد (ارجع إليهم) أى بهديتهم (فلما أتيتهم بجنود لا قبل لهم بها) أى لاطاقة لهم بقتالهم (ولخرجهم منها أذلة) أى ولخرجهم من بلدتهم أذلة (وهم صاغرون) أى مهانون مدحورون . فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هى وقومها وأقبات تسيراليه فى جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعتها فى الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم اليه فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيَّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَ شْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة وما نضع بمكابرتة شيئا ، وبعثت اليه إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا اليه من دينك ، ثم أمرت بسرير مملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والبرجد والألؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير مملكى فلا يخلص اليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيتك ثم شخصت إلى سليمان فى اثني عشر ألف قيل من ملوك الجن تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهىها كل يوم وليلة حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال (يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) وقال قتادة لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان من ذهب وقوامه لؤلؤ وجوهر . وكان مستترا بالديباج والحريز ، وكانت عليه تسعة مغاليق فذكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم فقال (يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد (قبل أن يأتوني مسلمين) فتحرم على أموالهم بإسلامهم (قال عفریت من الجن) قال مجاهد أى وارد من الجن ، قال شعيب الجبائي وكان اسمه كوزن ، وكذا قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان وكذا قال أيضا وهب بن منبه قال أبو صالح وكان كأنه جبل (أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك) قال ابن عباس رضى الله عنه يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد مقعدك ، وقال السدي وغيره كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس (وإني عليه لقوى أمين) قال ابن عباس أى قوى على حمله أمين على

ما فيه من الجوهر ، فقال سليمان عليه السلام أريد أعجل من ذلك ، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد باحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعد ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال والحفظة . فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) قال ابن عباس وهو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخيا . وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم . وقال قتادة كان مؤمنا من الإنس واسمه آصف ، وكذا قال أبو صالح والضحاك وقاتة إنه كان من الإنس زاد قتادة من بني إسرائيل . وقال مجاهد كان اسمه أسطوم ، وقال قتادة في رواية عنه كان اسمه بليخا ، وقال زهير بن محمد هو رجل من الإنس يقال له ذوالنور . وزعم عبدالله بن لهيعة أنه الحضر وهو غريب جدا . وقوله (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا بكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى . قال مجاهد قال إذا الجلال والاكرام . وقال الزهري قال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت انتنى بعرشها . قال فمئل بين يديه . قال مجاهد وسعيد ابن جبير ومحمد بن إسحق وزهير بن محمد وغيرهم : لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس وكان في اليمن وسليمان عليه السلام بيت المقدس غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر فلما عين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده (قال هذا من فضل ربي) أي هذا من نعم الله على (ليبلوني) أي ليختبرني (أ أشكر أم أ كفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) كقوله (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وكقوله (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وقوله (ومن كفر فإن ربي غني كريم) أي هو غني عن العباد وعبادتهم كريم أي كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد فان عظمتها ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى (إن تكفروا أأنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد) وفي صحيح مسلم « يقول الله تعالى : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي إني أكفكم أخطاياكم وأغفر لكم ما كنتم تعملون »

(قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْرَيْنَا أَلْعَلَّ مِنْ قِبَالِهَآ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

لما جرى سليمان عليه السلام بعرض بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها فقال (نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون) قال ابن عباس نزع منه فصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر وما كان أصفر جعل أحمر . وما كان أخضر جعل أحمر غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة زادوا فيه ونقصوا وقال قتادة جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك) أي عرض عليها عرشها وقد غير ونسكر

وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأته من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت (كأنه هو) أى يشبهه ويقاربه . وهذا غاية في الذكاء والحزم . وقوله (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) قال مجاهد يقوله سليمان ، وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما الله أى قال سليمان (أوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) وهى كانت قد صدها أى منعها من عبادة الله وحده (ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين) وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد وحسن وقاله ابن جرير أيضا ، ثم قال ابن جرير ويحتمل أن يكون في قوله (وصدها) ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها (ما كانت تعبد من دون الله) أى صدها عن عبادة غير الله (إنها كانت من قوم كافرين) ﴿ قلت ﴾ ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتى . وقوله (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها) وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قسراً عظيماً من قوارير أى من زجاج وأجرى تحته الماء فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه . واختلفوا في السبب الذى دعا سليمان عليه السلام إلى اتخاذه ف قيل انه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه ، ذكر له جمالها وحسنها ولكن في ساقها هلب عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة . فساءه ذلك فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا ؟ هكذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره . فلما دخلت وكشفت عن ساقها رأى أحسن الناس ساقاً وأحسنهم قدماً ولكن رأى على رجلها شعراً لأنها ملكة ليس لها زوج فأحب أن يذهب ذلك عنها ف قيل له موسى فقالت لا أستطيع ذلك . وكره سليمان ذلك وقال للجن اصنعوا شيئاً غير موسى يذهب به هذا الشعر فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة قاله ابن عباس ومجاهد وتكرمة ومحمد بن كعب القرظي والسدى وابن جريج وغيرهم . وقال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان ثم قال لها ادخلي الصرح ليرىها ملكاً هو أعز من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها لا تشك أنه ماء تخوضه ف قيل لها إنه صرح بمرد من قوارير ، فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتها في عبادة الشمس من دون الله ، وقال الحسن البصري : لما رأت العليجة الصرخ عرفت والله أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها ، وقال محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال : أمر سليمان بالصرح وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضاً ثم أرسل الماء تحته ثم وضع له فيه سريرته فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والإنس ثم قال لها ادخلي الصرح ليرىها ملكاً هو أعز من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها (فلما رأت حبيبته لجة وكشفت عن ساقها) لا تشك أنه ماء تخوضه ف قيل لها (إنه صرح بمرد من قوارير) . فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله عز وجل وحده وعاتها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجداً إعظاماً لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال ويحك ماذا قلت ؟ قالت أنسيت ما قلت ؟ فقالت (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) فأسلمت وحسن إسلامها . وقدروى الإمام أبو بكر بن أبى شيبة في هذا أثراً غريباً عن ابن عباس فقال حدثنا الحسين بن على عن زائدة حدثني عطاء بن السائب حدثنا مجاهد ونحن في الأزرد قال حدثنا ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام يجلس على سريرته ثم توضع كراسى حوله فيجلس عليها الإنس ثم يجلس الجن ثم الشياطين ثم تأتى الريح فترفعهم ثم تظلمهم الطير ثم يغدون قدر ما يشتهي الراكب أن ينزل شهراً ورواحها شهراً ، قال فبينما هو ذات يوم في مسيره له إذ تفقد الطير ففقد الهدد فقال (مالى لا أرى الهدد أم كان من الغائبين * لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتيني بسلطان مبين) قال وكان عذابه إياه أن ينتفه ثم يلقيه في الأرض فلا يمتنع من نعمة ولا من شيء من هوام الأرض قال عطاء وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد (فمكث غير بعيد - فقرأ حتى انتهى إلى قوله - سنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين * اذهب بكتابتى هذا) وكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى بلقيس (أن لا تعلموا

على واثتوني مسلمين) فلما ألقى الهدد الكتاب إليها ألقى في روعها انه كتاب كريم وانه من سليمان وأن لاتعلوا على واثتوني مسلمين قالوا نحن أولوا قوة قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، فلما جاءت الهدية سليمان قال أتمدوني بما أارجع إليهم فلما نظر إلى الغبار أخبرنا ابن عباس قال وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بيننا وبين الحيرة ، قال عطاء ومجاهد حينئذ في الأزد . قال سليمان أيكم يأتيني بعرشها ؟ قال وبين عرشها وبين سليمان حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) قال وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الأمراء ثم يقوم . فقال (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) قال سليمان أريد أعجل من ذلك ، فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك قال فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه رد سليمان بصره فنبع عرشها من تحت قدم سليمان من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله ثم يصعد إلى السرير ، قال فلما رأى سليمان عرشها قال (هذان من فضل ربي) الآية (قال نكروا لها عرشها) فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو . قال فسأله حين جاءته عن أمرين قالت لسليمان أريد ماء ليس من أرض ولا سماء . وكان سليمان إذا سئل عن شيء سأل الإنس ثم الجن ثم الشياطين قال : فقالت الشياطين هذاهن أجرا الحيل ثم خذ عرقها ثم املا منه الآية . قال فأمر بالحيل فأجريت ثم أخذ عرقها فملأ منه الآية ، قال وسألت عن لون الله عز وجل . قال فوثب سليمان عن سريره فخر ساجداً فقال يارب لقد سألتني عن أمر إنه ليتعظم في قلبي أن أذكركه لك ، فقال ارجع فقد كفيتكهم قال فرجع إلى سريره قال ما سألت عنه ؟ قالت ما سألتك إلا عن الماء فقال الجنوده ما سألت عنه ؟ فقالوا ما سألتك إلا عن الماء ، قال ونسوه كلهم . قال وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يتخذها لنفسه فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد لم تنفك من عبوديته ، قال فجعلوا صرحاً ممرداً من قوارير فيه السمك قال فقيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها فاذا هي شعراء . فقال سليمان هذا قبيح فما يذهب ؟ قالوا يذهب موسى فقال أثر موسى قبيح قال فجعلت الشياطين النورة . قال فهو أول من جعل له النورة ، ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة ما أحسنه من حديث (قلت) بل هو منكر غريب جداً ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم . والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب ساعهما الله تعالى فيما تعلقه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان وما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ والله الحمد والمنة . أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع ، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله أنه قال لوزيره هامان (ابن لي صرحاً لعلی أباع الأسباب) الآية . والصرح قصر في اليمن على البناء ، والمرد البني بناء محكما أملس (من قوارير) أي زجاج ، وتمريد البناء تمليسه ، وما رد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصر أعظماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليرى عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره انتقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل وقالت (رب إني ظلمت نفسي) أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أي متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لا شريك له الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَفْجِلُونَ
بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْخَيْرَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ
اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن نمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له (فإذا هم فريقان يختصمون) قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى (قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) أى لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال (لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيننا بك وبمن معك) أى ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقايتهم كان لا يصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه قال مجاهد تشاءموا بهم وهذا كما قال الله تعالى إخبارا عن قوم فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) الآية وقال تعالى (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك * قل كل من عند الله) أى بقضائه وقدره ، وقال تعالى مخبرا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون (قالوا إنا تطيرنا بكم لننظروا لنعم الله علينا ما ننتهوا لرحمتكم ولنجنتكم ولمنعكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم) الآية وقال هؤلاء (اطيننا بك وبمن معك قال طائركم عند الله) أى الله يجازيكم على ذلك (بل أنتم قوم تفتنون) قال قتادة تبتلون بالطاعة والمعصية. والظاهر أن المراد بقوله (تفتنون) أى تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَنَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتَوَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿

يخبر تعالى عن طغاة نمود ورءوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة وهما بقتل صالح أيضا بأن يبيتوه في أهله ليلا فيقتلوه غيلة ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى (وكان في المدينة) أى مدينة نمود (تسعة رهط) أى تسعة نفر (يفسدون في الأرض ولا يصلحون) وإنما غلب هؤلاء على أمر نمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم فحبهم الله ولعنهم وقد فعل ذلك وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس : كان أسماء هؤلاء التسعة دعى ودعى وهريم وداب وصواب ورياب ومسطع وقدار بن سالف عاقر الناقة أى الذى باشر ذلك يده ، قال الله تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) وقال تعالى (إذ أنبعث أشقاها) وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر بن ربيعة الصنعاني سمعت عطاء - هو ابن أبي رباح - يقول (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) قال كانوا يقرضون الدراهم يعنى أنهم كانوا يأخذون منها وكانهم كانوا يتعاملون بها عددا كما كان العرب يتعاملون . وقال الإمام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال قطع الذهب والورق من الفساد في الأرض ، وفي الحديث الذى رواه أبو داود وغيره أن رسول الله ﷺ نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الافساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك . وقوله تعالى (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين ، وقال قتادة توائقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه ، وذكر لنا أنهم بينا هم معانق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم ، قال

العوفى عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا: حين عقروها لبيتين صالحا وأهله فقتلهم ثم تقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئا وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين. وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة لهم فقتل صالحا فان كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا لبيتوه في أهله فدمرهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة فقالوا الصالح أنت قتلهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلى فيه فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا فقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم فبعث الله عليهم صخرة من المصطب حيالهم فخشوا أن تشدهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار فلا يدرى قومهم أين هم ، ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ثم قرأ (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية) أى فارغة ليس فيها أحد (بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون)

﴿ وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أُنذر قومه نعمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدهم بنى آدم وهى إتيان الذكور دون الإناث وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فقال (أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) أى يرى بعضكم بعضا وتأتون فى نادىكم المنكر (أنتم لَتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون) أى لا تعرفون شيئا لا طبعاً ولا شرعاً كما قال فى الآية الأخرى (أتأتون الذكور من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ) أى يخرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقراركم على صنعكم فأخرجوهم من بين أظهركم فانهم لا يصلحون لمجاورتكم فى بلادكم فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى (فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) أى من الهالكين مع قومها لأنها كانت ردة آلهم على دينهم وعلى طريقته فى رضاها بأفعالهم القبيحة فكانت تدل قومها على ضياع لوط ليأتوا إليهم لا أنها كانت تفعل الفواحش تسكرمة لى الله ﷻ لا كرامة لها وقوله تعالى (وأمطرنا عليهم مطراً) أى حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين يبيد ولهذا قال (فسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) أى الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الانذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهووا بإخراجه من بينهم

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ * أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول (الحمد لله) أى على نعمه على عباده من النعم التي لاتعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفي ، هم الأنبياء قال وهو كقوله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) : وقال الثوري والسندي هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين وروى نحوه عن ابن عباس أيضاً ولا منافاة فانهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفي فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى . والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الحزى والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وقد قال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عمار بن عمار بن صبيح حدثنا طلق بن غنم حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس (وسلام على عباده الذين اصطفى) قال هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لبيته رضى الله عنهم وقوله تعالى (آله خير أم ما يشركون) استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى . ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى (أمن خلق السموات) أى خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها . وما جعل فيها من السكاك البيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة . وخلق الأرض في استقالتها وكشافتها وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافي والقفار ، والزرع والأشجار ، والثمار والبحار ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) أى جعله رزقاً للعباد (فأنبئت به حدائق) أى بساكن (ذات بهجة) أى بمنظر حسن وشكل بهي (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى لم تكونوا تقدر على إنبات أشجارها . وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أى هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة ، من هو المنفرد بالخلق والرزق ولهذا قال تعالى (أإله مع الله ؟) أى إله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول معنى قوله (أإله مع الله) فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المنفرد به فيقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى (أمن يخلق كمن لا يخلق) الآية . وقوله تعالى ههنا (أمن خلق السموات والأرض) (أمن) في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شئ منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك . وقد قال الله تعالى (آله خير أم ما يشركون) ثم قال في الآية الأخرى (بل هم قوم يعدلون) أى أى يجعلون الله عدلاً ونظيراً . وهكذا قال تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أى أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) (أمن شرع الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقايسة قلوبهم من ذكر الله أو لثك في ضلال مبين) وقال تعالى (أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم يعلم الغيب جليله وحقيقه كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله ؟ ولهذا قال (وجعلوا الله شركاء قلوبهم) وهكذا هذه الآيات الكريمة كلها .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْمَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (أمن جعل الأرض قراراً) أى قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا ترتزل ولا تتحرك كما قال تعالى فى الآية الأخرى (الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً) (وجعل خلالها أنهاراً) أى جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة شقها فى خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون اليه (وجعل لها رواسي) أى جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بهم (وجعل بين البحرين حاجزاً) أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً أى مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا فان الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه فلئن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقى الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً) ولهذا قال تعالى (أأله مع الله؟) أى فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح (بل أكرمهم لا يعلمون) أى فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾

ينبذ تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل كما قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال تعالى (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) وهكذا قال ههنا (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) أى من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر الضرورين سواه . قال الإمام أحمد أنبأنا عفان أنبأنا وهيب أنبأنا خالد الخذاء عن أبى تيمعة الهجيمى عن رجل من بلهجم قال: قلت يا رسول الله إلام تدعو؟ قال « أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » قال: قلت أوصنى ، قال « لاتسبن أحدا ولا ترهدين فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، واتزر إلى نصف الساق فان أبيت فالى الكعبين . وإياك وإسبال الأزار فان إسبال الأزار من الخيلة وإن الله لا يحب الخيلة » وقد رواه الإمام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابى فقال : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمى عن أبىه عن أبى تيمعة الهجيمى عن جابر بن سليم الهجيمى قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محتب بشملة وقد وقع هديه على قدميه فقلت: أياكم محمد رسول الله؟ فأومأ بيده إلى نفسه ، فقلت يا رسول الله أنا من أهل البادية وفى جفاؤهم فأوصنى قال « لاتحقرن من المعروف شيئا ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فانه يكون لك أجره وعليه وزره ، وإياك وإسبال الأزار فان إسبال الأزار من الخيلة وإن الله لا يحب الخيلة ، ولاتسبن أحدا » قال فما سببت بعده أحدا ولا شاة ولا بعيرا . وقدروى أبو داود والنسائى لهذا الحديث طرقا وعندهما طرف صالح منه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن هشام حدثنا عبيدة ابن نوح عن عمر بن الحجاج عن عبيد الله بن أبى صالح قال : دخل على طاوس يعودنى فقلت له: ادع الله لى يا أبا عبد الرحمن فقال ادع لنفسك فانه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال وهب بن منبه قرأت فى الكتاب الأول إن الله تعالى يقول : بعزتى إنه من اعتصم بى فان كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فانى أجعل له من بين ذلك مخرجاً

ومن لم يعتصم بي فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعلها في الهواء فأكله إلى نفسه وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل كنت أكرى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لي خذ في هذه فانها أقرب فقلت لا خيرة لي فيها ، فقال بل هي أقرب فسلكناهما فانهينا إلى مكان وعرو وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لي أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني ففرت من بين يديه وتبعني فناشدته الله وقلت خذ البغل بما عليه فقال هو لي وإنما أريد قتلك فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل فاستسلمت بين يديه وقلت إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال : عجل فقممت أصلي فأرتج على القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متجيراً وهو يقول هيه افرغ فأجري الله على لساني قوله تعالى (أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) فإذا أنا بفارس قد أقبل من قم الوادي وثيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال أنا رسول الذي يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً . وذكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت : هزم الكفار يوماً المسلمين في غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوى اليسار ومن الصالحاء فقال للجواد مالك وملك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد ومالى لا أقصر وأنت تسكل العلوقة إلى السواس فيظلموننى ولا يطعموننى إلا القليل ؟ فقال لك على عهد الله أنى لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره ، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره فقال : ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها . واحتال ليحصله فى بلده فبعث إليه رجلاً من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته فى الإسلام وقومه حتى استوثق ثم خرج يوماً يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصاً آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتنفاه ليأخذه رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم إنه إنما خدعنى بك فاكفنيهما بما شئت . قال فخرج سبعان فأخذاهما ورجع الرجل سالماً . وقوله تعالى (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) وقال تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات) وقال تعالى (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة) أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً كما قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم ولو شاء لأوجدكم كلهم فى وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد لكأن تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذراهم فى الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأنما بعد أمم حتى ينقضى الأجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عداً ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى (أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله) أى يقدر على ذلك أو إله مع الله بعد هذا ! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له ؟ (قليلاً ما تذكرون) أى ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم

﴿ أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر) أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وقال تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) الآية (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجددين الأزلين القنطين (أله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون)

﴿ أَمَّنْ يَبْدُوْا أَلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ لَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى في الآية الأخرى (إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد) وقال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ومن يرزقكم من السماء والأرض) أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى (والسماء ذات الرجوع * والأرض ذات الصدع) وقال تعالى (يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركا فيسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والأزهار وغير ذلك من ألوان شتى (كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي) ولهذا قال تعالى (أله مع الله) أي فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا (قل هاتوا برهانكم) على صحة ما تدعون من عبادة آلهة أخرى (إن كنتم صادقين) في ذلك وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * بَلِ أَدْرَكَ عَلَيْهِمُ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلما لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله . وقوله تعالى (إلا الله) استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية وقال تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) إلى آخر السورة ، والآيات في هذا كثيرة ، وقوله تعالى (وما يشعرون أيان يبعثون) أي وما يشعر الخلق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى (نقلت في السموات والأرض لانتأيكم إلا بقية) أي نقل عليها على أهل السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو جعفر الرازي عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت : من زعم أنه يعلم — يعني النبي صلى الله عليه وسلم — ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية لأن الله تعالى يقول (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) وقال قتادة إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء وجعلها يهتدى بها وجعلها رجوما للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن أناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . رواه ابن أبي حاتم عنه بحرفه

وهو كلام جليل متين صحيح وقوله (بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها) أى انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها وقرأ آخرون (بل أدرك علمهم) أى تساوى علمهم في ذلك كما في الصحيح لمسلم أن رسول الله ﷺ قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسئول والسائل ، قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس (بل ادرك علمهم في الآخرة) أى غاب ، وقال قتادة (بل ادرك علمهم في الآخرة) يعنى بجهلهم برهيم ، يقول لم ينفذ لهم علم في الآخرة . هذا قول ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس (بل ادرك علمهم في الآخرة) حين لم ينفذ لهم العلم ، وبه قال عطاء الخراساني والسدي أن علمهم إيمانهم بربهم وبكمال يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتونا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين) وقال سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقرأ (بل أدرك علمهم) قال اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة وقوله تعالى (بل هم في شك منها) عائد على الجنس والمراد الكافرون كما قال تعالى (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً) أى الكافرون منكم وهكذا قال ههنا (بل هم في شك منها) أى شاكون في وجودها ووقوعها (بل هم منها عمون) أى في عمية وجهل كبير في أمرها وشأنها

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهَذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَءَنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ * وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ثم قال (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) أى ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً ، وقولهم (إن هذا إلا أساطير الأولين) يعنون ما هذا الوعد باعادة الأبدان (إلا أساطير الأولين) أى أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة ، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد (قل) يا محمد لهؤلاء (سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) أى المكذبين بالرسول وبما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نعمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ (ولا تحزن عليهم) أى المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) أى في كيدك ورد ما جئت به فان الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالته وعانده في المشارق والمغرب

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَسْأَلْتَهُمْ لَيُشْكِرُنَّ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) قال الله تعالى مجيباً لهم (قل) يا محمد (عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون) قال ابن عباس أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون ، وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة

والسدى وهذا هو المراد بقوله تعالى (ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وإنما دخلت اللام في قوله (ردف لكم) لأنه ضمن معنى عجل لكم كما قال مجاهد في رواية عنه (عسى أن يكون ردف لكم) عجل لكم

ثم قال الله تعالى (وإن ربك لندو فضل على الناس) أى في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) أى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) يعلم السر وأخفى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى (وما من غائبة) قال ابن عباس يعنى وما من شيء (في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) وهذه كقوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن الله على سير)

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ * إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ أَلْمُوتَى وَلَا تَسْمَعُ الْأُدْعَاءَ إِذَا أُولَؤُلَاءِ مُدْبرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بنى إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل (أكثر الذى هم فيه يختلفون) كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى غلوا ف جاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، كما قال تعالى (ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون) وقوله (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) أى هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات . ثم قال تعالى (إن ربك يقضى بينهم) أى يوم القيامة (بحكمه وهو العزيز) أى فى انتقامه (العليم) بأفعال عباده وأقوالهم (فتوكل على الله) أى فى جميع أمورك وبلغ رسالة ربك (إنك على الحق المبين) أى أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، ولهذا قال تعالى (إنك لا تسمع الموتى) أى لا تسمعهم شيئاً ينفعهم فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم وقر الكفر ولهذا قال تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون (أى إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة الخاضع لله ولما جاء عنه على السنة الرسل عليهم السلام

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركمهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل من مكة وقيل من غيرها كما سيأتى تفصيله إن شاء الله تعالى فتكلم الناس على ذلك ، قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه تكلمهم كلاماً أى تخاطبهم مخاطبة وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون. ويروى هذا عن على واختاره ابن جرير وفى هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم . وقال ابن عباس فى رواية تخرجهم ، وعنه رواية قال. كلاً تفعل يعنى هذا وهذا وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم ، وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة فلندكر منها ما تيسر والله المستعان . قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن

قراة عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن تنذاكر أمر الساعة فقال « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالشرق وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبیت معهم حيث باتوا وتقبل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة مرفوعاً ، وقال الترمذي حسن صحيح . ورواه مسلم أيضاً من حديث عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عنه موقوفاً قاله أعلم (طريق أخرى) قال أبو داود الطيالسي عن طلحة بن عمرو وجريز بن حازم ، فأما طلحة فقال أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي أن أبا الطفيل حدثه عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة ، وأما جريز فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود . وحديث طلحة أتم وأحسن قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال « لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرقة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زمناً طويلاً ثم تخرج خرقة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية - يعني مكة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغوبين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعا ، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبسدأت بهم فجلبت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تتطلق ويشتري الناس في الأموال ويضطجبون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن ليقول يا كافر اقضى حتى وحتى إن الكافر ليقول يا مؤمن اقضى حتى » ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفاً والله أعلم . ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمان عيسى ابن مريم وهو يطوف بالبيت ولكن إسناده لا يصح (حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً » (حديث آخر) روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن ابن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة » تفرد به وله من حديث قتادة عن الحسن عن زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « بادروا بالأعمال ستا : الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويفة أحدكم » . (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا حرملة ابن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث وابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة والدجال وخويفة أحدكم وأمر العامة » تفرد به . (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أويس بن خالد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلو وجه المؤمن بالحاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يسرف المؤمن من الكافر » ورواه الإمام أحمد عن بهز وعفان ويزيد بن هرون ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به ، وقال « فتخطم أنف الكافر بالحاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يأمؤمن ويقول هذا يا كافر » ورواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن حماد بن سلمة به (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو حدثنا أبو تيميلة حدثنا خالد بن عبيد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : ذهب بي

رسول الله ﷺ إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الدابة من هذا الموضع » فإذا فتر في شبر قال ابن بريدة فحجبت بعد ذلك بسنين فأرانا عصاً له فإذا هو بعصا هذه كذا وكذا . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن ابن عباس قال : هي دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا فضيل ابن مرزوق عن عطية قال : قال عبد الله تخرج الدابة من صدع من الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها ، وقال محمد بن إسحق عن أبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال الدابة تخرج من تحت صخرة بجباد والله لو كنت معهم أولو شئت بعصا الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها . قيل فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصيح بعصفان قيل . ثم ماذا قال ثم لأعلم ، وعن عبد الله بن عمر أنه قال . تخرج الدابة ليلة جمع . رواه ابن أبي حاتم وفي إسناده ابن البيلماني . وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزيز عليه السلام أنه قال : وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها ، وتضع الحبالى قبل الغمام ، ويعود الماء العذب أجاباً ويتعادي الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها ، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون ، ويتعبون فيما لا ينالون ، ويعملون فيما لا يأكلون رواه ابن أبي حاتم عنه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : إن الدابة فيها من كل لون ما بين قرنها فرسخ للراكب ، وقال ابن عباس هي مثل الحربة الضخمة ، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إنها دابة لها ريش وزغب وحافر وما لها ذنب ولها لحية ، وإنها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثاً وما خرج ثلثها رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جريج عن ابن الزبير إنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعام ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا انكبت في وجهه بعضا موسى نكبة يضاء فتفشوا تلك النكبة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا انكبت في وجهه نكبة سوداء بخاتم سليمان فتفشوا تلك النكبة حتى يسود بها وجهه حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بك ذايه ومن بك ذايه كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول لهم الدابة يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ؟ ويا فلان أنت من أهل النار . فذلك قول الله تعالى (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ * حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّابُنَا ﴿ بَنَاتِنَا وَلَمْ يُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَازَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ * أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَ كُنُوزًا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسوله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقرعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى (ويوم نحشر من كل أمة فوجاً) أى من كل قوم وقرن فوجاً أى جماعة (ممن يكذب بآياتنا) كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وقال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وقوله تعالى (فهم يوزعون) قال ابن عباس رضي الله عنهما : يدفعون وقال قتادة : وزعة : تردأولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون (حتى إذا جاءوا) ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المسألة (قال أكذبتم بآياتنا

ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون) أى فيستلون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم (فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى) فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى (هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون) الآية وهكذا قال ههنا (ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) أى بهتوا فلم يكن لهم جواب لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية . ثم قال تعالى منها على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والالتقاد لأوامره وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذى لا محيد عنه فقال تعالى (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) أى فى ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهتدون أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم (والنهار مبصر) أى منيرا مشرقا فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ ذَخِيرٌ * وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصور وهو كما جاء فى الحديث قرن ينفخ فيه . وفى حديث الصور إن إسرئيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها وذلك فى آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض (إلا من شاء الله) وهم الشهداء فانهم أحياء عند ربهم يرزقون قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبى حدثنا شعبة عن النعمان ابن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنه وجاءه رجل فقال ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال سبحانه الله؟ أولا إله إلا الله أو كلمة نحوها لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا أبدا إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب البيت ويكون ويكون - ثم قال - قال رسول الله ﷺ « يخرج الدجال فى أمي فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما - فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فهلكه ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحداكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » قال سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبيون فيقولون فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليता ورفع ليता - قال - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرا كأنه الظل - أو قال الظل - شعبة الشاك - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلموا إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق » وقوله ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليता ورفع ليता . الليت هو صفحة العنق أى أمال عنقه ليستسمعه من السماء جيدا فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع

الحلائق ولهذا قال تعالى (وكل أتوه داخرين) قرئ بالمد وبغيره على الفعل وكل بمعنى واحد وداخرين أى صا غرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) وقال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وفي حديث الصور أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد في قبورها وأما كنهها فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا وأرواح الكافرين ظلة فيقول الله عز وجل : وعزنى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتجىء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللدغ ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم قال الله تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) وقوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرمر السحاب) أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تمرمر السحاب أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى (يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا) وقال تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينفسها ربى نسفا * فيذرهما قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمثا) وقال تعالى (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة) وقوله تعالى (صنع الله الذى أتقن كل شئ) أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة (الذى أتقن كل شئ) أى أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع (إنه خير بما يفعلون) أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال (من جاء بالحسنة فله خير منها) قال قتادة بالإخلاص وقال زين العابدين هى لا إله إلا الله وقديين تعالى في الموضع الآخر أن له عشرأ أمثالها (وهم من فزع يومئذ آمنون) كما قال فى الآية الأخرى (لا يحزنهم الفزع الأكبر) وقال تعالى (أئمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آتيا يوم القيامة) وقال تعالى (وهم فى العرفات آمنون) وقوله تعالى (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) أى من لقي الله مسيئأ لا حسنة له أوقدرجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ولهذا قال تعالى (هل تجزون إلأ ما كنتم تعملون) وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهم وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم النخعى وأبو وائل وأبو صالح ومحمد ابن كعب وزيد بن أسلم والزهرى والسدى والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد فى قوله (ومن جاء بالسيئة) يعنى بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ؕ إِلَيْهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِفَعِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله وأمرأ له أن يقول (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شئ) كما قال تعالى (قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دىنى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم) وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى (فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ؛ وقوله تعالى (الذى حرّمها) أى الذى إنما صارت حراما شرعا وقدرأ بتجريمه لها كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يانقط لقطته إلأ من عرفها ولا يختلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحيح والحسان والسانيد من طرق جماعة تفيد القطع كما هو مبين فى موضعه من كتاب الأحكام والله الحمد والمنة . وقوله تعالى : (وله كل شئ) من باب عطف العام على الخاص أى هو رب هذه البلدة ورب كل شئ ومليكه لا إله إلا هو (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى الموحدين الخاصين المتقادين لأمره المطيعين له . وقوله (وأن أتلو القرآن) أى على الناس

أبلغهم إياه كقوله تعالى (ذلك تلاوه عليك من الآيات والله كالحكيم) وكقوله تعالى (تلاو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية أى أنا مبلغ ومنذر (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين) أى لى أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بمواعيلهم من أداء الرسالة إليهم وخلصوا من عهدهم وحساب أمهم على الله تعالى كقوله تعالى (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال (إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) (وقال الحمد لله سيركم آياته فتعرفونها) أى الله الحمد الذى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، والانذار اليه ، ولهذا قال تعالى (سيركم آياته فتعرفونها) كما قال تعالى (سريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) أى بل هو شهيد على كل شيء . قال ابن أبى حاتم ذكروا عن أبى عمر الحوضى حفص بن عمر حدثنا أبو أمية بن يعلى الثقفى حدثنا سعيد بن أبى سعيد سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فإن الله لو كان غافلا شيئا لأغفل البعوضة والحدلة والذرة » وقال أيضا حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر ابن على قال أبى أخبرني عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال : فلو كان الله مغفلا شيئا لأغفل ماتعنى الرياح من أثر قدمى ابن آدم ، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين إمالة وإما لغيره

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل * خلوت ولكل قل على رقيب
ولا تحسب أن الله يغفل ساعة * ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل والله الحمد والمنة

(تفسير سورة القصص وهى مكية)

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبى إسحق عن معدي كرب قال أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا طسم الساتين فقال ما هى معى ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله ﷺ خباب بن الأرت قال : فأتينا خباب بن الارت فقرأها علينا رضى الله عنه .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(طسم * تلك آيات الكتاب المبين * تلاو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستجني نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهمن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة ، وقوله (تلك) أى هذه (آيات الكتاب المبين) أى الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور وعلم ما قد كان وما هو كائن . وقوله (تلاو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) الآية كما قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص) أى نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) أى تكبر وتجب وطغى (وجعل أهلها شيعا) أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى (يستضعف طائفة منهم) يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستجني نساءهم إهانة لهم واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها

ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولأن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض - إلى قوله - يحذرون) وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون - إلى قوله - يعرشون) وقال تعالى (كذلك وأورثناها بني إسرائيل) أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ولا يقلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوف من الولدان إنعامشؤه ومرابه على فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيته وتدله وتتفاده وحفلك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَأَيْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنَّا الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لَوْلَاكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفنى بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هرون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكاون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فان ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك التابعون بأيديهم الشفار المرفهة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها محال الحمل كغيرها ولم تفتن لها الديات ، ولكن لما وضعت ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً وأحبته حباً زائداً وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قل الله تعالى (وألقيت عليك محبة مني) فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها وألقت في خلدتها ونفت في روعها كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رددوه إليك وجاعلوه من المرسلين) وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الساء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتلمته فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيه وخشين أن يفتن عليها في فتحه دونها ، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاء فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعانها ولهذا قال (فالنقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً) الآية قال محمد بن إسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة للام التعايل لأنهم لم يريدوا بالنقطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى

ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فانه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحرنا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) وقدرى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحرنا قال الله تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقلتم أتم لو شاء فرعون أن يكون لموسى وليا وناصرآ والله تعالى يقول (ليكون لهم عدوا وحرنا) وقوله تعالى (وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك) الآية يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بنى إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذبذبه وتحييه إلى فرعون فقالت (قرة عين لى ولك) فقال فرعون أملك فعنهم وأمالى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه وقد تقدم في حديث الفتون في سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعا عند النسائي وغيره . وقوله (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لهذا ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله (أو تتخذنه ولدا) أى أرادت أن تتخذنه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغَانٌ ۖ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغا أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم (إن كادت لتبدي به) أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى (لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) وقالت لأخته قصيه (أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعنى ما يقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك (فبصرت به عن جنب) . قال ابن عباس عن جانب ، وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد

وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) أى تحريما قدرنا وذلك لكرامته عند الله وصيائه له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعد ما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه (قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) قال ابن عباس فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعة فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنن إليها وأعطتها عطاء

جزيلة وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لسكونه وافق نديها، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبنت عليها وقالت ؛ إن لى بعلا وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى يدي فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلاة والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعة الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجاً وبعد كل ضيق مخرجاً ، ولهذا قال تعالى (فرددناه إلى أمه كي ترضعها) أى به (ولا تحزن) أى عليه (ولتعلم أن وعد الله حق) أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته فى تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً . وقوله تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحموده التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كرها إلى النفوس وعاقبته محمودة فى نفس الأمر كما قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وقال تعالى (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً)

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ إِنِّي أَكُونُ ظَاهِرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً قال مجاهد يعنى النبوة (وكذلك نجزي المحسنين) ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم فى قضية قتله ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) قال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء . وقال ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة والسدى وقناة (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أى يتضاربان ويتنازعان (هذا من شيعته) أى إسرائيلى (وهذا من عدوه) أى قبطى ، قاله ابن عباس وقناة والسدى ومحمد بن إسحق ، فاستغاث الإسرائيلى بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهى غفلة الناس فعمد إلى القبطى (فوكره موسى فقضى عليه) قال مجاهد فوكره أى طعنه بجمع كفه وقال قناة وكزه بعضا كانت معه فقضى عليه أى كان فيها حتفه فمات (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) * قال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * قال رب بما أنعمت على (أى جعلت لى من الجاه والعز والنعمة (فلن أكون ظهيرا) أى معينا (للمجرمين) أى الكافرين بك . المخالفين لأمرك

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَنْ تُرِيدُ أَنْ تُتَلَمَّأَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح (في المدينة خائفا) أي من معرة ما فعل (يترقب) أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استنصره على الآخر فقال له موسى (إنك لغوى مبين) أي ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الاسرائيلي لحوره وضعفه وذلك أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه (يا موسى) أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس ؟ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

قال تعالى (وجاء رجل) وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه فسبق إلى موسى فقال له يا موسى (إن الملأ يأترون بك) أي يتشاورون فيك (ليقتلوك فاخرج) أي من البلد (إني لك من الناصحين)

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تأملأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده ولم يأل ذلك قبله بل كان في رفاهة ونعمة ورياسة (فخرج منها خائفا يترقب) أي يتلفت (قال رب نجني من القوم الظالمين) أي من فرعون وملئه فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكا على فرس فأرشده إلى الطريق فآله أعلم (ولما توجه تلقاء مدين) أي أخذ طريقا سالكا مهيمًا فرح بذلك (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أي الطريق الأقوم ففعل الله به ذلك وهداه إلى الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة فجعله هاديا مهديا (ولما ورد ماء مدين) أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها وكان لها بئر يردده رعاء الشاء (وجد عليه أمة من الناس يسقون) أي جماعة يسقون (ووجد من دونهم امرأتين تذودان) أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما (قال ما خطبكما ؟) أي ما خبركما لاتردان مع هؤلاء ؟ (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أي لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء (وأبونا شيخ كبير) أي فهذا الحال الملجى لنا إلى ما ترى قال الله تعالى (فسقى لهما) قال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ فحدثناه فأتى الحجر فرفعه ثم لم يستق إلا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم ، إسناد صحيح . وقوله تعالى (ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام . إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا

فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لاحتاج إلى شق تمره . وقوله (إلى الظل) قال ابن عباس وابن مسعود والسدي جلس تحت شجرة ، وقال ابن جرير : حدثني الحسين بن عمرو العتقزي حدثنا أبي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : حثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى فإذا هي شجرة خضراء ترف فأهوى إليها جمل وكان جائعا فأخذها جمل فعا لجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت ، وفي رواية عن ابن مسعود أنه ذهب إلى الشجرة التي كلم الله منها موسى كما سيأتي إن شاء الله فآله أعلم ، وقال السدي كانت الشجرة من شجر السمر ، وقال عطاء بن السائب لما قال موسى (رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير) أسمع المرأة

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَ، وَوَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتُنْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتُنْجِرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْسِكَكِ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي تَمْسِي حَبْجَ فَإِنْ أَتَمَمْتُ عَشْرَ فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسِكَكِ عَلَيْهِ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَايِنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدُونَ عَلَى اللَّهِ عَلَى مَا تَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألتهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث إحداهما إليه لدعوه إلى أبيها قال الله تعالى (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) أي مشى الحرار كما روى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه قال : جاءت مستورة بكم درعها ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر رضى الله عنه جاءت تمشي على استحياء قائمة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . هذا إسناد صحيح ، قال الجوهرى : السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجرية السليطة ومن النوق الشديدة . (قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا ما سقيت لنا) وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لثلاثي يوم ربية بل قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا ما سقيت لنا يعني لثبيك ويكلفك على سقيك لغنمنا (فلما جاءه وقص عليه القصص) أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) يقول طب نفسا وقرعينا فقد خرجت من ملككم فلاحكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال (نجوت من القوم الظالمين) وقد اختلفت المفسرون في هذا الرجل من هو ؟ على أقوال أحدها أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء ، وقد قاله الحسن البصري وغير واحد ، ورواه ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز الأزدي حدثنا مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيبا هو الذي قص عليه موسى القصص قال (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) وقد روى الطبراني عن سلمة بن سعد الغزوي أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « مرحبا بقوم شعيب وأختان موسى هديت » وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لأنه قال لقومه (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين الخليل وموسى عليها السلام مدة طويلة تزيد على أربع مائة سنة كما ذكره غير واحد . وما قيل إن شعيبا عاش مدة طويلة إنما هو والله أعلم احتراز من هذا الإشكال ثم من القوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه

لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن ههنا ، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده كما سنذكره قريباً إن شاء الله ، ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم . قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود : ثيرون هو ابن أخى شعيب عليه السلام وعن أبي حمزة عن ابن عباس قال الذى استأجر موسى يثرى صاحب مدين رواه ابن جرير به ثم قال الصواب إن هذا لا يدرك إلا بخبر ولا خبر تجب به الحجة في ذلك وقوله تعالى (قالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) أى قالت إحدى ابنتي هذا الرجل قيل هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها (يا أبت استأجره) أى لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد لما قالت (إن خير من استأجرت القوي الأمين) قال لها أبوها وماعليك بذلك ؟ قالت له إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كوفى من ورائى فإذا اختلف على الطريق فاحذنى إلى بحصة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه . وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال . أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر صاحب ويوسف حين قال أكرمى مثواه وصاحبة موسى حين قالت : (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) قال (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين) أى طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين ، قال شعيب الجبائي وهما صفوريا وليا وقال محمد بن إسحق صفوريا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعثك أحد هذين العبدین بمائة فقال : اشتريت ، أنه يصح والله أعلم ، وقوله (على أن تأجرني ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك) أى على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك وإلا فى الثمان كفاية (وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى لا أشاك ولا أؤاذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية السكرية لمذهب الأوزاعي فيما إذا قال بعثك هذا بعشرة نقداً أو بعشرين نسيئة أنه يصح ويختار المشتري بأيهما أخذه صح ، وحمل الحديث المروى في سنن أبي داود « من باع بيعتين فيبيعة فله أوكسهما أو الربا » على هذا المذهب ، وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذه المذهب نظير ليس هذا موضع بسطه لدلوله . والله أعلم . ثم قد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والسكوة بهذه الآية واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن حيث قال باب استئجار الأجير على طعام بطنه حدثنا محمد بن محمد حدثنا محمد بن المصنف حدثنا بقة بن الوليد عن مسلمة ابن طي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحارث بن يزيد عن طي بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قفراً طسم حتى إذا بلغ قصة موسى قال « إن موسى آجر نفسه ثمانى سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه » وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لأن مسلمة بن علي وهو الحشني الدمشقي البلاطي ضعيف الرواية عند الأئمة ولكن قد روى من وجه آخر وفيه نظر أيضاً وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه » وقوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام (قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) يقول إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين فإن أتممت عشراً فمن عندي فأنا متى فعلت أقولها فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي) أى فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحزمة بن عمرو الأسلمي رضى الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم في السفر فقال « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » مع أن فعل الصيام راجع من دليل آخر ، هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكل الأجلين

وأتمهما وقال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الألفس عن سعيد ابن جبير قال : قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لا أدري حتى أقدم على جبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل . هكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ، ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير أن النبي سأل رجل من أهل النصرانية والأول أشبه والله أعلم . وقد روى من حديث ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما » ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الحميدي عن سفيان وهو ابن عيينة حدثني إبراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب وكان من أسناني ، أو أصغرمي فذكره . وفي إسناده قلب وإبراهيم هذا ليس بمعروف . ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان ابن عيينة عن إبراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ فذكره ثم قال لا نعرفه مرفوعا عن ابن عباس إلا من هذا الوجه . ثم قال ابن أبي حاتم قرئ على يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحارث عن يحيى بن ميمون الحضرمي عن يوسف بن تيرح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال « لا أعلم لي » فسأل رسول الله ﷺ جبريل فقال جبريل : لا أعلم لي ، فسأل جبريل ملكا فوجه فقال : لا أعلم لي ، فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأل عنه جبريل عما سأل عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل : قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أزكاهما . وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : قال مجاهد إن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال سوف أسأل إسرافيل فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوفاهما (طريق أخرى مرسله أيضا) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى قال « أوفاهما وأتمهما » فهذه طرق متعاضدة ثم قد روى هذا مرفوعا من رواية أبي ذر رضي الله عنه . قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عويد بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال - « أوفاهما وأبرهما - قال - وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما » ثم قال البزار لا نعلم يروي عن أبي ذر إلا بهذا الاسناد . وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران وهو ضعيف ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن النذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحارث بن يزيد عن طلي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة ابن النذر يقول إن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى قال « أبرهما وأوفاهما » ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاهما ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت ثنتين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كيشة فتوت الكف ولا تقول » وقال رسول الله ﷺ « إذا فتحت الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية » هكذا أورده البزار ، وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة وحديثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن النذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفي الأجل

- قيل يارسول الله أى الأجلين ؟ - قال أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شبيب أمر امرأته أن تسأل أباهما أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالبون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام إلى عصاه فسمها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أورها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض فلم تصدر منها شاة إلا وضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبون وقال صفوان ولا صبوب قال أبو زرعة الصواب طنوب ولا عزوز ولا نعول ولا كميشة تفوت الكف قال النبي صلى الله عليه وسلم « لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهى السامرية » وحدثنا أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش ؟ قال التى تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الصبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قال فما الثعول ؟ قال التى ليس لها ضرع إلا كهشة حلمتين قلت فما الكميشة ؟ قال التى تفوت الكف كميشة الضرع صغير لا يدركه الكف . مدار هذا الحديث على عبد الله بن لهيعة المصرى وفى حفظه سوء وأخشى أن يكون رفعه خطأ والله أعلم . وينبغى أن يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولا صبوب ولا نعول ولا كميشة لندكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفا عليه ما يقارب بعضه بإسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على غير لونها فلك ولدها فعمد موسى فرفع حبالا على الماء فلما رأت الحبال فزعت فجالت جولة فولدت كلهن بلقا إلا شاة واحدا فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِى الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُتَلَوِّسُ كَأَنَّهَُا جَبَانٌ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنِكَ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكلهما وأنقاهما وقد استفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل) أى الأكل منهما والله أعلم ، وقال ابن أبى نجیح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشر آخر ، وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن أبى حاتم وابن جرير فالله أعلم ، وقوله (وسار بأهله) قالوا كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره فسلک بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك (آنس من جانب الطور نارا) أى رأى نارا تضىء على بعد (فقال لأهله امكثوا إِنِّي آنست نارا) (لعلى آتاكم منها بخبر) وذلك لأنه قد أضل الطريق (أوجدوة من النار) أى قطعة منها (لعلم تصطلون) أى تستدفئون بها من البرد قال الله تعالى (فلما أتاه نودى من شاطئ الوادى الأيمن) أى من جانب الوادى مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى (وما كنت

بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف الجبل مما يلي الوادي فوقف باهتا في أمرها فناداه ربه (من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سمرة خضراء ترف إسناده مقارب ، وقال محمد بن إسحق عن بعض من لا يهتم عن وهب بن منبه قال : شجرة من العليق وبعض أهل الكتاب يقول إنها من العوسج وقال قتادة هي من العوسج وعصاه من العوسج ، وقوله تعالى (أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين) أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب سواه تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه . وقوله (وأن ألق عصاك) أي التي في يدك كما قرره على ذلك في قوله تعالى (وما تلك يمينك يا موسى ؟ قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى) والمعنى أما هذه عصاك التي تعرفها (ألقها فأتلقاها فإذا هي حية تسعى) فعرف وتحقق أن الذي يكلمه ويخاطبه هو الذي يقول للشيء كن فيكون كما تقدم بيان ذلك في سورة طه : وقال ههنا (فلما رآها تهتز) أي تضطرب (كأنها جان ولي مدبرا) أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها واصططكك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد فعند ذلك (ولي مدبرا ولم يعقب) أي ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك فلما قال الله (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) رجع فوقف في مقامه الأول ثم قال الله تعالى (اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أي إذا دخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فأنها تخرج تاللا كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ، ولهذا قال (من غير سوء) أي من غير برص وقوله تعالى (واضمم إليك جناحك من الرهب) قال مجاهد من الفرع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير لم يحصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يحده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يحده أو يخف إن شاء الله تعالى وبه الثقة . قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ صالح أخبرنا أبو إسماعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال : كان موسى عليه السلام قدمي قلبه رعبا من فرعون فكان إذا رآه قال : اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام وجعله في قلب فرعون فكان إذا رآه بال كما يقول الحمار . وقوله تعالى (فذانك برهانان من ربك) يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ولهذا قال تعالى (إلى فرعون وملئه) أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع (إنهم كانوا قوما فاسقين) أي خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكًا مَلَكًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا بَنَيْنَا أَمْثَلًا وَنَبَأًا مِمَّا كَذَبُوا *)

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً من سطوته (قال رب إني قتل منهم نفساً) يعني ذلك القبطي (فأخاف أن يقتلوني) أي إذا رأوني (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً) وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لغة بسبب ما كان تناول تلك الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ولهذا قال (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) واجمل

لى وزيراً من أهلى هارون أخى اشد به أذى وأشركه فى أمرى) أى يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك التكبر الجبار العنيد ولهذا قال (وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً) أى وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمرى يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد ولهذا قال (إنى أخاف أن يكذبون) وقال محمد بن إسحاق (ردءاً يصدقنى) أى يبين لهم عنى ما أكلهم به فانه يفهم عنى ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى (سنشد عضدك بأخيك) أى سنقوى أملك ونعزجانك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبياً معك كما قال فى الآية الأخرى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وقال تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هارون عليهما السلام فانه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى فى حق موسى (وكان عند الله وجهاً) وقوله تعالى (ونجعل لكما سلطاناً) أى حجة قاهرة (فلا يصلون إليكما بآياتنا) أى لاسبيل لهم إلى الوصول إلى إذا كما بسبب إبلاغكما آيات الله كما قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إلى قوله - والله يعصمك من الناس) وقال تعالى (الذين يبلغون رسالات الله - إلى قوله - وكفى بالله حسيباً) أى وكفى بالله ناصراً ومعيناً ومؤيداً ولهذا أخبرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (أنما ومن اتبعكما الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ووجه ابن جرير على أن المعنى ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما ثم يتدىء فيقول (بآياتنا أنما ومن اتبعكما الغالبون) تقديره أنما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ، ولا شك أن هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الأول فلا حاجة إلى هذا والله أعلم

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن محبى موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه وعرضه ما آتاها الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيتهم إلى العناد والمباهة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا (ما هذا إلا سحر مفترى) أى مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله (وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام محبياً لهم (ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يعنى منى ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ولهذا قال (ومن تكون له عاقبة الدار) أى من النصرة والظفر والتأييد (إنه لا يفلح الظالمون) أى المشركون بالله عز وجل

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقَدْ لِي يَهْمُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَأَسْتَكَبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بَغْيَرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه واقترائه في دعواه الإلهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) الآية وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) وقال تعالى إخباراً عنه (فحشر فنادى * فقال أنار بكم الأعلى * فأخذ الله نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى) يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة وحتى إنه واجه موسى السكليم بذلك فقال (لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) وقوله (فأوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى) يعني أمروزيه هامان ومدير رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجراً لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالى كما قال في الآية الأخرى (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب) وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير فرعون ولهذا قال (وإني لأظنه من الكاذبين) أى فى قوله إن ثم ربا غيرى لا أنه كذبه فى أن الله تعالى أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال (وما رب العالمين ؟) وقال (لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين) وقال (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) وهذا قول ابن جرير . وقوله تعالى (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) أى طفخوا وتجبروا وأكثروا فى الأرض الفساد واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد (فصب عليهم ربك صوت عذاب إن ربك لبالمrصاد) ولهذا قال تعالى ههنا (فأخذناه وجنوده فنبدناهم فى الم) أى أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد (فالظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أى لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقهم فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع (ويوم القيامة لا ينصرون) أى فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى (أهلكناهم فلا ناصر لهم) وقوله تعالى (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) أى وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم فى الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم كذلك (ويوم القيامة هم من المقبحين) قال قتادة : وهذه الآية كقوله تعالى (وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بشس الرد المرفود)

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى السكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاؤه . وقوله تعالى (من بعدما أهلكنا القرون الأولى) يعني أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى (وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالحاطة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) الآية ورواه ابن أبى حاتم من حديث عوف بن أبى جميلة الأعرابى بنحوه وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد موقوفاً ثم رواه عن نصر بن على عن عبد الأعلى عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد رفعه إلى النبي ﷺ قال « ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ثم قرأ (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى) الآية .

وقوله (بصائر للناس وهدى ورحمة) أى من العمى والعمى وهدى إلى الحق ورحمة أى إرشاداً إلى العمل المصالح (لعلهم يتذكرون) أى لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَلَوْ لَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّمَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى منها على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كان سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمى لا يقرأ شيئاً من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) الآية أى وما كنت حاضراً لذلك ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله وإغراق قومه ثم قال تعالى (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) الآية وقال في آخر السورة (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) وقال بعد ذكر قصة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) الآية وقال في سورة طه (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق) الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيجاء الله إليه وتكليمه له (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) يعنى ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى (وما كنت من الشاهدين) لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين : وقوله تعالى (وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا) أى وما كنت مقبلاً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه (ولكننا كنا مرسلين) أى ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا علي بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) قال نودوا أن : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الأعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير أنه قال ذلك من كلامه والله أعلم .

وقال مقاتل بن حيان (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى (وإذ نادى ربك موسى) وقال تعالى (إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى) وقال تعالى (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) وقوله تعالى (ولكن رحمة من ربك) أى ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه إليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بإرسالك إليهم (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) أى لعلهم يهتدون بما جئتهم به

من الله عز وجل (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا) الآية أي وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير) الآية والآيات في هذا كثيرة

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا آيَاتُ مِثْلِ آيَاتِ مُوسَىٰ أَوْ لَمَّا يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد (لولا أني مثل ما أوتي موسى) الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتقويض الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لهما (أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين) وقال تعالى (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) ولهذا قال هاهنا (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) أي أولم يكفروا بالبشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة (قالوا ساحران تظاهرا) أي تعاونا (وقالوا إنا بكل كافرون) أي بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذلك كرا أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدري إذا يممت أرضاً أريد الخير أهما يلبني

أي فما أدري يلبني الخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قریشاً أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا) قال يعني موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم (تظاهرا) أي تعاونا وتناصرنا وصدق كل منها الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبیر وأبو رزین في قوله (ساحران) يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس (قالوا ساحران تظاهرا) قال يعنون موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصري . وقال الحسن وقتادة يعني عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكر ههنا والله أعلم . وأما من قرأ (ساحران تظاهرا) فقال على بن أبي طلحة والعمري عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندی والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال السدي : يعني صدق كل واحد منهما الآخر وقال ، عكرمة : يعنون التوراة والإنجيل وهورواية عن أبي زرعة واختاره ابن جرير . وقال الضحاك وقتادة . الإنجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة (ساحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن لأنه قال بعده (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وكثيراً ما يقرن الله

بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس - إلى أن قال - وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وقال في آخر السورة (ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن) الآية وقال (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واطقوا لعلكم ترحمون) وقالت الجن (إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه) وقال ورقة بن نوفل : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الأبواب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ومحلاً لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) أى فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى (فإن لم يستجيبوا لك) أى فإن لم يحجبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أى بلا دليل ولا حجة (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) أى بغير حجة مأخوذة من كتاب الله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . وقوله تعالى (ولقد وصلنا لهم القول) قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول وقال قتادة : يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع (لعلهم يتذكرون) قال مجاهد وغيره (وصلنا لهم) يعنى قريشاً وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعه - رفاعه هذا هو ابن قرظة القرظى ، وجعله ابن منده : رفاعه بن شموال خال صفية بنت حي وهو الذى طلق تيممة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن ابن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير - قال نزلت (ولقد وصلنا لهم القول) فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديثه

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا بُتِلَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَوَدَّعَاهُ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَن مَّارَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) وقال تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى - إلى قوله - فآكتبنا مع الشاهدين) قال سعيد بن جبير نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم (يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبيكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) يعنى من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أى موحدين مخلصين لله مستجيبين له . قال الله تعالى (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أى هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى ولهذا قال (بما صبروا) أى على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد فى الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبى بريدة عن أنى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين . رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها

ثم أعتقها فزوجها . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق السيليفي حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال : إني لثحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولاً حسناً جميلاً وقال فيما قال « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله مالنا وعليه ما علينا » وقوله تعالى (ويدبرون بالحسنة السيئة) أى لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعمفون ويصفحون (ومما رزقناهم ينفقون) أى ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) أى لا يخالطون أهله ولا يعاشرهم بل كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) أى إذا سفسه عليهم سفيه وكلهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم إنهم قالوا (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) أى لا نريد طريق الجاهلين ولا نجها . قال محمد بن إسحق فى السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلوه وساءلوه ورجال من قريش فى أنديةهم حول الكعبة فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم خبيكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ما نعلم ركباً أحق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أتمم عليه لم نأل أنفسنا خيراً . قال ويقال إن نفر النصارى من أهل نجران قاله أعلم أى ذلك كان . قال ويقال والله أعلم ان فيهم نزلت هذه الآيات (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون - إلى قوله - لا نبتغي الجاهلين) قال وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيمن نزلت قال مازلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن فى النجاشي وأصحابه رضى الله عنهم والآيات اللاتى فى سورة المائدة (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً - إلى قوله - فاكتبنا مع الشاهدين)

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وَقَالُوا إِنَّا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إنك يا محمد (لاتهدى من أحببت) أى ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة كما قال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) . وقال تعالى (وما أكنر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) أى هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لاشريعياً فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول فى الإسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر والله الحكمة التامة قال الزهرى حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومى رضى الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية ابن النخعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل

وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربي) وأنزل في أبي طالب (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) أخرجه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال « يا عماء قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » فقال لولا أن تعيرني بها قريش يقولون ما حملة عليه إلا جزع الموت لأقربت بها عينك لا أقولها إلا لأقربها عينك فأنزل الله تعالى (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن كيسان ، ورواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حديثي أبو حازم عن أبي هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقناة أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله فأبى عليه ذلك وقال أي ابن أخى ملة الأشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد قال كان رسول قيصر جاء إلى قال كتب معي قيصر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبنا فأنتيت فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ثم قال « ممن الرجل ؟ » قلت من تنوخ قال « هل لك في دين أبيك إبراهيم الخنيفية » قلت إني رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع إليهم فضحك رسول الله ﷺ ونظر إلى أصحابه وقال « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقوله تعالى (وقالوا إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا) يقول تعالى مخبرا عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم (إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا) أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والحاربة ويتخطفونا أينما كنا قال الله تعالى مجيبا لهم (أو لم يمكن لهم حرما آمنا) يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لأن الله تعالى جعلهم في بلد آمن وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى (يحى إليه ثمرات كل شيء) أي من سائر الثمار ما حوله من الطائف وغيره وكذلك المتاجر والأمتعة (رزقا من لدنا) أي من عندنا (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النساء أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا الحجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة قال : قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال (إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَلَيْسَ لَنَا مُهْلِكُ الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى (وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا) أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق كما قال في الآية الأخرى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان - إلى قوله - فأخذهم العذاب وهم ظالمون) ولهذا قال تعالى (فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أي دثرت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم وقوله تعالى (وكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) أي رجعت خرابا ليس فيها أحد وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر : إن سليمان عليه السلام قال للهامة

يعنى البومة - مالك لا تأكلين الزرع ؟ قالت : لأنه أخرج آدم من الجنة بسببه ، قال فمالك لا تشربين الماء ؟ قالت : لأن الله تعالى أغرق قوم نوح به ، قال فمالك لا تأوين إلى الحراب ؟ قالت : لأنه ميراث الله تعالى ثم تلا (وكنا نحن الوارثين) ثم قال تعالى مخبرا عن عدله وأنه لا يهلك أحدا ظالما له وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها) وهى مكة (رسولا يتلو عليهم آياتنا) فيه دلالة على أن النبي الأمى وهو محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجم كما قال تعالى (لتذر أم القرى ومن حولها) وقال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) وقال (لا نذكركم به ومن بلغ) وقال (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وتام الدليل قوله تعالى (وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) الآية فأخبر تعالى أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فجعل تعالى بعثة النبي الأمى شاملة لجميع القرى لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التى ترجع إليها وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال « بعثت إلى الأحمر والأسود » ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة وقيل المراد بقوله (حتى يبعث في أمها رسولا) أى أصلها وعظمتها كأمهات الرساتيق والأقاليم ، حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرها وليس يبعد

﴿ وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَّتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وقال (وما عند الله خير للأبرار) وقال (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وقال تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فليظن ماذا يرجع إليه » وقوله تعالى (أفلا تعقلون ؟) أى أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة . وقوله تعالى (أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقية كمن تمتعه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب ببقاء الله ووعدده ووعدده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل إنها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبى جهل . وقيل في حمزة وعلى وأبى جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقولته تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات وذلك في الدرجات فقال (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) وقال تعالى (ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فَفَعِمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوجب به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول (أين شركائي الذين كنتم تزعمون)
يعنى أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد هل ينصرونكم أو ينتصرون ، وهذا على
سبيل التقرير والتهديد كما قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتكم ما خلوناكم وراء ظهوركم
وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) . وقوله (قال الذين
حق عليهم القول) يعنى الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر (ربنا هؤلاء الذين أغويانا أغويناهم كما غويانا تبرأنا إليك
ما كانوا إيانا يعبدون) فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرأوا من عبادتهم كما قال تعالى (واتخذوا من
دون الله آلهة ليسكونوا لهم عزاً كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من
دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا
بعبادتهم كافرين) وقال الخليل عليه السلام لقومه (إنما اتخذتم من دون الله آوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم
يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) الآية وقال الله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا
ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب - إلى قوله - وما هم بخارجين من النار) ولهذا قال (وقيل ادعوا شركاءكم) أى
ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا (فدعوه فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب) أى وتيقنوا
أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله (لو أنهم كانوا يهتدون) أى فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من
المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى (ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوه فلم يستجيبوا لهم وجعلنا
بينهم موبقاً * ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً) . وقوله (ويوم يناديهم فيقول
ماذا أجبتم المرسلين) النداء الأول عن سؤال التوحيد وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم
وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسأل العبد في قبره . من ربك ومن نبيك وماديتك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله
إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت
لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ولهذا قال تعالى (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم
لا يتساءلون) قل مجاهد فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب وقوله (فأما من تاب وآمن وعمل
صالحاً) أى في الدنيا (فعسى أن يكون من المفلحين) أى يوم القيامة وعسى من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل
الله ومنته لا محالة

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُسْكِنُ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُفْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب قال تعالى (وربك يخلق ما يشاء
ويختار) أى ما يشاء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها إليه . وقوله (ما كان
لهم الخيرة) نفي على أصح القولين كقوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم
الخيرة من أمرهم) وقد اختار ابن جرير أن (ما) ههنا بمعنى الذى تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة ، وقد احتج بهذا
المسلك طائفة المعزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس
 وغيره أيضاً فإن المقام في بيان انفراد الله تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وأنه لا نظير له في ذلك ولهذا قال
 (سبحانه الله وتعالى عما يشركون) أى من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً ثم قال تعالى (وربك
يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) أى يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من
سائر الخلائق (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن مستخف بالليل وسارب بالنهار) . وقوله

(وهو الله لا إله إلا هو) أى هو المنفرد بالإلهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ، ويختار سواه (له الحمد فى الأولى والآخرة) أى فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته (وله الحكيم) أى الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته (وإليه ترجون) أى جميعكم يوم القيامة فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَآ تَبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممثلاً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار للذين لا قوام لهم بدونهما وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولسئمتهم النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتكم بضياء) أى تبصرون به وتستأنسون بسببه (أفلا تسمعون ؟) ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً أى دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ولهذا قال تعالى (من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه) أى تستريحون من حركاتكم وأشغالكم (أفلا تبصرون ؟ * ومن رحمته) أى بكم (جعل لكم الليل والنهار) أى خلق هذا وهذا (لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) أى فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر . وقوله (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) والآيات فى هذا كثيرة .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَتَزَعَّنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ أَفَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول (أين شركائ الذين كنتم تزعمون) أى فى دار الدنيا (وتزعنا من كل أمة شهيداً) قال مجاهد : يعنى رسولا (فقلنا هاتوا برهانكم) أى على صحة ما ادعيتموه من أن الله شركاء (فعلموا أن الحق لله) أى لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحجروا جواباً (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿ إِنْ قَرُّونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ ثَمَانِينَ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (إن قارون كان من قوم موسى) قال كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . قال ابن جريج هو قارون بن يسهب بن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث ، وزعم محمد بن إسحاق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام . قال ابن جريج وأكثر أهل العلم على أنه

كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى النور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله: وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبرا طولاً ترفعاً على قومه . وقوله (وآتيناه من الكنوز) أى الأموال (ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيشمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلاً أغر محجلاً وقيل غير ذلك والله أعلم . وقوله (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) أى وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصيح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال (إن الله لا يحب الفرحين) قال ابن عباس يعنى المرحين ، وقال مجاهد يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم ، وقوله (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى بما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فان لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولزورك عليك حقاً فآت كل ذى حق حقه (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسيء إلى خلق الله (إن الله لا يحب المفسدين) .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير (قال إنما أوتيته على علم عندي) أى أنا لا أفتقر إلى ما تقولون فان الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ولحجته لى فقدريه إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له وهذا كقوله تعالى (وإذا مس الإنسان ضررعاً نائم إذا خولناه نعمه منا قال إنما أوتيته على علم) أى على علم من الله بى وكقوله تعالى (ولئن أذقناه رحمة مننا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى) أى هذا أستحقه . وقد روى عن بعضهم أنه أراد (إنما أوتيته على علم عندي) أى أنه كان يعانى علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لأن علم الكيمياء فى نفسه علم باطل لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلا الله عز وجل قال الله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخاقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة » وهذا ورد فى المصوِّرين الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعى أنه يحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال ، وجهل وضلال ، وإنما يقدرون على الصنيع فى الصور الظاهرة وهى كذب وزغل وتمويه وترويح أنه صحيح فى نفس الأمر وليس كذلك قطعاً لا محالة ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الأولياء من قلب بعض الأعيان ذهباً أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يردده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسموات واختياره وفعله كما روى عن حيوة بن شريح المصرى رحمه الله تعالى أنه سأله سائل فلم يكن عنده ما يعطيه ورأى ضرورته فأخذ حصاة من الأرض فأجأها فى كفه ثم ألقاها إلى ذلك السائل فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً يطول ذكرها ، وقال بعضهم إن قارون كان يعرف الاسم الأعظم فدعا الله به فتمول بسببه . والصحيح أنه الأول ولهذا قال الله تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) أى قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان

ذلك عن محبة مناله وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) أى لكثرة ذنوبهم . قال قتادة (على علم عندي) على خير عندي ، وقال السدى على علم أى أهل لذلك . وقد أجاد في تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فانه قال في قوله (قال إنما أوتيته على علم عندي) قال لولا رضا الله عنى ومعرفة بذلى ما أعطانى هذا المال وقرأ (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) الآية وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه لولا أن يستحق ذلك لما أعطى ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجميل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها وتمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى (قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أى ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالهم أهل العلم النافع قالوا لهم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون . كما فى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقربوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) » وقوله (ولا يلقاها إلا الصابرون) قال السدى ولا يلقى الجنة إلا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، قال ابن جرير ولا يلقى هذه السكامة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون فى الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعا من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل واخبره بذلك

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون فى زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال « بينما رجل يمر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة » ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبى هريرة عن النبي ﷺ نحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الأعمش عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته فانه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » تفرد به أحمد وإسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعلى بن منصور أخبرنى محمد بن مسلم سمعت زياد النميرى يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختلف فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر إلى فقلت أعجب من جمالك وكمالك . فقال إن الله ليعجب منى قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذته بعض قرابته فى كفه وذهب به

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام واختلف في سببه فمن ابن عباس والسدي أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تهت موسى بحضرة الملائكة من بني إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول يا موسى إنك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملائكة لموسى عليه السلام أريد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال ، أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرني بالذي حملك على ما قلت ؟ فقالت أما إذا نشدتني فإن قارون أعطاني كذا وكذا على أن أقول ذلك لك وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله في قارون فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه فأمر موسى الأرض أن تبطلعه وداره فكان ذلك . وقيل إن قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهورا كب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة فمر في محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرف وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال يا موسى أما لئن كنت فضلت على النبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لنخرجن فلتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون في قومه فقال موسى عليه السلام تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال بل أدعونا فدعا قارون فلم يجبه ثم قال موسى أدعو ؟ قال نعم فقال موسى اللهم مرا الأرض أن تطيعني اليوم فأوحى الله إليه أني قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أقدامهم . ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ثم إلى مناكبهم ثم قال أقبلي بكنوزهم وأموالهم قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بني لاوى فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة وقال قتادة ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قائمة فهم يتجلبجلون فيها إلى يوم القيامة ، وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا . وقوله تعالى (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو في نفسه منتصرا لنفسه فلانصرله من نفسه ولا من غيره

وقوله تعالى (وأصبح الذين آمنوا مكانه بالأمان) أي الذين لما رأوه في زينته (قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم) فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه فإن الله يعطي ويمنع ويشيق ويوسع ويخفف ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » (لولا أن من الله علينا لحسف بنا) أي لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لحسف بنا كما خسف به لآل داود نأان نكون مثله (ويكأنه لا يفلح الكافرون) يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله لافي الدنيا ولا في الآخرة وقد اختلف النحاة في معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويكأن اعلم أن ولكن خفف فقليل ويكأن ودل فتح أن على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوى ولا يشك على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن ، والكتابة أمروضية اصطلاحية والمرجع إلى اللفظ العربي والله أعلم ، وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة . وقيل معناها ويكأن ففصلها وجعل حرف وي للتعجب أول التنبية وكأن بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير وأقوى الأقوال في هذا قول قتادة إنها بمعنى ألم تر أن واستشهد بقول الشاعر :

سالتني الطلاق إذ رأيتني قل مالي وقد جفمتني بنكر

ويكأن من يكن له نسب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْمُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها للعبادة المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض أى ترفعاً على خلق الله وتعظماً عليهم وتجبراً بهم ولا فساداً فيهم كما قال عكرمة العلو: التجبر . وقال سعيد بن جبير العلو البغي وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين العلو في الأرض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جرير (لا يريدون علواً في الأرض) تعظماً وتجبراً (ولا فساداً) عملاً بالمعاصي . وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن أشعث السمان عن أبي سلام الأعرج عن علي قال : إن الرجل ليعجبه من شركائه نعله أن يكون أجود من شركائه نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم كاثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك ؟ فقال « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » . وقال تعالى (من جاء بالحسنة) أى يوم القيامة (فله خير منها) أى ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة وهذا مقام الفضل ، ثم قال (ومن جاء بالسيدة) فلا يحزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون (كما قال في الآية الأخرى) (ومن جاء بالسيدة) فكبت وجوههم في النار ، هل يجزون إلا ما كنتم تعملون) وهذا مقام الفضل والعدل

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِنْ لَرَآذُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُنْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ * وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُفَّ شَيْءٌ هَٰذَاكَ إِلَّا وَجْهَهُ لهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

يقول تعالى أمراً برسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، وتخبراً له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى افترض عليك أدائه إلى الناس (لرادك إلى معاد) أى إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وقال تعالى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أنجيتهم) وقال (وحى بالنبیین والشهداء) وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدي وقال أبو سعيد مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لرادك إلى معاد) قال إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهري وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) إلى الموت ولهذا طرق عن ابن عباس رضى الله عنهما وفي بعضها لرادك إلى معدنك من الجنة وقال مجاهد يحبك يوم القيامة وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قرعة وأبي مالك وأبي صالح وقال الحسن البصري إى والله إن له لماداً فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك كما قال البخاري في التفسير من صحيحه حدثنا محمد بن مقاتل أنبأنا يعلى حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال إلى مكة وهكذا رواه النسائي في تفسيره عنه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الدناقى به وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أى لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد ابن إسحق عن مجاهد في قوله (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة . وقال ابن أبي حاتم وقد روى عن ابن عباس ويحيى ابن الجرار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك . وحدثنا أبي حدثنا بن أبي عمر قال : قال سفيان فسمعتاه من

مقاتله منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله عليه (إن الذي فرض عليك الكتاب لرادك إلى معاد) إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضى أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكية والله أعلم . وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله تعالى (لرادك إلى معاد) قال هذه ما كان ابن عباس يكتمها . وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القارى أنه قال في قوله (لرادك إلى معاد) قال إلى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع إلى قول من فسر ذلك بيوم القيامة لأن بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمانة على اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخر السورة أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم ، ولهذا نُسِر ابن عباس تارة أخرى قوله (لرادك إلى معاد) بالموت وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الإنس والجن ، ولأنه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الإطلاق وقوله تعالى (قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) أى قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أى أما كنت تظن قبل انزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك (ولكن رحمة من ربك) أى إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة (فلا تكونن ظهيراً) أى معيناً (للكافرين) ولكن فارقههم وناذهم وخالفهم (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) أى لا تتأثر لخالفهم لك وصدهم الناس عن طريقك لا تلوى على ذلك ولا تباله فإن الله معك كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ولهذا قال (وادع إلى ربك) أى إلى عبادة ربك وحده لا شريك له (ولا تكونن من المشركين) وقوله (ولا تدع مع الله الهاً آخر لا إله إلا هو) أى لا تليق العبادة إلا له ولا تنبغى الإلهية إلا لعظمته . وقوله (كل شئ هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) فعبّر بالوجه عن الذات وهكذا قوله ههنا (كل شئ هالك إلا وجهه) أى إلا إياه وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد * ألا كل شئ ما خلا الله باطل * » وقال مجاهد والثورى فى قوله (كل شئ هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كما لقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

أستغفر الله ذنباً لست محصيه * رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الدوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فانه الأول الآخر الذى هو قبل كل شئ وبعد كل شئ . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدينافى كتاب التفسير والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلى حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الحربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين : فيقول أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول (كل شئ هالك إلا وجهه) وقوله (له الحكم) أى الملك والتصرف ولا معقب لحكمه (وإليه ترجعون) أى يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . آخر تفسير سورة القصص والحمد لله

﴿ تفسير سورة العنكبوت وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ نَحْشِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) استفهام انكار ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان كما جاء في الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » وهذه الآية كقوله (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ومثلها في سورة براءة وقال في البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) ولهذا قال ههنا (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا يجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله (إلا لعلم) إلا لرى وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالمعوم والموجود

وقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون) أي لا يحسن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والشكال ما هو أغلظ من هذا وأظم ولهذا قال (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أي يفوتونا (ساء ما يحكمون) أي بش ما يظنون

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (من كان يرجو لقاء الله) أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل فإن الله سيحقق له رجاؤه ويوفيه عمله كاملا موفرا فإن ذلك كائن لا محالة لأنه مسمع الدعاء بصير بكل الكائنات ولهذا قال تعالى (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم) وقوله تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه) كقوله تعالى (من عمل صالحا فلنفسه) أي من عمل صالحا فإنما يعود نفع عمله على نفسه فإن الله تعالى غنى عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئا ولهذا قال تعالى (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) قال الحسن البصري : إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف . ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع بره وإحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال ههنا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزيهم أحسن الذي كانوا يعملون)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْتَبِهُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فان الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالانفاق والوالدة بالاشفاق ، ولهذا قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما للتقدم قال (وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أى وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك فان مرجعكم إلى يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا فان المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أى حبا دينياً ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) وقال الترمذى عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن بشار ثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال نزلت في أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما فنزلت (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضاً وقال الترمذى حسن صحيح

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) قال ابن عباس يعنى فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ في الله وكذا قال غيره من علماء السلف ، وهذه الآية كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه - إلى قوله - ذلك هو الضلال البعيد) ثم قال عز وجل (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أى ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أى إخوانكم في الدين كما قال تعالى (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين وقال تعالى (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) ثم قال الله تعالى (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أى أو ليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة ؟ وقوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) أى وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليميز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه

في حظ نفسه كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم) وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان (ما كان الله لينذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) الآية

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتُمْ لَا أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أي وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي، قال الله تعالى تكذيباً لهم (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) أي فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) وقال تعالى (ولا يسئل حميم حميماً يصرونهم) وقوله تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزاراً آخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً كما قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية وفي الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الأثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » وفي الصحيح « ما قتلت نفس ظمأ إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » وقوله تعالى (وليستأن يوم القيامة عما كانوا يفترون) أي يكذبون ويخلفون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فقال : حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن حفص بن أبي العالية حدثني سليمان بن حبيب المحاربي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلغ ما أرسل به ثم قال « يا أيكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزى وجلالى لا يجوزنى اليوم ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان بن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ثم يأمر المنادى فينادى من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلهم فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن فيقول الرحمن اقضوا عن عبيدى فيقولون كيف تقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقي من أصحاب الظلمات فيقول اقضوا عن عبيدى فيقولون لم يبق له حسنة فيقول خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه » ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليستأن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا وأخذ من عرض هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا لم يبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة الثمالي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعيه فلا ألفينك تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك » .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة

يدعوم إلى الله تعالى ليلا ونهاراً وسراً وجهاراً ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكذيباً له وما آمن معه منهم إلا قليل ولهذا قال تعالى (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى بعد هذه المدة الطويلة ما نجى فيهم البلاغ والاندثار فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويده الأمر وإليه ترجع الأمور (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية) الآية واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويدل عدوك ويكتبهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال حماد بن سلمة عن علي ابن زيد عن يوسف بن ما هك عن ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفشوا ، وقال قتادة يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً لبت فيهم قبل أن يدعوم ثلثمائة سنة ودعاهم ثلثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين عاماً وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقال يعون بن أبي شداد إن الله تعالى أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فدعاهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وهذا أيضاً غريب رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقول ابن عباس : أقرب والله أعلم وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً قال فإن الناس لم يزلوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا ، وقوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى الذين آمنوا بنوح عليه السلام وقد تقدم ذكر ذلك مفصلاً في سورة هود ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته ، وقوله تعالى (وجعلناها آية للعالمين) أى وجعلنا تلك السفينة باقية إماميتها كما قال قتادة إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون *) وخلقنا لهم من مثله ما يركبون - إلى قوله - ومتاعاً إلى حين) وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وقال ههنا (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) وهذا من باب التدرج من الشخص إلى الجنس كقوله تعالى (ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) أى وجعلنا نوعها رجوماً فإن التي يرمى بها ليست هي زينة للسماء وقال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين *) ثم جعلناه نقطة في قرار مكين) ولهذا نظر كثرة وقال ابن جرير : لو قيل إن الضمير في قوله (وجعلناها) عائد إلى العقوبة لكان وجهاً والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبِغُ الْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليفه إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مسدى لها غيره فقال لقومه (اعبدوا الله واتقوه) أى أخلصوا له العبادة والخوف (ذللكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تنفع ولا تنفع وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وإنما هي مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال مجاهد والسدى ، وروى الوالي عن ابن عباس وتصنعون إفكاً أى تنتحونها أصناماً وبه قال مجاهد في رواية ، وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله . وهى لا تملك لكم رزقاً (فابتغوا عند الله الرزق) وهذا بلغ في الحصر

كقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) (رب ابن لي عندك بيتا في الجنة) ولهذا قال (فابتغوا) أي فاطلبوا (عند الله الرزق) أي لا عند غيره فان غيره لا يملك شيئا (واعبدوه واشكروا له) أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم (إليه ترجعون) أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أي قبلكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) يعني إتمام الرسل أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء وقال قتادة في قوله (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) قال يعزى نبيه ﷺ وهذا من قتادة يقتضى أنه قد انقطع الكلام الأول واعترض بهذا إلى قوله (فما كان جواب قومه) وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضاً. والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام محتج عليهم لاثبات المعاد لقوله بعد هذا كله (فما كان جواب قومه) والله أعلم

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِنَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ بِرَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين فالذي بدأ هذا قادر على إعادته فانه سهل عليه يسير لديه، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرارى وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار. كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون ولهذا قال (أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير) كقوله تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) ثم قال تعالى (قل سيرا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) أي يوم القيامة (إن الله على كل شيء قدير) وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وكقوله تعالى (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ؟ * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقوله تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء) أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فله الخلق والأمر مهما فعل فعُدل لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن « إن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ولهذا قال تعالى (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون) أي ترجعون يوم القيامة وقوله تعالى (وما أنتم بمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه) أي جحدوها وكفروا بالمعاد (أولئك يسوء من رحمى) أي لا نصيب لهم فيها (وأولئك لهم عذاب أليم) أي موجه شديد في الدنيا والآخرة

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنْ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) وذلك لأنهم قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملسكهم (فقالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حطبها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا إلى إبراهيم فكثفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما . فانه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيافان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان . وقوله تعالى (فأنجاه الله من النار) أى سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضهم لبعض في الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه إنما اتخذكم هذا لحصل لكم المودة في الدنيا فقط (ثم يوم القيامة) ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضا وشحنانا ثم (يكفر بعضهم ببعض) أى تتجادون ما كان بينكم (ويلعن بعضهم بعضا) أى يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال ههنا (ثم يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ومأواكم النار) الآية أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالككم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا أبو عاصم الثقفي ثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة ابن هبيرة الخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفان ؟ » قالت الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرثون - قال أبو عاصم يرفعون رءوسهم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم - قال - فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعنى المظالم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ليغف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب »

﴿ فَتَأْمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم أنه آمن له لوط يقال إنه ابن أخى إبراهيم ، يقولون هو لوط بن هاران بن آزر يعنى ولم يؤمن به من قومه سواء وسارة امرأة إبراهيم الخليل لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح أن إبراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل إبراهيم عن سارة ما هى منه فقال أختى ، ثم جاء إليها فقال لها انى قد قلت له إنك أختى فلا تكذيبينى فانه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك فأنت أختى في الدين . وكان المراد من هذا والله أعلم أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الاسلام غيرى وغيرك فان لوطا عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ثم أرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وإقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتى

وقوله تعالى (وقال إني مهاجر إلى ربي) يحتمل عود الضمير في قوله (وقال) على لوط لأنه هو أقرب المذكورين ويحتمل عوده إلى إبراهيم . قاله ابن عباس والضحاك وهو المكنى عنه بقوله (فأمن له لوط) أي من قومه ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء اظهار الدين والتحكيم من ذلك ولهذا قال (إنه هو العزيز الحكيم) أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشرعية . وقال قتادة: هاجرا جميعا من كوثي وهى من سواد الكوفة إلى الشام . قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله عز وجل وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا وتأكل ماسقط منهم » وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال : لما جاءتنابيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته إذ جاء رجل فانتبذ الناس وعليه خميصة فاذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها فتلفظهم أرضهم وتقذرهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلف منهم » قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سيخرج أناس من أمي من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع - حتى عدّها زيادة على عشرين مرة - كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم » ورواه الإمام أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به ، وقد رواه أبو داود في سننه فقال في كتاب الجهاد (باب ما جاء في سكنى الشام) حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا معاذ بن هشام حدثني (١) عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ستكون هجرة بعد هجرة وينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها فتلفظهم أرضهم ، وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا أبو جناد يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لئن أقمتم أذناب البقر وتباعتم بالعينه وتركتم الجهاد في سبيل الله ليلزمكم الله مذلة في أعناقكم لا تفرج منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه وتنبؤوا إلى الله تعالى » وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضهم ، وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تقبل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث يسيئون وما سقط منهم فلها » ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول « يخرج قوم من أمي يسيئون الأعمال يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم - قال يزيد لأعلمه إلا قال - يختر أحسنكم علمه مع علمهم يقتلون أهل الإسلام فاذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قطعه الله » فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع وقال الحافظ أبو بكر البیهقي حدثنا أبو الحسن بن الفضل أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو النضر إسحق بن إبراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الأوزاعي عن نافع ، وقال أبو النضر عمن حدثه عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم حتى لا يبقى إلا شرار أهلها تالفظهم الأرضون وتقذرهم روح الرحمن ؛ وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا لها ماسقط منهم » غريب من حديث نافع والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخه من الضعفاء والله أعلم . وروايته من حديث

عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ . وقوله تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) قوله (فلما اعترزهم وما يعبدون من دون الله ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا) أى أنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده وكذلك قال تعالى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة) أى زيادة كما قال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه القرآن وثبتت به السنة النبوية قال الله تعالى (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا) الآية وفي الصحيحين « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام » فاما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله (ووهبنا له إسحاق ويعقوب) قال هما ولدا إبراهيم فعناه أن ولد الولد بمنزلة الولد فان هذا الأمر لا يكاد يخفى على من هودون ابن عباس . وقوله تعالى (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلا وجعله للناس إماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالة فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم فقام في ملتهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة . الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام . وقوله (وآتيناه أجره في الدنيا وإياه في الآخرة لمن الصالحين) أى جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والنزل الرحب ، والمورد العزب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه كما قال تعالى (وإبراهيم الذي وفى) أى قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ولهذا فل تعالى (وآتيناه أجره في الدنيا وإياه في الآخرة لمن الصالحين) وكما قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة فانا لله حنيفا ولم يك من المشركين - إلى قوله - وإياه في الآخرة لمن الصالحين)

﴿ وَلَوْ طَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَآتُونَ الْفُجْحَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * أَتَيْنَكُم لَنَآتُونَ الرَّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُذَنِّبُ أَمْ أَتُنَادِي بِتُذَنِّبِ الْغَالِبِ إِنَّ كُنْتُمْ مِنَ الْمُصْذِقِينَ * قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبائح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل أى يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم (وتأتون في ناديك المنكر) أى يفعلون مالا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيئا من ذلك فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملا قاله مجاهد ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون قاله عائشة رضي الله عنها والقاسم ، ومن قائل كانوا يناطحون بين السكباش ويناقرون بين الديوك وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شرا من ذلك ، وقال الإمام أحمد حدثنا حماد بن أسامة أخبرني حاتم بن أبي صغيرة حدثنا سماك ابن حرب عن أبي صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (وتأتون في ناديك المنكر) قال « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي أسامة حماد بن رسامة عن أبي يونس القشيري عن حاتم بن أبي

صغيرة به . ثم قال الترمذى هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن ممالك ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير عن عمرو بن قيس عن الحكم عن مجاهد (وتأتون فى نادىكم المنكر) قال الصغير ولعب الحمام والجلايق والسؤال فى المجلس وحل أزرار القباء ، وقوله تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قال ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال (رب انصرنى على القوم المفسدين)

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْلِكُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنْ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بَئِمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لصهرته ملائكة فدروا على إبراهيم عليه السلام فى هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغي للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام شكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه فى سورة هود والحجر فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية (ول إن فى لوطا ، ولوا نحن أعلم بمن فيها لننجيهم وأهلها إلا امرأته كانت من الغابرين) أى من المهلكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيتهم وديارهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شبان حسان فلما رأهم كذلك (ساء بهم وصاف بهم ذرعا) أى ألتم بهم أنهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يشفهم خشى عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم فى الساعية الزائلة (فلو لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين بعيد . وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجمعهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم العاد . ولهذا قال تعالى (ولقد تركنا منها آية بيضاء لى واضحة) لقوم يعقلون (كما قال تعالى) وإنكم لتخرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون (

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمروهم بعبادة الله وحده لا شريك له وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة فقال (يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) قال ابن جرير قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر وهذا كقوله تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) وقوله (ولا تعسوا فى الأرض مفسدين) نهاهم عن العيش فى الأرض بالفساد وهو السعى فيها والبنى على أهلها وذلك أنهم كانوا ينقصون السكيات والميزان ويقطعون الطريق على الناس هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم وسيجة أخرجت القلوب من حناجرها وعذاب يوم

الظلة الذى أزهق الأرواح من مستقرها إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطه في سورة الأعراف وهود والشعراء ، وقوله (فأصبحوا في دارهم جاثمين) قال قتادة ميتين ، وقال غيره قد ألقى بعضهم على بعض

﴿ وَعَادًا وَنَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فصدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ * فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم الكاذبة لارسل كيف أبادهم وتنوع في عذابهم وأخذهم بالانتقام منهم فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهى قرية من حضرموت بلاد اليمن ، ونمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى . وكانت العرب تعرف مساكنهما جيدا وتمر عليها كثيرا ، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومنا تبيع الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ (فكلا أخذنا بذنبه) أى كانت عقوبته بما يناسبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم عاد وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد غاتية شديدة الهبوب جدا تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقها عليهم وتقتلهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشده فيه فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر (ومنهم من أخذته الصيحة) وهم نمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهجدوا نبي الله صالحا ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجئوهم فجاءتهم صيحة أخذت الأصوات منهم والحركات (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى ومشى فى الأرض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد أنه أفضل من غيره واختال فى مشيته فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (ومنهم من أغرقنا) وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر (وما كان الله ليظلمهم) أى فيما فعل بهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية وهو من باب ألف والنشر وهو أنه ذكر الأمم الكاذبة ثم قال (فكلا أخذنا بذنبه) أى من هؤلاء المذكورين وإنما نهت على هذا لأنه قد روى ابن جرير قال : قال ابن عباس فى قوله (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أغرقنا) قال قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس فإن ابن جرير لم يذكره . ثم قد ذكر الله فى هذه السورة إهلاك قوم نوح بالطوفان ، وقوم لوط بانزال الرجز من السماء وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق ، وقال قتادة (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) قال قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) قوم شعيب وهذا بعيد أيضا لما تقدم والله أعلم

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْمَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْمَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

هذا مثل ضرب به الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دونه الله يرجون نصرهم ووزقهم ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك

كسبت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئا فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ، ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم ، ثم قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتسلعون منه . قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل ، وهذه منقبة عظيمة لعمر بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا أبي حدثنا ابن سنان عن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنتني لأنني سمعت الله تعالى يقول (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق يعني لا على وجه العبث والالعب (لتجزى كل نفس بما تسعى) (لتجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وقوله تعالى (إن في ذلك لآية للمؤمنين) أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وإبلاغه للناس (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكركم الله أكبر) يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك (وقد جاء في الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزده من الله إلا بعدا »

﴿ ذكر الآثار الواردة في ذلك ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن هارون المحرمي الفلاس حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد حدثنا عمر ابن أبي عثمان حدثنا الحسن بن عمران بن حصين قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاته » وحدثنا علي بن الحسين حدثنا يحيى بن أبي طلحة اليربوعي حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدا » ورواه الطبراني من حديث أبي معاوية . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عن ذكره عن ابن عباس في قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ونهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله إلا بعدا . فهذا موقف قال ابن جرير وحدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جوير عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة » وطاعة الصلاة أن تنه عن الفحشاء والمنكر . قال : قال سفيان (قالوا يا شعيب أسألتك تأمرك) قال : فقال سفيان إني والله تأمره وتنهيه

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن جوير عن الضحاك عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « وقال أبو خالد مرة عن عبد الله - « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة تنه عن الفحشاء والمنكر » والموقوف أصح كما رواه الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال قيل لعبد الله إن فلانا يطيل الصلاة قال إن الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها . وقال ابن جرير حدثنا علي حدثنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعداً » والأصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والأعمش وغيرهم والله أعلم . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف ابن موسى أنبأنا جرير - يعنى ابن عبد الحميد - عن الأعمش عن أبي صالح قال أراه عن جابر شك الأعمش قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق قال « سينها ما تقول » وحدثنا محمد بن موسى الجرشي أخبرنا زياد بن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يشك ثم قال : وهذا الحديث قد رواه عن الأعمش غير واحد واختلفوا في إسناده فرواه غير واحد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو غيره وقال قيس عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال جرير وزيد عن عبد الله عن الأعمش عن أبي صالح عن جابر ، وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع أخبرنا الأعمش قال أرى أبا صالح عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق فقال « إنه سينها ما تقول » . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الأكبر ولهذا قال تعالى (ولله أكبر) أى أعظم من الأول (والله يعلم ما تصنعون) أى يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . وقال أبو العالية في قوله تعالى (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال إن الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الحلال فليست بصلاة : الإخلاص والخشية وذكر الله فالإخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهى عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهى ، وقال ابن عون الأنصارى إذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر وقال حماد بن أبي سليمان (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى ما دمت فيها ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولله أكبر) يقول ولله أكبر لله عبادته أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن داود بن أبي هند عن رجل عن ابن عباس (ولله أكبر) قال ذكر الله عند طعامك وعند منامك ، قلت فان صاحباً الى فى المنزل يقول غير الذى تقول ، قال وأى شيء يقول ؟ قلت قال يقول الله تعالى (فاذا كرؤى أذكركم) فلذ كر الله إياناً أكبر من ذكرنا إياه قال : صدق قال وحدثنا أنس بن مالك عن سفيان بن عيينة عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولله أكبر) قال لها وجهان قال ذكر الله عند ما حرمه قال وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى (ولله أكبر) ؟ قال : قلت نعم ، قال : فما هو ؟ قلت التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجيباً وما هو كذلك ولكنه إنما يقول ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إياه ، وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وروى أيضاً عن ابن مسعود وأبي الدرداء وسلمان الفارسي وغيرهم واختاره ابن جرير

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف وقال آخرون بل هى باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتي هى أحسن ليكون أتبع فيه كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) الآية وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون (فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى) وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد . وقوله تعالى (إلا الذين ظلموا منهم) أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحق وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدل إلى الجلال

ويقاتلون بما يمنعونهم ويردعهم قال الله عز وجل (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد - إلى قوله - إن الله قوى عزيز) قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضرب به بالسيف ، قال مجاهد (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) يعنى إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيمانا محملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون » وهذا الحديث تفرد به البخارى . وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو أخبرنا يونس عن الزهري أخبرنى ابن أبى نملة أن أبا نملة الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الله أعلم » قال اليهودى أنا أشهد أنها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وإن كان باطلا لم تصدقوهم » (قلت) وأبو نملة هذا هو عمارة وقيل عمار وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصارى رضى الله عنه ثم أعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقول فائدة كثير منه لو كان صحيحا . قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عاصم أخبرنا سفيان عن سليمان بن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث بن ظهير عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل فانه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفى قلبه نالية تدعوه إلى دينه كسالية المال ، وقال البخارى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنا ابن شهاب عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث تقرءونه محضاً لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم ، وقال البخارى وقال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرنى حميد ابن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدث رهظا من قرىش بالمدينة وذكر كعب الأخبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء الحديثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب (قلت) معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة لأنهم لم يكن فى ملتهم حفاظ متنبهون كهذه الأمة العظيمة ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة فى هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل ومن منحه الله تعالى علما بذلك كل بحسبه والله الحمد والمنة

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْقَلْمُ عَلَيْكَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ، وهذا الذى قاله حسن ومناسبه وارتباطه جيد ؛ وقوله تعالى (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) أى الذين أخذوه

فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما ، وقوله تعالى (ومن هؤلاء من يؤمن به) يعنى العرب من قريش وغيرهم (وما يحجد بآياتنا إلا الكافرون) أى ما يكذب بها ويحجدها إلا من يستتر الحق بالباطل ، ويغضى ضوء الشمس بالوصلات وهيهات ، ثم قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك) أى قد لبثت فى قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لاتقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أحمى لاتقرأ ولا تكتب وهكذا صفته فى الكتب المتقدمة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأحمى الذى يجذونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) الآية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحى والرسائل إلى الأقاسم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله . فأنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : ثم أخذ فكتب . وهذه محاولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى وتبرءوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعنى الباجى - فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلم إخباراً عن الدجال « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية « ك ف ر » ، يقرأها كل مؤمن « وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعف لا أصل له ، قال الله تعالى (وما كنت تتلو) أى تقرأ (من قبله من كتاب) لتأكيد النفي ولا تخطه يمينك تأكيد أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) . وقوله تعالى (إذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أحمى لا يحسن الكتابة (وقالوا أساطير الأولين) ككتبتها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) قال الله تعالى (قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض) الآية وقال ههنا (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) أى هذا القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » وفى حديث عياض بن حماد فى صحيح مسلم يقول الله تعالى « إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا » أى لو غسل الماء الحبل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك الحبل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر « لو كان القرآن فى إهاب ما أحرقته النار » ولأنه محفوظ فى الصدور ميسر على الألسنة مهيم على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أناجيلهم فى صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه يمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى (وما يحجد بآياتنا إلا الظالمون) أى ما يكذب بها ويحجس حقها ويردها إلا الظالمون أى المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويخيدون عنه كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي

وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدكم إلى أن محمدا رسول الله كما أتى صالح بناته قال الله تعالى (قل) يا محمد (إنما الآيات عند الله) أي إنما أمر ذلك إلى الله فانه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتنان فلا يجيبكم إلى ذلك كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون * وآتينا نوحا البصرة فظلموا بها) وقوله (وإنما أنا نذير مبين) أي إنما بعثت نذيرا لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله تعالى و (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) وقال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم وسخافة عقولهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذي هو أعظم من كل معجزة اذعجت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبا ما بعدهم وحكم ما بينهم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتكم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي كما قال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وقال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتئهم بينة ما في الصحف الأولى) وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » أخرجه من حديث الليث . وقد قال الله تعالى (إن في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون) أي إن في هذا القرآن لرحمة أي بيانا للحق وإزاحة للباطل وذكري بما فيه حلول النعمات ونزول العقاب بالكاذبين والعاصين لقوم يؤمنون ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيبى وبينكم شهيذا) أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من اخباري عنه بأنه أرسلني فلو كنت كاذبا عليه لاتنقم مني كما قال تعالى (ولوتقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وإنما أنا صادق عليه فيما أخبركم به ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات (يعلم ما في السموات والأرض) أي لا تخفى عليه خافية (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) أي يوم القيامة سيجزىهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزىهم على ذلك إنه حكيم عليم

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لِّجَاءِهِمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَفْشَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال ههنا (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة

لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ثم قال (وليأتينهم بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة. قال شعبة عن سماك عن عكرمة. قال فى قوله (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) قال البحر وقال ابن حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عمر بن إسماعيل بن مجالد حدثنا أبى عن مجاهد عن الشعبي أنه سمع ابن عباس يقول (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الله بن أمية حدثنى محمد بن حبي أخبرنى صفوان بن يعلى عن أبيه أن النبى ﷺ قال « البحر هو جهنم » قالوا ليعلى فقال : ألا ترون أن الله تعالى يقول (ناراً أحاط بهم سرادقها) قال لا والذى نفس يعلى بيده لا أدخلها أبداً حتى أعرض على الله ولا يصيبني منها قطرة حتى أعرض على الله تعالى هذا تفسير غريب وحديث غريب جداً والله أعلم ثم قال عز وجل (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) كقوله تعالى (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال تعالى (لهم من فوقهم ظلمل من النار ومن تحتهم ظلمل) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) الآية فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب الحسى وقوله تعالى (وتقول ذوقوا ما كنتم تعملون) تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى (يوم يسبحون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شئ خلقناه بقدر) وقال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعاء * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا اصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

(يَعْبادِى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيسَىٰ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِيَّاهُ كَمَا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدر فى فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحى الله ويعبدوه كما أمرهم ولهذا قال تعالى (يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو والقريشى حدثنى أبو سعد الأنصارى عن أبى بحر مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فاقم » ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليؤمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك أصحابمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فأواهم وأيدهم بنصره وجعلهم سيوما ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقيون إلى المدينة النبوية يشرب المطهرة ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون) أى أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا فى طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فان الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ووافاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبؤنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار) أى لنسكنهم منازل عالية فى الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويحرقونها حيث شاءوا (خالدين فيها) أى ما كثر فيها أبداً لا ييغون عنها حولا (نعم أجر العاملين) نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين (الذين صبروا) أى على دينهم وهاجروا إلى الله وناذبوا الأعداء

وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ورجاء ما عنده وتصديق مواعوده قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي أخبرنا صفوان المؤذن أخبرنا الوليد بن مسلم أخبرنا معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام الأسود حدثني أبو معاوية الأشعري أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام (وعلى ربهم يتوكلون) في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم . ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة بل رزقه تعالى عام لحلقه حيث كانوا وأين كانوا بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب فانهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ولهذا قال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد (الله يرزقها وإياكم) أي الله يفيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى النهر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء . قال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن المهروزي حدثنا يزيد يعني ابن هارون حدثنا الجراح بن منهال الجزري - هو أبو العطف - عن الزهري عن رجل عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال قلت لأشتهي يا رسول الله قال « لكنني أشتهي وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال فوالله ما برحنا ولا رما حتى نزلت (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) فقال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دينه يريد بها حياة باقية فان الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد » هذا حديث غريب وأبو العطف الجزري ضعيف وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيفيض الله تعالى طيرا صغارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فسكما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحنانة والثرق ولهذا قال الشاعر

يا رازق النعاب في عشه * وجابر العظم الكسير المهض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر كقول النبي ﷺ « سافروا تصحوا وترزقوا » قال البيهقي أخبرنا إمام أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد أخبرنا محمد بن غالب حدثني محمد بن سنان أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا تصحوا وتغنموا » قال ورويناه عن ابن عباس ، وقال الإمام أحمد حدثنا قبيصة أخبرنا ابن لهيعة عن دراج عن عبد الرحمن بن حنيفة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا » وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا وعن معاذ بن جبل موقوفا ، وفي لفظ « سافروا مع ذوى الجسد والميسرة » قال ورويناه عن ابن عباس وقوله (وهو السميع العليم) أي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مقررًا أنه لا إله إلا هو لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم . ففناوت بينهم الغنى والفقر وهو العليم بما يصلح كلامهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلييتهم : لييك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَمَبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب (وإن الدار الآخرة هي الحيوان) أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الآباد ، وقوله تعالى (لو كانوا يعلمون) أي لا أتروا ما يبقى على ما ينفي ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائماً (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) الآية وقال ههنا (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عكرمة بن أبي جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها فلما ركب في البحر لينذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا ربكم الدعاء فانه لا ينجى ههنا إلا هو فقال عكرمة والله لئن كان لا ينجى في البحر غيره فانه لا ينجى في البر أيضاً غيره اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلا ضعن يدي في يد محمد فلا جدنه رء وفارحياً فكان كذلك وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لا يقصدون ذلك ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إليهم لذلك فهي لام التعليل ، وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله (ليكون لهم عدواً وحزناً)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا وُتَجَافَىٰ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمة الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً كما قال تعالى (لا يلاف قريش) إلى آخر السورة . وقوله تعالى (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون) أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد (بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) فكفروا بنبي الله وعبدوا رسوله فكان اللائق بهم إخلاص العادة لله وأن لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فكذبوه فقاتلوه فأخرجوه من بين ظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم بيد ثم

صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأذل رقابهم ، ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شئ . ومن قال ما أنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى (أليس في جهنم مثوى للكافرين) ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا) يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين (لنهدينهم سبلنا) أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا في الدنيا والآخرة . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري أخبرنا عباس الحمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين) قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله فلا يعلمون قال أحمد بن أبي الحواري فحدثت به أبا سليمان يعنى الداراني فأعجبه وقال ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما في قلبه . وقوله (وإن الله لمع الحسنيين) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن الغيرة عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك والله أعلم . آخر تفسير سورة العنكبوت والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة الروم وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ اَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي اٰذْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِّنۢۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ * فِيۢ بَضْعِ سِنِيْنَ ۗ لِلّٰهِ اَلْاَمْرُ مِّنۢۢ قَبْلُ وَمِنْۢۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍۭ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ * بِنَصْرِ اللّٰهِ يَنْصُرُ مَنۢۢ يَّشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيْمُ * وَعَدَ اللّٰهُ لَا يَخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُوْنَ * يَعْلَمُوْنَ ظَهْرًا مِّنۢۢ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُوْنَ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سايور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقصى بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سبأنى . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو إسحاق عن سفيان الثورى عن حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض) قال غلبت وغلبت ، قال كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - » قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله (الم * غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون - إلى قوله - وهو العزيز الرحيم) هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبى إسحاق الفزارى عن سفيان الثورى به وقال الترمذى حديث حسن غريب إنما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب . ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق الصاغانى عن معاوية بن عمرو به . ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن سعيد أوسعيد الثعلبى الذى يقال

له أبو سعد من أهل طرسوس حدثنا أبو إسحاق الفزاري قد كره ، وعندهم قال سفيان قبلني أنهم غلبوا بعد يوم بدر
 (حديث آخر) قال سليمان بن مهران الأعمش عن مسلم عن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان
 واللزام والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربي عن داود بن أبي هند
 عن عامر - هو الشعبي - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كانت فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون
 أن تظهر فارس على الروم . وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم
 فلما نزلت (الم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) قالوا يا أبا بكر إن صاحبك
 يقول إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين قال : صدق قالوا هل لك أن تقامرك فبايعوه على أربع قلائص إلى
 سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال
 « ما بضع سنين عنكم ؟ » قالوا دون العشر قال « اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » قال فامضت الستين حتى
 جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم - إلى قوله تعالى -
 وعد الله لا يخلف الله وعده) (حديث آخر) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عمر الوكيعي
 حدثنا مؤمن عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال لما نزلت (الم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم
 من بعد غلبهم سيغلبون) قال المشركون لأبي بكر ألا ترى إلى ما يقوم صاحبك يزعم أن الروم تغلب فارس قال صدق
 صاحبي قالوا هل لك أن نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلا فجعل الأجل قبل أن تغلب الروم فارس فباع ذلك النبي
 صلى الله عليه وسلم وساء ذلك وكرهه وقال لأبي بكر « مادعاك إلى هذا ؟ » قال تصديقا لله ولرسوله . قال
 « تعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله إلى بضع سنين » فأتاهم أبو بكر فقال هل لكم في العود فإن العود أحمد؟ قالوا نعم
 فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية ، فجاء أبو بكر إلى النبي صلى الله
 عليه وسلم فقال : هذا السحت ، قال « تصدق به » (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذي حدثنا محمد بن إسماعيل
 حدثنا إسماعيل بن أبي أويس أخبرني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمي قال : لما نزلت
 (الم * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين) فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية
 قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لأنهم وإياهم أهل كتاب وفي ذلك قوله تعالى (يومئذ يفرح
 المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل
 كتاب ولا إيمان يبعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة (الم * غلبت الروم في أدنى الأرض
 وهم من غلبهم سيغلبون * في بضع سنين) فقال ناس من قريش لأبي بكر فذاك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم
 ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان ، فارتهن أبو بكر والمشركون
 وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر كم نجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطاً انتهى إليه قال
 فسموا بينهم ست سنين قال فمضت ست السنين قبل أن يظهر وأخذوا المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة
 السابعة ظهرت الروم على فارس قال فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين قال لأن الله يقول في بضع سنين
 قال فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذي ثم قال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن
 ابن أبي الزناد ، وقد روى نحو هذا مرسل عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري
 وغيرهم ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود في تفسيره حيث قال حدثني حجاج عن أبي بكر بن عبد الله عن
 عكرمة قال : كان في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال فدعاها كسرى فقال إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشاً
 وأستعمل عليه رجلاً من بنيك فأشيرى على أيهم أستعمل ؟ ! فقالت هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر
 وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان ، وهذا شهريراز وهو أحلم من كذا تعنى أولادها الثلاثة فاستعمل أيهم شئت ،
 قال فاني استعملت الحلیم فاستعمل شهريراز فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر عليهم فقتلهم وخرّب مدائنهم وقطع

زيتونهم قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال أما رأيت بلاد الشام ؟ قلت : لا ، قال أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت والزيتون الذي قطع فأنتيت الشام بعد ذلك فرأيت . قال عطاء الخراساني حدثني يحيى بن يعمر أن قيصراً بعث رجلاً يدعى قطعة بجيش من الروم وبعث كسرى شهر يراز فالتقيا بين أذرعات وبصرى وهى أدنى الشام إليكم فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون . قال عكرمة : ولقي المشركون أصحاب النبي ﷺ وقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم فأنزل الله تعالى (الم * غلبت الروم في أدنى الأرض - إلى قوله - ينصر من يشاء) فخرج أبو بكر الصديق إلى الكفار فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم فوالله ليظهرن الله الروم على فارس ، أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبي بن خلف فقال كذبت يا أبا فضيل ، فقال له أبو بكر : أنت أ كذب يا عدو الله فقال أنا حبيبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين ، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره فقال « ما هكذا ذكرت إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايدة في الخطر ومادة في الأجل » فخرج أبو بكر فلقى أييا فقال لعلك ندمت ؟ فقال لا ، تعال أزايدك في الخطر وأمادك في الأجل فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال قد فعلت فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون . قال عكرمة لما أن ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب وهو أخو شهر يراز فقال لأصحابه لقد رأيت كائى جالس على سرير كسرى فبلغت كسرى فكتب كسرى إلى شهر يراز إذا أتاك كتابى فابعث إلى برأس فرخان فكتب إليه شهر يراز أيها الملك إنك لن تجد مثل فرخان له نكايه وصوت في العدو فلا تفعل ، فكتب إليه إن في رجال فارس خلقاً منه فعجل إلى برأسه . فراجعهم فعضب كسرى فلم يحبه وبعث بريداً إلى أهل فارس إنى قد نزعتم عنكم شهر يراز واستعملت عليكم فرخان ثم رفع إلى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال إذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطه هذه ، فلما قرأ شهر يراز الكتاب قال ممعا وطاعة ونزل عن سريريه وجلس عليه فرخان ورفع إليه الصحيفة اللطيفة فلما قرأها قال اتنوني بشهر يراز وقدمه ليضرب عنقه فقال شهر يراز لا تعجل حتى أكتب وصيتي ، قال نعم فدعا بالسفط فأعطاه الصحائف فقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد فرد الملك إلى أخيه شهر يراز وكتب شهر يراز إلى قيصراً ملك الروم إن لى إليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصحف فالفنى ولا تلقنى إلا فى خمسين رومياً فإنى لا ألقاك إلا فى خمسين فارسياً . فأقبل قيصراً فى خمسمائة ألف رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق وخاف أن يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه بأنه ليس معه إلا خمسون رجلاً ، ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما مع كل واحد منهما سكين فدعيا ترجمانا بينهما فقال شهر يراز إن الذين حربوا مدائنك أنا وأخى بكيدنا وشجاعتنا وإن كسرى حسدنا وأراد أن أقتل أخى فأنتيت ثم أمر أخى أن يقتلنى فقد خلعتنا جميعاً فنجن نقاتله معك . قال قد أصبتما ثم أشار أحدهما إلى صاحبه أن السرى بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا قال أجعل فقتلا ترجمان جميعاً بسكينهما فأهلك الله كسرى وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ يوم الحديبية ففرح المسلمون معه . فهذا سياق غريب وبناء عجيب . ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى (الم * غلبت الروم) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فى أول سورة البقرة ، وأما الروم فهم من سلالة العيص بن اسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المنجيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصراً فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطنس وأمه مريم الهيلانية الغنداقية من أرض حران كانت قد

تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفا فتابعها يقال تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلموا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا القسطنطينية العقيدة وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هي الحيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه فوصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير ، واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساوسة ثم الشماسة ، وابتدعوا الرهبانية ، وبني لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية يقال إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبني بيت لحم بثلاث محاريب وبنت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ، ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة » والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل ، وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبهة كثيرة فناواه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والري وجميع بلاد العجم وهو سابور ذوالاكتاف ، وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رئاسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار ، فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث إليه نوابه وجيشه فقاتلوه ، والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية ، فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصاتها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيده ورأى في نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصلحه عليه ويشترط عليه ما شاء فأجابته إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة ، فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواسله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع إليكم قبلها فأتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتي وإن شئتم وليتم عليكم غيري فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولوغبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيشه ، وتوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعات في بلادهم قتال لجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسرى نساءه وحرمة وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذ فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصى إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجعد في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك ، فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية لإمناها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها وهو أنه أرسد جنده وحواسله التي معه عند فم المخاضة وركب في بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبر والروث فحملت معه وسار إلى قريب من يوم في الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال في النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا في طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالهوض والحوض فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا

عند النصرى وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم ، وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ماذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز ، وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فأن الله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبدالله بن عبد الرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر فى مناجاة (الم * غلبت الروم) الآية « ألا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبدالله بن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم . وقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصر الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبخارى من حديث الأعمش عن عطية عن أنس سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به وأنزل الله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وقال الآخرون بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية . قاله عكرمة والزهرى وقتادة وغير واحد ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشى من حصص إلى إيليا وهو بيت المقدس شكراً لله تعالى ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ الذى بعثه مع دحية بن خليفة فأعطاه دحية لعظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبوسفیان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كبار قريش وكانوا بغزة فجاء بهم إليه فجلسوا بين يديه . فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبوسفیان أنا فقال لأصحابه وأجاسهم خلفه إني سائل هذا عن هذا الرجل فان كذب فكذبوه ، فقال أبوسفیان فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت فسأله هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سألته أن قال : فهل يغدر ؟ قال قلت لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنتار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين فاستبدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم . ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعبت فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغي له إصلاحه وتفقد بلاده ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره والله أعلم : والأمر فى هذا سهل قريب إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لأن الروم أهل كتاب فى الجملة فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصرى - إلى قوله - ربنا آمنوا فآكتبناهم الشاهدين) . وقال تعالى ههنا (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثني أسيد الكلابى قال سمعت العلاء بن الرزير السكلابى يحدث عن أبيه قال رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس ، ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك فى خمس عشرة سنة

وقوله تعالى (وهو العزيز) أى فى انتصاره وانتقامه من أعدائه (الرحيم) بعباده المؤمنين وقوله تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) أى هذا الذى أخبرناك به يا محمد من أننا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق وخبر صدق لا يخاف ولا بد من كونه ووقوعه لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ويجعل لها

العاقبة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل . وقوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أى أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها فهم حذاق أذكىاء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة ، قال الحسن البصرى والله ليلعب من أحدهم بدنياه أنه يقرب الدرهم على ظفرك بوزنه وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس فى قوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسْتُوا السُّوْأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿

يقول تعالى منها على التفكير فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وأنه لا إله غيره ولا رب سواه فقال (أو لم يتفكروا فى أنفسهم) يعنى به النظر والتدبر والتأمل لحاق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة فعملوا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ولهذا قال تعالى (وإن كثيرا من الناس بقاء ربهم لكافرون) ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم فقال تعالى (أو لم يسيروا فى الأرض) أى بأفهامهم وعقولهم ونظريتهم وسماع أخبار الماضين ولهذا قال (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة) أى كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا فى الدنيا تمكيننا لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعماراً طوالا فعمروها أكثر منكم . واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزئوا بها وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوئى أن كذبوا بآيات وكانوا بها يستهزئون) كما قال تعالى (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال تعالى (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) وعلى هذا تكون السوئى منصوبة مفعولا لأساءوا وقيل بل المعنى فى ذلك (ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوئى) أى كانت السوئى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون . فعلى هذا تكون السوئى منصوبة خبر كان ، هذا توجيه ابن جرير ونقله عن ابن عباس وقادة ، ورواه ابن أبى حاتم عنهما عن الضحاك بن مزاحم وهو الظاهر والله أعلم لقوله (وكانوا بها يستهزئون)

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ * وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُم مِّن

شُرَكَائِهِمْ شَفَعُوا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿

يقول تعالى (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته (ثم إليه ترجعون) أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قال ابن عباس : يئس المجرمون ، وقال مجاهد يفتضح المجرمون وفي رواية يكتب المجرمون (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوا أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) قال قتادة هى والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) قال مجاهد وقاتلة : ينعمون وقال يحيى بن أبى كثير يعنى سماع الغناء . والخبرة أعم من هذا كله قال العجاج :

فالحمد لله الذى أعطى الحبر موالى الحق إن المولى شكر

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْبِئُ الْأَرْضَ بِعَدَمِ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضياءه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى (وله الحمد في السموات والأرض) أى هو الحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال تعالى (وعشيا وحين تظهرون) فالعشاء هو شدة الظلام والظهور قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا فالق الصباح وجاعل الليل سكنا كما قال تعالى (والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها) وقال تعالى (والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى) وقال تعالى (والضحى والليل إذا سجد) والآيات في هذا كثيرة وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زياد بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ألا أخبركم لمسمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمشون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » . وقال الطبراني حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث بن سعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن بن البيلماني عن أبيه عن عبد الله بن عباس عن رسول الله ﷺ قال « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمشون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون الآية بكلماتها أدرك ما فاتته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته » إسناده جيد^(١) ورواه أبو داود في سننه وقوله تعالى (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتعاقبة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط فانه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ليدل خلقه على كمال قدرته فمن ذلك إخراج النبات من الحب والحب من النبات ، والبيض من الدجاج والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وقوله تعالى (ويحيي الأرض بعد موتها) كقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا منه يأكولون - إلى قوله - وفجرنا فيها من العيون) وقال تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت

وربقت وأنت من كل زوج بهيج - إلى قوله - وأن الله يبعث من في القبور) وقال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرابين يدي رحمة حتى إذا أقلت سبحابا ثقلا - إلى قوله - لعلمكم تذكرون) ولهذا قال ههنا (وكذلك تخرجون)

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقه ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ويدور أقطار الأرض ويكتسب ويجمع الأموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالا حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والحبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك » ورواه أبو داود والترمذي من طرق عن عوف الأعرابي به . وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) أى خالق لكم من جنسكم إنانا تكون لكم أزواجا (لتسكنوا إليها) كما قال تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الاقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمة ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم وبينهم مودة وهى المحبة ورحمة وهى الرأفة فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبة لها أولرحمة بها بأن يكون لها منه ولدا ومحتاجة إليه فى الاتفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على قدرته العظيمة (خلق السموات والأرض) أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . وقوله تعالى (واختلاف ألسنتكم) يعنى اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء تترلم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرر وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالبة وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لا بد أن

يفارقة بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر (إن في ذلك آيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله) أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل ، والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب وجعل لكم الا انتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم (إن فى ذلك آيات لقوم يسمعون) أى يعون ، قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي حدثنا محمد بن عبد الله بن علانة حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم وهددت العيون وأنت حي قيوم يا حي يا قيوم أنم عيني وأهدى ليلي » فقلتها فذهب عني .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته أنه (يريكم البرق خوفا وطمعا) أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى (وينزل من السماء ماء فيخرج به الأرض بعد موتها) أى بعد ما كانت هامة لانبات فيها ولا شيء ، فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ولهذا قال (إن فى ذلك آيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) كقوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه) وقوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال . والذى تقوم السماء والأرض بأمره أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ولهذا قال تعالى (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى من الأرض كما قال تعالى (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال تعالى (فأنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون)

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى (وله من فى السموات والأرض) أى ملكه وعبيده (كل له قانتون) أى خاضعون خاشعون طوعا وكرها . وفى حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعا « كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهم والطاعة » وقوله (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أسير عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هيئة وكذا قال عكرمة وغيره . وروى البخارى حدثنا أبو الهيثم أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تسكذييه إياي فقول له إن يعيدني كما

بدائي وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » انفرد باخراجه البخاري كما انفرد بروايته أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة به وقدره الإمام أحمد منفرد به عن حسن بن موسى عن ابن لميعة حدثنا أبو يونس سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله . وقال آخرون كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء وقال العوفي عن ابن عباس كل عليه هين وكذا قاله الربيع بن خثيم ومال إليه ابن جرير وذكر عليه شواهد كثيرة قال ويحتمل أن يعود الضمير في قوله (وهو أهون عليه) إلى الخلق أي وهو أهون على الخلق . وقوله (وله المثل الأعلى في السموات والأرض) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى (ليس كمثله شيء) وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير . وقد أنشد بعض المفسرين عند ذكر هذه الآية لبعض أهل المعارف :

إذا سكن الغدير على صفاء وجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء كذلك الشمس تبدو والنجوم
كذلك قلوب أرباب التجلي يرى في صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله وأفعاله شرعا وقدره وعن مالك في تفسيره المروي عنه عن محمد بن النكدر في قوله تعالى (وله المثل الأعلى) قال لا إله إلا الله

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ملك له كما كانوا يقولون : لييك لاشريك لك إلا شريكا هولاك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء) أي يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله فهو وهو فيه على السواء (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أي تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجاز إن مملوك لا تخاف أن يقاسمك مالك وليس له ذاك . كذلك الله لاشريك له . والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك فكيف يجعلون لله الأنداد من خلقه وهذا كقوله تعالى (ويجعلون لله ما يكرهون) أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها بنات الله وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشره أيمسكه على هون أم يدسه في التراب فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله فنسبوا إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم فهذا أغلظ الكفر وهكذا في هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقهم وأحدهم يأنف غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك أن يكون عبده شريكه في ماله يساويه فيه ولو شاء لقاسمه عليه (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا)

قال الطبراني حدثنا محمود بن الفرج الأصهباني حدثنا إسماعيل بن عمرو البجلي حدثنا حماد عن شعيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان يلي أهل الشرك لييك اللهم لييك لاشريك لك إلا شريكا هولاك ، تملكه وما ملك . فأنزل الله تعالى (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) ولما كان التنبيه بمثل هذا المثل على براءة تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الأولى والأحرى . قال تعالى (كذلك تفصل الآيات لقوم يعقلون) ثم قال تعالى مبينا أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا (بل اتبع الدين ظلوا) أي الشركون (أهواءهم) أي في عبادتهم الأنداد بغير علم (فمن يهدي من أضل الله) أي فلا أحديهم إذا

عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي ، ومنهم عياض بن حمار المجاشعي قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته « إن ربي عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومى هذا : كل ما نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى خفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهن عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال إنما بعثتك لأبليك وأبئى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرنى أن أحرق قرىشا فقلت رب إذا بلغ رأسى فيدعه خبرة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغرك وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشا نبث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عساك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة وسلمان مقسط مهتد موفى ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ورجل عفيف متعفف ذو عيال - قال - : وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لا زبر له الدين هم فيكم تبع لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته . ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك » وذكر البخيل والكذاب والشنظير الفحاش . انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن قتادة به وقوله تعالى (ذلك الدين القيم) أى التمسك بالشرعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوا عن سبيل الله) الآية . وقوله تعالى (منيين إليه) قال ابن زيد وابن جرير أى راجعين إليه (واتقوه) أى خافوه وراقبوه (وأقيموا الصلاة) وهى الطاعة العظيمة (ولا تكونوا من المشركين) أى بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه ، قال ابن جرير حدثني يحيى بن واضح حدثنا يونس بن إسحاق عن يزيد بن أبي مریم قال مر عمر رضى الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن النجيات الإخلاص وهى الفطرة فطرة الله التى فطر الناس عليها والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة فقال عمر صدقت . حدثني يعقوب أنبأنا ابن علية أنبأنا أيوب عن أبي قلابة أن عمر رضى الله عنه قال لمعاذ ما قوام هذا الأمر ؟ فذكر نحوه وقوله تعالى (من الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم فارقوا دينهم أى تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كالهودى والنصارى والمجوس وعبدوا الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام كما قال تعالى (إن الدين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله) الآية فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابى »

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطراب يدعون الله وحده لا شريك له وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره . وقوله تعالى (ليكفروا بما آتيناهم) هي لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله (فسوف تعلمون) قال بعضهم والله لو توعدني حارس درب لحفت منه فكيف والتوعد ههنا هو الذي يقول للشيء كن فيكون ثم قال تعالى منكرآ على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان (أم أنزلنا عليهم سلطاناً) أى حجة (فهو يتكلم) أى ينطق (بما كانوا به يشركون) وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون) هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووقفه فان الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال (ذهب السيئات عني انه لفرح فخور) أى يفرح في نفسه ويفخر على غيره وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) أى صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء كما ثبت في الصحيح « عجباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » وقوله تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ فَتَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شَرِكٍ كَائِمٌ مِّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً بإعطاء (ذى القربى حقه) أى من البر والصلة (والمسكين) وهو الذى لا شيء له ينفق عليه أوله شيء لا يقوم بكفايته (وابن السبيل) وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه في سفره (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أى النظر إليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى (وأولئك هم المفلحون) أى في الدنيا والآخرة . ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله ، بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى (ولا تمنن تستكثر) أى لا تعط العطاء تريد أكثر منه ؛ وقال ابن عباس : الربا ربا مان ، فربا لا يصح : يعنى ربا البيع ؟ وربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها ، أضعافها ثم تلا هذه الآية (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) وإنما الثواب عند الله في الزكاة ولهذا قال تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء في الصحيح « وما تصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب الا أخذها الرحمن يمينه فيربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوله أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » وقوله عز وجل (الله الذى خلقكم ثم رزقكم) أى هو الخالق الرزاق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا لا علم له ولا بصر ولا قوى ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والأملأك والمكاسب كما قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن سلام بن حبيب عن حبة وسواء ابني خالد قال دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناه فقال « لا تياسا من الرزق ما تهزئت رءوسكما فإن الإنسان

تلدّه أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل « وقوله تعالى (ثم يميتكم) أى بعد هذه الحياة (ثم يحييكم) أى يوم القيامة ، وقوله تعالى (هل من شركائكم) أى الذين تعبدونهم من دون الله (من يفعل من ذلكم من شيء ؟) أى لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله (سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم المراد بالبر ههنا الفياض وبالبحر الأمصار والقرى وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف . وقال زيد بن رفيع (ظهر الفساد) يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط وعن البحر يعنى دوابه . رواه ابن أبي حاتم وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرئ عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد (ظهر الفساد فى البر والبحر) قال فساد البر قتل ابن آدم وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة وكتب إليه يبحره يعنى يبلده ومعنى قوله تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) أى بان النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى . وقال أبو العالية . من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود « لحد يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا » والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعطى المحرمات وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله فى زمانة الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فى كل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وما ذاك إلا بركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت فى الصحيحين أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا محمد والحسين قالا حدثنا عوف عن أبي مخنف قال وجد رجل فى زمان زياد أو ابن زياد صرة فيها حب يعنى من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد ابن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك وفيه نظر وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) الآية أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم (لعلهم يرجعون) أى عن المعاصى كما قال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أى من قبلكم (كان أكثرهم مشركين) أى فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَاسِمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ

كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات (فأقم وجهك للدين القيم من قبل
أن يأتي يوم لا مرد له من الله) أى يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له (يومئذ يصدعون) أى يفرقون ففرق في الجنة
وفريق في السعير ولهذا قال تعالى (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزى الذين آمنوا
وعملوا الصالحات من فضله) أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله (إنه لا يحب
الكاافرين) ومع هذا هو العادل فيهم الذى لا يحجور

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ولهذا قال تعالى (وليذيقكم
من رحمته) أى المطر الذى ينزله فيحيى به العباد والبلاد (ولتجزي الفلك بأمره) أى في البحر وإنما سيرها بالريح
(ولتبتغوا من فضله) أى في التجارات والمعيش والسير من إقليم إلى إقليم وقطر إلى قطر (ولعلكم تشكرون) أى
تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التى لا تعد ولا تحصى . ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا
من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجمعوا) هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد
صلى الله عليه وسلم بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاءوا وأتهم به من
الدلائل الواضحات . ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) أى هو
حق أوجبه على نفسه الكريمة تكريماً وتفضلاً كقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وروى ابن أبى حاتم حدثنا
أبى حدثنا ابن نقييل حدثنا موسى بن أعين عن لىث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء رضى الله عنه
قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من امرئ مسلم يرد عن أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم
يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
مِنْ خِلْمِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ
قَبْلِهِ كُمُوسًا * فَانْظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْفِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْفِي الْمَوْتَى وَهُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَالُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً) إما من البحر
كما ذكره غير واحد أو مما يشاء الله عز وجل (فيبسطه في السماء كيف يشاء) أى يمدده فيكثره وينميه ويجعل من القليل
كثيراً ينشئ سحابة ترى في رأى العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو

البحر ثقالا مملوءة كما قال تعالى (وهو الذى يرسل الرياح بشرآ بين يدي رحمة حتى إذا أثقلت سحباً ثقالا سقناه لبلد ميت - إلى قوله - كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون) وكذلك قال ههنا (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا) قال مجاهد وأبو عمرو بن العلاء ومطر الوراق وقتادة يعنى قطعاً . وقال غيره متراً كما كما قاله الضحاك وقال غيره : أسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلًا قريباً من الأرض وقوله تعالى (فترى الودق يخرج من خلاله) أى فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب (فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أى لحاجتهم اليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم . وقوله تعالى (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيماً ، وقد اختلف النحاة في قوله (من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) فقال ابن جرير هو تأكيد ، وحكاة عن بعض أهل العربية . وقال آخرون من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله أى الانزال لمبلسين ، ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس ويكون معنى الكلام أنهم كانوا محتاجين اليه قبل نزوله ومن قبله أيضاً قد فات عندهم نزوله وقتاً بعد وقت فترقبوه في إبانته فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله) يعنى المطر (كيف يحيى الأرض بعد موتها) ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى (إن ذلك لحجى الموتى) أى إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات (إنه على كل شئ قدير) ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) يقول تعالى (ولئن أرسلنا ريحاً) يابسة على الزرع الذى زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفراً أى قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده أى بعد هذا الحال يكفرون أى يمجحدون ماتقدم إليهم من النعم كقوله تعالى (أفرأيتم ما تخرون - إلى قوله - بل نحن محرمون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن عبيد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب ، فأما الرحمة فالناشرات والبشرات والمرسلات والنداريات ، وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البر والعاصف والقاصف وهما في البحر فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمة ولاقحا للسحاب تلقحه بعمله الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقياً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نعمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرًا وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه والرياح مختلفة في مهاها صبا ، ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذى النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تسيره وتصلبه ، وأخرى توهنه وتضعفه وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عبيد الله بن أخى ابن وهب حدثنا عمى حدثنا عبد الله بن عياش حدثني عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « الريح مسخرة في الثانية - يعنى الأرض الثانية - فلما أراد الله أن يهلك عاداً أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تهلك عاداً فقال يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور ، قال له الجبار تبارك وتعالى ، لا إذا تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ففى التى قال الله في كتابه (ماتندر من شئ أنت عليه إلا جعلته كالريم) » هذا حديث غريب ورفعه منكر والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ
إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِبَنَائِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجدائها ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله فانه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى خاضعون مستجيبون مطيعون فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين كما قال تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يعنهم الله ثم إليه يرجعون) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بهذه الآية (إنك لا تسمع الموتى) على توهم عبد الله ابن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر يارسول الله ما تخاطب من قوم قد جفوا ؟ فقال « والذي نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على أنه قال « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » وقال قتادة أحياء الله له حتى سمعوا مقالته تقرعاً وتوبيخاً ونقمة ، والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما سمعوا الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » وثبت^(١) عنه ﷺ لأتمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم السلام عليكم دار قوم مؤمنين وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المردود والجماد ، والسلف مجمعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر فروى ابن أبى الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم » وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام ، وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال رأيت عاصم الجحدري في منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات ؟ قال بلى ، قلت فأين أنت ؟ قال أنا والله في روضة من رياض الجنة أنا ونقر من أصحابي نجمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فنتلقى أخباركم . قال قلت أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيئات قد بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح ، قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قال قلت فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال لفضل يوم الجمعة وعظمته قال وحدثنا محمد بن الحسين ثنا بكر بن محمد ثنا حسن القصاب قال كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليه وندعو لهم ثم ننصرف فقلت ذات يوم لو صيرت هذا اليوم يوم الاثنين ؟ قال بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال ثنا محمد ثنا عبد العزيز بن أبان قال ثنا سفیان الثوري قال بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته ، فقل له وكيف ذلك ؟ قال لمكان يوم الجمعة . حدثنا خالد بن خدش ثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح يقول كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال وسمعت أبا التياح يقول بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قبر جالساً على قبره فقالوا هذا مطرف يأتى الجمعة ويصلون عندهم يوم الجمعة ؟ قالوا نعم ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت وما يقولون ؟ قال يقولون سلام عليكم ؟ حدثني محمد ابن الحسن ثنا يحيى بن أبى بكر ثنا الفضل ابن الموفق ابن خال سفیان بن عيينة قال لما مات أبى جزعت عليه جزعاً شديداً فكنت آتى قبره في كل يوم ثم قصرت عن ذلك ماشاء الله ثم أتى أنيته يوماً فبينما أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناي فسمعت فرايت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى قال فكأنى بكيت لما رأيته قال يا بنى ما أبطأك عنى قلت وإنك لتعلم بمجئى ؟ قال ماجئت مرة إلا علمتها وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولي بدعائك قال فكنت آتية بعد ذلك كثيراً ، حدثني محمد حدثنا يحيى بن بسطام ثنا عثمان بن سويد الطفاوى قال وكانت

أمه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت يا ذخرى وذخيرتى من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لاتخذلى عند الموت ولا توحشنى . قال فماتت فكنت آتيتها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها يا أمى كيف أنت ؟ قالت أى بنى إن الموت لسكرة شديدة وإنى بحمد الله لنى برزخ محمود يفرش فيه الرياحن وتتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور فقلت لها ألك حاجة ؟ قالت نعم ، قلت وما هى ؟ قالت لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فانى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك يقال لى يا راهبة هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات ، حدثنى محمد حدثنا محمد بن عبد العزيز ابن سليمان حدثنا بشر بن منصور قال لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم لا يزيد على هؤلاء الكلمات قال فأسميت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كل كنت أدعو ، قال فيينا أنا نائم إذا خلقت قد جاء ونى فقلت ما أتم وما حاجتكم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت ما حاجتكم ؟ قالوا إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت وماهى ؟ قالوا الدعوات التى كنت تدعوها ، قال قلت فانى أعود لذلك ، قال فما تركتها بعد ، وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه . قال عبد الله بن المبارك حدثنى ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أيوب قال تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءاً قالوا اللهم راجع به

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال ثنا محمد بن أحمد بن محمد بن عباد بن عباد بن إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال عظمى ، قال بى أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . قال ابن أبى الدنيا وحدثنى محمد بن الحسين بنى خالد بن عمرو الأموى ثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال : كانت لى شرة ممجة فمات أبى فبنت وندمت على ما فرطت ثم زلت أيماء زلة فرأيت أبى فى المنام فقال أى بنى ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديداً فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات قال فكنت أسمع بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر وكان جاراً لى بالكوفة أسألك إجابة لا رجعة فيها ولا حور يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين . وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة ، كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله . وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية ، فهذا السلام والحطاب والنداء لموجود يسمع ويخطب ويعقل ويرد وإن لم يسمع المسلم الرد والله أعلم

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

ينبذ تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تسكى العظام لحما وينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيراً ثم حدثا ثم مراهما ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع فى النقص فيكتهل ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب الامة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء) أى يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبده بما يريد (وهو العلم القدير) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن فضيل بن فضيل بن مرزوق عن عطية العوفى قال : قرأت على ابن عمر (الله

الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) فقال (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا) ثم قال قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت على فأخذ على كما أخذت عليك ، ورواه أبو داود والترمذى وحسنه من حديث فضيل به ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبي سعيد بنحوه

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . قال الله تعالى (كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث) أى فإرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة (لقد لبثتم في كتاب الله) أى في كتاب الأعمال (إلى يوم البعث) أى من يوم خلقكم إلى أن بعثتم (ولكنكم كنتم لا تعلمون) قال الله تعالى (فيومئذ) أى يوم القيامة (لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أى اعتذارهم عما فعلوا (ولا هم يستعتبون) أى ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِثَّتْهُمْ بَنَاءُ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أى قد بيناهم الحق ووضحناه لهم وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه (ولئن جثت بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أى لوراوا أى آية كانت ، سواء كانت باقراهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون أنها سحر وباطل كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبر إن وعد الله حق) أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم وجعله العاقبة لك ولئن اتبعك في الدنيا والآخرة (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أى بل اثبت على ما بعثك الله به فإنه الحق الذى لا مرية فيه ولا تعديل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه . قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتسكونن من الخاسرين) فأنصت له على حتى فهم ما قال فأجابه وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال حدثنا وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبي زرعة عن علي بن ربيعة قال : نادى رجل من الخوارج عليا رضى الله عنه وهو في صلاة الفجر فقال (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتسكونن من الخاسرين) فأجابه على رضى الله عنه وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك

الذين لا يوقنون) : (طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال صلى على بن أبي طالب رضى الله عنه صلاة الفجر فساداه رجل من الخوارج (لأن أشركت ليجبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فأجابه على رضى الله عنه وهو في الصلاة (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون)

(ما روى في فضل هذه السورة الشريفة واستجاب قراءتها في الفجر)

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيب بن روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم فلما انصرف قال «إنه يلبس علينا القرآن فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء» وهذا إسناد حسن ومتن حسن، وفيه سر عجيب. ونبا غريب، وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من أتم به فدل ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام. آخر تفسير سورة الروم والله الحمد والمنة

(تفسير سورة لقمان وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(الْم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

تقدم في أول سورة البقرة عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة وهو أنه سبحانه وتعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقها، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكورا فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) أى على بصيرة وبينة ومنهج واضح جلي (وأولئك هم المفلحون) أى في الدنيا والآخرة

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا وَوُعِدُوا آلَاءُنَا لَمْ يَرْجُوا يَوْمَ الْمَعَادِ) (سورة القصص)

لما ذكر تعالى حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفكرون بسماحه كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) الآية عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماح كلام الله وأقبلوا على استماع الزمائر والغناء بالألحان وآلات الطرب كما قال ابن مسعود في قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) قال هو والله الغناء روى ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب أخبرني يزيد بن يونس عن أبي صخر عن ابن معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) فقال عبد الله بن مسعود: الغناء والله الذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاث مرات حدثنا عمرو بن علي حدثنا صفوان بن عيسى أخبرنا حميد الخراط عن عمار عن سعيد بن جبير عن أبي

الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال الغناء وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلي بن بزيمة . وقال الحسن البصري نزلت هذه الآية (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) في الغناء والمزامير ، وقال قتادة: قوله (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) والله لعله لا ينفق فيه مالا ولكن شراؤه استحبابه بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل أراد بقوله (يشتري لهو الحديث) اشتراء المغنيات من الجوارى ، قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن خالد الصفار عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله عز وجل على (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) » وهكذا رواه الترمذي وابن جرير من حديث عبيد الله بن زحر بنحوه ثم قال الترمذي هذا حديث غريب وضعف على بن يزيد المذكور ﴿ قلت ﴾ على وشيخه والراوى عنه كلهم ضعفاء والله أعلم ، وقال الضحاك في قوله تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال يعنى الشرك وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله ، وقوله (ليضل عن سبيل الله) أى إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة أو تعليلا للامر القدرى أى قيسوا لذلك ليكونوا كذلك وقوله تعالى (ويتخذها هزوا) قال مجاهد ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزئ بها وقال قتادة يعنى ويتخذ آيات الله هزوا وقول مجاهد أولى . وقوله (أولئك لهم عذاب مهين) أى كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر . ثم قال تعالى (وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن فى أذنيه وقرا) أى هذا المقبل على الله واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصام وما به من صمم كأنه ما سمعها لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها (فبشره بعذاب أليم) أى يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله (لهم جنات النعيم) أى يتمتعون فيها بأنواع اللذ والمساكن من الماء كل والمشارب والملابس والمساكن والمرآكب والنساء والفضرة والسمع الذى لم يخطر ببال أحدوهم فى ذلك مقيمون دائما لا يظعنون ولا يبعثون عنها حولا وقوله تعالى (وعد الله حقا) أى هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله والله لا يخلف الميعاد لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء القادر على كل شئ (وهو العزيز) الذى قهر كل شئ ودان له كل شئ (الحكيم) فى أقواله وأفعاله الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عصى) الآية ، وقوله (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا)

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَتِى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِى أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

يبين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فقال تعالى (خلق السموات بغير عمد) قال الحسن وقاتة ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد لها عمد لا ترونها

وقد تقدم تقرير هذه المسألة في أول سورة الرعد بما أغنى عن إعادته (وألقى في الأرض رواسي) يعنى الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ولهذا قال (أن تميد بكم) أى لئلا تميد بكم . وقوله تعالى (وبث فيها من كل دابة) أى وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا تعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها ، ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم) أى من كل زوج من النبات كريم أى حسن المنظر . وقال الشعبي والناس أيضا من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ، وقوله تعالى (هذا خلق الله) أى هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقهم وتقديره وحده لا شريك له فى ذلك ولهذا قال تعالى (فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أى مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد (بل الظالمون) يعنى المشركين بالله العابدين معه غيره (فى ضلال) أى جهل وعمى (مبين) أى واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف السلف فى لقمان هل كان نبياً أو عبدا صالحا من غير نبوة ؟ على قولين الأولين أكثر على الثانى . وقال سفيان الثورى عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال كان لقمان عبدا حبشيا نجارا وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال كان قصيرا أفتس الأنف من النبوة ، وقال يحيى بن سعيد الأنصارى عن سعيد بن المسيب قال كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ، وقال الأوزاعى حدثنى عبد الرحمن بن حرملة قال جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب لا تحزن من أجل أنك أسود فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان بلال ومهجع مولى عمر بن الخطاب ولقمان الحكيم كان أسود نوبيا ذا مشافر ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن أبى الأشهب عن خالد الربعى قال كان لقمان عبدا حبشيا نجارا فقال له مولا اذبح لنا هذه الشاة فذبحها قال أخرج أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله ثم قال اذبح لنا هذه الشاة فذبحها فقال أخرج أخصب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، فقال له مولا أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما وأمرتك أن تخرج أخصب مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان إنه ليس من شئ أطيب منهما إذا طابا ولا أخصب منهما إذا خبثا وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد كان لقمان عبدا صالحا ولم يكن نبيا ، وقال الأعمش قال مجاهد كان لقمان عبدا أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وقال حكام بن أسلم عن سعيد الزبى عن مجاهد كان لقمان الحكيم عبدا حبشيا غليظ الشفتين مصفح القدمين قاضيا على بنى اسرائيل ، وذكر غيره أنه كان قاضيا على بنى اسرائيل فى زمان داود عليه السلام ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم حدثنا عمرو بن قيس قال كان لقمان عبدا أسود غليظ الشفتين مصفح القدمين فأتاه رجل وهو فى مجلس ناس يحدثهم فقال له أأنت الذى كنت ترعى معى الغنم فى مكان كذا وكذا ؟ قال نعم قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال صدق الحديث والصمت عما لا يعنينى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال : إن الله رفع لقمان الحكيم بحكمته رآه رجل كان يعرفه قبل ذلك فقال له أأنت عبد بنى فلان الذين كنت ترعى بالأمس ؟ قال بلى قال فما بلغ بك ما أرى ؟ قال قدر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وتركى ما لا يعنينى فهذه الآثار منها ما هو مصرح فيه بنفى كونه نبيا ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبدا قدمه الرق ينافى كونه نبيا لأن الرسل كانت تبعث فى أحساب قومها ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة إن صح السند إليه فإنه رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال كان لقمان نبيا وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي وهو ضعيف والله أعلم وقال عبد الله بن وهب أخبرنى عبد الله بن عياش القتباني عن عمر مولى غفرة قال وقف رجل على لقمان الحكيم فقال أنت لقمان أنت عبد بنى الحساس ؟ قال نعم ، قال أنت راعى الغنم قال نعم

قال أنت الأسود ! قال أما سوادى فظاهر فما الذى يعجبك من أمرى ! قال وطء الناس بساطك ، وغشيم بابك ، ورضام بقولك ، قال يا ابن أخى إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك ، قال لقمان : غضى بهرى وكفى لسانى وعفة طعمى وحفظى فرجى وقولى بصدق ، ووفائى بهدى وتكرمى ضيقى وحفظى جارى وتركى مالا يعينى ، فذاك الذى صيرنى إلى ما ترى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل حدثنا عمرو بن واقد عن عبدة بن رباح عن ربيعة عن أبى الدرداء أنه قال يوما وذكر لقمان الحكيم فقال ما أوتى ما أوتى عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ولكنه كان رجلا صمامة سكيئا طويل التفكر عميق النظر لم ينم نهرا قط ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخع ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستيدها إياه أحد ، وكان قد تزوج وولد له أولاد فما توافلم بيبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتى الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتى ما أوتى . وقد ورد أثر غريب عن قتادة رواه ابن أبى حاتم فقال حدثنا أبى حدثنا العباس بن الوليد حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى حدثنا سعيد بن بشر عن قتادة قال : خير الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النبوة قال فاتاه جبريل وهو نائم فذر عليه الحكمة أورش عليه الحكمة قال فأصبح ينطق بها : قال سعيد فسمعت عن قتادة يقول قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيرك ربك ؟ فقال إنه لو أرسل إلى بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ولكنك أرجو أن أقوم بها ولكنه خيرنى فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحب إلى . فهذا من رواية سعيد بن بشر وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه فآله أعلم ؛ والذى رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أى الفقه فى الإسلام ولم يكن نبياً ولم يوح إليه وقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أى الفهم والعلم والتعبير (أن اشكر الله) أى أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذى خصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ثم قال تعالى (ومن يشكر فأنا نزيد) أى إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى (ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون) وقوله (ومن كفر فإن الله غنى حميد) أى غنى عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه

(وَإِذْ قَالَ لَقْمَنُ لِبَنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِىْ لَا تُشْرِكْ بِاللّٰهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا * وَهُمَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَنْمِ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده وهو لقمان بن عنقاء بن سدون واسم ابنه ثاران فى قول حكاه السهلبلى . وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكرو أنه آتاه الحكمة وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ثم قال محذراً له (إن الشرك لظلم عظيم) أى هو أعظم الظلم قال البخارى حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : أينما لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه ليس بذلك ألا تسمع إلى قول لقمان (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) » ورواه مسلم من حديث الأعمش به ثم قرن بوصيته بإبادة الله وحده البر بالوالدين كما قال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك فى

القرآن ؛ وقال ههنا (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن) قال مجاهد مشقة وهن الولد ؛ وقال قتادة جهدا على جهد ؛ وقال عطاء الخراساني ضعفا على ضعف . وقوله (وفصاله في عامين) أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين كما قال تعالى (والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) الآية ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى (وحمله وفصاله ثلاثون شهراً) وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ليذكر الولد باحسانها المتقدم إليه كما قال تعالى (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) ولهذا قال (أن اشكر لى ولو اليك إلى المصير) أي فإني سأجزيك على ذلك أو فر جزاء قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي شيبة ومحمود بن غيلان قالا حدثنا عبيد الله أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق عن سعيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إني رسول رسول الله ﷺ إليكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعواي لا آلوكم خيراً ، وإن المصير إلى الله إلى الجنة أو إلى النار إقامة فلا ظعن وخلود فلا موت . وقوله (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) أي إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً أي محسناً إليهما (واتبع سبيلاً من أناب إلى) يعني المؤمنين (ثم إلى مرجعكم فأنبشكم بما كنتم تعملون) قال الطبراني في كتاب العشرة حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أحمد بن أيوب بن راشد حدثنا مسلمة بن علقمة عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك قال أنزلت في هذه الآية (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) الآية قال كنت رجلاً برأ بأبي فلما أسلمت قالت يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت لدنك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه فقلت لا تفعل يا أمه فإني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتدت جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء فان شئت فكلى وإن شئت لا تأكل . فأكلت

﴿ يَبْنِيْ اِنَّهَا اِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمٰوٰتِ اَوْ فِي الْاَرْضِ يٰٓاْتِ بِهَا اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ * يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلٰوةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰٓى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر * وَلَا تَصْعَقْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسَّ فِي الْاَرْضِ مَرْحًا اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُوْرٍ * وَاَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ اِنَّ اَنْكَرَ الْاَصْوٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيْرِ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم لمثلها الناس ويقتدوا بها فقال (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل وجوز بعضهم أن يكون الضمير في قوله إنها ضمير الشأن والقصة ، وجوز على هذا رفع مثقال والأول أولى . وقوله عز وجل (يأت بها الله) أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط وجازى عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً) الآية وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله يأتي بها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولهذا قال تعالى (إن الله لطيف خبير) أي لطيف العلم فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت (خير) بديب النمل في الليل البهيم

وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله (فتكن في صخرة) أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال بن عمرو وغيرهم وهذا والله أعلم كأنه متلقى من الاسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب والظاهر والله أعلم أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فإن الله سيديها ويظهرها بلطف علمه . كما قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كأننا ما كان » ثم قال (يا بني أقم الصلاة) أي بحدودها وفروضها وأوقاتها (وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر) أي بحسب طاقتك وجهك (واصبر على ما أصابك) علم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر وقوله (إن ذلك من عزم الأمور) أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور وقوله (ولا تصعر خدك للناس) يقول لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلوك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم ، ولكن ألق جانبك وابسط وجهك إليهم كما جاء في الحديث « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الأزار فإنها من الخيلة والخيلة لا يحبها الله » قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ولا تصعر خدك للناس) يقول لا تتكبر فتحقر عباد الله وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك ، وكذا روى العوفي وعكرمة عنه ، وقال مالك عن زيد بن أسلم (ولا تصعر خدك للناس) لا تتكلم وأنت معرض وكذا روى عن مجاهد وعكرمة ويزيد بن الأصم وأبي الجوزاء وسعيد ابن جبير والضحاك وابن زيد وغيرهم ، وقال إبراهيم النخعي يعني بذلك التشديق في الكلام . والصواب القول الأول قال ابن جرير وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تغفل أعناقها عن رؤوسها فشبه به الرجل المتكبر ومنه قول عمرو بن حي التغلي

وكنا إذا الجبار صعر خده * أقنأ له من ميله فتقوما

وقال أبو طالب في شعره :

وكنا قديماً لا نقر ظلامه * إذا ما ثنوا صعر الرؤوس تقيمها

وقوله (ولا تمش في الأرض مرحاً) أي خيلاً متكبراً جباراً عنيداً لا تفعل ذلك يبغيضك الله ولهذا قال (إن الله لا يحب كل مختال فخور) أي مختال معجب في نفسه فخور أي على غيره ، وقال تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً) وقد تقدم الكلام على ذلك في موضعه وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عمران بن أبي ليلى حدثنا أبي عن ابن أبي ليلى عن عيسى عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فقال رجل من القوم والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ويعجبني شركا نعلي وعلاقة سوطي ، فقال « ليس ذلك الكبر إنما الكبر أن تسفه الحق وتغصط الناس » ورواه من طريق أخرى بمثله وفيه قصة طويلة ومقتل ثابت ووحيته بعد موته وقوله (واقصد في مشيك) أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتنبط ولا بالسريع المفرط بل عدلاً وسطاً بين . وقوله (واغضض من صوتك) أي لا تباليغ في الكلام ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ولهذا قال (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) قال مجاهد وغير واحد إن أوجح الأصوات لصوت الحمير أي غايته من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى ، وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يبقى ثم يعود في قيئه » وقال النسائي عند تفسير هذه الآية حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا الليث عن جعفر بن ربيعة عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأيت شيطانا » وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن جعفر بن ربيعة

به ، وفي بعض الألفاظ بالليل قاله أعلم فهذه وصايا نافعة جداً وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم وقد روى عنه من الحكم والوعاظ أشياء كثيرة فلنذكر منها أن نمودجا ودستورا إلى ذلك قال الإمام أحمد حدثنا على ابن إسحاق أخبرنا ابن المبارك أخبرنا سفيان أخبرنا نهمشل بن مجمع الضبي عن قزعة عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن غيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه يا بني إياك والتقنع فإنه نخوة بالليل مذمة بالنهار » وقال حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان بن ضمرة حدثنا الثرى بن يحيى قال : قال لقمان لابنه يا بني إن الحكمة أجلسن المساكين مجالس الملوك وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان أخبرنا ابن المبارك حدثنا عبد الرحمن المسعودى عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه يا بني إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام يعنى السلام ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا فان أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا ضمرة عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة حتى نفذ الخردل فقال يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطر قال ففطر ابنه ، وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا يحيى بن عبد الباقي المصيصى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الخزاعي ثنا عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى حدثنا أنس بن سفيان المقدسى عن خليفة بن سلام عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشى وبلال المؤذن » . قال الطبراني أراد الحبش ﴿ فصل فى الحمول والتواضع ﴾ وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتاباً مفرداً ونحن نذكر منه مقاصده قال : حدثنا إبراهيم ابن المنذر حدثنا عبد الله بن موسى المدنى عن أسامة بن زيد بن حفص بن عبد الله بن أنس عن جده أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره » ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان عن ثابت وعلى بن زيد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وزاد « منهم البراء بن مالك » وروى أيضاً عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « طوبى للأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا وإذا غابوا لم يفتقدوا أولئك مصاييح مجردون من كل فتنه غبراء مشتتة » وقال أبو بكر بن سهل التميمى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد عن عياش بن عباس عن عيسى بن عبد الرحمن عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ فقال له ما يبكيك يا معاذ ؟ قال حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : سمعته يقول « إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصاييح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة » حدثنا الوليد بن شجاع حدثنا غنام بن على عن حميد بن عطاء الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاء الله الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً » وقال أيضاً حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاء إياها ، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها ولم يمنعه إياها لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » وهذا مرسل من هذا الوجه وقال أيضاً حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا جعفر بن سليمان حدثنا عوف قال : قال أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبه له الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينسكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلبجلى فى صدره ، لو قسم نوره

يوم القيامة بين الناس لوسعهم » قال وأنشدني عمر بن شبة عن ابن عائشة قال : قال عبدالله بن المبارك :

ألا رب ذي طمرين في منزل غدا زراييه مبثوثة ونمارقه

قد اطردت أنواره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقه

وروى أيضا من حديث عبيد الله بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا « قال الله : من أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأعطاء في السر ، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع إن صبر على ذلك » قال ثم أنفذ رسول الله ﷺ بيده وقال « عجبت منيته ، وقل ترائه وقلت بواكيه » وعن عبدالله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل ومن الغرباء ، قال الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم . وقال الفضيل بن عياض بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ألم أنعم عليك ألم أعطك ألم أسترك ؟ ألم ... ألم ... ألم أجعل ذكرك . ثم قال الفضيل إن استطعت أن لا تعرف فافعل وما عليك أن لا يثنى عليك وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محبوبا عند الله . وكان ابن محيرز يقول اللهم إني أسألك ذكرا خاملا ، وكان الخليل بن أحمد يقول اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك واجعلني في نفسي من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك . ثم قال ﴿ باب ماجاء في الشهرة ﴾ حدثنا أحمد بن عيسى المصري حدثنا ابن وهب عن عمر بن الحارث وابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال حسب امرئ من الشر إلا من عصم الله أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » وروى مثله عن إسحاق بن البهلول عن ابن أبي فديك عن محمد بن عبد الواحد الأخرسي عن عبد الواحد بن أبي كثير عن جابر ابن عبد الله مرفوعا مثله ، وروى عن الحسن مرسلنا نحوه فقليل للحسن فإنه يشار اليك بالأصابع ، فقال إنما المراد من يشار إليه في دينه بالبدعة وفي دنياه بالفسق : وعن علي رضي الله عنه قال : لا تبدأ لأن تشهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم واكنتم واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار : وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ما صدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس . وقال سمالك بن سلمة إياك وكثرة الأخلاء . وقال أنان بن عثمان إن أحببت أن يسلم اليك دينك فأقل من المعارف . كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وقال حدثنا علي بن الجعد أخبرنا شعبة عن عوف عن أبي رجاء قال رأى طلحة قوما يمشون معه فقال ذباب طمع وفراس النار : وقال ابن إدريس عن هرون بن أبي عيسى عن سليم بن حنظلة قال بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع وفنة للمتبع وقال ابن عون عن الحسن خرج ابن مسعود فاتبعه أناس فقال والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلا . وقال حماد بن زيد كئنا إذا مررنا على المجلس ومعنا أيوب فسلم ردوا ردا شديدا فكان ذلك نعمة . وقال عبد الرزاق عن معمر كان أيوب يطيل قميصه فقبل له في ذلك فقال إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي صلى الله عليه وسلم فلبسهما أياما ثم خلعهما وقال لم أر الناس يلبسونهما . وقال إبراهيم النخعي لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ويرفع الناس إليه أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتقر فيها ويستذل دينه ، وحدثنا خالد بن خداس حدثنا حماد عن أبي حسنة صاحب الزيادة قال كئنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه كسية فقال إياكم وهذا الحمار النفاق . وقال الحسن رحمه الله إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لهم تفاقدوا ، وفي بعض الأخبار أن موسى عليه السلام قال لبي إسرائيل مالك تأتوني عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الثياب البسوا ثياب الملوك وآلينا قلوبكم بالخشية ﴿ فصل في حسن الخلق ﴾ قال أبو التياح عن أنس رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقا ، وعن عطاء عن ابن عمر قيل يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال « أحسنهم خلقا » وعن نوح بن عباد عن ثابت عن أنس مرفوعا « إن العبد ليلبغ بحسن خلقه

درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة وإنه ليلعب بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد» وعن سيار بن هارون عن حميد عن أنس مرفوعا «ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة» وعن عائشة مرفوعا «إن العبد ليلعب بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار» وقال ابن أبي الدنيا حدثني أبو مسلم عبد الرحمن بن يونس حدثنا عبد الله بن إدريس أخبرني أبي وعمي عن جدي عن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال «الأجوفان الفم والفرج» وقال أسامة بن شريك كنت عند رسول الله ﷺ فجاءته الأعراب من كل مكان فقالوا يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان قال «حسن الخلق»

وقال يعلى بن ممالك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء يبلغ به قال : ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن ، وكذا رواه عطاء عن أم الدرداء به وعن مسروق عن عبد الله بن عمرو مرفوعا «إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» حدثنا عبد الله بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن عيسى عن محمد بن أبي سارة عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه الأجر ويروح» وعن مكحول عن أبي ثعلبة مرفوعا «إن أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا أحسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني منزلا في الجنة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفهبون» وعن أبي أويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا «ألا أخبركم بأكملكم إيمانا أحسنكم أخلاقا الموطؤون أكنفا الذين يؤلفون ويألفون» وقال الليث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة عن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله ﷺ «ما حسن الله خلق رجل وخلقه فتطعمه النار» وعن عبد الله بن غالب الحداني عن أبي سعيد مرفوعا «خلصتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق» وقال ميمون بن مهران عن رسول الله ﷺ «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق» وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر. قال حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو المغيرة الأحمسي حدثنا عبد الرحمن ابن إسحق عن رجل من قريش قال : قال رسول الله ﷺ «ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ، إن الخلق الحسن ليزيب الذنوب كما تذيب الشمس الحديد، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل» وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبي هريرة مرفوعا «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن بسعهم منكم بسط وجوه وحسن خاق» وقال محمد بن سيرين حسن الخلق عون على الدين ، (فصل في ذم الكبر) قال طلقمة عن ابن مسعود رفعه «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان» وقال إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا «من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه في النار» حدثنا إسحق بن إسماعيل حدثنا أبو معاوية عن عمر بن راشد عن إياس بن سلمة عن أبيه مرفوعا «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين فيصيه ما أصابهم من العذاب» ، وقال مالك بن دينار ركب سليمان بن داود عليهما السلام ذات يوم البساط في مائتي ألف من الإنس ومائتي ألف من الجن فرفع حتى سمع تسبيح الملائكة في السماء ثم خفض حتى مست قدمه ماء البحر فسمعوا صوتا لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لحسف به أبعاد مما رفع قال حدثنا أبو خيثمة حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدا ليقدر نفسه يقول : خرج من مجرة البول مرتين وقال الشعبي من قتل اثنين فهو جبار ثم تلا (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض) وقال الحسن عجا لابن آدم يغسل الحرق بيده في اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات . قال حدثنا خالد بن خداس حدثنا حماد بن زيد عن علي بن الحسن عن الضحاك بن سفيان فذكر حديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم . وقال الحسن عن يحيى عن أبي قال ان مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وان قزحها وملحه . وقال محمد بن الحسين بن علي - من ولد علي رضي الله عنه - ما دخل قلب رجل من شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك . وقال

يونس بن عبيد ليس مع السجود كبر ولا مع التوحيد تفاق ، ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته وذلك قبل أن يستخلف فطعن طاوس في جنبه بأصبعه وقال ليس هذا شأن من في بطنه خرم ؟ فقال له كالمعتد إلى : يا عم لقد ضرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها قال أبو بكر بن أبي الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلمون هذه المشية (فصل في الاختيال) عن ابن أبي ليلى عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعا « من جرثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » ورواه عن إسحاق بن إسماعيل عن سفيان عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله وحدثنا محمد بن بكر حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرأه ، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبه نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وروى الزهري عن سالم عن أبيه بينما رجل إلى آخره

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمَنِ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى منها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم مافي السموات من نجوم يستضيئون بها في ليالهم ونهارهم وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وتلج وبرد وجعله إياها لهم سقفا محفوظا وما خلق لهم في الأرض من قرار وأشجار وزروع ونمار وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعال ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم بل منهم من يجادل في الله أي في توحيده وإرساله الرسل ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجة صحيحة ولا كتاب مأمور صحيح ، ولهذا قال تعالى (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) أي مبين مضى (وإذا قيل لهم) أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله (اتبعوا ما أنزل الله) أي على رسوله من الشرائع الظاهرة (قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا) أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) أي فما ظنكم أيها المحتجون باتباع آباءهم أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فإكانوا فيه ولهذا قال تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير)

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَمَنْ نَضَعُ لَهُمْ نَظِيرًا ثُمَّ نَكْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

يقول تعالى محضاً عن أسلم وجهه لله أي أخاص له العمل وإتقاه لأمره واتباع شرعه ، ولهذا قال (وهو محسن) أي في عمله : باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي فقد أخذ موثقاً بالله متيناً أنه لا يعذبه (وإلى الله عاقبة الأمور *) ومن كفر فلا يحزنك كفره (أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله وما جئت به وإن قدر الله نافذ فيهم وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا أي فيجزئهم عليه (إن الله عليم بذات الصدور) فلا تخفى عليه خافية ثم قال تعالى (نكفهم قليلاً) أي في الدنيا (ثم نضطرهم) أي نلجئهم (إلى عذاب غليظ) أي فطيع صعب مشق على النفوس كما قال تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء الشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله) أى إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم (بل أكثرهم لا يعلمون) ثم قال تعالى (الله ما في السموات والأرض) أى هو خلقه وملكه (إن الله هو الغنى الحميد) أى الغنى عما سواه وكل شئ فقير إليه الحميد في جميع ما خلق له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع وهو المحمود في الأمور كلها

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعُثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) أى ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكثبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ونفذ ماء البحر ولوجاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ولا أن ثم سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله من تلقاه من الاسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب بل كما قال تعالى في الآية الأخرى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) فليس المراد بقوله (بمثله) آخر فقط بل بمثله ثم بمثله ، ثم بمثله ثم هلم جرا لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته قال الحسن البصري لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله إن من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام ، وقال قتادة قال المشركون إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ فقال الله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) أى لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ما كان لتنفذ عجائب ربي وحكمته وخلقته وعلمه . وقال الربيع بن أنس إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) الآية يقول لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام ونفى ماء البحر وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شئ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذى يثني على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول . وقد روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود قال ابن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبيرة عن عكرمة عن ابن عباس أن أجبازيهود قالوا لرسول الله ﷺ يا محمد أرايت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا أأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شئ ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها في علم الله قليل وعندهم من ذلك ما يكفيهم » وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) الآية وهكذا روى عن عكرمة وعطاء بن يسار وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية والشهور أنها مكية والله أعلم وقوله (إن الله عزيز حكيم) أى عزيز قد عز كل شئ وقهره وغلبه فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه حكيم فى خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شئونه وقوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى

قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة للجميع هيئ عليه (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) (وما أمراً إلا واحدة كلج بالبصر) أى لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكيده (فإعماهى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) وقوله (إن الله سميع بصير) أى كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ولهذا قال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) الآية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ شَؤُ الْبَاطِلِ الْكَبِيرُ ﴾

يخبر تعالى أنه (يولج الليل في النهار) يعنى يأخذ منه في النهار فيطول ذاك ويقصر هذا وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية ثم يشرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وهذا يكون في الشتاء (وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى) قيل إلى غاية محدودة وقيل إلى يوم القيامة وكلا المعنيين صحيح ويستشهد للقول الأول بحديث أبي ذر رضى الله عنه الذى فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يا أبا ذر أتدرى أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم . قال « فانها تذهب فتسجد تحت العرش ثم تستأذن ربها فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو صالح حدثنا يحيى بن أيوب عن ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس أنه قال : الشمس بمنزلة الساقية تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها فإذا غربت جرت بالليل فى فلكها تحت الأرض حتى تطلع من مشرقها قال وكذلك القمر إسناداه صحيح ، وقوله (وإن الله بما تعملون خبير) كقوله (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض) ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العام بجميع الأشياء كقوله تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية وقوله تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق أى الوجود الحق الإله الحق وأن كل ما سواه باطل فانه الغنى عما سواه وكل شيء فقير إليه لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبيده لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير) أى العلى الذى لا أعلى منه الكبير الذى هو أكبر من كل شيء فكل خاضع حقير بالنسبة إليه

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَاطِلٌ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سخر البحر لتجرى فيه الفلك بأمره أى باطقه وتسخره فانه لولا ما جعل فى الماء من قوة يعمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال (ليرىكم من آياته) أى من قدرته (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى صبار فى الضراء شكور فى الرخاء ، ثم قال تعالى (وإذا غشيهم موج كاطلل) أى كالجبال والغيام (دعوا الله مخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) كما قال تعالى (وإذا منكم السفينة فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) وقال تعالى (فإذا ركبوا فى الفلك) الآية ثم قال تعالى (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) قال مجاهد أى كافر كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد كما قال تعالى (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) وقال ابن زيد هو التوسط فى العمل وهذا الذى قاله ابن زيد

هو المراد في قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد) الآية فالتقصد ههنا هو التوسط في العمل ، ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه والله أعلم . وقوله تعالى (وما يحجد بآياتنا إلا كل ختار كفور) فالختار هو الغدار . قاله مجاهد والحسن وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وهو الذي كلما عاهد نقض عهده والختار أتم الغدر وأبلغه . قال عمرو بن معديكرب :

وإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر

وقوله (كفور) أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد وأمرهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث (لا يجزي والد عن ولده) أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ثم عاد بالوعظة عليهم بقوله (فلا تغرَّنكم الحياة الدنيا) أي لا تلهيكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة (ولا يغرَّنكم بالله الغرور) يعني الشيطان . قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة فإنه يغري ابن آدم ويعده ويمنيه وليس من ذلك شيء بل كان كما قال تعالى (يهدمهم ويمههم وما يهدمهم الشيطان إلا غروراً) قال وهب بن منبه قال عزيز عليه السلام لما رأيت بلاء فومي اشتد حزني وكثر همي وأرق نومي فتضرعت إلى ربي وصليت وصمت فأنا في ذلك التضرع أبكي إذ أتاني الملك فقلت له خبرني هل تشفع أرواح الصديقين للظلمة أو الآباء لأبنائهم ؟ قال إن القيامة فيها فصل القضاء وملك ظاهر ليس فيه رخصة لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الرحمن ، ولا يؤخذ فيه والد عن ولده ولا ولد عن والده ولا أخ عن أخيه ولا عبد عن سيده ولا هم أحد به غيره ، ولا يحزن لحزنه ولا أحد يرحمه ، كل مشفق على نفسه ، ولا يؤخذ إنسان عن إنسان ، كل يهمله وهم ويكفي عوله ، ويحمل وزره ولا يحمل وزره معه غيره . رواه ابن أبي حاتم

﴿ إِنْ أَلَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب (لا يخافها لوقتها إلا هو) وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلق الله تعالى سواء ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان لا علم لأحد بذلك وهذه شبهة بقوله تعالى (وعندنا مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب

قال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين بن واقد حدثني عبد الله بن بريدة سمعت أبي بريدة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » هذا حديث

صحيح الإسناد ولم يخرجوه (حديث ابن عمر) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » انفرد بإخراجه البخارى فرواه في كتاب الاستسقاء في صحيحه عن محمد بن يوسف الفريانى عن سفيان بن سعيد الثورى به ، ورواه في التفسير من وجه آخر فقال حدثنا يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب حدثني عمر بن محمد ابن زيد بن عبد الله بن عمر أن أباه حدثه أن عبد الله بن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « مفاتيح الغيب خمس » ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام) انفرد به أيضا . ورواه الإمام أحمد عن غندر عن شعبة عن عمر بن محمد أنه سمع أباه يحدث عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) » (حديث ابن مسعود) رضى الله عنه قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن شعبة ثنى عمرو ابن مرة عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله أوتى نبيكم صلى الله عليه وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) وكذا رواه عن محمد بن جعفر عن شعبة عن عمرو بن مرة به وزاد في آخره . قال قلت له أنت سمعته من عبد الله : قال نعم أكثر من خمسين مرة ، ورواه أيضا عن وكيع عن مسعر عن عمرو بن مرة به وهذا إسناد حسن على شرط أصحاب السنن ولم يخرجوه (حديث أبى هريرة) قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إسحاق عن جرير عن أبى حيان عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال يا رسول الله : ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر » قال يا رسول الله ما الإسلام قال « الإسلام . أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان » قال يا رسول الله ما الإحسان . قال « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال يا رسول الله متى الساعة ، قال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة ردوس الناس فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ، إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم مافي الأرحام » الآية ثم انصرف الرجل فقال « ردوه على » فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا فقال « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » ورواه البخارى أيضا في كتاب الإيمان ومسلم من طرق عن أبى حيان به وقد تكلمنا عليه في أول شرح البخارى وذكرنا ثم حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في ذلك بطوله وهو من افراد مسلم (حديث ابن عباس) قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا بهز حدثنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : جلس رسول الله ﷺ محاسبا فأتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعا كفيه على ركبتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما الإسلام ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإسلام أن تسلم وجهك لله عز وجل وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله » قال فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ، قال « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » قال يا رسول الله فحدثني ما الإيمان ؟ قال « الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين ، وتؤمن بالموت وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » قال فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ، قال « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » قال يا رسول الله حدثني ما الإحسان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك » قال يا رسول الله فحدثني متى الساعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هي - سبحان الله - في خمس لا يعلمهن إلا الله (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) ولكن إن

سئت حدثك بمعالم لها دون ذلك - قال أجل يا رسول الله فحدثني قال رسول الله ﷺ - إذا رأيت الأمة ولدت ربها - أوربها - ورأيت أصحاب البنيان يتناولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة رموس الناس فذلك من معالم الساعة وأشرطها » قال يا رسول الله ومن أصحاب البنيان الحفاة الجياع العالة ؟ قال « العرب » حديث غريب ولم يخرجوه (حديث رجل من بني عامر) روى الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه « اخرجني إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقول لي فليقل السلام عليكم أأدخل » قال فسمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لي فدخلت فقلت بم أثبتنا ؟ قال « لم آتكم إلا بخير ، أنيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتدوها على فقرائكم » قال فقال فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال « قد علمني الله عز وجل - خير أو إن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس (إن الله عند علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام) » الآية وهذا إسناد صحيح وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد جاء رجل من أهل البادية فقال إن امرأتى حبلى فأخبرني ما تلد ، وبلادنا مجدة فأخبرني متى ينزل الغيث ، وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت فأنزل الله عز وجل (إن الله عنده علم الساعة - إلى قوله - علم خير) قال مجاهد وهي مفتاتيح الغيب التي قال الله تعالى (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) وقوله تعالى (وما تدري نفس بأي أرض تموت) قال قتادة أشياء استأثر الله بهن فلم يطلع عليهن ما سكا مقيبلاً ولا نبياً ، رسلاً (إن الله عنده علم الساعة) فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة في أي سنة أو في أي شهر أو ليل أو نهار (وينزل الغيث) فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً (ويعلم ما في الأرحام) فلا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى أحمر أو أسود وما هو (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً) أخير أم شر ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت لعلك الميت غدا لعلك المصاب غدا (وما تدري نفس بأي أرض تموت) أي ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض أفي بحر أم بر أو سهل أو جبل . وقد جاء في الحديث « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » فقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير في مسند أسامة ابن زيد حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن أبي المليح عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما جعل الله ميتة عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي إسحاق عن مطر بن عكاس قال ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا قضى الله ميتة عبد بأرض جعل له إليها حاجة » وهكذا رواه الترمذي في القدر من حديث سفيان الثوري به ثم قال حسن غريب ولا يعرف لمطر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذا الحديث وقد رواه أبو داود في المراسيل قاله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن أبي المليح بن أسامة عن أبي عزة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال بها - حاجة » وأبو عزة هذا هو بشار بن عبيد الله ويقال ابن عبد الهذلي . وأخرجه الترمذي من حديث إسماعيل ابن إبراهيم وهو ابن علية وقال صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عصام الأصفهاني حدثنا المؤمل ابن إسماعيل حدثنا عبيد الله بن أبي حميد عن أبي المليح عن أبي عزة الهذلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة فلم ينته حتى يقدمها » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة - إلى - علم خير) . (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن ثابت الجحدري ومحمد بن يحيى القطعي قالا حدثنا عمر بن علي حدثنا إسماعيل عن قيس عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل لها إليها حاجة » ثم قال البزار وهذا الحديث لا نعلم أحداً

يرفعه إلّا عمر بن طي القدي . وقال ابن أبي الدنيا حدثني سليمان بن أبي مسيح قال أنشدني محمد بن الحكم لأعشى همدان .

فما تزود مما كان يجمعه سوى حنوط غداة البين مع خرق
وغير نفقة أعواد تشب له وقل ذلك من زاد لمنطلق
لا تأسين على شيء فكل فتى إلى منيته سيار في عنق
وكل من ظن أن الموت يخطئه مغل بأعالي من الحق
بأبى بلدة تقدر منيته إلا يسير إليها طائعا يبق

أورده الحافظ ابن عساكر رحمه الله في ترجمة عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث وهو أعشى همدان وكان الشعبي زوج أخته وهو مزوج بأخت الشعبي أيضا ، وقد كان ممن طلب العلم والنفقة ثم عدل إلى صناعة الشعر فعرف به ، وقد روى ابن ماجه عن أحمد بن ثابت وسمير بن شبة كلاهما عن عمر بن عكرمة مرفوعا إذا كان أجل أحدكم بأرض أنتاه إليها حاجة فإذا بلغ أقصى أثره قبضه الله عز وجل فتقول الأرض يوم القيامة : يارب هذا ما أودعني قال الطبراني حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب عن أبي المليح عن أسامة أن رسول الله ﷺ قال «ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له إليها حاجة» . آخر تفسير سورة لقمان ، والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

﴿ تفسير سورة الم السجدة ، وهي مكية ﴾

روى البخاري في كتاب الجمعة حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن سعد بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبي هريرة قال . كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (الم تنزيل) السجدة و (هل أتى على الإنسان) ورواه مسلم أيضا من حديث سفيان الثوري به . وقال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا الحسن بن صالح عن ليث عن أبي الزبير عن جابر قال كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك ، تفرد به أحمد .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلَمْ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أعنى عن إعادته ههنا ، وقوله (تنزيل الكتاب لاريب فيه) أى لا شك فيه ولا مرية أنه منزل (من رب العالمين) ثم قال تعالى مخبرا عن المشركين (أَمْ يَقُولُونَ افتراه) بل يقولون افتراه أى اختلقه من تلقاء نفسه (بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) أى يتبعون الحق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأُمُورَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَفْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) أى بل هو المالك لأزمة الأمور الخالق لكل شيء الدبر لكل شيء القادر على كل شيء فلا ولى لحلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه (أفلا تتذكرون) يعنى أيها العابدون

غيره المتوكلون على من عداه تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقد أورد النسائي هنا حديثاً فقال : حدثنا إبراهيم بن يعقوب حدثني محمد بن الصباح حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا الأخضر بن عجلان عن أبي جريح المكي عن عطاء عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال : « إن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش في اليوم السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والسكره يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلق من آدم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها ، من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والحديث » هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً ، وقد أخرج مسلم والنسائي أيضاً من حديث حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريح عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحو من هذا السياق . وقد علله البخاري في كتاب التاريخ الكبير فقال وقال بعضهم أبو هريرة عن كعب الأحبار وهو أصح وكذا علله غير واحد من الحفاظ والله أعلم ، وقوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) أي ينزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة كما قال تعالى (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) الآية وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة وممك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد وقتادة والضحاك النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام ولكنه يقطعها في طرفه عين ولهذا قال تعالى (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة) أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده يرفع إليه جليلها وحقيقتها وصغيرها وكبيرها ، هو العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه ودانت له العباد والرقاب الرحيم بعباده المؤمنين فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته وهذا هو السكال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلاذل

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال مالك عن زيد بن أسلم (الذي أحسن كل شيء خلقه) قال أحسن خلق كل شيء كأنه جعله من القدم والمؤخر ، ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعني خلق أبا البشر آدم من طين (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة (ثم سواه) يعني آدم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً (ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) يعني العقول (قليلاً ما تشكرون) أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل

﴿ وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَهْنَا لَنَبِيٍّ خَلَقَ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملاكين في استبعادهم للعاد حيث قالوا (أنذا ضللنا في الأرض) أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت (أننا لنبي خلق جديد) أي أننا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ولهذا قال تعالى (بل هم بلىقاء ربهم كافرون) ثم قال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم) الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة

إبراهيم وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد وله أعوان ، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه يتزعجون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت ، قال مجاهد: حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء . ورواه زهير بن محمد عن النبي ﷺ بنحوه مرسل . وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن أبي يحيى المقرئ حدثنا عمر بن ميمونة عن جعفر بن محمد قال سمعت أبي يقول : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبي ﷺ « يا ملك الموت ارفق بصاحبي فإنه مؤمن » فقال ملك الموت يا محمد طيب نفساً وقر عيناً فاني بكل مؤمن رقيق ، واعلم أن ما في الأرض بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر إلا وأنا أنصفهم في كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها ، قال جعفر بلغني أنه إنما يتصفهم عند مواقيت الصلاة فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك لا إله إلا الله محمد رسول الله في تلك الحال العظيمة ، وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة قال سمعت مجاهداً يقول : ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطرف به كل يوم مرتين ، وقال كعب الأحبار والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه . رواه ابن أبي حاتم ، وقوله تعالى (ثم إلى ربكم ترجعون) أي يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَنْصِرْنَا وَجَعَلْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَسَكُنَ حَقُّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل حفيين ذليين ناكسين رؤوسهم أي من الخياء والحجل يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا) أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) وكذلك يعددون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بهولهم (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وهكذا هؤلاء يقولون (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا) أي إلى دار الدنيا (نعمل صالحاً إِنَّا موقنون) أي قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويغالغون رساله ككناك تعالى (ولو ترى إذ ذوقوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) الآية وقال ههنا (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) كما قال تعالى (ولو شاء ربك لأمّن من في الأرض كلهم جميعاً) (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أي من الصنفين فدارهم النار لا يحيد لهم عنها ولا يحص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له إذ عاينتموه معاملة من هو ناس له (إنا نسيناكم) أي سنا معاملة الناسي لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى (فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أي بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى في الآية الأخرى (لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً* إلا حمماً وغساقاً* - إلى قوله - فلن يزيدكم إلا عذاباً)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى (إنما يؤمن بآياتنا) أى إنما يصدق بها (الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا) أى استمعوا لها وأطاعوها قولا وفعلًا (وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون) أى عن اتباعها والالتقياد لها كما يفعله الجاهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يعنى بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة ، قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يعنى بذلك قيام الليل . وعن أنس وعكرمة ومحمد بن النكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس أيضا هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد ، وقال الضحاك هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة (يدعون ربهم خوفا وطمعا) أى خوفا من وبال عقابه وطمعا فى جزيل ثوابه (ومما رزقناهم ينفقون) فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والتعبدية ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ كما قال عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه * إذا انشق معروف من الصبح طامع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات أن ما قال واقع
بيت يحافى جنبه عن فراشه * إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الإمام أحمد حدثنا روح وعفان قالا حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا عطاء بن السائب عن مرة الهمداني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى فانهزموا فعلم ما عليه من الفرار وما له فى الرجوع فرجع حتى أهرى دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ورهبة مما عندى حتى أهرى دمه » وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت يا نبي الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار قال « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا . وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت - ثم قال - ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل - ثم قرأ - (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (جزاء بما كانوا يعملون) ثم قال - ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ - فقلت بلى يا رسول الله فقال - رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله - ثم قال - ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ - فقلت بلى يا نبي الله فأخذ بلسانه ثم قال « كف عليك هذا » فقلت يا رسول الله وإننا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال « ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أوفال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم من طرق عن معمر به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه ابن جرير من حديث شعبة عن الحكم قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال له « ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وقيام العبد فى جوف الليل » وتلاه هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) ورواه أيضا من حديث الثورى عن منصور بن المعتمر عن الحكم عن ميمون بن أبى شبيب عن معاذ عن النبي ﷺ بنحوه ومن حديث الأعمش عن حبيب بن أبى ثابت والحكم عن ميمون بن أبى شبيب

عن معاذ مرفوعاً بنحوه ومن حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر عن معاذ أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال « قيام العبد من الليل » وروى ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطي حدثنا يزيد بن هارون حدثنا قطر بن خليفة عن حبيب بن أبي ثابت والحكم وحكيم بن جبير عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبي ﷺ في غزوة تبوك فقال « إن شئت نبأتك بأبواب الخير ، الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل » ثم تلا رسول الله ﷺ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية ثم قال حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله ﷺ « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فينادي بصوت يسمع الخلائق فيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقيم الدين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية - فيقومون وهم قليل » وقال البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا الوليد بن عطاء بن الأعر حدثنا عبد الحميد بن سليمان حدثني مصعب بن زياد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال لما نزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية كئنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ثم قال لا أعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق وقوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثاتها أحد لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب جزاء وفاقاً فإن الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم . قال البخاري قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال أبو هريرة أقرءوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) قال وحدثنا سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال فأي شيء ؟ ورواه مسلم والترمذي من حديث سفيان بن عيينة به وقال الترمذي حسن صحيح ثم قال البخاري حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا أبو أسامة عن الأعمش حدثنا أبو صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ذخراً من بله ما أطلعتم عليه » ثم قرأ (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) قال أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح قرأ أبو هريرة (قرأت أسين) انفرده البخاري من هذا الوجه وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ « إن الله تعالى قال أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » أخرجه في الصحيحين من رواية عبد الرزاق قال ورواه الترمذي في التفسير وابن جرير من حديث عبد الرحيم بن سليمان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بمثله ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح . وقال حماد بن سلمة عن ثابت بن أبي رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال حماد أحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة نعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به وروى الإمام أحمد حدثنا هارون حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر أن أنا حازم حدثه قال سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول شهدت من رسول الله ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ثم قال في آخر حديثه « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ثم قرأ هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع - إلى قوله - يعملون) وأخرجه مسلم في صحيحه عن هارون بن معروف وهارون بن سعيد كلاهما عن ابن وهب به

وقال ابن جرير حدثني العباس بن أبي طالب حدثنا معلى بن أسد حدثنا سلام بن أبي مطيع عن قتادة عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه عز وجل « قال أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » لم يخرجوه وقال مسلم أيضا في صحيحه حدثنا ابن أبي عمير وغيره حدثنا سفيان حدثنا مطرف بن طريف وعبد الملك بن سعيد سمعا الشعبي يخبر عن المغيرة بن شعبه قال سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي ﷺ قال سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يحىء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل الجنة فيقول أى رب كيف وقد أخذ الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة رضيت ربى فيقول هذا لك وعشرة أمثاله معه ولك ما اشتئت نفسك ولدت عينك فيقول رضيت رب قال رب فأعلاهم منزلة قال أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر قال ومصادقه من كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) الآية ورواه الترمذى عن ابن أبي عمير وقال حسن صحيح قال ورواه بعضهم عن الشعبي عن المغيرة ولم يرفعه والرفوع أصح قال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن المدائني حدثنا أبو بدر بن شجاع بن الوليد حدثنا زياد بن خزيمة عن محمد بن جحادة عن عامر بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت ؟ فتقول أنا من المزيدي فيمكث معها سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب فتقول من أنت ؟ فتقول أنا التى قال الله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وقال ابن لهيعة حدثني عطاء ابن دينار عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم وذلك قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ويخبرون أن الله عنهم راض ، وروى ابن جرير حدثنا سهل بن موسى الرازى حدثنا الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أبي اليمان الهوزنى وأوغيرة قال : الجنة مائة درجة أولها درجة فضة وأرضها فضة ومساكنها فضة وآبيتها فضة وترابها المسك ، والثانية ذهب وأرضها ذهب ومساكنها ذهب وآبيتها ذهب وترابها المسك والثالثة لؤلؤ وأرضها لؤلؤ ومساكنها اللؤلؤ وآبيتها اللؤلؤ وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم تلا هذه الآية (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم) الآية وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن العطريرف عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي ﷺ عن الروح الأمين قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ينقص بعضها من بعض فان بقيت حسنة واحدة وسع الله له فى الجنة قال فدخلت على بزاد فحدث بمنزل هذا الحديث قال فقلت فأين ذهبت الحسنة قال (أولئك الذين نقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم) الآية قلت قوله تعالى (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) قال العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِنِآيَتِهِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنه لا يساوى في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسوله بمن كان فاسقاً
أى خارجاً عن طاعة ربه مكذباً رسل الله إليه كما قال تعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا
وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في
الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) الآية ولهذا قال تعالى ههنا
(أفن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) أى عند الله يوم القيامة وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما أنها نزلت
في طى بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط ولهذا فصل حكمهم فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى صدقت قلوبهم
بآيات الله وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات (فلهن جنات اللوى) أى التى فيها المساكن والدور والغرف العالية (نزلاً)
أى ضيافة وكرامة (بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا) أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن
يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) الآية قال الفضيل بن عياض
والله إن الأيدي لموتقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار
الذى كنتم به تكذبون) أى يقال لهم ذلك تقرعاً وتوبيخاً . وقوله تعالى (ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون
العذاب الأكبر) قال ابن عباس يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتهما وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به
عباده ليتوبوا إليه ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية والحسن وإبراهيم النخعى والضحاك وعلقمة وعطية
ومجاهد وقتادة وعبد الكريم الجزرى وخصيف ، وقال ابن عباس فى رواية عنه يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال
البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى
عن إسرائيل عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص وأبى عبيدة عن عبد الله (ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب
الأكبر) قال سنون أصابهم ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنى عبد الله بن عمر الفوارىرى حدثنا يحيى بن سعيد عن
شعبة عن قتادة عن عروة عن الحسن العوفى عن يحيى بن الجزار عن ابن أبى ليلى عن أبى بن كعب فى هذه الآية
(ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال القمى والدخان قد مضى والبطشة والازام ، ورواه مسلم
من حديث شعبة به موقوفاً نحوه وعند البخارى عن ابن مسعود نحوه ، وقال عبد الله بن مسعود أيضاً فى رواية عنه
العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسب يوم بدر ، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم قال السدى وغيره لم يبق بيت
بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير فأصيبوا أو غرموا ومنهم من جمع له الأمران . وقوله تعالى (ومن أظلم
ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) أى لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ثم بعد ذلك تركها وجحدتها
وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم والاعراض عن ذكر الله فإن من أعرض عن ذكره فقد
اغترأكبر الغرة وأعوز أشد العوز وعظم من أعظم الذنوب ، ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك (إنا من المجرمين
منتقمون) أى سأنقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام . وروى ابن جرير حدثنى عمران بن بكار السكلاعى حدثنا محمد بن
البارك حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا عبد العزيز بن عبيدة عن عباد بن نسي عن جنادة بن أمية عن معاذ بن جبل
قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء فى غير حق أو عق والدية
أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم يقول الله تعالى (إنا من المجرمين منتقمون) ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل
ابن عياش به وهذا حديث غريب جداً .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لَّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ * وَجَعَلْنَا
مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَنَاءً لِّدِينِ يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب وهو التوراة ، وقوله تعالى (فلا تكن في مرية من لقائه) قال قتادة يعني به ليلة الإسراء ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال حدثني ابن عم نبيكم يعني ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أريت ليلة أسرى بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة . وأريت عيسى رجلاً مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، وأريت مالكا خازن النار والدجال » في آيات أراهن الله إياه (فلا تكن في مرية من لقائه) أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسرى به .

وقال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن علي الحلواني حدثنا روح بن عبادة حدثنا سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى (وجعلناه هدى لبنى إسرائيل) قال جعل موسى هدى لبنى إسرائيل وفي قوله (فلا تكن في مرية من لقائه) قال من لقاء موسى ربه عز وجل وقوله تعالى (وجعلناه) أي الكتاب الذي آتينا به (هدى لبنى إسرائيل) كما قال تعالى في سورة الإسراء (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل أن لا تتخذوا من دوني وكيلاً) وقوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) أي لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجه وتصديق رسوله واتباعهم فيما جاءهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه فلا عمل صالح ولا اعتقاداً صحيحاً ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب) قال قتادة وسفيان لما صبروا عن الدنيا وكذلك قال الحسن ابن صالح قال سفيان هكذا كان هؤلاء ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامي عن الدنيا ، قال وكيع قال سفيان لا بد للدين من العلم كما لا بد للجسد من الخبز وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي أو عمي على أبي سئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ألم تسمع قوله (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) قل لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً قال بعض العلماء بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ولهذا قال تعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الأمر) الآية كما قل هنا (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي من الاعتقادات والأعمال

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ هَاكُنَّا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

يقول تعالى أولم يهد لهم كم هاكنا من قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاءهم به من قويم السبل فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر (هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً) ولهذا قال (يمشون في مساكنهم) أي وهؤلاء الكذّابون يمشون في مساكن أولئك المكذّبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها (كأن لم يغنوا فيها) كما قال (فتلک بيوتهم خاوية بما ظفروا) وقال (وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيرا في الأرض - إلى قوله - ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ولهذا قال ههنا (إن في ذلك لآيات) أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متناظرة (أفلا يسمعون) أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم وقوله تعالى (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) يبين تعالى لطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيج وهو ما تحمله الأنهار ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ولهذا قال تعالى (إلى الأرض الجرز) وهي التي لا نبات فيها كما قال تعالى (وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً) أي

يبساً لا تنبت شيئاً ، وليس المراد من قوله (إلى الأرض الجرز) أرض مصر فقط بل هي بعض المقصود وإن مثلها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية فإنها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لنهدمت أبنيتها فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتجمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر وهي أرض سبخة مرملية محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم وطين جديد من غير أرضهم فسبحان الحكيم الكريم المنان الحمود أبداً ، قال ابن الهيثم عن قيس بن حجاج عمن حدثه قال : لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص وكان أميراً بها حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها . قال وماذا قالوا إذا كانت ثلثا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في هذا النيل فقال لهم عمرو إن هذا لا يكون في الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى حتى هموا بالجلأ ، فكذب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك فكذب إليه عمر إنك قد أصبت بالبدى فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر أما بعد فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجرى ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجري بك فنسأل الله أن يجريك . قال فألقى البطاقة في النيل فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقد قطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائي الطبري في كتاب السنة له . ولهذا قال تعالى (أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يصبرون) كما قال تعالى (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا) الآية ولهذا قال ههنا (أفلا يصبرون) وقال ابن أبي نجیح عن رجل عن ابن عباس في قوله (إلى الأرض الجرز) قال هي التي لا تمطر إلا مطراً لا ينبت عليها شيئاً إلا ما يأتيناها من السيول ، وعن ابن عباس ومجاهد هي أرض اليمن ، وقال الحسن رحمه الله هي قرى فيما بين اليمن والشام . وقال عكرمة والنضجاء وقتادة والسدي وابن زيد الأرض الجرز التي لا نبات فيها وهي معبرة قلت وهذا كقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآيتين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرِ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم وحلول غضبه وبقمته عليهم استبعاداً وتسكيناً وعناداً (ويقولون متى هذا الفتح) أي متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا وينتقم لك منا فتى يكون هذا ما نراك أنت وأصحابك إلا مختلفين خائفين ذليلاً قال الله تعالى (قل يوم الفتح) أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا وفي الآخرة (لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) كما قال تعالى (فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم) الآيتين . ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله (فافتح بيني وبينهم فتحاً) الآية وكقوله (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق) الآية وقال تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) وقال تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) وقال تعالى (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) ثم قال تعالى (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك كقوله تعالى (اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو) الآية وانتظر فإن الله سينجز لك

ما وعدك وسينصرك على من خالفك إنه لا يخلف الميعاد وقوله (إنهم منتظرون) أى أنت منتظر وهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر (أم يقولون شاعر تتربص به ريب الذنون) وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله فى نصرتك وتأييدك وسيجدون غيب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم وحسبنا الله ونعم الوكيل آخر تفسير سورة السجدة والله الحمد والمنة

(تفسير سورة الاحزاب وهى مدنية)

قال الإمام أحمد حدثنا خلف بن هشام حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن زر قال : قال لى أبى بن كعب كآين تقرأ سورة الأحزاب أو كآين تعدها ؟ قال قلت ثلاثاً وسبعين آية فقال قط لقد رأيته وإنيها لتعادل سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم ورواه النسائي من وجه آخر عن عاصم وهو ابن أبى النجود وهو أبو بهدلة به ، وهذا إسناد حسن وهو يقتضى أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا والله أعلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى فانه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلا يأت من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى ، وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) أى لا تسمع منهم ولا تستشرهم (إن الله كان عليهما حكيمًا) أى فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه فانه عليم بعواقب الأمور حكيم فى أقواله وأفعاله ولهذا قال تعالى (واتبع ما يوحى إليك من ربك) أى من قرآن وسنة (إن الله كان بما تعملون خبيرًا) أى فلا تخفى عليه خافية وتوكل على الله أى فى جميع أمورك وأحوالك (وكفى بالله وكيلا) أى وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا

يقول تعالى موطننا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ولا تصير زوجته التى يظهر منها بقوله أنت على كظهر أى أماله ، كذلك لا يصير الدعى ولدا للرجل إذا تبناه فدعا ابنه فقال (ما جعل الله للرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) كقوله عز وجل (ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) الآية . وقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) هذا هو المقصود بالنفى فانه انزلت فى شأن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى النبي صلى الله عليه وسلم ، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة فكان يقال له زيد بن محمد فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الالتاق وهذه النسبة بقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم وأبناءكم) كما قال تعالى فى أثناء السورة (ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين

وكان الله بكل شيء علما) وقال ههنا (ذلكم قولكم بأفواهكم) يعني تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا حقيقيا فانه مخلوق من صلب رجل آخر فما يمكن أن يكون له أبوان كمالا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبا (والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل) قال سعيد بن جبير (يقول الحق) أى العدل ، وقال قتادة (وهو يهتدى السبيل) أى الصراط المستقيم وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قریش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه . هكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة واختاره ابن جرير . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا زهير عن قابوس يعنى ابن أبى ظبيان قال إن أباه حدثه قال قلت لابن عباس رأيت قول الله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) ما عني بذلك ؟ قال قام رسول الله ﷺ يوما يصلى فخطر خطر فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فأنزل الله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وهكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن صاعد الحرانى عن عبد بن حميد وعن أحمد بن يونس كلاهما عن زهير وهو ابن معاوية به ثم قال وهذا حديث حسن ، وكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زهير به . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري في قوله (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) قال بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ضرب له مثل : يقول ليس ابن رجل آخر ابنك وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد أنها نزلت في زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله عز وجل (ادعواهم لآبائهم هو أقسط عند الله) هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب وهم الأديعاء فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة وأن هذا هو العدل والقسط والبر . قال البخارى رحمه الله حدثنا معلى بن أسد حدثنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة قال حدثنى سالم عن عبد الله بن عمر قال إن زيد بن حارثة رضى الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادعواهم لآبائهم هو أقسط عند الله) وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى من طرق عن موسى بن عقبة به . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه في الحاة بالمحارم وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة رضى الله عنهما يا رسول الله كئنا ندعو سالما ابنا وإن الله قد أنزل ما أنزل وإنه كان يدخل على وإنى أجد في نفس أبى حذيفة من ذلك شيئا ، فقال صلى الله عليه وسلم « أَرْضِعِيهِ تَحْرِمِي عَلَيْهِ » الحديث ، ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضى الله عنه ، وقال عز وجل (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) وقال تبارك وتعالى في آية التجريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) احترازا عن زوجة الدعى فانه ليس من الصلب فأما الابن من الرضاعة فنزل منزلة ابن الصلب شرعا بقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين « حرما من الرضاعة من يحرم من النسب » فأما دعوة الغير ابنا على سبيل التكريم والتجيب فليس مما نهى عنه في هذه الآية بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى من حديث سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن الحسن العرنى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قد منا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أغيلة بنى عبد المطلب على جمرات لنا من جمع فجعل يلطخ أفخاذنا ويقول « أبنى لا ترموا الجمره حتى تطلع الشمس » قال أبو عبيدة وغيره أبى تصغير أبى وهذا ظاهر الدلالة فان هذا كان في حجة الوداع سنة عشر . وقوله (ادعواهم لآبائهم) في شأن زيد بن حارثة رضى الله عنه وقد قتل في يوم مؤتة سنة ثمان وأيضا ففي صحيح مسلم من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله الشكرى عن الجعد أبى عثمان البصرى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « يا بنى » ورواه أبو داود والترمذى ، وقوله عز وجل (فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم) أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم إن عرفوا فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم أى عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء وتبعتهم ابنة حمزة رضى الله عنها تنادى يا عم يا عم فأخذها على رضى الله عنه

وقال لفاطمة رضى الله عنها دونك ابنة عمك ، فاحتملتها فاختصم فيها على وزيد وجعفر رضى الله عنهم فى أبيهم يكفلها فكل أدلى بحجة . فقال على رضى الله عنه أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد ابنة أختى ، وقال جعفر بن أبى طالب ابنة عمى وخالتها تحق يعنى أسماء بنت عميس ، فقتضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها وقال « الحالة بمنزلة الأم » وقال لعلى رضى الله عنه « أنت منى وأنا منك » وقال لجعفر رضى الله عنه « أشبهت خلقى وخلقى » وقال لزيد رضى الله عنه « أنت أخونا ومولانا » فى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها أنه ﷺ حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد رضى الله عنه « أنت أخونا ومولانا » كما قال تعالى (فأخوانكم فى الدين ومواليكم) وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن عيينة عن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال أبو بكر رضى الله عنه قال الله عز وجل (ادعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم) فأنا ممن لا يعرف أبوه فأنا من إخوانكم فى الدين ، قال أبى والله إنى لأظنه أنه لو علم أن أباه كان حمارا لاتمى إليه وقد جاء فى الحديث « ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وهذا تشديد وتهديد ووعد أكيد فى التبرى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أفسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم فى الدين ومواليكم) ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أى إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فإن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمكم كما أرشد إليه فى قوله تبارك وتعالى آمرا عباده أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله عز وجل قد فعلت » . وفى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » وفى الحديث الآخر « إن الله تعالى رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه » وقال تبارك وتعالى ههنا (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحما) أى وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) الآية . وفى الحديث المتقدم « ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر » وفى القرآن المنسوخ فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم أنه قال : إن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ثم قال قد كنا نقرأ (ولا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم) وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تنظرونى كما أظرى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فانما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله » وربما قال معمر « كما أظرت النصارى ابن مريم » ورواه فى الحديث الآخر « ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت . والاستسقاء بالنجوم » .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدما على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وفى الصحيح « الذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » وفى الصحيح أيضا أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك » . فقال يا رسول الله

والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم « الآن يا عمر » ولهذا قال تعالى في هذه الآية (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ، وقال البخارى عنده هذه الآية الكريمة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا محمد بن فليح حدثنا أبي عن هلال بن علي عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة : اقرءوا إن شئتم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » تفرد به البخارى ورواه أيضاً في الاستقراض وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن فليح به مثله ، ورواه أحمد من حديث أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن النبي ﷺ كان يقول « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأما رجل مات وترك ديناً فإلى ، ومن ترك مالا فهو لورثته » ورواه أبو داود عن أحمد ابن حنبل به نحوه وقوله تعالى (وأزواجه أمهاتهم) أى في الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالاجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى رضى الله عنه في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لإثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية وأمثلة خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رضى الله عنهم ، ونص الشافعى رضى الله عنه على أنه لا يقال ذلك ، وهل يقال لمن أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليبا ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت لا يقال ذلك وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعى رضى الله عنه . وقد روى عن أبي بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما أنهما قرآ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروى نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعى رضى الله عنه . حكاه البغوى وغيره واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود رحمه الله حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا ابن المبارك عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ولا يستطب بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الروث والرمة . وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث ابن عجلان ، والوجه الثانى أنه لا يقال ذلك واحتجوا بقوله تعالى (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) . وقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) أى فى حكم الله (من المؤمنين والمهاجرين) أى القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجر يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه الأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف . وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام فقال حدثنا أبي حدثنا أحمد بن أنى بكر المصعبى من ساكنى بغداد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال أنزل الله عز وجل فبنا خاصة معشر قريش والأنصار (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فواخيناهم ووارثناهم فأخى أبو بكر رضى الله عنه خارجة بن زيد ، وأخى عمر رضى الله عنه فلانا ، وأخى عثمان رضى الله عنه رجلاً من بنى زريق ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره قال الزبير رضى الله عنه وواخيت أنا كعب بن مالك فجئت فابتلعت فوجدت السلاح قد نقله فهايرى فوالله يابى لومات يومئذ عن الدنيا ماورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فبنا معشر قريش والأنصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا . وقوله تعالى (إلا أن تفسلوا إلى أوليائكم معروفات) أى ذهب الميراث وبقى النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ، وقوله تعالى (كان ذلك فى الكتاب مسطوراً) أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يسدل ولا

يفير . قاله مجاهد وغير واحد وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لئله في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي وقضائه القدرى الشرعى والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى وإبلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق كما قال تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم وكذلك هذا ، ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة وهم أولو العزم وهو من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بذكرهم أيضاً في هذه الآية وفي قوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فذكر الطرفين والوسط الفاتح والخاتم ومن بينهما على الترتيب فهذه هي الوصية التي أخذ عليهم الميثاق بها كما قال تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة الدمشقي حدثنا محمد بن بكار حدثنا سعيد بن بشير حدثني قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قول الله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم » سعيد بن بشير فيه ضعف ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به مرسل وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً والله أعلم . وقال أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا أبو أحمد حدثنا حمزة الزيات حدثنا عدى بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وخيرهم محمد صلى الله عليه وسلم . موقوف وحمزة فيه ضعف ، وقد قيل إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الدر من صلب آدم عليه الصلاة والسلام كما قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : ورفع أباهم آدم فنظر إليهم يعني ذريته وأن فيهم الغنى والفقر وحسن الصورة ودون ذلك فقال : رب لوسويت بين عبادك فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة وهو الذي يقول الله تعالى (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وهذا قول مجاهد أيضاً ، وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ العهد وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) قال مجاهد المبلغين المؤدين عن الرسل ، وقوله تعالى (وأعد للكافرين) أى من أممهم (عذاباً أليماً) أى موجعاً نحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعادنين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ومن خالفهم فهو على الضلال كما يقول أهل الجنة (لقد جاءت رسل ربنا بالحق)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الحندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وقال موسى بن عقبة وغيره كان في سنة أربع وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرا من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ووعدهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعواهم فاستجابوا لهم أيضا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الحندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة كما قال الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والحندق خفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الحيلة والرجالة أن تصل إليهم وجعل النساء والندراى في أطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقى المدينة ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حي بن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى تقضوا العهد ومالوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله تبارك وتعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلا شديدا) ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبا من شهر إلا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب معه فوارس فاقتحموا الحندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه فيقال إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر عليا رضي الله عنه فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله على رضي الله عنه فكان علامة على النصر . ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحا شديدة المهبوب قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا) قال مجاهد وهي الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر « نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدبور » وقال ابن جرير حدثني محمد بن الثني حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الشمال إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التي أرسلت عليهم الصبا ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن حفص بن غياث عن داود عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال أرسلني خالي عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ليلة الحندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال ائتنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال « من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا » قال فذهبت والريح تسفي كل شيء فجعلت لألقى أحدا إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ قال فما يلوى أحد منهم عنقه ، قال وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأبعدها إلى الأرض .

وقوله (وجنودا لم تروها) هم اللاتكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول يا بني فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب ، وقال محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يا أبا عبد الله رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته يومه ؟ قال : نعم يا ابن أخي قال وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى والله لو أدر كنا

ما تركناه يمشى على الأرض ولحمنا على أعناقنا . قال : قال حذيفة رضى الله عنه يا ابن أخى والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالحنديق وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يا من الليل ثم التفت فقال « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أدخله الله الجنة » قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هويا من الليل ثم التفت إلينا فقال « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيق في الجنة » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقدّم أحد دعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال ﷺ « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا » قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل لا تفر لهم قراراً ولا ناراً ولا بناء فقام أبو سفيان فقال يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جلسيه . قال حذيفة رضى الله عنه فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت من أنت ، فقال أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فأتى مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن لا تحدث شيئا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ، قال حذيفة رضى الله عنه فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآنى أدخلنى بين رجله وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وصمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كننا عند حذيفة بن اليمان رضى الله عنه فقال له رجل لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت : فقال له حذيفة أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ریح شديدة وقر فقال رسول الله ﷺ « ألا رجل يأتى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد ثم الثانية ثم الثالثة مثله ثم قال صلى الله عليه وسلم « يا حذيفة قم فأتنا بخبر من القوم » فلم أجد بدا إذ دعانى باسمى أن أقوم فقال « انتنى بخبر القوم ولا تذعهم على » قال فضيت كأنما أمشى فى حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يصلى ظهره بالنار فوضعت سهما فى كبد قوسى وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تذعهم على ولو رميته لأصبته قال فرجعت كأنما أمشى فى حمام فأثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصابنى البرد حين فرغت وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وألبسى من فضل عبادة كانت عليه يصلى فيها فلم أزل نائما حتى أصبح فلما أن أصبحت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قم يا نومان » ورواه يونس بن بكير عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال إن رجلا قال لحذيفة رضى الله عنه نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ إنكم أدركتموه ولم ندركه ورأيتموه ولم نره فقال حذيفة رضى الله عنه ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه والله لا تدري يا ابن أخى لو أدركته كيف كنت تكون لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الحندق فى ليلة باردة مطيرة ثم ذكر نحو ما تقدم مطولا . وروى بلال ابن يحيى العيسى عن حذيفة رضى الله عنه نحو ذلك أيضا وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل من حديث عكرمة ابن عمار عن محمد بن عبد الله الدؤلى عن عبد العزيز بن أخى حذيفة قال ذكر حذيفة رضى الله عنه مشاهد مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه أما والله لو شهدنا ذلك لكننا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة لليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أنت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا فى أصوات ريحها أمثال الصواعق وهى ظلمة ما يرى أحدا نأصبعه فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة وماهى بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك

إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلا رجلا حتى أتى على وما على جنة من العدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى ما يجاوز ركبتى، قال فأتانى رسول الله ﷺ وأنا جاث على ركبتى فقال « من هذا ؟ » فقلت حذيفة قال « حذيفة » فتقاصرت الأرض فقلت: بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمعت فقال « إنه كائن في القوم خير فأتنى بنجر القوم » قال وأنا من أشد الناس فزعا وأشدهم قرا قال فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته » قال فوالله ما خلق الله تعالى فزعا ولا قرأ في جوفى إلا خرج من جوفى فما أجد فيه شيئا قال فلما وليت قال رسول الله ﷺ « يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئا حتى تأتيني » قال فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد فإذا رجل أدم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خصرته ويقول: الرحيل الرحيل ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فالتزعت سهما من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبدي قوسى لأرميه به في ضوء النار فذكرت قول رسول الله ﷺ « لا تحدثن فيهم شيئا حتى تأتيني » قال فأمسكت ورددت سهمى إلى كنانتي ثم إنى شجعت نفسى حتى دخلت العسكر فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون يا آل عامر الرحيل الرحيل لا مقام لكم . وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرا فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم الريح تضربهم بها ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وسلم فلما انتصفت في الطريق أو نحو من ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقالوا أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلى فوالله ما عدا أن رجعت راجعنى القر وجعلت أقرقف فأومأ إلى رسول الله ﷺ بيده وهو يصلى فدنوت منه فأسبل على شملة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر صلى فأخبرته خبر القوم وأخبرته أنى تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحاً وجنودهم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً) وأخرج أبو داود في سننه منه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر صلى، من حديث عكرمة بن عمار به . وقوله تعالى (إذ جاءكم من فوقكم) أى الأحزاب (ومن أسفل منكم) تقدم عن حذيفة رضى الله عنه أنهم بنو قريظة (وإذ اغت الأَبصار وبلغت القلوب الحناجر) أى من شدة الخوف والفزع (وتظنون بالله الظنونا) قال ابن جرير ظن بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى (وإذ زاعب الأَبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا) ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله عز وجل (وتظنون بالله الظنونا) ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى حدثنا أبو عامر حدثنا أبي حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا الزبير بن عبيد الله مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قلنا يوم الحندق يا رسول الله هل من شيء تقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ نعم ، قولوا اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » قال فضرب وجوه أعدائه بالريح فزهزهم بالريح وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً فحينئذ ظهر النفاق وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) أما المنافق فنجح نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال ، وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب) يعنى المدينة كما جاء في الصحيح « أريت في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هي يثرب » وفي لفظ المدينة ، فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن مهدي حدثنا صالح بن عمر عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى إنما هي طابة هي طابة » تفرد به الإمام أحمد وفي إسناده ضعف والله أعلم ، ويقال إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهليل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلي ، قال وروى عن بعضهم أنه قال إن لها في التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبة والقاصمة والمحبورة والعذراء والمرحومة . وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد في التوراة يقول الله تعالى للمدينة يا طيبة وباطابة ويا مسكينة لا تقلى الكنوز أرفع أحجارك على أحجار القرى وقوله (لا مقام لكم) أى ههنا يعنون عند النبي صلى الله عليه وسلم في مقام المراقبة (فارجعوا) أى إلى بيوتكم ومنازلكم (ويستأذن فريق منهم النبي) قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما هم بنو حارثة قالوا ييوتنا نخاف عليها السراق وكذا قال غير واحد ، وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك هو أوس بن قيطى يعنى اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة أى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى (وما هي بعورة) أى ليست كما يزعمون (إن يريدون إلا فرارا) أى هرباً من الزحف

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْهَا وَمَاتَلَبَّيْتُمْ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَزْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين (يقولون إن ييوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا) أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم في غاية الذم ، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف أن لا يولوا الأدبار ولا يفرون من الزحف (وكان عهد الله مسئولا) أى وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى (وإذا لا تمتعون إلا قليلا) أى بعد هربكم وفراركم (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى) ثم قال تعالى (قل من ذا الذى يعصمكم من الله) أى يمنعكم (إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) أى ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾

فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ
سَلَقُوا بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب والقائلين لإخوانهم أى أصحابهم وعشراتهم وخلطائهم
(هلم إلينا) أى إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظلال والثمار وهم مع ذلك (لا يأتون البأس إلا قليلا) أشحة عليكم أى بخلاء
بالمودة والشفقة عليكم ، وقال السدى (أشحة عليكم) أى فى الغنائم (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور
أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجناء من القتال (فإذا
ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغا فصيحاً عاليا وادعوا لأنفسهم المقامات
العالية فى الشجاعة والنجدة وهم يكذبون فى ذلك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما (سلقوكم) أى استقبلوكم ،
وقال قتادة أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأ مقامية أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله
للحق وهم مع ذلك أشحة على الخير أى ليس فيهم خير قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر:

أفى السلم أعيار جفاء وغلظة وفى الحرب أمثال النساء العوارك

أى فى حال المسالمة كأنهم الجمر ، والأعيار جمع عير وهو الحمار ، وفى الحرب كأنهم النساء الحيض ، ولهذا قال تعالى
(أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) أى سهلا هينا عنده .

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْمُلُونَ عَنْ
أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخور والخوف (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) بل هم قريب منهم وإن
لهم عودة إليهم (وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنباءكم) أى ويودون إذا جاءت الأحزاب
أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم (ولو كانوا
فيكم ما قاتلوا إلا قليلا) أى ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله
سبحانه وتعالى العالم بهم .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا وَلَمْ
يَرَأِ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر تبارك وتعالى
الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومرابطةه ومجاهدته وانتظاره الفرج من
ربه عز وجل صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ولهذا قال تعالى للذين ثقلوا وتضجروا وتزلزلوا
واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله
صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ثم قال تعالى مخبرا عن عباده
المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم وجعله العاقبة حاصلة لهم فى الدنيا والآخرة فقال تعالى (ولما رأى المؤمنون الأحزاب
قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله) قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة يعنون قوله تعالى فى سورة
البقرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول

الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) أى هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ولهذا قال تعالى (وصدق الله ورسوله) . وقوله تعالى (وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً) دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم كما قال جمهور الأئمة إنه يزيد وينقص وقد قررنا ذلك فى أول شرح البخارى والله الحمد والمنة ومعنى قوله جلت عظمتة (وما زادهم) أى ذلك الحال والضيق والشدة (إلا إيماناً) بالله (وتسليماً) أى انقياداً لأوامره وطاعة لرسوله ﷺ

﴿ مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم تقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و (صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) قال بعضهم أجله وقال البخارى عهده وهو يرجع إلى الأول (ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) أى وما غيروا عهده الله ولا تقضوه ولا بدلوه ، قال البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمه بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) تفرد به البخارى دون مسلم وأخرجه أحمد فى مسنده والترمذى والنسائى فى التفسير من سندهما من حديث الزهري به وقال الترمذى حسن صحيح وقال البخارى أيضاً حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثني أبي عن ثمامة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر رضى الله عنه (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) الآية انفرد به البخارى من هذا الوجه ، ولكن له شواهد من طرق أخر . قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت قال : قال أنس : عمى أنس بن النضر رضى الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه لأن أرانى الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه فقال له أنس رضى الله عنه يا أبا عمرو أين واهما لريح الجنة إني أجده دون أحد قال فقاتلهم حتى قتل رضى الله عنه قال فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته عمى الربيع ابنة النضر فما عرفت أخى إلا بينانه قال فنزلت هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً) قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفى أصحابه رضى الله عنهم ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة به ورواه النسائى أيضاً وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه به نحوه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حميد عن أنس رضى الله عنه قال إن عمه يعنى أنس بن النضر رضى الله عنه غاب عن قتال بدر فقال غبت عن أول قتال قاتله رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين لئن أشهدنى الله عز وجل قتالاً للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فلقية سعد يعنى ابن معاذ رضى الله عنه دون أحد فقال أنا معك قال سعد رضى الله عنه فلم أستطع أن أصنع ما صنع فلما قتل قال فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفى أصحابه نزلت (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر) وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد والنسائى فيه أيضاً عن إسحق بن إبراهيم كلاهما عن يزيد بن هرون به

وقال الترمذى حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان عن محمد بن طلحة عن مصرف عن حميد عن أنس رضى الله عنه به ولم يذكر نزول الآية ورواه ابن جرير من حديث العتمر بن سليمان عن حميد عن أنس رضى الله عنه به : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان حدثنا عيسى بن موسى بن طلحة ابن عبيد الله حدثنى أبى عن جدى عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة رضى الله عنه قال : لما أن رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والندى ثم قرأ هذه الآية (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه) الآية كلها ، فقام اليه رجل من المسلمين فقال يا رسول الله من هؤلاء ؟ فأقبلت ولى ثوبان أخضران حضرميان فقال « أيها السائل هذا منهم » وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطلحى به ، وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا وابن جرير من حديث يونس بن بكير عن طلحة بن يحيى عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما رضى الله عنه به وقال حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يونس وقال أيضا حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى حدثنا أبو عامر - يعنى العقدي - حدثنى إسحاق - يعنى ابن طلحة بن عبيد الله - عن موسى بن طلحة قال : دخلت على معاوية رضى الله عنه فلما خرجت دعاني فقال ألا أضع عندك يا ابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » ورواه ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحمانى عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطلحى عن موسى بن طلحة قال : قام معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « طلحة ممن قضى نحبه » ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى (فمنهم من قضى نحبه) يعنى موته على الصدق والوفاء ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلا وكذا قال قتادة وابن زيد وقال بعضهم : نحبه نذره وقوله تعالى (وما بدلوا تبديلا) أى وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالعدو ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا (إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وقوله تعالى (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) أى إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الحيث من الطيب فيظهر أمر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعملوا بما يعلمه منهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فهذا علم بالشيء بعد كونه وإن كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده : وكذا قال الله تعالى (ما كان الله ليدرك المؤمنين على ما أتمم عليه حتى يميز الحيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) ولهذا قال تعالى ههنا (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) أى بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه (ويعذب المنافقين) وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لأوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى التزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورافته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لعذبه قال (إن الله كان غفورا رحيما)

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الرمح والجنود الالهية ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الرمح عليهم أشد من الرمح العقيم التى أرسلها على عاد ولكن قال تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) فسلط عليهم هواء فرق شملهم كما كان سبب اجتماعهم من الهوى وهم أخلط من قبائل شتى أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحقهم لم ينالوا خيرا لافى

الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والغنم ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مبارزة الرسول ﷺ بالعداوة وهمم بقتله واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق همه بفعله فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تبارك وتعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) أي لم يحتاجوا إلى منازلهم ومبارزتهم حتى يحلومهم عن بلادهم ؛ بل كفى الله وحده ونصر عبده وأعز جنده . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعز جنده ؛ وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده » أخرجاه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه . وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ؛ اللهم اهزمهم وزلزلهم » وفي قوله عز وجل (وكفى الله المؤمنين القتال) إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش وهكذا وقع بعدها لم يهزم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، قال محمد بن إسحق لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم » فلم تغز قريش بعد ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكة ، وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحق حديث صحيح كما قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان حدثني أبو إسحق قال سمعت سليمان بن صرد رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « الآن تغزوكم ولا يغزونا » وهكذا رواه البخاري في صحيحه من حديث الثوري وإسرائيل عن أبي إسحق به وقوله تعالى (وكان الله قويا عزيزا) أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيرا وأعز الله الإسلام وأهله وصدق وعده ونصر رسوله وعبده فله الحمد والمنة

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

قد تقدم أن بني قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ونزلوا على المدينة تقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد وكان ذلك بسفارة حي بن أخطب النضري لعنه الله دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئت بك بغير إذنك بقرش وأحابيشها وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه ، فقال له كعب بل والله أنتيتي بذل الدهر . ويحك يا حي إنك مشغوم فدعنا منك فلم يزل يقتل في الدروة والغارب حتى أجابه واشترط له حي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما أيده الله تعالى ونصره وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضى الله عنها إذ تبدى له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجرا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ « نعم » قال لكن اللائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة ، وفي رواية فقال له عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال « نعم » قال لكننا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء قال صلى الله عليه وسلم « أين ا » قال بني قريظة فان الله تعالى أمرني أن أزلزل عليهم فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم من فوره وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال صلى الله عليه وسلم « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون لا فصلها إلا في بني قريظة فلم يهتف

واحداً من الفريقين ، وتبعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه . ثم نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنه لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ؟ واعتقدوا أنه يحسب إليهم فى ذلك كما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع حين استطلعتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ولم يعلموا أن سعداً رضى الله عنه كان قد أصابه سهم فى أ كحله أيام الخندق فلكوا رسول الله ﷺ فى أ كحله وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب وقال سعد رضى الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقيتها لها ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تفر عيني من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون يا سعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرققونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال رضى الله عنه ، لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم فلما دنا من الحيمة التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا إلى سيدكم » فقام إليه المسلمون فانزلوه اعظاماً واحكاماً واحتراماً له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك فأحكم فيهم بما شئت » فقال رضى الله عنه وحكمى نافذ عليهم ، قال صلى الله عليه وسلم « نعم » قال وعلى من فى هذه الحيمة ؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال رضى الله عنه إنى أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » ، وفى رواية « لقد حكمت بحكم الملك » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأخاديد فخذت فى الأرض وجيء بهم مكتفين فضرب أعناقهم وكانوا بين السبعائة إلى الثمانمائة وسبى من لم يثبت منهم مع النساء وأموالهم ، وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة الذى أفردناه موجزاً وبسيطاً والله الحمد والمنة ولهذا قال تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أهل الكتاب) يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً فى اتباع النبي الأمي الذى يمدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) فعليهم لعنة الله ؟ وقوله تعالى (من صياصيمهم) يعنى حصونهم . كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم من السلف ومنه مسمى صياصى البقر وهى قرونها لأنها أعلى شئ فيها (وقذف فى قلوبهم الرعب) وهو الخوف لأنهم كانوا مالوا المشركين على حرب النبي صلى الله عليه وسلم وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليعزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، واقلب إليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة الغبون ، فكما راموا العز ذلوا وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة ؛ ولهذا قال تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً) فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم بن بشير أخبرنا عبد الملك بن عمير عن عطية القرظى قال عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم قريظة فشكوا فى فأمر بنى النبي صلى الله عليه وسلم أن ينظروا هل أنبت بعد فنظرونى فلم يجدونى أنبت فخلى عني وألحقني بالسبي ، وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق عن عبد الملك بن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ، ورواه النسائى أيضاً من حديث ابن جريج عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن عطية بنحوه وقوله تعالى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم) أى جعلها لكم من قتلكم لهم (وأرضالم تطأوها) قيل خير وقيل

مكة رواه مالك عن زيد بن أسلم ، وقيل فارس والروم ، وقال ابن جرير يجوز أن يكون الجميع مراداً (وكان الله على كل شيء قديراً) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن عمرو عن أبيه عن جده علقمة بن وقاص قال : أخبرني عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت يوم الحندق أقفوا الناس فسمعت وئيد الأرض ورأى فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه قالت فجلست إلى الأرض فر ساعد رضي الله عنه وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه فأنا أتخوف على أطراف سعد قالت وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم فر وهو يرتجز ويقول :

ليث قليلاً يشهد الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت فقامت فالتجتمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين وإذا فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم رجل عليه تسبغة له تعني المغفر فقال عمر رضي الله عنه ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجريرة ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أويكون تخور قالت فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ فدخلت فيها فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا هو طاحه بن عبيد الله رضي الله عنه فقال : يا عمر ويحك إنك قدأ كثر منذ اليوم ، وأين التخور أو الفرار إلا إلى الله تعالى قالت ورحى سعدا رضي الله عنه رجل من قريش يقال له ابن العرقه بسهم له وقال له خذها وأنا ابن العرقه فأصاب أكله فقطعه فدعا الله تعالى سعد رضي الله عنه فقال : اللهم لا تمنني حتى تفرعيني من بني قريظة قالت وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية قالت فرقاً كلمه وبعث الله تعالى الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً فلحق أبو سفيان ومن معه بهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيمهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبعة من آدم فضربت على سعد رضي الله عنه في المسجد قالت فجاءه جبريل عليه السلام وإن على تنياه لنقع الغبار فقال أوقد وضعت السلاح ؟ لا والله ما وضعت اللاتكة بعد السلاح اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم قالت فلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم لأتمته وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا فر على بني تميم وهم جيران المسجد فقال « من ربكم » قالوا ربنا دحية الكلبي وكان دحية الكلبي يشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه الصلاة والسلام فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم إنه الذبج ، قالوا نزل على حكم سعد ابن معاذ رضي الله عنه فقال رسول الله ﷺ « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » فنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه ، وحف به قومه فقالوا يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل الكتاب (١) ومن قد علمت قالت فلا يرجع إليهم شيئا ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم . قالت قال أبو سعيد فلما طلع : قال رسول الله ﷺ « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر رضي الله عنه سيدنا الله قال « أنزلوه » فأنزلوه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احكم فيهم » قال سعد رضي الله عنه فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم وتقسم أموالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله » ثم دعا سعد رضي الله عنه : فقال اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا فأبقي لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فأقبضني إليك ، قال فانفجر كلمه وكان قد برى منه إلا مثل الحرس ورجع إلى قبه التي ضرب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت عائشة رضي الله عنها فحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما قالت فوالذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر رضي الله عنه من بكاء عمر رضي الله عنه وأنا في حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى (رحماء بينهم) قال علقمة فقلت أي أمه فكيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع ؟ قالت كانت عينه لا تدمع على أحد ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته صلى الله عليه وسلم وقد أخرج البخاري

ومسلم من حديث عبد الله بن عمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها نحو ما من هذا ولكنه أخصر منه وفيه دعا سعد رضى الله عنه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ مَسْرَاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضى الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة . قال البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت ثم قال « إن الله تعالى قال (يا أيها النبي قل لأزواجك) » إلى تمام الآيتين فقلت له ففي أى هذا استأمر أبوي فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وكذا رواه معلقاً عن الليث حدثني يونس عن الزهري عن أبي سلمة عن عائشة رضى الله عنها فذكره وزاد قالت ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت وقد حكى البخارى أن معمر بن اضطرأ فيه فتارة رواه عن الزهري عن أبي سلمة وتارة رواه عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن عبدة الضبي حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال : قالت عائشة رضى الله عنها لما نزل الحيار قال لى رسول الله ﷺ « إني أريد أن أذكر لك أمراً فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك » قالت قلت وما هو يا رسول الله ؟ قالت فرده عليها فقالت وما هو يا رسول الله ؟ قالت فرده عليها فقالت وما هو يا رسول الله ؟ قالت فقراً ﷺ عليها (يا أيها النبي قل لأزواجك إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا) إلى آخر الآية قالت فقلت بل نختار الله ورسوله والدار الآخرة قالت ففرح بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا ابن وكيع حدثنا محمد بن بشر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما نزلت آية التخيير بدأ بي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا عائشة إني عارض عليك أمراً فلا تفتأى فيه بشيء حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان رضى الله عنهما » فقلت يا رسول الله وما هو ؟ قال صلى الله عليه وسلم « قال الله عز وجل (يا أيها النبي قل لأزواجك إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ مَسْرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا) » قالت فأني أريد الله ورسوله والدار الآخرة ولا أوامر في ذلك أبوي أبا بكر وأم رومان رضى الله عنهما . فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحجر فقال « إن عائشة رضى الله عنها قالت كذا وكذا » فقلن ونحن نقول مثل ما قالت عائشة رضى الله عنهن كلهن ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة عن محمد بن عمرو به قال ابن جرير وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى حدثنا أبي حدثنا محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها قالت إن رسول الله ﷺ لما نزل (١) إلى نساءه أمر أن يخيرهن فدخل على فقال « سأذكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستشيري أباك » فقلت وما هو يا رسول الله ؟ قال « إني أمرت أن أخيركن » وتلا عليها آية التخيير إلى آخر الآيتين قالت فقلت وما الذى تقول لا تعجلي حتى تستشيري أباك ؟ فأني أختار الله ورسوله . فسر صلى الله عليه وسلم بذلك وعرض على نساءه فتابعن كلهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا يزيد بن سنان البصرى حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني عقيل عن الزهري أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت عائشة رضى الله عنها أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نساءه فقال ﷺ « إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » قالت وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى به فراقه قالت ثم قال « إن الله تبارك وتعالى قال (يا أيها النبي قل لأزواجك) » الآيتين قالت عائشة رضى الله عنها فقلت أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فأنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضى الله عنهن وأخرج به البخارى ومسلم جميعاً عن قتيبة عن الليث عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها مثله وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه فلم يعدها علينا شيئاً أخرجاه من حديث الأعمش . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو حدثنا زكريا بن إسحق عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه قال أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يبابه جلوسه والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلوا والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله نساؤه وهو صلى الله عليه وسلم ساكت فقال عمر رضى الله عنه لا كلن النبي ﷺ لعله يضحك فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آتفا فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده فنهأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلن والله لانسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال وأنزل الله عز وجل الحيار فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها (يا أيها النبي قل لأزواجك) الآية قالت عائشة رضى الله عنها أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت فقال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » انفراداً بخراجه مسلم دون البخارى فرواه هو والنسائى من حديث زكريا بن إسحق المكي به . وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا شريح بن يونس حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن محمد بن عبيد الله بن علي بن أبي رافع عن عثمان بن علي بن الحسين عن أبيه عن علي رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ خير نساءه الدنيا والآخرة ولم يغيرهن الطلاق وهذا منقطع . وقد روى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك وهو خلاف الظاهر من الآية فانه قال (فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً) أى أعطىكن حقوقكن وأطلق سراحكن ، وقد اختلف العلماء فى جواز تزوج غيره لهن لو طلقهن على قولين أصحهما نعم لو وقع ليحصل المقصود من السراح والله أعلم قال عكرمة وكان تحتها يومئذ تسع نسوة خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة رضى الله عنهن ، وكانت تحتها صفية بنت حيى النضيرية^(١) وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية رضى الله عنهن وأرضاهن أجمعين .

﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْسَكَّنْ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْسَكَّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى واعظا نساء النبي صلى الله عليه وسلم اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ فتناسب أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء بأن من يأت من يأت منهن بفاحشة مبينة . قال ابن عباس رضى الله عنهما وهى النشوز وسوء الخلق وعلى كل تقدير فهو شرط والشرط لا يقتضى الوقوع

(١) فى البغوى : الحبيرية .

كقوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) وكقوله عز وجل (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) (لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الواحد القهار) فلما كانت محلتهن رفيعة ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ولهذا قال تعالى (من يأت منكنا بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) قال مالك عن زيد بن أسلم (يضاعف لها العذاب ضعفين) قال في الدنيا والآخرة ، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله (وكان ذلك على الله يسيرا) أى سهلا هينا ، ثم ذكر عدله وفضله في قوله (ومن يقنت منكن لله ورسوله) أى يطع الله ورسوله ويستجب (نوتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) أى فى الجنة فانهم فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش

﴿ يَذَّسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتُمْ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقرْنِ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا * وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ونساء الأمة تتبع لهن فى ذلك فقال تعالى مخاطبا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن فإنه لا يشبههن أحد من النساء ولا يلحقهن فى الفضيلة والميزة ثم قال تعالى (فلا تخضعن بالقول) قال السدى وغيره يعنى بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى دغل (وقلن قولا معروفا) قال ابن زيد: قولا حسنا جميلا معروفا فى الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أى لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها . وقوله تعالى (وقرن فى بيوتكن) أى الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة فى المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن ثقلات » وفى رواية « ويوتهن خير لهن » وقال الحافظ أبو بكر البرار حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا أبو رجاء السكبي روح بن المسيب ثقة حدثنا ثابت البناني عن أنس رضى الله عنه قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله تعالى فمالنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ « من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن فى بيتها فانها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى » ثم قال لا نعم . رواه عن ثابت إلاروح بن المسيب وهو رجل من أهل البصرة مشهور

وقال البرار أيضا حدثنا محمد بن المثنى حدثنى عمرو بن عاصم حدثنا همام عن قتادة عن مورك عن أبى الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها » ورواه الترمذى عن بNDAR عن عمرو بن عاصم به نحوه . وروى البرار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها » وهذا إسناد جيد ، وقوله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال مجاهد كانت المرأة تخرج تمشى بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) يقول إذا خرجت المرأة تخرج تمشى بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال مقاتل بن حيان (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) والتبرج أنها تلبس الحمار على رأسها ولا تشده

فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج . وقال ابن جرير حدثني ابن زهير حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا داود يعني ابن أبي الفرات حدثنا علي بن أحمرة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال تلا هذه الآية (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) قال كانت فيما بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة وإن بطين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل ، وكان رجال الجبل صباحا وفي النساء دمامة . وكان نساء السهل صباحا وفي الرجال دمامة ، وإن إبليس لعنه الله أتى رجلا من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه فكان يخدمه فاتخذ إبليس شيثا من مثل الذي زمرفيه الرعاء فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله فبلغ ذلك من حوله فاتتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة فيتبرج النساء للرجال قال ويتزين الرجال لهن وإن رجلا من أهل الجبل هجم عليهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وصباحتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فهن فهو قول الله تعالى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وقوله تعالى (وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) نهان أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين (وأطعن الله ورسوله) وهذا من باب عطف العام على الخاص . وقوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة . وهكذا روى ابن أبي حاتم قال : حدثنا علي بن حرب الموصلي حدثنا زيد بن الحباب حدثنا حسين بن واقد عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وقال عكرمة من شاء باهلهن إنها نزلت في شأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك (الحديث الأول) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أخبرنا علي بن يزيد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عفان به وقال حسن غريب (حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم حدثنا يونس عن أبي إسحق أخبرني أبو داود عن أبي الحمراء قال رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ قال رأيت رسول الله ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة رضي الله عنهما فقال « الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » أبو داود الأعمى هو نفع بن الحارث كذاب (حديث آخر) وقال الإمام أيضاً أيضاً حدثنا أحمد بن مصعب حدثنا الأوزاعي حدثنا شداد بن عمار قال دخلت على وائلة بن الأسقع رضي عنه وعنده قوم فذكروا علياً رضي الله عنه فشتموه فشتمه معهم فلما قاموا قال لي شتمت هذا الرجل قلت قد شتموه فشتمه معهم ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت بلى قال أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألتها عن علي رضي الله عنه فقالت توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم أخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساءه ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) وقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق » . وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبي عمير عن الوليد بن مسلم عن أبي عمر والأوزاعي بسنده نحوه زاد في آخره قال وائلة رضي الله عنه فقلت وأنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم

وسلم « وأنت من أهلي » قال واثلة رضى الله عنه وإنهما من أرحى ما أرتجى ، ثم رواه أيضا عن عبد الأعلى بن واصل عن الفضل بن دكين عن عبد السلام بن حرب عن كلثوم المحاربي عن شداد بن أبي عمار قال إني لجالس عند واثلة بن الأسقع رضى الله عنه إذ ذكروا عليا رضى الله عنه فشموه فلما قاموا قال اجلس حتى أخبرك عن هذا الذي شتموه إني عند رسول الله ﷺ إذ جاء علي وفاطمة وحسن وحسين رضى الله عنهم فأتى ﷺ عليهم كساء له ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » قلت يا رسول الله وأنا ؟ قال ﷺ « وأنت » قال فوالله إنها لأوثق عمل عندي

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح حدثني من سمع أم سلمة رضى الله عنها تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بيتها فأتته فاطمة رضى الله عنها بريمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال صلى الله عليه وسلم لها « ادعى زوجك وابنيك » قالت فجاء علي وحسن وحسين رضى الله عنهم فدخلوا عليه فجاسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته صلى الله عليه وسلم كساء خيري قالت وأنا في الحجرة أصلى فأنزل الله عز وجل هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قالت رضى الله عنها فأخذ صلى الله عليه وسلم فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال « اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (قالت فأدخلت رأسي البيت فقلت وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « إنك إلى خير إنك إلى خير » في إسناده من لم يسم وهو شيخ عطاء وبقية رجاله ثقات (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا سعيد بن زريق عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن أم سلمة رضى الله عنها قالت جاءت فاطمة رضى الله عنها إلى رسول الله ﷺ بريمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحملها على طبق فوضعها بين يديه صلى الله عليه وسلم فقال « أين ابن عمك وابناك ؟ » فقالت رضى الله عنها في البيت فقال صلى الله عليه وسلم « ادعهم » فجاءت إلى علي رضى الله عنه فقالت أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت وابناك قالت أم سلمة رضى الله عنها فلما رآهم مقبلين مد صلى الله عليه وسلم يده إلى كساء كان على النامة فده وبسطه وأجلسهم عليه ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه فقال « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن حكيم ابن سعد قال ذكرنا على ابن أبي طالب رضى الله عنه عند أم سلمة رضى الله عنها فقالت في بيتي نزلت (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قالت أم سلمة جاء رسول الله ﷺ إلى بيتي فقال « لا تأذني لأحد » فجاءت فاطمة رضى الله عنها فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن رضى الله عنه فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده صلى الله عليه وسلم وأمه رضى الله عنهما ثم جاء علي رضى الله عنه فلم أستطع أن أحجبه فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال « هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت يا رسول الله وأنا ؟ قالت فوالله ما أنتم وقال « إنك إلى خير » (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي العباس عن عطية الطفاوى عن أبيه قال إن أم سلمة رضى الله عنها حدثتني قالت بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليارضى الله عنهما بالسدة قالت فقال لي رسول الله ﷺ « قومي فتجدي عن أهل بيتي » قالت فقممت فتفتحيت في البيت قريبا فدخل علي وفاطمة ومعهما الحسن والحسين رضى الله عنهم وهما صبيان صغيران فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما واعتنق عليا رضى الله عنه باحدى يديه وفاطمة رضى الله عنها باليد الأخرى وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خميسة سوداء وقال « اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي » قالت فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « وأنت » (طريق أخرى) قال ابن جرير

يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال « أما بعد ألا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فبحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال « وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثا فقال له حصين ومن أهل بيته يزيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته وليكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس رضي الله عنهم قال كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم . ثم رواه عن محمد بن الريان عن حسان بن إبراهيم عن سعيد بن مسروق عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه فقلت له من أهل بيته نساؤه ؟ قال لا ، وإيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية والأولى أولى والأخذ بها أخرى . وهذه الثانية تحتل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه إنما المراد بهم آل الذين حرموا الصدقة أوانه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آلهم ، وهذا الاحتمال أرجح جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها وجمعا أيضا بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت فإن في بعض أسانيدنا نظرا والله أعلم ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد واذكرن هذه النعمة التي خصصن بهن بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة وأخصهن من هذه الرحمة العظيمة ، فانه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه قال بعض العلماء رحمه الله لأنه لم يتزوج بكرا سواها ولم ينم معها رجل في فراشها سواء صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية كما تقدم في الحديث « وأهل بيتي أحق » وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ لما مثل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم فقال « هو مسجدى هذا » فهذا من هذا القبيل فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء كما ورد في الأحاديث الأخرى ، ولكن إذا كان ذلك أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك والله أعلم ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الوليد حدثنا أبو عوانة عن حصين بن عبد الرحمن عن أبي جميلة قال إن الحسن بن علي رضي الله عنهما استخلف حين قتل على رضي الله عنهما قال . فبينما هو يصلي إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجره ، وزعم حصين أنه بلغه أن الذي طعنه رجل من بني أسد وحسن رضي الله عنه ساجد . قال فبزعزعمون أن الطعنة وقعت في وركه فمضى منها أشهر ثم برأ فقعد على المنبر فقال يا أهل العراق اتقوا الله فينا فانا أمراؤكم وضيقاتكم ونحن أهل البيت الذي قال الله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال فما زال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يحن بكاء ، وقال السدي عن أبي الديلم قال : قال علي بن الحسين رضي الله عنهما لرجل من أهل الشام أما قرأت في الأحزاب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) قال نعم ولأنتم هم ؟ قال نعم وقوله تعالى (إن الله كان لطيفاً خبيراً) أي بلطفه يكن بلغتن هذه المنزلة وبخبرته يكن وأنسكن أهل لذلك أعطاكن ذلك وخصكن بذلك ، قال ابن جرير رحمه الله واذكروا نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه (إن الله كان لطيفاً خبيراً) أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهي السنة ، خيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا وقال قتادة (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) قال يمتن عليهن

بذلك رواه ابن جرير وقال عطية العوفي في قوله تعالى (إن الله كان لطيفاً خبيراً) يعني لطيفاً باستخراجها خبيراً بموضعها رواه ابن أبي حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ وَالَّذِينَ كَثُرَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَثُرَ اللَّهُ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شعبة قال سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ وسلم تقول قلت للنبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على النبر قالت وأنا أسرح شعري فلففت شعري ثم خرجت إلى حجري حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد فإذا هو يقول عند النبر « يا أيها الناس إن الله تعالى يقول إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » إلى آخر الآية وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به مثله طريق أخرى عنها قال النسائي أيضا حدثنا محمد بن حاتم حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن شريك عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) وقد رواه ابن جرير عن أبي كريب عن أبي معاوية عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب حدثه عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله أذكر الرجال في كل شيء ولا نذكر ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) (طريق أخرى) قال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله يذكر الرجال ولا نذكر فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية (حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب قال حدثنا سنان (١) بن مظاهر العمري حدثنا أبو كدينة يحيى بن المهلب عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : ماله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنين ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن قد ذكر كن الله تعالى في القرآن ولم نذكر بشيء أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله تعالى (إن المسلمين والمسلمات) الآية فقوله تعالى (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) دليل على أن الإيمان غير الإسلام وهو أخص منه لقوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وفي الصحيحين « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فيسلمه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين فدل على أنه أخص منه كما قررناه أول في شرح البخاري . وقوله تعالى (والقانتين والقانتات) القنوت هو الطاعة في سكون (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال تعالى (وله من في السماوات والأرض كل له قانتون) (يامرهم اقتى لربك واسجدوا واركنى مع الراكعين) (وقوموا لله قانتين) فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الإيمان ثم القنوت ناشئ عنهما (والصادقين والصادقات) هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنه لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو علامة على الإيمان كما أن الكذب أماراة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » والأحاديث فيه كثيرة جداً (والصابرين والصابرات) هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى

(١) الذي في تفسير ابن جرير سيار بن مظاهر الغزالي وهو الموافق لما في تقريب التهذيب .

ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها (والخاشعين والخاشعات) الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (والمتصدقين والمتصدقات) الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاييج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كسب يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله - فذكر منهم - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفى الحديث الآخر « والصدقة تطفىء الحطيشة كما يطفىء الماء النار » والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً له موضع بذاته (والصائمين والصائمات) فى الحديث الذى رواه ابن ماجه « والصوم زكاة البدن » أى يزكيه ويظهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً كما قال سعيد بن جبير من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى (والصائمين والصائمات) ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة كما قال رسول الله ﷺ « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ناسب أن يذكر بعده (والحافظين فروجهم والحافظات) أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وقوله تعالى (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا محمد بن جابر عن طلى بن الأقرع عن الأغر أبى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصلياً ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وقد رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الأعمش عن الأغر أبى مسلم عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال قلت يا رسول الله أى العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » قال قلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال « لوضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه » وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة فأتى على جمندان فقال « هذا جمندان سيروا فقد سبق الفردون » قالوا وما الفردون ؟ قال صلى الله عليه وسلم « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ثم قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا والمقصرين قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اغفر للمحلقين » قالوا والمقصرين قال « والمقصرين » تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم دون آخره وقال الإمام أحمد حدثنا حجيت بن الثنى حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة قال إنه بلغنى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما عمل آدمى عملاً قط أتجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل » وقال معاذ رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم « ذكر الله عز وجل » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبائن بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجعفى عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن رجلاً سأله فقال أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « أ أكثرهم لله تعالى ذكراً » قال فأى الصائمين أ أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم « أ أكثرهم لله عز وجل ذكراً » ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أ أكثرهم لله ذكراً » فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أجل » . وسند ذكر إن شاء الله تعالى بقية الأحاديث

الواردة في كثرة الذكر عند قوله تعالى في هذه السورة (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً) الآية إن شاء الله تعالى ، وقوله تعالى (أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم أي أن الله تعالى قد أعد لهم أي هياً لهم مغفرة منه لتوبتهم وأجراً عظيماً وهو الجنة

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها فقالت لست بنا كحثة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى فانكحيه » قالت يا رسول الله أوامر في نفسي؟ فيبينها يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً) الآية قالت قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت إذا لا أعصى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنكحته نفسي وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه فاستنكفت منه وقالت أنا خير منه حسبا وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية كلها وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حين خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها وكانت أول من هاجر من النساء يعني بعد صلح الحديبية فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فقال قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني والله أعلم بعد فراقه زينب فسخطت هي وأخوها وقالوا إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا عبده قال فنزل القرآن (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً) إلى آخر الآية قال وجاء أمر أجمع من هذا (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) قال فذاك خاص وهذا أجمع وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال خطب النبي ﷺ على جلييب امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال حتى أستأمر أمها فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فنعيم إذا » قال فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها فقالت لاها الله إذن ما وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا جلييباً وقد منعناها من فلان وفلان قال والجارية في سترها تسمع قال فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . فقالت الجارية أتريدون أن تردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره إن كان قد رضي لكم فانكحوه قال فكأنها جلت عن أبويها وقالوا صدقت فذهب أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت رضيته فقد رضيته قال صلى الله عليه وسلم « فاني قد رضيته » قال فزوجها ثم فزع أهل المدينة فركب جلييب فوجدوه قد قتل وحوله ناس من المشركين قد قتلهم قال أنس رضي الله عنه فلقد رأيته وإنها لمن اتفق بيت بالمدينة . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن ثابت عن كنانة بن نعيم العدوي عن أبي برزة الأسلمي قال إن جلييباً كان امرأ يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي لا تدخلن عليكن جلييباً فانه إن دخل عليكن لأفعلن ولأفعلن قالت وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي صلى الله عليه وسلم فيها حاجة أم لا فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فاني قد رضيته » قال نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين فقال صلى الله عليه وسلم « إني لست أريدها لنفسى » قال فلما يارسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم « لجلييب » فقال يا رسول الله أشاور أمها فأتى أمها فقال رسول الله ﷺ يخطب ابنتك فقالت نعم ونعمة عين فقال إنه ليس

يخطبها لنفسه إنا يخطبها جليبيب فقالت: أجليبيب ، ابنه أجليبيب ابنه ؟ ألا لعمر الله لا تزوجه ، فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها قالت الجارية من خطبتي إليكم فأخبرتها أمها قالت أتردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ادفعوني إليه فانه لن يضيعني فانطلق أبوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال شأنك بها فزوجها جليبيبا قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة له فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه رضى الله عنهم « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا نفقد فلانا ونفقد فلانا قال صلى الله عليه وسلم « انظروا هل تفقدون من أحد » قالوا لا قال صلى الله عليه وسلم « لكنني أفقد جليبيبا » قال صلى الله عليه وسلم « فاطلبوه في القتلى » فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه فقالوا يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عليه فقال « قتل سبعة وقتلوه هذا منى وأمانه » مرتين أو ثلاثا ثم وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على ساعديه وحفر له ماله سرير إلا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم ثم وضعه في قبره ولم يذكر أنه غسله رضى الله عنه قال ثابت رضى الله عنه فما كان في الأنصار أيم أنفق منها وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا هل تعلم ما دعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قال « اللهم صب عليها صبا ولا تجعل عيشها كدا » وكذا كان فما كان في الأنصار أيم أنفق منها هكذا أورده الإمام أحمد بطوله وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب أن الجارية لما قالت في خدرها أتردون على رسول الله ﷺ أمره نزلت هذه الآية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) وقال ابن جريج أخبرني عامر بن مصعب عن طاوس قال إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه وقرأ ابن عباس رضى عنه الله (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) وفي الحديث « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ لا مبينا) كقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا إِلَيْنَا لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضى الله عنه وهو الذي أنعم الله عليه أى بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم (وأنعمت عليه) أى بالعتق من الرق وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر حبيبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقال له الحب ويقال لابنه أسامة الحب ابن الحب قالت عائشة رضى الله عنها ما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لا استخلفه ، رواه الإمام أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد عن وائل بن داود عن عبد الله البهي عنها . وقال البزار حدثنا خالد بن يوسف حدثنا أبو عوانة ح وحدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو داود حدثنا أبو عوانة أخبرني عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال حدثني أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما فقالا يا أسامة استأذن لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان فقال صلى الله عليه وسلم « أتدرى ما حاجتهما ؟ » قلت لا يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم

«لكني أدري» قال فأذن لها قالا يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك؟ قال صلى الله عليه وسلم «أحب أهلي إلى فاطمة بنت محمد» قالا يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة، قال صلى الله عليه وسلم «فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها وأمها أمة بنت عبد المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمرا وملحفة ودرعا وخمسين مدا من طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له «أمسك عليك زوجك واتق الله» قال الله تعالى (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثارا عن بعض السلف رضى الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها فلا نوردها. وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضا حديثا من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضى الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضا. وقد روى البخاري أيضا بعضه مختصرا فقال: حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا يعلى بن منصور عن حماد بن زيد حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال إن هذه الآية (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضى الله عنهما. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يعلى بن هاشم ابن مرزوق حدثنا ابن عيينة عن علي بن زيد بن جدعان قال سألني علي بن الحسين رضى الله عنهما ما يقول الحسن في قوله تعالى (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) فذكرت له فقال لا ولكن الله تعالى أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها فلما أتاه زيد رضى الله عنه ليشتكوها إليه قال «اتق الله وأمسك عليك زوجك» فقال: قد أخبرتك أنني مزوجكها وتخفى في نفسك ما الله مبديه. وهكذا روى عن السدي أنه قال نحو ذلك

وقال ابن جرير حدثني إسحق بن شاهين حدثني خالد عن داود عن عامر عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: لو كنتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكنتم (وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) وقوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها) الوطر هو الحاجة والأرب أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكمها وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر، قال الإمام أحمد حدثنا هاشم يعني ابن القاسم أخبرنا النضر حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه قال لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة «أذهب فاذكرها علي» فانطلق حتى أتاهما وهي تخمر عجينها قال فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول إن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري ونكصت على عقبي وقلت يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي عز وجل فقامت إلى مسجدتها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطعنا عليها الحبز واللحم فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعته فجعل صلى الله عليه وسلم يتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا به (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية كلها ورواه مسلم والنسائي من طرق عن سليمان ابن المغيرة به، وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال إن زينب بنت جحش رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فتقول زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات وقد قدمنا في سورة النور عن محمد بن عبد الله بن جحش قال تفاخرت زينب وعائشة رضى الله عنهما فقالت زينب رضى الله عنها أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة رضى الله عنها أنا التي نزل عذري من السماء فاعترفت لها زينب رضى الله عنها وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن المغيرة عن الشعبي قال: كانت

زينب رضى الله عنها تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث: ما من نساءك امرأة تدل بهن: إن جدى وجدك واحد، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء، وإن السفير حبريل عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى إنما أبغناك تزويجها وفعلنا ذلك لكلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قبل النبوة قد تبني زيد ابن حارثة رضى الله عنه فكان يقال له زيد بن محمد فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى (وما جعل أدعياءكم أبناءكم - إلى قوله تعالى - ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله) ثم زاد ذلك بياناً وتأكيذاً بوقوع تزويج رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش رضى الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضى الله عنه، ولهذا قال تعالى في آية التحريم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ليحترز من الابن الدعى فإن ذلك كان كثيراً فيهم. وقوله تعالى (وكان أمر الله مفعولاً) أى وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة، كانت زينب رضى الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾
يقول تعالى (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أى فيما أحله وأمره به من تزويج زينب رضى الله عنها التى طلقها دعيه زيد بن حارثة رضى الله عنه وقوله تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى هذا حكم الله تعالى فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج وهذا رد عن من توهم من المناققين تفصلاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) أى وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

يمدح تبارك وتعالى (الذين يبلغون رسالات الله) أى إلى خلقه ويؤدونها بأماناتها (ويخشونه) أى يخافونه ولا يخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى (وكفى بالله حسيباً) أى وكفى بالله ناصرًا ومعيناً، وسيد الناس فى هذا المقام بل وفى كل مقام محمد رسول الله ﷺ فانه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب إلى جميع أنواع بنى آدم وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع فانه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة، وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضى الله عنهم بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلايته فرضى الله عنهم وأرضاهم ثم ورثة كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهجهم يسلك الموفقون ففسأل الله الكريم النان أن يجعلنا من خلفهم. قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير أخبرنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقوله فيقول الله ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنأ أحق أن يخشى » ورواه أيضاً عن عبد الرزاق عن الثورى عن زيد عن عمرو بن مرة، ورواه ابن ماجه عن أبي كريب عن عبد الله بن نمير وأبي معاوية كلاهما عن الأعمش به. وقوله تعالى (ما كان محمد أباً أحداً من رجالكم) نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فانه صلى الله عليه وسلم لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم، فإنه صلى الله عليه وسلم ولد له القاسم والطيب والطاهر

من خديجة رضى الله عنها فماتوا صغاراً ، وولد له صلى الله عليه وسلم إبراهيم من مارية القبطية فمات أيضاً رضيها وكان له صلى الله عليه وسلم من خديجة أربع بنات : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهم أجمعين فمات في حياته صلى الله عليه وسلم ثلاث. وتأخرت فاطمة رضى الله عنها حتى أصيبت به صلى الله عليه وسلم ثم ماتت بعده لسته أشهر وقوله تعالى (ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء علياً) كقوله عز وجل (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، قال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا زهير بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذى عن بندار عن أبي عامر العقدي به وقال حسن صحيح (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا المختار ابن فلعل حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي » قال فشق ذلك على الناس فقال « ولكن البشريات » قالوا يا رسول الله وما البشريات ؟ قال « رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة » وهكذا رواه الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفراني عن عفان بن مسلم به وقال صحيح غريب من حديث المختار بن فلعل

(حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا سليم بن حيان عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » ورواه البخارى ومسلم والترمذى من طرق عن سليم بن حيان به وقال الترمذى صحيح غريب من هذا الوجه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نبوة بعدى إلا البشريات » قيل وما البشريات يا رسول الله قال « الرؤيا الحسنة » — أو قال — « الرؤيا الصالحة » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — فكنت أنا اللبنة » أخرجه من حديث عبد الرزاق (حديث آخر) عن أبي هريرة رضى الله عنه أيضاً قال الإمام مسلم حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة وطى بن حنبل قالوا حدثنا إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث إسماعيل بن جعفر وقال الترمذى حسن صحيح (حديث آخر) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا سليم بن حيان عن سعيد بن مينا عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذى عن بندار عن أبي عامر العقدي به وقال حسن صحيح (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا المختار ابن فلعل حدثنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي » قال فشق ذلك على الناس فقال « ولكن البشريات » قالوا يا رسول الله وما البشريات ؟ قال « رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة » وهكذا رواه الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفراني عن عفان بن مسلم به وقال صحيح غريب من حديث المختار بن فلعل

كلاهما عن أبي معاوية به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح حدثنا سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمي عن العرياض بن سارية رضى الله عنه قال : قال لى النبي صلى الله عليه وسلم « إني عند الله لحاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته » (حديث آخر) قال الزهري أخبرني محمد بن جبير ابن مطعم عن أبيه رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى بى الكفر ، وأنا الحائثر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا العاقب الذى ليس بعده نبي » أخرجه فى الصحيحين . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن ابن جبير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالمودع فقال « أنا محمد النبي الأمي - ثلاثا - ولا نبي بعدى ، أثبت فوآخ الكلم وجوامعه وخواتمه وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش ، وتجاوز بى ، وعوفيت وعوفيت أمتى ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا حلاله وحرموا حرامه » تفرد به الإمام أحمد

ورواه الإمام أحمد أيضاً عن يحيى بن إسحاق عن ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الله بن شريح الخولاني عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم أفند كرمثله سواء والاحاديث فى هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ثم من تشریفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الخفيف له ، وقد أخبر الله تبارك وتعالى فى كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم فى السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ وأنى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسى باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقهم بضروة الواقع لا يأمرهم بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على شيبيل الاتفاق أولما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ويكون فى غاية الافك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل كل أفاك أثيم) الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الحوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات فصولات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۖ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۖ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المكآب . قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبد الله بن سعيد حدثنى مولى ابن عباس عن أبي بحرية عن أبي الدراء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » قالوا وما هو يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « ذكر الله

عز وجل » وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عبدالله بن سعيد بن أبي هند عن زياد مولى ابن عباس عن أبي بحرية واسمه عبدالله بن قيس البراعمى عن أبي الدرداء رضى الله عنه به ، قال الترمذى ورواه بعضهم عنه فأرسله ، قلت وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) فى مسند الإمام أحمد من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبدالله بن عباس أنه بلغه عن معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه فأنه أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا روح بن فضالة عن أبي سعيد المحصى قال : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك ورواه الترمذى عن يحيى بن موسى عن وكيع عن أبي فضالة الفرج بن فضالة عن أبي سعيد المحصى عن أبي هريرة رضى الله عنه فذكر مثله وقال غريب وهكذا رواه الإمام أحمد أيضا عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن فرج بن فضالة عن أبي سعيد المري عن أبي هريرة رضى الله عنه فذكره . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح عن عمرو بن قيس قال سمعت عبد الله بن بشر يقول جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما يا رسول أى الناس خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم « من طال عمره وحسن عمله » وقال الآخر يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمضى بأمرك أتثبت به قال صلى الله عليه وسلم « لا يزال لسانك رطبا بذكرك الله تعالى » وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى من حديث معاوية بن صالح به ، وقال الترمذى حديث حسن غريب . وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو بن الحارث قال : إن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون » . وقال الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم العمى حدثنا سعيد بن سفيان الجحدري حدثنا الحسن بن أبي جعفر عن عقبة بن أبي شبيب الراسبي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « اذكروا الله ذكراً » حتى يقول المنافقون إنكم تراءون » ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا شداد أبو طلحة الراسبي سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « مامن قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة » وقال طى بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (اذكروا الله ذكراً كثيراً) إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوماً ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الله كره فان الله تعالى لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على تركه فقال (اذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) بالليل والنهار فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والفنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال . وقال عز وجل (وسبحوه بكرة وأصيلاً) فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته ، والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً وفى هذه الآية الكريمة الحث على الأكثر من ذلك . وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنساء والمعمري وغيرهما . ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محي الدين النووى رحمه الله وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلاً) أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل (فسبحان الله حين تمشون وحين تصبحون * وله الحمد فى السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) وقوله تعالى (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) هذا تهيج إلى الله كره أى أنه سبحانه يذكركم فاذكروا الله أتم كقوله عز وجل (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) وقال النبي ﷺ « يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملائكته » والصلاة من الله تعالى ثناء على العبد عند الملائكة حكاة البخارى عن أبي العالية ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عنه ، وقال غيره الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال

لا منافاة بين القولين والله أعلم ، وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار كقوله تبارك وتعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمدهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات) الآية . وقوله تعالى (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم بخروجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين (وكان بالمؤمنين رحيما) أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاء إلى الكفر أو البدعة وأتباعهم من الطعام ، وأما رحمته بهم فى الآخرة فآمنهم من الفزع الأكبر وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وما ذاك إلا لحيته لهم ورافته بهم قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه رضى الله عنهم وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى وسعت فأخذته فقال القوم يارسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار قال فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لا ، والله لا يلقى حبيبه فى النار » إسناده على شرط الصحيحين ولم يخرججه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا لا قال رسول الله ﷺ فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها . وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الظاهر أن المراد والله أعلم تحيتهم أى من الله تعالى يوم يلقونه سلام أى يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل (سلام قولا من رب رحيم) وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله فى الدار الآخرة ، واختاره ابن جرير : [قلت] وقد يستدل بقوله تعالى (دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقوله تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) يعنى الجنة وما فيها من الماء كل والشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَبَشِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْهَبَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)

قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان حدثنا هلال بن على عن عطاء بن يسار قال لقبت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة قال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى ، سميتك التوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ويفقر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وقد رواه البخارى فى البيوع عن محمد بن سنان عن فليح بن سليمان عن هلال بن على به . ورواه فى التفسير عن عبد الله قيل ابن رجاء وقيل ابن صالح عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو به . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن عبد الله بن رجاء عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماحشون به .

وقال البخارى فى البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وقال وهب بن منبه إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعيا : أن قم فى قومك بنى إسرائيل فانى منطق لسانك بوحي وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من

سكينته ، ولو عيش على القصب لم يسمع من تحت قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا لا يقول الحنا ، أفتح به أعينا كمها وآذانا صا وقلوبا غلفا ، أسدده لكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والنفوس والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة . وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فثاما من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدون مؤمنين مخلصين ، مصدقون لما جاءت به رسل ، اللهم التمسح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، في مساجدكم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم يصلون لي قياما وقعودا ويقااتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفًا ، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب في الأنصاف ، قربانهم دماؤهم . وأناجيلهم في صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين ، والصادقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم ، أو بغى عليهم أو أراد أن ينتزع شيئا مما في أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعية إلى ربهم ، يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم أختم بهم الخير الذي بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيته من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم . هكذا رواه ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه الجاني رحمه الله . ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله القرشي عن شيبان النحوي أخبرني قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وقد كان أمر عليا ومعاذ رضى الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال « انطلقا فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، إنه قد أنزل على (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) » ورواه الطبراني عن محمد بن نصر بن حميد البزار البغدادي عن عبد الرحمن بن صالح الأزدي عن عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمي بإسناده مثله . وقال في آخره « فانه قد أنزل على يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة ونذيرا من النار وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه وسراجا منيرا بالقرآن » . فقله تعالى (شاهدا) أى لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة وجئنا بك على هؤلاء شهيدا كقولهم (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وقوله عز وجل (ومبشرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين وبخزيل الثواب ونذيرا للكافرين من وييل العقاب . وقوله جلوت عظمتهم (وداعيا إلى الله بإذنه) أى داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك (وسراجا منيرا) أى وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يحجدها إلا معاند . وقوله جل وعلا (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) أى لا تطعمهم وتسمع منهم في الذي يقولونه (ودع أذاهم) أى اصمغ وتجاوز عنهم وكل أمرهم إلى الله تعالى فان فيه كفاية لهم ولهذا قال جل جلاله (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده أو في الوطء أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية فانه استعمل في العقد وحده لقوله تبارك وتعالى (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها وقوله تعالى (المؤمنات) خرج

مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتانية في ذلك بالاتفاق وقد استدلل ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد ابن المسيب والحسن البصري وعلي بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح لأن الله تعالى قال (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فعقب النكاح بالطلاق فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندها متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة رحمه الله كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزي حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس يعني ابن أبي إسحاق قال سمعت آدم مولى خالد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . قال إذا قال كل امرأة أتزوجها فهي طالق قال ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) الآية وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع عن مطر عن الحسن بن مسلم بن يناق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما قال الله عز وجل (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح وهكذا روى محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الله تعالى (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فلا طلاق قبل النكاح وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا طلاق لابن آدم فيه لا يملك رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي هذا حديث حسن وهو أحسن شيء روى في هذا الباب ، وهكذا روى ابن ماجه عن علي والسور بن محزمة رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا طلاق قبل النكاح » ، وقوله عز وجل (فالكم عليهن من عدة تعتدونها) هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتزوج في فورها^(١) من شاءت ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فانها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا وإن لم يكن دخل بها بالاجتماع أيضا ، وقوله تعالى (فمتوهن وسرحوهن سراح جيلا) المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) وقال عز وجل (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوهن فريضة ومتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين ، قال علي ابن أبي طلحة رضي الله عنهما إن كان مسمى لها صداقا فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن مسمى لها صداقا أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمُرَاءَ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن وهى الأجور

ههنا كما قاله مجاهد وغير واحد وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونشز وهو نصف أوقية فالجميع خمسمائة درهم
إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمئة دينار وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها
من سبي خير ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن
قيس بن شماس وتزوجها - رضى الله عنهن أجمعين - وقوله تعالى (وما ملكك يمينك مما أفاء الله عليك) أى وأباح لك
التسرى مما أخذت من المغنم وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية
ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام وكاتتا من السرارى رضى الله عنهما وقوله تعالى (وبنات عمك وبنات
عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك) الآية هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط فإن النصارى لا يتزوجون المرأة
إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة
الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الحال والحالة وتحريم ما فرطت فيه اليهود من
إباحة بنت الأخ والأخت وهذا شنيع فظيع ، وإنما قال (وبنات عمك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات خالاتك)
فوحده لفظ الله ذكر لشرفه وجمع الإناث لنقصهن كقوله (عن اليمين والشمال) (يخرجهم من الظلمات إلى النور) (وجعل
الظلمات والنور) وله نظائر كثيرة وقوله تعالى (اللاتى هاجرن معك) قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا محمد بن عمار
ابن الحارث الرازى حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن السدى عن أبي صالح عن أم هانئ قالت خطبنى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى (إنا أحلنا لك أزواجك اللاتى آتيت
أجورهن وما ملكك يمينك مما أفاء الله عليه وبنات عمك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى
هاجرن معك قالت فلم أكن أحل له ولم أكن ممن هاجر معه كنت من الطلقاء . ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن
عبيد الله بن موسى به ثم رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عنها بنحوه ، ورواه الترمذى
في جامعه . وهكذا قال أبو رزين وقتادة إن المراد من هاجر معه إلى المدينة . وفي رواية عن قتادة (اللاتى هاجرن
معك) أى أسلمن ، وقال الضحاك قرأ ابن مسعود (واللأى هاجرن معك)

وقوله تعالى (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك) الآية أى وبحل لك أيها
النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان كقوله
تعالى إخبارا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه (ولا ينفكمن نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن
يغويكم) وكقول موسى عليه السلام (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال ههنا (وامرأة
مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) الآية وقد قال الإمام أحمد حدثنا إسحق أخبرنا مالك عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي
أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت يا رسول الله إني قد وهبت نفسى لك فقامت قياما طويلا فقام رجل فقال
يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ « هل عندك من شئ تصدقها بإياه ؟ »
فقال ما عندي إلا إزارى هذا ، فقال رسول الله ﷺ « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس
شيئا » فقال لا أجد شيئا ، فقال « التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال له النبي ﷺ « هل معك
من القرآن شئ ؟ » قال نعم سورة كذا وسورة كذا - السور بسمها - فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « زوجتكها بما معك من
القرآن » أخرجاه من حديث مالك وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا مرحوم سمعت ثابتا يقول : كنت مع أنس
جالسا وعنده ابنة له فقال أنس جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت يا نبي الله هل لك في حاجة فقالت ابنته ما كان أقل
حياة فقال « هى خير منك رغبت فى النبي فعرضت عليه نفسها » انفرادا بخارجه البخارى من حديث مرحوم بن عبد العزيز
عن ثابت البناتى عن أنس به : وقال أحمد أيضا حدثنا عبد الله بن بكير حدثنا سنان بن ربيعة عن الحضرمي عن
أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ابنة لى كذا وكذا فذكرت من حسننها وجالها
فآثرتك بها فقال « قد قبلتها » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئا قط فقال « لا حاجة لى فى ابنتك »

لم يخرجوه ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا منصور بن أبي مزاحم حدثنا ابن أبي الوضاح يعني محمد بن مسلم عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم ، وقال ابن وهب عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه أن خولة بنت حكيم بن الاوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن عن هشام عن أبيه كذا تتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة سالحة . فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم أو هي امرأة أخرى ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا وكيع حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ستا من قريش : خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة ، وثلاثا من بني عامر بن صعصعة وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيتين صفية بنت حيي ابن أخطب وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي) قال هي ميمونة بنت الحارث فيه انقطاع هذا مرسل والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته فأنه أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير كما قال البخاري حدثنا زكريا بن يحيى حدثنا أبو أسامة قال حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهد المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى (ترجى من تشاء ومنه وتووى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هالك . وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن منصور الجعفي حدثنا يونس بن بكير عن عنبسة بن الأزهر عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن يونس بن بكير أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن ذلك مباح له ومخصوصا به لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها) أي إن اختار ذلك .

وقوله تعالى (خالصة لك من دون المؤمنين) قال عكرمة أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو ان امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئا وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما أي انها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها والموت والدخول سواء في تقرير المهر وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ فأما هو عليه الصلاة والسلام فانه لا يجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها ولهذا قال قتادة في قوله (خالصة لك من دون المؤمنين) يقول ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة وابن جرير في قوله (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر وماءش وأمن الإماء واشترائط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئا منه (لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما)

(تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُوْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا)

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بشر حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله عز وجل (ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء) الآية قالت إني أرى ربك يسارع لك في هواك . وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبي أسامة عن هشام بن عروة فدل هذا على أن المراد بقوله (ترجى) أى تؤخر (من تشاء منهم) أى من الواهبات (وتؤوى إليك من تشاء) أى من شئت قبلتها ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأؤيتها ولهذا قال (ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قال عامر الشعبي في قوله تعالى (ترجى من تشاء منهم) الآية كن نساء واهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فدخل يبعضهن وأرجأ بعضهن لم يسكنن بعده ، منهم أم شريك ، وقال آخرون بل المراد بقوله (ترجى من تشاء منهم) الآية أى من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القسم لمن تقدم من شئت وتؤخر من شئت وتجمع من شئت وتترك من شئت هكذا يروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وأبي رزين وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لمن ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه صلى الله عليه وسلم واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخارى حدثنا حبان بن موسى حدثنا عبد الله هو ابن المبارك أخبرنا عاصم الأحول عن معاذ عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية (ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) فقلت لها ما كنت تقولين ؟ فقالت كنت أقول إن كان ذلك إلى فاني لا أريد يا رسول الله أن أؤثر عليك أحدا . فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجود القسم وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت في الواهبات ، ومن ههنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه محير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم ، وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى وفيه جمع بين الأحاديث ولهذا قال تعالى (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتينهن كلهن) أى إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ثم مع هذا أن تقسم لمن اختيارا منك لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمتك عليهن في قسمتك لمن وتسويتك بينهن وإنصافك لمن وعدك فيهن . وقوله تعالى (والله يعلم ما فى قلوبكم) أى من الليل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول « اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث حماد بن سلمة وزاد أبو داود بعد قوله « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب . وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات ولهذا عقب ذلك بقوله تعالى (وكان الله علما) أى بضمائر السرائر (حلما) أى يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾

ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضا عنهن على حسن صنعتهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإمام والسراى فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ

حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج لتكون المنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم
قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن عائشة رضي الله عنها قالت مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى أحل الله له النساء ، ورواه أيضا من حديث ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة ، ورواه الترمذي
والنسائي في سننهما ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة حدثني عمر بن أبي بكر
حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الخزاعي عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله عن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أم سلمة أنها قالت : لم
يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم . وذلك قول الله تعالى (ترجى من
نشأ منهن) الآية فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة كآتي عدة الوفاة في البقرة ، الأولى ناسخة للتي بعدها
والله أعلم ، وقال آخرون بل معنى الآية (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي
أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن ومملكت يمينك ، وبنات العم والعمة والحال والحالات والواجبة
وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك ، وهذا ما روى عن أبي بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة
والضحاك في رواية وأبي رزين في رواية عنه وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية والسدّي وغيرهم قال ابن جرير
حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن داود بن أبي هند حدثني محمد بن أبي موسى عن زياد عن رجل من الأنصار قال
قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال وما يمنعه من
ذلك ؟ قال قلت قول الله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد) فقال إنما أحل الله له ضربا من النساء فقال تعالى (يا أيها النبي
إنا أحللنا لك أزواجك - إلى قوله تعالى - إن وهبت نفسها للنبي) ثم قيل له (لا يحل لك النساء من بعد)
ورواه عبد الله بن أحمد من طرق عن داود بن ، وروى الترمذي عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه
وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن
تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما مملكت يمينك) فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة
إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات دين غير الاسلام ثم قال (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) الآية
وقال تعالى (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن - إلى قوله تعالى - خالصة لك من دون
المؤمنين) وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء ، وقال مجاهد (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد ما سمى لك
لا مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة ، وقال أبو صالح (لا يحل لك النساء من بعد) أمر أن لا يتزوج أعرابية
ولا عريية ويتزوج بعد من نساء تهامة وما شاء من بنات العم والعمة والحال والحالة إن شاء ثلاثمائة ، وقال عكرمة
(لا يحل لك النساء من بعد) أي التي سمى الله ، واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف
النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعا ، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف
فإن كثيرا منهم روى عنه هذا وهذا ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل
نزول قوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج) الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان
قبل نزول الآية صحيح ولكن لا يحتاج إلى ذلك فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته
وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فإله أعلم ، فأما قضية
سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها وهي سبب نزول قوله تعالى (وإن امرأة خافت من
بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) الآية ، وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي
وابن ماجه وابن حبان في صحيحهم طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن صالح بن صالح بن حي عن سلمة بن كحيل
عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق حفصة ثم راجعها وهذا إسناد قوى
وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن الأعمش عن أبي صالح عن ابن عمر قال : دخل عمر على

حفصة وهى تبكى فقال ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً . ورجاله على شرط الصحيحين . وقوله تعالى (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) فهنا عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره ههنا فقال حدثنا إبراهيم بن نصر حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا عبد السلام ابن حرب عن إسحاق بن عبد الله القرشي عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال : كان البذل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل بادلنى امرأتك وأبادلك بامرأتى أى تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى فأنزله الله (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) قال فدخل عينة بن حصن الفزارى على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة فدخل بغير إذن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ « هذه عائشة أم المؤمنين » قال أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال « يا عينة إن الله قد حرم ذلك » فلما أن خرج قالت عائشة من هذا ؟ قال « هذا أحق مطاع وإنه على ما ترين لسيد قومه » ثم قال البزار : إسحاق بن عبد الله بن الحديث جداً وإنما ذكرناه لأننا لم نحفظه إلا من هذا الوجه وبيننا العلة فيه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ لِأَنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ آخَقٌ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية وهى مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال وافقت ربي عز وجل فى ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله تعالى (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفجور فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لما تأمل أن عليه فى الغيرة (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن) فزلت كذلك وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر وهى قضيه رابعة وقد قال البخارى حدثنا مسدد عن يحيى عن حميد عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزینب بنت جحش التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة فى قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن الثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان فى سنة ثلاث فآله أعلم قال البخارى حدثنا محمد بن عبد الله الرقاشى حدثنا معتمر بن سليمان سمعت أبي حدثنا أبو مجاز عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو يتبأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام ، فلما قام ، قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فالتقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين

إنه ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) الآية وقد رواه أيضا في موضع آخر، ومسلم والنسائي من طرق عن معتمر بن سليمان به ثم رواه البخاري منفردا به من حديث أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه بنحوه ثم قال حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : بنى النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش بجنز ولحم فأرسلت على الطعام داعيا فيجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه فقلت يا رسول الله ما أجد أحدا أدعوه قال « ارفعوا طعامكم » وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » قالت وعليك السلام ورحمة الله وكيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقبلن له كما قالت عائشة ، ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحياء فخرج منطلقا نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية الحجاب . انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة سوى النسائي في اليوم والليلة من حديث عبد الوارث ثم رواه عن إسحاق هو ابن منصور عن عبد الله بن بكير السهمي عن حميد عن أنس بنحو ذلك وقال رجلان انفرد به من هذا الوجه وقد تقدم في افراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو المظفر حدثنا جعفر بن سليمان عن الجعد أبي عثمان الشكري عن أنس بن مالك قال أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه فصنعت أم سليم حيسا ثم جعلته في تور فقالت أذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرئه مني السلام وأخبره أن هذا منا له قليل قال أنس : والناس يومئذ في جهد فجئت به فقلت يا رسول الله بعث بهذا أم سليم إليك وهي تقرئك السلام وتقول أخبره أن هذا منا له قليل فنظر إليه ثم قال « ضعه » فوضعت في ناحية البيت ثم قال « اذهب فادع لي فلانا وفلانا » فسمي رجالا كثيرا وقال « ومن لقيت من المسلمين » فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاءى من الناس فقلت يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال كانوا زهاء ثلاثمائة قال أنس فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « جىء به » فجئت به إليه فوضع يده عليه ودعا وقال « ما شاء الله » ثم قال « ليتخلق عشرة عشرة وليسموا وليأكل كل إنسان مما يليه » فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارفعه » قال فجئت فأخذت التور فنظرت فيه فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت قال وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط فأطالوا الحديث فشقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس حياء ، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم على حجره وعلى نسائه فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ابتدروا الباب فخرجوا وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرخى الستر ودخل البيت وأنا في الحجرة فكث رسول الله ﷺ في بيته يسيرا وأنزل الله عليه القرآن فخرج وهو يتلوا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) الآيات قال أنس فقراهن على قبل الناس فأنا أحدث الناس بهن عهدا ، وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي جميعا عن قتيبة عن جعفر بن سليمان به ، وقال الترمذي حسن صحيح وعلقه البخاري في كتاب النكاح فقال : وقال إبراهيم بن طهمان عن الجعد أبي عثمان عن أنس فذكر نحوه ، ورواه مسلم أيضا عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق عن معمر عن الجعد به ، وقد روى هذا الحديث عبد الله بن المبارك عن شريك عن بيان بن بشر عن أنس بنحوه ، ورواه البخاري والترمذي من طريقين آخرين عن بيان بن بشر الأحمسي الكوفي عن أنس بنحوه ، ورواه ابن أبي حاتم أيضا من حديث أبي نضرة العبدى عن أنس بن مالك بنحو ذلك ولم يخرجوه ، ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد ومن حديث الزهري عن أنس بنحو ذلك ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهزو هاشم بن القاسم قال حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله

لزيد « اذهب فاذا كرها على » قال فانطلق زيد حتى أتاها - قال - وهي تخمر عجبها فلما رأيتها عظمت في صدرى ، وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) وزاد في آخره بعد قوله : ووعظ القوم بما وعظوا به . قال هاشم في حديثه (لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) الآية . وقد أخرجه مسلم والنسائي من حديث جعفر بن سليمان به . وقال ابن جرير حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب حدثني عمي عبد الله بن وهب حدثني يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب - وهو صعيد أبيض - وكان عمر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب قالت فأنزل الله الحجاب . هكذا وقع في هذه الرواية ، والشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين . قالت فانكفأت راجعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت فقالت يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت فأوحى الله إليه ثم رفع عنه وإن العرق في يده ما وضعه فقال « إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن » لفظ البخاري فقوله تعالى (لا تدخلوا بيوت النبي) حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الإسلام حتى غار الله لهذه الأمة فأمرهم بذلك وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ولهذا قال رسول الله ﷺ « إياكم والدخول على النساء » الحديث ثم استثنى من ذلك فقال تعالى (إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه) قال مجاهد وقادة وغيرها أي غير متحججين فضجه واستواءه أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه وهذا دليل على تحريم التطفيل وهو الذي تسميه العرب الضيفن ، وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتابا في ذم الطفيلين وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها ، ثم قال تعالى (ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسا كان أو غيره » وأصله في الصحيحين ، وفي الصحيح أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدى إلى كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذي دعيت إليه فخففوا عن أهل المنزل وانتشروا في الأرض » ولهذا قال تعالى (ولا مستأنسين لحديث) أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى (إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم) وقيل المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، ولكن كان يكره أن ينهأهم عن ذلك من شدة حياته عليه السلام حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك ولهذا قال تعالى (والله لا يستحي من الحق) أي ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه ثم قال تعالى (وإذا سألتوهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أي وكانه يتكلم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن مسعر عن موسى بن أبي كثير عن مجاهد عن عائشة قالت كنت آكل مع النبي ﷺ حيسا في قعب فمر عمر فدعاه فأكل فأصابت أصبعه أصبعي فقال حسن أو أوه لو أطاع فيمكن ما رأتكن عين فنزل الحجاب (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب وقوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم عند الله عظيما) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن أبي حماد حدثنا مهرا عن سفيان عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) قال نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعده

قال رجل لسفيان: أهى عائشة؟ قال قد ذكروا ذلك وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله رضى الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم واختافوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين. أخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله (من بعده) أم لا فإما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فإنا نعلم في حلها لغيره والحالة هذه نزاعا والله أعلم، وقال ابن جرير حدثني محمد بن المثني حدثنا عبد الوهاب حدثنا داود عن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث - يعنى ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر يا خليفة رسول الله إنها ليست من نسائه إنها لم يغيرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحجبها وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها، قال فاطمأن أبو بكر رضى الله عنه وسكن، وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه بقوله (إن ذلكم كان عند الله عظيما) ثم قال تعالى (إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء علما) أى مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم، فإن الله يعلمه فإنه لا تخفى عليه خافية (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور)

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى (ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من رجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) وفيها زيادات على هذه وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته ههنا. وقد سأل بعض السلف فقال: لم لم يذكر العم والحال في هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرهما لأنهما قد يصفان ذلك لبيهما، قال ابن جرير حدثني محمد بن المثني حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد حدثنا داود عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى (لا جناح عليهن في آبائهن) الآية قلت ما شأن العم والحال لم يذكر؟ قال لأنهما يعتانها لأبنائهما وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها. وقوله تعالى (ولا نساءهن) يعنى بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات، وقوله تعالى (وما ملكت أيمانهن) يعنى به أرقاءهن من الله كوروا الإناث كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه قال سعيد بن المسيب إنما يعنى به الإمام فقط رواه ابن أبي حاتم وقوله تعالى (واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا) أى واخشينه في الخلوة والعلانية فإنه شهيد على كل شيء لا تخفى عليه خافية فراقبن الرقيب

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

قال البخارى: قال أبو العالية: صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس: يصلون بكون هكذا علاقته البخارى عنها؛ وقد رواه أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كذلك وروى مثله عن الربيع أيضا وروى على بن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء، رواهما ابن أبي حاتم، وقال أبو عيسى الترمذى وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا: صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار ثم قال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو الأودى حدثنا وكيع عن الأعمش عن عمرو بن مرة قال الأعمش أراه عن عطاء بن أبي رباح (إن الله وملائكته يصلون على النبي) قال: صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي

غضبي . والقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة القربين وأن الملائكة تصلي عليه ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثني أبي عن أبيه عن أشعث بن إسحق عن جعفر يعني ابن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام هل يصلي ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوكم هل يصلي ربك فقل نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصلي على عباده المؤمنين في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا * هو الذي يصلي عليكم وملائكته) الآية وقال تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم) الآية ، وفي الحديث « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » ، وفي الحديث الآخر « اللهم صل على آل أبي أوفى » وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر وقد سألته أن يصلي عليها وعلى زوجها : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ، وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسر والله المستعان ، قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد أخبرنا أبي عن مسعر عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف الصلاة ؟ قال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد »

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الحكم قال : سمعت ابن أبي ليلى قال لقيني كعب بن عجرة فقال ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله قد علمنا أو عرفنا كيف السلام عليك فكيف الصلاة ؟ فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم من طرق متعددة عن الحكم وهو ابن عتيبة زاد البخاري وعبد الله بن عيسى كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فذكرهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا هشيم بن بشير عن يزيد بن أبي زياد حدثنا عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة قال لما نزلت (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) قال : قلنا يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » وكان عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول وعلينا معهم ، ورواه الترمذي بهذه الزيادة ومعنى قولهم أما السلام عليك فقد عرفناه هو الذي في التشهد الذي كان يعلمهم إياه كما كان يعلمهم السورة من القرآن وفيه السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته حديث آخر قال البخاري حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث عن ابن الهاد عن عبد الله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك قال « قولوا اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم » قال أبو صالح عن الليث : على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم . حدثنا إبراهيم بن حمزة حدثنا ابن أبي حازم والدروردي عن يزيد يعني ابن الهاد قال : كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم . وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث ابن الهاد به . حديث آخر قال الإمام أحمد قرأت على عبد الرحمن مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرو بن سليم أنه قال أخبرني أبو حميد الساعدي أنهم قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك قال « قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته

كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وقد أخرجه بقية الجماعة سوى الترمذى من حديث مالك به .

(حديث آخر) قال مسلم حدثنا يحيى بن يحيى التميمى قال : قرأت على مالك عن نعيم بن عبد الله المجهري أخبرني محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أرى النداء بالصلاة أخبره عن أبي مسعود الأنصارى قال : أئانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك ؟ قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد والسلام كما قد علمتم » وقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير من حديث مالك به وقال الترمذى حسن صحيح وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان والحاكم في مستدركه من حديث محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم التميمى عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه عن أبي مسعود البدرى أنهم قالوا يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا فقال « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » وذكره ورواه الشافعى رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة بمثله ، ومن ههنا ذهب الشافعى رحمه الله إلى أن يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فان تركه لم تصح صلاته ، وقد شرع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يشنع على الإمام الشافعى في اشتراطه ذلك في الصلاة ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الاجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم فيما نقله القاضى عياض عنهم ، وقد تعسف هذا القائل في رده على الشافعى وتكلف في دعواه الاجماع في ذلك وقال مالم يحط به علما فانا قد رويناه وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول الله ﷺ في الصلاة كما هو ظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة منهم ابن مسعود وأبو مسعود البدرى وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين الشعبي وأبو جعفر الباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب الشافعى لا خلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً ، وإليه ذهب الإمام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقى به ، وبه قال إسحق بن راهويه والفقهاء الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز المالكي رحمهم الله حتى إن بعض أئمة الخبالة أوجب أن يقال في الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوهم وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على آل فيه حكاه البندنجى وسليم الرازى وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولاً عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه وحكموا الاجماع على خلافه وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . والغرض أن الشافعى رحمه الله يقول بوجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة سلفاً وخلفاً كما تقدم والله الحمد والمنة فلا اجماع على خلافه في هذه المسئلة لا قديماً ولا حديثاً والله أعلم .

ومما يؤيد ذلك الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وصححه ، والنسائى وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما من رواية حيوة بن شريح المصرى عن أبي هانىء حميد بن هانىء عن عمرو بن مالك أبي على الحسينى عن فضالة ابن عبيد رضى الله عنه قال سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يعبد الله ولم يصل على النبي فقال رسول الله ﷺ « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه ثم ليصل على النبي ثم ليدع بعد بما شاء » وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا صلاة لمن لا وضوء له ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه . ولا صلاة لمن لم يصل على النبي ، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » ولكن عبد المهيمن هذا متروك وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه أبي بن عباس ولكن في ذلك نظر وإنما يعرف من رواية عبد المهيمن والله أعلم .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل عن أبي داود الأعمى عن بريدة قال : قلنا

يارسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » أبو داود الأعمى اسمه تقيع بن الحارث متروك (حديث آخر) موقوف رويناه من طريق سعيد بن منصور ويزيد بن هارون وزيد بن الجباب ثلاثهم عن نوح بن قيس حدثنا سلامة الكندي أن علياً رضى الله عنه كان يعلم الناس هذا الدعاء اللهم داحى المدحوات ، وبارئ السموات وجبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها ، اجعل شرائف صلواتك ، ونوامي بركاتك ، ورأفة تحننك ، على محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والعلين الحق بالحق ، والدامغ لجيشات الأباطيل ، كما حمل فاضطلع بأمرك بطاعتك ، مستوفزاً في مرضاتك غير نكل في قدم ، ولا وهن في عزم ، واعيا لوحيك ، حافظاً لعهديك ، ماضياً على نفاذ أمرك حتى أورى قبساً لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه ، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم ، وأبهج موضحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازن علمك المخزون ، وشهيدك يوم الدين ، وبعيثك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة ، اللهم افسح له في عدتك واجزه مضاعفات الخير من فضلك ، مهنات له غير مكدرات ، من فوز ثوابك المحلول وجزيل عطائك الملول ، اللهم أعل على بناء الناس بناءه وأكرم مثواه لديك ونزله . وآتم له نوره واجزه من ابتعائك له مقبول الشهادة . مرضى المقالة ذا منطق عدل . وخطة فصل . وحجة وبرهان عظيم . هذا مشهور من كلام علي رضى الله عنه وقد تكلم عليه ابن قتيبة في مشكل الحديث وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى في جزء جمعه في فضل الصلاة على النبي ﷺ إلا أن في إسناده نظراً . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : سلامة الكندي هذا ليس بمعروف ولم يدرك علياً . كذا قال وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبراني هذا الأثر عن محمد بن علي الصائغ عن سعيد بن منصور حدثنا نوح بن قيس عن سلامة الكندي قال كان علي رضى الله عنه يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ فيقول اللهم داحى المدحوات وذكرة

(حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا زياد بن عبد الله حدثنا المسعودي عن عون بن عبد الله عن أبي فاخنة عن الأسود ابن يزيد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال إذا صليت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه قال فقالوا له علمنا ، قال قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة . اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وهذا موقوف ؟ وقد روى إسماعيل القاضي عن عبد الله بن عمرو وأومر على الشك من الراوى قريباً من هذا ؛ (حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا أبو إسرائيل عن يونس بن خباب قال خطبنا بفارس فقال (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) فقال أنبأني من سمع ابن عباس يقول هكذا أنزل فقلنا أو قالوا يارسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك قال « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي صلى الله عليه وسلم كما هو قول الجمهور وبعضه حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً فقال رسول الله ﷺ « لقد حجرت واسعاً » وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه قال وأجازه أبو محمد بن أبي زيد ،

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر أخبرنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى على صلاة لم تنزل الملائكة تصلى عليه ما صلى على فليقل عبد من ذلك أوليكم » ورواه ابن ماجه من حديث شعبة به .

(حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذى حدثنا بندار حدثنا محمد بن خاله بن عتبة حدثني موسى بن يعقوب الزمعي حدثني عبد الله بن كيسان أن عبد الله بن شداد أخبره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة» تفرد بروايته الترمذى رحمه الله ثم قال هذا حديث حسن غريب

(حديث آخر) قال إسماعيل القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان بن يعقوب بن زيد بن طلحة قال : قال رسول الله ﷺ «أتاني آت من ربي فقال لي مامن عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشراً» فقام إليه رجل فقال يا رسول الله ألا أجعل نصف دعائي لك؟ قال «إن شئت» قال ألا أجعل ثلثي دعائي لك؟ قال «إن شئت» قال ألا أجعل دعائي لك كله قال «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة» فقال شيخ كان بمكة يقال له منيع لسفيان عمن أسنده قال لأدري (حديث آخر) قال إسماعيل القاضي حدثنا سعيد بن سلام العطار حدثنا سفيان الثوري عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في جوف الليل فيقول «جاءت الراحفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه» فقال أبي يارسول الله إني أصلي من الليل أفأجعل لك ثلث صلاتي؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الثلثان» قال أفأجعل لك صلاتي كلها قال «إذن يغفر لك الله ذنبك كله» وقد رواه الترمذى بنحوه فقال حدثنا هناد حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال «يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله ، جاءت الراحفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه» قال أبي قلت يارسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال «ما شئت» قلت الربع قال «ما شئت فأنزدت فهو خير لك» قلت النصف قال «ما شئت فأنزدت فهو خير لك» قلت أجعل لك صلاتي كلها قال «إذن تكفي همك ويغفر لك ذنبك» ثم قال هذا حديث حسن . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي عن أبيه قال : قال رجل يارسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك؟ قال «إذن يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك» (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي ويونس هو ابن محمد قال حدثنا ليث عن يزيد بن الهاد عن عمرو بن أبي عمر عن أبي الحويرث عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد الرحمن بن عوف قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه : قال فجئت أنظر فرفع رأسه فقال «مالك يا عبد الرحمن؟» قال فذكرت ذلك له فقال «إن جبريل عليه السلام قال لي ألا أبشرك إن الله عز وجل يقول من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه» (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا سليمان بن بلال حدثنا عمرو بن أبي عمر عن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الرحمن بن عوف قال : قام رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود حتى ظننت أن الله قد قبض نفسه فيها فدنوت منه ثم جلست فرفع رأسه فقال «من هذا» قلت عبد الرحمن قال «ما شأنك» قلت يارسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله قبض روحك فيها فقال «إن جبريل أتاني فبشرني أن الله عز وجل يقول لك من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله عز وجل شكراً» ورواه إسماعيل بن إسحق القاضي في كتابه عن يحيى بن عبد الحميد عن الدراوردي عن عمرو بن عبد الواحد عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف به ، ورواه من وجه آخر عن عبد الرحمن (حديث آخر) قال أبو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بجير بن عبد الله بن معاوية بن بجير بن ريان حدثنا يحيى بن أيوب حدثني عبيد الله بن عمر عن الحكم بن عتيبة عن إبراهيم النخعي عن الأسود بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال خرج رسول الله ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه ففرغ عمر فأتاه بمطهرة من خلفه فوجد النبي ﷺ ساجدا في مشربة فتنحى عنه من خلفه حتى رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال «أحسن يا عمر حين وجدتني

ساجدا فتنجيت عني إن جبريل أتاني فقال من صلى عليك من أمتك واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ورفعه عشر درجات» وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المستخرج طي الصحيحين ، وقد رواه إسماعيل القاضي عن القعنبى عن سلمة بن وردان عن أنس عن عمر بنحوه ، ورواه أيضاً عن يعقوب بن حميد عن أنس بن عياض عن سلمة بن وردان عن مالك بن أوس بن الحدثان عن عمر بن الخطاب بنحوه ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد ابن سلمة عن ثابت بن سليمان مولى الحسن بن طي عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه فقالوا يا رسول الله إنا نرى السرور في وجهك فقال «إنه أتاني الملك فقال يا محمد ما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرآ ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرآ قلت ؟ بلى » ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة به ؛ وقد رواه إسماعيل القاضي عن إسماعيل بن أبي أويس عن أخيه عن سليمان بن بلال عن عبيد الله بن عمر عن ثابت عن أنس عن أبيه طلحة بنحوه ﴿طريق أخرى﴾ قال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا أبو معشر عن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبي طلحة الأنصاري قال أصبح رسول الله ﷺ يوم ما طيب النفس يرى في وجهه البشر قالوا يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر قال «أجل أتاني آت من ربي عز وجل فقال من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ؛ ومحامنه عشر سيئات. ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » وهذا أيضاً إسناد جيد ولم يخرجوه . ﴿حديث آخر﴾ روى مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث إسماعيل بن جعفر عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرآ » قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف وعامر بن ربيعة وعمار وأبي طلحة وأنس وأبي بن كعب ، وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا شريك عن ليث عن كعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « صلوا على فانها زكاة لكم وسلوا الله لي الوسيلة فانها درجة في أعلا الجنة ولا يتأهلها إلا رجل ، وأرجو أن أكون أنا هو » تفرد به أحمد وقد رواه البرار من طريق مجاهد عن أبي هريرة بنحوه فقال حدثنا محمد بن إسحاق البكالي حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا داود بن علي عن ليث عن مجاهد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا على فانها زكاة لكم ، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه أو أخبرنا فقال « هي درجة في أعلى الجنة وهي لرجل وأرجو أن أكون ذلك الرجل » في إسناده بعض من تكلم فيه ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن بريح الخولاني سمعت أبا قيس مولى عمرو بن العاص سمعت عبد الله بن عمرو يقول : من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة صلى الله عليه وملائكته لها سبعين صلاة ، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر وسمعت عبد الله بن عمرو يقول خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم ما كالمودع فقال « أنا محمد النبي الأمي — قاله ثلاث مرات — ولا نبى بعدي ، أو تيت فوآخ الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش وتجووز بي عوفيت وعوفيت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه :

﴿حديث آخر﴾ قال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو سلمة الخراساني حدثنا أبو إسحاق عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ذكرت عنده فليصل طي ومن صلى طي مرة واحد صلى الله عليه عشرآ » ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث أبي داود الطيالسي عن أبي سلمة وهو المغيرة بن مسلم الخراساني عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي عن أنس به ﴿حديث آخر﴾ عن أنس قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يونس بن عمرو عن يونس بن أبي إسحاق عن يزيد بن أبي مريم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات » ﴿حديث آخر﴾ قال الإمام أحمد حدثنا عبد الملك ابن عمرو وأبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمارة بن غزية عن عبد الله بن طي بن الحسين عن أبيه علي بن الحسين

عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « البخل من ذكرت عنده لم يصل على » وقال أبو سعيد « فلم يصل على » ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ثم قال هذا حديث حسن غريب صحيح ومن الرواة من جعله من مسند الحسين بن علي ومنهم من جعله من مسند علي نفسه

(حديث آخر) قال إسماعيل القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن معبد بن هلال العنزي حدثنا رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك عن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أبخل الناس من ذكرت عنده فلم يصل على » (حديث آخر) مرسل قال إسماعيل وحدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على » (حديث آخر) قال الترمذى حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي حدثنا ربيع بن إبراهيم عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد القبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة » ثم قال حسن غريب . قلت وقد رواه البخارى فى الأدب عن محمد بن عبيد الله حدثنا ابن أبي حازم عن كثير بن زيد عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه ، ورويناه من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة به قال الترمذى وفى الباب عن جابر وأنس قلت وابن عباس وكعب بن عجرة وفد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام عند قوله (إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) وهذا الحديث والذي قبله دليل على وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوى والحليمى ويتقوى بالحديث الآخر الذى رواه ابن ماجه حدثنا جنادة بن المغلس حدثنا حماد بن زيد حدثنا عمرو بن دينار عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى الصلاة على أخطأ طريق الجنة » جنادة ضعيف ولكن رواه إسماعيل القاضي من غير وجه عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نسى الصلاة على أخطأ طريق الجنة » وهذا مرسل يتقوى بالذى قبله والله أعلم . وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة عليه فى المجلس مرة واحدة ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس بل تستحب نقله الترمذى عن بعضهم ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فان شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » تفرد به الترمذى من هذا الوجه ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون كلاهما عن ابن أبي ذئب عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة مرفوعا مثله ثم قال الترمذى هذا حديث حسن

وقد روى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ من غير وجه وقد رواه إسماعيل القاضي من حديث شعبة عن سليمان عن ذكوان عن أبي سعيد قال « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبي ﷺ إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة وإن دخلوا الجنة لما يرون من الثواب » وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - فى العمر مرة واحدة امتثالا لأمر الآية . ثم هى مستحبة فى كل حال وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الاجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال وقد حكى الطبرى أن عمل الآية على الندب وادعى فيه الاجماع قال ولعله فيما زاد على المرة والواجب فيه مرة كالشهادة له بالنبوة وما زاد على ذلك فمذدوب ومرغب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله [قلت] وهذا قول غريب فانه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة فمنها واجب ومنها مستحب على ما نبينه . فمعه بعد النداء للصلاة للحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة حدثنا كعب بن علقمة أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول إنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إذا سمعتم مؤذنا فتولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلى الله عليه بها

عشرًا ثم سلوا الله لي الوسيلة فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن علقمة (طريق أخرى) قال إسماعيل القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا عمرو بن علي عن أبي بكر الجشمي عن صفوان بن سليم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « من سأل الله لي الوسيلة حقت عليه شفاعتي يوم القيامة » .

(حديث آخر) قال إسماعيل القاضي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا سعيد بن زيد عن ليث عن كعب هو كعب الأحبار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « صلوا على فان صلاتكم على زكاة لكم وسلوا الله لي الوسيلة » قال فإما حدثنا وإما سأله قال « الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا لرجل وأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل » ثم رواه عن محمد بن أبي بكر عن معتمر عن ليث وهو ابن أبي سليم به وكذا الحديث الآخر . قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن سواده عن زياد بن نعيم عن ورقاء الحضرمي عن روفيع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صلى على محمد وقال اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي » وهذا إسناد لا بأس به ولم يخرجوه (أثر حسن) قال إسماعيل القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثني معمر عن ابن طاوس عن أبيه سمعت ابن عباس يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وارفع درجته العليا ، وأعظم سؤله في الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام . إسناد جيد قوى صحيح .

ومن ذلك عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا ليث بن أبي سليم عن عبد الله بن الحسن عن أمه فاطمة بنت الحسين عن جدته فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك » وقال إسماعيل القاضي حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا سفيان بن عمرو التميمي عن سليمان الضبي عن علي بن الحسين قال ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا مررت بالمساجد فصلوا على النبي صلى الله عليه وسلم . وأما الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقد قدمنا الكلام عليها في التشهد الأخير ومذهب إلى ذلك من العلماء منهم الشافعي رحمه الله وأكرمه ، وأحمد ، وأما التشهد الأول فلا يجب فيه قولاً واحداً وهل تستحب ؟ على قولين للشافعي ومن ذلك الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في صلاة الجنائز فان السنة أن يقرأ في التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ، وفي الثانية أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وفي الثالثة يدعو للميت وفي الرابعة يقول اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده قال الشافعي رحمه الله : حدثنا مطرف بن مازن عن معمر عن الزهري أخبرني أبو أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ويخلص الدعاء للجنائز وفي التكبيرات لا يقرأ في شيء منها ثم يسلم سرا في نفسه . ورواه النسائي عن أبي أمامة نفسه أنه قال من السنة فذكره ، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع على الصحيح . ورواه إسماعيل القاضي عن محمد بن الثني عن عبد الأعلى عن معمر عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة في الصلاة على الجنائز فذكره . وهكذا روى عن أبي هريرة وابن عمر والشعبي ومن ذلك في صلاة العيد قال إسماعيل القاضي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام الدستوائي حدثنا حاد بن أبي سليمان عن إبراهيم عن علقمة أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد فقال لهم إن هذا العيد قد دنا فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة وتحمد ربك وتصلي على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم تدعو وتكبر وتفعل مثل ذلك ثم تركع فقال حذيفة وأبو موسى صدق أبو عبد الرحمن إسناد صحيح ، ومن ذلك أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

وسلم قال الترمذى حدثنا أبو داود حدثنا النضر بن شميل عن أبي قررة الأسدي عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك وكذا رواه أيوب بن موسى عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب . ورواه معاذ بن الحارث عن أبي قررة عن سعيد بن المسيب عن عمر مرفوعا ، وكذا رواه رزين ابن معاوية في كتابه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد حتى يصلى على فلا تجعلوني كغمر الراكب صلوا على أول الدعاء وآخره وأوسطه » وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر ابن عبد الله في مسند الإمام عبد بن حميد الكشي حيث قال : حدثنا جعفر بن عون أخبرنا موسى بن عبيدة عن إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال : قال جابر قال لنا رسول الله ﷺ « لا تجعلوني كقدح الراكب إذا علق تعاليقه أخذ قدحه ففلاه من الماء فإن كان له حاجة في الوضوء توضأ ، وإن كان له حاجة في الشرب شرب وإلا هراق ما فيه اجعلوني في أول الدعاء وفي وسط الدعاء وفي آخر الدعاء » وهذا حديث غريب وموسى بن عبيدة ضعيف الحديث ، ومن أكد ذلك دعاء القنوت لما رواه أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر اللهم اهدني فيمن هديت . وعافني فيمن عافيت . وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت . وفقني شرما قضيت . فإنك تقضى ولا يقضى عليك . إنه لا يذل من واليت . ولا يعز من عاديت . تباركت ربنا وتعاليت . وزاد النسائي في سننه بعد هذا وصلى الله على محمد . ومن ذلك أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة . قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن علي الجعفي عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ؛ وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي » قالوا يارسول الله وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرميت ؟ يعني وقد بليت ، قال « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث حسين بن علي الجعفي وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني والنووي في الأدكار (حديث آخر) قال أبو عبد الله بن ماجه حدثنا عمرو بن سواد المصري حدثنا عبد الله بن وهب عن عمرو ابن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عباد بن نسي عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة وإن أحدا لن يصلى على فيه إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » قال قلت وبعد الموت ؟ « قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فبني الله حي يرزق » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع بين عباد بن نسي وأبي الدرداء فإنه لم يذكره والله أعلم وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأمر بالاكثر من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة ولكن في إسنادها ضعف والله أعلم . وروى مرسل عن الحسن البصري فقال إسماعيل القاضي حدثنا سليمان بن حرب حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن البصري يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تأكل الأرض جسد من كلمه روح القدس » مرسل حسن والنووي في الأدكار (١) وقال القاضي وقال الشافعي أخبرنا إبراهيم بن محمد أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة على » هذا مرسل وهكذا يجب على الخطيب أن يصل على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ولا تصح الخطبتان إلا بذلك لأنها عبادة . وذكر الله شرط فيها فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة هذا مذهب الشافعي وأحمد رحمهما الله ومن ذلك أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره صلى الله عليه وسلم قال أبو داود حدثنا ابن عوف هو محمد حدثنا المقرئ حدثنا حيوة عن أبي صخر حميد بن زياد عن يزيد بن عبد الله ابن قسيط عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « مامنكم من أحد يسلم على إلا رد الله على روحه حتى أورد عليه السلام » تفرد به أبو داود وصححه النووي في الأدكار . ثم قال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت

على عبد الله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ولا تجعلوا قبرى عبدا ، وصلوا على فان صلاتكم تبلغني حينما كنتم » تفرد به أبو داود أيضا ، وقد رواه الإمام أحمد عن شريح عن عبد الله بن نافع وهو الصائغ به وصححه النووي أيضا وقد روى من وجه آخر متصلا قال القاضي إسماعيل بن إسحق في كتابه فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عن ابن أبي عمير عن أهل بيته عن علي بن الحسين بن علي أن رجلا كان يأتي كل غداة فيزور قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويصلي عليه ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه طي بن الحسين فقال له علي بن الحسين ما يحملك على هذا ؟ قال أحب السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له علي بن الحسين هل لك أن أحدثك حديثا عن أبي ؟ قال نعم فقال له علي بن الحسين أخبرني أبي عن جدتي أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا قبرى عبدا ولا تجعلوا بيوتكم قبورا وصلوا على وسلموا حينما كنتم فتبلغني صلاتكم وسلامكم » في إسناده رجل مبهم لم يسم ، وقد روى من وجه آخر مرسلا قال عبد الرزاق في مصنفه عن الثوري عن ابن عجلان عن رجل يقال له سهيل عن الحسن بن الحسن بن علي قال رأى قوما عند القبر فهاهم وقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبرى عبدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا على حينما كنتم فان صلاتكم تبلغني » فلعله رأيهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة فهاهم . وقد روى أنه رأى رجلا يفتاب القبر فقال : يا هذا ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سوء . أي الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ وقال الطبراني في معجمه الكبير حدثنا أحمد بن رشدين المصري حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا محمد بن جعفر أخبرني حميد بن أبي زئب عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلوا على حينما كنتم فان صلاتكم تبلغني » ثم قال الطبراني حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان أخبرنا يزيد بن هارون بن أبي شيان عن الحكم بن عبد الله بن خطاب عن أم أنيس بنت الحسن بن علي عن أبيها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أرأيت قول الله عز وجل (إن الله وملائكته يصلون على النبي) - فقال - « إن هذا من المكثوم ولولا أنكم سألتوني عنه ما أخبرتكم ، إن الله عز وجل وكل بملائكته لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي على إلا قال ذاك الملكان غفر الله لك وقال الله وملائكته جوابا لدينك الملكين آمين ، ولا يصلي على أحد إلا قال ذاك الملكان غفر الله لك ويقول الله وملائكته جوابا لدينك الملكين آمين » غريب جدا وإسناده به ضعف شديد . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن سفيان عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان التروى وسليمان بن مهران الأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب به . فأما الحديث الآخر « من صلى على عند قبرى سمعته ، ومن صلى على من بعيد بلغته » ففي إسناده نظر تفرد به محمد بن مروان السدي الصغير وهو متروك عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا . قال أصحابنا ويستحب للحرم إذا لبى وفرغ من تليته أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم رواه الشافعي والدارقطني من رواية صالح بن محمد بن زائدة عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال كان يؤمر الرجل إذا فرغ من تليته أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم على كل حال ، وقال إسماعيل القاضي حدثنا عارم بن الفضل حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا زكريا عن الشعبي عن وهب بن الأجدع قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعا وصلوا عند المقام ركعتين ، ثم اتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت فكبروا سبع مرات تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ومسألة لنفسك ، وعلى المروة مثل ذلك إسناده جيد حسن قوى ، قالوا ويستحب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مع ذكر الله عند الذبح واستأنسوا بقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) قال بعض المفسرين : يقول الله تعالى لا أذكر إلا ذكرت معي وخالفهم في ذلك الجمهور وقالوا هذا موطن يفرد فيه ذكر الله تعالى كما عند الأكل والدخول

والوقوع وغير ذلك مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في حديث آخر قال إسماعيل القاضي حدثنا محمد بن أبي بكر القدي حدثنا عمرو بن هارون عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « صلوا على أنبياء الله ورسله فإن الله بعثهم كما بعثني » في إسناده ضعيفان وهما عمرو بن هارون وشيخه والله أعلم . وقد رواه عبد الرزاق عن الثوري عن موسى بن عبيدة الزبيدي به ، ومن ذلك أنه يستحب الصلاة عليه عند طين الأذن إن صح الخبر في ذلك على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحق بن خزيمة قد رواه في صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى حدثنا عمر بن محمد ابن عبيد الله عن علي بن أبي رافع عن أبيه عن أبي رافع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا طنت أذن أحدكم فليذكرني وليصل علي وليقل ذكر الله من ذكرني بخير » إسناده غريب وفي ثبوته نظر والله أعلم .

(مسألة) وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبي ﷺ كلما كتبه ، وقد ورد في الحديث من طريق كادح بن رحمة بن نهشل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على في كتاب لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمي في ذلك الكتاب » وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة وقد روى من حديث أبي هريرة ولا يصح أيضا ، قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي شيخنا أحسنه موضوعا ، وقد روى نحوه عن أبي بكر وابن عباس ولا يصح من ذلك شيء والله أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه [الجامع الآداب الراوى والسامع] قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيرا ما يكتب اسم النبي صلى الله عليه وسلم من غير ذكر الصلاة عليه كتابة قال : وبلغني أنه كان يصلى عليه لفظا . (فصل) وأما الصلاة على غير الأنبياء فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم في الحديث اللهم صل على محمد وآله وأزواجه وذريته فهذا جائز بالاجماع وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم فقال قائلون يجوز ذلك واحتجوا بقول الله تعالى (هو الذي يصلى عليكم وملائكته) وبقوله (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) وبقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل عليهم) الآية وبحديث عبد الله ابن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال « اللهم صل عليهم » فأناؤه أبي بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبي أوفى » أخرجاه في الصحيحين ، وبحديث جابر أن امرأته قالت يا رسول الله صل على وعلى زوجي فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » قال الجمهور من العلماء لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة لأن هذا قد صار شعارا للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال قال أبو بكر صلى الله عليه أو قال على صلى الله عليه ، وإن كان المعنى صحيحا كما لا يقال قال محمد عز وجل ، وإن كان عزيزا جليلا لأن هذا من شعار ذكر الله عز وجل وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى ولا لجابر وامرأته وهذا مسلك حسن . وقال آخرون لا يجوز ذلك لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء يصلون على من يعتقدون فيهم فلا يقتدى بهم في ذلك والله أعلم ؛ ثم اختلف المانعون من ذلك هل هو من باب التحريم أو الكراهة التنزيهية أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال حكاه الشيخ أبو زكريا النووي في كتاب الأذكار . ثم قال والصحيح الذي عليه الأكثر أنه مكروه كراهة تنزيه لأنه شعار أهل البدع وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا والمعتمد في ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة في لسان السلف بالأنبياء كما أن قولنا عز وجل مخصوص بالله تعالى فكما لا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا جليلا لا يقال أبو بكر أو على صلى الله عليه ؛ هذا لفظ بحروفيه ؛ قال وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا هو في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ولا يفرد به غير الأنبياء فلا يقال على عليه السلام وسواء في هذا الأحياء والأموات وأما الحاضر فيخاطب به فيقال سلام عليك وسلام عليكم أو السلام عليك أو عليكم وهذا مجمع عليه انتهى ما ذكره (قلت) وقد غلب هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب أن يفرد على رضى الله عنه بأن يقال عليه السلام من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه ؛ وهذا وإن كان معناه صحيحا لكن ينبغي أن يسوى بين الصحابة في ذلك فإن

هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه رضى الله عنهم أجمعين قال إسماعيل القاضي حدثنا عبد الله بن عبد الواحد حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثني عثمان بن حكيم بن عباد بن حنيف عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لاتصح الصلاة على أحد إلا على النبي صلى الله عليه وسلم ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة ، وقال أيضا حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي عن جعفر بن برقان قال كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد فإن ناسا من الناس قد اتسموا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناسا من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعائهم للمسلمين عامة ويدعوا ماسوى ذلك . أثر حسن ؛ قال إسماعيل القاضي حدثنا معاذ بن أسد حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا ابن لهيعة حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن نبيه ابن وهب أن كعبا دخل على عائشة رضى الله عنها فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كعب : مامن فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفا بالنهار حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يزفونه . ﴿ فرع ﴾ قال النووي إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول صلى الله عليه فقط ولا عليه السلام فقط ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة وهى قوله (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فالأولى أن يقال ﷺ تسليما

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

يقول تعالى متهددا ومتوعدا من آذاه بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك وإيذاء رسوله بعبث أو بنقص - عيادا بالله من ذلك - قال عكرمة في قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله) نزلت في المصورين . وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر أقبل ليله ونهاره » ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل فهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله وقال العوفى عن ابن عباس في قوله تعالى (إن الذين يؤذون الله ورسوله) نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حى بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشئ ومن آذاه فقد آذى الله كما أن من أطاعه فقد أطاع الله كما قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا إبراهيم بن سعد عن عبيدة بن أبى رائلة الخذاء المجاشعى عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن المغفل المزنى قال : قال رسول الله ﷺ « الله الله في أصحابي لاتخذوهم غرضا بعدى فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » وقد رواه الترمذى من حديث عبيدة بن أبى رائلة عن عبد الرحمن بن زياد عن عبد الله بن المغفل به ، ثم قال وهذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه

وقوله تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) أى ينسبون اليهم ما هم براء منه لم يعملوه ولم يفعلوه (فقد احتملوا بهتاننا وإثما مبينا) وهذا هو البهت الكبير أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم فإن الله عز وجل قد أخبر أنه قد رضى

عن المهاجرين والأنصار ومدحهم وهؤلاء الجبهة الأغبياء يسبونهم ويتقصونهم ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبدأ فهم في الحقيقة منكسو القلوب يذمون المدوحين ويمدحون المذمومين ، وقال أبو داود حدثنا القعني حدثنا عبدالعزيز يعني ابن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أنه قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » وهكذا رواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي به ثم قال حسن صحيح ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سلمة حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن عمار بن أنس عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه « أي الربا أربي عند الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « أربي الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم » ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) ،

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُنْفِئُوا أُخَذُوا وَقُتِلُوا نَتَقِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿

يقول تعالى أمراً رسول الله ﷺ تسليماً أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيبهن ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الاماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد وهو بمنزلة الازار اليوم . قال الجوهرى : الجلباب اللحف ، قالت امرأة من هذيل ترى قتيلها

تمشى النسر إليه وهى لاهية مشى العذارى عليهن الجلابيب

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويدين عينا واحدة ، وقال محمد بن سيرين سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل (يدين عليهن من جلابيبهن) فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى وقال عكرمة تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدينه عليها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهري فيما كتب إلى حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن خثيم عن صفية بنت شيبة عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية (يدين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو صالح حدثني الليث حدثنا يونس ابن يزيد قال وسألناه يعنى الزهري هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة قال عليها الخمار إن كانت متزوجة ونهى عن الجلباب لأنه يكره لمن أن يتشبهن بالحرائر المحصنات وقد قال الله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) ، وروى عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الدمة وإنما نهى عن ذلك لحوف الفتنة لا لحرمتهم واستدل بقوله تعالى (ونساء المؤمنين) وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى إذا فعلن ذلك عرفن أنهم حرائر ، لسن ياماء ولا عواهر . قال السدي في قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قال كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة فيعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها ، وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها ،

وقال مجاهد يتجلبن فيعلم أنهم حرائر فلا يتعرض لمن فاسق بأذى ولا ريبة ، وقوله تعالى (وكان الله غفورا رحيما)
أى لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ، ثم قال تعالى متوعداً للنافقين وهم الذين يظهرون
الإيمان ويبتلون الكفر (والذين في قلوبهم مرض) قال عكرمة وغيره هم الزناة ههنا (والمرجفون في المدينة)
يعنى الذين يقولون جاء الأعداء وجاءت الحروب وهو كذب وافتراء لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق
(لغرينك بهم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أى لنسلطنك عليهم . وقال قتادة لنحرشك بهم ، وقال السدى
لنعلمك بهم (ثم لا يجاورونك فيها) أى في المدينة (إلا قليلا * ملعونين) حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة
قرية مطرودين . مبعدين (أينما ثقفوا) أى وجدوا (أخذوا) لذتهم وقتلهم (وقتلوا تقتيلا) ثم قال تعالى (سنة الله
في الدين خلوا من قبل) أى هذه سنته في النافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان
يسلطون عليهم ويقهرونهم (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى سنة الله في ذلك لا تبدل ولا تغير

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ
الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ
يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا
آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده
أن يرد عليها إلى الله عز وجل كما قال الله تعالى في سورة الأعراف وهى مكية وهذه مدنية فاستمر الحال في رد علمها
إلى الذى يقيها لكن أخبره أنها قريبة بقوله (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) كما قال تعالى (اقتربت
الساعة وانشق القمر) وقال (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) وقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ثم
قال (إن الله لعن الكافرين) أى أبعدهم من رحمته (وأعد لهم سعيرا) أى في الدار الآخرة (خالدين فيها
أبدا) أى ما كثرين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها (لا يجدون وليا ولا نصيرا) أى وليس
لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ثم قال (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا)
أى يسحبون في النار على وجوههم وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا
ممن أطاع الله وأطاع الرسول كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله (ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى
اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتنا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان
للإنسان خذولا) وقال تعالى (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم
يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا (وقالوا ربنا أظعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا)
وقال طاوس : ساداتنا يعنى الأشراف وكبراءنا يعنى العلماء رواه ابن أبى حاتم أى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء
من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئا وأنهم على شىء فإذا هم ليسوا على شىء (ربنا آتتهم ضعفين من العذاب)
أى بكفرهم وإغوائهم إيانا (والعنهم لعنا كبيرا) قرأ بعض القراء بالباء الموحدة ، وقرأ آخرون بالثاء الثلاثة وهما قريبا
المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبابكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعوه به في صلاتى قال « قل اللهم إنى ظلمت
نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم » أخرجه في
الصحيحين ، يروى كثيرا وكبارا وكلاهما بمعنى صحيح واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين في دعائه وفى ذلك
نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة وهذا تارة كما أن القارىء مخير بين القراءتين أيهما قرأ أحسن وليس له الجمع بينهما

والله أعلم وقال أبو التماس الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا ضرار بن صرد حدثنا علي بن هاشم عن عبيد الله ابن أبي رافع عن أبيه في تسمية من شهد مع علي رضي الله عنه الحجاج بن عمرو بن غزيرة وهو الذي كان يقول عند اللقاء يا معشر الأنصار أتريدون أن تقولوا لرَبنا إذا لقيناه (رَبنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * رَبنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن الحسن ومحمد وخلاس عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن موسى كان رجلا حيا وذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصرا جدا وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن موسى عليه السلام كان رجلا حيا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب في جلده إما برص وإما أدرة وإما آفة . وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملا من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله عز وجل وأبراه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعاً أو خمسا — قال — فذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) » وهذا سياق حسن مطول وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عوف عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم . وخلاس ومحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلا حيا ستيرا لا يكاد يرى من جلده شيء استحياء منه . » ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولا ورواه عنه في تفسيره عن روح عن عوف به . ورواه ابن جرير من حديث الثوري عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحو هذا . وهكذا رواه من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبيرة وعبد الله بن الحارث عن ابن عباس في قوله (لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قال : قال قومه له إنك آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على صخرة فخرجت الصخرة تشتد بشيابه وخرج يتبعها عريانا حتى انتهت به مجالس بني إسرائيل قال فرأوه ليس بأدر فذلك قوله (فبرأه الله مما قالوا) وهكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما سواء . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المولى الأديمي قالا حدثنا يحيى بن حماد حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « كان موسى عليه السلام رجلا حيا وإنه أتى — أحسبه قال الماء — ليغتسل فوضع ثيابه على صخرة وكان لا يكاد تبدا عورته فقال بنو إسرائيل إن موسى آدر أو به آفة — يعنون أنه لا يضع ثيابه — فأحتملت الصخرة ثيابه حتى صارت بجذء مجالس بني إسرائيل فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال أو كما قال — فذلك قوله (فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن سعيد ابن جبيرة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في قوله (فبرأه الله مما قالوا) قال سعد موسى وهارون الجبل فمات هارون عليه السلام فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام أنت قتلتها كان ألين لنا منك وأشد حياء فأذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فجعلته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته فما عرف موضع قبره إلا الرخم وإن الله جعله أصم أبكم وهكذا رواه ابن جرير عن علي بن موسى الطوسي عن عباد بن العوام به ثم قال وجائز أن

يكون هذا هو المراد بالأذى وجائز أن يكون الأول هو المراد فلا قول أولى من قول الله عز وجل [قلت] يحتمل أن يكون السكل مراداً وأن يكون معه غيره والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت يا عدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فاحمر وجهه ثم قال « رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » أخرجه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش به (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبي هشام مولى همدان عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه قال فررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه والله ما أراد محمد بقسمته وجهه الله ولا الدار الآخرة قال فثبت حتى سمعت ما قالاً ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إنك قلت لنا « لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً » وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ؛ فاحمر وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ثم قال « دعنا منك لقد أودى موسى بأكثر من هذا فصبر » وقدرناه أبو داود في الأدب عن محمد بن يحيى الذهلي عن محمد بن يوسف الفريابي عن إسرائيل عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وكذا رواه الترمذي في المناقب عن الذهلي سواء إلا أنه قال زيد بن زائدة ، ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل عن عبد الله بن محمد عن عبيد الله بن موسى وحسين بن محمد كلاهما عن إسرائيل عن السدي عن الوليد بن أبي هشام به مختصراً أيضاً فزاد في إسناده السدي ثم قال غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (وكان عند الله وجيهاً) أي له وجهة وجاء عند ربه عز وجل . قال الحسن البصري كان مستجاب الدعوة عند الله وقال غيره من السلف لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل . وقال بعضهم من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه فأجاب الله سؤاله فقال (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه وأن يقولوا (قولاً سديداً) أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أنابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم أي يوفقهم للأعمال الصالحة وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً) وذلك أنه يجاز من نار الجحيم ويصير إلى النعيم المقيم . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو ابن عوف حدثنا خالد عن ليث عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الظهر فلما انصرف أوماً إلى بنيائده فجلسنا فقال « إن الله تعالى أمرني أن آمركم أن تتقوا الله وتقولوا قولاً سديداً » ثم أتى النساء فقال « إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولاً سديداً » وقال ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى حدثنا محمد بن عباد بن موسى حدثنا عبد العزيز بن عمران الزهري حدثنا عيسى بن سبرة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت ما قام رسول الله ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً) الآية غريب جداً ، وروى عبد الرحيم بن زيد العمى عن أبيه عن محمد بن كعب عن ابن عباس موقوفاً : من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ، قال عكرمة القول السديد لا إله إلا الله وقال غيره السديد الصدق وقال مجاهد هو السداد وقال غيره هو الصواب والسكل حق

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿

قال العوفي عن ابن عباس يعني بالأمانة الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقها فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت فأخذها آدم فتحملها فذلك قوله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض عرضها الله على السموات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا عليه من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله أن لا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله تعالى (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) يعني غرا بأمر الله ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) قال عرضت على آدم فقال خذها بما فيها فإن أطعت غفرت لك وإن عصيت عذبتك قال قبلت فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريبا من هذا وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه والله أعلم . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون هي الطاعة وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال أبي بن كعب من الأمانة أن المرأة تؤتمت على فرجها . وقال قتادة الأمانة الدين والفرائض والحدود ؛ وقال بعضهم الفصل من الجنبات ، وقال مالك عن زيد ابن أسلم قال الأمانة ثلاثة ، الصلاة والصوم والاعتسال من الجنبات وكل هذه الأقوال لاتنافي بينها بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله وبالله المستعان ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد العزيز بن المغيرة البصري حدثنا حماد بن واقد يعني أباعمر الصفار سمعت أبا معمر يعني عون بن معمر يحدث عن الحسن يعني البصري أنه تلا هذه الآية (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) قال عرضها على السبع الطبايق الطرائق التي زينت بالنجوم ، وحمة العرش العظيم ، فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال قيل لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت قالت : لا ، ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التي شدت بالأوتاد ، وذلك بالمهاد ، قال فقيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال قيل لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، قالت لا ، ثم عرضها على الجبال الشم الشوامخ الصعاب الصلاب قال قيل لها هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت وما فيها ؟ قال لها إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت قالت : لا . وقال مقاتل بن حيان إن الله تعالى حين خلق خلقه جمع بين الإنس والجن والسموات والأرض والجبال فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهي الطاعة فقال لمن أتحملن هذه الأمانة ولكن على الفضل والكرامة والثواب في الجنة ؟ فقلن يارب إنا لا نستطيع هذا الأمر وليس بنا قوة ولكننا لك مطيعين ، ثم عرض الأمانة على الأرضين فقال لمن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها مني وأعطيتكن الفضل والكرامة في الدنيا ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يارب ولا نطق ولكنك سامعين مطيعين لانصيتك في شيء أمرتنا به . ثم قرب آدم فقال له أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم مالى عندك ؟ قال يا آدم إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب في الجنة ، وإن عصيت ولم ترعها حق رعايتها وأسأت فإني معذبك ومعاقبك وأنزلك النار ، قال : رضيت يارب وتحملها فقال الله عز وجل عند ذلك

[illegible]

(١) قوله خمس الخ كذا في النسخ التي بأيدينا ولم يذكر المحس كلها هنا فلعله اختصر الحديث اهـ .

الودائع . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق وقال شريك وحدثنا عياش العامري عن زاذان عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يذكر الأمانة في الصلاة وفي كل شيء اسناده جيد ولم يخرجوه . وما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الجمل كجمر دحرجته على رجله تراه منتبرا وليس فيه شيء - قال ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال إن فى بنى فلان رجلا أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما فى قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه فأما اليوم فما كنت أباليع منكم إلا فلانا وفلانا . وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش به . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليفة وعفة طعمة » هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنها ، وقد قال الطبرانى فى مسنده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، حدثنا يحيى بن أيوب العلاف المصرى حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن ابن حجرية عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا حفظ أمانة وصدق حديث وحسن خليفة وعفة طعمة » فزاد فى الاسناد ابن حجرية وجعله فى مسند ابن عمر رضى الله عنهما وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة قال عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد حدثنا شريك عن أبى إسحاق الشيبانى عن خناس بن سحيم أو قال جبلة بن سحيم قال أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية فقلت فى كلامى لاو الأمانة فجعل زياد ييكى وييكى فظننت أنى أوتيت أمراً عظيماً فقلت له أ كان يكره هذا ؟ قال : نعم ، كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع قال أبو داود حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثنا زهير حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى عن ابن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف بالأمانة فليس منا » تفرد به أبو داود رحمه الله ، وقوله تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى إنما حمل بنى آدم الأمانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهلهم ويبتغون الكفر متابعة لأهلهم (والمشركين والمشركات) وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى ويرحم المؤمنين من الخلق الذى آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته (وكان الله غفوراً رحيماً) آخر تفسير سورة الأحزاب والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة سبا وهى مكة ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلْجِئُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق فى الدنيا والآخرة لأنه النعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ،

المالك لجميع ذلك الحاكم في جميع ذلك كما قال تعالى (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون) ولهذا قال تعالى ههنا (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أى الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرفه وقهره كما قال تعالى (وإن لنا للآخرة والأولى) ثم قال عز وجل (وله الحمد في الآخرة) فهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى وقوله تعالى (وهو الحكيم) أى فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره (الحبيب) الذى لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء وقال مالك عن الزهري: خير بخلقه حكيم بأمره، ولهذا قال عز وجل (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض والحب المبدور والكامن فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك عدده وكيفيته وصفاته (وما ينزل من السماء) أى من قطر ورزق، وما يعرج فيها أى من الأعمال الصالحة وغير ذلك (وهو الرحيم الغفور) أى الرحيم بعباده فلا يعاجل عصايتهم بالعقوبة الغفور عن ذنوب التائبين إليه التوكلين عليه

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ * وَيَرَىٰ الَّذِينَ ءَاتَوْا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد، فأحدهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أتم معجزين) والثانية هذه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) والثالثة فى سورة التغابن وهى قوله تعالى (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) فقال تعالى (قل بلى وربى لتأتينكم) ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا كتاب مبين) قال مجاهد وقتادة لا يعزب عنه لا يغيب عنه أى الجميع مندرج تحت علمه فلا تخفى عليه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ثم يعيدها كما بدأها أول مرة فانه بكل شيء عليم. ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) أى سعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله (أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى لينعم السعداء من المؤمنين ويعذب الأشقياء من الكافرين كما قال عز وجل (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال تعالى (أم نجعل الذى آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار)

وقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ويقولون يومئذ أيضاً (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) يقال أيضاً (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث) (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) العزيز هو المنيع الجنب الذى لا يغالب ولا يمانع بل قد قهر كل شيء وغلبه الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُدَّبُّكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مَمْزَقٍ إِنَّكُمْ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل ممزق) أى تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق (إنكم) أى بعد هذا الحال (لنى خلق جديد) أى تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحى إليه ذلك أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على العتوة والمجنون ولهذا قالوا (أفترى على الله كذباً أم به جنة) قال الله عز وجل راداً عليهم (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه بل محمد صلى الله عليه وسلم هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق، وهم الكذبة الجهالة الأغبياء (فى العذاب) أى الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله تعالى (والضلال البعيد) من الحق فى الدنيا ثم ، قال تعالى منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض فقال تعالى (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) أى حينما توجهوا وذهبوا فالسما مظة عليهم والأرض تحته كما قال عز وجل (والسماء بئناها بأيدي وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون) : قال عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) قال إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك أو من بين يديك أو من خلفك رأيت السماء والأرض . وقوله تعالى (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء) أى لو شئنا لعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ولكن نؤخر ذلك لحملنا وعفونا ثم قال (إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) قال معمر عن قتادة (منيب) تائب ؟ وقال سفيان عن قتادة: المنيب المقبل إلى الله تعالى أى إن فى النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن ليب رجاء إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضين فى انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى) وقال تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحُدَيْدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَبْعِينَ وَفَرْدَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام بما آتاه من الفضل المبين وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذى كان إذا سبج به تسبج معه الجبال الراسيات . الصم الشامحات ، وتقف له الطيور السارحات : والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه يقرأ من الليل فوق فاستمع لقراءته ثم قال صلى الله عليه وسلم « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » وقال أبو عثمان

النهدى ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أنى موسى الأشعري رضى الله عنه ، ومعنى قوله تعالى (أوبى) أى سبجى قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد وزعم أبو ميسرة أنه بمعنى سبجى بلسان الحبشة وفى هذا نظر فان التأويب فى اللغة هو الترجيع فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه - الجمل - فى باب النداء منه (يا جبال أوبى معه) أى سبرى معه بالنهار كله والتأويب سير النهار كله ، والإسآد سير الليل كله وهذا لفظه وهو غريب جداً لم أره لغيره وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة لكنه بعيد فى معنى الآية ههنا والصواب أن المعنى فى قوله تعالى (أوبى معه) أى رجعى مسبحة معه كما تقدم والله أعلم وقوله تعالى (وألنا له الحديد) قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش وغيرهم كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ولهذا قال تعالى (أن اعمل سابغات) وهى الدروع قال قتادة وهو أول من عملها من الخلق وإنما كانت قبل ذلك صفائح ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا ابن مسمعة حدثنا ابن ضمرة عن ابن شاذان قال : كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم ألفين له ولأهله وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحوارى (وقدر فى السرد) هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فى تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد فى قوله تعالى (وقدر فى السرد) لاتدق المسار فيقلق فى الحلقة ولا تغلظه فيقصمها واجعله بقدر ، وقال الحكم بن عيينة لا تغلظه فيقصم ولا تدقه فيقلق ، وهكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : السرد : حلق الحديد . وقال بعضهم يقال درع مسرودة إذا كانت مسمورة الحلق واستشهد بقول الشاعر :

وعليهما مسرودتان قضاها داود أو صنع السوابغ تبع

وقد ذكر الحافظ ابن عسكراً فى ترجمة داود عليه الصلاة والسلام من طريق إسحاق بن بشرويه كلام عن أبى الياس عن وهب بن منبه ما مضمونه أن داود عليه السلام كان يخرج متنكراً فيسأل الركبان عنه وعن سيرته فلا يسأل أحداً إلا أثنى عليه خيراً فى عبادته وسيرته وعدله عليه السلام ، قال وهب حتى بعث الله تعالى ملكاً فى صورة رجل فلقبه داود عليه الصلاة والسلام فسأله كما كان يسأل غيره فقال هو خير الناس لنفسه ولأمته إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً قال ما هى ؟ قال يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين يعنى بيت المال فعند ذلك نصب داود عليه السلام إلى ربه عز وجل فى الدعاء أن يعلمه عملاً بيده يستغنى به ويغنى به عياله فالأن الله عز وجل له الحديد وعلمه صنعة الدروع فعمل الدروع وهو أول من عملها فقال الله تعالى (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) يعنى مساميرا الحلق ، قال وكان يعمل الدرع فإذا ارتفع من عمله درع باعها فتصدق بثلاثها واشترى بثلاثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوماً بيوم إلى أن يعمل غيرها وقال إن الله تعالى أعطى داود شيئاً لم يعطه غيره من حسن الصوت إنه كان إذا قرأ الزبور تجتمع الوحوش إليه حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفرو ما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته عليه السلام وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكان قد أعطى سبعين مزمارة فى حلقه ، وقوله تعالى (واعملوا صالحاً) أى فى الذى أعطاكم الله تعالى من النعم (إني بما تعملون بصير) أى مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى على من ذلك شيء

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوْحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له

تحمل يساطه غدوها شهر ورواحها شهر . قال الحسن البصري كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل باصطخر يتغدى بها ويذهب رائحا من اصطخر فبييت بكابل ، وبين دمشق واصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين اصطخر وكابل شهر كامل للمسرع . وقوله تعالى (وأسلنا له عين القطر) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد القطر النحاس قال قتادة وكانت باليمن فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام ، قال السدي وإنما أسيلت له ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه) أى وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه أى بقدره وتسخيرهم لهم بمشيئته ما يشاء من البنات وغير ذلك (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أى ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة (نذقه من عذاب السعير) وهو الحريق . وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثا غريبا فقال حدثنا أبي حدثنا أبو صالح حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزهراء عن جبير بن نفير عن أبي ثعلبة الحشني رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الجن على ثلاثة أصناف صنف لهم أجنحة يطرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون » رفعه غريب جدا . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا حرمة حدثنا ابن وهب أخبرني بكر بن مضر عن محمد بن بحير عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة أصناف صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض وصنف حيات وكلاب . قال بكر بن مضر ولا أعلم إلا أنه قال حدثني أن الإنس ثلاثة أصناف ، صنف يظلمهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين . وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة يعني ابن الفضل عن إسماعيل عن الحسن قال الجن ولد إبليس والإنس ولد آدم ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولي الله تعالى ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وقوله تعالى (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) أما المحاريب فهي البناء الحسن وهو أشرف شيء في المسكن وصدرة وقال مجاهد المحاريب بزيان دون القصور . وقال الضحاك هي المساجد وقال قتادة هي القصور والمساجد وقال ابن زيد هي المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفي والضحاك والسدي التماثيل الصور . قال مجاهد وكانت من نحاس وقال قتادة من طين وزجاج وقوله تعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات) الجواب جمع جابية وهي الحوض الذي يجبي فيه الماء كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تروح على آل الملق جفنة كجاية الشيخ العراقي تفهق

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (كالجواب) أى كالجوبة من الأرض وقال العوفي عنه كالحياض وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . والقدرور الراسيات أى الثابتات فى أما كنها لا تتحرك ولا تتحول عن أما كنها لعظمها كذا قال مجاهد والضحاك وغيرهما وقال عكرمة أنا فيها منها وقوله تعالى (اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم اعملوا شكرا على ما أنعم به عليكم فى الدين والدنيا ، وشكرا مصدر من غير الفعل أو أنه مفعول له وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر والصيام شكر وكل خير عمله لله عز وجل شكر وأفضل الشكر الحمد رواه ابن جرير وروى هو وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل . وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي بكر حدثنا جعفر بن يعنى ابن سليمان عن ثابت البناني قال كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة فكان لا تأتى عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فعمرتهم هذه الآية (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ

أنه قال « إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى » . وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سعيد بن داود حدثنا يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان يا بنى لا تسكثر النوم بالليل فان كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة » وروى ابن أبي حاتم عن داود عليه الصلاة والسلام ههنا أثراً غريباً مطولاً جداً ، وقال أيضاً حدثنا أنى حدثنا عمران بن موسى حدثنا أبو زيد قبيصة بن إسحق الرقي قال : قال فضيل في قوله تعالى (اعملوا آل داود شكراً) قال داود يارب كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال « الآن شكرتني حين علمت أن النعمة منى » وقوله تعالى (وقليل من عبادى الشكور) إخبار عن الواقع

﴿ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْدَسَاتِهِ فَمَلَأَ خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته على الجن المسخرين له في الأعمال الشاقة فانه مكث متوكئاً على عصاه وهى منسأته كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحو من سنة فلما أكلتها دابة الأرض وهى الأرضة ضعفت وسقطت إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك . وقد ورد في ذلك حديث مرفوع غريب وفي صحته نظر . قال ابن جرير حدثنا أحمد بن منصور حدثنا موسى بن مسعود حدثنا أبو حذيفة حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال « كان نبي الله سليمان عليه السلام إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك ؟ فتقول كذا فيقول لأى شيء أنت فان كانت تعرس غرس وإن كانت لدواء كتبت ، فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها ما اسمك ، قالت الحروب قال لأى شيء أنت ؟ قالت لخراب هذا البيت فقال سليمان عليه السلام اللهم عم على الجن موته حتى يعلم الإنسان أن الجن لا يعلمون الغيب ففتحها عصاً فتوكلأ عليها حولاً ميتاً والجن تعمل ، فأكلتها الأرضة فتبينت الإنسان أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاً في العذاب المهين » قال وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال فشكرت الجن للأرضة فكانت تأتئها بالماء وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث إبراهيم بن طهمان به وفي رفعه غرابية ونكارة والأقرب أن يكون موقفاً وعطاء بن أبي مسلم الخراساني له غرابيات وفي بعض حديثه نكارة . وقال السدي في حديثه نكارة وقال السدي في حديث ذكره عن أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود رضى الله عنه وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنهم قال : كان سليمان عليه الصلاة والسلام يتحرر في بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين وأقل من ذلك وأكثر فيدخل فيه ومعه طعامه وشرابه فأدخله في المرة التي توفي فيها فكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا ينبت الله في بيت المقدس شجرة فيأتئها فيسألها ما اسمك فتقول الشجرة اسمي كذا وكذا فان كانت لغرس غرسها وإن كانت تنبت دواء قالت نبت دواء كذا وكذا فيجعلها كذلك ، حتى تنبت شجرة يقال لها الحروب فسألها ما اسمك قالت أنا الحروب قال ولأى شيء نبت قالت نبت الخراب هذا المسجد قال سليمان عليه الصلاة والسلام ما كان الله ليخربه وأناحي أنت التي طى وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس فزعها وغرسها في حائط له ثم دخل الخراب فقام يصلى متكئاً على عصاه فمات ولم تعلم به الشياطين وهم في ذلك يعملون له يخافون أن يخرج عليهم فيعاقبهم ، وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب وكان المحراب له كوى بين يديه وخلفه فكان الشيطان الذي يريد أن يخلع يقول ألسنت جلدنا إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر فدخل شيطان من أولئك فمر ولم يكن شيطان ينظر

إلى سليمان عليه السلام في الحراب إلا احترق فمر ولم يسمع صوت سليمان ثم رجع فلم يسمع ثم رجع فوقع في البيت ولم يحترق ونظر إلى سليمان عليه السلام قد سقط ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه فأخرجوه . ووجدوا منسأته وهي العصا بلسان الحبشة قد أكلتها الأرضة ولم يعلموا منذ كم مات فوضعوا الأرضة على العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه قد مات منذ سنة وهي في قراءة ابن مسعود رضى الله عنه . فمكثوا يدينون له من بعدهم حوله كاملاً ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم يطلعون على الغيب لعلوا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب سنة يعملون له ؛ وذلك قول الله عز وجل (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خربت بين الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) يقول تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ولكننا سنقل إليك الماء والطين قال فهم يقولون إلهنا ذلك حيث كانت ، قال ألم تر إلى الطين الذي يكون في جوف الحشب ! فهو ما تنهأ به الشياطين شكرها لها ، وهذا الأثر والله أعلم إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب وهي وقف لا يصدق منه إلا ما وافق الحق ولا يكذب منها إلا ما خالف الحق والباقي لا يصدق ولا يكذب ، وقال ابن وهب وأصنع بن الفرج عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في قوله تبارك وتعالى (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) قال : قال سليمان عليه السلام للملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فأنا فقال : يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سوية فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير وليس له باب فقام يصلى فاتكأ على عصاه ، قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متكئ على عصاه ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت ، قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حتى قال فبعث الله عز وجل دابة الأرض قال والدابة تأكل العيدان يقال لها القادح فدخلت فيها فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر ميتاً ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا قال فذلك قوله تعالى (ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) قال أصنع بلغني عن غيره أنها قامت سنة تأكل منها قبل أن يخر ، وذكر غير واحد من السلف نحوه من هذا والله أعلم

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التابعة منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم ونمازهم وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بأرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر كما سيأتي إن شاء الله تعالى تفصيله وبيان قريبا وبه الثقة ، قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن وعلة قال سمعت ابن عباس يقول إن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم « بل هو رجل ولده عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فإخم وجذام وعاملة وغسان » ورواه عن عبد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة به وهذا إسناد حسن ولم يخرجوه وقد روى الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب القصد والأهم ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم - من حديث ابن لهيعة عن علقمة بن وعلة عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر وقال الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أبو جناب يحيى بن أبي حية السكابي عن

ابن هارون عن عروة عن فروة بن مسيك رضى الله عنه قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » فلما وليت دعاني فقال « لاتقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » فقلت يا رسول الله أرايت سبأ وادهو أو جبل أوماهو ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لا بل هو رجل من العرب ولد له عشرة فتيا من ستة وتشاءم أربعة تيا من الأزدي والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار الذين يقال لهم بجيلة وخثعم ، وتشاءم لحم وجذام وعاملة وغسان » وهذا أيضا إسناد حسن وإن كان فيه أبو جناب السكبي وقد تكلموا فيه لكن رواه ابن جرير عن أبي كريب عن العنقري عن أسباط بن نصر عن يحيى بن هاني المرادي عن عمه أو عن أبيه - شك أسباط - قال قدم فروة بن مسيك رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره (طريق أخرى) لهذا الحديث : قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة عن توبة بن نمير عن عبد العزيز بن محي أنه أخبره قال كنت عند عبيدة بن عبد الرحمن بأفريقية فقال يوما ما أظن قوما بأرض إلا وهم من أهلها فقال علي بن أبي رباح كلا قد حدثني فلان أن فروة بن مسيك الغطيفي رضى الله عنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن سبأ قوم كان لهم عز في الجاهلية وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفأقاتلهم فقال ﷺ « ما أمرت فيهم بشيء بعد » فأنزلت هذه الآية (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) الآيات فقال له رجل يا رسول الله ماسبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذي قبله أن رسول الله ﷺ سئل عن سبأ ؟ ما هو أبلد أم رجل أم امرأة ؟ قال ﷺ « بل رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام أربعة أما الجانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير غير ما حلها وأما الشام فلخم وجذام وغسان وعاملة » فيه غرابة من حيث ذكر نزول الآية بالمدينة والسورة مكية كلها والله سبحانه وتعالى أعلم

(طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثنا الحسن بن الحكم حدثنا أبو سبرة النخعي فروة بن مسيك الغطيفي رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ ما هو أرض أم امرأة ؟ قال ﷺ « ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد له عشرة من الولد فتيا من ستة وتشاءم أربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وعاملة وغسان وأما الذين تيا منوا فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وحمير وأنمار » فقال رجل ما أنمار ؟ قال ﷺ « الذين منهم خثعم وبجيلة » ورواه الترمذي في جامعه عن أبي كريب وعبد بن حميد قال حدثنا أبو أسامة فذكره أبسط من هذا ثم قال هذا حديث حسن غريب . وقال أبو عمر بن عبد البر حدثنا عبد الوارث بن سفيان حدثنا قاسم بن أصبغ حدثنا أحمد بن زهير حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا ابن كثير هو عثمان بن كثير عن الليث بن سعد عن موسى بن علي عن يزيد بن حصين عن تميم الداري رضى الله عنه قال إن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن سبأ فذكر مثله فتوى هذا الحديث وحسن . قال علماء النسب - منهم محمد بن إسحاق - اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب وكان يقال له الرائي لأنه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمى الرائي ، والعرب تسمى المال ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه المتقدم وقال في ذلك شعرا :

سيملك بعدنا ملكا عظيما	نبي لا يرخس في الحرام	ويملك بعده منهم ملوك
يديسون القياد بكل دامي	ويملك بعدهم منا ملوك	يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي	تقي يحب خيرا الأنام	يسمى أحمداً ياليت أني
أعمر بعد مبعثه بعام	فأعضده وأحبوه بنصري	بكل مدحج وبكل رام

مق يظهر فكونوا ناصريه ومن يلقاه يبلغه سلامي

ذكر ذلك الهمداني في كتاب - الاكليل - واختلفوا في قحطان على ثلاثة أقوال (أحدها) أنه من سلالة إرم ابن سام بن نوح واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاثة طرائق (والثاني) أنه من سلالة عابر وهو هود عليه

الصلاة والسلام واختلفوا أيضا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا (والثالث) أنه من سلالة إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر الثمري رحمة الله تعالى عليه في كتابه للمسمى - الانباء على ذكر أصول القبائل الرواه - ومعنى قوله عليه السلام « كان رجلا من العرب » يعنى العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل عليه الصلاة والسلام من سلالة سام بن نوح ، وعلى القول الثالث كان من سلالة الخليل عليه السلام وليس هذا بالمشهور عندهم والله أعلم . ولكن في صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بنفر من أسلم ينتضلون فقال « ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا » فأسلم قبيلة من الأنصار - والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ - نزلوا يثرب لما تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عز وجل عليهم سيل العرم ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم غسان بما نزلوا عليه قيل باليمن ، وقيل إنه قريب من المشلل كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه

إما سألت فانا معشر نجب الأزد نسبتنا والماء غسان

ومعنى قوله عليه السلام « ولد له عشرة من العرب » أى كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن لأنهم ولدوا من صلبه بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل وأكثر كما هو مقرر مبين في مواضعه من كتب النسب . ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم « فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة » أى بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من أقام ببلادهم ومنهم من نزع عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنيل وهو الذى تخترق فيه الثمار فيساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرة ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون أنه لم يكن يبلدهم شئ من الدباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شئ من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدهم ويعبدوه كما قال تبارك وتعالى (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية) ثم فسرها بقوله عز وجل (جنتان عن يمين وشمال) أى من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك (كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله تعالى (فأعرضوا) أى عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال المهدد لسليمان عليه الصلاة والسلام (وجئتكم من سبأ نبيا يقين * إني وجدت امرأة تملككم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم * وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدم عن السبيل فهم لا يهتدون) وقال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه بعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبيا ، وقال السدى أرسل الله عز وجل إليهم اثني عشر ألف نبى والله أعلم . وقوله تعالى (فأرسلنا عليهم سيل العرم) المراد بالعرم المياه ، وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب اضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع وسعيد كرز ، حكى ذلك السهيلي . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بارسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ فقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يحدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنابير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنابير وولجت إلى السد فقبته فانهار عليهم وقال قتادة وغيره الجرذ هو الخلد تقبى أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادى وخرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن

الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأتيقة النضرة كما قال الله تبارك وتعالى (وبدلناهم بجنتين ذواتي أكل خبط) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقتادة والسدي وهو الأراك وأكلة البربر (وأثل) قال العوفي عن ابن عباس هو الطرفاء . وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم . وقوله (وشيء من سدر قليل) لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر (قال شيء من سدر قليل) فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والتمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ، ولهذا قال تعالى (ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نحازي إلا الكفور) أي عاقبناهم بكفرهم قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصري صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس لا يناقش إلا الكفور . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو البيداء عن هشام بن صالح التغلبي عن ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه قال : جزاء العصية الوهن في العبادة والضيق في العيشة والتعسر في اللذة قيل وما التعسر في اللذة ؟ قال لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من ينغصنه إياها

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَهَرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخيه ، والأما كن الآمنة والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ولهذا قال تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) قال وهب بن منبه هي قرى بصنعاء ، وكذا قال أبو مالك ، وقال مجاهد والحسن وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن أسلم وقتادة والضحاك والسدي وابن زيد وغيرهم يعني قرى الشام يعنون أنهم كانوا يسرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ، وقال العوفي عن ابن عباس القرى التي باركنا فيها بيت المقدس ، وقال العوفي عنه أيضا هي قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أي بيعة واضحة يعرفها المسافرون يقبلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى (وقدرنا فيها السير) أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه (سيروا فيها ليلًا وأيامًا آمنين) أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارًا (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) وقرأ آخرون (بعدين أسفارنا) وذلك أنهم بطروا هذه النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسوى وما يشتهون من مآكل ومشرب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم (أنستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وقال عز وجل (وكم أهلكنامن قرية بطرت معيشتها) وقال تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) . وقال تعالى في حق هؤلاء (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم) أي بكفرهم (فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أي جعلناهم حديثا للناس وسمرا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد

ههنا وههنا ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا تفرقوا أيدي سبا وأيدي سبا وتفرقوا شذر مذر
وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال سمعت أبي يقول
سمعت عكرمة يحدث بحديث أهل سبا قال (لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال - إلى قوله
تعالى - فأرسلنا عليهم سيل العرم) وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشيء
من أخبار السماء . فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلمهم
فلم يدر كيف يصنع لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنييه وهو أعزهم أخوالا يا بني إذا كان غدا وأمرتك
بأمر فلا تفعله فإذا اتهرت فأتهمني ، فإذا لطمتك فاطمئي ، قال يا أبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد ،
قال يا بني قد حدث أمر لا بد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك ، فلما أصبحوا واجتمع الناس قال يا بني افعل كذا
وكذا فأبى فأتهمه أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلفطمه فوثب على أبيه فلفطمه فقال ابني يلمطني ؟
على الشفرة ، قالوا ما تصنع بالشفرة ؟ قال أذبجه ، قالوا تريد أن تدبج ابنك : الطمه أو اصنع ما بدالك قال فأبى قال
فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذنا ما بدالك فأبى إلا أن يذبجه قالوا فلتموتن قبل أن تدبجه
قال فإذا كان الحديث هكذا فأبى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ابني فيه اشتروا مني دوري اشتروا مني أرضي
فلم يزل حتى باع دوره وأرضه وعقاره فلما صار الثمن في يده وأحضره قال : أي قوم إن العذب قد أظلمكم وزوال
أمركم قد دنا فمن أراد منكم دارا جديدا وحى شديدا . وسفرا بعيدا . فليلق بعان . ومن أراد منكم الحمر والخمر
والعصير . وكلمة قال إبراهيم لم أحفظها - فليلق ببصري ومن أراد الراسخات في الوحل : المطعمات في المحل . المعتمات
في القحل فليلق يثرب ذات نخل فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت
الأوس والخزرج وبنو عمان إلى يثرب ذات النخل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عمان هذا مكان صالح لا نبغي
به بدلا فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخرعوا من أصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة
وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى . هذا أثر غريب عجيب وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء
اليمن وكبراء سبا وكهانتهم وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول
من خرج من بلاد اليمن بسبب استشهاده بارسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني
به أبو زيد الأنصاري أنه رأى جرزا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاء وامن أرضهم
فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا غلظه ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه
ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي وعرض أمواله . فقال أشرف من أشرف اليمن
اغتنموا غصبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو في ولده وولد ولده ، وقالت الأسد لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا
أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربهم عك وكانت حربهم سجالا في ذلك
يقول عباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه :

وعك بن عدنان الدين تلعبوا بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له . قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ،
ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان عمان : ثم أرسل
الله تعالى على السد السيل فهدمه وفي ذلك أنزل الله عز وجل هذه الآيات . وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما
ذكر محمد بن إسحاق إلا أنه قال فأمر ابن أخيه مكان ابنه - إلى قوله - فباع ماله وارتحل بأهله فتفرقوا واما ابن أبي حاتم
وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد أخبرنا سلمة عن ابن إسحاق قال يزعمون أن عمرو بن عامر وهو عم القوم كان كاهنا
فرأى في كهنته أن قومه سيمزقون ويباعد بين أسفارهم . فقال لهم إني قد علمت أنكم ستمزقون فمن كان منكم ذا هم بعيد
وحمل شديد . ومزاد حديد : فليلق ببكاس أو كرود . قال فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هم مدن . وأمر

دعن ، فليلق بأرض شن ، فكانت عوف بن عمرو وهم الذين يقال لهم بارق ، ومن كان منكم يريد عيشا آتيا ، وحرما آمنا فليلق بالأرزين فكانت خزاعة ، ومن كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطعمات في المحل ، فليلق يثرب ذات النخل فكانت الأوس والحزرج وهما هذان الحيان من الأنصار ومن كان منكم يريد خمرا وخميرا وذهبا وحريرا ، وملكا وتأميرا ، فليلق بكوثر وبصرى ، فكانت غسان بنو جفنة ملوك الشام ومن كان منهم بالعراق . قال ابن إسحق وقد سمعت بعض أهل العلم يقول إنما قالت هذه المقالة طريفة امرأة عمرو بن عامر وكانت كاهنة فرأت في كهانتها ذلك فأنه أعلم أى ذلك كان وقال سعيد عن قتادة عن الشعبي أما غسان فليحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق بالشام ، وأما الأنصار فليحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فليحقوا بتهامة ، وأما الأزد فليحقوا بعمان فمزقهم الله كل ممزق . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، ثم قال محمد بن إسحق حدثني أبو عبيدة قال : قال الأعشى أعشى بنى قيس بن ثعلبة واسمه ميهون بن قيس :
وفي ذاك للمؤتسى أسوة * ومأرب قفى عليها العرم * رجام بنته لهم حمير * إذا جاء مأوهم لم يرم
فأروى الزروع وأعابها * على سعة مأوهم إذ قسم * فصاروا أيادي ما يقدرو * ن منه على شرب طفل فظم
وقوله تعالى (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن في هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى قالأ أخبرنا سفيان عن أبي إسحق عن العيزار بن حريث عن عمر بن سعد عن أبيه هو سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابه مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته » . وقد رواه النسائي في اليوم والليلة من حديث أبي إسحق السبيعي به وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد عن أبيه ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه « عجباً للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابه سراء شكر فكان خيرا له ؛ وإن أصابه ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . قال عبد حدثنا يونس عن سفيان عن قتادة (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) قال كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه) قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره هذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال (أرايتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكذن ذريته إلا قليلا) وقال (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) والآيات في هذا كثيرة ، وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منهما وقال إذا أصبت من الأيوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ضا من إبليس فأنزل الله عز وجل (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح أعده وأمنيه وأخذه ، فقال الله تعالى وعزنى وجلالى لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت . ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له رواه ابن أبي حاتم . وقوله تبارك وتعالى (وما كان له عليهم من سلطان) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها

فأجابوه . وقوله عز وجل (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أى انما سلطنا عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك وقوله تعالى (وربك على كل شيء حفيظ) أى ومع حفظه ضل من ضل من اتباع إبليس ، وبمحفظه وكلايته سلم من المؤمنين أتباع الرسل

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنَّ ظَهِيرٌ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

بين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا نظير له ولا شريك له بل هو المستقل بالأمر وحده من غير مشارك ولا منازع ولا معارض فقال (قل ادعوا الذين زعتم من دون الله) أى من الآلهة التى عبدت من دونه (لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) كما قال تبارك وتعالى (والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير) . وقوله تعالى (وما لهم فيها من شرك) أى لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشراكة (وما لهم من ظهير) أى وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه عبيد لديه قال قتادة فى قوله عز وجل (وما لهم من ظهير) من عون يعينه بشيء . ثم قال تعالى (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شيء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة كما قال عز وجل (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقال جل وعلا (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) ولهذا ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيا الآن ثم يقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه . وقوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) وهذا أيضاً مقام رفيع فى العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى ، قاله ابن مسعود رضى الله عنه ومسروق وغيرهما (حتى إذا فزع عن قلوبهم) أى زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم وأبو عبد الرحمن السلمي والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة فى قوله عز وجل (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) يقول خلى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ، وجاء مرفوعاً إذا فرغ بالغين المعجزة ويرجع إلى الأول فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضاً ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ثم الذين يلونهم لمن تحتهم حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ، ولهذا قال تعالى (قالوا الحق) أى أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان (وهو العلى الكبير) . وقال آخرون بل معنى قوله تعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقبل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا قال ابن أبى نجيع عن مجاهد (حتى إذا فزع عن قلوبهم) كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى ما فيها من الشك والتكذيب وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى ما فيها من الشك قال فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانهم وما كان يضلهم (قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير) قال وهذا فى بنى آدم هذا عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير القول الأول أن الضمير عائد على

الملائكة وهذا هو الحق الذى لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولندكر منها طرفا يدل على غيره قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال : سمعت عكرمة قال سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يقول إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان يده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة به والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق قالا : حدثنا معمر أخبرنا الزهرى عن عيسى بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ جالسا فى نفر من أصحابه قال عبد الرزاق من الأنصار فرمى بنجم فاستنار فقال صلى الله عليه وسلم « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية » قالوا كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم . قلت للزهرى أكان يرمى بها فى الجاهلية ، قال نعم ولكن غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فانها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون » هكذا رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعى ويونس ومعتل بن عبيد الله أربعتهم عن الزهرى عن عيسى بن الحسين عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل من الأنصار به وقال يونس عن رجال من الأنصار رضى الله عنهم ، وكذا رواه النسائى فى التفسير من حديث الزبيدى عن الزهرى به ، ورواه الترمذى فيه عن الحسين بن حريث عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رجل من الأنصار رضى الله عنه والله أعلم .

﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى والسياق لمحمد بن عوف قالا : حدثنا نعيم بن حماد حدثنا الوليد هو ابن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن عبد الله بن أبي زكريا عن رجاء ابن حيوة عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فاذا تكلم أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى فاذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بسماء سماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل ، فيقول عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض » وكذا رواه ابن جرير وابن خزيمة عن زكريا ابن أبان المصرى عن نعيم بن حماد به وقال ابن أبي حاتم سمعت أبي يقول : ليس هذا الحديث بالتام عن الوليد بن مسلم رحمه الله وقد روى ابن أبي حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وعن قتادة أنها فسرها هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى مقررًا تفرد به الخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضًا فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره وقوله تعالى (وإنا أو إياكم لعللى هدى أو فى ضلال مبين) هذا من باب اللف والنشر أى واحد من الفريقين مبطل ، والآخى محق لاسبيل إلى أن تكونوا أتم ونحن على الهدى أو على الضلال بل واحد منا مصيب ونحن قد أقننا البرهان على التوحيد فدل على بطلان ما أتم عليه من الشرك بالله تعالى ولهذا قال (وإنا أو إياكم لعللى هدى أو فى ضلال مبين) . قال قتادة قد قال ذلك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم للمشركين والله ما نحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لم يهد ، وقال عكرمة وزيد بن أبى مریم معناها إنا نحن لعللى هدى وإنكم لفى ضلال مبين . وقوله تعالى (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا تسأل عما تعملون) معناه التبرى منهم أى لستم منا ولا نحن منكم بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيدة وإفراد العبادة له فان أجبتم فأتتم منا ونحن منكم وإن كذبتم فنحن برآء منكم وأتم برآء منا كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أتم يريثون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون) . وقال عز وجل (قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين) وقوله تعالى (قل يجمع بيننا ربنا) أى يوم القيامة يجمع بين الخلائق فى ضعيد واحد ثم يفتح بيننا بالحق أى يحكم بيننا بالعدل فيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية كما قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ ينتفرون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) ولهذا قال عز وجل (وهو الفتاح العليم) أى الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور . وقوله تبارك وتعالى (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا (كلاً) أى ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عدل . ولهذا قال تعالى (بل هو الله) أى الواحد الأحد الذى لا شريك له (العزيز الحكيم) أى ذو العزة الذى قد قهر بها كل شىء وغلبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً والله أعلم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِيرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) أى إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، (بشيراً ونذيراً) أى تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) كقوله عز وجل (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) قال محمد بن كعب فى قوله تعالى (وما أرسلناك إلا كافة للناس) يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهرانى حدثنا حفص بن عمر العدنى حدثنا الحكم يعنى

ابن أبان عن حكرمة قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمداً صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فبم فضله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه إن الله تعالى قال (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) وقال للنبي صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا كافة للناس) فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الفنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال « بعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد يعنى الجن والإنس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح . ثم قال عز وجل مخبراً عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وهذه الآية كقوله عز وجل (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذى آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) الآية ثم قال تعالى (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى لكم ميعاد مؤجل معدود محرر لا يزد ولا ينقص فاذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) وقال عز وجل (وما تؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدٌ نَكُفُّ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم وبما أخبر به من أمر المعاد ولهذا قال تعالى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) قال الله عز وجل متهدداً لهم ومتوعداً وخبراً عن مواقفهم الدلية بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم (يرجع بعضهم إلى بعضهم القول يقول الذين استضعفوا) وهم الأتباع (للذين استكبروا) منهم وهم قادتهم وسادتهم (لولا أنكم لكانوا مؤمنين) أى لولا أنكم تصدوننا لكانوا اتبعنا الرسل وأما بما جاءونا به ، فقال لهم القادة والسادة وهم الذين استكبروا (أنحن صدناكم عن الهدى بعد إذا جاءكم ؟) أى نحن ما فعلنا بكم أكثر من أننا دعوتوناكم فاتبعونا من غير دليل ولا برهان وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك ولهذا قالوا (بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار) أى بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغروننا وتمنوننا وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء فاذا جميع ذلك باطل وكذب ومين ، قال قتادة وابن زيد (بل مكر الليل والنهار) يقول بل مكركم بالليل والنهار وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم مكركم بالليل والنهار (إذا تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) أى نظراء وآلهة معه وتقيموا لنا شهاً وأشياء من المحال تضلونا بها (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى إنما نجازيكم بأعمالكم كل بحسبه للقادة عذاب بحسبهم وللأتباع بحسبهم (قال لكل ضعف

ولكن لا تعلمون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا محمد بن سليمان بن الأصهباني عن أبي سنان ضرار بن صرد عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لمبهاثم لفتحهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب » وحدثنا أبي حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا الطيب أبو الحسن عن الحسن بن يحيى الحشني قال ما في جهنم دارولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة إلا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته أبا سليمان يعني الداراني رحمة الله عليه فبكي ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجله والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل المغار ؟ اللهم سلم

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَكْبَرَ * قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ وأمراله بالناس بمن قبله من الرسل وخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال قوم نوح عليه الصلاة والسلام (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرذلنا بادي الرأي) وقال الكبراء من قوم صالح (للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) وقال عز وجل (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وقال تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرمين ليمكروا فيها) وقال جل وعلا (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) وقال جل وعلا ههنا (وما أرسلنا في قرية من نذير) أي نبي أو رسول (إلا قال مترفوها) وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورؤسهم في الشر (إنا بما أرسلتم به كافرون) أي لا تؤمن به ولا تتبعه ، قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم عن أبي رزين قال كان رجلاً شريكاً خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل . فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أرذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلتني عليه قال وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إلام تدعو ؟ قال « أدعو إلى كذ وكذا » قال أشهد أنك رسول الله . قال ﷺ « وما علمك بذلك ؟ » قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أرذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) الآية قال فأرسل إليه النبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل . وقال تبارك وتعالى إخباراً عن المترفين المكذبين (وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمهتدين) أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناهم بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيهات

لهم ذلك قال الله تعالى (أيحسبون أنما نمدم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) وقال تبارك وتعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون) وقال عز وجل (ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا) وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تيدك الجنة أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل هاهنا (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم قال تعالى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى) أي ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ولا اعتنائنا لكم . قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا كثير حدثنا جعفر حدثنا يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه مسلم وابن ماجه من حديث كثير بن هشام عن جعفر بن برقان به ، ولهذا قال الله تعالى (إلا من آمن وعمل صالحا) أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح (فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف (وهم في الغرفات آمنون) أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء الكندي حدثنا القاسم وطى بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها » فقال أعرابي لمن هي ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لمن طيب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام » (والذين يسعون في آياتنا معاجزين) أي يسعون في الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته (فأولئك في العذاب محضرون) أي جميعهم محزيون بأعمالهم فيها بحسبهم . وقوله تعالى (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرا ويضيق على هذا ويقتصر على هذا رزقه جدا وله في ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره كما قال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفصيلا) أي كما هم متفاوتون في الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غني موسع عليه فكذلك هم في الآخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات وهذا في العمرات في أسفل الدرجات ؛ وأطيب الناس في الدنيا كما قال صلى الله عليه وسلم « قد أفلح من أسلم ورزق كافا وقنع الله بما آتاه » رواه مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وقوله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث « يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك » وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكا تلقا ويقول الآخر : اللهم أعط منقفا خلفا ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي عن عبد العزيز الفلاس حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال بلغني عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض بعض الموسر على مافي يده حذار الانفاق » ثم تلا هذه الآية (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا روح بن حاتم حدثنا هشيم عن الكوثر بن حكيم عن مكحول قال بلغني عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض بعض الموسر على مافي يده حذار الانفاق » قال الله تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وفي الحديث « شرار الناس يبايعون كل مضطر ألا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعده على أخيك وإلا فلا تزده هلاكا إلى هلاكه » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده ضعف وقال سفيان الثوري عن أبي يونس الحسن بن يزيد

قال : قال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فان الرزق مقسوم

﴿ وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول للملائكة (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) أى أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتهم كما قال تعالى فى سورة الفرقان (أنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام (أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) وهكذا تقول الملائكة (سبحانك) أى تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله (أنت ولينا من دونهم) أى نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء (بل كانوا يعبدون الجن) يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلواهم (أ كثرهم بهم مؤمنون) كما قال تبارك وتعالى (إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله) قال الله عز وجل (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) أى لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدايدكم وكرسكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا (ونقول للذين ظلموا وهم المشركون) ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون (أى يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * أَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِنْكَارٌ مِمَّا كَفَرْنَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ بِهَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ﷺ (قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كانت يعبد آباؤكم) يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ، عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى (وقالوا ما هذا إلا إنك مفترى) يعنون القرآن (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) قال الله تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ﷺ وقد كانوا يودون ذلك ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ثم قال تعالى (وكذب الذين من قبلهم) أى من الأمم (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى من القوة فى الدنيا . وكذلك قال قتادة والسدى وابن زيد كما قال تعالى (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلناهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة) أى وما دفع ذلك

عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال (فكذبوا رسلي فكيف كان نكير) أى فكيف كان عقابى ونكالى وانتصارى لرسلي

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَىٰ مُثْنٍ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون (إنما أعظمكم بواحدة) أى إنما آمركم بواحدة وهى (أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) أى تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً هل محمد من جنون فينصح بعضهم بعضاً (ثم تتفكروا) أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك ولهذا قال تعالى (أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) هذا معنى ما ذكره مجاهد ومحمد بن كعب والسدى وقادة وغيرهم وهذا هو المراد من الآية فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة ابن خالد حدثنا عثمان بن أبى العاتكة عن طلى بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « أعطيت ثلاثاً لم يعطهن أحد قبلى ولا فخر . أحلت لى العنائم ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً أتيتم بالصعيد وأصلى فيها حيث أدركتنى الصلاة قال الله تعالى (أن تقوموا لله مثنى وفردى) وأعنت بالعرب مسير شهرين يدى » فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفردى بعيد ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها والله أعلم

وقوله تعالى (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) قال البخارى عندها حدثنا على بن عبد الله حدثنا محمد ابن حازم حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال « أرايتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى » قالوا بلى ؟ قال صلى الله عليه وسلم « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب تبالك ألهذا جمعنا . فأنزل الله عز وجل (تبت يدا أبى لهب وتب) وقد تقدم عند قوله تعالى (وأنذر عشيرتک الأقربين) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشير بن المهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فنادى ثلاث مرات فقال « أيها الناس تدرن ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا الله تعالى ورسوله أعلم . قال ﷺ « إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً بأتهم فبعثوا رجلاً يترأى لهم فيبأهم هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم ثلاث مرات ، وبهذا الإسناد قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني » تفرد به الإمام أحمد فى مسنده

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَافِئُ بِالْحَقِّ عِلْمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْخَلْقُ وَمَا يَبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى آمرأ رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين (ما سألتكم من أجر فهو لكم) أى لا أريد

منكم جملا ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ونصحى إياكم وأمركم بعبادة الله (إن أجرى إلا على الله)
 أى إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله (وهو على كل شىء شهيد) أى عالم بجميع الأمور بما أنا عليه من إخبارى
 عنه بارساله إياى إليكم وما أتم عليه . وقوله عز وجل (قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) كقوله تعالى (يلقى
 الروح من أمره على من يشاء من عباده) أى يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض وهو علام الغيوب
 فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض وقوله تبارك وتعالى (قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد)
 أى جاء الحق من الله والشرع العظيم وذهب الباطل وزهق واضمحل كقوله تعالى (بل تقذف بالحق على الباطل فيدمغه
 فاذا هو زاهق) ولهذا لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة
 حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن كان الباطل زهوقا) (قل
 جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية كلهم من حديث
 الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن أبى معمر عبد الله بن سخرية عن ابن مسعود رضى الله عنه به ، أى لم يبق للباطل
 مقالة ولا رياسة ولا كلمة ، وزعم قتادة والسدى أن المراد بالباطل هاهنا إبليس أى أنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ولا يقدر
 على ذلك وهذا وإن كان حقا ولكن ليس هو المراد ههنا والله أعلم . وقول تبارك وتعالى (قل إن ضللت فأنما
 أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى) أى الخير كله من عنده الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحى والحق
 المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فأنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لما سئل
 عن تلك المسئلة فى المفوضة أقول فيها برأى فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمضى ومن الشيطان والله ورسوله
 بريئان منه . وقوله تعالى (إنه سمع قريب) أى سمع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وقد روى
 النسائى ههنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين « إنكم لا تدعون أصم ولا غابيا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا »

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ
 مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِجْلٌ بَيْنَهُمْ وَإِنَّا لَنُحْشِرُهُمُ
 كَمَا فَعَلْنَا بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى ولو ترى يا محمد إذا فرغ هؤلاء الكذوبون يوم القيامة فلا قوت أى فلا مفر لهم ولا وذر لهم ولا ملجأ
 (وأخذوا من مكان قريب) أى لم يمكنوا أن يعمنوا فى الهرب بل أخذوا من أول وهلة . قال الحسن البصرى حين خرجوا
 من قبورهم وقال مجاهد عطية العوفى وقاتدة من تحت أقدامهم ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك يعنى عذابهم
 فى الدنيا ، وقال عبد الرحمن بن زيد يعنى قتلهم يوم بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة وهو الطامة العظمى ، وإن
 كان ما ذكر متصلا بذلك ، وحكى ابن جرير عن بعضهم قال إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام
 بنى العباس رضى الله عنهم . ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلىة ثم لم ينبه على ذلك وهذا أمر عجيب غريب
 منه (وقالوا آمنابه) أى يوم القيامة يقولون آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسوله كما قال تعالى (ولوترى إذا المجرمون ناكسو
 رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) ولهذا قال تعالى (وأنى لهم التناوش من
 مكان بعيد) أى وكيف لهم تعاظموا الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهى دار الجزاء
 لدار الابتلاء فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول
 الإيمان كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد (وأنى لهم التناوش) قال التناول لذلك . وقال
 الزهرى : التناوش تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا ، وقال الحسن البصرى أما إنهم طلبوا
 الأمر من حيث لا ينال تعاظموا الإيمان من مكان بعيد ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : طلبوا الرجعة إلى الدنيا

والتوبة مما فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظي رحمه الله . وقوله تعالى (وقد كفروا به من قبل) أى كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذبوا الرسل (ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) قال مالك عن زيد بن أسلم (ويقذفون بالغيب) قال بالظن قلت كما قال تعالى (رجما بالغيب) فتارة يقولون شاعر وتارة يقولون كاهن وتارة يقولون ساحر وتارة يقولون مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والعاد (ويقولون إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) قال قتادة ومجاهد يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار وقوله تعالى (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) قال الحسن البصري والضحاك وغيرهما يعنى الإيمان وقال السدي (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله . وقال مجاهد (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ، وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع ابن أنس رضى الله عنهم وهو قول البخارى وجماعة والصحيح أنه لامنافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما يطلبوه في الآخرة فمنعوا منه . وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا أثراً غريباً عجيباً جداً فذكره بطوله فانه قال : حدثنا محمد بن يحيى حدثنا بشر بن حجر الشامى حدثنا علي بن منصور الأنبارى عن الرقى بن قطامي عن سعيد ابن طريف عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في قول الله عز وجل (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) إلى آخر الآية قال كان رجل من بني إسرائيل فاتحاً إن يتبع الله تعالى له مالا فمات فورثه ابن له تافه أى فاسد فكان يعمل في مال الله تعالى بمعاصي الله تعالى عز وجل فلما رأى ذلك أخوات أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ثم رحل فأتى عينا بحاجة فسرح فيها ماله وابتقى قصراً فينبأ هو ذات يوم جالس إذ شملت عليه ريح بامرأة من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجاً أى ريحاً فقالت من أنت يا عبد الله ؟ فقال أنا امرؤ من بني إسرائيل قالت فلك هذا القصر وهذا المال ؟ فقال نعم . قالت فهل لك من زوجة ، قال لا . قالت فكيف يهنك العيش ولا زوجة لك ، قال قد كان ذاك ، قال فهل لك من بعل ، قالت لا قال فهل لك إلى أن أتزوجك ، قالت إني امرأة منك على مسيرة ميل فاذا كان غد فزود زاد يوم واثنتى وإن رأيت في طريقك هولا فلا يهولك فلما كان من الغد تزود زاد يوم وانطلق فأتتهى إلى قصر قفر رتاجه فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجاً أى ريحاً فقال من أنت يا عبد الله ، فقال أنا الإسرائيلي قال فما حاجتك ، قال دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها قال صدقت ، قال فهل رأيت في الطريق هولا ، قال نعم ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس على لهالتي الذى رأيت قال مارأيت ، قال أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بكلبة فاتحة فاها ففرغت فوثبت فإذا أنا من ورائها وإذا جرائها ينبحن في بطنها فقال له الشاب لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان يقاعد الغلام الشبيخة في مجلسهم ويسرهم حديثه ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بمائة عنز حفل وإذا فيها جدى يمصها فاذا آتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتبس الزيادة فقال لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ملك يجمع صامت الناس كلهم حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتبس الزيادة ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر فأعجبني غصن من شجرة منها ناضرة فأردت قطعه فنادتني شجرة أخرى يا عبد الله منى فخذ حتى نادانى الشجر أجمع يا عبد الله منى فخذ فقال لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان يقل الرجال ويكثر النساء حتى إن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل فاذا أنا برجل قائم على عين يعرف لكل إنسان من الماء فاذا تصدعوا عنه صب في جرته فلم تعلق جرته من الماء بشيء ، قال لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله تعالى ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز وإذا يقوم قد أخذوا بقوائمها وإذا رجل قد أخذ بقرنيها وإذا رجل قد أخذ بذنبها وإذا راكب قد ركبا وإذا رجل يحتلبها فقال أما العنز فهى الدنيا والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقاً . وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبا فقد

تركها ؛ وأما الذي يحملها فيخرج ذهب ذلك بها ، قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يمتح على قلب كلما أخرج دلوه صبه في الحوض فانساب الماء راجعا إلى القلب قال هذا رجل رد الله عليه صالح عمله فلم يقبله قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل يبذر بذرا فيستحصد فإذا حنطة طيبة قال هذا رجل قبل الله صالح عمله وأزكاه له . قال ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل مستلق على قفاه قال يا عبد الله : ادن مني فخذ يدي وأقمعني فوالله ما قمعت منذ خلقني الله تعالى فأخذت يده فقام يسعى حتى ما أراه فقال له الفتى هذا عمر الأبعد نقد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتكم أمرني الله تعالى بقبض روح الأبعد في هذا المكان ثم أصره إلى نار جهنم قال ففيه نزلت هذه الآية (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) الآية هذا أثر غريب وفي صحته نظر ، وتنزيل الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا كما جرى لهذا الغرور المقتون ذهب يطلب مراده فجاءه ملك الموت فجأة بغتة وحيل بينه وبين ما يشتهى . وقوله تعالى (كما فعل بأشياءهم من قبل) أي كما جرى للأئمة الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد دخلت في عبادته وخسر هالك الكافرون) . وقوله تبارك وتعالى (إنهم كانوا في شك مريب) أي كانوا في الدنيا في شك وريبة فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه . آخر تفسير سورة سبأ والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

(تفسير سورة فاطر وهي مكية)

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال سفيان الثوري عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرايان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتهما أي بدأتها وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضا (فاطر السموات والأرض) أي بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شيء في القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض . وقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) أي بينه بين أنبيائه (أُولَى أَجْنَحَةٍ) أي يطفرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعا (مثنى وثلاث ورباع) أي منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستائة جناح بين كل جناحين كما بين الشرق والغرب ولهذا قال جل وعلا (يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) قال السدي يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) يعني حسن الصوت رواه عن الزهري البخاري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره وقرئ في الشاذ (يزيد في الخلق) بالحاء المهملة والله أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع . قال الإمام أحمد حدثنا علي ابن عاصم حدثنا مغيرة أخبرنا عامر عن وراد مولى للمغيرة بن شعبة قال إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاني المغيرة فكتبت إليه إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد

وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ومسمته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال . وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه من طرق عن وراد به وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول «سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى (وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله) ولها نظائر كثيرة . وقال الإمام مالك رحمه الله عليه كان أبو هريرة رضى الله عنه إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) ورواه ابن أبي حاتم عن يونس عن ابن وهب عنه

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في افراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ولهذا قال تعالى (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون) أى فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضح هذا البرهان ، وأتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان والله أعلم

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تبارك وتعالى وإن يكذبوك يا محمد هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة فانهم كذلك جاءوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم (وإلى الله ترجع الأمور) أى وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء . ثم قال تعالى (يا أيها الناس إن وعد الله حق) أى المعاد كائن لا محالة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) أى العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تغرروا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية (ولا يغرنكم بالله الغرور) وهو الشيطان قاله ابن عباس رضى الله عنهما أى لا يفتنكم الشيطان ويصرفكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فانه غرار كذاب أفك ، وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وقال مالك عن زيد بن أسلم هو الشيطان كما قال المؤمنون للنافقين يوم القيامة حين يضرب (بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال (إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدوًّا) أى هو مبارز لكم بالعداوة فعادوه أتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أى إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير فهذا هو العدو المبين نسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والافتقار بطريق رسوله إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير ، وهذه كقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْيَشَاءِ وَيَهْدَى مِنَ الْيَشَاءِ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن وأن الذين آمنوا بالله ورسوله (وعملوا الصالحات لهم مغفرة) أى لما كان منهم من ذنب (وأجر كبير) على ما عملوه من خير ثم قال تعالى (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) يعنى كالكفار والفجار يعملون أعمالا سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا أى أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ، لا حيلة لك فيه (فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) أى بقدره كان ذلك (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى لا تأسف على ذلك فان الله حكيم فى قدره إنما يضل من يضل ويهدي من يهدي لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى (إن الله عليم بما يصنعون) . وقال ابن أبى حاتم عند هذه الآية حدثنا أبى حدثنا محمد بن عوف الحمصى حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أو ربيعة عن عبد الله بن الديلمى قال أتيت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما وهو فى حائط بالطائف يقال له الوهط قال سمعت رسول الله ﷺ يقول الله « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ومن أخطأ منه ضل فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله عز وجل » ثم قال حدثنا محمد بن عبدة القزوينى حدثنا حسان بن حسان البصرى حدثنا إبراهيم بن بشر حدثنا يحيى بن معين حدثنا إبراهيم القرشى عن سعيد بن شريحيل عن زيد بن أبى أوفى رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « الحمد لله الذى يهدى من الضلالة ويلبس الضلالة على من أحب » وهذا أيضا حديث غريب جداً

﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بِلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعَمَّرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بأحيائه الأرض بعد موتها كما فى أول سورة الحج ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك فان الأرض تكون ميتة هامة لا نبات فيها فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها (اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا ونبتت الأجساد فى قبورها كما تنبت الحبة فى الأرض ولهذا جاء فى الصحيح « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ولهذا قال تعالى (كذلك النشور) وتقدم فى الحج حديث أبى رزين قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه . قال صلى الله عليه وسلم « يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك ممجلا ثم مررت به يهترخضرا » قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم « فكذلك يحيى الله الموتى »

وقوله تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يحب أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليأزم طاعة الله تعالى فإنه يحصل له مقصوده لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة وله العزة جميعا كما قال تعالى (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) وقال عز وجل (ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا) وقال جل جلاله (والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) قال مجاهد (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان (فإن العزة لله جميعا) وقال قتادة (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعا) أى فليتمتع بطاعة الله عز وجل وقيل من كان يريد علم العزة لمن هو (فإن العزة لله جميعا) وحكاها ابن جرير. وقوله تبارك وتعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) يعنى الذكر والتلاوة والدعاء ؛ قاله غير واحد من السلف ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي أخبرني جعفر بن عون عن عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي عن عبد الله بن الحارث عن أبيه الحارث بن سليم قال : قال لنا عبد الله هو ابن مسعود رضى عنه إذا حدثناكم بحديث أتيناكم به بتصدق ذلك من كتاب الله تعالى إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر تبارك الله أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه الله عز وجل ثم قرأ عبد الله رضى الله عنه (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وحدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا سعيد بن الجريري عن عبد الله بن شقيق قال : قال كعب الأخبار إن لسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وأكبر لدويا حول العرش كدوى النحل يذكرن لصاحبهن والعمل الصالح فى الخزانة وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأخبار رحمة الله عليه ، وقدرى مرفوعا . قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا موسى يعنى ابن مسلم الطحان عن عون بن عبد الله عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الذين يذكر الله من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بشر بكر بن خلف عن يحيى بن سعيد القطان عن موسى بن مسلم الطحان عن عون بن عبد الله بن عتبة ابن مسعود عن أبيه أو عن أخيه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه به . وقوله تعالى (والعمل الصالح يرفعه) قال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما الكلم الطيب ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله تعالى فى أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله تعالى يصعد به إلى الله عز وجل ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب وكذا قال أبو العالية وعكرمة وإبراهيم النخعي والضحاك والسدى والربيع بن أنس وشهر بن حوشب وغير واحد وقال إياس بن معاوية القاضى لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام وقال الحسن وقتادة لا يقبل قول إلا بعمل

وقوله تعالى (والذين يذكرون السيئات) قال مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب هم المراءون بأعمالهم يعنى يذكرون بالناس يوهمون أنهم فى طاعة الله تعالى وهم بغضاء إلى الله عز وجل يراءون بأعمالهم (ولا يذكر الله إلا قليلا) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المشركون ، والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى ولهذا قال تعالى (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) أى يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفتلت لسانه وما أسر أحد سريرة إلا إلاكساه الله تعالى رداها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فالمرأى لا يروج أمره ويستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المنفردون فلا يروج ذلك عليهم بل ينكشف لهم عن قريب وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية . وقوله تبارك وتعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة) أى ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين (ثم جعلكم أزواجا) أى ذكرًا وأنثى لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم لتسكنوا إليها وقوله عز وجل (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل (ما تسقط من ورقه إلا

يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقد تقدم الكلام على قوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) وقوله عز وجل (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) أى ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه وهو عنده في الكتاب الأول (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس قال ابن جرير وهذا كقولهم عندى ثوب ونصفه أى ونصف ثوب آخر ، وروى من طريق العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (وما يسمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له فأنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قسير العمر والحياة يبلغ العمر ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له فذلك قوله تعالى (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه (ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) قال ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام ، وقال عبد الرحمن في تفسيرها ألا ترى الناس يعيش الإنسان مائة سنة وآخر يموت حين يولد فهذا هذا ، وقال قتادة : والذى ينقص من عمره فالذى يموت قبل ستين سنة ، وقال مجاهد (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) أى في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغ ما بلغ ، وقال بعضهم بل معناه (وما يعمر من معمر) أى ما يكتب من الأجل (ولا ينقص من عمره) وهو ذهابه قليلا قليلا الجميع معلوم عند الله تعالى سنة بعد سنة وشهرا بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة الجميع مكتوب عند الله تعالى في كتابه . نقله ابن جرير عن أبي مالك وإليه ذهب السدى وعطاء الخراساني ، واختاره ابن جرير الأول وهو كما قال ، وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان قال سمعت ابن وهب يقول حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الإيلي به وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الوليد بن الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو سرح حدثنا عثمان بن عطاء عن مسلمة بن عبد الله عن عمه أبي مسجعة بن ربيع عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال « إن الله تعالى لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر » وقوله عز وجل (إن ذلك على الله يسير) أى سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كُمُ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك (وهذا ملح أجاج) أى مر وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون ملحة زعاقا مرة ولهذا قال (وهذا ملح أجاج) أى مر ثم قال تعالى (ومن كل تأكلون لحما طريا) يعنى السمك (وتستخرجون حلية تلبسونها) كما قال عز وجل (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكم تكذبان) وقوله جل

وعلا (وترى الفلك فيه مواخر) أى تمخره وتشقه بحزومها وهو مقدمها المسنم الذى يشبه جوجو الطير وهو صدره ، وقال مجاهد تمخر الريح السفن ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام ، وقوله جل وعلا (لتبتغوا من فضله) أى بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم (ولعلكم تشكرون) أى تشكرون ربكم على تسخيركم لهذا الخلق العظيم وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شئ منه ، بل بقدرته قد سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض الجميع من فضله ورحمته .

﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كَكُمْ وَلَا يُغْنِيْكَ مِنْهُ خَيْرٌ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم فى تسخير الليل بظلامه والنهار بضياؤه ويأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيعتلان ، ثم يأخذ من هذا فى هذا فيطول هذا ويقصر هذا ثم يتقارضان صيفاً وشتاء (وسخر الشمس والقمر) أى والنجوم السبارات ، والثوابت الثاقبات ، بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسرون بمقدار مهيمن . وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديرأ من عزيز عليم (كل يجرى لأجل مسمى) أى إلى يوم القيامة (ذلكم الله ربكم) أى الذى فعل هذا هو الرب العظيم الذى لا إله غيره (والذين تدعون من دونه) أى من الأصنام والأنداد التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين (ما يملكون من قطمير) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وعطاء ونطية العوفى والحسن وقتادة وغيرهم : القطمير هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة أى لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير ثم قال تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) يعنى الآلهة التى تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها حماد لا أرواح فيها (ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى لا يقدرول على شئ مما تطلبون منها (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى يتبرءون منكم كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقوله تعالى (ولا ينبتك مثل خبير) أى ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها قال قتادة يعنى نفسه تبارك وتعالى فانه أخبر بالواقع لا محالة

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ * وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه وبافتقار الخلوقات كلها إليه وتذللها بين يديه فقال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) أى هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات وهو تعالى الغنى عنهم بالذات ولهذا قال عز وجل (والله هو الغنى الحميد) أى هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقول ويقدره ويشرعه ، وقوله تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أى لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) . وقوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى يوم القيامة (وإن تدع مثقلة إلى حملها) أى وإن تدع نفس مثقلة بأوزاها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه

(لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) أى وإن كان قريبا إليها حتى ولو كان أباهما أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، قال عكرمة فى قوله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية قال هو الجار يتعلق بجارها يوم القيامة فيقول يا رب سل هذا لم كان يعلق بابه دونى ، وإن الكافر ليعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له يا مؤمن إن لى عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو فى النار ، وإن الوالد ليعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بنى أى والد كنت لك فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجوها مما ترى فيقول له ولده يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجه فيقول يا فلانة أو يا هذه أى زوج كنت لك فيثنى خيرا فيقول لها إني أطلب إليك حسنة واحدة تهيبها لى لعل أنجوها مما ترى ، قال فتقول ما أيسر ما طلبت ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا إني أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول الله تعالى (وإن تدع مثقلة إلى حملها) الآية ، ويقول تبارك وتعالى (لا يحزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) ويقول تعالى (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغيبه) رواه ابن أبى حاتم رحمه الله عن أبى عبد الله الزهرانى عن حفص ابن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة به ، ثم قال تبارك وتعالى (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به (ومن تذكى فإنما يتركى لنفسه) أى ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه (وإلى المصير) أى وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر

﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا * وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

يقول تعالى كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير لا يستويان بل بينهما فرق وبون كثير وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات كقوله تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقال عز وجل (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ؟ فالؤمن بصير مسمع فى نور يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون والكافر أعمى وأصم فى ظلمات يمشى لا خروج له منها ، بل هويته فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسوم والحميم ، وظل من يحموم لا بارد ولا كريم

وقوله تعالى (إن الله يسمع من يشاء) أى يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والالتقاد لها (وما أنت بمسمع من فى القبور) أى كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة للافهم ولا تستطيع هدايتهم (إن أنت إلا نذير) أى إنما عليك البلاغ والانذار والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء (إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وكما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة (الآية والآيات . في هذا كثيرة . وقوله تبارك وتعالى (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسالهم بالبينات) وهى المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات (وبالزبر) وهى الكتب (وبالكتاب النير) أى الواضح البين (ثم أخذت الذين كفروا) أى ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءهم به فأخذتهم أى بالعقاب والنكال (فكيف كان نكير) أى فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيمًا شديدًا بليغا والله أعلم

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

يقول تعالى منه على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد وهو الماء الذى ينزله من السماء يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها كما قال تعالى فى الآية الأخرى (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) وقوله تبارك وتعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق وهى الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الجدد الطرائق ، وكذا قال أبو مالك والحسن وقتادة والسدى ومنها غرايب سود قال عكرمة : الغرايب الجبال الطوال السود ، وكذا قال أبو مالك وعطاء الخرساني وقتادة ، وقال ابن جرير والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة اسواد قالوا أسود غريب ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى (وغرايب سود) أى سود غريب وفيما قاله نظر وقوله تعالى (ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب وهو كل مادب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هى مختلفة أيضا فالناس منهم بربر وحبوش وطماطم فى غاية الاسود وصقالبه وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك والمنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى (واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى فى الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا الفضل بن سهل حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا زياد بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أيصبغ ربك قال قال ﷺ « نعم صبغا لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض » وروى مرسلًا وموقوفًا والله أعلم . ولهذا قال تعالى بعد هذا (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العلم الوصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر

قال طى ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال ابن لهيعة عن ابن أبى عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئا ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله ، وقال سعيد بن جبير الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل ، وقال الحسن البصرى : العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله

فيه وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الحشية . وقال أحمد بن صالح المصرى ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله فى القلب . قال أحمد بن صالح المصرى معناه أن الحشية لاتدرك بكثرة الرواية وإنما العلم الذى فرض الله عز وجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضى الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : نور يريد به فهم العلم ومعرفة معانيه . وقال سفيان الثورى عن أبي حيان التيمى عن رجل قال : كان يقال العلماء ثلاثة عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذى يخشى الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذى يعلم الحدود والفرائض ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذى يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عز وجل

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنقَضُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والاتساق مما رزقهم الله تعالى فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا سرا وعلانية (يرجون تجارة لن تبور) أى يرجون ثوابا عند الله لا بدمن حصوله ، كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه إن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ولهذا قال تعالى (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) أى ليوفيهم ثواب ما عملوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم (إنه غفور) أى لذنوبهم (شكور) للقليل من أعمالهم قال قتادة كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول هذه آية القراء . قال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا سالم بن غيلان قال : إنه سمع دراجا أبا السمع يحدث عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن الله تعالى إذا رضى عن العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الخير لم يعملهم وإذا سخط على العبد أثنى عليه بسبعة أصناف من الشر لم يعملهم » غريب جدا

﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

يقول تعالى (والذى أوحينا إليك) يا محمد من الكتاب وهو القرآن (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هى له بالتنويه وأنه منزل من رب العالمين (إن الله بعباده خبير بصير) أى هو خبير بهم بصير عن يستحق ما يفضل به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) وهو المفرط فى فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات (ومنهم مقتصد) وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد يترك بعض المستحبات ويفعل بعض المكروهات (ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات

وبعض المباحات . قال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) قال هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح وعبد الرحمن بن معاوية العتيبي قالا حدثنا أبو الطاهر بن السرح حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعاني حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ذات يوم « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال ابن عباس رضي الله عنهما السابق بالحيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاععة محمد ﷺ وكذا روى عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ولا من المصطفين الوارثين للكتاب قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا طي بن هاشم بن مرزوق حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما فنههم ظالم لنفسه قال هو الكافر وكذا روى عنه عكرمة وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى (فنههم ظالم لنفسه) قال هم أصحاب المشأمة ، وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة هو المناق ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضا ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر

(الحديث الأول) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن الوليد بن العيزار أنه سمع رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : في هذه الآية (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنههم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالحيرات بإذن الله) قال « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم وقدرناه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شعبة به نحوه ومعنى قوله بمنزلة واحدة أي في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة (الحديث الثاني) قال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو حمزة عن موسى بن عقبة عن علي بن عبد الله الأزدي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنههم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالحيرات بإذن الله) فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) » (طريق أخرى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أسيد بن عاصم ثنا الحسين بن حفص حدثنا سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبي ثابت عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنههم ظالم لنفسه - قال - فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الله والحزن ثم يدخل الجنة » ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري عن الأعمش قال ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد فجلس إلى جنب أبي الدرداء رضي الله عنه فقال اللهم آنس وحشتي وارحم غربتي ويسر لي جليسا صالحا فقال أبو الدرداء رضي الله عنه لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه ذكر هذه الآية (ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فنههم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالحيرات) فأما السابق بالحيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا . وأما الظالم

لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن وذلك قوله تعالى (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)

(الحديث الثالث) قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس حدثنا ابن مسعود أخبرنا سهل

ابن عبد ربه الرازي حدثنا عمرو بن قيس عن ابن أبي ليلى عن أخيه عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلهم من هذه الأمة » (الحديث الرابع) قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عزيز حدثنا سلامة عن عقيل عن ابن شهاب عن عوف بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أمي ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة وثلث يحصبون ويكشفون ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده يقول الله تعالى صدقوا لا إله إلا أنا أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل النار وهي التي قال الله تعالى (ولحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة قال الله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) فجعلهم ثلاثة أفواج وهم أصناف كلهم فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذي يحص ويكشف « غريب جدا » (أثر عن ابن مسعود) رضى الله عنه قال ابن جرير حدثني ابن حميد حدثنا الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس عن عبد الله بن عيسى رضى الله عنه عن يزيد بن الحارث عن شقيق أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله عز وجل ما هؤلاء ؟ وهو أعلم تبارك وتعالى فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي . وتلا عبد الله رضى الله عنه هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية (أثر آخر) قال أبو داود الطيالسي عن الصلت بن دينار بن الأشعث عن عقبة بن صهبان الهنائي قال سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية فقالت لي يا بني هؤلاء في الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلكم قال فجعلت نفسها رضى الله عنها معنا وهذا منها رضى الله عنها من باب الهضم والتواضع وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه في قوله تبارك وتعالى فمنهم ظالم لنفسه قال هي لأهل بدونا ومقتصدنا أهل حضرا وسابقنا أهل الجهاد رواه ابن أبي حاتم وقال عوف الأعرابي حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال حدثنا كعب الأحبار رحمة الله عليه قال إن الظالم لنفسه من هذه الأمة والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير) جنات عدن يدخلونها - إلى قوله عز وجل - والذين كفروا لهم نار جهنم) قال فهؤلاء أهل النار رواه ابن جرير من طرق عن عوف به . ثم قال حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا حميد عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث عن أبيه قال إن ابن عباس رضى الله عنهما سأل كعباً عن قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا - إلى قوله - بإذن الله) قال تماسنا منا كبهم ورب كعب ثم أعطوا الفضل بأعمالهم ثم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم بن بشير حدثنا عمرو بن قيس عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) الآية قال أبو إسحاق أما ما سمعت من ذي ستين سنة فكلهم ناج ، ثم قال حدثنا ابن حميد حدثنا الحكم بن محمد بن الحنفية رضى الله عنه قال إنها أمة مرحومة الظالم مغفور له والمقتصد في الجنان عند الله والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . ورواه الثوري عن إسماعيل بن ميمع عن رجل عن محمد بن الحنفية رضى الله عنه بنحوه . وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني الباقر - رضى الله عنهما عن قول الله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه) فقال هو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس

بهذه الرحمة فانهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجا بن حيوة عن قيس بن كثير قال قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضى الله عنه وهو بدمشق فقال ما أقدمك أى أخى ؟ قال حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال أما قدمت لتجارة ؟ قال لا ، قال أما قدمت لحاجة قال لا ؟ قال أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال نعم . قال رضى الله عنه فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يطلب فيها علماً سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا الطالب العلم وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » وأخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث كثير بن قيس ومنهم من يقول قيس بن كثير عن أبي الدرداء رضى الله عنه ، وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح كتاب العلم من صحيح البخارى والله الحمد والمنة وقد تقدم فى أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي »

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب النزل من رب العالمين يوم القيامة مأواهم جنات عدن أى جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) كما ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (ولباسهم فيها حرير) ولهذا كان محظورا عليهم فى الدنيا فأباحه الله تعالى لهم فى الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة » وقال « هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة »

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن سواد السرحى أخبرنا ابن وهب عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال إن أبا أمامة رضى الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال « مسورون بالذهب والفضة مكلفة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جردمرد مكحولون » (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وهو الخوف من المذنبين أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذر من هموم الدنيا والآخرة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى الموت ولا فى القبور ولا فى النشور وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » رواه ابن أبي حاتم من حديثه وقال الطبرانى حدثنا جعفر بن محمد الفريانى حدثنا موسى بن يحيى الروزى حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى عن عبد العزيز بن حكيم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى الموت ولا فى القبور ولا فى النشور وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات (الذى أحلنا دار القامة من فضله) يقولون

الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « لن يدخل أحدًا منكم عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته منه وفضل » (لا يمسنها فيها نصب ولا يمسنها لغوب) أى لا يمسنها فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم ، فمن ذلك أنهم كانوا يدثبون أنفسهم في العبادة في الدنيا فسقط عنهم التكليف بدخولها وصاروا في راحة دائمة مستمرة قال الله تبارك وتعالى (كلوا واشربوا هنيئًا بما أسلفتم في الأيام الخالية)

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ * فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا) كما قال تعالى (لا يموت فيها ولا يحيى) وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون » وقال عز وجل (ونادوا يا مالِك ليقض علينا ربك قال إنكم ما تكشون) فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) كما قال عز وجل (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتقر عنهم وهم فيه ملبسون) وقال جل وعلا (كلما خبت زدناهم سعيرا) (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ثم قال تعالى (كذلك نجزي كل كفور) أى هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق وقوله جلّت عظمتة (وهم يصطرخون فيها) أى ينادون فيها بجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم (ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل) أى يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون فلماذا لا يجيبهم إلى سؤالهم كما قال تعالى مخبرًا عنهم في قولهم (فهل إلى مرد من سبيل ؟ * ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أى لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك ولوردتم لعنتم إلى ما نهيتم عنه ولذا قال ههنا (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟) أى أو ما عشتم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لا تنفعتم به في مدة عمركم ؟ وقد اختلف المفسرون في مقدار العمر المراد ههنا فروى عن علي بن الحسين زين العابدين رضى الله عنهما أنه قال مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة فنعوذ بالله أن نغير بطول العمر قد نزلت هذه الآية (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وإن فيهم لابن ثمان عشرة سنة وكذا قال أبو غالب الشيباني . وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن رجل عن وهب بن منبه في قوله تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قال عشرين سنة . وقال هشيم عن منصور عن زاذان عن الحسن في قوله تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) قال أربعين سنة ، وقال هشيم أيضا عن مجالد عن الشعبي عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله عز وجل وهذه رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما فيقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا بشر بن الفضل حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد قال سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : العمر الذي أعذر الله تعالى لابن آدم (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) أربعون سنة . هكذا رواه من هذا الوجه عن ابن عباس رضى الله عنهما به وهذا القول هو اختيار ابن جرير ثم رواه من طريق الثوري وعبد الله بن إدريس كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) ستون سنة فهذه الرواية أصح عن ابن عباس رضى الله عنهما وهى الصحيحة في نفس الأمر أيضا لما ثبت

في ذلك من الحديث كما سنورده لا كما زعمه ابن جرير من أن الحديث لم يصح في ذلك لأن في إسناده من يجب التثبت في أمره ، وقد روى أصبغ بن نباتة عن علي رضي الله عنه أنه قال : العمر الذي غيرهم الله به في قوله (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) . ستون سنة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا دحيم حدثنا ابن أبي فديك حدثني إبراهيم بن الفضل الخزومي عن ابن أبي حسين السكي أنه حدثه عن عطاء هو ابن أبي رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذي قال الله تعالى فيه (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) » وكذا رواه ابن جرير عن طي بن شعيب عن إسماعيل بن أبي فديك به وكذا رواه الطبراني من طريق ابن أبي فديك به ، وهذا الحديث فيه نظر لحال إبراهيم بن الفضل والله أعلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن رجل من بني غفار عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياء حتى بلغ ستين أو سبعين سنة لقد أعذر الله تعالى إليه لقد أعذر الله تعالى إليه » وهكذا رواه الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه حدثنا عبد السلام بن مطهر عن عمر بن طي عن معمر بن محمد الغفاري عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعذر الله عز وجل إلى امرئ آخر عمره حتى بلغ ستين سنة » ثم قال البخاري تابعه أبو حازم وابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ فأما أبو حازم فقال ابن جرير حدثنا أبو صالح الفزاري حدثنا محمد بن سوار أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القادر أي الاسكندري حدثنا أبو حازم عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمره الله تعالى ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر » وقد رواه الإمام أحمد والنسائي في الرقاق جميعاً عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن به ، ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يوسف حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « العمر الذي أعذر الله تعالى فيه إلى ابن آدم ستون سنة » يعني (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وأما متابعة ابن عجلان فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد ابن عبد الملك بن قرعة بسامرا حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا سعيد بن أبي أيوب حدثنا محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله عز وجل إليه في العمر » وكذا رواه الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن هو المقرئ به ورواه أحمد أيضاً عن خلف عن أبي معشر عن أبي سعيد المقبري . (طريق أخرى) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ابن جرير حدثني أحمد بن الفرج أبو عتبة الحمصي حدثنا بقية بن الوليد حدثنا المطرف بن مازن الكنانى حدثني معمر بن راشد قال : سمعت محمد بن عبد الرحمن الغفاري يقول : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « لقد أعذر الله عز وجل في العمر إلى صاحب الستين سنة والسبعين » فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق فلو لم يكن إلا الطريق التي ارتضاها أبو عبد الله البخاري شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير إن في رجاله بعض من يجب التثبت في أمره لا يلتفت إليه مع تصحيح البخاري والله أعلم . وذكر بعضهم أن العمر الطبيعي عند الأطباء مائة وعشرون سنة فالإنسان لا يزال في ازدياد إلى كمال الستين ثم يشرع بعدهذا في النقص والهرم كما قال الشاعر :

إذا بلغ الفتي ستين عاما فقد ذهب السرة والفتاء

ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العمل كان هو الغالب على أعمار هذا الأمة كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة به ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهذا عجب من الترمذي فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه

آخر وطريق أخرى عن أبي هريرة حيث قال حدثنا سليمان بن عمرو عن محمد بن ربيعة عن كامل أبي العلاء عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وقد رواه الترمذى فى كتاب الزهد أيضاً عن إبراهيم بن سعيد الجوهري عن محمد بن ربيعة به ثم قال هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه وقد روى من غير وجه عنه هذا نصه بحروفه فى الموضعين والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو موسى الأنصارى حدثنا ابن أبي فديك حدثني إبراهيم ابن الفضل مولى بنى مخزوم عن القبرى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « معترك الناي ما بين الستين إلى السبعين » وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقل أمتي أبناء سبعين » إسناده ضعيف (حديث آخر) فى معنى ذلك قال الحافظ أبو بكر البرزالي فى مسنده حدثنا إبراهيم بن هانى حدثنا إبراهيم بن مهدي عن عثمان ابن مطر عن أبي مالك عن ربيع عن حذيفة رضى الله عنه أنه قال يا رسول الله أنبئنا بأعمار أمتك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين الخمسين إلى الستين » قالوا يا رسول الله فأبناء السبعين قال ﷺ « قل من يبلغها من أمتي ، رحم الله أبناء السبعين ورحم الله أبناء الثمانين » ثم قال البرزالي روى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاش ثلاثاً وستين سنة وقيل ستين وقيل خمساً وستين ، والمشهور الأول والله أعلم . وقوله تعالى (وجاءكم النذير) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة وأبي جعفر الباقر رضى الله عنه وقناة وسفيان بن عيينة أنهم قالوا يعنى الشيب وقال السدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يعنى به رسول الله ﷺ وقرأ ابن زيد (هذا نذير من النذر الأولى) وهذا هو الصحيح عن قناة فيما رواه شيان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول وهذا اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله تعالى (ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكنتم للحق كارهون) أى لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل فأبيتكم وخالفتم ، وقال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تبارك وتعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير * فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) وقوله تعالى (فذوقوا فالظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم فما لكم اليوم ناصر ينقذك مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مُتَمَتُّوا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض وأنه يعلم ما تكنه السرائر وما تتطوى عليه الضمائر وسيجازى كل عامل بعمله . ثم قال عز وجل (هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى يغلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم . كما قال تعالى (ويجعلكم خلفاء الأرض فمن كفر فعليه كفره) أى فأنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً) أى كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزله فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئيه رب العالمين

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَهُمُ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى من الأصنام والأنداد (أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) أى ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير وقوله (أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه) أى أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانهم التي تمنوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور ، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى أن تضطربا عن أما كنهما كما قال عز وجل (وبمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) وقال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحده من بعده) أى لا يقدر على دوامها وإبقائهما إلا هو وهو مع ذلك حلیم غفور أى يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستتر آخرين ويغفر ولهذا قال تعالى (إنه كان حلما غفورا) وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا حديثا غريبا بل منكرا فقال حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثني هشام بن يوسف عن أمية بن سهل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه الصلاة والسلام على المنبر قال : وقع في نفس موسى عليه الصلاة والسلام هل ينام الله عز وجل فأرسل الله تعالى إليه ملكا فأرقه ثلاثا وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يدها تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومه فاصطفقت يدها فانكسرت القارورتان ، قال ضرب الله له مثلا إن الله عز وجل لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض ، والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع بل من الإسرائيليات للشكرة فان موسى عليه الصلاة والسلام أجل من أن يجوز على الله سبحانه وتعالى النوم وقد أخبر الله عز وجل في كتابه العزيز بأنه (الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض) وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وقد قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه فقال من أين جئت ؟ قال من الشام قال من لقيت ؟ قال لقيت كعبا قال ما حدثك ، قال حدثني أن السموات تدور على منكب ملك ، قال أفصdqته أو كذبتة ؟ قال ما صدقته ولا كذبتة قال لوددت أنك اقتديت من رحلتك إليه براحتك ورحلها كذب كعب إن الله تعالى يقول (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعد) وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود رضى الله عنه ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن مغيرة عن إبراهيم قال ذهب جندب البجلي إلى كعب بالشام فذكر نحوه . وقد رأيت في مصنف للفقهاء يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلى سماه - سير الفقهاء - أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطباع عن وكيع عن الأعمش به ، ثم قال وأخبرنا زونان يعنى عبد الملك بن الحسين عن ابن وهب عن مالك أنه قال السماء لا تدور واحتج بهذه الآية ومحدث « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » قلت وهذا الحديث في الصحيح والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِهْدَىٰ الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۖ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۚ ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم أى من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفة من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) وكقوله تعالى (وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون) قال الله تعالى (فلما جاءهم نذير وهو محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين) ما زادهم إلا نفورا (أى ما ازدادوا إلّا كفرا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله (استكبارا فى الأرض) أى استكبروا عن اتباع آيات الله (ومكر السيئ) أى ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله (ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله) أى وما يعود وبأل ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . قال ابن أبي حاتم ذكر على بن الحسين حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن أبي زكريا الكوفى عن رجل حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إياك ومكر السيئ فإنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله ولهم من الله طالب » وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به من مكر أو بغي أو نكث وتصديقها فى كتاب الله تعالى (ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله) (إنما بغىكم على أنفسكم) (ومن نكث فأنما ينكث على نفسه) وقوله عز وجل (فهل ينظرون إلا سنة الأولين) يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى لا تغير ولا تبدل بل هى جارية كذلك فى كل مكذب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له) ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد والله أعلم

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا * وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ شَيْءًا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جتهد به من الرسالة سيرا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها فخلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة الأموال والأولاد فما أغنى ذلك شيئا ولا دفع عنهم من عذاب الله من شىء لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شىء إذا أراد كونه فى السموات والأرض (إنه كان عليما قديرا) أى عليم بجميع الكائنات قدير على مجموعها ثم قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى لو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السموات والأرض وما يملكونه من دواب وأرزاق . قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان الثورى عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال : كأد الجعل أن يعذب فى جحره بذنوب ابن آدم ثم قرأ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال سعيد بن جبير والسدى فى قوله تعالى (ما ترك على ظهرها من دابة) أى لما سقام المظرفات جميع الدواب (ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ويوفى كل عامل بعمله فيجازى بالثواب أهل الطاعة وبالعقاب أهل العصية ولهذا قال تبارك وتعالى (فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) آخر تفسير سورة فاطر والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة يس وهى مكية ﴾

قال أبو عيسى الترمذى حدثنا قتيبة وسفيان بن وكيع حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرواسى عن الحسن بن صالح عن هارون أبى محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » ثم قال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن. وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه منظور فيه أما حديث الصديق رضي الله عنه فرواه الحكيمة الترمذي في كتابه نوادر الأصول ، وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقال أبو بكر البزار حدثنا عبد الرحمن بن الفضل حدثنا زيد بن الحباب حدثنا حميد هو المكي مولى آل علقمة عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس » ثم قال لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا إسحق بن أبي إسرائيل حدثنا حجاج بن محمد عن هشام بن زياد عن الحسن قال سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له » إسناده جيد . وقال ابن حبان في صحيحه حدثنا محمد بن إسحق ابن إبراهيم مولى ثقيف حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكوني حدثنا أبي حدثنا زياد بن خيثمة حدثنا محمد ابن جحادة عن الحسن عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجهه الله عز وجل غفر له » وقد قال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً . واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش فوصلت بها - أو فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له وقرأوها على موتاكم » وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن محمد بن عبد الأعلى عن معتمر بن سليمان به : ثم قال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا ابن المبارك حدثنا سليمان التيمي عن أبي عثمان وليس بالنهدي عن أبيه عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقرءوها على موتاكم » يعنى يس ورواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به إلا أن في رواية النسائي عن أبي عثمان عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، ولهذا قال بعض العلماء من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم . قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون إذا قرئت يعنى يس عند الميت خفف الله عنه بها . وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » يعنى يس

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَسَّ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة أن يس بمعنى يا إنسان ، وقال سعيد بن جبير هو كذلك في لغة الحبشة ، وقال مالك عن زيد بن أسلم هو اسم من أسماء الله تعالى (والقرآن الحكيم) أى الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (إنك) أى يا محمد (لمن المرسلين) على صراط مستقيم (أى على منهج ودين قويم وشرع مستقيم) (تنزيل العزيز الرحيم) أى هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور) . وقوله تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) يعنى بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير من قبله وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم

كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة في عموم بعثته صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) : وقوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) قال ابن جرير لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون (فهم لا يؤمنون) بالله ولا يصدقون رسوله

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)

يقول تعالى إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارفع رأسه فصار مقمحا ولهذا قال تعالى (فهم مقمحون) والمقمح هو الرافع رأسه كما قالت أم زرع في كلامها : وأشرب فأقمح ، أى أشرب فأروى وأرفع رأسي تهنيئا وترويا ، واكتفى بذكر الغل في العنق عن ذكر اليدين وإن كانتا مرادتين كما قال الشاعر :

فما أدري إذا جمعت أرضا * أريد الخير أيهما يليني
أأخير الذي أنا أبتغيه * أم الشر الذي لا يأتليني

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لما دل الكلام والسياق عليه : وهكذا هذا لما كان الغل إنما يعرف فيما جمع اليدين مع العنق اكتفى بذكر العنق عن اليدين ، قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون) قال هو كقوله عز وجل (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقال مجاهد (فهم مقمحون) قال رافعي ردوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير وقوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سدا) قال مجاهد عن الحق (ومن خلفهم سدا) قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون . وقال قتادة في الضلالات وقوله تعالى (فأغشيناهم) أى أغشينا أبصارهم عن الحق (فهم لا يبصرون) أى لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه ، قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقرأ (فأغشيناهم) بالعين المهملة من العشا وهوداء في العين ، وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه وقرأ (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع . وقال عكرمة قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا - إلى قوله - فهم لا يبصرون) قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو ؟ لا يبصره ، رواه ابن جرير ، وقال محمد بن إسحق حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس إن محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ (يس * والقرآن الحكيم - حتى انتهى إلى قوله تعالى - وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته وباتوا رصدا على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار فقال مالك ؟ قالوا ننتظر محمداً

قال قد خرج عليكم لما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفذ ما على رأسه من التراب . قال وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم قول أبي جهل فقال « وأنا أقول ذلك إن لهم منى لذبحاً وإنه لآخذهم » وقوله تبارك وتعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به ، وقد تقدم نظيرها في أول سورة البقرة وكما قال تبارك وتعالى (إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) (إنما تنذر من اتبع الذكر) أى إنما ينتفع بالإنذار المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم (وخشى الرحمن بالغيب) أى حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل (فبشره بمغفرة) أى لذنبه (وأجر كريم) أى كثير واسع حسن جميل كما قال تبارك وتعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) ثم قال عز وجل (إنا نحن نحيي الموتى) أى يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فهدىهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) وقوله تعالى (ونكتب ما قدموا) أى من الأعمال ، وفي قوله تعالى (وآثارهم) قولان (أحدهما) نكتب أعمالهم التي باثروها بأنفسهم وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضاً إن خيراً فخير وإن شراً فشر كقوله صلى الله عليه وسلم « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » رواه مسلم من رواية شعبة عن عون بن أبي جحيفة عن المنذر بن جرير عن أبيه جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه ، وفيه قصة مجتأبى الثمار المصريين ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن سليمان الجعفي عن أبي الهيثم يحيى بن يعلى عن عبد الملك بن عمير عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه فذكر الحديث بطوله ثم تلا هذه الآية (ونكتب ما قدموا وآثارهم) وقدرناه مسلم من رواية أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن المنذر بن جرير عن أبيه فذكره ، وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده » وقال سفيان الثوري عن أبي سعيد رضى الله عنه قال سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) قال ما أوثروا من الضلالة وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى (ونكتب ما قدموا وآثارهم) يعنى ما أثروا ، يقول ماسنوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً ، وإن كانت شراً فلهم مثل أوزارهم ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً ذكرهما ابن أبي حاتم ، وهذا القول هو اختيار البغوى (والقول الثانى) أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد (ما قدموا) أعمالهم (وآثارهم) قال خطاهم بأرجلهم ، وكذا قال الحسن وقتادة (وآثارهم) يعنى خطاهم وقال قتادة لو كان الله عز وجل مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ماتعنى الرياح من هذه الآثار ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد وردت في هذه المعنى أحاديث (الحديث الأول) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال قلت لخلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك سول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال ﷺ يا بنى سلمة « دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم » وهكذا رواه مسلم من حديث سعيد الجريري وكهش بن الحسن كلاهما عن أبي نضرة واسمه المنذر بن مالك بن قطعة العبدي عن جابر رضى الله عنه به (الحديث الثانى) قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن الوزير الواسطى حدثنا إسحاق الأزرق عن سفيان الثوري عن أبي سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال

كانت بنوا سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) فقال لهم النبي ﷺ « إن آثاركم تكتب » فلم ينتقلوا ، تفرد بإخراجه الترمذي عند تفسيره هذه الآية الكريمة عن محمد بن الوزير به ثم قال حسن غريب من حديث الثوري ، ورواه ابن جرير عن سليمان بن عمر بن خالد الرقي عن ابن المبارك عن سفيان الثوري عن طريف - وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدي - عن أبي نضرة به ، وقد روى من غير طريق الثوري فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عباد بن زياد الساجي حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن سعيد الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد فنزلت (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فأقاموا في مكانهم وحدثنا محمد بن الثني حدثنا عبد الأعلى حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكاملها مكية فأنه أعلم ، (الحديث الثالث) قال ابن جرير حدثنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا إسرائيل عن ممالك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد فنزلت (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فقالوا ثبت مكاننا ، هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع ، ورواه الطبراني عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم عن محمد بن يوسف الفريابي عن إسرائيل عن ممالك عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد فنزلت (ونكتب ما قدموا وآثارهم) فثبتوا في منازلهم ، (الحديث الرابع) قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحلي عن عبد الله عمرو رضى الله عنهما قال توفي رجل بالمدينة ف صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال « ياليت مات في غير مولده » فقال رجل من الناس : ولم يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفي في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة » ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى وابن ماجه عن حرمة كلاهما عن ابن وهب عن حي بن عبد الله به وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا أبو تميلة حدثنا الحسين عن ثابت قال مشيت مع أنس رضى الله عنه فأسرعت المشى فأخذ بيدي فمشينا رويدا فلما قضينا الصلاة قال أنس مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى فقال يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ وهذا القول لاتنافي بينه وبين الأول بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى فانه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم وقوله تعالى (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) أى وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وكذا في قوله تعالى (يوم ندعوا كل أناس بإمامهم) أى بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر كما قال عز وجل (ووضع الكتاب وجىء بالبين والشهداء) وقال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا كَذِبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا بِالْبَلَّغِ الْمُبِينِ ﴾

يقول تعالى واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك (مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه أنها مدينة انطاكية وكان بها ملك يقال له انطيوخس ابن انطيوخس بن انطيوخس وكان يعبد الأصنام فبعث الله تعالى اليه ثلاثة من الرسل وهم صادق وصدوق وشلوم فكذبهم

وهكذا روى عن بريدة بن الحصيب وعكرمة وقادة والزهرى أنها انطاكية ، وقد استشكل بعض الأئمة كونها انطاكية بما سنده من بعدهم بعد تمام القصة إن شاء الله تعالى

وقوله تعالى (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما) أى بادروهما بالكذب (فعزنا بثالث) أى قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث قال ابن جريج عن وهب بن سليمان عن شعيب الجببى قال كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولص والقرية انطاكية (فقالوا) أى لأهل تلك القرية (إنا إليكم مرسلون) أى من ربكم الذى خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ، وقاله أبو العالية وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل انطاكية (قالوا ما أتم إلا بشر مثلنا) أى فكيف أوحى إليكم وأتم بشر ونحن بشر فلم لأوحى إلينا مثلكم ولو كنتم رسلا لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله عز وجل (ذلك بأنه كانت تأتهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ؟) أى استعجبوا من ذلك وأنكروه ، وقوله تعالى (قالوا إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين) وقوله تعالى حكاية عنهم فى قوله جل وعلا ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون) وقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟) ولهذا قال هؤلاء (ما أتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أتم إلا تكذبون * قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى أجابهم رسلهم الثلاثة قائلين الله يعلم أنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لا تنقم منا أشد الانتقام ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار كقوله تعالى (قل كفى بيني وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) (وما علينا إلا البلاغ المبين) يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم فاذا أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة وإن لم تحيوا فاستعلمون غب ذلك والله أعلم

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية (إنا تطيروا بكم) أى لم نر على وجوهكم خيرا فى عيشنا . وقال قتادة يقولون إن أصابنا شر فأنما هو من أجلكم . وقال مجاهد يقولون لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها (لئن لم تنتهوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ) قال قتادة بالحجارة ، وقال مجاهد بالشم (ولیمسنكم منا عذاب أليم) أى عقوبة شديدة ، فقالت لهم رسلهم (طائركم معكم) أى مردود عليكم كقوله تعالى فى قوم فرعون (فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بعوسى ومن معه إلا إنما طائركم عند الله) وقال قوم صالح (اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله) وقال قتادة ووهب بن منبه أى أعمالكم معكم . وقال عز وجل (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟) وقوله تعالى (أنئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) أى من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا بل أنتم قوم مسرفون . وقال قتادة أى إن ذكرناكم بالله تطيبرتم منا بل أنتم قوم مسرفون

﴿ وَجَاء مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ * وَمَالِيَ لَأَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّى إِذًا لِّى ضَلَلٍ مُّبِينٍ * إِنِّى ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾

قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه: إن أهل القرية هموا بقتل رسالهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أى لينصرهم من قومه قالوا وهو حبيب وكان يعمل الحرير وهو الحباك وكان رجلا سقيا قد أسرع فيه الجذام وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه مستقيم الفطرة^(١) ، وقال ابن إسحاق عن رجل سمى عن الحكم عن مقسم أو عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اسم صاحب يس حبيب وكان الجذام قد أسرع فيه وقال الثوري عن عاصم الأحوال عن أبي مجلز كان اسمه حبيب بن مري وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال اسم صاحب يس حبيب النجار فقتله قومه وقال السدي كان قصارا وقال عمر بن الحكم كان إسكفا وقال قتادة كان يتعبد في غار هناك (قال يا قوم اتبعوا المرسلين) يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) أى على إبلاغ الرسالة (وهم مهتدون) فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له (وما لى لا أعبد الذى فطرني) أى وما يمنعني من إخلاص العبادة للذى خلقني وحده لا شريك له (وإليه ترجعون) أى يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر (أن أنجد من دونه آلهة) استفهام إنكار وتوبيخ وتقرع (إن يردنى الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) أى هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يمكن أن يكون من الأمر شيئا فإن الله تعالى لو أرادنى بسوء (فلا كاشف له إلا هو) وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوننى مما أنا فيه (إني إذا لفي ضلال مبين) أى إن اتخذتها آلهة من دون الله ، وقوله تعالى (إني آمنت بربكم فاسمعون) قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب ووهب يقول لقومه (إني آمنت بربكم) الذى كفرتم به (فاسمعون) أى فاسمعوا قولى ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله (إني آمنت بربكم) أى الذى أرسلكم (فاسمعون) أى فاشهدوا لى بذلك عنده وقد حكاه ابن جرير فقال وقال آخرون بل خاطب بذلك الرسل وقال لهم اسمعوا قولى لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى إني آمنت بربكم واتبعتكم وهذا القول الذى حكاه عن هؤلاء أظهر فى المعنى والله أعلم ، قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضى الله عنهما وكعب ووهب رضى الله عنهما فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه ، وقال قتادة جعلوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلم يزالوا به حتى أقصوه وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خُمُودٌ ﴾

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضى الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره وقال الله له (ادخل الجنة) فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها وقال مجاهد قيل لحبيب النجار ادخل الجنة وذلك أنه قتل فوجبت له فلما رأى الثواب (قال ياليت قومي يعلمون) قال قتادة لا تلقى المؤمن إلا ناصحا لا تلقاه غاشا . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى (قال ياليت قومي يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه وقال ابن عباس نصح قومه فى حياته بقوله (يا قوم اتبعوا المرسلين) وبعد مماته فى قوله (ياليت قومي يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) رواه ابن أبى حاتم وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحوال عن أبي مجلز (بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) بإيماني بربى وتصديق الرسلين ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل لى من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فلقد كان حريصا على هداية قومه . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا ابن جابر هو محمد عن عبد الملك يعنى ابن عمير قال : قال عروة بن مسعود الثقفى رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم ابعتنى إلى قومي أَدْعُوهم إلى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أخاف أن

يقتلوك » فقال لو وجدوني نائما ما أيقظوني فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « انطلق » فانطلق فر طى اللات والعزى فقال لأصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال يا معشر ثقيف إن اللات لالات وإن العزى لاعزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف إن العزى لا عزى وإن اللات لالات أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « هذا مثله كمثل صاحب يس » (قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) . وقال محمد بن إسحق عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم أنه حدث عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار الذي كان مسيلة الكذاب قطعه باليمامة حين جعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول له : أنشهد أن محمدا رسول الله ؟ فيقول نعم ثم يقول أنشهد أني رسول الله فيقول لا أسمع فيقول له مسيلة لعنه الله أنسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول نعم فجعل يقطعه عضوا عضوا كلما سأله لم يزد على ذلك حتى مات في يديه فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب وكان والله صاحب يس اسمه حبيب . وقوله تبارك وتعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبامنه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود فيما رواه ابن إسحق عن بعض أصحابه أنه قال في قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أي ما كثر ناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) قال فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهلك أهل انطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية وقيل (وما كنا منزلين) أي وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم ، وقيل المعنى في قوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) أي من رسالة أخرى إليهم قاله مجاهد وقناة قال قتادة فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) قال ابن جرير والأول أصح لأن الرسالة لا تسمى جنداً . قال المفسرون بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام فأخذ بعضا دق باب بلدهم ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم لم تبق بهم روح تردد في جسد ، وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي انطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا عند المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما نص عليه قتادة وغيره وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه (أحدها) أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح عليه السلام كما قال تعالى (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون * - إلى أن قالوا - ربنا إنا إليكم مرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين) ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم (إن أتمم إلبشر مثلنا) (الثاني) أن أهل انطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ولهذا كانت عند النصارى إحدى الدائن الأربع التي فيها بركة وهن القدس لأنها بلد المسيح وانطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والاسكندرية لأن فيها اصطلاحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والاساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما ابنتي القسطنطينية ثقلوا البترك من رومية إليها كاذ كرم غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والسلمين فإذا تقرر أن انطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكروا الله تعالى أنهم كذبوا رسله وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخدمتهم والله أعلم (الثالث) أن قصة انطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضى الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى

غير انطاكية كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً . أو تكون انطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة فان هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في اللغة النصرانية ولا قبل ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم ، فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا الحسين بن أبي السرى العسقلاني حدثنا حسين الأشقر حدثنا ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى عليه الصلاة والسلام يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى عليه الصلاة والسلام صاحب يس ، والسابق إلى محمد صلى الله عليه وسلم طى بن أبي طالب رضى الله عنه » فانه حديث منكر لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر وهو شيعى متروك والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ يَحْشَرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ أَقْرُونِ أَنْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مَرْجِعُونَ * وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

قال طى بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (يا حشرة على العباد) أى ياولد العباد وقال قتادة (يا حشرة على العباد) أى يا حشرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله ، وفي بعض القراءات يا حشرة العباد على أنفسهم ومعنى هذا يا حشرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف كذبوا رسل الله وخالفوا أمر الله فانهم كانوا في الدار الدنيا المكذبون منهم (ما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى يكذبونه ويستهزئون به ويحسدون ما أرسل به من الحق ثم قال تعالى (ألم يروا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مَرْجِعُونَ) أى ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلهم وفجرتهم من قولهم (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى) وهم القائلون بالدور من الدهرية وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها فرد الله تبارك وتعالى عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى (ألم يروا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنْهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مَرْجِعُونَ) وقوله عز وجل (وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أى وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذا كقوله جل وعلا (وإن كلا لما ليوفيهم ربه عملهم) وقد اختلف القراء في أداء هذا الحرف فمنهم من قرأ (وإن كل لما) بالتخفيف فعنده أن إن للاثبات ومنهم من شدد (لما) وجعل ان نافية ولما بمعنى إلا ، تقديره وما كل إلا جميع لدينا محضرون ومعنى القراءتين واحد والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى (وآية لهم) أى دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى (الأرض الميتة) أى إذا كانت ميتة هامة لا شئ فيها من النبات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى (أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) أى جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون) أى جعلنا فيها أنهارا سارحة في أمكنة يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره : لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله جل وعلا (وما عملته أيديهم) أى وما ذاك كله إلا من رحمة تعالى الله بهم لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم قاله ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة ولهذا قال تعالى (أفلا يشكرون) أى فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد

ولا تحصى ، واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن ما في قوله تعالى (وما عملته أيديهم) بمعنى الذى تقديره ليا كوا من ثمره وما عملته أيديهم أى غرسوه ونصبوه ، قال وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه (ليا كوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) ، ثم قال تبارك وتعالى (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) أى من زروع وثمار ونبات (ومن أنفسهم) فجعلهم ذكرًا وأنثى (وما لا يعلمون) أى من مخلوقات شتى لا يعرفونها كما قال جلست عظمتهم (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

يقول تعالى ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار هذا بظلامه وهذا بضائه وجعلهما يتعاقبان يحى هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيحى هذا كما قال تعالى (ينشى الليل النهار يطلبه حثيثا) ولهذا قال عز وجل ههنا (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) أى نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ولهذا قال تبارك وتعالى (فاذا هم مظلمون) كما جاء فى الحديث « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » هذا هو الظاهر من الآية وزعم قتادة أنها كقوله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وقد ضعف ابن جرير قول قتادة ههنا ، وقال إنما معنى الإيلاج الأخذ من هذا فى هذا وليس هذا مرادا فى هذه الآية وهذا الذى قاله ابن جرير حق . وقوله جل جلاله (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) فى معنى قوله (لمستقر لها) قولان أحدهما أن المراد مستقرها المكانى وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب وهى أينما كانت فهى تحت العرش وهى جميع المخلوقات لأنه سقفها وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هوقبة ذات قوائم تحملها الملائكة وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فاذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ما تكون إلى العرش فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع كما جاءت بذلك الأحاديث. قال البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس فقال صلى الله عليه وسلم « يا أباذر أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فذلك قوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز) » حدثنا عبد الله بن الزبير الحميدى حدثنا وكيع حدثنا عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبي ذر رضى الله عنه ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تبارك وتعالى (والشمس تجري لمستقر لها) قال صلى الله عليه وسلم « مستقرها تحت العرش » هكذا أورده ههنا ، وقد أخرجه فى أماكن متعددة ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه من طرق عن الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبي ذر قال كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين غربت الشمس فقال صلى الله عليه وسلم « يا أباذر تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت الله ورسوله أعلم ، قال صلى الله عليه وسلم « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها وكأنها قد قيل لها ارجعى من حيث جئت فترجع إلى مطلعها وذلك مستقرها - ثم قرأ - (والشمس تجري لمستقر لها) » وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس « أتدرى أين تذهب ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك

أن تسجد فلا يقبل منها ؟ وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) »

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أبي إسحاق عن وهب بن جابر عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال في قوله تعالى (والشمس تجري لمستقر لها) قال إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم حتى إذا غربت سلمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت واستأذنت فلا يؤذن لها فتقول إن المسير بعيد وإنى إن لا يؤذن لى لأبلغ فتحبس ماشاء الله أن تحبس ثم يقال لها اطلعى من حيث غربت قال فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفخ نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا . وقيل المراد بمستقرها هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها في السماء في الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها في الشتاء وهو الحضيض (والقول الثانى) أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها وهو يوم القيامة يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور وينتهى هذا العالم إلى غايته وهذا هو مستقرها الزمانى قال قتادة (لمستقر لها) أى لوقتها ولأجل لاتعدوه ، وقيل المراد أنها لاتزال تنتقل في مطالعها الصيفية إلى مدة لاتزيد عليها ثم تنتقل في مطالع الشتاء إلى مدة لاتزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما . وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما (والشمس تجري لامستقر لها) أى لاقرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهارا لاتقتر ولا تنقف كما قال تبارك وتعالى (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة (ذلك تقدير العزيز) أى الذى لا يخالف ولا يمانع (العليم) بجميع الحركات والسكنات وقد قدر ذلك ووقته على منوال لا اختلاف فيه ولاتما كس كما قال عز وجل (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) وهكذا ختم آية حم السجدة بقوله تعالى (ذلك تقدير العزيز العليم) ثم قال جل وعلا (والقمر قدرناه منازل) أى جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضى الشهور كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار كما قال عز وجل (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) . وقال تعالى (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) الآية وقال تبارك وتعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا) فجعل الشمس لها ضوء يخصها والقمر له نور يخصه وفاوت بين سير هذه وهذا فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ثم يطول الليل ويقصر النهار وجعل سلطانها بالنهار فهى كوكب نهاري ، وأما القمر فقدرة منازل يطلع فى أول ليلة من الشهر ضيلا قليل النور ثم يزداد نورا فى الليلة الثانية ويرتفع منزلة ثم كلما ارتفع ازداد ضياء وإن كان مقتبسا من الشمس حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم . قال ابن عباس رضى الله عنهما وهو أصل العنق ، وقال مجاهد العرجون القديم أى العنق اليابس يعنى ابن عباس رضى الله عنهما أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما ثم بعد هذا بيده الله تعالى جديدا فى أول الشهر الآخر والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر فيسمون الثلاث الأول غرر واللواتى بعدها ثقل ، واللواتى بعدها تسع لأن آخرهن التاسعة فى اللواتى بعدها عشر لأن أولاهن العاشرة واللواتى بعدها البيض لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن درع جمع درعاء لأن أولهن أسود لتأخر القمر فى أولهن منه ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود وبهذه ثلاث ظلم ثم ثلاث حنادس وثلاث دأدى وثلاث محاق لانمحاق القمر أول الشهر فيهن ، وكان أبو عبيدة رضى الله عنه ينكر التسع والعشر . كذا قال فى كتاب غريب المصنف . وقوله تبارك وتعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) قال مجاهد لكل منهما حد لا يعدوه ولا يقصر دونه إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الحسن فى قوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) قال ذلك ليلة الهلال . وروى ابن أبى حاتم ههنا عن عبد الله بن المبارك أنه قال إن للريح جناحا

وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء ، وقال الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد عن أبى صالح لا يدرك هذا ضوء هذا ولا هذا ضوء هذا . وقال عكرمة فى قوله عز وجل (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر) يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل . وقوله تعالى (ولا الليل سابق النهار) يقول لا ينبغي إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار فسلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقال الضحاك لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا وأوماً بيده إلى المشرق ، وقال مجاهد (ولا الليل سابق النهار) يطلبان حثيثين يسلم أحدهما من الآخر ، والمعنى فى هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلبا حثيثا . وقوله تبارك وتعالى (وكل فى فلك يسبحون) يعنى الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون أى يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم وهو غريب جداب لمنكر ، قال ابن عباس رضى الله عنهما وغير واحد من السلف فى فلك كفلك الغزل ، وقال مجاهد الفلك كحديدة الرمح أو كفلك الغزل لا يدور الغزل إلا بها ولا تدور إلا به

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُفْرِقَهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يقول تبارك وتعالى ودلالة لهم أيضا على قدرته تبارك وتعالى تسخير البحر ليحمل السفن فمن ذلك بل أوله سفينة نوح عليه الصلاة والسلام التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام غيرهم ولهذا قال عز وجل (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أى آباءهم (فى الفلك المشحون) أى فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التى أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : المشحون الموقر ، وكذا قال سعيد بن جبير والشعبي وقتادة والسدى ، وقال الضحاك وقتادة وابن زيد وهى سفينة نوح عليه الصلاة والسلام . وقوله جل علا (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما يعنى بذلك الإبل فانها سفن البر يحملون عليها ويركبونها ، وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة فى رواية وعبد الله بن شداد وغيرهم ، وقال السدى فى رواية هى الأنعام . وقال ابن جرير حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا محمد بن فضيل عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال أتدرون ما قوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) قلنا لا ، قال هى السفن جعلت من جد سفينة نوح عليه الصلاة والسلام على مثلها ، وكذا قال أبو مالك والضحاك وقتادة وأبو صالح والسدى أيضا المراد بقوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أى السفن ، ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله جل وعلا (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرا ونعينا أذن واعية) . وقوله عز وجل (وإن نشأ نفرقهم) يعنى الذين فى السفن (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم بما هم فيه (ولا هم ينقذون) أى بما أصابهم (إلا رحمة منا) وهذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ولهذا قال تعالى (ومتاعا إلى حين) أى إلى وقت معلوم عند الله عز وجل

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطِقُوا لَنَا مِمَّا نَوْشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تهادى المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة (وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم) قال مجاهد من الذنوب وقال غيره بالعكس (لعلمكم ترجمون) أى لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه وتقدير الكلام أنهم لا ينجون إلى ذلك بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى (وما تأتهم آية من آيات من ربهم) أى على التوحيد وصدق الرسل (إلا كانوا عنها معرضين) أى لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها . وقوله عز وجل (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) أى وإذا أمروا بالاتفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمهاجرين من المسلمين (قال الذين كفروا للذين آمنوا) أى عن الذين آمنوا من الفقراء أى قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالاتفاق حاجين لهم فيما أمرهم به (أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) أى هؤلاء الذين أمرتمونا بالاتفاق عليهم لو شاء الله لأغناهم ولأطعمهم من رزقه فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم (إن أتم إلا في ضلال مبين) أى فى أمركم لنا بذلك ، قال ابن جرير ويحتمل أن يكون من قول الله عز وجل للكفار حين ناظروا المؤمنين وردوا عليهم فقال لهم (إن أتم إلا فى ضلال مبين) وفى هذا نظر والله أعلم

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ * مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم (متى هذا الوعد) (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) قال الله عز وجل (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أى ما ينتظرون إلا صيحة واحدة وهذه والله أعلم نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعابشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم فيبنيهم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرأفل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى لیتاورفع لیتا وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الوجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ولهذا قال تعالى (فلا يستطيعون توصية) أى على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك (ولا إلى أهلهم يرجعون) وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ماعدا الحى القيوم ثم بعد ذلك نفخة البعث

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا نَخْضَرُونَ * فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿

هذه هي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ولهذا قال تعالى (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) والنسلان هو المشى السريع كما قال تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . قال أبو بن كعب رضى الله عنه ومجاهد والحسن وقتادة : ينامون نومة قبل البعث قال قتادة وذلك بين النفختين فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) وقال الحسن إنما يحيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذا الجمع ممكن والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح وذلك كقوله تبارك وتعالى في الصفات (وقالوا

يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (وقال الله عز وجل (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون)

وقوله تعالى (إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) كقوله عز وجل (فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة) وقال جلت عظمتها (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) وقال جل جلاله (يوم يدعوكم فتستجيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى إنما نأمرهم أمرا واحدا فإذا الجميع محضرون (فالיום لا تظلم نفس شيئا) أى من عملها (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)

﴿ إِن أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ، قال الحسن البصري وإسماعيل بن أبي خالد في شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد (في شغل فاكهون) أى في نعيم معجبون أى به . وكذا قال قتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما فاكهون أى فرحون ، قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن المسيب وعكرمة والحسن وقاتدة والأعمش وسليمان التيمي والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) قالوا شغلهم اقتضاض الأبقار ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية عنه (في شغل فاكهون) أى بسماع الأوتار ، وقال أبو حاتم لعله غاط من المستمع وإنما هو اقتضاض الأبقار . وقوله عز وجل (هم وأزواجهم) قال مجاهد وحلائلهم (في ظلال) أى في ظلال الأشجار (على الأرائك متكئون) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقاتدة والسدي وخفيف (الأرائك) هى السرر تحت الحبال [قلت] نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله عز وجل (لهم فيها فاكهة) أى من جميع أنواعها (ولهم ما يدعون) أى مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف اللذات . قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا محمد بن مهران عن الضحاك المعافري عن سليمان بن موسى حدثني كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضى الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا هل مشمر إلى الجنة ! فإن الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور كلها يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة . وفاكهة خضرة وخير ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها قال ﷺ « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، وكذا رواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه من حديث الوليد بن مسلم عن محمد بن مهران به . وقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال ابن جريج قال ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) فإن الله تعالى نفسه سلام على أهل الجنة وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما كقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) . وقد روى ابن أبي حاتم ههنا حديثا وفي إسناده نظر فانه قال : حدثنا موسى بن يوسف حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب حدثنا أبو عاصم العباداني حدثنا الفضل الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة فذلك قوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) قال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم وفي ديارهم » ورواه ابن ماجه في كتاب السنة

من سننه عن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب به ، وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب حدثنا حرملة عن سليمان بن حميد قال سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال : إذا فرغ الله تعالى من أهل الجنة والنار أقبل في ظلال من الغمام والملائكة قال فيسلم على أهل الجنة فيردون عليه السلام قال القرظي وهذا في كتاب الله تعالى (سلام قولاً من رب رحيم) فيقول الله عز وجل : سلوني ، فيقولون ماذا نسألك أي رب أقال بلى سلوني ، قالوا نسألك أي رب رضاك ، قال رضائي أحلكم دار كرامتي قالوا يا رب فما الذي نسألك فوعزت لك وجلالك وارتفاع مكانك لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم لا يتقصنا ذلك شيئاً . قال تعالى إن لدى مزيداً قال فيفعل ذلك بهم في درجهم حتى يستوي في مجلسه ، قال ثم تأتيتهم التحف من الله عز وجل تحملهم إليهم الملائكة ثم ذكر نحوه . وهذا خبر غريب أورده ابن جرير من طرق والله أعلم .

﴿ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَدْبَنِي ، أَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم) وقال عز وجل (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) (يومئذ يصدعون) أي يصيرون صدعين فرقتين (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) ، وقوله تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) هذا تقرير من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم ولهذا قال تعالى (وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان وأمرتكم بعبادتي وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتهم غير ذلك واتبعت الشيطان فيما أمركم به ولهذا قال عز وجل (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا) يقال جبلا بكسر الجيم وتشديد اللام ، ويقال جبلا بضم الجيم والباء وتخفيف اللام ، ومنهم من يسكن الباء والمراد بذلك الخلق الكثير قاله مجاهد وقتادة والسدي وسفيان بن عيينة . وقوله تعالى (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له وعدولكم إلى اتباع الشيطان . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن إسماعيل بن رافع عن عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) (وأما تاروا اليوم أيها المجرمون) فيتميز الناس ويبحثون وهي التي يقول الله عز وجل (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) »

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة وقد برزت الجحيم لهم تقريرا وتويخا (هذه جهنم التي كنتم توعدون) أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموه (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) كما قال تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا

هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أنتم لاتبصرون) وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ويحلفون ما فعلوه فيختم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم بما عملت . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو شعبة إبراهيم ابن عبد الله بن أبي شعبة حدثنا منجاب بن الحارث التميمي حدثنا أبو عامر الأزدي حدثنا سفيان عن عبيد المكتب عن الفضل بن عمرو عن الشعبي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال صلى الله عليه وسلم « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال صلى الله عليه وسلم « من مجادلة العبدربه يوم القيامة يقول رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول لا أجز على إلا شاهدا من نفسي ، فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانها انطقي فتنتطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائي كلاهما عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبي النضر عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي عن سفيان هو الثوري به . ثم قال النسائي لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي وهو حديث غريب والله تعالى أعلم . كذا قال وقد تقدم من رواية أبي عامر عن عبد الملك بن عمرو الأسدي وهو العقدي عن سفيان ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم : قال « إنكم تدعون مهدما على أفواهكم بالقدام فأول ما يسأل عن أحدكم فيخذه وكتفه رواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ، وقال سفيان بن عيينة عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث القيامة الطويل قال فيه « ثم يلقى الثالث فيقول ما أنت فيقول أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك وصمت وصليت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع - قال - فيقال له ألا نبعث عليك شاهدا ؟ - قال فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي - قال - فتنتطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل وذلك المنافق وذلك ليعذر من نفسه وذلك الذي يستخط الله تعالى عليه » ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان بن عيينة به بطوله ثم قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل اليسرى » ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف عن عبد الله بن المبارك عن إسماعيل بن عياش به مثله . وقد جرد إسناده الإمام أحمد رحمه الله فقال حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد الحضرمي عن عمن حدثه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال » وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة قال أبو موسى هو الأشعري رضي الله عنه يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول نعم أي رب عملت عملت عملت قال فيفقر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها قال فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئا وتبدوا حسناته فود أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فاني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ثم تلا (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقوله تبارك وتعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فاني يبصرون) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها يقول ولو نشاء لأضلناهم عن الهدى فكيف يهتدون وقال مرة أعمينا وقال الحسن البصري لو شاء الله لطمس على أعينهم فجعلهم عميا يترددون وقال السدي يقول ولو نشاء أعمينا أبصارهم وقال مجاهد وأبو صالح وقتادة والسدي فاستبقوا الصراط يعني الطريق وقال ابن زيد يعني

بالصراط ههنا الحق فأني يبصرون وقد طمستنا على أعينهم وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما فأني يبصرون لا يبصرون الحق . وقوله عز وجل (ولونشاء لمسخناهم على مكاتهم) قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما أهلكتناهم وقال السدى يعنى لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصرى وقتادة لأقعدهم على أرجلهم ولهذا قال تبارك وتعالى (فما استطاعوا مضياً) أى إلى أمام (ولا يرجعون) إلى وراء بل يلزمون حالاً واحداً لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْلَمُونَ * وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ * لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط كما قال تبارك وتعالى (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) وقال عز وجل (ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) والمراد من هذا والله أعلم الاخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال لادار دوام واستقرار ولهذا قال عز وجل (أفلا يعقلون) أى يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ثم إلى الشيخوخة ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لازوال لها ولا انتقال منها ولا محيد عنها وهى الدار الآخرة ، وقوله تبارك وتعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) يقول عز وجل مخبراً عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه ما علمه الشعر (وما ينبغي له) أى ما هو فى طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضية جبلته ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه ، وقال أبو زرعة الرازى حدثنا إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي أنه قال ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر إلا رسول الله ﷺ ذكره ابن عساكر فى ترجمة عتبة بن أبى لهب الذى أكله الأسد بالزرقاء قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبوسلمة حدثنا حماد بن سلمة عن علف بن زيد عن الحسن هو البصرى قال إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت * كفى بالاسلام والمرء ناهياً * فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله * كفى الشيب والاسلام للمرء ناهياً * قال أبو بكر أو عمر رضى الله عنهما: أشهد أنك رسول الله يقول تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وهكذا روى البيهقى فى الدلائل أن رسول الله ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى رضى الله عنه « أنت القائل : * أنجعل نهى ونهب العبيد بين الأقرع وعينة * » فقال إنما هو بين عينة والأقرع فقال ﷺ « الكل سواء » يعنى فى المعنى صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وقد ذكر السهلى فى الروض الأنف لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ﷺ فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عينة بن بدر الفزارى لأنه ارتد أيام الصديق رضى الله عنه بخلاف ذاك والله أعلم ، وهكذا روى الأماوى فى مغازيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمضى بين القتلى يوم بدر وهو يقول « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضى الله عنه متمماً للبيت

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلم

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له وهى فى الحماسة وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا مغيرة عن الشعبي عن عائشة رضى الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة :

* ويأتيك بالأخبار من لم تزود * وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها ورواه الترمذى والنسائى أيضاً من حديث المقدم بن شريح بن هانئ عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها كذلك ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وقال الحافظ أبو بكر البرار حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أسامة عن زائد عن

مماك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار
* ويأتيك بالأخبار من لم تزود * ثم قال ورواه غير زائدة عن مماك عن عطية عن عائشة رضى الله عنها وهذا فى شعر
طرفة بن العبد فى معلقته المشهورة وهذا المذكور عجز بيت منها أوله

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتانا ولم تضرب له وقت موعد

وقال سعيد بن أبى عروة عن قتادة قيل لعائشة رضى الله عنها هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشى من الشعر ؟ قالت
رضى الله عنها كان أبغض الحديث إليه غير أنه ﷺ كان يتمثل بيت أخى بنى قيس فيجعل أوله آخره وآخره أوله
فقال أبو بكر رضى الله عنه ليس هذا هكذا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ « إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لى »
رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وهذا لفظه وقال معمر عن قتادة بلغنى أن عائشة رضى الله عنها سألت هل كان
رسول الله ﷺ يتمثل بشى من الشعر فقال رضى الله عنها لا إلا بيت طرفة

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل صلى الله عليه وسلم يقول « من لم تزود بالأخبار » فقال أبو بكر ليس هذا هكذا فقال صلى الله عليه وسلم
« إني لست بشاعر ولا ينبغي لى » وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد
ابن نعيم وكيل المتقى ببغداد حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضريز حدثنا طى بن عمرو والأنصارى حدثنا سفيان
ابن عيينة عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتا واحدا
تفاهل بما تهوى يكن فلقما يقال لشيء كان إلا تحقفا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى عن هذا الحديث فقال هو منكر ولم يعرف شيخنا الحاكم ولا الضريز وثبت
فى الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ولكن تبعا لقول أصحابه رضى الله
عنهم فانهم كانوا يرجزون وهم يحفرون فيقولون

لا هم لولا أنت ما اهتدينا * ولا تصدقنا ولا صلينا * فأتران سكينه علينا

وثبت الأقدام إن لا قينا * إن الأولى قد بغوا علينا * إذا أرادوا فتنة أينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله أينا ويدها وقد روى هذا بزحاف فى الصحيحين أيضا ، وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين
وهو راكب البغلة يقدم بها فى نحر العدو .

أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا هذا وقع اتفاقا من غير قصد لوزن شعر بل جرى على اللسان من غير قصد إليه وكذلك ما ثبت فى الصحيحين
عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ فى غار فنسكبت أصبعه فقال صلى الله عليه وسلم
هل أنت إلا أصبع دमित * وفى سبيل الله ما لقيت

وسياتى عند قوله تعالى (إلا اللهم) إنشاد

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما علم شعرا وما ينبغي له فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم (الذى لا يأتية
الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وليس هو بشعر كازعمه طائفة من جهالة كفار قريش ولا كهانة
ولا مفتعل ولا سحر يؤثر كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال وقد كانت سجيته صلى الله عليه وسلم تأبى صناعة
الشعر طبعا وشرعا كما رواه أبو داود قال حدثنا عبيد الله بن عمرو حدثنا عبد الله بن سويد حدثنا سعيد بن أبى أيوب حدثنا
شر حبيب بن يزيد المعافرى عن عبد الرحمن بن رافع التبوخي قال سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يقول سمعت
رسول الله ﷺ يقول « ما أبالى ما أوتيت إن أنا شربت ترياقا أو تعلقتم تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسى »

تفرد به أبو داود وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن الأسود بن شيبان عن أبي نوفل قال سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسائح عنده الشعر؟ فقالت قد كان أبغض الحديث إليه ، وقال عن عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الجوامع من الدعاء ويدع ما بين ذلك وقال أبو داود حدثنا أبو الوليد الطيالسي حدثنا شعبة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « لأن يمتلىء جوف أحدكم قبحاً خيراً له من أن يمتلىء شعراً » انفرد به من هذا الوجه وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا قزعة بن سويد الباهلي عن عاصم بن مخرمة عن أبي الأشعث الصنعاني ح وحدثنا الأشيبي فقال عن ابن عاصم عن أبي الأشعث عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة لم تقبل له صلاة تلك الليلة » وهذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة والمراد بذلك نظمه لا إنشاده والله أعلم ، على أن الشعر فيه ماهو مشروع وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام كحسان بن ثابت رضي الله عنه وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحة وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين ، ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ومنهم أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « آمن شعره وكفر قلبه » وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي صلى الله عليه وسلم مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت « هيه » يعني يستطعمه فبزيده من ذلك ، وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الحصيب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكمة » ولهذا قال (وما علمناه الشعر) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ما علمه الله الشعر (وما ينبغي له) أي وما يصلح له (إن هو ذكر وقرآن مبين) أي ما هذا الذي علمناه (إلا ذكر وقرآن مبين) أي بين واضح جلي لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى (لينذر من كان حياً) أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض كقوله (لننذركم به ومن بلغ) وقال جل وعلا (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وإنما ينتفع بذاكرته من هو حي القلب مستتير البصيرة كما قال قتادة حي القلب حي البصر وقال الضحاك يعني عاقلاً (ويحق القول على الكافرين) أي هو رحمة للمؤمنين وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم (فهم لها مالكون) قال قتادة مطيقون أي جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم بل لوجاء صغير إلى بعير لأناخه ولوشاء لأقامه وساقه وذلك دليل متقاد معه وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسلار الجميع بسير الصغير ، وقوله تعالى (فنهار كوابهم ومنها يأكولون) أي منها ما يركبون في الأسفار ويعملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار (ومنها يأكولون) إذا شاءوا ونحروا واجتزروا (ولهم فيها منافع) أي من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين (ومشارب) أي من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ونحو ذلك (أفلا يشكرون) أي أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحَضَّرُونَ * فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

يقول تعالى منكرآ على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتنصرهم إلى الله زلفى قال الله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها بل هي أضعف من

ذلك وأقل وأذل وأحق وأدحر بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء لأنها حماد لا تسمع ولا تعقل ، وقوله تبارك وتعالى (وهم لهم جند محضرون) قال مجاهد يعنى عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم وقال قتادة (لا يستطيعون نصرهم) يعنى الآلهة (وهم لهم جند محضرون) والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهى لا تسوق اليهم خيرا ولا تدفع عنهم شرا إنما هى أصنام وهكذا قال الحسن البصرى وهذا القول حسن وهو اختيار ابن جرير رحمه الله تعالى ، وقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) أى تكذيبهم لك وكفرهم بالله (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) أى نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزئهم وصفهم ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرا ولا صغيرا ولا كبيرا بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديما وحديثا

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُخْبِي الْعِظَمَ * وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُخْبِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُوقَدُونَ ﴾

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقاتدة جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر ريس (أولم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة) إلى آخره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا طلى بن الحسين بن الجنيد حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن العاصي بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أيحيى الله هذا بعد ما أرى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال ونزلت الآيات من آخر ريس ، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير فذكره ولم يذكر ابن عباس رضى الله عنهما وروى من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء عبد الله بن أبي بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم ، وهذا منكر لأن السورة مكية وعبد الله بن أبي ابن سلول إنما كان بالمدينة وطى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص بن وائل أو فيها فهى عامة في كل من أنكر البعث ، والألف واللام في قوله تعالى (أولم ير الإنسان) للجنس يعم كل منكر للبعث (أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء طى إعادة فان الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين فخلق من شئ حقير ضعيف مهين كما قال عز وجل (ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم) وقال تعالى (أننا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أى من نطفة من أخلاط متفرقة فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته كما قال الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو المعيرة حدثنا حريز حدثني عبد الرحمن بن ميسرة عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى بنى آدم أتى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وثيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأتى أوان الصدقة ؟ » ورواه ابن ماجه عن أنى بكر بن أنى شيبه عن يزيد بن هارون عن حريز بن عثمان به ولهذا قال تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم) أى استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ونسى نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعمل من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره

وجده ولهذا قال عز وجل (قل يحياها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت ، قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمير عن ربيع قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعته صلى الله عليه وسلم يقول « إن رجلا حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطباً كثيراً جزلاً ثم أوقدوا فيه نارا حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحنشت فخذوها فذوقوها فذروها فى اليم ففعلوا فجمعهم الله تعالى إليه ثم قال له لم فعلت ذلك ؟ قال من خشيتك فغفر الله عز وجل له » فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته صلى الله عليه وسلم يقول ذلك وكان نباشا ، وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بالفاظ كثيرة منها أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ثم يذروا نصفه فى البر ونصفه فى البحر فى يوم رائج أى كثير الهواء ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال له كن فإذا هو رجل قائم فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم ، فما تلافاه أن غفر له ، وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) أى الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرا نظرا ذا ثمر وينع ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار كذلك هو فعال لما يشاء قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة فى قوله (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) يقول الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر على أن يبعثه ، وقيل المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء وروى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وفى الثل : لسكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء فى كل شجر نار إلا العناب

﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسَبِّحْنَا الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا منها على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السائرة والثواب والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال عز وجل ههنا (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟) أى مثل البشر فيعبدونهم كما بدأنهم ، قاله ابن جرير ، وهذه الآية الكريمة كقوله عز وجل (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي بحلقهن بقادر على أن يعي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير) وقال تبارك وتعالى ههنا (بلى وهو الخلاق العليم *) إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (أى إنما يأمر بالشئ أمر واحد لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد

إذا ما أراد الله أمرا فإنما * يقول له كن قوله فيكون

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن نعيم حدثنا موسى بن السيب عن شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر رضى الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى يقول يا عبادى كلكم مذب إلا من عافيت فاستغفرونى أغفر لكم وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفل مأشاء ، عطائى كلام وعذابى كلام إذا أردت شيئا فأنما أقول له كن فيكون » . وقوله تعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) أى تنزيه وتقديس وتبرئة من سوء لاجى القيوم الذى بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله وله الخلق والأمر وإليه ترجع العباد يوم المعاد فيجازى كل عامل بعمله وهو العادل النعم المتفضل . ومعنى قوله سبحانه وتعالى (فسبحان

الذى بيده ملكوت كل شيء) كقوله عز وجل (قل من بيده ملكوت كل شيء ؟) وكقوله تعالى (تبارك الذى بيده الملك) فالملك والملكوت واحد فى المعنى كرحمة ورحموت ورهبة ورهبوت وجبر وجبروت ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد والملكوت هو عالم الأرواح والصحيح الأول وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم . قال الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا حماد عن عبد الملك بن عمير حدثني ابن عم لحذيفة عن حذيفة -وهو ابن اليمان- رضى الله عنه قال قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات وكان صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال مع الله لمن حمده - ثم قال - الحمد الذى ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة « وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى . وقد روى أبو داود والترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة مولى الأنصار عن رجل من بنى عباس عن حذيفة رضى الله عنه أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى من الليل وكان يقول « الله أكبر - ثلاثاً - ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه وكان يقول فى ركوعه « سبحان ربى العظيم » ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه وكان يقول فى قيامه « لربى الحمد » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه وكان يقول فى سجوده « سبحان ربى الأعلى » ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده وكان يقول « رب اغفر لى رب اغفر لى » فصلى أربع ركعات فقرأ فىهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام - شك شعبة - هذا لفظ أبي داود . وقال النسائى : أبو حمزة عندنا طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة كذا قال والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة كما تقدم فى رواية الإمام أحمد والله أعلم . وأما روايه صلة بن زفر عن حذيفة رضى الله عنه فأنها فى صحيح مسلم ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة . وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب حدثني معاوية بن صالح عن عمرو ابن قيس عن عاصم بن حميد عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه قال : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقام فقرأ سورة البقرة لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ قال ثم ركع بقدر قيامه يقول فى ركوعه « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال فى سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ثم قرأ سورة سورة ، ورواه الترمذى فى الشمائل والنسائى من حديث معاوية بن صالح به . آخر تفسير سورة يس والله الحمد والمنة

تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع ، وأوله سورة الصافات

Maktabah Siddiqia Arabia

20-7-116, TALUQUE MALLAD

Inside Fatho Darwaza,

HYDERABAD-2. A. P. (INDIA)

﴿ فهرس الجزء الثالث من تفسير ابن كثير ﴾

٢٠٣ (تفسير سورة الحج)	٤٠٦ نبأ سيدنا نوح مع قومه	٢ (تفسير سورة سبحان)
٢١٥ أذان سيدنا إبراهيم بالحج	٤٠٧ نبأ سيدنا إبراهيم عليه السلام	٢ قصة الاسراء والعراج
٦٢٤ دفاع الله عن المؤمنين	٤٢٢ (تفسير سورة الروم)	٢٤ إتياء سيدنا موسى عليه السلام
٢٣٧ (تفسير سورة المؤمنون)	٤٢٩ الآيات الدالة على قدرته عز وجل	التوراة، ٢٧ كتاب الأعمال
٢٤٠ بيان كيفية خلق الإنسان	٤٤١ (تفسير سورة لقمان)	٢٨ بعثة الرسل ٣٢ المترفين
٢٦٠ (تفسير سورة النور)	٤٤٤ وصية لقمان لابنه	٣٣ القرون الماضية بعد نوح
٢٦٥ ماجاء في اللعان، ٢٦٨ قصة الافك	٤٥٦ تفسير سورة السجدة	٣٣ هلاك من آثر الدنيا على الآخرة
٢٧٨ الأمر بالاستئذان	٤٥٨ صفات المؤمنين	٣٧ الأمر بالتوسط في الاتفاق
٢٨١ أمر المؤمنين بغض أبصارهم	٤٦٥ (تفسير سورة الأحزاب)	٥١ تكريم بني آدم
٢٨٢ أمر المؤمنات بغض أبصارهن	٤٦٧ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الخ	٦٠ السلام على الروح
٢٨٦ الأمر بكناح الأيادي المؤمنات	٤٦٩ أخذ العهد على الأنبياء	٦٢ لو اجتمع الإنس والجن على أن
٢٨٩ تفسير قوله تعالى : الله نور	٤٧٤ الأمر بالافتداء برسول الله صلى	يأتوا بمثل هذا القرآن لعجزوا
السموات والأرض	الله عليه وسلم	٦٦ إتياء موسى عليه السلام التسع آيات
٢٩٢ الأمر ببناء المساجد وتبليغها	٤٨٢ فضل أمهات المؤمنين	٧٠ (تفسير سورة الكهف)
٣٠٨ (تفسير سورة الفرقان)	٤٨٧ ما أعده الله للمؤمنين والمؤمنات	٧٢ قصة أصحاب الكهف
٣٢٤ صفات عباد الرحمن	٤٩٤ الأمر بالإكثار من ذكر الله	٨٢ قصة صاحب الجنتين
٣٣٠ (تفسير سورة الشعراء)	٥٠٣ آية الحجاب، ٥٠٦ الأمر بالصلاة	قصة سيدنا موسى مع الخضر
٣٣١ قصة سيدنا موسى مع فرعون	على النبي ﷺ	١٠٠ قصة ذي القرنين
٣٣٧ قصة سيدنا إبراهيم مع قومه	٥١٨ أمر المؤمنات بتطويل الثياب	١١٠ تفسير سورة مريم
٣٤٠ قصة سيدنا نوح مع قومه	٥٢٤ (تفسير سورة سبأ)	١١٠ قصة سيدنا زكريا عليه السلام
٣٤١ قصة سيدنا هود مع قومه	٥٢٧ تسخير الرج والجن لسيدنا سليمان	١١٤ قصة السيدة مريم
٣٤٤ قصة سيدنا لوط مع قومه	٥٣٠ قصة سبأ، ٥٣٨ إرسال النبي ﷺ	١٢٢ قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام
٣٤٥ قصة سيدنا شعيب مع قومه	إلى الناس كافة	١٢٤ قصة سيدنا موسى عليه السلام
٣٥٥ (تفسير سورة النمل)	٥٤٦ (تفسير سورة فاطر)	١٢٥ قصة سيدنا إسماعيل عليه السلام
٣٥٦ قصة سيدنا موسى مع فرعون	٥٤٦ مايفتح الله للناس من رحمة فلا	١٢٦ قصة سيدنا إدريس عليه السلام
٣٥٧ قصة سيدنا داود وسليمان	تمسك لها	١٣١ المرور على الصراط
٣٦٦ قصة سيدنا صالح مع قومه	٥٥١ السلام على قوله تعالى : يا أيها	١٤١ (تفسير سورة طه)
٣٧٤ قصة الدابة التي تخرج من الأرض	الناس أتم الفقراء إلى الله	١٤٣ قصة سيدنا موسى مع فرعون
٣٧٧ النفخ في الصور	٥٥٤ السلام على قوله تعالى : إن الدين	١٧٢ تفسير سورة الأنبياء
٣٧٩ (تفسير سورة القصص)	يتلون كتاب الله . . الخ	١٨١ قصة سيدنا إبراهيم مع قومه
٣٧٩ نبأ سيدنا موسى مع فرعون	٥٦٢ (تفسير سورة يس)	١٨٥ قصة سيدنا داود وسليمان
٣٩٨ قصة قارون	٥٦٦ أصحاب القرية	١٨٨ قصة سيدنا أيوب عليه السلام
٤٠٤ (تفسير سورة العنكبوت)	٥٨١ الدليل على البطلان	١٩١ قصة سيدنا يونس عليه السلام

